



دار المستقبل العربي

المسيح يصلب من جديد



حسين التوفيق

نيقوس كازانتزاكس

ترجمة: شوقي جلال



نيقوس كازانتزاكس

المسيح يطلب من جديد

ترجمة: شوقي جلال

مراجعة: د. نعيم عطية



دار المستقبل العربي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٩٨٢ - ١٤٠٢ هـ

المستقبل العربي للنشر والتوزيع

١٠ شارع سليمان باشا
الفرع من شارع ابراهيم اللقاني
دوكسى (مصر الجديدة) / القاهرة
جمهورية مصر العربية



تَصْدِير

نيقوس كازانتراكيس : كاتب ومفكر يوناني عصري ، وقمة شامخة بين كتاب الأدب العالمين اذ حقق شهرة منقطعة النظير كروائي . ولد في جزيرة كريت في الثامن من ديسمبر ١٨٨٥ ودرس القانون في جامعة أثينا ثم انتقل منها الى باريس حيث درس الفلسفة . وعاد بعدها الى أرض الوطن واعتزل عامين في دير للرهبان فوق جبل آتوس الذي يرد ذكره كثيرا في رواياته . وكان اعتزاله فترة تأمل عميق اهتزت معها كثير من أفكاره الموروثة وازدادت رؤاه وضوحا وشمولا . ثم خرج الى الحياة ليكتب ويبدع في غير عزلة وانطواء . كان غزير الانتاج في قوة وابداع ، مفتوح الفكر في حرية وحيوية . فقد قرأ كثيرا وخلف آثارا ودراسات عديدة متباينة . عاش حياة زاخرة بفكرها ، غنية بانتاجها : نشر مقالات في النقد والفلسفة وألف للمسرح التراجيدي ، ومن مسرحياته « تسيوس » و « عطيل يعود » و « المسيح وبوذا وبروميثيوس » . وكتب في الأسفار « رحلات بين ربوع الصين واليابان » . ونظم الشعر الغنائي والملحمي . ومن أشهر أعماله الشعرية ملحمة اسمها « الأوديسا » تتألف من ٣٣٣٣٣ شطرا ، وهي صورة ملحمية رائعة فذة للمسار الفكري لكازانتراكيس على طريق الحياة ، وقد حاكى في نظمها ملحمة هوميروس شاعر اليونان القديم وصاحب الاياذة والأوديسا . وعنى بترجمة روائع الكلاسيكيات الأوروبية الى اليونانية مثل « الكوميديا الالهية » لدانتى « و فاوست » لجيته و « هكذا تكلم زرادشت » لنيتشه . وتحول في مرحلة متقدمة من عمره الى كتابة

الرواية وأحرز شهرة عالمية • وتكشف رواياته عن قدرة إبداعية فذة ،
وتمكن في الأسلوب ، وتأمل عميق للحياة • ومن أهم رواياته « زوربا
اليوناني » و « المسيح يصلب من جديد » و « الاخوة الاعداء » و « الكابتن
ميخائيل » •

ويعد كازانتزاكيس علامة هامة في تاريخ الأدب اليوناني اذ يمثل
حلقة ضمن سلسلة متصلة من الأدباء اليونانيين - شعراء وروائيين - تمتد
عبر قرن من الزمان أو يزيد قليلا • وهذه هي مرحلة النهضة اليونانية
أو صحو اليونان في العصر الحديث حين شرعت تبحث عن ذاتها في ماضيها
وحاضرها وتصل بينهما في وشيجة قوية متينة يمتد أصلها الى أعماق تاريخ
اليونان أو الحضارة الهيلينية ابتغاء الحاضر والمستقبل بكل ما فيه من جدة
وحدائة • فقد كانت هذه المرحلة ملحمة جديدة في تاريخ اليونان عمل فيها
أدباؤها على خلق اليونان الجديدة لغة وأدبا حتى بلغوا شأوا بعيدا وأصبح
لليونان أدب يضارع الآداب العالمية •

لقد كانت اليونان قبل الاستعمار التركي وفي عصر الامبراطورية
البيزنطية تعاني من انفصال في لغتها ، بين اللغة المكتوبة والمنطوقة • وكان
لهذا الانفصال أثره على الحياة الأدبية اذ أدى الى اضمحلال النشاط الأدبي •
ثم جاء الاستعمار التركي فكاد يمحو كل ما بقي من آثار لهذا النشاط
وأصيب الأدب بحالة كساح ، وكان النفي مصير كل كاتب وأديب •
ولم يبق لليونان سوى بعض الأشعار الشعبية وأغاني الحب والموت • ومع
حركة التحرير بعثت الحركة الأدبية من مرقدتها ، وبدأت اليونان تبحث عن
طريقها • ومن ثم اتجه المشتغلون بالأدب اثر التحرير الى الغرب حيث
استحوذ على إعجابهم مشاهير الأدباء الغربيين آنذاك مثل والتر سكوت
والكسندر دوماس ، وأقبلوا على ترجمة روائع الأدب العالمي • ومن خلال
هذا التلاحم نما الأدب اليوناني الوليد واستوى على عوده ، واستطاع على
مدى قرن من الزمان أن يبدع شعرا ونثرا يضاهي الآداب الأوروبية
الرفيعة • وتسمى هذه المرحلة باسم مرحلة التعبير الوطني ، ذلك لأن
الحركة الأدبية كانت تطمح الى بناء الأمة الهيلينية والتغلب على آلام الماضي •
فلم يشأ كتاب هذه المرحلة التخلي عن ماضيهم التليد ولا اغفال الحاضر
لحساب الماضي • لقد رأوا أن للحاضر قيمته في ذاته ، وأن من الخير الربط
بين الماضي والحاضر في تراث متصل • وآمن هؤلاء بأن لكل عصر مشاكله
التي يعيها ويعيشها ، ومن ثم فعلى كل جيل أن يعمل على علاج مشاكل

عصره بكل ما تتوافر لديه في حاضره من امكانيات بدلا من الرجوع الى الوراء والهروب من الواقع . فقد كان أدب تلك المرحلة أدب مواجهة . . . مواجهة الحاضر بكل ما فيه من جديد ، وقبول للواقع ومشاكله وحلها وفقا لمقتضيات العصر . فهي نظرة لا تغفل الماضي ولكن ترى الحياة ديمومة تحمل الماضي في أحشائها ، بيد أنها تطور ارتقائي بحيث تتخذ مع كل عصر صورة وكيفية جديدة .

وهكذا بحث الأديب اليوناني المحدث عن صيغة جديدة تتفق مع احتياجات الفن والجمهور . لقد استجاب الأدب اليوناني الى التغييرات التي طرأت على الشكل في الأدب العالمي الحديث وخاصة في باريس ولكنه حافظ على الطابع القومي وعبر عن مثل وآمال الشعب اليوناني : ومن ثم كانت الحركة الأدبية بعثا ونهضة جديدة يواكب حركة التحرير ويكملها .

وظهرت مع بداية هذه الحقبة مدرستان للشعر والنثر . احدهما وهي الاولى نشأت في الجزر الايونية وسميت بالمدرسة الايونية (١٨٢٠-١٨٨٨) ورائدها الشاعر ديونيسيوس سولوموس . والمدرسة الثانية في أثينا (١٨٨٨ - ١٩٢٠) . واستطاع أدباء هذه المرحلة أن يجددوا اللغة اليونانية أو أن يلائموا بينها وبين العصر . إذ كانت اللغة اليونانية قد أصابها من الوهن ما أفقدها القدرة على مسايرة العصر فباتت مشكلة أو عائقا في طريق الابداع الأدبي يلزم تطويعها وتجديدها ، حتى أن سولوموس كان يقول : « لا يشغل بالي سوى الحرية واللغة » .

ولقد كانت النهضة الأدبية الأولى نهضة شعرية ، وهي النهضة التي بدأتها المدرسة الأيونية والتي كانت بمنأى عن السيطرة التركية . وعنى الشعر في تلك الفترة بالتعبير عن آلام الشعب اليوناني وبطولاته وآماله . وعالج أيضا مشاكل انسانية الطابع : الحرية والمصير والموت والطبيعة . ثم كان النثر من بعد الشعر ، على يد مدرسة أثينا . وعرف النثر انطلاقة كبرى ابان القرن العشرين . واستوحى الكتاب « جذورهم الحية » فاتخذوا من حضارتهم وتاريخهم أرضا لها ومنطلقا لاعادة صياغة اللغة . ولقد استطاعت الرواية والقصة القصيرة أن تخلق من لغة اليونان الجديدة لغة أدب . وعرفت هذه الحقبة ألكسندر باباديامنتيس (١٨٥١ - ١٩١١) وأندريا كاراكافيتساس (١٨٦٦-١٩٢٣) وقسطنطين ثيوتوكيس (١٨٧٢-١٩٢٣) . وغلب طابع الرعاية على كتاباتهم إذ كانت القرية مصدر الهامهم .

وعقب الحرب العالمية الأولى ظهر عدد من الكتاب الشبان ، وكان هؤلاء

رواد مرحلة التجديد التكنيكي . ومهد هؤلاء الطريق لجيل جاء من بعدهم حمل شعلة اليونان وواصل المسير ، وهو جيل كتاب مابعد ١٩٣٠ . وقدم هذا الجيل أدبا أكثر نضجا تجاوز الطابع المحلي الى العالمى . من هؤلاء سترافنيس ميريفليس ، ويورغوس نيوتوكاس . وأصبح هذا الجيل قدوة لكتاب ما بعد الحرب العالمية الثانية فى الشعر والنثر . ومن بين هذا الجيل الأخير نيقوس كازانتزاكيس الذى كشف فى رواياته عن رؤيا واسعة عميقة وقدرة خلاقة وتمكن فى الأسلوب ، اذ استطاع أن يطوع اللغزة اليونانية الجديدة ويخلق منها بمهارة وحنق أداة قوية للتعبير .

ونلمس فى كتاباته خطأ متصلا لتأثيرات متباينة ابتداء من الأساطير والعقائد الغيبية القديمة الى الافكار الواقعية فى أحدث صورها . ولقد استطاع كازانتزاكيس بقدرته الغذة وعبقريته أن يربط بين هذه المؤثرات المتباينة فى خيط واحد . ونلمس فى كتاباته أيضا مسحة من التشاؤم تبرز على السطح حتى تبلغ أحيانا درجة العدمية ويصبح الوجود عبثا وباطلا . وهو أيضا انساني النزعة بالمعنى التاريخي والفلسفي لهذه العبارة . فقد عنى بربط فكره بالتراث اليونانى وأصبح التراث القديم على يديه تجربة حية ومعاناة . كما كان الانسان ، أو الوجود الذاتى الأصيل له ، هو محور أفكاره . فالانسان هو القوة الفاعلة النشطة ، وهو الوجود الحق القادر بفضل وعيه على مواجهة المشاكل التى يفرضها عليه الوجود الخارجى والذاتى .

لقد عبر كازانتزاكيس عن انسان العصر بما يعتمل فى داخله من قلق وصراع وطموح وفشل وخير وشر ، كما عبر عن الانسان بما له من تاريخ طويل وحضارات متعاقبة نرى فيه القديم والجديد والصراع بينهما . نراه حريصا على أن يربط بين الجديد والقديم ، ويستخرج للجديد قيما راسخة غير مبتورة الأصل بل موصولة التاريخ ، فهو كاتب يتحرك من خلال التراث ويعبر عن الجديد بمشاكله العصرية . هو يونانى ، فشخصياته يونانية فى طابعها وسماتها وأخلاقياتها ، وهو عالمى فى معالجته لشخصياته والقضايا التى يطرحها فى أعماله الأدبية . ان أدبه عالمى ومحلى فى آن ، فيه من العمق والشمول والأصالة ما يربط بين الماضى والحاضر ، والمحلى والعالمى . انه تجربة انسانية بمعناها العميق الشامل بحيث يرى فيه الانسان المعاصر ، أيا كان منبته ، انعكاسا لنفسه القلقة ولأوضاعه ، فكانما عملة الأدبى بؤرة ضوء تتجمع فيها شعاعات الشمس على مدى واسع النطاق يضم الكون كله لتتمركز فى نقطة واحدة .

ورواية « المسيح يصلب من جديد » رواية من نوع القصص
السيكلولوجية الاجتماعية ، وهى عمل فنى فذ ، سطرها قلم راسخ متمكن ،
فيها رقة فنية ، وقوة حيوية نشطة ، ولمسة شعرية فى صوغها وتصويرها
المرهف لآلام المسيح ، وهى صورة ملحمية لصراع الانسان على طول
التاريخ من أجل حياة أسسمى ، وهى أمل انساني قوى عارم يعتمل فى
صدر كل انسان ، ولكن .. وهنا تتجلى مسحة التشاؤم اذ يختمها
كازانتزاكيس بقوله : « لا جدوى يا يسوع » فيصير الأمل سرايبا . كأنما
نقبض الريح . ولكنه لا يترك الانسان يتردى فى وهدة اليأس المطبق
الأسود القاتل ، بل ثمة أمل على البعد ، قد يكون عسيرا بعيد المنال ولكنه
قائم على أية حال ، وعلى الانسان أن يسعى أو على قوى الخير أن تتضافر
ابتغاء هزيمة قوى الشر المتمكنة . الصليب عبء الحياة الذى يثقل كاهل
الانسان ، يحمله ويرتقى الجبل الوعر سعيا وراء الخلاص ، انه صخرة
سيزيف ، والصليب انتصار قوى الشر ، وقيام المسيح هو الأمل .. قد
يكون بعيدا ودونه أهوال ولكنه قائم ، وعلى المرء أن يحمل صليبه على كتفه ،
أن يعانى ويناضل ، ويتخذ الطريق الوعر ، الطريق الصاعد حيث يكون
الخلاص . ولا خلاص بغير نضال ، نضال الانسان الحر المتمرد ، حر ازاء
نفسه وازاء الوجود ، متمرد على نفسه وعلى الوجود رغم العدم .

وكازانتزاكيس رغم اتجاهه التشاؤمي العدمي الا أن كتاباته كلها
دعوة الى الحياة ، أن ننهل منها ونقضى وطرنا ، فالحياة لنا ، ومن أجلها
نعيش ونناضل . ويجب ألا ينصرف ذهننا هنا الى متع الحياة بمعناها
السادج . انه حقا واقعى يؤمن بشهوات الحياة ويقرها ، ولكن الجمال والحب
أسماهما جميعا وأرفعهما قدرا . فهكذا كان زوربا الذى عاش حياة
الواقع ، أقدامه على الأرض ، حياته تجربة حية متجددة ، وحين حضره
الموت خطا نحو النافذة وفتح مصراعها ، وبسط ذراعيه كأنما يستقبل
الوجود بين أحضانه ، وأطل بعينين نهمتين الى جمال الطبيعة يرنو الى الأفق
البعيد يتمتع ناظريه .. ولكن الى الشمس الغاربة التى خضبت الأفق
بحمرة الشفق . وكذلك كان الكابتن فورتوناس فى « المسيح يصلب من
جديد » حين استرجع حياته وهو على فراش الموت ، فلم تع ذاكرته سوى
رفاق الأنس فى روضة يانعة حيث الأزهار الجميلة العطرة الأريج ، والحان
الماندولين ، والسماء الصافية الأديم . وكان كازانتزاكيس يعزف على نفس
القيثارة التى عزف عليها ديونيسيوس سولوموس رائد النهضة الأدبية
الهيلينية الحديثة :

» الطبيعة سحر وحلم جمال ودلال ،

تنبجس من ألف نبع ، وتنادى بألف صوت ،

حتى تستقر في نفس الانسان

ان من يموت اليوم فكأنما مات ألف مرة ،

فالحياة عند كازانتزاكيس ظفر بالموت ، وانتصار على اليأس ونضال

مستمر ، وبهجة تراجيدية . اننا نقف على شفا هاوية سحيقة هي العدم

ويكاد اليأس يمسك بنا ويموت الأمل . وقد لا يجد المرء سبيلا الى

الخلاص فيتردى في هاوية العدم . ولكن الخلاص في رأى كازانتزاكيس

أمل قائم فيما وراء اليأس ، والنضال سبيلنا الى التعالى أو تجاوز هذه

الهوة السحيقة . والحب والعمل عدة النضال وزادنا في مسيرة الحياة ،

وسبيلنا الى الانتصار على اليأس . والحب والعمل لا يكونان الا للانسان

الحر الذى يختار حياته بكل معنى الاختيار الذى يرقى الى مستوى الخلق .

الانسان الحر الذى يجرب حياته فى كل لحظة من لحظاتها ولا يقنع بأفكار

مسبقة موروثه أو قوالب محفوظة ، وانما تكون حياته معايشة فعالة

نشطة خالقة : يرفض ويقبل ، يهدم ويبنى ، والعزم والاصرار يملآن

جوانحه ، وقدماه ثابتتان على الأرض ، غير محلق فى أجواء الخيالات

والأوهام ، أو أسير قوالب فكرية جامدة سواء كانت تنتمى الى الحاضر

أم الماضى . يقول كازانتزاكيس فى رواية المسيح يصلب من جديد على

لسان ياناكوس « . . هكذا يكون الانسان . . كائن حتى يتكلم ويعترض

ويسائل » . فعلى هذا النحو يحقق الانسان ذاته أو يمنحها الوجود الحق . اننا

نفرض ذواتنا على الحياة ، أو هكذا ينبغى أن يكون الانسان . وهكذا كان

القسيس فوتيس فى « المسيح يصلب من جديد » وهو نموذج الانسان ،

ومسيرته هي مسيرة الانسان على طريق الحياة : معاناة وجلد وتحرق وحب

وعمل . يقول القسيس فوتيس « الحياة يا الهى عبء ثقيل ، ولولاك

لامسك كل منا بيد الآخر ، رجلا ونساء ، وذهبنا لنلقى بانفسنا فى هوة

سحيقة ليس لها من قرائر لتخلص من الحياة . ولكنك موجود ، فأنت

الفرحة والعزاء » . ويقول لقومه بعد أن حلت بهم النوائب تطعنهم « العمل

والصبر والحب . . تلکم هي أسلحتنا . » تحررت الروح من البطون

المتخمة وهي الآن قادرة على الطيران » . « ان من يملك أرضا وأشجارا

تصبح الأرض والأشجار هي ذاته ، وتفقد روحه صفتها القدسية » . ويسأله

مانولى : « يا أبانا ، ترى هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت؟ »

فيجيب عليه قائلا: « نعم تستحق ، وتستحق الكثير . . ولو وضعنا أيدينا

الى جنوبنا دون أن نبدي حراكا فاننا تلقى بأنفسنا الى التهلكة ، هلاك على الأرض ، وهلاك فى السماء ، ٠٠ وهكذا فالحياة أمل عبر اليأس ، ونضال حر على شفا العدم الذى يسرى بين أوصال الوجود حتى يكاد يصدعه ، واختيار قلق وخالق ، وبهجة مأساوية ، لادعة وسكينة واستسلاما ، الحياة قلب عاشق للجمال يذوب حيننا ، وابتسامه صافية لنفس نقية أسقطت عن كاهلها أهواءها وشواغلها الدنية .

عاش كازانتزاكيس حياته لليونان يملا قلبه حبها ٠٠ حب اليونان شعبا وتاريخا وتراثا مجيدا ٠ عاش للانسان : للحب وللحياة وللطبيعة والجمال حتى وافته منيته يوم ١٨ من أكتوبر ١٩٥٧ ٠ مات وبقيت آثاره منارة وضياء فى عالم الأدب والفكر تخاطب أعماقنا وتعزف على وتر الوجود الانسانى المشدود فوق حافة العدم .

وبعد ، فتوخياً منا أن نقدم هذه الرواية فى أكمل صورة وأصدقها فقد رأيت ألا أقتصر فى نقلها الى العربية على الترجمة الانجليزية وحدها ، بل آثرت أن أراجعها على الترجمة الفرنسية أيضا ضمانا للدقة ورغبة فى أن تكون أقرب الى التطابق مع النسخة الأصلية فى لغتها اليونانية التى لا أعرفها . ويجدر بى هنا أن أنوه الى ما لاحظته من اختلاف بين الترجمتين الانجليزية والفرنسية . فقد تبين أن كلا من الترجمتين أسقطت حيننا بعض جمل أو فقرات تصل حيننا الى صفحة كاملة فى بعض المواضع ، ولكنها قليلة جدا فى الترجمة الفرنسية ، ومسرقة الى حد ما فى الترجمة الانجليزية . وانى اذ أقدم هذه الترجمة أمل أن أكون قد وفقت فى نقلها بصورة أقرب الى الصدق والكمال .

شوقى جلال



الْبَحْثُ عَنْ يَهُودَا

جلس أغا ليكوفريس في شرفته المطلّة على ميدان القرية ، يدخن النارجيلة ، ويحتسى العرقى ، والرذاذ الدافئ يتساقط في حنو . وقد علقت بشاربه الكث قطرات من العرقى ، لمعت فوق صبغته السوداء الفاحمة . وكان العرقى قد أشاع الدفء في جسد الأغا ، فأخذ يلحق شاربه بلسانه مستمتعا ببرودته . وعن يمينه وقف حسين ، تابعه وحارسه الخاص ، ممسكا في يده بوقا ؛ وهو عملاق شرقى ، خبيث كالقردة ، وفي عينيه حول . وعن يسار الأغا تربع على حشية مكسوة بالقطيفة غلام تركى وسيم في خديه غمازتان ، يمد يده بين الحين والحين ليشعل النارجيلة أو ليملا كأس العرقى .

أغمض الأغا عينيه الثقلتين نصف اغماضة ، مستشعرا لذة الحياة في هذا العالم الممتد تحت قدميه . وجال في نفسه خاطر يقول : « صنع الله كل شيء فأبدع صنعه ، وإن الدنيا لفي غاية التمام والكمال . هل أنت جوعان ؟ هاك الخبز واللحم المقروم بالصلصلة وطاجن الأرز بالقرفة . هل أنت عطشان ؟ هاك العرقى ، اكسير الشباب . هل بك رغبة الى النوم ؟ الله خلق النوم ، وليس كمثلته شيء حين يقالبك النعاس . وإذا كنت غاضبا فقد خلق الله السوط وأعجاز الرعايا . وإذا أصابك اكتئاب ، فقد خلق لك أغاني آمان ، آمان . فإذا شئت بعد ذلك أن تنسى أحزان هذه الدنيا وهمومها فقد خلق لك الله يوسوفاكى ، »

وتتمم الأغا فى انفعال : « الله فنان مبدع ! نعم ، فنان مبدع حقا ، يعرف أسرار صنعته ، وخياله عبقرى أيضا ، والا فكيف بحق الشيطان واتته - جلت حكمته - فكرة خلق العرقى ويوسوفاكى ؟ »

واغرورقت عينا الأغا بالدموع ، كان قد شرب كثيرا من العرقى حتى غابت نفسه فى خشوع رقيق . وأطل من شرفته يرقب رعاياه وهم يتجولون فى الميدان ، حليقى الذقون ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم . فسراويلهم بيضاء مفسولة فى العشية ، تلتف حولها أحزمة حمراء عريضة ، وأحذيتهم ذات رقاب طويلة زرقاء . كان بعضهم يضع على رأسه طربوشا ، والبعض الآخر عمامة ، وآخرون يضعون قلانس من فرو الحراف . وكان أكثرهم أناقة يضع خلف أذنه عود ريحان أو سيجارة .

كان ذلك فى عيد القيامة ، يوم الثلاثاء الكبير ، بعد لحظات من انتهاء القداس . الطقس جميل رقيق ، وشمس الربيع ساطعة ، والمطر رذاذ ، وقد تصوع الجو بعبط أزهار الليمون ، وبرزت البراعم من فروع الشجر ، وعادت الحضرة الى أعشاب الأرض ، كان المسيح يقوم فى كل حفنة من التراب ، والمسيحيون يروحون ويجيئون عبر الميدان ، يتعانقون ويتبادلون تحية عيد القيامة : « المسيح قام » « بالحقيقة قام ! » ثم يذهبون الى مقهى قسطندى ، أو يجلسون وسط الميدان تحت شجرة السنار الكبيرة ، وهناك يطلبون النارجيلة والقهوة ، وسرعان ما يبدأون ثرثرة لا تنتهى ، تنتشر بينهم مثل رذاذ المطر .

وقال خرا الامبوس خادم الكنيسة : « هكذا سيكون الفردوس : شمس حانية ، ومطر رقيق هادى وزهور متفتحة فى أشجار الليمون ، ونارجيلات وأحاديث ذات شجون الى أبد الأبدى » .

ورأى الأغا فى الطرف الآخر من الميدان ، خلف شجرة السنار ، كنيسة القرية التى أعيد طلاؤها بالجير الأبيض ، وفى طرفها يرتفع برج الجرس فى رشاقة . اليوم عيد الصليب ، وبوابة الكنيسة يغطيها بهذه المناسبة سعف النخيل وفروع الغار . وحول الكنيسة تكثر الدكاكين الصغيرة والحوانيت . ومن بينها دكان بانايوتى السروجى ، هذا الجلف الغليظ الذى اشتهر باسم «آكل الجبس» : فقد أحضروا فى القرية ذات يوم تمثالا نصفيا من الجبس لنابليون فأكله . وأحضروا مرة أخرى تمثالا لكمال باشا ، فأكله أيضا . وأخيرا أحضروا تمثالا للزعيم الكرىتى فينزيلوس فأكله بدوره .

أما الدكان المجاور فهو دكان أندونيس الحلاق ، يحمل اسمه ، وعلى بابه لافتة كتب عليها بحروف كبيرة حمراء فاقعة : « هنا نخلع الأسنان أيضا » .

وبعد ذلك يوجد محل جزارة ديمترى الأعرج ، وعليه لافتة تقول : « بناء على طلب هيروديا من هيرودس نقدم رعوس عجول طازجة » ، وفي كل سبت يذبح ديمترى عجلا ، بعد أن يطلّي قرونه بلون الذهب ، ويصيح جبهته ، ويعقد حول رقبتة شرائط حمراء ، ثم يسوقه عبر حواري القرية وهو يعرج ويتغنى بمزاياه .

وعند آخر الدكاكين توجد مقهى قسطندى الشهيرة ، وهى عبارة عن صالة ضيقة طويلة رطبة ، معبقة برائحة القهوة والطباق دائما ، وبرائحة مشروب السحلب شتاء . وعلى جدران المقهى ثلاث صور معبرة مرسومة على الورق المقوى هى مفخرة القرية كلها . على اليسار صورة القديسة جنيقيف ، نصف عارية وسط غابة استوائية ، وعلى اليمين صورة فخمة للملكة فيكتوريا بعينيها الزرقاوين وصدرها الممتلئ كصدر المروضات ، وفى الوسط تماما صورة كمال باشا بوجه قاسى الملامح وعينين عسليتين ثاقبتين ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة من الفرو .

ان كل أبناء القرية رجال أنقياء مجدودن فى أعمالهم ، وآباء طيبون . وأغا القرية أيضا رجل نقى خصوصا فى حبه للعرقى والعطور النفاذة - كالمسك والبتشول - وفى حبه لعلامه الجميل الجالس الى يساره على الحشية المكسوة بالقطيفة .

ان الأغا يشعر بالمتعة وهو يحملق فى المسيحيين كالراعى عندما يحملق فى قطيعه ، فتغمزه النشوة .

وحدثته نفسه :

- انهم ناس ممتازون . لقد ملأوا مخزنى هذا العام أيضا بهدايا عيد القيامة : جبن ، وفطير بالسوسم ، وكعك ، وبيض أحمر ٠٠٠٠ . وأحضر أحدهم - حفظه الله وأبقاه - صندوقا من لبنان خيوس هدية لعلامى يوسوفاكى ، يمضغه فيعطر فمه الصغير ٠٠٠٠ .

وشعر الأغا بالسعادة . وسرحت خواطره الى مخزنه الممتلئ بأطياب الأشياء ، بينما يتساقط المطر خفيفا ، وتصيح الديكة ، ويقبع الى جانبه يوسوفاكى عند قدميه ، يمضغ اللبانة ، ويطرق بلسانه فى لذة .

وفجأة شعر الأغا أن قلبه يفيض نشوة • ومال بعنقه ليغنى مقطعا
من أغاني آمان ، لكن المحاولة كانت أصعب مما يستطيع • فالتفت الى
حارسه الخاص حسين وأشار اليه أن يطلق البوق ليسكت الرعية • ثم
استدار نحو يوسوفاكي على يساره قائلا :

« يوسوفاكي ، غن لي شيئا ، باركك الله • غن لي دنيا تاير ،
روياتاير ، آمان آمان ، غن لي والا زهقت روعي » •

تمهل الغلام الجميل وهو يسحب اللبانة من فمه ويلصقها على ركبتة
العارية ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى يغنى للأغا أغنيته المفضلة :
« الدنيا والحلم شيء واحد ، آمان ، آمان » •

أخذ صوت الغلام الذي يشبه صوت الناي يعلو ويهبط في هديل
كهديل الحمام • وأغمض الأغا عينيه مسلوب اللب ، وهو يسمع غناء
الغلام ، حتى لقد نسي الشراب •

ونظر قسطندي ناحية الأغا ، وقال هامسا وهو يقدم القهوة : « هذا
يوم من أيامه الجميلة • بارك الله في العرقى ! » وأضاف ياناكوس بابتسامة
سعيدة : « بل بارك الله في يوسوفاكي ! » • • وياناكوس هذا بائع متجول
وطواف ينقل الرسائل ، له لحية شهباء قصيرة كثنة ، وعينا طائر جارح •

وغمغم حاجي نيكولا شقيق القسيس :

– « بل لعنة الله على القدر الأعمى الذي جعله آغا وجعلنا رعايا » •

ان حاجي نيكولا ناظر مدرسة القرية وهو رجل جاف العود يضع على
عينيه نظارة ، وتبرز في عنقه تفاحة آدم كبيرة. مدينة تعلو وتهبط عندما
يتكلم •

لقد اشتعل حماسه عندما عادته ذكريات أجداده الغابرين ، فننهذ
وعاد يقول :

– « أتى حين من الدهر كان فيه أبناء شعبنا الاغريق سادة هذه
الاراضي • ثم دارت هذه العجلة وجاء أهل بيزنطة ، وهم أيضا اغريق
ومسيحيون • • ثم دارت العجلة مرة أخرى وأتى أبناء هاجر • • ولكن
المسيح قام من جديد أيها الأصدقاء ، وبلادنا ستقوم أيضا • هيا يا قسطندي
قدم لنا الشراب مرة أخرى » •

وانتهى الغناء فأعاد الغلام الجميل اللبانة الى فمه وأخذ يلوكها ثم
غاب في النعاس مرة أخرى • وانطلق البوق ثانية : « الآن تستطيع الرعية
أن تعود الى الضحك والصياح في حرية » •

وظهر على باب المقهى كابتن فورتوناس ، انه واحد من الاعضاء الخمسة فى مجلس شيوخ القرية : طويل القامة ، ضخم الجثة ، وكان فيما مضى يملك مركبا قطع به كل أرجاء البحر الاسود خلال سنوات طويلة يحمل القمح الروسى ، ولا يتورع عن التهريب . وللكابتن وجه أمرد وبشرة زيتونية وجلد مدبوغ وتجاعيد غائرة وعينان ضيقتان براقتان فاحمنا السواد . لقد تقدمت به السن ، وكذلك هرم مركبه . وفى أحد الليالى تحطم المركب على صخور الشاطئء بالقرب من اسطنبول . ومع حطام مركبه تحطمت آماله فعاد يانسأ الى قريته ، وقد صمم على أن يعب من العرقى قدر ما يستطيع ، حتى تأتى ساعته فيدير رأسه الى الحائط ويلفظ آخر أنفاسه . شاهدت عيناه الكثير ، وحسبه ما أصابه من الدنيا . لا ، فالحق أنه لم يصب كفايته ، ولكن التعب أضناه وان كان الخجل يمنعه من الاعتراف .

فى ذلك اليوم انتعل القبطان حذاءه ذا الرقبة ، ولف حول وسطه الحزام الأصفر ، ووضع على رأسه قلنسوة الأعيان المصنوعة من فرو الاستراكان الأصلى وأسك بيده عصا كبيرا كعادة شيوخ القرية ، ونهض بعض أبناء القرية واقفين فى احترام يدعونه لتناول كأس من العرقى .

فأجاب :

— ليس عندى وقت يا أبنائى حتى للعرقى . المسيح قام . وأنا ذاهب الى منزل القسيس فهناك سنعقد اجتماعا لأعيان القرية . وهؤلاء الذين وجهت اليهم الدعوة يجب أن يحضروا الى هناك أيضا فى أقل من ساعة . هيا ارسموا علامة الصليب وتعالوا . لا شك أنكم تعرفون ما هو عملنا اليوم . آه ! ليذهب أحدكم ويحضر بانايوتى السروجى ذا اللحية الشيطانية فنحن فى أشد الحاجة اليه .

وصمت لحظة ، وغمز بعينه فى خبث قائلا :

— اذا لم يكن فى بيته ، سيكون عند الأرملة .

فانفجروا جميعا ضاحكين .

ورد عليهم كريستوفيس المكارى العجوز ، الذى تعلم فى شبابه معنى الهوى ، ودفع من أجله ثمنا غاليا . صاح فى حدة :

— ماذا يضحككم يا أصحاب العقول الصغيرة ؟ بانايوتى على حق . افعل أيها الملعون ما يحلو لك ولا تنصت لأحد ! الحياة قصيرة والموت طويل فامض فى سبيلك يا ولدى .

وهز ديمترى الجزار البدين ، رأسه الحليق قائلا :

– ليحفظ الله أزملتنا كاترينا : يعلم الشيطان كيف أنقذت رهوسنا
من القرون ! •

قال الكابتن فورتوناس ضاحكا :

– هيا يا أولاد لا تختلفوا ! فكل قرية لا بد لها من امرأة شاذة تحمي
حرائر النساء من ازعاج الرجال • انها أشبه بالنبع على قارعة الطريق يرده
الظماء فيروون ظمأهم • ولولا ذلك لقصدوا أبواب بيوتنا جميعا يدقونها
بايا بعد آخر • وعندما يطلب الماء من النساء •••••

والتفت فلمح ناظر المدرسة :

– أما تزال هنا يا حاجى نيكولا ؟ ألسنت مدعوا لاجتماع مجلس
الأعيان ؟ حتى المقهى حولتها الى مدرسة ؟ كفى دروسا وتعال معى •

وهنا غمز كريستوفيس بعينه للصحاب وسأل :

– ألا تريدنى أن أحضر أيضا ؟ أستطيع أن أقوم بدور يهوذا •

ولكن الكابتن فورتوناس كان قد مضى يصعد الطريق المنحدر متكئا
بكل ثقله على عصاه • لم يكن فى ذلك اليوم حسن المظهر ، فقد عادت آلام
الروماتيزم تعتصر جسده ، ولم يغمض له جفن طوال الليل • وفى الصباح
الباكر عب بعض الزجاجات الكبيرة من العرقى علاجا لآلامه ، لكن الألم
لم يزيله لحظة ينعم فيها بالسكينة ، وحتى العرقى لم يستطع أن يؤثر فيه •
وقال يحدث نفسه :

– لولا الخجل لانفجرت صارخا • ربما كان فى هذا ما يخفف بعض
الآلمى ، ولكن هذا الشيء اللعين الذى يسمى احترام النفس يمنعنى ، اذ يجب
أن أمشى امام الناس بادی البشاشة • واذا سقطت العصا من يدى يجب
أن أنحنى بنفسى لالتقطها ولا أسمح لأحد أن يساعدى فى ذلك ••• هيا
يا كابتن فورتوناس • عض على شفتيك بشدة ! انشر شرارك يا فتى ، وامخر
عباب الموج ! ولا تفعل ما يملؤك بالخجل • فما الحياة والله الا زوبعة وتمر !

وغمغم الكابتن وهو يسب ويلعن • كان يصعد الطريق وهو يترنج
من جانب الى آخر • وتوقف لحظة وجال بنظره فيما حوله • لم يكن هناك
من يراه • وتنهى بصوت مرتفع ، فخفف هذا من ألمه • ورفع بصره الى
الجانب المرتفع فى طرف القرية فلمح بين الأشجار بيتا أبيض ذا نوافذ

زرقاء هو بيت القسيس • وغمغم الكابتن وهو يستأنف طريق الصعود •
- أى فكرة خطرت لهذا القسيس الشيطان عندما بنى منزله هناك
بأعلى التل ؟ لتنزل لعنته على رأسى ! •

* * *

كان اثنان من الأعيان قد وصلا قبل الكابتن الى منزل القسيس ،
وتربعا على الأريكة الكبيرة ، ينتظران فى صمت تقديم تحية الضيافة
المعتادة • وذهب القسيس الى المطبخ يعطى أوامره لابنته الوحيدة ماريورى ،
وهناك كانت الفتاة تضع على الصينية الاكواب والماء البارد والمربى •

وفى مكان الصدارة تربح الى جانب النافذة كبير شيوخ قرية
ليكوفريس وعمدتها • انه جورج بطرياركاس : رجل مهيب المنظر ، ضخم
الجثة • يلبس سروالا من التيل الفاخر ، وصدارا موشى بالذهب ، وحول
خنصره خاتم ذهبى كبير يستخدمه أيضا كخاتم خاص يحمل الحرفين
الأولين من اسمه : ج • ب • يدها سمينتان بضتان مثل يدي الأسقف ، فهو
لم يعمل بهما شيئا طوال حياته لأن لديه رهطا كاملا من الخدم والحشم
يكدون فى خدمته • وهو مترهل الجسد ، ضخم الأرداف عريضها ، متهدل
الكرش وله لحية تنزل على ثلاث طبقات لتصل الى صدره المكتنز ذى الشعر
الكثيف ، لقد سقطت من ثناياه سنتان أو ثلاثة ، وهذا هو العيب الوحيد
فى هذه اللوحة الرائعة • ولهذا كان يثلغ فى كلامه ويتهته • ولكن حتى
هذا العيب كان يزيد من مهابته ، اذ كان يرغب مستمعه مهما كان أن ينحنى
نحوه لكى يتبين كلامه •

وفى أحد أركان الحجر على يمينه كان لاداس العجوز ، يجلس
منكمشا على نفسه فى مذلة وخنوع • هزيل الجسم ، قدر المظهر ، ناتئ
عظام الوجه ، أعشى العينين ، له يدان ضخمتان يغطيها جلد ميت • ولاداس
هذا هو أغنى أهل القرية ، قضى سبعين عاما منكبا على الأرض ، يفلحها :
يبذر ويحصد ، يزرع فيها أشجار الزيتون والسكرم ، يعتصرها ويمتص
دمها • لم ينفص عن نفسه ترايبها ولو مرة واحدة منذ كان صبيا • انكب
عليها بنهم لا يشبع ، يريد أن يأخذ منها ألف ضعف لما يقدمه لها ، دون
أن يقول أبدا « شكرا لله ! » بل هو دائما ساخط متذمر • والآن وقد
تقدمت به السن لم تعد الأرض تكفيه ، كان يشعر باقتراب أجله ، فيندفع
فى لهفة ليبتلع القرية كلها قبل أن تاتى ساعته • لهذا اشتغل باقراض
النقود بالربا الفاحش لأهل القرية • وكان هؤلاء الذين يخونهم الحظ
يرهنون لديه كرومهم وحقولهم وبيوتهم ، فاذا حل موعد السداد ولم يجدوا

معهم ما يوفون به ديونهم يبيع ممتلكاتهم بالمزاد ، ويبتلع لاداس العجوز كل شيء .

ومع ذلك تراه دائما يئن بالشكوى ، وهو لا يأكل من الطعام مايسد رمقه ، وزوجته بنيلوب تسير حافية القدمين . وحتى البنت الوحيدة التي أنجبها بعد سنوات طويلة تركها تموت لأنه رفض أن يستدعى لها طبيبا يوم غلبها المرض . كان يقول في ذلك الوقت :

– المدن الكبيرة نائية ، والتكاليف باهظة ! فكيف أستطيع أن أحضر لها طبيبا ؟ فليذهب الاطباء الى الشيطان ! عندنا هنا القسيس ، وهو يعرف الأدوية القديمة ، ولن أدفع له على الاكثر سوى ثمن المرهم . ومع ذلك سوف تشفى ابنتي ، ولن يكلفني ذلك كثيرا .

ولكن الأدوية المخلوطة التي قدمها القسيس لم تجد فتىلا ، والزيوت المقدسة لم تفعل شيئا ، وماتت الصبية في السابعة عشرة وبذلك أفلتت من أبيها . أما هو فقد استطاع أن يفلت أيضا من تكاليف زواجها . وفي أحد الايام ، بعد عدة شهور من وفاة ابنته ، بدأ يقدر هذه التكاليف :

« مهر : كذا وكذا تقريبا ، ثياب الزفاف والموائد والمقاعد تكلفني كذا . ثم لا بد من دعوة الاقارب يوم الزفاف ، ويجب أن أقدم لهم قائمة طعام تملأ بطونهم الشرهة ، ولنحسب مثلا اللحم والخبز والنبيد : كذا . وحسب حاصل الجمع فكان رقما كبيرا : فابنته كانت ستفقد كل مايملك ، ثم ما وجه الخطورة في أن تموت ؟ فكل نفس ذائقة الموت . . فضلا عن ذلك فقد تخلصت من هموم الدنيا : الزوج والاطفال والامراض وأعمال البيت . . في الحقيقة أنها كانت محظوظة ، ليتغمدها الله برحمته .

دخلت ماريوري تحمل الصينية وحيث الاعيان . وعندما وقفت امام عمدة القرية خفضت عينيها . كانت شاحبة الوجه ، ذات عينين واسمتين وحاجبين مرسومين بدقة ، تجدل شعرها الكستنائي في ضفيرتين طويلتين تلتفان كالتاج حول رأسها . وتناول العمدة الشيخ ملعقة ممتلئة من مربى الكريز ، ورفع الكوب الى فمه وهو ينظر الى الفتاة قائلا :

– نخب زفافكما يا صغيرتي ماريوري ! ابني لم يعد يطيق صبرا .

فابنة القسيس هي خطيبة ابنه الوحيد ميشيل . وكان القسيس يفخر بهذا القران ويحلم بأن يحصل منه في أقرب وقت على أحفاد صفار .

وأضاف الشيخ ضاحكا وهو يغمز بعينه امام الفتاة :

— أستطيع الآن أن أفهم لماذا يفقد هذا الجرو الصغير صبره ؟ يقول
انه لم يعد يحتمل

• واحمر وجه الفتاة حتى لذيئها ، وانعقد لسانها فلم تحر جوابا .
• ودخل الأب جريجوريس بزجاجة نبيذ من نوع المسكات وهو يقول :
— أدام الله علينا الفرح ! ليباركهما المسيح والعذراء البتول !

والقسيس رجل خشن المظهر ، ممتلئ الجسم موفور الصحة له لحية
شديدة البياض ذات شعبتين . وكانت تقوح منه رائحة البخور . لاحظ
القسيس ارتباك ابنته فقال متسائلا ليغير موضوع الحديث :

— متى باذن الله ستزوج ابنتك بالتبني لينيو ؟

• ولينيو هذه ابنة غير شرعية من كثيرات أنجبهن الشيخ من خادماته .
• وكان قد خطبها الى راعيه المخلص الوديع مانولى . ومهرها مهرًا سخيا :
• قطيعا من الخراف يرعاه مانولى على جبل العذراء المواجه للقريّة .

وأجاب :

— قريبا جدا باذن الله . لينيو متعجلة . أراها متلهفة ، هذه الفتاة
المحظوظة . وأحسب أن تديبها امتلا وأصبحا بحاجة الى طفل يرضعها .
• منذ أيام قالت لي اقترب شهر مايو ياسيدى وأزف الوقت .
• وانطلق الشيخ يقهقه من قلبه ، ولحيته الكثيفة المثلثة تهتز .
• وعاد يقول :

— الحير هي التي تتزوج فى شهر مايو . ولينيو على حق فى قولها
ان الوقت قد أزف . وهؤلاء الناس رغم أنهم خدم ، إلا أنهم بشر أيضا .
• وقال القسيس :

— مانولى ولد طيب ، وسيعيشان فى سعادة .

وأمن العمدة الشيخ على ذلك قائلا :

— هذا صحيح ، وأنا أحبه تماما كابنى . رأيت له لأول مرة عندما ذهبت
الى دير القديس بانتيليمون . لا بد أن عمره آنذاك كان خمسة عشر عاما .
• لقد قدم لي تحية الضيافة . انه ملاك حقيقى ، لا ينقصه سوى الجناحين .
• ولقد شعرت بالشفقة نحوه وقلت لنفسى : « خسارة أن يذبل مثل هذا
الغلام الوسيم داخل الدير كالخصيان » . وذهبت الى صومعة سيده الأب

ماناس ، وكان رجلا مشلولاً منذ سنوات . فقلت له يا أبانا ، أود أن اطلب منك خدمة . وإذا وافقت عليها سأهدى الدير مصباحاً من الفضة . وأجاب الراهب : « لك ما تشاء يا شيخ عدا مانولى » .

– انه هو بالضبط عين ما أريد . أود أن ألحقه بخدمتي .

وتنهَّد الراهب العجوز قائلاً :

– أحبه كابنى ، بل هو ابنى فعلاً ، لم يرتكب معى خطأ ، وأنا رجل عاجز مقطوع عن الدنيا وليس لى من رفيق سواه . طوال الليالى أحدثه عن النساك والقديسين ، وهكذا يتعلم هو وأشغل أنا وقتى .

وأجبتة قائلاً :

– اتركه يا أبانا ينزل الى الدنيا : ينجب أطفالاً ويعيش ، وبعد أن ينال من الحياة غايته يستطيع أن يصبح راهباً . وبعد الحاح شديد استطعت أن أصحب الغلام معى . وها أنذا أعطيه اليوم لينيو . انى لادعو لهما بالحظ السعيد ! .

وتضاحك لاداس العجوز فى خبث قائلاً :

– سوف تحصل منه أيضاً على ذرية جديدة . . وتناول على طرف ملعقته حبة كرز واحدة وأخذ يمضغها ، وشرب جرعة من نبيذ المسكات . وقال فى ابتهاج :

– جزانا الله ثواب عملنا ، ووقانا شر الموت جوعاً ! فبساتين الكرم والمحاصيل ليست على ما يرام هذا العام . وهذه مصيبة ! .

وقاطعه القسيس بصوته الأجش :

– الله هو الرزاق أيها العجوز لاداس ! تشجع ! شد الحزام على بطنك ، ولا تبذر ، فالافراط فى الأكل مفسدة . لا تكن كثير السخاء ، ولا تضيع أموالك على الفقراء كما اعتدت أن تفعل .

وانفجر الشيخ بطرياركاس مقهقها حتى اهتزت جدران البيت .

مد يده الغليظة كأنما يتسول وقال بصوت يتصنع البكاء :

– قدموا الصدقات أيها المسيحيون ، فالأب لاداس يموت جوعاً .

وتردد وقع أقدام ثقيلة صاعدة كانت درجات السلم تتر تحت ثقلها . ونهض القسيس ليفتح الباب قائلاً :

- ما هو الكابتن فورتوناس ، ذئب البحار العجوز . انتظري
ياماريوري ولا تنصرفي . فلنقدم له شيئاً يشربه . . سأذهب لأحضر له
كوباً كبيراً وزجاجة عرقى . فانه يشم من بعيد رائحة الخمر .

وتوقف الكابتن لحظة أمام الباب يلتقط أنفاسه . ثم دخل وهو
يبتسم ، لكن العرق كان يتصبب من جبينه . وظهر خلفه مباشرة ناظر
المدرسة . فكان قد جرى طويلاً ليلحق به حتى تقطعت أنفاسه . وخلع
قبعته يروح بها . وفي تلك اللحظة عاد القسيس بزجاجة العرقى . وقال
الكابتن للأعيان الثلاثة :

- المسيح قام يا أحبائى !

وجلس على الأريكة الكبيرة بأقصى ما يستطيع من خفة ، وهو يعض
على النواجذ من الألم . ثم التفت نحو الفتاة وقال :

- يا صغيرتى ماريورى ، لست أريد مربى ولا قهوة . فهما مناسبان
تماماً لعجائز النساء . حسبى هذا الكوب الصغير الذى يسميه الناس
كأساً .

وأفرغ الكوب فى جوفه دفعة واحدة . وأضاف :

- نخب زفافكما .

وارتشف ناظر المدرسة رشفة من فنجان القهوة الصغير ثم قال :

- اليوم يوم عظيم . لن يمضى وقت طويل حتى يحضر الناس .
يجب أن نشرع اذن فى اتخاذ قرارنا .

وخرجت ماريورى تحمل الصينية . وأغلق القسيس الباب بالمزلاج .
وفجأة اكتسى وجهه الذى لوحتة الشمس بسيماء القداسة ، وأبرقت عيناه
تحت حاجبين كثيفين . هذا القسيس أكل شريب خمر ، عنيف الكلمات
إذا انفع ، ماهر فى استخدام قبضة يده إذا غضب . حتى فى هذه السن
المتقدمة لا تزال الدماء تثور فى عروقه كلما نظر الى النساء . فالأهواء
البشرية تملأ رأسه وصدرة وبطنه . ولكنه لا يكاد يبدأ القداس أو يمد
يده ليبارك أحداً ، أو يستنزل اللعنة عليه ، حتى تهب عليه ريح عاتية
ويصبح شيئاً آخر فإذا بالأب جريجوريس الشره ، السكر ، الشهوانى
يتحول الى نبي .

وبدأ الحديث بصوت وقور قائلاً :

• اخوتي أعضاء المجلس • هذا يوم مهيب • الله يرانا ويسمعنا •
 اذكروا جيدا أن كل كلمة تقال هنا سوف يسجلها الله في اللوح المحفوظ،
 المسيح قام ، ولكنه لا يزال مصلوبا داخل أجسادنا • فلنجدعه يا اخوتي
 يقوم فينا أيضا • أيها الشيخ بطرياركاس انس في هذه اللحظة أمور
 الدنيا ، لقد حصلت على كسب وفير في حياتك أنت وأهلك • أكلت وشربت
 ومنتعت جسديك أكثر مما يفعل الناس • ارتفع بروحك الآن فوق هذه
 الملذات جميعا وساعدنا على اتخاذ القرار • وأنت يالاداس العجوز انس
 في هذا اليوم الجليل ما تملك من زيت وخمر والجنبيات الذهبية التركية
 التي تكدها في خزائنك • أما أنت يا أخي ، ناظر المدرسة ، فليس عندي
 شيء يقال لك ، فروحك تسمو دائما فوق ملذات الطعام والنقود الذهبية
 والنساء وتتصل بالله وتتشدد رحمته • ولكنك أنت ياكابتن ، أيها الآثم
 القديم ، قد ملأت أرجاء البحر الأسود بمظالمك • فاتجه اليوم في خاتمة
 حياتك الى التفكير في الله ، وساعدنا بما تستطيع لتتخذ قرارا عادلا •

وصاح الكابتن في وجهه :

• دع الماضي يا أبانا ! الله يحكم يوم الحساب ! ولو أتيسح لنا أن
 نتكلم بحرية مثلك فاعتقد أننا سنجد أشياء كثيرة تقال عن قداستكم •

وأضاف العمدة حانقا هو أيضا :

• تكلم يا أبانا ، ولكن تدبر جيدا كلماتك فأنت تخاطب الأعيان •

وزمجر القسيس غاضبا :

• أنا أخاطب مجموعة من الديدان ، وأنا أيضا لست سوى دودة
 مثلكم •• فلا تقاطعوني • ضيوفنا سيحضرون بين لحظة وأخرى ، ولا بد وأن
 نكون قد اتخذنا قرارنا • أنصتوا اذن : هذا تقليد عريق توارثته الاجيال
 في بلدتنا • اعتدنا أن نختار من أهل القرية كل سبع سنوات خمسة أو
 ستة لنبعث في أشخاصهم أيام المسيح عندما يحل الاسبوع المقدس • مضت
 ست سنوات وحل العام السابع • يجب علينا اذن نحن أعيان القرية أن
 نختار اليوم من أهل بلدتنا هؤلاء الجديرين بأن يجسدوا في أشخاصهم
 الرسل الثلاثة الكبار بطرس ويعقوب ويوحنا ، وهذا الذي يتجسد فيه
 يهوذا الاسخريوطي ، وتلك التي تتجسد فيها مريم المجدلية العاهرة • ثم
 فوق ذلك كله - وسامحنى يا الهى - هذا الذى يستطيع أن يحفظ طهارة
 قلبه طوال العام ليمثل المسيح المصلوب •

وسكت القسيس لحظة ليلتقط أنفاسه . فانتهر ناظر المدرسة هذه الفرصة ، وبدأت تفاحة آدم تعلق وتهبط في عنقه وهو يقول :

— كان القدماء يسمون ذلك « السر » ، وتبدأ طقوسه يوم أحد السعف في الفناء الخارجى للكنيسة . وتنتهى فى منتصف ليلة سبت النور فى حديقة الكنيسة بقيام المسيح . الوثنيون كانت لديهم المسارح والملاعب ، والمسيحيون لديهم أسرار الكنيسة

ولكن الأب جريجوريس لم يعطه فرصة الانطلاق ، فقاطعه قائلاً :

— حسن . . حسن ، الجميع يعرفون هذا كله أيها الناظر المحترم ! دعنى أتم حديثى . ان الكلمات تتحول الى أجساد . وهكذا نرى بعيوننا ونلمس بأيدينا آلام المسيح . ومن كل القرى المحيطة يتوافد الحجاج ، ينصبون خيامهم حول الكنيسة ، ينتحبون ويلطمون الصدور طوال أيام أسبوع الآلام . ثم تنطلق صيحة «المسيح قام» فتبدأ مظاهر البهجة والرقص وأنتم تذكرون يا اخوتى المعجزات الكثيرة التى تحدث فى تلك الايام . وما أكثر الخطاة الذين يجهشون بالبكاء ويتوبون . وبعض الملاك الأثرياء يعترفون بالخطايا التى اقترفوها فى جريهم وراء الثروة ، فيهبون الكنيسة بستان كرم أو حقلاً ابتغاء خلاص نفوسهم . هل تسمعنى يا أب لاداس ؟

وانفجر لاداس المعجوز يقول مقتاضاً :

— استمر ، استمر يا أبانا ولا تقذفنى بالحجارة . ثم اعلم أن هذه الحيل لا تجدى معى .

واستأنف القسيس حديثه :

— لقد اجتمعنا اليوم اذن لكى نختار . . . بالهام من الله . . . هؤلاء الذين توكل اليهم الأدوار فى هذا السر المقدس . فتكلموا بحرية ، وليدل كل منكم برأيه ! أيها الشيخ بطرياركاس ، أنت رأس الاعيان ، فتكلم أولاً ، وما نحن ننصت لك .

وتدخل الكابتن قائلاً فى انفعال :

— عندنا يهوذا : بانايوتى آكل الجبس ! لن نجد أحسن منه ! شرس ، وجهه مغطى بآثار الجدرى ، قرد حقيقى من نوع الغوريلا التى رأيتها فى فى أوديسا ! والشىء الأكثر أهمية هو أن شعره ولحيته مناسبان تماماً للدور : لونهما أحمر كلون الشيطان نفسه .

وقال القسيس بلهجة قاسية :

- ليس هذا دورك في الكلام يا كابتن ، لا تتعجل . فهناك من لهم
أسبقية عليك . تفضل يا شيخ بطرياركاس .

وأجاب العمدة بطرياركاس :

- ماذا أقول لك يا أبانا ؟ لست أريد سوى شيء واحد : أن تختاروا

ابنى ميشيل لدور المسيح .

وقاطعه القسيس قائلا بلهجة جافة :

- مستحيل ، ابنك شاب ثرى ، بدين سمين ، أكول وشريب خمر ،
مرفه فى حياته ، أما المسيح فكان فقيرا نحिला . اسمح لى أن أقول ان هذا
لا يوافق ذاك . ثم هل ميشيل يستطيع أن يتحمل مشقة هذا الدور
الصعب ؟ انه سيضرب بالسياط ، ويوضع على رأسه اكليل من الشوك ،
ويوضع على الصليب . ميشيل لن يقوى على ذلك . هل تريد أن
يسقط اعياء ؟

وتدخل الكابتن قائلا :

- الأهم من ذلك كله أن المسيح كان أشقر بينما شعر ميشيل
وشاربه فى لون الفقم الأسود .

وقال لاداس العجوز وهو يتضحك فى خبث :

- بالنسبة لمريم المجدلية ، عندنا الشخص المطلوب تماما : كاترينا
الأرملة . هذه الداعرة تتوافر فيها كل الصفات المطلوبة : العهر والجمال
والشعر الأشقر الطويل . رأيتها ذات يوم فى فناء منزلها تمشطه ، كان
ينسدل الى ما تحت ركبتيها . لعنة الله عليها ! انها تستطيع أن توقع
رئيس الأساقفة فى الحطينة .

وفتح الكابتن فمه ليضيف بعض الدعايات المبتذلة ، ولكن القسيس
نظر اليه نظرة عقدت لسانه . وقال القسيس :

- العثور على الأشرار سهل . يهوذا ومريم المجدلية . لكن ماذا عن
الأخيار ؟ فى هذا أنتظر منكم النصح . أين نجد - أستغفر الله - رجلا
يشبه المسيح ؟ على الأقل يجب أن يشبهه الى حد ما فى هيئة جسمه .
لا نريد أكثر من هذا . هذه الفكرة حاصرتنى أياما وأسابيع وحرمتنى
النوم عدة ليال . لكن أحسب أن الله من على وأخذ بيدي ، وأظن أننى
عثرت على الشخص .

وسأل العمدة العجوز كأنما أصيب ببلدغة :

- من هو ؟ أين ؟

- بعد اذنك أيها العمدة ، هو واحد من المشتغلين في خدمتك .
وسيادتكم تكونون له الحب أيضا : مانولى راعى غنمك . انه وديع كالحمل ،
وهو يقرأ ويكتب ثم انه كان في الدير . له عينان زرقاوان ، ولحية قصيرة
صفراء في لون غسل النحل . انه صورة صادقة للمسيح كما تصوره
الايقونات . وفوق ذلك فهو شديد التقوى ، ينزل من الجبل كل أحد
يسمع القداس ، وفي كل المرات التي أتى فيها الى الكنيسة للمناولة
أو الاعتراف لم أكتشف قط انه ارتكب معصية صغيرة .

واعترض لاداس العجوز بصوت كالصرير :

- ان به لونة طفيفة ، وتترامى له أشباح .

وقال القسيس مؤكدا :

- لا ضير في ذلك . فالمهم أن تكون النفس طاهرة .

وقال الناظر بكلمات بليغة :

- انه قادر على احتمال ضربات الشياطين ، ووخز اكليل الشوك
وثقل الصليب . فضلا عن ذلك فهو راع . وهذه ميزة أخرى فيه .
فالمسيح أيضا راع لقطعان البشر .

وقال الشيخ بطرياركاس بعد تأمل :

- أنا أوافق . لكن ماذا عن ابني في هذه الحالة ؟

وأجاب القسيس في حماسة :

- انه يصلح أكثر من غيره لدور يوحنا الرسول . تتوافر فيه كل
الصفات المطلوبة فهو من أسرة كريمة ، ممتلئ الجسم ، أسود الشعر ،
وعيناه عسليتان . وهكذا تماما كان تلميذ المسيح المفضل .

وتكلم ناظر المدرسة وهو يرقب أخاه القسيس في ارتباك :

- بالنسبة لدور الرسول يعقوب يبدو لي أننا لن نجد أصلح من
قسطندي صاحب المقهى . فهو جاف العود ، شرس المظهر ، عنيد ، ضيق
الخلق . وبهذه الصفات يوصف يعقوب الرسول .

وعاد الكاتبن يتدخل في الحديث :

- ان له زوجة تربيه نجوم الظهر . ترى هل كان الرسول متزوجا أيضا ؟ ما رأيك في ذلك يا أعلم العلماء ؟

وصاح القسيس غاضبا :

- لا تهزل في الأمور المقدسة أيها المجدف . لست الآن على ظهر مركبك تلقى البذاءات على بحارتك . نحن هنا نتكلم عن سر كنسى .

وتشجع ناظر المدرسة فعاد يقول :

- يبدو لي أن البائع المتجول ياناكوس يمكن أن يصلح لدور بطرس الرسول : فجهته ضيقة ، وشعره أشهب مجعد ، وذقنه قصيرة . وهو يغضب سريعا ويهدأ سريعا كأعواد الصوفان الريفية التي تشتغل بسهولة وتنطفئ بسهولة ، ولكن قلبه طيب ، ولست أرى في القرية أصلح منه لدور بطرس .

وقال الشيخ بطرياركاس :

- انه يغش في البيع الى درجة ما . ولكنه تاجر فماذا تنتظر منه غير ذلك ؟ لا يهم هذا اذن .

وصر لاداس العجوز قائلا من بين أسنانه :

- يقال انه هو الذى قتل زوجته اذ دس لها السم .

وصاح القسيس :

- « افتراء ! افتراء ! يجب أن تسألنى أنا عن ذلك . لقد أكلت زوجته فى أحد الأيام بشراهة ملاء قدر من الحمص الفسج فأحسست بعدها بعطش شديد لا يحتمل حتى أنها شربت جرة كاملة من الماء . فانتفخت وماتت . لا تستنزل اللعنة على رأسك بهذا الكلام يا لاداس ، »

وعلق الكاتبن :

- « نالت ما تستحقه . هذه نتيجة شرب الماء ، لو أنها شربت عرقى لما أصابها شيء . »

وقال ناظر المدرسة :

- « لا نزال بحاجة الى من يمثل دور بيلاطيس وقيافا . ولكن يبدو أن هذا شيء عسير . »

وقال القسيس بطريقة معسولة :

« لن نجد من يصلح لدور بيلاطس خير من سيادتكم يا عزيزى الشيخ بطرياركاس . لا تقطب جبينك ، فقد كان بيلاطس أيضا أحند النبلاء العظام ، مهيب المنظر ، مكتنز الوجه ، أنيق المظهر ، له لحية تشبه لحيتك هذه تماما . وهو رجل صالح أيضا سعى جهده لينقذ المسيح . بل وأعلن فى نهاية الأمر « أغسل يدى من دم هذا » . وبذلك أبرأ نفسه من الخطيئة . لا ترفض هذا الرأى أيها الشيخ ، فانك تتيح لنا بذلك أن نجعل من هذا السر شيئا كبيرا . تخيل المجد الذى سيعود على قريتنا والأفواج الفقيرة التى ستندفع إليها حين تعلم أن الشيخ بطرياركاس كبير الأعيان سيقوم بدور بيلاطس » .

وابتسم الشيخ فى اعتزاز وأشعل غليونه دون أن ينبس بكلمة .
وتدخل الكابتن مرة أخرى قائلا :

« الأب لاداس خير من يمثل دور قيافا . لن نجد أحسن منه .
انت يا ابانا ترسم أيقونات ، فقل لنا كيف ترسم صورة قيافا فى الأيقونات ؟ » .

وقال القسيس مترددا :

« حسن ، فى الحقيقة .. انه يشبه الأب لاداس الى درجة كبيرة .
فهو جلد على عظم ، متسخ الجسد ، غائر الحدين ، أصفر الأنف ضيقه .. »
وعاد الكابتن يسأل بكلمات لاذعة وهو يضحك :

« وهل كان شاربه مغطى بالقشور أيضا ؟ وهل كان يرفض أن يتصدق بقطرة ماء حتى وان كانت لملاكة الحارس ؟ وهل كان يمشى وحداؤه فى يده خشية أن يبلى ؟ » .

وانتفض لاداس صائحا :

« سأصرف . لماذا لا تأخذ دورا أنت أيضا أيها الكابتن ؟ ماذا تنتظر ؟ أستم بحاجة الى ممثل ناعم البشرة يمثل دورا أيا كان هذا الدور ؟ »
وأجاب الكابتن ضاحكا وهو يحرك اصبعيه كأنما يقتل شاربه :

« أنا احتياطى لكم ، فمن يدرى ؟ نحن رجال تقدمت بنا السن ، وربما يودعنا أحدكم خلال هذه السنة ، أنت مثلا يا لاداس يا صاحب الشارب الكث ، أو ربما السيد بيلاطس . واذ ذاك أقوم أنا بذلك الدور حتى ننفذ السر » .

عوى العجوز البخيل قائلا :

- « ابحثوا عن قيافا آخر . هذه كلمتى الأخيرة ، وعلى كل حال يجب ان أذهب لأرعى شئونى . سأصرف » .

- « لن أكون قيافا . ابحثوا عن شخص آخر ، وهم بالذهاب مد القسيس ذراعيه يعترض طريقه قائلا :

- « أين تذهب ؟ الناس فى طريقهم الينا . فلا يمكن ان تنصرف ، ولا يرضيك أن تكون جميعا سخرية القرية » .

ثم اضاف بلهجة رقيقة :

- « يجب أن تضحى كالأخرين يا سيد لاداس . فكر فى نار جهنم . سوف تفقر لك خطايا كثيرة اذا ساعدتنا فى هذا العمل الجليل الذى نؤديه ابتغاء مرضاة الله . ولن نجد خيرا منك لدور قيافا . فلا تتمسك بالرفض . سيكتب لك الله ذلك فى اللوح المحفوظ » .

وصرخ لاداس العجوز مذعورا :

- لن أكون قيافا . ابحثوا عن شخص آخر أما عن هذا اللوح المحفوظ » .

ولم يستطع أن يكمل عبارته . فقد كان أهل القرية يصعدون السلم . ورفع القسيس مزلاج الباب .

واندفع الى الداخل حوالى عشرة من أهالى القرية يحيون الأعيان ويرشمون الصليب . وقالوا :

- « المسيح قام أيها السادة الأعيان » .

ثم اصطفوا لصق الحائط .

وأجاب الأعيان وهم يسترخون على الأريكة الكبيرة التى تربعوا فوقها :

- « بالحقيقة قام ! »

ودار عليهم الشيخ بطرياركاس بكيس الطباقي .

وأعلن القسيس :

- « اتخذنا قرارنا يا أبنائى . لقد حضرتم فى الوقت المناسب

تماما . فمرحبا بكم » .

• وصفق بيديه فحضرت ماريورى •

« قدمى يا ماريورى لهؤلاء الفتية شرابا ، واحضرى لكل منهم بيضة حمراء احتفالاً بقيام المسيح » •

• وشربوا ، وأخذ كل منهم بيضة حمراء ، وانتظروا •
وبدا القسيس يتكلم وهو يتحسس لحبته المشعبة :

« يا أبنائى ، شرحت لكم بالأمس بعد القداس ما ننتظره منكم • سنحتفل فى عيد القيامة القادم بسركنسى عظيم • فيجب أن تساعدونا جميعا ، صفارا وكبارا • أنتم تذكرون كيف كان الأسبوع المقدس فى قريتنا منذ ست سنوات ، كم من الدموع سكبت فى الكنيسة ، وكم من النخيب الذى يفتت الأكباد ، ثم كيف كانت البهجة بعد ذلك يوم أحد القيامة • وكيف أضيئت الشبوع وتعانق الناس ، وكيف اندفعنا فى حمية نرقص ونغنى « المسيح قام من الأموات ، قهر الموت بالموت » • وأصبحنا جميعا اخوة • فى العام القادم يجب أن يكون احتفالنا بالام المسيح جميلا كما كان سابقه بل وأجمل منه • هل توافقوننى أيها الاخوة ؟ » •

وأجاب أهل القرية بصوت واحد :

« موافقون يا أبانا • لتباركنا ! » •

ونهض القسيس وقال لهم :

« ليبارككم الله ! لقد اخترنا نحن شيوخ القرية هؤلاء الذين سيمثلون الرسل وبيلاطس وقيافا والمسيح • تقدم يا قسطندى باسم الآب » •

وأمسك قسطندى صاحب المقهى بطرف مريبلته وثبته فى حزامه الأحمر وتقدم •

« اخترناك أنت يا قسطندى لتكون يعقوب الرسول ، التلميذ الزاهد للمسيح • وهذه مهمة خطيرة وقدسية ، فيجب أن تؤديها بآباء وشمم ، حتى لا تلحق العار باسم الرسول ، ومنذ اليوم يجب أن تتحول يا قسطندى الى انسان جديد • أنت رجل بار ، ولكن يجب أن تكون أكثر برا ، وأكثر استقامة وحلما ، وأكثر انتظاما فى حضورك الى الكنيسة • ويجب أيضا أن تقلل من الشعر الذى تضيفه الى البن ، ولا تقسم قطع

الحلوى لتبيح النصف يثمن القطعة الكاملة ، وفوق ذلك كله احذر أن
تضرب زوجك ، فانت منذ هذا اليوم لم تمد قسطندى فقط ، بل أيضا ،
وهذا هو الأهم ، يعقوب الرسول . هل فهمت ؟ » .

وأجاب قسطندى وهو يتراجع نحو الحائط ، وقد احمر وجهه خجلا :

« لقد فهمت » .

وكاد يضيف « لست أنا الذى أضرب زوجى ، بل هى التى

تضربنى » ، لكنه سكت خجلا .

وسأل القسيس :

« أين ميشيل ؟ نحن نحتاج اليه » .

وأجاب ياناكوس :

« توقف فى المطبخ ليتحدث الى ابنتك » .

« ليذهب أحدكم لاستدعائه . وتقدم أنت يا ياناكوس

فهذا دورك » .

وخطا البائع المتجول نحو القسيس ، وقبل يده .

« كان من نصيبك يا ياناكوس مهمة صعبة ، هى تمثيل بطرس

الرسول . فانتبه جيدا . انس ياناكوس القديم ، فهذا تميدا من الكنيسة .

أعمدك يا ياناكوس باسم الآب ، فكن بطرس الرسول ، خذ الانجيل فانت

تستطيع أن تقرأ الى حد ما ، تدبر فيه صفات بطرس الرسول وأقواله

وأفعاله . ان لك رأس خنزير ، لكن قلبك طيب . اقطع علاقتك بالماضى ،

واسلك طريقا جديدا ، طريق الرب . لا تنقص الميزان ، ولا تغش

بضاعتك ، ولا تقض الرسائل لتختلس النظر الى أسرار الناس . هل

تسمع ؟ قل « أسمع وأطيع » .

واندفع ياناكوس يقول وقد تراجع بسرعة نحو الحائط خوفا من أن

يستمر هذا القسيس الشيطان فى نشر حيله القذرة على الحاضرين :

« سمعا وطاعا يا ابانا » .

وأشفق عليه الأب جريجورى فسكت . واستعاد ياناكوس

شجاعته فقال :

- « يا أبانا ، أسألك مكرمة ، أعتقد أنه يوجد في الانجيل أيضا حمار . أظن أن المسيح عندما دخل أورشليم يوم أحد السعف ، كان يركب آتانا . نحن نحتاج اذن الى حمار . وأنا أسألك أن يقوم حمارى بهذا الدور ، » .

وأجاب القسيس وقد انفجر الجميع بالضحك :

- « لك ما طلبت يا بطرس ، قبلنا أن يقوم حمارك بهذا الدور ، ودخل ميشيل في هذه اللحظة . سمينا بدينا ، متورد الوجه ، يضع خلف أذنه زهرة ، وحول اصبغه خاتم الخطوبة الذهبى وهو يخب فى الجوخ والحريير . وكان خداه ملتھين . فقد أمسك بيد ماريورى فى المطبخ وتاججت النار فى عروقه . »

وقال القسيس وهو يحملق باعتزاز فى صهره المقبل :

- « مرحبا بك أيها الولد العزيز ميشيل . اخترناك بالاجماع لتمثل يوحنا ، أحب التلاميذ الى نفس المسيح . ان هذا شرف كبير لك ، وبهجة عظيمة يا صغيرى ميشيل . فأنت الذى تميل على صدر المسيح تواسيه ، وأنت الذى تتبعه حتى اللحظة الأخيرة على الصليب ، بينما انفض عنه كل تلامذته ، وأنت الذى يستودعك المسيح أمه ، » .

وقال ميشيل فى خجل وسرور :

- « ببركتك يا أبانا . أنا معجب بهذا الرسول منذ طفولتى حين كنت أراه فى الأيقونات دائما شابا وسيما حلوا ، فأحببته . شكرا يا أبانا . هل لديك نصيحة لى ؟ » .

- « لا يا ميشيل ، فان لك نفسا فى براءة الحمامة ، وقلبا يفيض حبا ، وأنت لن تلحق العار باسم الرسول ، فإليك بركتى ، » .

ثم قال وهو يتصفح وجوه أهل القرية واحدا بعد آخر بعين طائر جارح :

- « الآن يجب أن نعر على يهوذا الاسخريوطى » .

وارتعد كل منهم وهو يشعر بوقع نظرتة الحادة على وجهه . وتمتم كل منهم « ساعدنى يا الهى ، لا أريد أن أكون يهوذا » . واستقرت عينا القسيس على لحية حمراء ، لحية آكل الجبىس . وارتفع صوته وهو يقول :

– « بانايوتى • اقترب قليلا • أريد أن أطلب منك خدمة » •

وهز بانايوتى كتفيه الكبيرين ، وعنقه الغليظ ، كالثور حين يهز رأسه ليقلت من النير • وشعر فى تلك اللحظة برغبة فى أن يصرخ « لا ، لا أريد » • لكنه لم يجرؤ على أن يقول ذلك فى حضرة الأعيان • فأجاب وهو يتقدم متثاقلا كالدب :

– « تحت أمرك يا أبانا » •

حاول القسيس أن يمهد للموضوع فقال :

– « الخدمة التى سنطلبها منك يا بانايوتى شاقة جدا ، ولكنك لن تتخذنا • فان لك قلبا رقيقا رغم مظهرك الفظ الشرس • أنت تشبه حبة اللوز ، قشرة صلبة كالحجر تخفى بداخلها ثمرة اللوز الحلوة هل تسمع ما أقول يا بانايوتى ؟ » •

وأجاب :

– « أسمع فلست أصم » •

والتهب وجهه المغطى بآثار الجدرى • كان يدرك ما يريدونه منه • ولكن الكلمات المعسولة المنافة أثارت نفوره •

واستطرد القسيس :

– « لا صلب بدون يهوذا ، ولا قيام بدون صلب ، ومن ثم يلزم بالضرورة أن يضحي أحد أبناء القرية ليمثل دور يهوذا » •

وقاطعه آكل الجبىس بحدة وحسم :

– « يهوذا ؟ أنا ؟ مستحيل • لن أكون يهوذا ! »

وشد على قبضته فانكسرت بيضته الحمراء ، وسال صفارها من يده • وقفز كبير الأعيان يلوح بقلبونه مهددا ويصيح :

– « هذا آخر الزمان ! لا يمكن أن يركب كل منكم رأسه هنا • هذا مجلس الأعيان وليس مقهى قسطندى • وقد اتخذ الأعيان قرارا فأصبح نهائيا ، وعلى الناس أن يطيعوا • هل تسمع يا آكل الجبىس ؟ » •

وأجاب بانايوتى :

– « أنا أحترم مجلس الأعيان • ولكن لا تطلبوا منى أن أخون

المسيح • لن أفعل ذلك أبدا » •

وأرغى العمدة وأزبد • وحاول أن يتكلم ولكنه اختنق بالفضب •
وانتهز الكابتن فرصة الضجيج والارتباك فملا كأس العرقى مرة أخرى •
وتدخل القسيس وقال وهو يحاول جاهدا أن يكون حديثه بصوت
رقيق :

— أنت دائما مخالف يا بانايوتى • تنظر الى الأشياء من غير زاويتها
الصحيحة • أنت لن تخون المسيح ، ولكنك ستتظاهر بأنك تخون المسيح ،
وبذلك يمكن أن تصلبيه ليقوم بعد ذلك مرة أخرى • أنت بطيء الفهم ،
ولكن انتبه جيدا وسوف تفهم • لكى نخلص العالم يجب أن يصلب
المسيح ، ولكى يصلب المسيح يجب أن يشى به أحد الناس • هكذا اذن
ترى أن وجود يهوذا شيء ضرورى ليتحقق خلاص العالم ، بل أكثر ضرورة
من وجود أى رسول آخر • وفى الحقيقة أن عدم وجود واحد من الرسل
لا يغير من الأمر شيئا ، ولكن لولا وجود يهوذا لما تحقق شيء •• يهوذا
هو الشخص الثانى فى الأهمية بعد المسيح •• هل فهمت ؟ •

وعاد بانايوتى يكرر وهو يعجن فى يده البيضة المكسورة :

— « لا يمكن أن أكون أنا يهوذا • أنت تريدنى أن أكون يهوذا ،
وأنا لا أريد • هذا كل ما فى الأمر ! » •

وفى ناظر المدرسة :

— هيا أيها الرجل الطيب بانايوتى • افعل هذا من أجل خاطرنا •
كن يهوذا فيصبح اسمك خالدا •
وقال الكابتن وهو يمسح شفتيه :

— « لاداس العجوز يروجك أيضا أن تفعل ذلك • وهو يقول انه لن
يضغط عليك فى موضوع النقود التى تدين بها له ، بل يقول أيضا أنه
سيتنازل لك عن الفوائد •

وعوى العجوز البخيل غاضبا :

— « لا تتدخل فى شئون الآخرين يا كابتن • أنا لم أقل شيئا من
هذا • افعل ما يلهمك به الله يا بانايوتى • وأنا لا أتنازل عن الفوائد
لأى أحد •

وصمت الجميع • لم تكن تسمع فى هذا الصمت سوى صوت أنفاس
بانايوتى المتلاحقة ، يلهث كأنه يتسلق حبلًا •

وقال الكابتن :

– لا نريد أن نضيع وقتنا – لنترك هذا الشيطان التمس قلب
الأمر في رأسه ويهضمه • فنشل هذا الأمر ليس من اليسير البت فيه دون
تدبر • أن تكون يهوذا ليس شيئا هينا • انه يحتاج الى تفكير عميق والى
عرقى • أين مانولى اذن حتى ننتهى منه ؟ •

وقال ياناكوس :

– « رأيناه مع لينيو يطارحها بعض كلمات الغزل ، فمن المستحيل
انتزاعه منها » •

وقال مانولى وقد احمر وجهه :

– « ها أنذا ! تحت أمركم يا عمدة ويا أعيان القرية » •

كان قد انسل الى الحجره فى هدوء فلم يلحظه أحد ووقف فى
الركن بعيدا •

وقال القسيس بصوت يقطر حلاوة وعذوبة :

– « تعال يا مانولى • تعال أباركك » •

وتقدم مانولى وقبل يد القسيس • كان شابا صغيرا ، أشقر الشعر ،
خجولا ، فقير الملبس تفوح منه رائحة السعتر واللبن ، وعيناه الزرقاوان
تعبران بوضوح عن البراءة والصفاء •

وقال القسيس بلهجة وقورة :

– « فى توزيع الأدوار فزت يا مانولى بالنمرة الراححة • الرب
اختارك أنت لتبعث بجسمك وصوتك ودموعك الآلام المقدسة • أنت الذى
ستضع على رأسك اكليل الشوك • وأنت الذى ستجلد ، وأنت الذى
ستحمل الصليب المقدس وتصلب • يجب اذن ألا تفكر الا فى شىء واحد
ابتداء من اليوم حتى الأسبوع المقدس فى العام القادم – شىء واحد فقط :
كيف تصبح جديرا بأن تحمل هذا الثقل الرهيب ، ثقل الصليب » •

وتمتم مانولى وهو يرتعد :

– « لست جديرا بذلك ••••• »

– « لا يوجد من هو جدير بذلك • لكن الله اصطفاك أنت » •

وعاد مانولى يتمتم :

– « لست جديرا بذلك • ان لى خطيبة • سبق لى أن لمست امرأة •
فالخطبة فى نفسى • وبعد أيام سأتزوج •• كيف اذن أستطيع أن أحمل
الثقل الرهيب لدور المسيح ؟ » •

وأجاب القسيس بلهجة حادة :

« لا تعارض مشيئة الرب • بالتأكيد أنت لست جديرا ، لكن العناية الالهية تغفر وتصنع وتصطفى • والعناية الالهية اصطفتك أنت فامسكت » .

وسكت مانولى ، لكن قلبه أخذ يدق حتى كاد ينفجر فرحا ورعبا • ومد بصره عبر النافذة • كان الرذاذ قد توقف ، والسهل المنبسط البعيد عاد أخضر نديا شديد الصفاء • ورفع عينيه فأصابته رعدة مفاجئة • شاهد خلال السحب قوس قزح كبيرا فى لون الزمرد والياقوت والعسجد ، يمتد ليربط السماء بالأرض • فوضع راحته على صدره وقال :

« لتكن مشيئة الرب ! »

وقال القسيس :

« ليتقدم الرسل الثلاثة • وتقدم أنت يا مانولى ! لا تخف فلن نأكلك • تعالوا أبارككم » .

وتقدم الأربعة صفا واحدا يتوسطهم مانولى • ومد القسيس يديه وبسطهما فوق رؤوسهم وقال :

« ليبارككم الله ! لتشملكم روح الرب ! لتتفتح قلوبكم حتى لو كانت جذوع شجر ميت كما تتفتح براعم الزهور فى الربيع • ولتحققوا المعجزة التى يراها المؤمنون فى الأسبوع المقدس فيقولون هل هذا هو ياناكوس ؟ هل هذا قسطندى ؟ وهل الآخر ميشيل ؟ لا ، لا ، انهم بطرس ويعقوب ويوحنا • وليأخذهم الرعب حين يرونك يا مانولى تصعد الجلجثة وعلى رأسك اكليل الشوك • ولتزلزل الأرض مرة أخرى ، ولتظلم الشمس ، ولينشق حجاب الهيكل فى قلوبهم ! ولتفض عيونهم بالدموع فتطهرها ليكتشفوا فجأة أننا جميعا اخوة ، وليقم المسيح من جديد ليس فقط على درج الكنيسة ، لكن فى قلوبنا ! آمين » .

وغرق الرسل الثلاثة ومانولى فى عرق بارد • وارتعدت مفاصل أرجلهم • وأصابهم الخوف كأن على رؤوسهم طيرا كاسرا ساكنا يلقى على أرواحهم ظل جناحيه الكبيرين • وبلا شعور امتدت أيادهم تفتش عن بعضها لتتشابك • وتكونت منهم سلسلة متماسكة الحلقات لمواجهة الخطر • أما بانايوتى فقد أغلق قبضته ، ورفض وحده أن يمسك بيد الآخرين ، وظل يحملق فى الباب متلهفا للخروج •

وقال القسيس :

- « والآن امضوا الى حال سبيلكم تصحبكم بركة الرب • أمامكم طريق جديد ، طريق شياق • اصبروا وصابروا وطهروا قلوبكم وليعنكم الرب » •

وتراجعوا واحدا اثر الآخر يركعون أمام القسيس ويحيون الأعيان • وانسلوا من الباب فى مكون • ثم نهض الأعيان وأخذوا يتمطون •

وقال العمدة :

- « شكرا لله • لقد تم كل شيء على ما يرام • لقد أحسنت التصرف يا ابانا » •

ولم يكد الأعيان يجتازون الباب حتى انفجر الكابتن فورتوناس يقهقه ويضرب على فخذه :

- « آه ، اسمعوا ، نسينا أن نبلغهم اسم مريم المجدلية » •

وقال العمدة وهو يزدرد لعابه :

- « اطمئن يا كابتن • سأستدعيها الى بيتى وأكلمها •• » ثم أضاف يابتسامه :

- « وأنا واثق أننى سأنجح فى اقناعها •• »

وقال القسيس مقطبا :

- اذا كان لا بد وأن تزنى بها فافعل ذلك قبل أن تكلمها ، فانت تعلم أنه بمجرد أن تتحول الأرملة الى مريم المجدلية ستصبح الخطيئة معها كبيرة جدا •

وأجاب العمدة وهو يلتقط أنفاسه كما لو كان قد أفلت لتوه من خطر بالغ :

- أحسنت صنعا أيها القسيس بأفادتى عن هذه المسألة •

أخذ الكابتن فورتوناس يهبط المنحدر ويتكىء بثقله على عصاه بعد أن ترك زملاءه • وقال لنفسه :

- لتنزل لعنة السماء على رؤسنا جميعا . مثل هذه الأمور تحتاج
يا رجل الى قلب طاهر . لكن قلوبنا نحن مثل أهل سادوم وعامورة .
القسيس جوفه يبتلع كل شيء ! افتتح حانوت عقاير وسماه «كنيسة»
يبيع فيها المسيح بالدانق والدرهم . وهذا المشعوذ يزعم
انه يشفى كل الامراض . « ماذا يتعبك ؟ - أنا كذبت - خذ جراما من
المسيح . يكلفك كذا قرشا . وأنت ؟ - أنا سرقت - لك أربع جرائم
من المسيح : تساوى كذا . وأنت ؟ - أنا قتلت - آه أيها التمس ، داؤك
خطير . عليك أن تتناول هذا المساء قبل النوم خمسة عشر جراما من
المسيح . سيكلفك هذا كثيرا ، مبلغا وقدره كذا . ألا تجرى لى تخفيضا
يا أبانا ؟ - لا ، السعر محدد . ادفع والا سيلقى بك فى الدرك الأسفل
من الجحيم » . ويظهره على الصور التى يحفظها فى حانوته ، فىرى الجحيم
تتصاعد منه ألسنة اللهب ، والزبانية يحملون المناخس المدببة ، ويرتعد
الزبون هلعاً فيفرغ ما فى جيبه . . »

« والشيخ بطرياركاس ؟ خنزير يمشى على قدمين . ليس سوى
كرش من رأسه الى أخمص قدميه ، وحتى رأسه لا يوجد بداخله سوى
أمعاء . اذا أخذت كل ما ابتلعه فى حياته ووضعت فى جانب ، ووضعت
فى الجانب الآخر كل ما أخرجه من أعلى ومن أسفل ، لوجدت أمامك جبلين
هائلين من القاذورات النتنة . وهكذا سيقف أمام الله يوم الحساب بين
هذين الجبلين ، واحد عن يمينه والآخر عن يساره » .

حاجى نيكولا ناظر المدرسة ؟ هذا البائس الضعيف ليس سوى
نصف انسان ، مسكين ، قبيح الوجه ، رعديد ، يضع على عينيه نظارة
حقيرة ومع ذلك يتصور نفسه الاسكندر الأكبر ، يضع على رأسه خوذة
من الورق المقوى ، ويتوج رؤوس تلاميذه بمثل هذه الخوذات القديمة .
ولكن ما الغريب فى ذلك ؟ أليس ناظر مدرسة ؟ »

« لاداس العجوز ؟ بخيل جشع ، القمل يملأ جسمه ، مجرد من
المشاعر ، يموت جوعاً وهو جالس فوق مايملك من براميل النبيذ ، وقدر
الزيت ، وأجولة الدقيق . فهو الذى قال لزوجته عندما زاره بعض
الضيوف ذات مساء : « اذهبي يا امرأة واسلقى لنا بيضة ، فسوف
يتناول العشاء الليلة عندنا أربعة من الضيوف » . لا يأكل ولا يشرب
يسير دائما حافى القدمين ، عارى الدبر - ولماذا ؟ ليموت ثريا ! يا للأسى !
ليأخذه الشيطان . »

« وأنا ؟ هل لى أن أعترف ؟ نهاب يأكل حقوق الناس • تستخدم سلقطا اذا أردت أن تلمسنى دون أن تتسخ يداك ! كم تمتلىء حيايتى بالشراهة فى الطعام وفى الشراب ، بالسرقات ، بجرائم القتل ، بالحيانات الزوجية ، يا الهى كيف وجدت الوقت لأمارس كل هذه الافعال القدره ؟ المجد ليدى وقدمى وسمى وفخذى ! لقد أدبتم يا أصدقائى عملكم على خير وجه ، فأنتم تستحقون بركتى ، » .

هكذا كان الكابتن فورتوناس يحدث نفسه بينما يدق بعصاه الطريق الحجرى • حتى وصل الى أسفل المنحدر • فخلع قلنسوته وأمسكها بيده يروح بها عن نفسه • ونظر الى الشمس • كان الوقت بعد الظهيرة • وأسرع الخطى : فالأغا دعاه صباح اليوم لتناول العشاء معه سيملا الاثنان كرشيها ويسكران • وغمغم قائلا لنفسه :
- هيا بسرعة ، الحياة حلوة ، فلننهل منها قدر ما نستطيع •

ووقف أمام منزل الأغا وبصق • فقد اعتاد أن ينفس عن غضبه بهذه الطريقة - كان يخيل اليه أنه انما يبصق على تركيا كلها ، ويتخيل أنه يرفع راية صغيرة جدا من رايات الحرية ، ويتحرر ولو للحظة واحدة •

بصق مرة أخرى وارتاح صدره ، ثم دق على الباب • وسرى فى لعبه طعم لذيذ : فهو الآن سياكل ويشرب ما طاب له ذلك • فالأغا رجل طيب سخى - واذن فسوف يعقد كل منهما حول رأسه منديلا كبيرا مبلا ليمنع آلام الصداع الشديد ، ويشربان العرقى بعد ذلك فى أقداح كبيرة •

وترددت فى فناء المنزل قرععات قبقاب ، وخطوات قصيرة • ثم انفتح الباب • وظهرت خادمة الأغا العجوز مارثا ، وهى امرأة حدياء • استقبلت الكابتن فى ضيق قائلة :

- ان كنت تؤمن بالمسيح يا كابتن فلا تشرب الى درجة السكر كما تفعل دائما • لقد ضقت ذرعا ولم أعد أحمّل المزيد •

وضحك الكابتن وربت بيده على حديتها وقال :

- اطمئنى يا عزيزتى مارثا ، فلن نسكر ، واذا سكرنا فلن نقىء • أما اذا قئنا فسوف تحضرين الطشت حتى لا تتسخ الأرض • أنا أعدك بذلك •

قال كلمته هذه ودلف الى الداخل بكبرياء وشمم •

مطاردة الأخوة

سار مانولى والرسىل الثلاثة قبيل المساء فى الطريق الى بحيرة فويداماتا الصغيرة ، وهى غير بعيدة عن القرية . وأخذوا يثرثرون بما يسرى عن أنفسهم . كان كل منهم يشعر برعدة خفية تسرى فى جسده كما لو كان قد انتهى لتوه من المناولة .

توقف الرذاذ ، ولعلت الأشجار والحجارة ، وتضوعت الأرض بعطر جميل . وأطلق طائر الوقواق صيحات فرحة ساخرة . وخفت حرارة الشمس ، فأخذت تربت على الأرض فى حنان كأنها نبيل عظيم ، وركت الدنيا وسادها سكون حالم . كانت قطرات المطر لا تزال تترقرق على أوراق الشجر . وفى هذا الجو الندى ساعة الأصيل ، كان الوجود يضحك ويبكي معا .

سار الرفاق الاربعة يلغهم الصمت فترة طويلة . ووصلوا الى احدى الممرات المعشبة الرطبة وسط البساتين . كانت أزهار الليمون تلمع فى بياض ناصع بين الأوراق الداكنة الحضرة . والأرض محملة بالزهور الباكية كأن المسيح لم يقم بعد . وسرت ربح دافئة أنعشت العصاراة فى الفروع الوليدة ، فبعثت الحياة فى كل النباتات .

وبدأ قسطندى الكلام قائلا بصوت خافت :

— ما أثقل الحمل الذى ألقاه القسيس على كاهلنا . فليساعدنا الله على أن نحمله حتى النهاية ! هل تذكرون المرة السابقة ؟ قام بدور المسيح

اذ ذاك السيد خرالامب الرجل ذو الأملآك سليل أسرة كريمة . ومع ذلك بذل أقصى جهده ليقتنى آثار المسيح . كافع طوال العام ليكون أهلا لحمل الصليب حتى انتهى به الأمر الى أن فقد رشده . وفي يوم الجمعة الحزينة وضع على رأسه اكليل الشوك ، وحمل الصليب على كتفه ، ثم ترك الدنيا زاهدا الى دير القديس جورج فى سوميلا بالقرب من تريببوزون وأصبح راهبا . وحل الخراب بأسرته ، وماتت زوجته ، وهام أولاده فى الطرقات يتسولون . هل تذكر يا مانولى السيد خرالامب ؟

ظل مانولى صامتا . كان ينصت الى كلمات قسطندى بأذن غير واعية ، فروحه غارقة فى تأمل عميق ، وفى حلقة غصة ، فلا يستطيع الكلام . كان هناك شئ يحلم به منذ صباه ، ويتمناه طوال الليالى وهو جالس عند قدمى معلمه الأب ماناس فى الدير ، ينصت الى حكاياته عن حياة القديسين ومعجزاتهم . وفجأة يحقق الرب أمنيته : أن يقتنى آثار الشهداء والقديسين ، وأن ينسلخ عن جسده ، ويلاقى الموت من أجل إيمانه بيسوع المسيح ، وأن يدخل الفردوس يحمل عدة الشهادة : اكليل الشوك والصليب والمسامير الخمس .

وسأل ميشيل وعلى فمه ابتسامة ساخرة تخفى قلقا غامضا يحاصره فى أعماقه :

— هل تعتقدون أننا نحن أيضا سنصاب بلوثة ؟ ألا ترون أننا نتصور أنفسنا رسلا حقا ؟ يا الهى احفظنا !

وأجاب ياناكوس وهو يهز رأسه الذى لوحتته الشمس :

— من يدرى ؟ فالإنسان جهاز دقيق يصيبه الحلل بسهولة . يكفى أن ترفع السدادة فاذا بالحياة

توقف الرفاق عند بحيرة فويداماتا . مياه داكنة الحضرة ، وأعشاب كثيفة طويلة ، وبط برى . وحلق طائران من طيور اللقلق وحوما فوق رؤوسهم فى أناة ولا مبالاة . كانت الشمس على وشك المغيب .

وفى غيبة عن العالم حدق كل منهم فى البحيرة التى توارت خلف الظلال دون أن يراها بعين واعية : لقد هامت أرواحهم تطاردها هموم غريبة ولفهم الصمت الى حين . وأخيرا تكلم ياناكوس :

— حقا يا قسطندى ان المهمة شاقة وعسيرة للغاية . لقد تمرست على عادات سيئة . . . فليغفر لى الله . أم كيف السبيل الى البراءة منها ؟ قال

لى : • لا تنقص الميزان ولا تقض رسائل الناس •• ان أبانا يتوهم أن ذلك أمر هين •• اذا لم تنقص الميزان فما سبيلك الى الثروة ، وكيف تجعل من نفسك فى يوم من الأيام انسانا ذا شأن ؟ واذا لم تقرا رسائل الآخرين •• لا لشيء سوى الاطلاع عليها ، فكيف تسرى عن نفسك ؟ تمرست على هذه العادة بعد أن رحلت عنى زوجتى رحمها الله • لم أكن أقصد من وراء ذلك ايذاء أحد - وليحفظنى الله - ولكن كم كنت أعانى السأم •• وتلك كانت تسليتى الوحيدة ، باستثناء حمارى - باركه الله • نعم كانت تسليتى الوحيدة •• أعود الى بيتى بعد تطوافى وأحكم رتاج باب الكوخ ، وأغلى قليلا من الماء ، وأعرض الرسائل للبخار ثم أفضها •• أقرؤها وأعرف أخبار هذا وذاك ، ثم الصقها ثانية ، وأطوف بها فى صباح اليوم التالى • ولكن ها أنتذا تسمع ما يقوله القسيس لى •• ولعلك تعرف يا صديقى أن ليس هينا على الذئب أن يتحول الى حمل وديع •• غفرانك ربى !

وابتسم ميشيل وهو يتحسس شاربه الأسود • كان راضيا عن نفسه •• فهو لم يغش ، ولم يقرأ رسائل الآخرين ، حتى أن الأب جريجوريس لم يجد ما يأخذه عليه ، وهو فخور بذلك • وأخرج كيس التبغ وناوله لرفاقه • فلف كل منهم لنفسه سيجارة ، وأشعلها وملا رثته بدخانها مستشعرا معه بمزيد من الارتياح •

لم يطق ميشيل كتمان احساسه بالزهو فقال :

- قال لى القسيس اننى لست بحاجة الى أن أغير شيئا من عاداتى :
ومن ثم فأننى بوضعى هذا لن ألحق عارا بالرسول •

ولم يكذب ينطق كلماته هذه حتى علت وجهه حمرة الحجل • ولكن هيهات له أن يستردها ثانية •

والتفت اليه مانولى وحده بنظرة قاسية • وظن أول الأمر أن ليس من حقه أن يلومه على شيء • أليس ميشيل ابن سيده ؟ بيد أنه تذكر أنه من الآن فصاعدا ليس مانولى المهود ، وانما أصبح شيئا آخر اسمى وأشرف • وواتاه احساس بالجرأة حينذاك • فقال له :

- بل الأمر سواء • فمن يدرى يا سيدى اذ ربما وجب على معاليكم ان تغيروا أيضا بعض ما بنفسكم • أن تقلل من الطعام ، وتفكر فى الجوعى من أهل القرية • والا تختال بما ترفل فيه من نعيم زائد •• صديريات من الجوخ الناعم ، وسترات موشاة ، ونعال جديدة لامعة •• وتفكر فى

أولئك الذين يرتجعون من زمهرير الشتاء ، لأنهم لا يملكون ما يسترون به أجسادهم . . . وربما كان عليكم أن تفتحوا خزائنكم بين الحين والآخر لتتصدقوا منها بالقليل على الفقراء . . . فأنت تملك ما يفيض كثيرا عن حاجتك ، والله الحمد على نعمائه .

وقال ميشيل في ارتياح :

- وماذا لو ارتاب الشيخ في أنى أقدم الصدقات ؟

ورد عليه مانولى :

- انك لم تعد طفلا ، فقد ناهزت الخامسة والعشرين من عمرك ، وأصبحت رجلا ناضجا . ثم هناك بعد ذلك كله المسيح وله الكلمة العليا . انه الأب الحقيقى وله وحده الأمر من قبل ومن بعد .

وقف ميشيل أمام خادمه حائرا وقد ارتج عليه . فهذه أول مرة يتحدث اليه بمثل هذه الجرأة . وقال لنفسه :

- أحسب أن رأسه بدأت تدور بعد أن اصطفوه لدور المسيح . سأنبئ أبى بذلك حتى يلزمه حدوده .

وألقى بسيجارته بعيدا فى عصبية ولكنه لم ينبس ببنت شفة .

وقال قسطندى :

- يجب أن أشتري الانجيل . هذا ما يشغل فكرى الآن ، فهو الذى سيهدينا الى الطريق الذى ينبغى أن نسلكه .

ورد عليه ميشيل :

- فى بيتنا انجيل لأبى ، وهو انجيل كبير ضخم مثبت على لوح من الخشب ومغلف بغلاف مصنوع من جلد الخنزير . وله دفتان كأنهما بوابة قلعة . وله أيضا قفل ومفتاح ضخم . واذا ما فتحته خلت أنك داخل الى مدينة أثرية . والأمر سهل للغاية - اذ يمكن أن نلتقى بمنزلنا كل يوم من أيام الأحد ونقرأ فيه سويا .

وقال مانولى :

- يجب أن أحتفظ بانجيل معى أيضا فوق الجبل . فقد كنت أضيق بالوحدة . ومن ثم اعتدت أن أجمع قطعا من الخشب أحفر فيها وأشكل منها أى شىء يطرأ على خاطرى : ملاعق وعصى وصناديق للنشوق وقديسين وماجز . . . كان وقتى ضائعا . أما الآن

ولاذ بالصمت ، وغرق في تأمل عميق .

وقال ياناكوس :

— أما أنا . . فلا ضير أن احتفظت بانجيل صغير — فبعد أن أنتهي من تطوافي أنا وحماري أستظل لفترة تحت شجرة سنار أروح عن نفسي قليلا ، وأقرأ فيه . . سنتقول لي أنني لن أعي منه الكثير ، ولكن لا بأس من ذلك ما دمت سأخرج منه ببعض الفائدة .

وتدافعت الكلمات على لسان قسطندي :

— أنا أحوجكم إليه . عندما يعلو صوت زوجتي بالصراخ وتثور ثائرتي فاني ألوذ به ليهدئ من روعي . وهنا سأحدث نفسي قائلا : «صبرا جميلا فليس كل هذا الا بعض ما أقدمه على طريق الشهادة ، وما عساه يكون بالقياس الى آلام المسيح ؟ بل . . لا تلمني يا ياناكوس ، هي أختك لكنها لا تطاق أبدا . ذات مرة انقضت على وقه أمسكت بشوكة في يدها وحاولت أن تفتقأ بها عيني . بل انها أول أمس رفعت من فوق النار القدر الذي كانت تطهو فيه فولتا مجروشا وأمسكت به وأخذت تطاردني وتسد على الطريق ، محاولة أن تضربني به على رأسي ، حتى قلت لنفسى «أنت اليوم قاتل أو مقتول» . أما الآن فاني سألوذ بالانجيل أطلع فيه ، ولتصرخ هي ما شاء لها الصراخ .

ضحك ياناكوس وقال مواسيا :

— مسكين أنت يا قسطندي . يعلم الله حقيقة شعوري نحوك . ولكن صبرا : فانما هو مقدور أن لكل رجل زوجا ، فادفع أنت بالتى هي أحسن ولا تقل شيئا .

— وأضاف قسطندي :

— مشكلتي ما أنني لا أجد القراءة ، اذ تتشابه الحروف وتختلط على

قال له مانولى مطمئنا .

— لا عليك من ذلك . ان هذا أعظم ثوبا . ويكفى أن تقرأ مقطعا من الكلمة لتفهم المقصود منها . فضلا عن أن الرسل لم يكونوا أهل علم بل ناسا بسطاء مثلنا ، اذ كان أكثرهم صيادين .

وسأل ياناكوس فو قلق :

— هل كان بطرس الرسول يجيد القراءة ؟

فرد عليه مانولى .

— لا علم لى ياياناكوس . سنسال القسيس فى ذلك .

وتمتم ياناكوس :

— من الأفضل أن تسأله أيضا هل كان بطرس الرسول يبيع ما يصطاد من سمك ، أم كان يتصدق به على الفقراء ؟ فانا على يقين من أنه لم يكن ينقص الميزان ، ولكن هل كان يبيعه ؟ هذا هو السؤال . هل كان يبيع أم يتصدق ؟

وعرض ميشيل اقتراحا خطر له :

— حرى بنا أن نقرأ أيضا حياة القديسين .

واعترض عليه مانولى بقوله :

— لا ، لا . فنحن أناس بسطاء ، والا فسيلتبس علينا الأمر . اذ اعتدت أن أقرأ عنها حين كنت أعيش مع الرهبان ، ولكنى كدت أن أفقد صوابى ، قفار وليوث وأمراض مروعة وخدام بوجه خاص . . . أبدانهم تغطيها الدمامل ، وتآكل فيها الديدان أو تستحيل الى ما يشبه ذبل السلحاة . . . ثم تقبل الغواية فى شكل امرأة فاتنة . . . لا ، لا ، الانجيل وحده يكفى .

ساروا الهوينى على طول البحيرة وسط عتمة الليل الزاحفة . وكانت هذه أول مرة يدور فيها بينهم مثل هذا الحديث الغريب . فأحس كل منهم وكان نبع ماء منعش مجدد للحياة قد انبثق داخله يبحث عن مخرج يفيض منه ، ويريد أن يكسر القشرة القديمة الصلبة ليتدفق ماؤه الى السطح . . . وأخذوا يقلبون فى رهوسهم كلمات القسيس جريجوريس التى لم يفهموها جيدا : « لعل الله ينفث فيكم من روحه . . . » ينفث ؟ ترى ما عساها تكون روح الله هذه ؟ أهى نسيم ؟ . . . نسيم يحيى العصاراة فى النباتات ، كذلك النسيم الندى الدافىء يهب ساعة الغسق فتخرج البراعم من أكمامها على فروع الشجر ؟ الروح . . . هل يمكن أن تكون مثل هذا النسيم ؟ هل يمكن أن تنفث فى روحنا ؟

وتفكر الرفاق الأربعة وتساءلوا فيما بينهم وبين أنفسهم وحاولوا أن يفهموا . بيد أن أيا منهم لم تطاوعه نفسه أن يسأل جاره ، فضلا عن أنه كان يحس فى سريرته ببهجة فريدة أن يعتصره مثل هذا القلق .

لذلك فقد ران عليهم صمت طويل يرقبون فى سكون هبوط الليل

ولمع نجم المساء فى الأفق البعيد • وعلا نقيق الضفادع عند حافة البحيرة • وعن يسارهم وقف جبل العذراء شامخا غارقا فى الظلام تكسوه خضرة يانعة ، وعلى سفحه مربى الأغنام التى يرعاها مانولى لحساب سيده • وعين يمينهم جبل سازاكينا ، قفرا موحشا يتبدل لونه البنفسجى وتغطيته عتمة الليل بلون أزرق ، والكهوف المتناثرة على سفحه تفرغ أفواهها السوداء • ولكن كنيسة النبى ايليا تطالعك فوق قمته بيضاء ناصعة البياض ، بعد طلائها أخيرا ، دقيقة كأنها بيضة تعلوه وتحف بها صخور ضخمة

وتحت أقدامهم تمتد أرض طرية ينمو فوقها نبات السمار • وتبرق هنا وهناك بين عيدان النبات دودة سراج الليل يشع ضوءها فى وداعة وأناة ، مفعمة بالحب والأمل •

وقال ميشيل :

— أقبل الليل • فهيا بنا نعود الى بيوتنا •

بيد أن ياناكوس الذى كان يسير فى المقدمة توقف فجأة ، ووضع يده ، حول أذنه وتسمع • ثمة وقع أقدام بعيدة كأنها مسيرة جمع غفير من الناس ، وهمهمات خافتة ولكنها تملأ سكون الليل كأنها طنين أسراب من النحل ، وبين الحين والآخر تسمع صوتا قويا عميقا تخال أنه يلقي ببعض الأوامر •

وصاح ياناكوس :

— أنظروا أنتم أيضا ، أنظروا •• ما هذا الجيش الجرار من النمل الخارج من بطن السهل ؟ يتراهى كأنه موكب طويل •

ودققوا النظر عسى أن يميزوا شيئا فى غبش الظلام ، وأرهفوا السمع •

تراهى لهم حشد طويل من الرجال والنساء ، يشق طريقه عدوا وسط حقول القمح وأشجار الكرم • لا ريب فى أنهم أبصروا القرية فأسرعوا الخطو نحوها •

وقال ميشيل :

— أنصتوا ، ألا تسمعونهم يترنمون ببعض المزامير •

ورد عليه مانولى :

- ان صوتهم أشبه بالبكاء ، فأنى أسمع نحيبا .

- لا ، لا ، انهم يترنمون . احبس أنفاسك وارهدف السمع .

وجمدوا فى مكانهم يتسمعون . وأخيرا ترامت الى سمعهم وسط
سكون الليل ترنيمة بيزنطه القديمه جلية مظفرة :

« الهى ، الهى ، خلص شعبك .. »

وصاح مانولى :

- انهم اخوة لنا ، مسيحيون . هيا بنا اليهم ، نرحب بهم .

وبدا الأربعة يسرعون الخطى . كانت طلائع الركب قد بلغت مشارف
القرية . وأخذت الكلاب تعدو فى الطريق وهى تنبح فى جنون . وفتحت
الأبواب ، وأطلت النساء من فوق عتبات بيوتهن ، وخرج الرجال يركضون
والطعام يملأ أفواههم . فقد كانت هذه ساعة العشاء عند أهل ليكوفريس
يتربعون فيها أمام الطبالي لتناول طعامهم . ولكنهم هبوا جميعا عند
سماعهم ترانيم المزامير والبكاء وجلة وقع الأقدام . ولحق بهم مانولى
والرسل الثلاثة .

كان آخر شعاع للشمس لا يزال يلقى بضوئه على بيوت القرية
وحواريها . واقترب الركب وظهر عند مقدمته قسيس نحيل ، أسمر
الوجه ، عيناه سوداوان ، يشع منهما بريق ، ويعلوهما حاجبان كثيفان ،
وله لحية شعشاء مدببة غلب عليها المشيب ، وبين ذراعيه يحتضن انجيلا
ضخما له غلاف ثقيل موشى بالقضه ، وهو يرندى البطرشيل . وعن يمينه
عملاق له شارب أسود متهدل ، ممسك فى يده علم الكنيسة القديم مرسوما
عليه بخيوط من الذهب صورة القديس جورج بقوامه الفارع . ومن خلفهما
سار خمسة شيوخ ضامرون يحملون أيقونات ضخمة صفت على استقامة
واحدة فلا ترى فيها عوجا . وتبعهم جمع من النساء والرجال يصحبهم
أطفالهم فى بكاء ونحيب . أما الرجال فيحملون صررا وأدوات : مجارف
وفؤوس ومعاول ومناجل ، وتحمل النساء مهودا للأطفال وصحافا وكراسى .
تفرق الجمع فى ميدان القرية ، وتقدم ياناكوس ناحية القسيس
وانحنى أمامه وهو يسأله بصوت عال :

- من أنتم أيها المسيحيون ؟ من أين جئتم ؟ وما هى قبيلتكم ؟

ورد عليه الشيخ بصوت أجش :

- أين الأب جريجوريس ؟ أين أعيان القرية ؟

والتفت الى أهل القرية وقد تراحوا حوله فى دهشة وقلق وقال لهم :
- نحن مسيحيون يا اخوتى فلا تخشوا شيئاً ، اننا مسيحيون
ويونانيون ، مطرودون من ديارنا . أدعوا رؤساء القرية فانى فى مسيس
الحاجة الى التحدث معهم . . دقوا الأجراس .

خرت النسوة الى الأرض من فرط الانهاك . وحطت الرجال أحمالها ،
ومسحوا العرق من على جبينهم ، وتطلعوا الى قسيسهم فى صمت .
وقف مانولى قبالة الشيخ الذى حنته السنون وما زال يحمل على ظهره
جوالاً ينوء تحت ثقله وسأله مانولى :

- قل لى يا جدى بحق الله عليك : من أين جئتم ؟

وأجاب الشيخ :

- لا تتعجل يا بنى فان الأب فوتيس سينبئكم بالخبر .

- ماذا تحمل فى الجوال يا جدى ؟

- لاشئ يا بنى . أشياء تخصنى . . قالها الشيخ وهو يحط الجوال فى
رفق وعناية على الأرض .

ظل القسيس واقفا محتضنا الانجيل بين ذراعيه . وأسرع أحد الفتية
ناحية برج الكنيسة وشد اليه حبل الجرس وأخذ يده دقات قوية عنيفة .
وفزعت بومتان وطارتا من فوق شجرة السنار واختفتا فى الظلام .

خرج الأغا ثملاً للغاية ، فترأى له الميدان غاصاً بحشد غريب ليس
من رعيته . وبدأ الطنين يملأ أذنيه . وخيل اليه أن ثمة شخصاً ما يصرخ
أو يبكى ، وربما يغنى - انه لا يدرى ولا يستطيع أن يتبين شيئاً مما يدور
حوله . وما هذا الشئ الذى يحدث صريراً كصريير الجحيم ؟ ربما كان . .
آه الجرس .

ورجع ثانية وهو يقول :

- تعال يا كابتن جرينهورن . أعنى على استجلاء هذا السر الغامض .
ما هذا القطيع الذى يملأ الميدان ؟ ما هذا الصرير ؟ وما هبذه الأجراس ؟
هل أنا فى حلم ؟

خرج الكابتن فورتوناس مسرعاً الى الشرفة . كان قد لف حول رأسه
بوطة بيضاء حتى لا يتصدع . فهذه هى عادته دائماً كلما قضى ليلة ينادم

فيها الأغا ويشاركة شراب العرقى ، ظنا منه أن العرقى قد يفتت رأسه ويتناثر الى ألف قطعة . وبين حين وآخر يفك الرباط ويغمسه فى وعاء به ماء بارد ، ثم يلفه ثانية حول رأسه التى تأججت فيها نيران العرقى ؟
ومال الكابتن فوق حافة الشرفة ، ودقق النظر ، وظن أنه عرف جلية الأمر . ثمة رجال ونساء وعلم حول شجرة السنار

وعاود الأغا سؤاله :

– ما هذا يا كابتن جرينهورون . هل تفهم شيئا مما يدور هناك ؟
ورد عليه الكابتن :

– انهم أناس . يبدو لى ذلك . وأنت يا أغا ماذا تظن ؟

– يخيل الى أيضا أنهم أناس . . ولكن من أين جاءوا؟ ماذا يريدون؟ هل أتركهم وشأنهم ؟ أم أركلهم بقدمى وأطردهم ؟ أم أنزل اليهم بسوطى؟
ماذا ترى ؟

– لا عليك يا أغا . ما جدوى الصراخ أو النزول اليهم بالسوط ، أو بالثورة والغضب ؟ دعهم وشأنهم ولنله نحن قليلا . هل لنا أن نشرب كأسنا
أخرى ؟

ونادى الأغا :

– يوسفافكى . آنتى يا كنىزى الثمين الحشاييا والأقداح ودمجانة العرقى . تعال والى نظرة بنفسك يا عزيزى . . انهم روميون . هل تراهم ؟ يونانيون . لن يمضى وقت طويل حتى يتضاربوا .
وسأل الأب فوتيس ثانية :

– أين الأب جريجوريس ؟ أين الأعيان ؟ أليس هناك مسيحي يذهب اليهم ويستدعيهم ؟

ورد مانولى :

– سأذهب أنا . صبرا قليلا يا أبانا . ثم استدار ناحية ميشيل وقال له :

– ميشيل ، هل تذهب الى أبىك لتنبئه ؟ قل له ان بعض المسيحيين وفدوا الى القرية . مسيحيون أخرجوا من ديارهم يجنون عند قدميه يستجرون به . انه عمدة القرية وهذا واجبه . وسأقصد أنا بيت الأب

جريجوريس • أما أنت يا قسطندى فأسرع الى بيت الشيخ لاداس • قل له أن ثمة أناسا من قرية أخرى وفدوا الينا ، يتضورون جوعا ، لذلك فأنهم يبيعون متاعهم مقابل كسرة خبز • قل له هذا دون أن تخرم منه حرفا والا فانه لن يأتى • وأنت يا ياناكوس ، شق طريقك الى كوخ الكابتن ، قل له ان ثمة أناسا وفدوا الينا من البحر الأسود بعد أن تحطمت سفينتهم وقصدوا قريتنا لأنهم سمعوا عن اسمه الكثير • وعرج فى طريقك على بيت ناظر المدرسة واستدعه • قل له انهم يونانيون يعانون الفاقة والعوز •
وصاح صبي خبيث :

– الكابتن يقضى أمسية أنس مع الأغا • ها هو ذا يطل من الشرفة • • هل تسمعوننى • لقد لف عصا به حول رأسه • ومعنى هذا أن الحمر قد لعبت برأسه •

وسمعوا وراءهم صوتا طروبا يقول :

– عمدة القرية يغط فى نوم عميق ولن يوقظه شيء حتى ولو كان دوى طلقات مدفع •

وتلفت الجمع وراه • كانت كاترينا الارملة قد لحقت بهم لاهثة الانفاس • وكاترينا غانية لعوب ، لها شفتان مكتنزتان • تزينت بوشاح جديد محلى بورود حمراء كبيرة فوق أرضية خضراء • وهى متوردة الوجنتا كأنما بخديها جمرات متقدة • وأسنانها كلؤلؤ منضود تلمع من أثر غسلها بلؤلؤ شجر الجوز •

رمقت كاترينا مانولى بنظرة ماجنة ، وعادت تقول :

– انه فى سابع نومة • يهنا بالسعادة ويفط فى نوم عميق •

ثم أردفت تقول ضاحكة :

– انكم تضيعون وقتكم سدى يا مانولى بايفاد الرسل اليه •

ونظر اليها مانولى ثم غض طرفه وجلا • وقال لنفسه :

– انها امرأة نمره • • نمره تفترس الرجال • • اليك عنى أيها الشيطان •

ودبت الأرملة منه وهى تتكلف الابتسام • تضحكت منها رائحة المسك ، وبدت وكأنها وحش مفترس حقا قد استبد به الشبق • وسمعت وراهها صوتا كالحوار ، فاستدارت • رأت بانايوتى يحدجها بنظرات مفيظة

حانقة • لا بد وأنه كان يجزى هو الآخر ، إذ أنه كان يلهث واستحال لون وجهه المجذور الى لون قرمزي •

وقال مانولى فى لهفة :

– هيا بنا •• هيا بنا •

وانطلق ثلاثتهم عدوا يشقون طريقهم الى أعلى التل ، واختفوا بين الدروب المظلمة •

وخطا بنايوتى خطوة الى الأمام وهو يتميز من الغيظ ويعض على أسنانه • ثم خطا خطوة أخرى وأصبح الى جانب كاترينا • ومال برأسه على كتفها وقال لها :

– ماذا كنت تفعلين هناك عند عمدة القرية يا عاهرة ؟ لماذا ذهبت الى داره •• هه ؟ سأكل لحمك يا فاجرة نيئا •

وقالت الأرملة فى سخرية :

– لست مصنوعة من الجبس •

وانسلت بين صفوف الجمع ، واحتمت بالعملاق حامل العلم •

كان القسيس يروح ويجيء بين رعيته ويصيح فيهم قائلا :

– تشجعوا يا أطفالي • تشجعوا • سيصل الأعيان توا ، وسيأتى قداسة الأب جريجوريس وسيضعون حدا لما نعانيه من عذاب • لقد أفلتنا بعون الله من برائن الموت • سنفرس جذورا جديدة لنا فى الأرض ، ولن تختفى سلالتنا من الوجود • لا لن تختفى أبدا يا ابنائى لأنها سلالة خالدة •

وحدثت جلبة كأنها طنين فى خلية نحل ، ثم خيم الصمت • وفتحت نساء كثيرات صديرياتهن وأخرجن أئدائهن فألقمنها أطفالهن ليسكتنهم • وحط العملاق علمه وركزه فى الأرض • وأراح الشيخ ذو المائة عام يده المعروقة الجافة على الجوال ، والابتسامة تملو شفثيه •

وتمتم الشيخ المعمر قائلا :

– الحمد لله • هانحن ذا سنضرب بجذورنا فى الأرض من جديد • ورشم علامة الصليب •

ظل أهل القرية طوال هذا الوقت يفدون كسيل لا ينقطع لاهتى

الأنفاس • وتعبت الكلاب من كثرة النباح، وأخذت تتشمم هؤلاء النوافدين
الغرباء • ولا زال الفتى الذى تعلق بالحبل يدق الجرس ليوقظ القرية •

كان الليل ساجيا • وامتدت صفحة السماء اللانهائية فوق رؤوسهم
كانها لوحة نسيجها من المخمل وقد أزينت بنجمين كبيرين • ورفع اللاجئون
عيونهم ، وتعلقت أبصارهم بالسماء • وانتظروا ، والثقة تملأ نفوسهم ،
وصول الأعيان ليقرروا مصيرهم • وخيم الصمت على الجميع • واللحظة قصيرة
تناهى الى سمعهم خرير جدول ينساب ماؤه بين الحصى كترنيمه ترتل •
وسمع الأغا صوت تدفق الماء فقال :

- تعال أيها الكابتن الشيطان • صب لنا الشراب • انه حلم • وهذا
الجدول لنا ، ماؤه عذب • املا لنا الكأس حتى لا نفيق • ولكن كن يقظا ،
فاذا ما تقاتل الروميون فأبئنى بذلك حتى أنزل اليهم بسوطى •
- لا عليك يا أغا ، فكلى عيون يقظة • سأنبتك بأمرهم • وها أنا
أرقيهم •

- أذع حسينا وليأت معه بالنفير • ربما أحتاج اليه • وأنت يا يوصوفاكى
أشعل لى الغليون • وأشعل القلام الوسيم الغليون الطويل ذا الجفنة
المصنوعة من الكهرمان • وجلس الأغا على حشيته ، يوصوفاكى عن يمينه ،
ودمجانة العرقى عن يساره ، وهام فى ملكوت أحس معه أنه دخل
الفردوس •

وعاد مانولى مقطوع الأنفاس ، باسطة ذراعيه الى الأمام ، صارخا
بأعلى صوته :

- أفسحوا الطريق • • أفسحوا الطريق يا اخوتى • القسيس قادم •
وهب الرجال واقفين • ورفعت النسوة رؤوسهن وتنهدن • وتمائل
القلم ثم ارتفع ساماقا الى جانب الأب فوتيس • وتصدر الشيوخ حاملو
الأيقونات صفوف الجمع • ورشم قسيسهم علامة الصليب •
وانتظر فى مكانه بغير حراك وتمتم قائلا :

- أعنا يا الهى •

ووصل ميشيل أيضا • اقترب من مانولى وهمس فى أذنه قائلا :
- انه نائم • يغط فى نوم عميق ومن المستحيل ايقاظه • أفرط فى
الشراب كما أفرط فى الأكل • أخذت أهزه فلم يتحرك • ناديته فلم
يسمعنى • لذا تركته وقفلت عائدا •

ثم أتى قسطندى .

وقال وقد تملكه الفيظ :

- هذا العجوز اللعين ثعلب ماكر حقا . شم رائحة شرك ينصب له
تظاھر بأنه مشغول ، وأن وقته لا يساعده على الحضور . يقول اذا كان
هدفكم جمع صدقات فانه لا يملك مليما واحدا يتصدق به . دعهم
لا يترقون بابہ فلن يفتح لهم .

وفي هذه اللحظة وصل ياناكوس .

- ألفت ناظر المدرسة يطالع بعض الكتب . وسيأتى بعد أن
يفرغ من قراءته . ويقول أن كل ما يقرره الأب جريجوريس هو عين
الصواب . هذا ما قاله لى .

وتمتم مانولى فى حسرة :

- ها هم أعيان القرية . أحدهم يفظ فى نومه ، والثانى ثمل من
فرط الشراب ، وثالث يطالع الكتب ، وهذا العجوز البخيل يرقد على
دراهمه عسى أن تفرخ . ولكننى أثق فى الأب جريجوريس القادم الينا
فى الطريق . فهو - انه صوت الرب . وله الكلمة وحده .

وندت صرخة حادة من امرأة شابة علا الشحوب وجهها وسقط
رأسها فوق صدرها . قضت ثلاثة أيام لم تذق فيها طعاما . انهدت قواها
بعد أن كانت تعيش حياة ميسورة ، وها هى تعاني سكرات الموت .

تجمعت حولها النسوة يروحن على وجهها

- تشجعى يا دسبينييو الصغيرة ، تشجعى . هانحن ذا قد وصلنا
الى مكان وفير الخصب ، وقد ذهب أهله ليحضروا لنا طعاما نسترد
به قوتنا . تشجعى للحظة قصيرة ليس الا .

ولكنها أمالت رأسها وأسبلت جفניה ثم غشى عليها .

وفجأة تعالت صيحات الفرح ، ودبت حركة وسط الجموع .
- انه آت . انه آت .

ورفع الأغا جفنين ثقيلتين وتساءل :

- مه يا ناعم الجلد ، ماذا هناك ؟

— لا زلت أقول لك يا اغا دع عنك القلق .. أنت في الفردوس
فلا تخرج منه . وأنا أقف عند بابه حارسا لا تغمض له عين . سأنبئك
بتفاصيل كل شيء . احسبه جريجوريس القسيس وقد خرج على
الناس .

وانفجر الأغا ضاحكا :

— وهل هذه العصابة من الوافدين الغريباء معها قسيسها أيضا ؟
— نعم .

قالها الكابتن وهو يملأ الكأس ثانية .

— حسن . سنرى بعد قليل ما نتسلى به . سيتضارب
القسيسان . هؤلاء القساوسة المباركون أشبه بالنساء ، شعورهم
طويلة ، وإذا التقى اثنان أمسك كل منهما بصفائر الآخر يشدها .
أين حسين ؟ لينزل اليهم ويطلب منهم أن يتحدثوا بصوت عال حتى
اسمع كلامهم .

وفي هذه الأثناء كان بانايوتى يتعقب الأرملة حتى وصل الى حيث
هى بجانب حامل العلم .

ومال بوجهه على أذنيها وهمهم بصوت غاضب :

— سألتهمك الآن . ما الذى أتى بك الى هنا وسط هذا الجمع
من الرجال ؟ عم تبخثن ؟ ارجعى الى بيتك سريعا . أبعدى عن هذا
المكان وسألحق بك .

وانتفضت الأرملة ، ونظرت اليه فى شراسة وقالت له :

— هل أنت أيضا ميت الاحساس لا قلب لك ؟ ألا ترى ما يقاسيه
أبناء المسيح من عذاب ؟ ألا تشعر بشيء من الرثاء نحو هذا الشعب
الذى يقتله الجوع ؟

ولاذت بالصمت لحظة . ثم أدارت له ظهرها . وفجأة أحست أنها
عاجزة عن أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك ، فثمة كلمة قاسية تفص بها .
واستدارت اليه ثانية وصرخت فى وجهه .

— « يهوذا ؟! »

• قالتها وعلى الفور أفلتت هاربة من أمامه لتختفى بين صفوف
اللاجئين .

وأحس بانايوتى بالأرض تميد تحت قدميه . شعر بدوار فى رأسه ،
وكان خنجرا استقر فى قلبه . أمسك بسارية العلم حتى يحمى نفسه
من السقوط ، والتوى حول نفسه ، وظل فى مكانه هكذا فاغرا فاه
وتعالت صيحات هنا وهناك :

وتعالت صيحات هنا وهناك

— « ها هو ها هو ذا الأب جريجوريس . »

واشرابت الأعناق لتبصره . وقف القسيس جريجويس ممثل
الرب فى قرية ليكوفريسي أمام الحشد الذى يتضور جوعا . فارح
القمامة ، شامخا فى جلال مهيب ، يرتدى بطرشيلا من الساتان البنفسجى
الداكن . يلتف حوله حزام أسود عريض ، ويستقر فوق كرشه صليب
فضى ثقيل .

وخر الرجال والنساء ركعا ، وتقدم قسيسهم الضامر خطوات
ناحية القسيس البدين ، خادم الرب وراعى الكنيسة فى القرية ،
وفتح ذراعيه ليعانقه ويقبله فوق كتفيه على عادة الرهبان . وإذا بالأب
جريجوريس ، وقد تجهم وجهه ، يرفع يده البضة اللحيمة يستوقفه فى
مكانه . وألقى حوله بنظرة وحشية ضارية ، ووقع بصره على اناس
يرتدون خرقا بالية ، يقتلهم الجوع ، ويلاحقهم الموت . واشمأزت
نفسه ، وضاق بهم صدره ، وارتفع صوته مدويا :

— « من انتم ؟ لماذا تركتم دياركم ؟ ماذا تريدون منا ؟ »

وارتجفت النسوة عند سماعهن صوته ، وهروا الأطفال ليثوذوا
بأمهاتهم وتعلقوا بشيا بهن . وعاودت الكلاب النباح . وتنبه الكابتن
فى شرفته وأصاح السمع .

وأجاب قسيس اللاجئيين فى هدوء وحسم :

— « يا أبانا . أنا القسيس فوتيس راعى قرية بعيدة هى قرية القديس
جورج . وهذه هى الأرواح التى أئتمنى الرب عليها . أحرقت الأتراك
قرينتنا ، وأخرجونا من ديارنا ، وقتلوا كل من وصلت اليه أيديهم ،
واستطعنا نحن الهرب ، فرحلنا بقلوب مكلومة ائقلها الحزن . المسيح
يتقدمنا ونحن نقتفى أثره . اننا نبحت عن أرض جديدة نتخذها وطننا
لنا . هذه هى قصتنا . »

وسكت هنيهة ، وجف اللعاب في فمه ، كما جفت الكلمات في حلقه .

ثم أردف يقول :

— « اننا مسيحيون ، من سلالة الاغريق ، نسل سلالة عظيمة يجب أن يكتب لها الخلود فلا تغنى أبدا . »

أطل الكابتن من الشرفة والطين يملأ رأسه ، وأنصت الى صوت القسيس الغاضب ، وهو يتحدث بكلمات حاسمة مفعمة بالكبرياء . وبدأت أبخرة العرقى تتبدد رويدا رويدا ، وهو يفيق بعض الشيء .

وقال لنفسه :

— « يا لها من سلالة شيطانية . هكذا هي دائما . عجبا للتعصب ، انها في كل مكان ذريعة لاستنقار الهمم ! انها كالأخطبوط ، تبتز احدى زوائده فلا تلبث أن تنمو زوائد أخرى غيرها ثم سرعان ما تتولد اجيال جديدة ! »

وفك العصابة من حول رأسه . كانت رأسه تغلى حتى أن العصابة كان يتصاعد منها البخار . وعلى مقربة منه كان وعاء الماء البارد . فغمس فيه العصابة ثم لفها حول رأسه ثانية وأحس بالانتعاش .

وصاح الأب فوتيس :

— لن نبعد أبدا . لقد بقينا على قيد الحياة آلافا من الأعوام ، وسنظل على قيد الحياة آلافا أخرى من الأعوام بوركت ساعة لقائنا بك يا اب جريجويس . »

وقال الكابتن فورتوناس لنفسه :

— ان هذا القسيس له صفات الكابتن الاصيل . عجبا لهذه الحمية والقوة والجرسارة التي يتحلى بها هذا المخلوق . قسما بالبحر انه على ضواب فيما يدولى . فنحن معشر الاغريق جنس خالد حقا . حاولوا جهدهم أن يستأصلوا شأفتنا ، وأن يحرقونا ويقطعوا رقابنا ولكن عبثا فقد ذهبت جهودهم سدى : هيهات لهم أن ننكس العلم . اننا نحمل الأيقونات والصحاف ومهود الأطفال والانجيل ونسرع الحطى . نرحل الى مكان قصى ونضرب خيامنا . »

وطفرت الدموع في عينيه ، ومال بجسده على حافة الشرفة وصاح بأعلى صوته :

« برافو أيها القسيس الكابتن . برافو أيها الصديق العجوز . »

وارتفعت الرءوس ، وشخصت الأبصار ناحية الشرفة ، ولكن الصيحة ذابت وسط الجلبة التي أثارتها كلمات القسيس . تذكرت النسوة بيوتهن ، وغمغن بصرخات مبحوحة ، وتذكر الأطفال العبز وانخرطوا في البكاء .

ثم خفتت الجلبة فجأة . فقد رفع القسيس جريجوريس يده الرخصة وبدأ يتكلم .

قال بصوت جهورى :

— ما من شيء يحدث على هذه الأرض الا بمشيئة الله . انه في سماواته العلى مطلع على كل شيء ، يزن أفعالنا ، حسناتنا وسيئاتنا ، ويقدر سبحانه ان تنعم ليكوفريسي بخيراتها ، وان تبلى قريتم بالأحزان المفجعات . وهو العليم بكل ما اقترتم من خطايا .

وسكت هنيهة حتى يستوعب الجمع كلماته الخطيرة . ثم رفع يده ثانية وصاح بنبرة كلها لوم وتأييب :

— قل الحق أيها القسيس . اعترف بما قدمت يداك حتى حق عليك العذاب من الرب .

ورد عليه الأب فوتيس محاولا أن يكظم غيظه الذى بدأ يعتمل في صدره .

— يا أب جريجوريس . أنا مثلك أيضا خادم لله سبحانه وتعالى . وأدرس مثلك أيضا الكتب المقدسة . وأحمل بين يدي مثلك أيضا كأس القداس ، فيه دم المسيح وجسده . نحن سواء شئت ذلك أم أبيت . ربما تكون غنيا وأنا فقير . ربما تملك حقولا خصبة وفيرة تسوق اليها قطعانك للرعى بينما أنا ، كما ترى ، لا أجد مكانا أتوسده . ومع هذا كله فنحن سواء أمام الله . بل وربما كنت أنا أقرب الى الله منك لأننى جائع . واخلض من صوتك ان شئت أن أجيب عليك .

وأصابت الأب جريجوريس غصة . واحس هو الآخر بالفضب يضطرم في صدره . ولكنه تمالك نفسه . اذ تبين له أنه يتصرف على نحو

خاطيء ، وأدرك أن أهل القرية جميعا يقفون شهودا ، ولا ريب فى أنهم بذلك سيقرون هذا القسيس الشرس المهلهل .

فقال بصوت خفيض :

– تكلم ، تكلم يا أبانا . الرب يسمع كلامنا كما يسمعه الناس ايضا ، وكلنا مسيحيون يونانيون . سنبدل كل ما فى طاقتنا ، بل وما هو أكثر ، لننقذ هذه الأرواح المعلقة برقبتك .

– يا أب جريجوريس ، لقد ذاع اسمك وملا الأسماع هناك فى قرينتنا . وها نحن نراك الآن بشحك ولحمك وننصت لكلماتك . سألتنى كيف حلت النوائب بقرينتنا ، وها أنذا أجيب على سؤالك . فاستمع الى يا أب جريجوريس ، واسمعوا أيها الأعيان رغم أنكم ترفعتم عن المجيء الينا لتلتقوا بنا . اسمعوا أنتم جميعا أيها المسيحيون أهل ليكوفريسي .

كان قلب مانولى يدق فى عنف . والتفت الى رفاقه الثلاثة وهمس اليهم قائلا :

– هيا نقرب منه . لنقترب منه حتى نسمع ونرى بوضوح . وقال قسطندى :

– يا مانولى ، انى أرى فيه صورة يعقوب الرسول كما تخيلتها . وقال ياناكوس :

– وأنا أرى فيه بطرس الرسول .

وتدافعت الكلمات على لسان القسيس سريعة عنيفة وكأنه يهرب من الذكرى ، ويخشى أن ينكأ الجروح . وانطلقت كلماته تسمتير الذكريات هنا وهناك ، وتقشعر معها الأبدان .

– ذات يوم تناهت الى سمعنا أصوات من فوق سطوح بيوت القرية تصيح قائلة « الجيش اليونانى ! الجيش اليونانى ! اننا نرى ملابس أهل الجبل فوق قمم التلال . » وسرعان ما أصدرت أمرى « لتدق الأجراس لحن عيد القيامة . ليتجمع الناس فانى أريد أن أتحدث اليهم . » بيد أن الناس جميعهم تدافعوا ناحية المقابر وشرعوا ينبشون القبور وكل يبكى على أبيه « لقد جاءوا يا أبت ! لقد جاءوا يا أبت . » وأضاءوا مصابيح الزيت عند مفترق الطرق ، وأراقوا الحمر

ليبعثوا الموتى الى الحياة . وبعد أن فرغوا من شئوتهم مع الموتى ، توافد الناس الى الكنيسة . واعتليت المنبر وخطبت فيهم قائلاً : « يا اخوتي ، يا أطفالى ، أيها المؤمنون جميعا : لقد جاء اليونانيون والتقت السماء بالأرض . أيها الرجال والنساء . ليحمل كل منكم سلاحه ، وليتعب الأتراك حتى أبواب المجيم . »

وهمس ياناكوس فى اذن القسيس :

- اخفض من صوتك يا أبانا . لا تتحدث بصوت عال . . الأغا فى شرفته ينصت لحديثك .

فى هذه اللحظة عينها هب الأغا واقفا . كان قد غلبه النعاس ، بيد ان أذنه التقطت بعض كلمات تدعو الى التمرد .

- هه . . انت يا كابتن جرينهورن . ثمة أشياء تحدث لا أقبلها على الإطلاق . التقطت أذنى . .

- قلت لك يا أغا لا تعبأ بشيء وخذ الأمور مأخذا سهلا . نم . وها أنا أذنى وإعية تتسمع كل شيء .

- حقا يا كابتن ان بى حاجة الى النوم . . ولكن اذا ألفت القسيسين يتبادلان الشتائم ويمزق كل منهما شعر الآخر هزنى وإيقظنى ، وسوف أنزل اليهما بسوطى لأعيد النظام .

واستدار ناحية يوسوفاكى وقال وهو يغمض جفنيه الثقيلين .

- تعال يا يوسوفاكى . ذلك لى ساقى حتى يغلبنى النعاس .

وخفض الأب فوتيس من صوته :

- أخرجنا السلاح من مخبئه . وتطوقت بجراب الخرطوش ، وحملت صليبى ، واستعرضت أهل القرية فى الميدان وقلت لهم : « يا أطفالى ، هيا ننشد معا النشيد الوطنى قبل أن نتطلق فى طريقنا . آه ، ما أبداع الأصوات . كان برشا حقيقيا للمسيح . لقد اهتزت الأرض حين أنشدنا جميعا بصوت واحد النشيد الوطنى . . .

ونسى الأب فوتيس نفسه وبدأ ينشد بصوت عال :

« بعثت الحرية من بين عظام الاغريق المقدسة . . . »

وهمس ياناكوس فى اذنه ثانية .

— اخفض من صوتك يا أبانا، لا ترفع صوتك هكذا .

وفى نفس هذه اللحظة ، وكأنما نسمع رجوع الصدى . علا صوت
فى الشرفة يكمل النشيد الوطنى اليونانى . كان صوت الكابتن الأجنس :

— لآكن مغوارا دائما . . سلاما ، سلاما ، أيتها الحرية .

وتعملل الأغا لحظة كأن برغوئا لدغه ، ثم غلبه النوم ثانية .

وثب كل من فى الميدان . شخصوا بأبصارهم ناحية الشرفة ،
ولكن الكابتن كان قد جلس ثانية فوق حشيته وعاد يملا كأسه بالعرقى .

وغمغم وهو ينتحب :

— هيا ، فى صحة اليونان المقدسة التى ستكون لها السيادة على

العالم .

— وقال قسطندى :

الكابتن فورتوناس سكران . لقد شعئع كأنه مؤذنة فى ليلة من
ليالى عيد الأضحى . أسأل الله أن يلهمه الصواب فلا تمتد يده الى مسدس
الأغا المعلق بحزامه ويطلقه على رأسه . والا سيكون فى هذا هلاكنا .

وقال ميشيل وقد التهبت مشاعره حماسا :

— ليكن ما يكون ، ولنهلك جميعا ، فان هذا القسيس يهزنى من

أعماقى .

وقال مانولى الذى تعلقت عيناه بشفتى القسيس :

— اهدأوا يا اخوتى ، اهدأوا دعونا نسمع ما يقول .

تملك الغضب الأب جريجوريس . واخذ ينفخ بكل ما اوتى من
قوة . وقال لنفسه : هذا القسيس المهلهل يحاول أن يبدل عواطفهم
ويقلبها رأسا على عقب . ياله من عمل شرير . يجب أن أبحث عن وسيلة
أخرجه بها من قرىتى .

وقال وكأنه يدارى موقفه :

— تكلم . تكلم يا أبانا . لماذا توقفت عن الكلام ؟ هانحن نصنت لك .

وتنهذ الأب فوتيس . وقال بصوت فيه رنة أنين :

— لا ترغمنى يا ابانا على أن أقص ما حدث لنا بعد ذلك . فان صدوى يا ابانا يضم بين جوانحه قلبا وليس قطعة صخر ، وقلبي يكاد ينفطر .

وبدا يبكى . واختنق صوته .

ومال الكابتن على الشرفة ثانية ومسح عينيه بعصابته المبتلة . وغمغم .

— لياخذنى الشيطان . لقد عدت طفلا صغيرا .

وقال الأب جريجوريس :

— هذه ارادة الله . والشكوى خطيئة كبرى .

وانفجر الأب فوتيس قائلا بعد أن استعاد صوته :

— لست أشكو ، فأنا لا أخاف . اننا شعب خالد . أنظر لقد عادت السكينة الى قلبى . سأقص عليكم . لقد تمزقت جيوش الاغريق وأرغمت على التراجع . وبقينا نحن . بقينا وعاد الأتراك . وحين أقول عاد الأتراك فان هذه العبارة تغنى عن كل شيء . احرقوا ، ونهبوا ، واتخذوا الجراح . . . ولم لا . . . انهم أتراك فى نهاية الأمر . وسرت على رأس كل هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة . ها أنت ذا تراهم جاثين أمامك ، انهم مسيحيون . عدد من الرجال ، ومثلهم من النساء أو يزيد قليلا ، وعدد غفير من الأطفال . . . لقد أنقذنا الأيقونات والانجيل وعلم القديس جورج . حملنا معنا كل ما استطعنا حمله . سرت فى طبيعتهم ، وهكذا بدأت مسيرة الخروج مطاردة ومجاعة وأمراض . مضت أشهر ثلاث ونحن نواصل المسير ، ولقى كثيرون حتفهم على قارعة الطريق وأريناهم التراب ، وواصلنا المسير ، نحن من بقينا على قيد الحياة . مع المساء نخط الرحال ، وقد أضنانا التعب . كنت أمسك بقلبي بين جوانحي ، أستجمع همتى ، واقف بينهم ، أقرأ عليهم الانجيل ، وأتحدث اليهم عن الرب واليونان . ومتى مضى الليل نكن قد استعدنا بعض قوانا ، وفى الصباح نبدأ المسيرة من جديد ولقد علمنا أن وراء جبل العذراء تقع قرية ليكوفريسي ، وهى قرية خصبة غنية ، أهلها أناس برة . وقلنا لأنفسنا : انهم مسيحيون ويونانيون . خزائهم ملأى ، وأراضيهم واسعة ، ولن يسلمونا ليد المنون . وهانحن ذا قد أتينا اليكم . فسلاما عليكم أيها الاخوة المسيحيون أهل ليكوفريسي . وشكرا لله .

ومسح الأب فوتيس حبات العرق التي لمعت فوق حاجبيه ، ورشم
علامة الصليب ، وانحنى فوق الانجيل وقبله .
ثم قال وهو يلوح بانجيله الضخم عاليا :
« ليس لنا أمل سواه ، ولا عزاء لنا فى غيره . »

وفاضت العيون بالدموع . واقشعرت ابدان الجمع فرعا . واتكا
مانولى على ذراع ياناكوس حتى لا يسقط على الأرض . وحبس ميشيل
دموعه ، واخذ يلوى شاربه فى حركة عصبية . وحتى بانايوتى أغرورقت
عيناه بالدموع . الآن فقط أبصر الجميع الدنيا من حولهم بعين كلها حنو
وشفافية . وانخرطت الأرملة أيضا فى نحيب ، كانت تبكى أبناء
المسيح واليونان ، تبكى الرجال والنساء الذين التفوا حولها ، وتبكى
نفسها وخطيئتها وعازها وهناك فى الشرفة المطلة عليهم أخذ الكابتن
فورتوناس يضغط بيده على شفتيه ليحبس نشيجه حتى لا يوقظ
الأغا الذى يغط فى نومه . .

اننان فقط لم يبكي : القسيسان . . أما احدهما فلأنه عاش كل
هذه المآسى وبكاها من قبل . والثانى لأنه غارق فى التفكير ، وقد استبد
به الهم ، بحثا عن وسيلة يتخلص بها من هذه العصابة الجائعة وقائدها
الشرس العنيد الذى يفسد عليه نفوس رعاياه .

واستطرد الأب فوتيس فى حديثه ، ولكن بنبرة أقل حدة هذه
المرّة :

« وجد بعضنا فسحة من الوقت للذهاب الى المقابر ، وأخرجوا
عظام اجدادهم ، وحملوها معهم لنتخذ منها أساسا لبنى عليه قريتنا
الجديدة . انظر الى هذا الشيخ المعمر الذى بلغ عامه المائة ، لقد حملها
على ظهره طوال الشهور الثلاثة .

أحس الأب جريجوريس أن أعصابه لن تحتمل المزيد . وقال :

« كل هذا جميل يا أبانا . ولكن ماذا تنتظر منا ؟

وأجاب الأب فوتيس :

« أرضا نتخذها مستقرا لنا ، نضرب فيها بجذورنا من جديد . قيل
لنا انكم تملكون أرضا بورا ، لاستفيدون منها بشيء . امنحها لنا
ولنقتسم حصيلتها ، نبذرها حيا ، ونحصد غلتها نصنع منها خبزا
نطعمه هذا الشعب من الجوعى . هذا هو مانطلبه يا أبانا .

وزمجر الأب جريجوريس كأنه كلب حراسة . ماذا ؟ هل سينتزع

منه هؤلاء المسئولون بعض أملاكه ؟ وتحسس لحيته ، وغرق في التفكير .
وتعلقت أبصار الرجال والنساء بشفتيه . وخيم صمت ثقيل .

وهب الأغا من نومه قلعا :

— لماذا سكتوا ؟ ألم أمرهم بالصياح ؟

وقال الكاتبن :

— نم يا أغا . نم . لم يبدأ العراك بعد .

— ماذا بك . انك تتحدث بصوت متهدج — لماذا ؟ هل أنت سكران ؟

وتمتم الكاتبن وهو يمسح دموعه :

— آه ، انه العرقى ، وما أدراك ما العرقى ، انه ليس بماء .. لقد

أخرجنى هذا اللعين عن صوابى .

ضابت نفس مانولى ولم يعد يطيق صبرا . ولكن أنى له الشجاعة ،

وهو الخادم ، ليدفع بنفسه الى مقدمة الحشد ويتكلم امام القرية

جميعها .

وصاح :

— يا أبانا ، ايها القسيسين جريجوريس . استمع الى صوتهم .

المسيح جائع . انه يسأل الناس الصدقات .

واستدار الأب جريجوريس ناحيته وقد جن جنونه :

— اخرس أنت .

وخيم الصمت ثانية ، وكان لا يزال صمما ثقيلًا . واقترب

قسطندى وياناكوس ووقفا بجوار مانولى كأنما يريدان حمايته . أما

ميشيل فقد استبدت به الحيرة ، وتقدم بخطوات مترددة ناحية مانولى .

وقال له مانولى :

— اذهب أنت لتوقظ أباك . عجل ، انه أنسان ذو قلب ومرورة ،

ربما يرق لحالهم . ألا ترثى لحالهم ياسيدى ؟

— أننى ارثى .. ارثى لحالهم .. بيد أننى اخشى ان اوقظه .

وقال مانولى :

— الله أحق أن تخشاه يا ميشيل ، الله وحده وليس البشر .

واحمر وجه ميشيل . كيف جرؤ خادمه على أن يتحدث اليه

بهذه اللهجة ؟ ما صفة هذا الذى يحادثه ؟ ما شأنه هو حتى يصدر

الأوامر ؟ وتجهم وجهه ولكنه لم يبد حراكا ينم عن رغبة في الذهاب ليوقظ أباه .

الأب جريجوريس لا زال صامنا يتفكر طوال هذه الفترة .
يقلب الرأي فيما بينه وبين نفسه ، يفتش في ذهنه عما عساه أن يقول ، وما عساه أن يفعل ، ليخرج هذه الذئاب الجائعة من أرضه . وأحس أن كل من حوله من رعيته بدأوا يتململون ، وهم على وشك أن يفلت زمامهم من بين يديه . . ما العمل ؟ هل يدعو الأغا ؟ ولكن ماذا يقول أهل القرية عنه لو لجأ الى تركي ليحكمه بينه وبين هذا الشعب الذي أخرج من دياره ، لا شيء الا لأنه حارب الأتراك ؟ هل يستدعي الأعيان ؟ انه لا يثق الا في واحد منهم فقط وهو الشيخ لاداس . اما عمدة القرية ، هذا العجوز المخرف ، فانه سرعان ما يطفرف الدمع في عينيه . انه سيلبى طلبهم . ونانيهم الكابتن . هذا الشخص القذر المقيت ، فمن المؤكد أنه سيقول نعم . . اذ ماذا سيخسر هو ؟ ومثلها ناظر المدرسة ، هذا الثرثار الواهم ، يضع على عينيه نظارة ويحلم بأفكار عظيمة ، ولا يعرف كيف يقسم الشعر بين حمارين . .

وقال القسيس فوتيس وقد بدأ ينفد صبره :

- يبدو يا أبانا أن الله يحتاج الى وقت طويل حتى ينير بصيرتك .
وثارت تائرة القسيس جريجوريس ، وأراد أن يدفع الحجة بحجة مثلها فقال :

- نعم ، انه يحتاج الى وقت طويل ، لأن ثمة أرواحا معلقة برقبتي أنا أيضا ، وأنا مسئول عنها أمام الله يوم الحساب .

ولكن :
بين قال له :

- كلنا راع ، وكل مسئول عن أرواح البشر جميعا . فلا وجه لتمييز يا أبانا بين من هم « رعيتك » ومن هم « رعيتي » . .

وتمنى الأب جريجوريس لو كانا وحدهما اذن لا نقض عليه واحكم قبضته حول رقبته وقتله خنقا . ولكن ما الحيلة ، والأمر على غير ما يهوى ؟ وكظم غيظه . وعلى أية حال لا بد له أن يتكلم ، فليس بوسعه أن يظل صامتا . فالعيون كلها معلقة به . وفتح فمه :

- اسمعني يا أبانا . .

- ها أنذا أستمع اليك .

قالها الأب فوتيس وقد تشمشت يده بالانجيل الضخم وكأنه

يتمنى لو استطاع أن يرميه به على أم رأسه .

لم يكن الأب جريجوريس قد اهدى بعد الى ما عساه ان يقول .
وحدثت المعجزة التي يتمناها في اللحظة المناسبة . اذ دوت صرخة عاتية
سقطت على اثرها دسبينيو ، التي هدها الهزال ، جثة هامدة . وتدافع
نحوها رفاق الطريق لانتشالها ولكنهم تراجعوا في فزع : علت وجهها
صفرة شاحبة ، وتورمت قدمها ، وانتفخ بطنها كرق مشدود ، وأزرق
شفاتها .

ورفع القسيس جريجوريس يديه الى السماء مبتهلا الى الله ،
وصاح بأعلى صوته ، وهو يحاول جاهدا أن يوارى فرحته :

— يا ابنائي في هذه اللحظة المروعة تولى الرب بنفسه عنا الاجابة .
أنظروا الى تلك المرأة ، اقتربوا منها ودققوا النظر : بطن منتفخ ،
وقدمان متورمتان ، ووجه علتة الزرقة .. انها الكوليرا .
وتراجع الجمع في فزع .

وصاح الأب جريجوريس مرة ثانية :

— انها الكوليرا .. هؤلاء الغرباء وفدوا الى القرية يحملون معهم
قصاصا مروعا . الويل لنا ، انا هالكون . حذار أن تأخذكم بهم رافة .
تفكروا في أمر أطفالكم ونسائكم وقريرتكم . الأمر هنا لله وحده وليس لي .
ثم أشار الى جثة المرأة الملقاة وسط المذبح وقال :

— سألني القسيس ردا ، وهاكم الرد .

ضم الأب فوتيس الانجيل الى صدره ، وناه ترتجفان . ووثب
ناحية الاب جريجوريس ، وحاول أن يتكلم فلم يستطع : فقد احتبس
الكلام في حلقه .

ومن فوقهم نهض الكابتن في الشرفة مترنحا . وغمس عصابته
ثانية في الماء البارد ، كان الدم يتدافع حارا الى رأسه . وربط العصابة
من جديد ، وأفاق لنفسه . كان الماء يتفرق فوق وجنتيه الشاحبتين
وذقنه الأمر وصدرة الأجرد الذي دبغه ملح البحر .

وغغم الكابتن وقد عقد السكر بعض لسانه ، فخرجت الكلمات
من فيه متشرة :

— هذا التيس البدين المبطن انتصر على قسيس اللاجئيين المسكين .
يقول الكوليرا .. آه ما اقبحه هذا العجوز المفترس . ولكن الأمر لن
ينتهي عند هذا الحد .. ابدا . سأنزل اليهم واصرخ فيهم قائلا :

« كاذب كاذب . انا أيضا واحد من اعيان هذه القرية ولى أيضا الحق في ان ادير دفة الامور فيها ، ولى مثله الكلمة وسوف أتحدث اليكم . ونهض من مكانه ، وسار مترنحا يمنة ويسرة حتى بلغ الباب ورفسه بقدمه وفتحه . ووقف هنيهة عند أول الدرج ، كان كل ما حوله يدور ويتمايل : المصباح المضيء ، والسيوف المعلقة على الجدران ، وحسين الذي تكور حول نفسه وهو نائم ، والبساق والطرابيش الحمراء . احس وكان البيت كله يميل تحت قدميه . فأمسك بالدرابزين وامتدت ساقه الى الامام ، وخيل اليه وكان أجنحة قد ركبت له . وأخذ الدرج يعلو ويهبط كأنه موج البحر . . وارتكز بقدمه على الفراغ ، فسقط على أم راسه وتدحرج فوق الدرج . وصحا الأغا فرعا على صوت الجلبة التي أحدثها سقوطه . وصرخ :

— آه يا كابتن من الذى جدد انفا الآخر ؟

وبسط ذراعيه وسط الظلام يتحسس ما حوالبه داخل الشرفه فلم تقع يده على احد . وتحامل على نفسه ليقف ، ولكنه سقط ثانية في مكانه فوق الحشية بجوار يوسفافى الذى راح في سبات عميق واللبانة في فمه . وتحسس الأغا بقدمه الجسد الدافئ العطر وابتسم . وقال بصوت حنون :

— جيبى يوسفافى ، أنت نائم يا كنزى

وأسند راسه الى الصدر الفضى ، وأغمض عينيه ونسى كل شيء وهام في بحر من السعادة .

وترددت أصداء صوت الأب جريجوريس ، ولكنه هذه المرة صوت هادىء يذوب رقة :

— سمعنا منك يا أخى حديثك عن آلامكم ، وانفطرت قلوبنا لما سمعناه . وها أنت ذا قد رأيت عيوننا تذرف الدمع سفاحا . وفتحنا لكم ذراعينا لنستقبلكم . وفي نفس هذه اللحظة أشفق علينا الرب وأرسل الينا تحذيره المروع . انكم يا أخوتى تحملون معكم موتا زواما . اذهبوا عنا وليشمكم الرب بعنايته ولا تلتحقوا الخراب بقريتنا .

وعلت صيحات التأوه والأنين بين صفوف اللاجئيين عند سماعهم لهذه الكلمات . وشرعت النسوة تولول وتلطم الصدور . ونظر الرجال

بعيون زائفة الى قسيسهم . واستبد الفزع بأهل ليكوفريسي ، ونظروا
في هلع الى الجثة المسجاة المتصلبة وسدوا أنوفهم .

وارتفعت الصيحات من كل جانب :

– ارحلوا عنا . ارحلوا عنا .

وقال شيخ بصوت كأنه النهيق :

– أحضروا جيرا وألقوا به على المرأة الموبوءة بالكوليرا حتى لا يفسد
الهواء بجراثيمها .

وصاح الأب فوتيس :

– لا تخشوا شيئا يا اخوتي . هذا غير صحيح ، لا تصدقوه . انا
لا نحمل وباء وانما نحن جوعى ، هذا كل ما فى الأمر . أقسم لكم أن هذه
المرأة أماتها الجوع .

والتفت ناحية الأب جريجوريس وزأر :

– أيها القسيس المبطن . أيها القسيس ذو اللحية المزدوجة . أسأل
الله العلى القدير ، السميع العليم ، أن يصفح عنك . أما أنا فلا أملك
الصفح . أسأل الله أن تقع عاقبة وزرك على رأسك أنت وحدك .

وصاح عجوز من أهل ليكوفريسي :

– أستحلفكم بفضل الله ونعمته أن ترحلوا . ان لى اطفالا وأحفادا
فلا تكونوا سبب خرابنا .
واستبد الهلع بأهل القرية . وقست قلوبهم فهى كالحجارة . ولوحوا
بأيديهم وهم يصرخون :

– اذهبوا . اذهبوا .

وضم الأب جريجوريس ذراعيه الى صدره وقال بصوت جهورى :

– صوت الشعب من صوت الله . اذهبوا . كان الله معكم .

وصاح الأب فوتيس ثانية :

– أسأل الله أن تقع عاقبة وزرك على رأسك أنت وحدك . انا
راحلون . انهضوا يا أطفالى . تشجعوا . انهم لا يريدوننا ونحن أيضا
لا نريدهم . لنواصل مسيرتنا فأرض الله واسعة .

وقفت النسوة وهن يترنحن • ورفعن أحمالهن • ورفع الرجال
الصرر والأدوات • وتقدم حامل العلم وتصدر الجمع • وانخرط مانولى فى
البكاء • وانحنى لياخذ بيد الشيخ المعمر ، يعينه على النهوض ، ووضع على
ظهره جوال العظام • وقال له :

– ثق بالله يا جدى ولا تياس •• ثق بالله •

والتفت اليه المعمر بوجه صارم وقال :

– بمن غيره نثق فيما تظن ؟ فى الناس ؟ أمآ رأيت ما فعلوه الآن ؟

آه •• أف منهم •

ولم يكد الجمع يتأهب للرحيل حتى توقف الأب فوتيس فجأة • تطلع
الى شعبه •• هياكل عظمية خائرة القوى • فانقبض قلبه • وصاح
قائلا :

– اخوتى أهل ليكوفريسى • لو كنت وحدى •• لو كنت مستولا أمام
الله عن نفسى فقط ، مارضيت لنفسى ذل السؤال فأمد اليكم يدي كشحاذ •
لو كنت كذلك لآثرت الموت جوعا • بيد اننى أشفق على النساء
والأطفال ، فلم تعد قواهم تعينهم على الوقوف ثانية • سيسقطون جميعا
صرعى الجوع فى الطريق •• ومن أجلهم فقط أغض الطرف عن العزة وكرامة
النفس ، وأمد اليكم يدي أسألكم صدقة أيها المسيحيون • سنسبط لكم
أغظيتنا والقوا فيها بما تجود به نفوسكم – كسرة خبز ، أو زجاجة لبن
نرضعها الأطفال ، أو حفنة زيتون •• فاننا جوعى •

وبسط رجلان بطانية وسارا بها عند أول الركب •

وقال القسيس وهو يرسم علامة الصليب :

– باسم يسوع المسيح نبدأ مسيرتنا ثانية • هيا يا ابنائى • تشجعوا
لنتجرع هذه الكأس أيضا • حمدا لله • سنسير بين دروب القرية نظرق
الأبواب • آه وا أسفاه ••••• ألهذا أتينا •• سننادى : صدقة • صدقة •
تصدقوا علينا ببعض ما يفيض عن حاجتكم ، ببعض ما تلقونه للكلاب
عضوا على النواجذ يا ابنائى واكظموا أحزانكم • تشجعوا • الغلبة
للمسيح •

• ثم توجه بالحديث الى الأب جريجوريس :

– الى لقائنا الثانى يا أب جريجوريس • الى اللقاء يوم الحساب •

سنقف جميعا بين يدي الله ، نحن وأنتم ، وسيحكم بيننا •

كانت الأرملة كاترينا هي أول من اندفعت الى الامام بين صفوف القوم تقدم صدقتها . فكت وشاحها الجديد ، الوشاح الأخضر المحلى بورود حمراء كبيرة ، ووضعت داخل البطانية . ومدت يدها الى صدرها تبحث عن شيء ، ووجدت مرآة صغيرة وزجاجة عطر ، وألقت بهما أيضا فى البطانية وقالت وهي تبكى :

— لا املك غير هذه الأشياء يا اخواتى . لا املك شيئا آخر .
اسألکم الصفح

وتردد قسطندى لحظة ، ثم تذكر انه أخذ على عاتقه حملا ثقيلًا ، ان يقوم بدور رسول ، فهب يعدو ، وفتح حانوته ، وخذ كيس سكر وعلبه بن وزجاجة براندى ، وبعض الأقداح ، وقطعة صابون ، ووضعها جميعا فى البطانية .

وقال : انها تقدمه صغيرة ، ولكنها تكفى تعبيرا عن المودة . كان الله معكم .

وطرقوا الأبواب جميعها بابا بعد آخر . امتدت يد خلصة وعلى عجل، ألقت ببعض الطعام والملابس فى البطانية ، ثم اغلقت الباب بقوة حتى لا تتسرب اليها الكوليرا .

وبلغ القوم بيت الشيخ لاداس ، وطرقوا بابه . ظل الباب موصدا . وانطلقا الصباح الذى كان نوره باديا من النافذة . ولكن ياناكوس ، الذى صاحب القوم هو والرسول اخلايه ، طرق الباب بقوة وصاح :

— يا أب لاداس . انهم مسيحيون . انهم جوعى . كل منا يتصدق عليهم بكسرة خبز ، فتصدق عليهم أنت أيضا .

وسمعا صوت العجوز لاداس غاضبا ، يقول لهم من داخل البيت :

— ما يحتاجه بيتك فهو حرام على الجامع .

وضم ياناكوس قبضتيه وقال متوعدا :

— سأصفى حسابى معك يوما ما ياعدو المسيح .

وصاح ميشيل :

— هيا بنا يا اصدقائى الى بيت العمدة الشيخ بطرياركاس .

ثم التفت الى رفاقه الثلاثة وقال :

– هيا أسرعوا • لنتتهز فرصة نومه ، وندخل مخزن المون ، ونستولى على كل ما تصل اليه أيدينا •

وسأله مانولى ساخرا :

– وماذا لو ضاق الشيخ بفعلتنا هذه ؟

ورد عليه ميشيل :

– ليس عليه الا أن يشرب بعض النبيذ ، فيذهب عنه الهم • هيا عجلوا •

انطلقوا فى طريقهم عدوا ، فرحين كأنهم ذاهبون لنهب بلدة معادية • فى هذه الأثناء كانت الأرملة فى طريقها الى بيتها • كتفاها ترتجفان اذ كانت مقرورة ، ولكنها كانت تبتسم راضية مبتهجة • تقول لنفسها : وما قيمة هذا كله • ان امرأة أخرى قد تتدثر بوشاحى فلا تحس بلسعة البرد •

وفى هذه اللحظة تردد وراءها ضدى صوت أجش • وأحست بأنفاس دافئة حول رقبتها ، ويدان غليظتان تطبقان عليها •

– يا عاهرة • اشتريت لك هذا الوشاح بدم قلبى • • ثم تتصدقين به؟ سأخنتك حتى أرديك قتيلة •

كان الطريق قفرا • وتملك الأرملة الحوف • وأحست بتوار من اثر الأنفاس التى تفوح منها رائحة النبيذ، وألفت عينين متضرعتين تحدقان فيها وهمست قائلة :

– بانايوتى • أنت وحش كاسر ، بيد أنك طيب القلب • ارحمنى فلن أعود الى ذلك ثانية •

– لماذا ناديتنى يهوذا • • هه ؟ لقد طعنتنى بخنجر فى قلبى • تسأليننى الرحمة ولم تأخذك الرحمة بى ؟ هل لن تدعنى معك الى البيت هذه الليلة ؟

وخيم صمت مطبق • ثم قال فى ذلة :

– ادعنى الى بيتك • ليس لى من عزاء فى هذه الدنيا سواك أنت يا كاترينا •

أحست الأرملة برغبة الرجل الدافئة الملحة تحيط بها من كل جانب وهو غارق فى العرق والدموع • وسرت فى جسدها رجفة •

وقالت بصوت واهن :

- تعال .

وسارت في المقدمة وردفاها يترجرجان . واقتفى بانايوتى أثرها
تحت جنح الظلام ، مأخوذاً ، لاهثاً ، وسار محاذياً للجدار .

بلغ حشد اللاجئين بيت عمدة القرية . كان ينتظرهم عند باب الدار
أربعة رجال ، يحمل كل منهم سلة كبيرة ملئت عن آخرها .

وقال ياناكوس :

- يا اخوتي . لن تسع البطانية كل هذا . اذن ليحملها أربعة
من الفتية الأشداء على ظهورهم .

وقال ميشيل :

- ليحفظكم الله ويرعاكم أيها الرفاق ، ونسالكم الصبح والغفران .
وأصفحوا عن الشيخ بطريار كاس كذلك .

وردت عليه اصوات الرجال والنساء مفعمة بالفرح :

- مفعورة لكم خطاياكم .

ولم تكد أيديهم تمتد الى سلة من السلال حتى بدأت أسنانهم تعمل
في نهم .

وقال العملاق حامل العلم ، وقد أمسك برغييف كامل :

- ماذا نحتاج يا أطفالى لنقهر الموت ؟ ماذا نحتاج ؟ كسرة خبز ليس

الا .

وقال ميشيل وهو خارج من الفناء :

- لا زال الشيخ يغط في نومه .

وقال ياناكوس :

- انه يغط في النوم ويحلم انه في الفردوس . تسير امامه أربع
سلال بدلا من الملائكة يفسحون له الطريق .

وانفجروا ضاحكين ، فقد خفت أحزانهم .

بلغ الرفاق أطراف القرية ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، غللات
حانية زرقاء عطرة الأريج . وسكتت الكلاب الا عن نباح قليل . وأخذوا

طريقهم الى بيوتهم ، نفوسهم راضية اذ ادوا واجبهم . وفجأة طالع جبل سارا كينا الشعب المقهور : موحشا وعرا مليئا بالوهاد . وقال مانولى لرفاقه :

– لنذهب الى القسيس نحياه تحية الوداع . انه ليس قسيسا بل هو موسى على رأس شعبه المقهور فى الصحراء .
واسرعوا الخطى .

امسك مانولى بيد القسيس يقبلها . وقال له :

– يا ابانا . اعرف ان قريتنا اقترفت خطيئة فى حقكم . اسالك ان تتشفع لنا عند الله كى يرفع عنا اللعنة التى تنقل كاهلنا .
وامتدت يد القسيس المعروقة الجافة لتستقر فى حنو فوق الشعر الأشقر :

– ما اسمك يا طفلى ؟

– مانولى .

– ليس فى نفسى شىء ضد أهل القرية يا مانولى . فهم ناس بسطاء سذج . لا يملكون غير الطاعة لأولى الأمر منهم . وهذا حق . بيد ان ولى الأمر فيهم ، وليغفر الله لى ، ليس الا شيطانانا فى مسوح قسيس .
وسرح بفكره لحظة . ثم أردف يقول :

– ان ما قلته الآن قول خطير . انه ليس بشيطان بل فظ قاسى القلب ، وستعلمه النوائب كيف يكون رحيمًا .

ثم تطلع الى ميشيل الذى كان يمسك بيده وسأله :

– وأنت يافتى – قل لى من أنت ؟

ورد عليه مانولى :

– هذا ميشيل ابن عمدة القرية .

– قل لأبيك يا فتى ان الله سيدكر له هذه السلال الأربع فى لوحه المحفوظ الذى يسجل فيه أفعال البشر . وسوف يجزيه الله عنها خيرا الجزاء ، فان الله يربى الصدقات ويجزى الحسنة بعشر أمثالها . ان السلال الأربع سيكون له مثلها فى الآخرة أضعافا مضاعفة مثلما كانت الأربعة الخمسة .

واقترب ياناكوس وقسطندى بدورهما .

- أنا يانوكوس بائع متجول وآثم اقترف الكثير من الكبائر . وهذا قسطندى صاحب المقهى . امنحنا بركاتك يا أبانا .

مسح الأب فوتيس رءوسهم بيده الجافة ومنحهم بركته . وقال لهم :

- والآن يا أبنائى عودوا الى بيوتكم . بارككم الله .

وتطلع القسيس حوله . الليل حالك الظلمة ساج . وأوراق الشجر جامدة بغير حراك . وعلى صفحة السماء جيش جرار من النجوم الساطعة . وفوق رءوسهم يعلو جبل ساراكيننا شامخا .

وقال ياناكوس :

- هناك كهوف كثيرة يا أبانا . ويروى ، فيما سمعت ، أن المسيحيين الأول سكنوا ذات يوم هذه الكهوف . وفى أحد الكهوف صخرة نقشت عليها صورة العذراء والصليب ، لاتزال آثارها ظاهرة للعيان . لابد وأنهم اتخذوا من هذا الكهف كنيسة لهم .

وأضاف قسطندى :

- ويوجد ماء أيضا ، تنساب قطراته من بين الصخر ، صيفا وشتاء . تسمع خريره بعد أن تتسلق الجبل لمسافة قصيرة . ويسكن الجبل كذلك طير الجبل . وتعلو قمة الجبل كنيسة النبى ايليا .

وقال مانولى :

- تستطيعون أن تناموا ليلتكم فى المقارات . وبوسعكم أن تشعلوا النار وتعدوا طعامكم فالجبل ملىء بالحطب . واذا لاممكم المكان فانكم تستطيعون أن تتخذوا منه مستقرا لكم وسكنا الى حين ، تخلدون فيه الى الراحة . ان النبى ايليا ، حامى الجبل ، يحب المقهورين .

ورفع الأب فوتيس بصره يتطلع الى الجبل . وتأمله لفترة طويلة ، بينما الرفاق الأربعة يرقبونه مأخوذين . وطافت برأسه سلسلة من الأفكار ارتسمت على وجهه المتعبد كأنها موجات غروح وتغردو ، وتاهت عيناه فى عماء اللانهاية .

وفجأة ، وكأنه اتخذ لتوه قرارا ، رسم علامة الصليب . وقال :

- ان الله هو الذى يتكلم بلسانك يا مانولى . الناس يطاردوننا فى

كل مكان نحل به • اذن لنشارك الوحوش سكنى هذه الكهوف • كان الله
فى عوننا •

ورفع الانجيل وبارك الجبل • وتمتم قائلا :

- أيتها الصخرة السماء ، يا ابنة الاله القوى القدير • أيتها المياه
الجارية أبدا ، تتفجر من بين الصخر لتطفىء ظمأ الطير والجوارح • أيتها النار
الكامنة فى باطن الشجر تنتظر الانسان حتى يوقظها من مكمناها فتكون
له عوننا فى حياته • بارك الله ساعة لقائنا بكم • نحن بشر يطاردنا اخوة
لنا • نفوس فظة قاسية ، وأخرى أثقلتها الأحزان • أيتها الطيور والجوارح
نسألکم أن تحسنوا لقاءنا • لقد أتينا الى هنا بعظام الأجداد ، وعدة العمل ،
وبذرة الانسان • أدعو باسم الرب أن تجد سلالتنا مستقرا بين هذه
الصخور القفار •

وتحسس بيديه فى عممة الليل حتى اهتدى الى طريق يسلكه ، ثم
استدار ناحية الجمع الذى كان ينتظره فى وجوم ، وصاح بهم :

- اتبعونى •

ثم قال مخاطبا الصحاب الأربعة :

- المسيح قام • اسأل الله يا ابنائى أن ينعم عليكم بالصحة ويشرح
صدوركم •

وأجابوا :

- بالحقيقة قام •

وتساندوا على بعضهم وهم يرقبون جموع اللاجئین يعتلون الجبل •
سار فى ظليعتهم القسيس ، وحامل العلم ، والشيوخ حملة الأيقونات ،
والمعمر حامل جوال العظام • ثم النسوة واحدة وراء الأخرى وهن يحتضن
أطفالهن • والرجال من ورائهن فى مؤخرة الطابور •

وهرعان ما اختفوا عن الأنظار تحت جناح الظلام •



قَدَّيسُون وَلِصُوص

اضاءت الام المسيح وقيامه المجيد حياة اهل القرية اسبوعا كاملا . امتلأت البيوت بكعك عيد القيامة والبيض الأحمر ، وتزوجت الحدائق بالورود ، ونعمت رءوس كبار المزارعين بالراحة ، اذ طردوا عنها الى حين هموم مصالحتهم الانانية النكدة . وهكذا هنتت حياتهم التمسمة اسبوعا بالخلاص من نيرها . وها هي اليوم كحيوان ضخم يحرك راسه الثقيل ومنخرية المزبدین لیسلم رقبتة لنیر العمل الیومی من جدید .

وبانتهاء العيد ، نهض ياناكوس مبكرا في الصباح ودخل الحظيرة المعتمة التي يسكنها حمارة ، احب اصدقائه الى نفسه ، ينام فيها ويحلم . عبت الحظيرة برائحة الروث والأبخرة العطنة التي تشبه رائحة العالم في اقدم العصور ، فلا ريب في ان هذه كانت رائحة العالم أيام الخلق الأولى .

فتح الرفيق الوفي في دعة عينيه الواسعتين بأهدابهما الطويلة . واستدار ناحية ياناكوس ، وعرف فيه صاحبه : رفيق الطريق والشقاء ، الذي اعتاد ان يضع على ظهره حملا ثقيلًا ويطوف به بين القرى ثم يعود به الى هذه الحظيرة الصغيرة حيث يقدم له الماء القراح ليشرب والتبن والشعير لياكل . ورحب به على طريقته بأن هز له ذبله ونهق بكل قوته فرحا .

اقترب منه ياناكوس وربت على كفله الاسود اللامع ، وبطنه الأبيض

الناعم ، ورقبته الدافئة . وقبض بيد على احدى أذنيه الكبيرتين وأمسك
بالأخرى خطم حيوانه الحبيب وبدأ يناجيه :

- حبيبي يوسفواكى (وهذا هو اسم التدليل ، سماه به سرا
ولا يعرفه الأغا) . انتهت عظة العيد يا يوسفواكى الحبيب . المسيح
قام ! لقد قضينا اجازة طيبة وليس لك أن تشكو الآن . احضرت لك
عليقا مضاعفا . وجمعت لك عشبا طازجا يفتح شهيتك . وقدمت لك
هدية عيد القيامة ، طوقا من الحجر الأزرق يقيك شر الحسد ، تضعه
حول رقبتك الرشيقة . وعلقت في الطوق فص ثوم كتعويذة ، حتى
تطمئن تماما على جمالك يا يوسفواكى الحبيب . فالناس نفوسهم
شريرة ، وقد يحسدونك بدافع الفيرة والحقد . ماذا يكون مصرى
بدونك ؟ لا تنسى اننا وحدنا ، نحن الاثنان . ليس لى سواك فى هذا
العالم . لم أنجب أطفالا ، وماتت زوجتى لنهما فى أكل الحمص . وأنت
كل ما بقى لى فى هذه الدنيا يا يوسفواكى .

« واليوم أرف اليك خبرا سيدخل السرور على نفسك . ستمثل
القرية فى عيد القيامة القادم آلام المسيح . لا بد وانك سمعت بعض هذا
الحديث . وهم بحاجة الى حمار . توسلت الى أعيان القرية أن يسدوا
الى صنيعا جميلا بأن تمثل أنت يا يوسفواكى دور هذا الحمار فى الآلام
المقدسة . سيدخل المسيح اورشليم محمولا على ظهره فأى شرف
سينالك . المجد لك وللرسول يا بنى . ستمشى فى طليعة الركب حاملا
الرب ، ويفرشون لك الأرض بالفار وسعف النخيل ، وسوف تنزل
نعمة الرب على ظهره ، ويلمع اهابك كانه الحرير » .

« وعندما أموت ، اذا شاءت ارادة الله أن تدخلنى الجنة ، أنا الآثم
المسكين فسأقف عند بابها اقبل يد حارسها وأقول له : « أسألك
يا بطرس الرسوم أن تصنع لى معروفا وتدخل حمارى الجنة . أسألك
أن ندخلها معا والا فاننى لن أدخل . » وهنا سينفجر الرسول ضاحكا
ويضربك على كفلك ويقول : « لك ما طلبت ، سأفعل هذا ارضاء لحاطرك
ياياناكوس . هات يوسفواكى اركبه وأدخلا معا فان الرب يحب الحمير » .

« وما أدراك بمدى الفرحة التى ستغمرك يا حبيبي يوسفواكى .
انها فرحة خالدة . ستتخفف هناك من هذا الخرج الثقيل ، فلا أحمال
ولا سروج ، وتتنزه وسط حقول يغطيها البرسيم الأخضر دائما أبدا ،
يعلو بقدر قامتك ويكون فى متناول خطمك فلا تتجشم عناء الانحناء .
وفى السماء ستنهق كل صباح لتوقظ الملائكة ، وسيضحكون لسماعهم

صوتك . وعندما يغيب ضوء النهار تخطر في مرح بين المروج الخضراء ،
حاملا فوق ظهرك اطفالا ملائكيين مختلفة الوانهم بين الازرق والاحمر
والارجواني . . مثل حمار رأبته ذات مرة في سوق سميرنا يحمل حملا
من زهور الزنبق والليلك ويتزوع بشذى عطر جميل . . » .

« سيأتى هذا اليوم يا يوسوفاكى ، انه آت لا ريب فيه فلا تخف .
أما الآن يابنى فعلينا أن نعمل حتى نتكسب لقمة العيش . تعال الى لأسرجك ،
تعال لأضع على ظهرك خراج البضائع . علينا أن نبدأ من جديد جولتنا
في القرية نبيع بكرات الخيط والابر والمشابك والامشاط والبخور
والمصوغات وتراجهم القديسين . ساعدنى يا يوسوفاكى حتى نقوم
بعملنا على الوجه الأكمل . نحن رفيقان ، أليس كذلك ؟ وشريكان .
فنحن كما تعرف نقتسم فيما بيننا بالعدل والقسطاس كل ما نتكسبه -
القمح لى ، والعلف لك . وكما قلت لك اذا ما أدينا عملنا على خير وجه
سأشتري لك من بانايوتى سرجا طريا حتى لا تتألم ، ولجاما جديدا له
شراية حمراء » .

« هيا بنا الآن . اود ان اقول لك ارسم علامة الصليب . ولكنك
لست مسيحيا وانما أنت حمار . لذا تعال مدد جسمك وباعد ما بين
سايك الخلفيتين وكن على راحتك لأضع حملك على ظهرك . تنفس
الصباح وعلينا أن نطلق يا يوسوفاكى تحرسنا عناية الرب ،

وضع ياناكوس الحمل فوق ظهر حماره ، وأخذ عصاه ، وبوقا
صفيرا ينادى به على زبائنه . فتح الباب ورسم الصايب وخرجا معا
الواحد اثر الآخر ، كل منهما يشعر بالانتعاش والبهجة . وبدأ أولى
جولاتهما بعد عيد القيامة .

تلالا ضوء النهار ، يثب من السماء ليفترش السهول ويلف القرية
بأسرها . وتبسمت الأحجار والأبواب والنوافذ . وأحس ياناكوس
بشهوة للأكل فمد يده داخل خرجه وأخذ كسرة كبيرة من الخبز ، وحفنة
زيتون ، وبصلة ، وبدأ يأكل فى سعادة .

وقال لنفسه :

— ما أجمل العالم رغم كل ما فيه . يا الهى انه جميل مثل الخبز

(الطيب)

وأبصر باب بيت جارته الأرملة مفتوحا . كانت كاترينا تمسك بدلو

تصب به الماء على عتبة دارها لتفلسها ، وقد فتحت صدرتها ، وشمرت عن ساقها . كانت ساقاها الممتلئتان في اكتناز ، الناعمتان الجميلتان عاريتين حتى ركبتها ، تضيء فيهما لمعة جميلة . وكشفت صدرتها عن ثديها : طائرين صغيرين يفيضان حيوية ، ويثبان في خفة استعدادا للهرب .

وقال ياناكوس لنفسه :

- لقاء سييء مع باكورة النهار .

وضرب حماره على كفله يستحنه على الاسراع في السير . ولكن بصر المرأة وقع عليه فانتصبت واقفة وأسندت جسمها الى قائمة الباب ، وبدا وجهها نظرا ممتلئا حيوية ونشاطا .

نادته ضاحكة :

- سهل الله لك يا ياناكوس . هل تعرف يا جارى أنى معجبة بك ؟ فرغم أنك تعيش وحيدا مثل طائر الوقواق ، الا أنك دائما تمضغ شيئا ، مرتاح البال . كيف يتيسر لك ذلك ؟ أنا لا أستطيع أن اكون مثلك ، لا أستطيع يا جارى المسكين ، فانى ارى احلاما مزعجة ..

وأراد ياناكوس أن يغير موضوع الحديث فسألها :

- أى طلبات لك يا كاترينا ؟ مرآة جيب ؟ زجاجة ماء اللافندر ؟ ماذا تريدن ؟

وظهرت نعجة الأرملة عند عتبة الباب تشغو في قلق . حول عنقها شريط احمر ، وضرعها ممتلىء أثقله اللبن .

وتنهدت الأرملة وهي تقول :

- تريدنى أن أحلبها . ضرعها ممتلىء وهي تضيق به . آه انها امرأة هي الأخرى هذه المسكينة ..

انحنت ، وربتت عليها في رقة وهي تقول :

- ساتيك حالا ياكزى . صبرا . يجب أن افرع اولا من غسل مدخل البيت واتخلص من آثار الأقدام الدنسة » .

دفعت النعجة برفق الى داخل البيت واستدارت ثانية ناحية ياناكوس . عاودت حديثها وهي تنهد :

- أرى أحلاما مزعجة يا جارى . أنظر . . فى الليلة الماضية ، عند الفجر ، رايت فيما يرى النائم مانولى . كان يقطع القمر شرائح صغيرة كأنها قطع من التفاح ويقدمها لى لآكلها انت يا ياناكوس طفت ببلاد كثيرة حتى وصلت الى سميرنا كما يقولون ، ولا بد وانك تعرف شيئا عن الأحلام .

رد عليها ياناكوس قائلا :

- كفى يا كاترينا . كونى رحيمة ولا تعذبى الناس . أتظنين أننى لم ألمحك بالأمس وأنت تغمزين بعينك لمانولى ؟ أتريدين يا فاجرة أن تلعبى على هذا الفتى الوديع ، ألا تشعرين بالشفقة عليه ؟ انه خاطب هذا المسكين فلا تعترضى طريقه . وهل تحسبين أن بانايوتى لن يجهز عليك اذا شم رائحة لذلك ؟ اسلكى طريقا آخر ياكاترينا واركزى قليلا . . ألم يحدثك الشيخ بطرياركاس عن شيء ؟ الا تعرفين أن الأعيان قرروا اختيارك لتمثلى دور المجدلية فى السر الذى ستمثله القرية فى عيد القيامة المقبل .

قالت الامرلة وهى ترفع صدريتها لتتأكد من انه رآها وهى تكشف عن صدرها :

- اننى المجدلية فعلا يا ياناكوس العجوز ، أنا المجدلية سواء مثلت دورها أو لا . لا حاجة بى الى الشيخ ليبلغنى الرسالة . آه أف من هذا الأثم العجوز . لياخذة الشيطان . يقول ذلك لان شعرى اشقر . .

وقال ياناكوس مقاطعا :

- ليس هذا هو السبب يا كاترينا . . ليس هذا . . كيف اوضح لك الأمر اذا كنت أنا نفسى لا أفهمه بوضوح . اسمعى ، ستقطعين علاقتك ببانايتوتى منذ هذه اللحظة وترافقين المسيح . ستبعينه وحده دون سواه . ستفسلين قدميه القديستين بالعطر وتمسحينهما بشعرك . . هل تفهميننى ؟ .

- « ولكنه نفس الشيء أيها الأبله . فالناس جميعا ، حتى بانايوتى نفسه ، يمثلون الاله للحظة واحدة . اله حقيقى وليس مجرد كلام ، ثم يعودون بعد ذلك الى ما كانوا عليه ويصبحون ثانية ياناكوس أو بانايوتى أو عجوزا مخرفا مثل بطرياركاس . أفهمت ؟ » .

– « ليأخذنى الشيطان ان كنت قد فهمت شيئاً ياكاترينا .. انها نهاية العالم كما يقول الشيخ بطرياركاس » .

ضاقت الأرملة بذلك ، وأمسكت بدلوها ودهقت ماءه بقوة وعنف على عتبة الباب حتى تطاير الرذاذ الى قدمي ياناكوس ، وهز يوسوفاكى اذنيه فقد مسهما رذاذ الماء ايضا .

وقالت كاترينا فى سخرية :

– اف .. لست الا رجلا ، رجلا فقط . ايها المخلوق البائس كيف لك ان تفهم ؟ مع السلامة وأتمنى لك التوفيق فى أعمالك فانت تفهم هذا على الأقل .

ولكز ياناكوس حماره لكزة خفيفة ، ارتجف لها وركض على اثرها . وجرى صاحبه وراءه يصفر سعيدا لانه افلتد من الأرملة .

– « سأقصد القسيس اولا اسأله طلباته ، فانه يستشيط غضبا ان لم أبدأ به . يقول لى « بيتى اولا ثم الأعيان . أنا ممثل الرب فى ليكو فريسي » . فلنقصد رأس الذئب اولا تجنبنا للمشاكل .

والتفت وراءه . ابصر كاترينا منهمكة فى غسل عتبة الباب، ورداؤها مرفوع عن ساقها وهى تبدو نصف عارية .

وتمتم قائلا :

– المومس . ما اجمل الساقين اللتين منحهما لها الخالق المبلوع ، ما اجمل بطن ساقها .. وثديها . آه منهما انما خلقا لغواية الرجال الويل لك يا مانولى لو سقطت بين برائتها

وبينما كان ياناكوس يناجى نفسه وهو سائر فى طريقه أبصر الأب جريجوريس فى ردائه الأرجوانى ، متمنطقا بحزام من القטיפه السوداء ، حاسر الرأس ، حافى القدمين ، يسير جيئة وذهابا فى فناء منزله ، يداعب بأصابعه حبات مسبحة طويلة من الكهرمان الأسود أهداها اليه الأسقف . كان الأب جريجوريس يلهث كالحداد امام الكير .

أقبلت ماريورى فى خضوع ووضعت تحت ظل تكعيبه الكرم صينية عليها طعام افطاره : بسكويت وقطعة جبن – وهى عادة القسيس كل صباح لفتح شهيته . وبعد ساعة يتناول افطاره اليومى بيضتين نصف مسلوقتين ، وكوبا كبيرا من النبيذ المعتق اختص به صديقه المفضل

— هكذا اعتاد أن يسمى كرشه — ثم يحمد الله على عدله وفيض نعمائه
الذى لا ينتهى .

بعد أن فرغت ماريورى من خدمته ، ذهبت لتروى زهور الريحان
والجيرانيوم والقطفية . بدت اليوم شاحبة هزيلة . فقد أرقّت ليلتها
هذه . وظهرت حول عينيها اللوزيتين السوداوين دائرتان زرقاوان من
السهاد ، وفى شفيتها صفرة وجفاف . ماتت أمها بداء السل ، وكانت
لا تزال فى ريعان شبابها . وكانت ماريورى صورة من أمها . يتطلع
إليها أبوها من حين إلى آخر ويقول لنفسه فى حسرة : « يجب أن
أزوجها ، يجب أن أعجل بزواجها حتى تنجب لى حفيدا ، ثم ليفعل الله
بعد ذلك ما يشاء . ميشيل فتى رقيق ، صلب العود ، قوى البنيان ،
سليل أسرة طيبة ، وذو جاه ، الذى سيخلدنى فى ذريتي ويخلف لها
القوة والغنى » .

سقت ماريورى الزهور ، وتأهبت للانصراف ، فازدرد القسيس
على عجل آخر لقمة فى فمه وقال لها فى حدة :

— انتظرى هنا . الى أين ؟ أريد أن أتحدث اليك .

لم يستطع أن يكظم غيظه ، ولا بد أن ينفس عنه . أسندت ماريورى
ظهرها الى الباب ، وعقدت ذراعيها الى صدرها وانتظرت . وأحست
برجفة ، فقد أدركت موضوع حديثه ، وعرفت ما سيقوله لها . إذ
تركه بانايوتى توا ، ووصل الى سمعها أثناء حديثهما معا بضع كلمات
أثارت قلقها . سمعت أباها يقول لآكل الجيس وهو يصحبه الى الباب :
— أحسنت صنعا أن قلت لى . . هذا واجبك . . سأعنفه على ذلك .

غضت ماريورى من طرفها وقالت :

— طوع أمرك يا أبت .

— هل سمعت ما قاله لى يانايوتى ؟

— لا ، فقد كنت فى المطبخ أعد لك القهوة .

— كان يحدثنى عن خطيبك الهمام ميشيل .

زفر القسيس زفرة عميقة ، ونفرت العروق فى وجهه ، وهم
يواصل حديثه . . . وفى هذه اللحظة سمعا طرقة على الباب . وثبت
ماريورى من مكانها وقد أحست بالخلاص . رثى الرب لحالها وأزاح
عنها الخطر . وانطلقت تعدو لتفتح الباب .

سأل القسيس في غضب وهو يتجرع آخر ما بقي من القهوة
دفعة واحدة :

— من هناك ؟

— أنا ياناكوس يا ابانا • المسيح قام • سأبدأ جولتي ، وأبتك
لتشملني ببركاتك •• وإذا كانت لك طلبات أو رسالة ..

قاطعہ القسيس ، قائلا :

— أدخل واغلق الباب •

وقال ياناكوس في نفسه :

— انه اليوم منحرف المزاج • الشيطان هو الذي بعث بي الى هنا •

وانحنى على يد القسيس يقبلها •

— دعك من تقبيل الأيدي الآن أيها الشرير • لتحدث أولا •
سأسألك بعض الأسئلة وعليك أن تجيب • ما هذا الذي سمعته ، هه ؟
يبدو انه كان لسيادتك يد فيه • بل لعلك اولهم واخطرهم شأننا • لماذا
تقف هناك فاغرا فاك ؟ لا احسبك ستتظاهر بانك لا تعرف شيئا • اتانى
شخص ما واطلعنى على كل شيء من الالف الى الياء • أيها الصعاليك
للصوص منتهكو الحرمات المقدسات •

— يا ابانا ••

— الأب لن يمد لك يد العون : تسرق ممتلكاتي ، وتنهب بيتي ، ثم
بعد ان تفعل كل هذا تستدير لتحاول أن تقبل يدي كأن لم يحدث
شيء • أيها المارق • آسف ان اخترتك لتكون بطرس الرسول • يا لص •
أهكذا تبدأ حياتك الرسولية ؟

أسقط في يد ياناكوس ، وأخذ يتمتم :

— أنا ؟ •• أنا ؟ ••

— أنت ، أنت ومن معك من الطيور البريئة •• صديقاك قسطندى
ومانولى • وغررتم بميشيل حمل الرب الوديع • تعرفون أنه ذو قلب
نقى وتحببتم الفرصة ، وأفرغتم منزله في السلال •• يا لصوص ••
آه يا الهى وقعت فى خبيثة اذ اخترتكم لتكونوا رسلا •••••

تجاسر ياناكوس وقاطعه :

– ولكنها لم تكن خزائنك يا ابانا •

– خزائن من ؟ أظنها خزائنكم أنتم ؟؟ يا كوم القمل • انها خزائني لأن ميشيل سيتزوج ماريوري وسيصبح البيتان بيتا واحدا • اذن فمن خزائني أخذتم الجبن والحبز والزيت والنبيد والزيتون والسكر وملاتم بها السلال • لكي توزعوها على من ؟ على حملة الكوليرا !! انه سيبدد كل ما يملك ويوجد به على الفقراء والمتردين ويترك ابنتي معدمة ، كل هذا بسبب اصدقاء رعناء مثلكم •

والتفت الى ابنته التي وقفت فزعة جامدة في مكانها بغير حراك لا تجرؤ على أن ترفع بصرها • وصرخ فيها قائلا :

– هل تسمعين يا ماريوري ؟ هل تسمعين العار الذي لحق ببيتنا ؟ ما العمل وهذه هي حماقات رفيقك الهمام ؟ علينا أن نتروى ونفكر مرتين قبل أن نحسم أمرنا ••

واغرورقت عيناها بدموع حارقة لم تلبث أن انسابت فوق خديها الذابلتين ، ولكن ظل قمها مقلقا •

وسألها القسيس ثانية :

– ماريوري •• اتسمعين ؟

وأطرقت الصبية برأسها في ذلة ومسكنة وكأنها تقول :

– أسمع وأطيع •

وبدا الحمار الموثوق الى حلقة الباب ينهق • وهنا قفز ياناكوس •

– « معذرة يا ابانا • يجب أن أنصرف • اذا كان من الخطأ أن ناخذ من الأغنياء ونعطي الفقراء ، اذن فليغفر لنا الرب » •

شمخ القسيس برأسه وقال بصوت عال :

– الرب يتكلم على لساني أنا • انت لا تملك أن تخاطبه مباشرة • فكلمته سبحانه وتعالى تأتيك من خلالى • أنتم لصوص ، أنت وقسطندي وماتولى • سادعو أعيان القرية للاجتماع لنبحث معا ما يجب أن نتخذه •• لم يكد حملة الكوليرا يصلون الى هنا حتى تلوثت قريتنا •

– بركاتك يا ابانا •

قالها ياناكوس واندفع كالسهم ناحية الباب •

• واستشاط القسيس غضبا حتى احمر وجهه ولم يحر جوابا .
واستدار ناحية ابنته وقال :

– آتني بحذائي ومفرتي وعصاي • ساذهب لاقابل عمدة القرية
والأعيان •

ودلف الى داخل البيت • والتهم البيضتين على عجل ، بينما جرت
ماريوري لتلحق بياناكوس الذى كان يفك رباط حماره • وأسرت اليه
بكلمات خاطفة :

– من فضلك يا ياناكوس • اشتر لي شيئا مما يضعه نساء المدينة
على وجناتهن ليكسبنها لونا ورديا • آتني بها سرا ، أما عن الثمن ..
ورد عليها ياناكوس :

– لا عليك يا ماريورى • أعرف ما تقصدين • سأتيك بشيء منه •
وسمع صوت القسيس وهو يصرخ بأعلى صوته :

– سنتحدث بما فيه الكفاية عن هذا أيها المتشرد •
وصفق ياناكوس الباب وهو يفمغم :

– انه الشيطان فى مسوح قسيس ويزعم انه ممثل الرب • نعم
لو كان الرب الرحيم على شاكلته لكان ذلك من سوء طالع البؤساء من
بنى البشر ولالتهمنا جميعا احياء •

حك رأسه وكشر عن أنيابه وقال :

– انه يقنع حتى الآن بالتهامنا بعد أن توافينا المنية • ولكن ربما
تسير الأمور الى ما هو أسوأ •

لكز حماره برفق وقال له :

– هيا يا يوسفاكى ، اطلق ساقيك للريح ، يا بنى • اخرنا صاحب
الراس الشبيه برأس العجل • هيا ، لا تجزع يا ولدى • فهذا هو حال
الدنيا • المهم أنك على صواب • سنذهب الى المقهى لنعرف طلبات
الناس هناك ثم نطلق • يقول اننا لصوص .. ليذهب الى الشيطان
هذا العجوز الذى يأكل أموال الأنبياء •

كانت الحانة غاصة بمن فيها ، تعج بالطنين كأنها خلية نحل هائجة .
تجمع فيها كل أهل القرية يعلقون على الأحداث المفجعة التي رأوها
البارحة رأى العين - جموع اللاجئين ، القسيس ذو البأس الشديد
ومعه انجيله ، المزاة التي سقطت على الأرض جثة هامدة . . الجير الذي
غطوا به جثتها حتى لا يتلوث الهواء بوباء الكوليرا . . المعمر وجوال
العظام . أثنى البعض على الأب جريجوريس لانه انقذ القرية من
الوباء ، واعترف آخرون صراحة بانهم يرثون لحال الرجال والنساء
الذين يتضورون جوعا . وقال فريق ثالث انهم آتسوا نارا فوق جبل
ساراكيئا عند منتصف الليل .

ودخل بانايوتى مثل ثور يفتش حوله على الأرض بنظرات جسور ،
ثم انتحى ركننا وجلس فيه . ونادى على صاحب المقهى وطلب منه
بلهجة فظة :

— « قهوة سادة » .

وقال له قسطندى :

— تبدو اليوم عبوسا يا جارى . اظنك لم تر ليلة أسوأ من هذه
في حياتك . اليس كذلك ؟ .

قطب السروجى جبينه ، وجمع ما بين حاجبيه الكثين ، وادار
ظهره ، وردد ما سبق له أن قاله :

— قهوة سادة .

وفى هذه اللحظة دخل الشيخ بطرياركاس وقد غطى رأسه بقبعته
الفخمية ، وأمسك بعضاه الطويلة ، وحيا أهل القرية بيده كمن يتقيهم ،
ونفضوا جميعا يردون تحيته ويتمنون له يوما سعيدا . لم يكن قد افاق
من نومه تماما ، إذ كان صوته أجش ، وعيناه منتفختين ، ولسانه ثقيلًا ،
مما جعله راغبا تماما عن الكلام .

أحضر له قسطندى قهوة (سكر زيادة) ، وطبقا من الحلوى
التركية ، وكوب ماء بارد ، وحياه قائلا :

— أسعد الله صباحك :

لم يرد عليه الشيخ تحيته . وازدد الحلوى دفعة واحدة بعد ان
اضلف اليها بعض الماء ، واتبعها بكوب الماء فشربه ، ثم اخرج مندبلا

كبيراً دس فيه أنفه وتمخط بصوت عالٍ رن في جنبات القاعة . أحس بعدها براحة وبدأ يحتسى قهوته وهو يصعد زفرات ثقيلة . ارتاح جفناه ، وزايلهما الانتفاخ ، وأفاق قليلاً ، واستعاد صوته الطبيعي ، ثم أحضرت له النارجيلة . فهذه هي عادة الشيخ أن يصحو تدريجياً شيئاً فشيئاً .

تلقت حوله وإبصر حاجي نيكولا ناظر المدرسة . واستدعاه بإشارة من يده . فاقترب منه ناظر المدرسة ونارجلته في يده . تمنى له صباحاً طيباً ، وجلس إلى مائدة العمدة .

وسأله الشيخ بطرياركاس :

— ما الأخبار يا حضرة الناظر ؟ نمت البارحة نوماً ثقيلاً وخين لي أثناء نومى أننى أسمع جلبة عالية ، بيد أننى لم أستيقظ . ومنذ هنيهة وأنا في طريقى إلى هنا ، سمعت عرضاً حديثاً عن قدوم بعض الغرباء إلى القرية ، وامرأة أسلمت الروح ، ومشادة بين قسيسين . ما كل هذا ؟ إنها نهاية العالم . هل لك أن توضح لى جلبة الأمر يا صديقى ؟ .

وتنحج ناظر المدرسة ، وقد أحس بالرضا . مال برأسه على الشيخ وبدأ يتحدث إليه بصوت خفيض وإيماءات كثيرة ، فرحا بأنه يقص قصة مروعة جعلته موضع رهبة للحظات قصار . وشد إليه انتباه الشيخ حتى بات ينصت إليه فافراً فاه .

كان بانايوتى يرقبهما وهو يعض فى عصبية على أطراف شأوبه . وأخذ يحملق بعينين واسعتين فى وجه الشيخ بطرياركاس ذى اللغد الثقيل . وانتظر متوقعا أن يرى الشيخ وقد فقد صوابه ، وتدافع الدم إلى رأسه ، وأمسك بعصاه ، وهول إلى منزله .

ولكن يا للشيطان . لم يشتعل محياه النبيل بالثورة . وزمجر أكل الجبس وتلمل فوق كرسيه كأنه جالس فوق ابر . . وقال لنفسه : « ان هذا التن المدعو بناظر المدرسة لن يجرؤ على أن يقص عليه كل شيء خشية أن يثير ثأرتة . سأقص انا عليه كل شيء ، لا بد من ذلك » .

ونهض من مجلسه وقد حسم أمره ، ودنا من السيدين وقال :

— عن اذنك يا عمدة . احسب ان الأستاذ العلامة لم يقص عليك القصة بحذافيرها فهو لم يجسر على ذلك . أما انا فلا أخشى شيئاً . سأقص عليك القصة كاملة عندما أنفرد بك ، أنا وانت .

وقال الشيخ :

– حاجى نيكولا . . اتركنا لحظة من فضلك ، حتى ارى ماذا يريد السروجى ان يقول لى .

ثم قال موجه الحديت الى بانايوتى :

– تكلم وأوجز . لقد حدثنى ناظر المدرسة حديثا فارغا .

ورد عليه بانايوتى وقد ساءه هذا الكلام :

– انا لا أطيل فى الحديث وأنت تعرف عنى ذلك . اليك القصة

فى كلمتين : غرر مانولى بابنك وسلبه عقله . أخذنا معهما قسطندى صاحب المقهى هذه ، وكذلك ياناكوس البائع المتجول ، ودخلوا مخزنك وملاؤا اربع سلال وانسلوا بها واعطوها الى حملة الكونيرا . وكنت طوال هذا الوقت تغط فى نومك . هذا كل ما اردت أن اقوله لك . وها انا سأصرف .

فى هذه اللحظة تدافع الدم كالعاصفة الى الراس الثقيل . تورم جفينا الشيخ ثانية ، وتحشرج صوته ، وصرخ قائلا :

– اذهب الى الشيطان ، لقد احرقت كبدى بحديثك معى هذا الصباح .

وألقى بعنف خرطوم النارجيلة وتلفت حوله . غامت عيناه فلم يعد يميز الناس من بعضهم . ودارت القهوة امام ناظره كالدوامة . ونهض من مجلسه ، وخطا خطوة الى الامام ، واتبعها بأخرى حتى اهتدى الى الباب وخرج وقد أثقله الحزن وأرتقى المنحدر قاصدا بيته .

وصاح بعض اهل القرية وهم يتنازعهم السرور والقلق :

– ما الذى وسوس به لك الشيطان يا بانايوتى وهمست به فى أذنه حتى جن جنونه هكذا . . هه ؟ الا تخاف الله ؟ انه رجل مسن ، بدين . انه سيصاب بالسكتة .

ولكن بانايوتى كان قد خرج من المقهى واختفى عن الانظار .

وسمع صوت بوق ياناكوس ساخرا مرحا .

وقف ياناكوس وسط الميدان كالهيك حين ينفش ريش رقبتة وصاح :

– يا أهل القرية . سابدا جولاتى بين المدن والقرى . ليأتنى كل

من له حاجة • كل من لديه رسائل . فليحضرها لي . ليتقدم كل من له اقارب أو أبناء أو اصدقاء أو اعمال في القرى المحيطة • سألتقى طلباتكم وأرحل ثم أعود اليكم باذن الله يوم الأحد وقد لبيت طلباتكم •

نهض كثيرون من أهل القرية وقصدوا ياناكوس • وابلغوه بصوت خفيض كل طلباتهم ووقف ياناكوس متوكئا على حماره يتلقى الطلبات ويسجلها مرتبة في راسه •

كان قسطندي آخرهم • أتى اليه بعد أن انفض عنه الناس ، وهمس في أذنه :

– ان كنت لا تبحث عن المشاكل فحذار أن تذهب الى الشيخ بطرياركاس لتسأله عن طلباته • هذا الخنزير يهوذا قال له كلاما ألقده صوابه ، وانطلق على اثر ذلك الى بيته وهو يهز عصاه في عصبية • من المؤكد أنه ذاهب ليجلد ابنه •

وسأله ياناكوس همسا :

– من أجل السلال ؟

– السلال بالطبع • يبدو أن الأمر سييسوء • ستواجهنا مشاكل •

– « أعرف كل شيء ، فقد سمعت طرفا منه توا • اذ فقد القسيس صوابه أيضا • عنفنى من أجل هذا ••••• بيد أننى لا أعبأ بذلك على الإطلاق • كلامهم يدخل من هذه الأذن ويخرج من تلك • لا تهتم ولتنزل عليهم النوايب • لقد أدبنا واجبنا » •

وقال قسطندي وهو يتنهد :

– ولا أنا .. عندى ما يكفى من المشاكل فلا خوف على مما يجد منها • آه يا له من يوم لا ينسى • انقضت على أختك تحاول أن تفتق عيني وأخذت تصرخ في قائمة :

« أحقق ، مسرف ، قاطع طريق • أعرف عنك كل شيء • خربت الدكان من أجل أولئك اللصوص حملة الكوليرا الذين سقطوا علينا ليسرقونا باسم الكنيسة • نحن جوعى وأطفالك ينحلهم العوز ، وأنت تذهب أيها الآفاق لتتبرع باللبن والسكر والصابون » •

وقال ياناكوس ماخوذا :

— من الشيطان الذى انبأها بذلك فى اول الصباح ؟

— « انه الشيطان الأحمر ، من غيره ؟ تذكر انه ظل يقتفى اثرنا طوال ليلة أمس . وانتهاز اول فرصة سنحت له ليقص الأمر على كل من صادفه — القسيس وزوجتى وأخيرا الشيخ بطرياركاس . لقد جن جنونه حين اختاروه يهوذا واختارونا رسلا » .

أسف ياناكوس لحال صاحب المقهى وما يعانیه من عذاب على يد أخته وقال له :

— صبرا يا عزيزى قسطندى . صبرا . تظاهر بالغباء . وفى يوم الأحد عندما أعود سنتحدث فى هذا الموضوع ثانية . الى اللقاء .

نخس ياناكوس حماره بطرف عصاه . ومضى صاعدا الدرب حتى اختفى عن العيان .

تمتم قسطندى وهو يرقب ياناكوس :

— أنت انسان محظوظ ، بل أنت أسعدنا حظا . الدنيا تبتمس لك : لا أطفال ولا زوجة ، لهذا تنعم بالسلام

وضرب ياناكوس رفيقه على كفه وتمتم قائلا :

— آه يا يوسفاكى . اننا نعيش حياة هائلة . نعيش كأخوين . هل حدث أن تنازعنا فى يوم من الأيام ؟ أبدا والحمد لله . ذلك لأننا رفيقان طيبان — أو حماران طيبان ان شئت فالأمر سواء — ولا نؤذى أحدا . هيا اتجه يمينا سنغير طريقنا اليوم . ألم تسمع ما قاله قسطندى ؟ لن نقصد عمدة القرية اليوم . اتجه رأسا الى العجوز لاداس الذى يعجب بك كثيرا ويسيل لعابه حين يراك . . . تعال لنصعد اليه ونفرغ من هذه المهمة . ثم نخرج بعدها من القرية ، وبذلك نتخلص من الأعيان والقساوسة ، عليهم اللعنة . سنكون وحدنا أخيرا .

اتجه يمينا قاصدا بيت الشيخ البخيل . وحدث نفسه قائلا :

— لم يبق لى غير مانولى المسكين أود ان أراه قبل الرحيل لاتحدث اليه عن كاترينا . أود أن أنبهه لياخذ حذره منها حتى لايقع فى شباكها . أليس هو الذى اختير ليمثل دور المسيح ؟ عليه اذن أن يحذر النساء .

كان الشيخ لاداس جالسا وسط فناء داره ، فوق مقعد من الحجر ، مرتديا ثيابا بالية ، حافى القدمين ، معتدل المزاج . وظهرت زوجته

العجوز ، الأم بنيلوب ، وقد احضرت اليه اناه مشروخا به قهوة الصباح
المصنوعة من الشعير والحمص . ووضعت فوق المقعد أيضا كسرة
خبز من الشعير وطبق فنجان به زيتون . وبينما كان الشيخ لاداس
يحتسى قهوته ويتناول طعامه أخذ فى الحديث مع زوجه التى جلست
قبالته على مقعد حجرى واجمة ، غير مكترثة ، تغزل جوريا . كانت
امراة قدرة رثة الثياب كزوجها تماما ، حافية القدمين مثله ، لها أنف
طويل مدبب بدت معه أشبه بطائر اللقلق الشرس العجوز .

فى الأيام الاولى من حياتهما الزوجية ، يوم أن كانت فى ريعان
شبابها ، اعتادت أن تعارض زوجها وتشتبك معه فى مشاحنات عديدة .
فهى سليبة عائلة ثرية من الأعيان وكانت تعرص على أناقة مظهرها
وتحب البذخ . ولكن رويدا رويدا انثلم حد الموسيقى ، وسئمت الروح ،
وذوى الجسد . وانزلت الى مهاوى زوجها ، ولم تعد تجديها الشكوى .
وألفت وضعه . وبدأت الأم بنيلوب بأن أقلعت عن الكلام وقنعت بالصمت ،
وبأن تحاول أن تزجره من حين لآخر ، ثم اعتادت أن تكبت فى نفسها
ولا تنبس ببنت شفة . وبعد أن ماتت ابنتها الوحيدة كفت حتى عن
الانصات الى كلمات الأب لا دأس التى تتدفق من فمه ، وكفت عن
التغضب ، بل كفت عن الاعتراض تماما . أصبحت امراة ميتة ، تمشى
وتأكل وتنام ولكنها لا تعيش . وأصبح لها من صفات الموتى وقارهم
وغبطتهم وخلو بالهم .

جلس الأب لاداس يرتشف عصر الشعير ويرقب زوجته وهى
تخيط الجورب واجمة مستسلمة . ثم شرع يتحدثها عن مشروع ضخيم
أرقه طوال الليل حتى انه قضى ليلته واقفا على قدميه . مشروع يملأ
به خزائنه بالأقراط والحواتم والقلائد وسبائك الذهب .

« أعددت المشروع فى رأسى وتدبرته من جميع نواحيه بابنيلوب ،
ولم يبق غير التنفيذ . ولكننى لا أدرى من الذى أتمنه على السر .
ذلك لأنه ليس أمرا هينا ، ويحتاج الى اثنين . والعالم اليوم يا عزيزتى
تسوده الكلاب ، والناس أفسدهم النهم ، وأصبحوا جميعا من الخثالة
التى تتربص بك الدوائر . ترى من عساه أثق به ؟ حاجى نيكولا . . افاق
يحاكى العظماء من أسلافه ، ويكفى أنه ناظر مدرسة ، فماذا تتوقعين
منه ؟ بل اننا نشكر الله على انه لا يخرج الى الناس يقدفهم بالحجارة
كالمجنون . واذا كنت تفكرين فى أخيه الأب جريجوريس فانه انسان
متلاف ، ينفق أمواله على الأكل والشراب ، انه داهية شيطان ، ولكنه

لا يفكر الا في جيبه . وهو لا ينفعنى كما ترين ، ذلك لاننى اريد أن أخرج
بنصيب الأسد . . . تهزين راسك يا بنيلوب ، اظنك تعنين الشيخ
بطرياركاس . يا الهى انه احق بأن يقتل شسقا . انه كرش وليس
انسانا . حقا هو من عائلة ثرية ابا عن جد ، ولكنه لم يفعل شيئا في
حياته . العرق ؟ انه لا يعرف له معنى . سمعت قصة تحكى عن نمل
كبير يسمى بالنمل الملكى ، يظل مستلقيا ليل نهار ولا يعمل شيئا ، وله
جيش من العبيد يطعمه ، واذا لم يطعمه أحد مات جوعا . . . وهو مثل
هذا النمل . لبيئته الله بمصيبة هذه الأرضة البدينة . وهو لا ينفعنى
بدوره . أما عن رابع الأعيان ، كابتن فورتوناس ، فانه ليس بانسان بل
زق خمر في حالة غليان دائم . لذلك فقد قررت البحث عن شريك آخر .
ولكن من يكون ؟ ألم تفكرى في احد يا بنيلوب ؟ » .

ولكن بنيلوب التى كان يتحدث اليها لم تسمع من كلامه حرفا . . .
كانت غائبة عنه مع الجورب الذى تفزله ، تائهة في غبطة وخدر سماويين .
رفعت عينيها لحظة ، عينين كليئتين لا تنمان عن حزن أو سعادة . يخيل
ليك كأنها تشخص الى الشيخ لاداس بنظرة ناقبة تنفذ من جلده
وعظامه الى ما وراءه حيث جدار البيت ، والى ما وراء البيت حيث
الطريق والقرية والحقول ، ثم تمتد الى ما هو ابعد ، الى جبل ساراكيئا
والى ما وراء جبل ساراكيئا ، بعيدا ، بعيدا جدا ، حيث البحر ، ثم
الى ما وراء البحر ، الى شىء لا نهائى راكد أسود يثير الهلع
لتستقرا على الجورب . وبدأت من جديد تفزله في عجل وسرعة
متزايدتين لتفرغ منه فى الوقت المحدد .

وفجأة رن صوت بوق ياناكوس . وفى وثبة واحدة كان الشيخ
لاداس واقفا على قدميه ، وعيناه الماكرتان تلمعان . وصرخ :

— انها العناية الالهية قد أرسلته الى . اليس كذلك يا بنيلوب ؟
تتوفر فيه كل الصفات المطلوبة . حمال وطواف يتنقل بين القرى ، نصف
كاذب ونصف لص . ونحن بحاجة الى صغار اللصوص ولا حاجة بنا
الى كبار المخادعين ، عميل زهيد الثمن . هذا هو رجلى . سيحتاج
لنفسه نزرا يسيرا وبعدها أستحوذ أنا على الثروة كلها دفعة واحدة .

وفرك يديه اليابستين ببعضهما وقد استخفه الفرح . ووقف الحمار
عند باب البيت . وهرول الشيخ لاداس ليفتح الباب . وصاح :

— تحياتى يا باناكوس . أهلا بك ومرحبا يا صديقى . انها العناية

الالهية قد أرسلتك الى هذه الساعة . تعال . أسرع . اربط حمارك وادخل .
لى كلمة معك .

وتسارل ياناكوس فى نفسه :

- يا للشيطان ، ماذا يضر الثعلب المجوز ؟ الحذر ، يا ياناكوس .

وعقل حماره ودخل .

- اغلق الباب جيدا . اغلقه بالرتاج حتى لا يسمعنا احد
عندى اسرار اريد ان اتمكن عليها . اجلس . حظك من نار . ستكون من
اهل الثراء . لن تمد يدك لاحد بعد الآن . لن تكون بحاجة بعد اليوم الى
الكذ ، تدرع الطرقات كالسائل تحاول بيع بكرات الحيط ساغرقك
فى الذهب . هل تسمعنى يا صديقى ؟ الذهب .

وصرخ ياناكوس فى حيرة وذهول :

- لا تصدع راسى المسكين ايها الاب لاداس . وضح . اى ذهب ؟

- افتح اذنيك واسمعنى . هؤلاء الناس - حملة الطاعون الذين
مروا بقريتنا - كانت لهم املاك قبل ان يستولى الاتراك عليها . وهم
الآن لا يملكون حتى ما يقيم اودهم . حسن ، انصت لسا اقول : الشئ
المؤكد انهم اخفوا معهم كل ما كانوا يملكونه من جواهر واقراط وقلائد ،
وخواتم الزفاف وسبائك الذهب هل فطنت الى اللعبة يا ياناكوس ؟
ليس بعد ليس بعد فهمى ثقيل . وضح لى الامر
قليلا .

- ان ما اعرضه عليك يا ياناكوس عمل يستحق كل اهتمام . انه
الهام من لدن الله . فى الليلة الماضية ابصرت نارا فوق جبل ساراكيينا .
وهذا هو المكان الذى آووا اليه ليعششوا فيه هناك بين الكهوف . حسن ،
خذ حمارك واقصد الجبل من فورك . انفخ فى نفيرك وادعهم جميعا رجالا
ونساء واطفالا . سيلتفون حولك . تحدث اليهم قائلا : اخوتى ، انكم
تتضورون جوعا ، الا تاخذكم الشفقة باطفالكم ؟ لقد فكرت فيكم طويلا
يا اخوتى حتى لم يغمض لى جفن طوال الليل ، اقلب الفكر بحثا عما افعله
لخلاصكم . انار الله بصيرتى وهدانى الى الطريق . آتونى بالجواهر التى
حملتوها معكم ، اعطيكم فى مقابلها كل ما يحتاج اليه الانسان لكى يعيش
- قمحا وشعيرا وزيتا ونييذا . انتم تعطونى ما لا يحتاج اليه الانسان ،
قليلا من الحللى التى تملكونها يقينا واذا عاد ذلك على البوار فانى

لا أعبأ بشيء . أنتم يونانيون ، مسيحيون ، لذلك فان الأمر غير ذى بال
... الآن واضح ما أقول . هل تفهمنى يا غبى ؟

وأجاب ياناكوس فى تردد :

- بدأت أفهم . . . بدأت . . .

ولم يستطع ياناكوس أن يتبين ان كان الرب أم الشيطان هو الذى
وسوس الى لاداس المعجوز بهذه الحطة .

- انها كما أقول لك الهام من عند الله . ولكن لا تبح بشيء . يجب
الآ يشم انسان رائحة هذا الموضوع . . . تعال يا صديقى ، فكر ، ستشرى
وتسعد ، حتى أنت أيها الشيطان التعس ، انسان مثلك - كم يحز فى
نفسى أن أراك تذرع الطرقات صيفا وشتاء . . . تبلى شبابك . . . كم
عمرك الآن ؟

- خمسون .

قال ياناكوس ذلك وقد أسقط من عمره عامين .

- حسن . ها أنت ترى ، زهرة عمر الانسان . لا تضع حياتك هباء
ياياناكوس . بوسعك أنت أيضا أن تبني لنفسك بيتا جميلا كآى انسان
يعيش حياته ، وأن تتزوج أى امرأة تروقك فى هذه القرية ، وتنجب
أطفالا - لا أحسب أن ابنة القسيس تناسبك على الإطلاق . . . فضلا عن أنه
سيكون بوسعك أن تمد يد المساعدة لأصدقائك . ستصبح الجواد المحسن
فى هذه القرية ، يقف لك الناس وينحنون عندما تمر بهم . . . حياة جديدة
ياياناكوس ، حياة عليّة القوم ، وليست حياة المتسول . كم من الأعوام
نقضتها على ظهر هذه الأرض ؟ فلنحاول على الأقل أن نحيا عمرنا فى راحة
وهناء . ألا توافقنى على ذلك ؟ هيا تروى فى أمرك . انى أتحدث اليك بما
يعود عليك بالنفع . يجب ألا ندع غيرنا يجنى الخير الذى تحت أقدامنا .
ان أخوف من أخافه هو القسيس .

وقال ياناكوس بلهجة من لم يحسم أمره :

- اننى أخشى الله . أخشى الله يا أب لاداس . هل من الصواب أن
نسلب أخوة لنا مضطهدين ؟

- نحن لا نسلبهم شيئا أيها الأبله ، بل نعيد لهم ما سلب منهم
يا غبى . اننا ننقذهم من براثن الموت . . . انهم يريدون أن يطعموا ، هذه
المخلوقات التعسة تريد الحياة ، انهم أخوة لنا . لى قلب مثلك وانى

لحزين من اجلهم ... اننا نقايضهم ولا نسلبهم ... طبعا نحن ننظر الى مصلحتنا ايضا قدر المستطاع ، اننا نتاجر ولسنا بلهاء . ربح طفيف ، ليس هذا امرا مقبولا ... تعال اقرب منى ... خذ كسرة خبز .. اليك بعض حبات الزيتون ... كل . سنكون من الآن شريكين وصاديقين . لذلك يجب أن نقسم معا كل شيء ، ونقسم بانتساوى . لقد ابقيت بعض القهوة أيضا ، اشربها .
ورد ياناكوس :

– لست جوعانا . أشعر بدوار . سأجلس هنيهة على المقعد وأهضم ما قلت له لى ... انك تفتح أمامى طريقا جديدا أيها الأب لاداس . دعنى أستجمع ذكائى وأفكر مليا فى هذا العمل قبل أن أحسم أمرى .
– المشكلة يا صديقى أن ليس لدينا متسع من الوقت ... المسألة ملحة وعاجلة . لماذا الانتظار والتفكير ؟ اذهب من فورك الى ساراكيينا ، ولا تضيع الوقت هباء . انى أتوجس خيفة من القسيس كما أقول لك ... القسيس هذا الطائر الجارح .

جلس ياناكوس ووضع رأسه بين راحتيه ، وأسند مرفقيه الى ركبتيه ولاذ بالصمت فترة طويلة . كان رأسه يغلى كالقدر ، وصدغاه يختلجان . واختلط الأمر فى رأسه ، وتشابكت الموضوعات . الأقرات التى تحلت بها آلاف الأذان ، والقلائد التى تزينت بها آلاف النحور ، وخواتم الزفاف حول الأصابع ، والعملات الذهبية ... كل هذه ينتزع من أصحابه ليتجمع ويتكدس فى الصندوق الكبير الذى تملؤه فى كوخه الملابس البالية التى كانت تمتلكها زوجه المتوفاة ... وشيئا فشيئا تراءى له بيت كبير يعلو شامخا فى الهواء ... ليس بيتا بل قصرا منيفا ، به حدائق غناء ، وفناء وشرفات وسرر ناعمة ، وامرأة فى ريعان الصبا فاتنة الجمال ، يداعب شعرها ... وانفتح الباب الكبير . وكان صباح يوم الأحد . الشمس ساطعة ، وأعلن جرس الكنيسة بدء القداس ، وخرج ياناكوس فى سروال من الكتان الفاخر ، وفوق رأسه قلنسوة من تلك التى يلبسها الأعيان ، يتوكأ على عصا طويلة من العاج ، يتقدم صوب الكنيسة بخطوات كلها استعلاء ، ويهب القرويون وقوفا عندما يمر بهم ، ويسرفون فى انحناءاتهم تحية له ... ثم رأى ياناكوس نفسه جالسا فى الفناء ، ووقف قسطندى قبائلته فى احترام شديد . واذا به يخرج من جيّب صدريته كيسا متخما بالعملات الذهبية . تعال يا عزيزى قسطندى ، خذ هذه النقود حتى أرى الابتسامه ترتسم على شفتيك . لقد عشت أياما عصيبة مع هذه القطة

المسماة بشفيقتى . وانك لتستحق ما هو اكثر من ذلك . ثم نادى مانولى تعال أنت أيضا يمانولى . اشتريت لك قطيعا من الأغنام . خذه ولن تكون بعد اليوم خادما لهذا الشيخ القعيد بطريار كاس . . . شردت أفكار ياناكوس حيناً هنا وحيناً هناك ، وتراءى له برج جرس كنيسة ليكوفريسي وقد علتة ساعة كبيرة ، تشبه ساعة كان قد رآها فى سميرتا . ونقشت حول واجهتها الكلمات التالية بحروف كبيرة من الذهب . «هدية من الوجيه ياناكوس بابا نوبلو المحسن الأعظم » . وشردت أفكاره فى طريق آخر ، واختفت الساعة . ولمع فى رأس ياناكوس سرج مطعم مغطى بالقطيفة ، وموشى بالذهب . أمسك به بين ذراعيه ودخل الحظيرة وهو يصيح : يوسوفاكى . اشتريت لك السرج الذى وعدتك به . أنظر ، ليس له نظير عند الملوك جميعا . انتهت أيام الشقاء . لن تفعل شيئا بعد الآن يا صغبرى يوسوفاكى سوى أن تأكل وتشرب . تخرج كل أحد بعد القداس تخطر فى الميدان مختالا بسرجك الجديد تستعرض نفسك أيضا ، يا امام الحمير . سيتراجع الناس أمامك اجلالا ، يحيونك كأنك انسان .

وفهقه ياناكوس عاليا ، وهز رأسا تضخم كالقرع ، وبدا كأنه يصحو من نومه . ونظر الى المرأة المعجوز فرأى اناملها تحوك دون توقف غارقة فى غبطتها . ورأى الأب لاداس منتظرا وعيناه مثبتتان عليه .
وقال :

* - مناصفة يا أب لاداس . هل توافق ؟ « ومد له الأب لاداس يده الطويلة كأنها المخلب :

- يدك يا ياناكوس . موافق . مناصفة . هذا هو الشيء المعقول . فى المساء تأتيني بحصاد يومك من الجواهر وأعطيك أنا القمح والزيت والنبيد حسب اتفاقك معهم . ثم نصفى حسابنا معا بعد أن نكون قد انتزعنا كل ما يمكن انتزاعه . وكل ما عليك أن تفعله هو أن تسجل فى كراسيتك ما أخذته وما أعطيته ، حتى يكون كل شيء واضحا لك ، ولا تظن : ننى سأبخسك حقا . وحتى تطمئن الى ثقتي بك سأعطيك مقدما ثلاثة جنيهات تركية ذهباً تحت الحساب . *

وأخرج من جيبه كيسا ربطه ربطا محكما بخيط سميك . ودس يده فى الكيس وأخرج على مهل ثلاثة جنيهات عددا واحدا واحدا بيدين ترتعشان . فانقض عليهم ياناكوس مسعورا ، وامتلأت عيناه الزائفتان ببريق الذهب .

وقال المعجوز لاداس :

— سأحرر ايصالا توقع عليه عند عودتك . هل توافق على هذا ؟ هل تنق بي الآن ؟ ان ما قلته لك ليس مجرد كلام في الهواء بل ذهب . اذهب حتى لا نخسر الوقت . مع سلامة الله .

ودفع ياناكوس ، وفتح الباب . وصاح خلفه :

— رعاك الله . اذهب ومهد لنا الأرض .

وأغلق الباب وراءه سريعا قبل أن يثوب شريكه في الجريمة الى رشده .

ووضع اصبعه على شفثيه وقال مخاطبا زوجته :

— بنيلوب ، ولا كلمة . هل رأيت كيف عاجلت الموضوع ؟ هل رأيت مدى دهائي ؟ ان عقلي كحد موسى . هل رأيت كيف اصطدته بسنارة الذهب ؟ أخسر ثلاثة جنيهاً وأحصل على ألف في مقابلها تعالى الآن أعدى الصندوق . عجلي يا عزيزتي .

بيد أنها ظلت جامدة فوق مقعدها . واستمرت تخطيط دون انقطاع ، عيناهما مثبتتان على الابر ، تلتقي وتفترق لتلتقي ثانية دون أن تبين شيئا ، والجورب الذي تصنعه للأب لاداس يطول بين يديها . لم تكن ترى في الجورب ساق العجوز النحيلة بل عظمة الساق نفسها طويلة جافة ينخرها الدود .

سار الحمار في طريقه وخلفه ياناكوس غارقا في أحلامه . كان يحس بثقل حزين في جانبه الأيسر يثقل قلبه ، ولكن في جانبه الأيمن نقل آخر حبيب الى نفسه يثقل جيب سترته . وترنح في مشيته كأنه ثمل ، حينما يقفز من حجر الى حجر ، وحينما يتوقف فجأة ويسبح في بحر تأملاته . واستدار الحمار الصغير ينظر الى صاحبه دهشا ، ثم وقف جامدا في مكانه ينتظره .

وتتمم ياناكوس :

— ليت أنى لا أرى أحدا ولا يرانى أحد . سر يا يوسوفاكى وأسرع . لم توقفت ؟ اتجه الى هذا الطريق . لقد غيرنا طريقنا . حدث شيء كأنه هزيم الرعد يا عزيزى .

وهز الحمار رأسه متحيرا ، فهو لم يفهم شيئا . الى أين ينتهى بهما هذا الطريق ؟ ترى ماذا حدث لسيدة ؟ ما أغرب بنى البشر — انهم لا يعرفون أبدا ماذا يريدون .

– ليتنى لا أرى أحدا حتى ولو كان مانولى ٠٠٠٠ لدى عمل أهم
وأخطر الآن • نذهب لى الجحيم هو وكاترينا ٠٠٠٠ تعال يا يوسف اكى •
أسرع •

ولم يكذب يبلغ أطراف القرية حيث لا يوجد بعدها غير الحقول حتى
وجد نفسه وجها لوجه أمام مانولى ورفيقين له ، يحمل ثلاثهم الكابتن
فورتوناس • كانوا يسرون بخطى قصيرة وقد أظرقوا برءوسهم •
وسار فى مقدمتهم حسين مرتديا طربوشه الأحمر ، وسيفه معلق بخصره •
وشد ياناكوس حماره جانبا ليفسح لهم طريقا • وسار بمحاذاتهم
ورأى الكابتن التعس فاقد الوعي ، مشجوج الرأس ، وقد ربط بفاطة
بيضاء مخضبة بالدم ٠٠٠

– ايه يا رفاق • ماذا أصاب قبطاننا ؟ قل لى يامانولى •
أجاب مانولى :

– سقط الرجل التعس فوق سلم الأغا وشجت رأسه ٠٠٠ لو رأيت
خالتي ماندا لينيا فقل لها ان تحضر لتغير له الضمادة ٠٠٠٠ انها تجيد
هذا العمل فقد كانت قابلة قبل ان تشتغل بتكفين الموتى •
وتتم ياناكوس :

– مسكين ٠٠٠ لا بد أنه كان مخمورا للغاية كعادته •
واستدار حسين وقهقه لسماعه هذا الكلام • وقال :

– ألا تحزن لما أصابه أيها اليونانى القدر • شج رأسه ، وسوف
يبرا ثانية • اليونانيون يتميزون بقوة بنيانهم • وبخاصة الرد منهم •
وقال ياناكوس :

– مانولى ٠٠٠ عندى كلمة لا بد أن أقولها لك •
وأجاب مانولى :

– وأنا أيضا • ولكن يجب أولا أن نذهب بالقبطان الى مخدعه •
اتبعنا وانتظرنى أمام الباب • سأعود اليك •

وساروا بخطوات متأنية ، اذ كان الكابتن يثن ويتوجع مع كل
حركة • وعندما وصلوا الى بيته أدخلوه • وربط ياناكوس حماره تحت
ظل شجرة زيتون ، وانتظر •

- حقا كانت ليلتنا حبيلى بأحداث جسمانى . ترى ما الذى ستمتمخض عنه ؟
ليحفظنا الله .

أخرج كيس التبغ ، ولف سيجارة ، واتكأ على جذع شجرة الزيتون ،
وبدأ يدخن ليزجى الوقت . كان أسفا اذ تحدث الى مانولى ، ورأى فى
حديثه مضيعة للوقت . فالعمل الخطير الذى تعهد به يقتضى السرعة فى
انجازه . وتحسس جيبه ، وداعب العملات الذهبية بأصابعه وابتسم .
وتمتم قائلا :

- حمدا لله . لم أكن أحلم . كم من مرة رأيت نفسى فى أحلامى وأنا
أقبض فى يدى على عملات ذهبية . . . ثم أبحث عنها مع الصباح كالمعتوه
تحت وسادتى . ولكن الحمد لله ها هى موجودة معى هذه المرة .
وظهر مانولى عند عتبة الباب . وقف يمسح جبهته ، وأبصر
ياناكوس تحت شجرة الزيتون واقترب منه .

- صديقنا فى حالة خطرة . لقد نال منا التعب .

وقال ياناكوس :

- انى فى عجلة . أريد أن أحدثك فى موضوعين تم أنصرف . فعندى
أعمال كثيرة اليوم . . . اسمع يامانولى ، اول شىء ، نصيحتى لك الا تطأ
اليوم بيت سيدك . فهو يعرف موضوع السلال . واهتاج هياجا شديدا ،
وأخذ عصاه وخرج لينكل بابنه . لذلك ابق بعيدا حتى تمر العاصفة .
- اذا كان الأمر كذلك اذن فلأذهب لأخذ نصيبي . فهى غلظتى أنا
أيضا .

- وهى غلظتى أنا أيضا ، ولكننى لن اذهب . قد تقول عار عليك
هذا ، بيد أننى لن أبالى . . . انتظر ، لا تنصرف ، فشمه موضوع آخر .
كاترينا الأرملة تنصب شباكها من حولك وتتمنى أن توقع بك . وقصت
على أنها تراك فى أحلامها . وكانت بالأمس تلقى اليك بنظراتها وانت فى
الميدان ، ولكنك لم تلحظ ذلك منها بطبيعة الحال . خذ حذرک يامانولى فان
كاترينا شيطان فى زى امرأة . انها قادرة على أن تغوى الأساقفة
فكر قليلا فى عيد القيامة المقبل عندما تمثل دور المسيح لا تدنس
نفسك .

اطرق مانولى برأسه ، واحمر وجهه خجلا . ذلك لأنه فى الليلة

الماضية رأى الأرملة فى منامه أيضا . انه لا يذكر كيف كان ذلك ، ولكنه لاحظ بعد ما استيقظ دوائر الأرق حول عينيه .

وتمتم قائلا :

– سيعيننى المسيح .

– انه لا يستطيع ان يفعل كل شيء بنفسه يامانولى . يجب أن تفعل أنت أيضا شيئا من جانبك اسمع أنا فى عجلة من أمرى . جاء دورك . أحسب أن لديك ما تريد أن تقوله لى .

وتردد مانولى ، فهو لا يدرى كيف يعرض الأمر على صديقه دون أن يؤذى مشاعره . وأخيرا بدأ يتكلم .

– أسالك الصفر عما سأقوله لك . ولكننا نحن الأربعة لنا نفس الهدف ، وهو هدف شريف مقدس . من الآن كلنا شخص واحد لو خطأ أحدنا خطوة خاطئة فعلى الباقين أن يحولوا دونه وهذا الخطأ . إذ أن هلاك أحدنا يعنى هلاكنا جميعا . ومن هذا الفهم أستمد شجاعتى . . .

بدأ ياناكوس يفك وثاق حماره وهو يقول :

– تكلم يامانولى . لا تتردد وادخل فى الموضوع فانى متمجبل كما قلت لك .

واصل مانولى كلامه فى رقة ، وقد أمسك بذراع ياناكوس :

– ها أنت ستعود الى عملك ستبدأ تطوافك من جديد استحلفك باسم المسيح ألا تنسى نصيحة القسيس لنا بالأمس . . .

وصاح ياناكوس بصوت بدت فيه خشونة مباغتة :

– أى نصيحة قالها لنا القسيس بالأمس ؟

– أرجوك يا ياناكوس ألا تأخذ الأمر على محمل سبى لا تنقص الميزان على سبيل المثال ، ولا

أحس ياناكوس بالضيق يتسرب الى نفسه . فك وثاق حماره بعنف ، ولوى زمامه حول ذراعيه بحركة عصبية وقال :

– حسن ، حسن . . انه يظن الأمر سهلا ، وقد استه . . ماذا سيقول القسيس لو نصحته أنا بأن يشد الحزام على بطنه ولا يتختم معدته ، وأن يتصدق بما يفيض عن حاجته على الفقراء ؟ وأن يكف عن مزج المراهم والدقيق

والتوبل ثم طحنها جميعا ليعطيها لك دواء لسكل الأمراض هذا الأفاق . ألم يحدث في العام الماضي أن هذا القسيس نفسه ترك العجوز مانتوديس ثلاثة أيام في العراء ميتا دون أن يواريه التراب حتى فاحت منه الرائحة النتنة . . . كل هذا لأنه أصر على أن يدفع له الورثة حقه مقدما ؟ ومرة أخرى ألم يحدث أن باع في المزاد العلني بستان كرم كان يملكه برونيموس السروجي المسكين لأنه مدين له بمبلغ زهيد . وفي هذا العام نفسه على وجه التحديد - نعم وقبل الأسبوع المقدس بقليل - ألم يرفع أسعاره : تدفع كذا مقابل التعميد ، وكذا أجرا لمراسم الدفن ، وأعلن أنه بدون هذا لن يعمد ولن يقيم قداسا لزواج أو وفاة ؟ ثم بعد ذلك لا يخجل ، صاحب الكرش البدين ، أن يسدى النصح لي ، أنا الذي لا أملك مليما واحدا

وقاطعه مانولى :

- لا تتحامل عليه هكذا ، فكل نفس بما كسبت رهينة . وعليك بنفسك يا ياناكوس . يلزمنا هذا العام أن نكون أطهارا لا تشوبنا شائبة . ولا تنس أنك ستكرن بطرس الرسول ماذا يفعل الانسان قبل تناول ؟ يصوم ، ويمتنع عن أكل اللحم والمسلى ، ولا يقسم ، ولا يفيضب ونحن الآن في مثل هذا الموقف يا ياناكوس

ولكن ياناكوس أخذته الحمية . أحس أن مانولى على صواب ، واهتاج لذلك كثيرا . وترك حديثه عن القسيس ، وصب جام غضبه على رفيقه . وانفجر بصوت مولول :

- حسن ، وأنت أيضا يامانولى ، لا تنس أنك لن تمثل دور رسول من الرسل ، بل دور المسيح ذاته . حسن اذن ، هل يحق لك أن تمس امرأة ؟ لا !! وها أنت تنهيا للزواج . ثم لماذا تثير كل هذه الجلبة ؟ دعك من احمرار الوجه خجلا . . . كلمة واحدة : نعم أم لا ؟ لنذهب جميعا الى الشيطان . هذا هو قولى لك . القداسة ليست أمرا هينا

أطرق مانولى برأسه ولاذ بالصمت .

عاود ياناكوس الحديث وقد مضى صوته يزداد ارتفاعا :

- نعم أم لا ؟ أنت لا يقع بصرك على لينيو حتى يسيل لعابك ويظهرها لك الشيطان في أحلامك كما تهوى لها أن تكون ، عارية تماما . كنت مثلك ، وأنا في سنك ، أحلب اللبن ، وأنا أعرف كل حيل الشيطان يأتيك بها وأنت نائم وترتكب معها الخطيئة وتقوم في الصباح وقد

ارتسمت حول عينيك دوائر من أثر السهاد . . . وعندما يحين الوقت لتمثل أمامنا دور المسيح المصلوب لن يكون قد مضى على زواجك وقت طويل . سيضعونك على الصليب ، بيد أن هذا سيغنى الكثير بالنسبة لك . ستعرف أن هذا كله ليس الا لعبة تؤديها ، وإن الذى صلب هو انسان آخر سواك . وفى اللحظة التى تصيح فيها وأنت على الصليب « ايلي ، ايلي ، لما شبقتنى » ستقول لنفسك « سأعود الى البيت بعد قليل ، عقب انتهاء الصلب ، وستكون لينيو فى انتظارك . . . أعدت لك الماء الدافىء لتغتسل به ، وملابس نظيفة بدلا من الملابس التى اتسخت ، ثم تذهبان معا الى مخدعكما بعد الصلب . . . حرى بك أن تصمت يامانولى ، واقلع عن تلقينى الدروس . فهذا لا يليق .

اسقط فى يد مانولى وهو ينصت اليه ورأسه منكس فوق صدره ، وقال لنفسه :

— انه على حق . . . انه على حق . . . نعم فأنا دعى ، أنا دعى .
صاح ياناكوس وقد أخذته النشوة عندما رأى مانولى يرتجف :
— لماذا لا تنطق بكلمة ؟ ! ليس حقا ما أقول ؟
وبدأ مانولى يتكلم :

— « ولكن بالأمس ياياناكوس كنت لاتزال »

لم يمهله ياناكوس ليكمل حديثه ، فقال له وهو يشد زمام حمارة استعدادا للرحيل .

— بالأمس يامانولى كان الأمر جد مختلف . بالأمس كانت عطلة عيد ، أليس كذلك ؟ كانت بطوننا ملأى ، والحمار فى حظيرته ، ورجباتنا نائمة . . . أما اليوم ، انظر ، الحمار يحمل أثقالا ، وبطوننا خاوية ، وانتهى عيد القيامة . وبدأت التجارة من جديد . . . والتجارة يا فتى تعنى أنك إذا أردت أن تأكل شيئا فانتزعه ، وإن كنت تريد أن تستحوذ على شىء فاختلسه . والا لكان أحرى بى أن أقصد جبل آتوس وأصبح راهبا بدلا من أن أكون تاجرا . هل تفهم ما أقول ؟

وصمت هنيهة وقد أحس ببعض الراحة . وانجبه صوب حمارة يجذبه ، وألقى نظرة الى مانولى راضيا ان أفضى اليه بكل مكنون نفسه .

— أتمنى لك حظا سعيدا يامانولى ، وفكر مليا فيما قلته لك . كان الله فى عونك .

بيد أن الغضب كان لا يزال يعتمل بداخله . فاستدار ناحية صديقه
ثانية وقال له :

— على التاجر أن يسرق الناس يا مانولى . اما واجب القديس ألا
يسرقهم . هل رأيت؟ يجب عليك ألا تخلط بين الأمرين . أتمنى لك زواجا
سعيدا يا مانولى . . . هيا بنا يا يوسف افاكى .

بقي مانولى وحيدا . كانت الشمس قد علت أفق السماء . والناس
والثيران والكلاب والحمير كلها مشدودة الى وثاق عملها اليومي . ووضع
الشيخ لاداس نظارته على عينيه ، وبدا يادى البشر ، يخط فى تان وانتباه
ايصال الجنيئات التركية الثلاثة . وفى اللحظة التى كان فيها القسيس
ثائرا يجد فى البحث عن الشيخ بطريار كاس اتاه شخص يسأله أن يعد
قداسا لميت . وهنا غير القسيس وجهته . أما الكابتن فورتوناس فقد
كان طريق فراشه ، يئن ويتوجع ، ويصب اللعنت على الام ماندا لينيا
وهى تغير له الضمادة لتربط رأسه المشجوج برباط جديد .

وكانت لينيو جالسة بجوار النافذة ، تدندن وهى تخطط آخر ملادة
من مفروشات الزفاف . كان قلبها يرقص بين جوانحها ، يعلو الى حلقتها،
ويهبط الى بطنها ، ويقفز من هذا الثدى الى ذاك يدغدغها . . .

سمعت لينيو أصوات مشادة فى حجرة سييدها بالدور العلوى ،
كان الأب يصرخ والابن يرد عليه ، يتحركان الى أمام والى خلف كأنهما
مشتبكان فى قتال ، والسقف يهتز من تحتها . بيد أن لينيو التى جلست
متكئة على النافذة لم تعبأ بشجارهما . بل انها لم تعبأ حتى بسماع صرخات
سيدها . فهى مستحرة قريبا من ربة سلطانه عليها ، والقييد على وشك
أن ينكسر لترحل مع حبيبها مانولى ، يعيشان معا فوق الجبل بين الأغنام .
فقد لقيت الكثير على أيدي العجوز بطريار كاس رغم أنه يحبها كابنته تماما،
وبحث لها عن زوج ، وأعطاه صداقا سخيا . الا أنها تشمئز منه ، ولا تحب
أن تراه ثانية .

وفى هذه اللحظة ازداد عنف الشجار ، وتردد رنين صراخ الشيخ
عاليا واضحا . وأعارته لينيو أذنها . كان يصرخ قائلا :

— سأظل أنا وحدى ما حييت صاحب الكلمة لا أنت . انها نهاية
العالم .

اختنقت العبارات فى حلقة ، وأخذ يتهته ، واختلط كلامه ببعضه

ولم تعد لينيو قادرة على أن تتبين كلامه بوضوح . ولكنها سمعت بعد لحظة العبارة التالية .

— لا . لا . لا أريد منك أن تتبسط في علاقتك مع مانولى أكثر مما يليق . لا تنس أنه خادم وأنت سيد . حافظ على وضعك ومركزك .
وغمغمت لينيو :

— هذا الشيخ القدر ، الخنزير العجوز ، انه لا يحترم حتى شيبته .
يأتى بهذه العاهرة كاترينا ويسيل لعابه من اجلها . وبعد هذا لا يريد مانولى حتى لا يفسد عليه ثراه . . . أف له . . . أريد أن أبعد عنه ولا أراه ثانية ، ولا أسمع شيئاً عن هذا العجوز المقرز .

هبت فجأة واقفة ، وأحست أنها لم تعد تطيق البقاء فى الحجرة ، وخرجت الى الغناء لتنفس عن نفسها وهى لا تزال تغتم :
— هذا الوحش العجوز . ليته يبتلى بمصيبة .

توسطت الغناء ، وأخرجت من البئر قليلاً من الماء ، غمست فيه رأسها ، وأحست بعدها بشيء من الهدوء . كانت صغيرة السن ، ممتلئة الجسم ، مكتنزة الشفتين ، بسامة اللحظ فى حيوية ، لها أنف أقنى كأنف سيدها العجوز ، سمراء شديدة السمرة ، تفيض اغراء ، وكانت تقف كل مساء عند عتبة الباب ، حتى اذا مر بها رجل مالت بجيدها فى دلال تستطلعه وتتملاه فى حنان ورغبة ، كقط يخفى مخالبه ، ويتهيا للوثب ، ثم فجأة يشفق على فريسته ويخليها ، وينظر بنهم الى غيرها . . . يحدث دوماً هذا الطراد القاسى الصامت مع الفسق عند عتبة الباب . وبعد قليل ، عندما يجن الليل ، تكف لينيو عن عراكها ، وتثوب الى حجرتها ثانية منهكة القوى .

ولم يكد دلوها يظهر عند حافة البئر وتخرجه لتغمس فيه وجهها الملتهب حتى انفتح باب الغناء ودخل مانولى :

هرولت الفتاة ، مندفعة نحوه بحركة تلقائية ، ثم كبحت جماحها فجأة . وقالت له :

— مرحباً بك يامانولى .

وقفت امامه تملأ عينيها منه بنظرات تتحرق رغبة فيه . وبنظرة سريعة كأنها ومض البرق ، تطلعت الى دراعيه ورقبته وصدره وفخذه وركبتيه . وأخذت تقدر مدى عنفوانه وشدة تحمله وكأنها تتأهب لمصارعته .

لم ينبس مانولى ببنت شفة . واجتاز الفناء بخطى واسعة . أسند
عصاه فى أحد الأركان وشرع يصعد الدرج الحجرى المؤدى الى حجرة
سيده . فقد سمع أكتفاء مروره صياحا عاليا ، وتعجل نصيبه من المعركة
بين السيد وابنه .

كان مانولى بادی الهم والتعب . وأسقط فى يده حين أبصر لينيو ،
فهى الشخص الذى كان يود ألا تقع عينه عليه فى هذه اللحظة . وحث
الحطى قاصدا الدرج ، بيد أن لينيو لم تتبين شيئا من سلوكه هذا .
ونادته :

– ايه ، أنا هنا يا سيدى . ألم تلحظنى ؟

ورد عليها مانولى بصوت جميل :

– صباح الخير يا لينيو . معذرة فانى فى عجلة . جئت لأرى السيد .
وردت عليه لينيو بصوت خفيض :

– دعه وشأنه . ماذا تريد من هذا المخلوق العجوز القذر ؟ انه فى
عراك مع ابنه ووريثه . دعهما يفتقا كل منهما عين الآخر . تعال هنا
واسمع . . .

وأمسكت بيده لتقوده الى داخل البيت . وأخذت تتحسس وتشمه
بانفها ، وتدور حوله ، وتمسح به ، ثم فجأة ارتدت الى الوراء وقد احمر
وجهها .

وقالت :

– متى سنتزوج يامانولى ؟ فقد مل الشيخ الانتظار .

وقال مانولى وهو يحاول الافلات منها :

– وقتما يشاء الرب .

لفها حزن فجائى ، وقالت :

– انى أركع له سبحانه متضرعة اليه . ولكن سله أن يعجل بمشيئته .
ان مايو على الأبواب ، والناس لا تتزوج فى هذا الشهر . هل يجب الانتظار
حتى شهر يونيو ؟ أو يوليو ؟ كل هذا وقت ضائع .

– الوقت فى صالحنا يالينيو . لا تقلقى . لاداعى للعجلة فلن يتقدم بنا
السن . وعندى عمل أريد أن أفرغ منه أولا . وبعد ذلك اذا شاء الله . . .

استولت الدهشة على لينيو وقالت :

- أى عمل ؟ أى عمل هذا ؟ هل لديك عمل آخر غير الرعى ؟

وقال مانولى وهو يقترب شيئا فشيئا من السلم الحجرى :

- نعم ، عندى عمل ...

- أى عمل ؟ مع من ؟ لماذا لا تريد أن تخبرنى ؟ سأكون زوجك بعد

قليل وينبغى أن أعرف .

- أريد أن أرى السيد أولا ، ثم أخبرك بعد ذلك ... يجب أن أتحدث

إليه أولا يالينيو ... دعينى أذهب إليه .

- مانولى ، ضح عينيك فى عينى ولا تخفضهما . ماذا بك ؟ ماذا

أصابك ؟ تغيرت فى يوم واحد يا حبيبي . ماذا فعلوا بك ؟

نظرت إليه مقتمة حزينة ، ثم استبد بها الضيق ، وأخذت أنفاسها

تتلاحق سريعا .. وبكت .

- حسدك أحد الناس وسحر لك . لا بد وأن أحضر العمة ماندالينيا .

ستحضر سعف الجمعة الحزينة وتحرقه بخورا ، وتردد التعاويذ لتطرد عنك

عين الحسود يامانولى ... تعال الى يا كنزى فعندى ما أريد أن أفضى

به اليك ...

أحس مانولى بأنفاس الفتاة حول رقبتة . انبعثت رائحة نفاذة من

جسده المغطى بالعرق . ورويدا رويدا اقترب منه ثدياها النافران المتلثان

وداعبا يده ، وتدافع الدم حارا فى عروقه .

قالت له لينيو فى حزم :

- لا تنصرف . سأتى بالأم ماندالينيا . فانا لا أطيق أن أراك

متجها هكذا .

ودخلت لينيو الى حجرتها . وسرعان ما ارتدت أحسن ثيابها ،

وعصبت شعرها بمنديل وملأت سلة ببعض البيض الأحمر ، وقليل من

البن والسكر وزجاجة نبيذ لتدفع كل هذا اجرا للعجوز ماندالينيا مقابل

ألعابها . وعادت فرأت ما نولى قد ارتقى السلم ووقف مترددا أمام باب

سيده .

وصاحت به .

« لا تنصرف • لا تنصرف ••• ساعدوا اليك ، »

خفتت اصوات الشجار • لا بد ان ميشيل غادر الحجره • وكل ما وصل الى آذن ما نولى من خلال الباب وقع خطوات العجوز الذى يذرع الحجره جيئة وذهابا ، يغمغم بكلمات من بين شفطيه •

دفع الباب ودخل • ولم يكذب بصره العجوز حتى اندفع نحوه ، وزأر بأعلى صوته رافعا يده ليلطمه بها •

« انها غلطتك • أنت الذى أدت رأس ابني • أنت الذى أفسدته على ، فلم يعد به شيء من طباعى ودمى ، أنت ايها المتشرد ، »

واسودت عروق صدغيه ورقبته ويديه • وفتح قميصه ، وكان صدر العجوز يعلو ويهبط كأنه يؤذن بالانفجار • وسقط فوق حشية فى ركن القاعة ، وأسند رأسه بين راحتيه وأخذ يسعل ويخرج من حلقه حشرة مسموعة •

استند مانولى الى الجدار يرقب السيد العجوز فى صمته ، وانتابته احساس بالندم وقال فى نفسه :

« ما أقسى قلب الانسان • أى حيوان كاسر هو •• حتى أنت ايها المسيح تعجز عن أن تحيله الى كائن مستأنس اليق » •

وفجأة نهض الشيخ واقفا ، فقد استعاد قوته ، وأمسك بخناق مانولى •

صاح ثانية ، واللعبا يتناثر من فمه ليفرق وجه مانولى ورقبته :

« انها غلطتك • غلطتك أنت • أتيت بك من أعلى الجبل لأزوجك بعزيتى لينيو التى أحبها كابنتى ، وأبقيتك معنا طوال أيام العطلة • نسيت أنك خادمى ، وأجلستك الى مائدتى يوم أحد السعف • والآن انظر الى مدى عرفانك بجميلى يا خائن • أفسدت البيت وبذرت فيه الشقاق • أدت رأس ابني ، وتسلمت الى مخزنى وأنا نائم وسرقتنى • يا لص • يا لص • ويبدو أنك لم تقنع بذلك ، فها هو ميشيل يعارضنى لأول مرة فى حياته • يقول لى «أصبحت رجلا الآن • سأفعل كل ما يحلو لى» • أتسمع هذا ؟ يا للوقاحة • يقول انه سيفعل كل ما يحلو له • وعندما صحت قائلا : « ألا تخاف أباك ؟ » تواتيه الجراة ليرد على • يا للسفالة •• ويقول « أنا أخشى الله ولا أخشى سواه » • لا • هل تسمع كلامى ؟ لا أحد سواه • هذه كلها حيلك أنت يا مانولى • لماذا لم تكسر ساقلك يوم

أن نزلت من الجبل لتشهد حفل عيد القيامة عندي ؟ .. لماذا لا تنطق
بكلمة ؟ لماذا تنظر الى بهاتين العينين الواسعتين ؟ تكلم انطق فاني أكاد
أنفجر » .

وفي هدوء قال مانولى :

« سيدى . آتيت أستأذنك فى العودة الى الجبل » .

فتح العجوز عينيه وحملق فيه وارتجفت شفثاه وتهته قائلا :

« ما هذا الذى تقوله ؟ تعود الى الجبل ؟ أعد ما قلته على سسمى
ثانية إن كان لك وجه لذلك » .

« آتيت يا سيدى أستأذنك فى العودة الى الجبل » .

انتفخت أوداج العجوز ثانية وصاح يقول :

« وماذا عن الزفاف ؟ متى سيتم عقد القران أيها الأحمق ؟ فى

مايو ؟ مايو هو الشهر الذى تتزوج فيه الحمير . معنى هذا أنه سيعقد فى
ابريل . هل آتيت بك من أجل هذا ؟ أنا صاحب الأمر والنهى هنا » .

« أمهلنى قليلا يا سيدى » .

« لماذا ؟ ماذا تريد ؟ ماذا أصابك ؟ »

« لم أتھيا بعد يا سيدى ... »

« لم تتھيا بعد ؟ ما معنى هذا ؟ »

« أنا نفسى لا أعرف يا سيدى .. أنظر .. لست أدرى كيف أعبر

عما فى نفسى . ولكننى أشعر اننى غير مستعد ، روحى .. »

« أى روح ؟ أظنك جننت ؟ .. اسمعوا ما يقسول .. انه يقول

روحه .. أنت أيضا لك روح ؟ »

« ماذا عساي أن أقول لك يا سيدى ؟ ثمة صوت بداخلى .. »

« أخرس » .

مد مانولى ذراعه ليفتح الباب ، فامسك به العجوز .

« الى أين أنت ذاهب ؟ ابق هنا .

وبدأ يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، بطولها وعرضها ، ويضرب

المنضدة بجماع يده ، ويعض على شفثيه .

« ساموت اليوم . ستقضيان على أنتما الاثنان . هذه هى النتيجة

بعد كل ما فعلت . ابني لا يخافني ، ويقول انه يخشى الله وحده . . .
وهذا - هذا الخادم القدر يحدثني عن روحه . . .

استندار للراعى وقد ثارت ثائرتة :

- « أخرج . اذهب الى الشيطان . أخرج . أغرب عن وجهي . اذا
لم يتم الزفاف هذا الشهر فلن تبقى فى خدمتى بعد ذلك . سأطردك من
بيتى . سأتى لعزيرتى لينيو بزواج آخر خير منك . . . غر . . . هل تظن
ألا نظير لك .

فتح مانولى الباب ، وقفز السلالم كل درجتين دفعة واحدة ، وألقى
نظرة فى الفناء . لم تعد لينيو بعد . فحمل عصاه وأخذ طريقه عدوا الى
الجبل .

★ ★ ★

توقف مانولى ليلتقط أنفاسه عند مشارف القرية ، على مقربة من بئر
القديس بازل . وهو بئر قديم مشهور ، تحيط به أشجار البامبو السامقة ،
وله حافة من الرخام المصقول ، حزت فيها العبال التى تحمل الدلاء صعودا
وهبوطا حتى تركت آثارا عميقة زادت من عمقها القرون الطويلة . كانت
الفتيات تقصده ساعة الغسق ، يستخرجن منه الماء البارد . وقيل انه بئر
له معجزاته ، ماؤه يشفى كثيرا من الامراض - أمراض المسعدة وانكبد
والكلبتين . وإعتاد القسيس أن يأتیه مرة كل عام ، فى عيد الغطاس ،
يباركة عندما تعلن الساعة منتصف الليل . ويحكى أن القديس بازل ،
قديس سيزاريا ، الذى يحمل اللعب ويوزعها على الاطفال فى جميع أنحاء
الارض ، يمر بهذا البئر ، على حد زعمهم ، ويشرب من مائه قبل أن يبدأ
جولته ليلة رأس السنة . ولهذا السبب سماه الناس بئر القديس بازل ،
ولهذا أيضا اعتبروه بئرا يحقق ماؤه المعجزات .

بلغت الشمس سمتها . وكانت أشعتها تسقط ثقيلة على الارض ،
كانها شلال ينهمر ماؤه دوما . وارتفعت السنابل فى الحقول ترتوى بأشعة
الشمس وتمتص منها غذاءها . وأوراق شجر الزيتون يقطر منها الضوء .
وعلى البعد يطالعك جبل ساراكيينا ، تخال الدخان يتصاعد منه ، وتلفه
غلالة شفاقة من الضوء فى لون اللهب . ووسط هذا اللهب تظهر الكهوف
فاغرة أفواها السوداء ، وعلى القمة تقف كنيسة القديس ايليا ، وقد
صهرها الضوء الذى يبهر الأبصار .

أمسك مانولى بالجبل وأخرج بعض الماء ، وغمس وجهه فى الدلو ،
وشرب منه . ثم فتح قميصه ومسح العرق من فوق صدره . واستقر

بصره على جبل ساراكيينا • وطاف بخاطره وجه القسيس فوتيس الزاهد العاتى الذى يتأجج نارا وضيء كالشمس ذاتها • حلق مانولى فى الطيف الذى يتراءى له ، وهو لا يفكر فى شيء ، ولا يسأل نفسه شيئا ، وقد ذاب هو الآخر مع تأملاته الورعة ، كما ذابت كنيسة القديس ايليا ، وسط الضوء الحارق •

ظل على حاله هذا وقتا طويلا غائبا عن الوجدان • وفجأة أحس بوخز آلام مفزعة فى يديه وقدميه وقلبه وكأنه صلب فوق الضوء •••• وبعد شهور مضت ، طافت بخلده ، على غير انتظار ، لحظة انوجد هذه التى واتته أمام حافة البئر ، وأحس فجأة أن هذه اللحظة كانت أعظم لحظات حياته بهجة • لا ، انها ليست بهجة ، بل شيئا آخر أعمق وأقسى ، يتجاوز كل حدود البهجة والألم عند الانسان •

وعندما مالت الشمس للمغيب ، نهض مانولى ليرتقى جبل العذراء عائدا الى كوخه حيث يرعى الأغنام •

وتتمم قائلا :

— يجب أن أذهب لأنام ، فقد اقترب المساء •

استوى واقفا ، وشد حزامه ، والتقط عصاه • كان متلهفا الى اللحاق برفاق وحدته — الأغنام والكباش والكلاب • وآنس فى نفسه شوقا الى رفيق الرعى نيكوليو ، هذا الصبى الصغير الشرس ، الذى لوحته الشمس بشعره المموج •

ولم يكذب يبدأ مسيرته حتى سمع فجأة صوت حفيف عيدان البامبو • وسمع وراءه صوتا صافيا يقول فى ضراعة واغواء :

— آه يامانولى ، هل تخافنى الى هذا الحد حتى تهرب عندما ترانى ؟
انتظر ، لى كلمة معك •

واستدار ، فرأى كاترينا الارملة تخرج من بين نبات السممار ، تحمل جرتها على كتفها • وطافت عيناه ، فى نظرات سريعة ، فوق جيدها المرمرى اللامع ، وذراعيها العاريتين الملفوفتين ، وشفتيها الورديتين تعلوهما الابتسامة •

وغض من طرفه وسألها :

— ماذا تريدن منى ؟

أسندت الأرملة جرتها الى حافة البئر ، وقالت بصوت كله حنان
وشجو :

— لماذا تلاحقنى يمانولى ؟ أراك كل ليلة فى أحلامى • لا يهنا لى نوم
بسببك • رأيتك فجر اليوم فى حلمى وقد أمسكت بالقمر تقطعه شرائح
كما تقطع التفاحة وتقدمها لى لآكلها • ماذا بينى وبينك يمانولى ؟ لماذا
تلاحقنى ؟ ان رؤيتى لك فى أحلامى تعنى أنك تفكر فى •

ظل مانولى غاضبا طرفه • انه يكاد يشعر بأنفاس الأرملة تحتويه ،
أنفاسا حارة حارقة • وبدأ صدغاه يختلجان بشدة • ولم يقل شيئا •
وقالت الأرملة بصوت دافىء طروب فيه أثر بحة خفيفة :

— ما هو ذا وجهك يحمر • أنا على صواب ياعزيزى مانولى ، وأنت
تفكر فى حقا • وأنا أيضا أفكر فىك • • وعندما تجول ذكراك بخاطرى
أحس بالخجل كأننى أقف عارية أمامك • • نعم كأننى عارية ، وكأنك أخى
وقد أبصرتنى •

وأجاب مانولى دون أن يرفع بصره من على الارض :

— أفكر فىك حقا • • • أفكر فىك وانى أسف على حالك • لم تبرح
صورتك مخيلتى طوال الاسبوع المقدس • أسالك الصفع •

جلست الأرملة فوق حافة البئر • وأحست بحلاوة وعذوبة ، بيد
أنها شعرت أيضا بفتور لا يقاوم • لم تعد ساقاها تقويان على حملها •
ولاذت هى الأخرى بالصمت • وانحنى فوق البئر ، ورات وجهها فوق
صفحة الماء الخضراء الداكنة عند القاع • وفى ومضة خاطفة خطرت برأسها
كل حياتها الماضية : فتاة يتيمة ، ابنة لقسيس بلدة قاصية ، التقت بزوجها
فى عيد العذراء • كان أكبر منها سنا بكثير ، وخط الشيب رأسه ، بيد
أنه ثرى وصاحب أملاك ، وهى فقيرة معدمة • اتخذ منها زوجا له ، أو
اشتراها بعبارة أصح • وأتى بها الى ليكوفريسي بعد الزفاف • كان يتمنى
أن ينجب أطفالا ولكن لم يكن ذلك فى قدرته • ومات الزوج • وترملت
كاترينا وهى فى العشرين من عمرها • ولم يعد يطمئن بها فراش • وكذلك
فتية القرية ، فبعد وفاة زوجها لم يعد يغمض لهم جفن • كانوا كلما انتصف
الليل يحومون حول بابها وتحث النوافذ وفى فناء الدار ، يغنونها أغانى
الغزل ، ويتنهدون كالعجول • وكانت هى الأخرى تنهده داخل بيتها •
وواصلت استشهادهما عاما وعامين • وذات مساء ، فى يوم من أيام السبت ،
فاض بها الكيل ولم تعد تحتمل المزيد • فى هذا اليوم غسلت شعرها ،

وضمخته بزيت شجر الغار . وتأملت جسدها ، وأحست بالأسى من أجله .
وفتحت بابها ، ودخل فتى صغير ، كان أول من تصادف وجوده ببابها .
وفى ساعة السحر ، وقبل أن يصحو أهل القرية من نومهم ، خرج الفتى
من بيتها . وشعرت الأرملة براحة غامرة . وأحست أيضا أن أيام الحياة
معدودة ، وانها لحطيثة كبرى أن ندعها تفلت من بين أيدينا دون أن نستمتع
بها . وعاودت فتح بابها فى الامسيات التالية كلما انتصف الليل .

ونفضت واقفة ، واختفى وجهها من على صفحة الماء الأخضر الداكن .

سالت مانولى :

— لماذا أنت حزين من أجلى يا مانولى ؟

— لا أعرف ياكاترينا . لا تسألينى . ولكننى أصدقك القول ، انى
حزين من أجلك كأنك أخت لى .

— هل أنت خجل منى ؟

— لا أعرف ، ولا تسألينى هذا السؤال . انى حزين من أجلك .

— ماذا تريد منى ؟

وصاح مانولى وقد توجس خيفة وتهايا للهرب :

— لا شىء . . . لا أريد شيئا .

وقالت بصوت يفيض فتنة :

— لا تنصرف . لا تنصرف .

توقف مانولى دون أن يلتفت اليها . وقفا صامتين مرة أخرى . وبعد
لحظة عاودت الأرملة حديثها :

— أخالك يا مانولى وكأنك كبير الملائكة يريد ان يقبض روحى .

— دعينى أنصرف فانا لا أبتفى منك شيئا . أريد أن أنصرف .

قالت الأرملة وقد ضاقت به ذرعا ، وفى صسوتها رنة سخريه من

جديد :

— أنت فى عجلة . تتلهف على الصعود الى الجبل ، تشرب اللبن .

وتأكل اللحم ثم تقوم من نومك ثانية . ستتزوج قريبا يا مانولى ولينيو

لا تحتمل الهذر .

— لن أتزوج .

قال مانولى ذلك بصوت عال ولكنه أحس بالخوف مما قال . فهذه أول مرة يفكر فى شىء كهذا .

— لن أتزوج أبدا . أريد أن أموت .

أحس براحة غامرة بعد أن قال هذا . واستدار ونظر الى الأرملة وجها لوجه هذه المرة ، وكأنه لم يعد يخشاها . وشعر كأنه تخلص الآن من ثقل عظيم .

وقال فى هدوء :

— وداعا ، انى راحل .

تبعته المرأة بعينيها وهو يسير بعيدا عنها ، وأحست بقلبيها ينقبض .

وبصاحت وفى صوتها رنة يأس :

— لا تفكر فى ثانية يا مانولى . لا تقلق منامى بعد الآن . لقد سلكت الطريق السبىء فدعنى وحدى .

— انى حزين من أجلك يا أختاه . انى حزين من أجلك . لا أريد أن تحق عليك اللعنة .

هذا هو ما دار بخلد مانولى ولكن دون أن يلتفت اليها أو يجيب عليها .

وكان قد خطا خطوات فى الطريق الى الجبل .

* * *

مصارعة مع الكيش

أشرقت الشمس ، وألقت بضوئها على قمة جبل ساراكينه
ولا مست أشعتها كنيسة القديس ايليا فكستها بلون وردى . وبدأت
طيور الحجل تقاىء فوق المنحدرات . وزحف الضوء ، فلف الجبل من
جميع نواحيه . وظهرت أشجار متناثرة بين الصخور الوعرة . قليل
من أشجار الخروب الجذع التى عاقتها الصخور عن النهو ، وأشجار
الكمثرى البرية التى غطاها الشوك ، وأشجار السنديان التى عرتها الرياح .

لا بد أن أناسا سكنوا هذا المكان فى ماضى الزمان - فلا تزال العين
تتبين انقاض جدار ، وبعض شظايا لأوان من الفخار ، وقليلاً من أشجار
استحالت ثانية الى أشجار برية بعد أن رحل عنها من استأنسها .
واختفت معالم الطرقات تحت أكوام الأعشاب والحجارة . وعادت البيوت
الى عناصرها الأولية ، وأنبتت الأشجار الأليفة أشواكا ، والذئاب
والثعالب والأرانب البرية التى فرت أمام الانسان عادت ثانية مظفرة .
تنفست الأرض والأشجار والوحوش الصعداء ، فقد استعادت حريتها ،
ولن يتهددها بعد الآن خطر الوحش العابر الذى يمشى على قدمين ، ظهر
لهم لحظة من الزمان فغير ناموس الأشياء الخالدة ، ثم ولى عنهم واختفى .

ولكن آه ، انظر ، ها هو ذلك الحيوان المهتاج دائماً أبداً يعود
أدراجه . وتوارت الوحوش الكاسرة وراء الصخور العالية ترصده . لم
تكذ الشمس تبزغ من مشرقها حتى خرج بعض بنى البشر من الكهوف :

رجال ونساء وأطفال ، وقصدوا الماء حيث يقطر من بين الصخور ، وانحنوا فوقه . وزرعوا بعض الحجارة ، وأوقدوا نارا ٠٠٠ وشبوا على أطراف أصابعهم ، وسرحوا الطرف الى الأفق البعيد ، تحت أقدامهم تمتد سهول ليكوفريسي الفيحاء ، وحولهم بحر من التلال تغطيه أشجار النريتون، والتين والكرم ، وعلى البعد يطالعهم جبل العذراء ساكنا في وداعة ، أخضر غنيا في خضرتها ، تغطيه قطعان كثيرة من الأغنام والماعز . ووراء هذا كله عند الأفق البعيد ترتفع الى عنان السماء جبال تعددت ألوانها بين الأزرق والأرجواني والأحمر .

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال :

- طلع الفجر ، يا أطفالى . أماننا أعمال كثيرة اليوم . تعالوا ، التفوا حوالى ، وهيا ندعو الله معا لعله يستجيب لدعائنا .

اعتلى القسيس فوتيس صخرة ، وجر الشيوخ من الرجال والنساء أنفسهم ليشكلوا دائرة حوله . هرولت النسوة يحملن أطفالهن ، ومن ورائهن الرجال ، تقدموا بخطى وثيدة حزينة ، ورموس مطرقة أثقلتها الهموم ٠٠٠ عصابة مهلهلة الثياب ، حافية الأقدام ، غائرة الوجنت من أثر الاجهاد والجوع ، عزلا وسط أحجار وعرة موحشة وأشجار متناثرة بغير ثمار . . . قد لا ينتظر المرء منهم غير ضراعات وعبرات ، وأكف ترتفع الى السماء تستجدي الرحمت ٠٠٠ ولكن حدث ما هو نقيض ذلك . فقد علت الحناجر ، تنشد بصوت قوى طروب ، نشيد النصر للكنيسة البيزنطية . وترددت أصداؤه بين جنبات الجبل :

- « انقذ شعبك يا الهى ، بارك ورثتك .

امنحنا النصر على البرابرة » .

وقاد القسيس الانشاد بحركات ايقاعية من ذراعه . كان صوته غلابا . سباقا ، عميقا ، جسورا .

وارتفعت الرموس المطرقة ، وفتحت النسوة صدرياتهن ، والقمن أئداءهن لأطفالهن بينما ربضت أخريات على الأرض يطعن النار بفروع الشجر ، ويضعن الجرار فوقها .

وصاح الأب فوتيس :

- يا أطفالى ، هنا وعلى سفح هذا الجبل الوعر ، وبعون الله تعالى سنتخذ لنا سكنا . قضينا شهورا ثلاثة نضرب فى الأرض ، ونال الارهاق من النساء والأطفال ، وأحس الرجال بالعار من ذل السؤال . الانسان

كألة هرة يحتاج الى أرض - وفي هذه الأرض سنضرب بجذورنا فى الليله الماضيه رأيت فى منامى القديس جورج ، سيدنا وحامينا ، وتماما بنفسه الصورة التى رسم بها على رايتنا . شسابا أشقر الشعر ، جميلا كالربيع ، يمتطى صهوة جواد أبيض ، وخلفه الأميرة الفاتنة التى أنقذها القديس جورج من الوحوش المروعة التى كانت تعيش حول النبع . وقد مدت يدها اليه ممسكة بابريق من الذهب تصب له منه الماء ليشرب . . . هل تهلمون يا أطفالى من هى هذه الأميرة الفاتنة ؟ انها روح اليونان ، روحنا نحن . أخذنا القديس جورج معه فوق صهوة جواده ، وأتى بنا الى هنا فوق هذا الجبل القفر حيث نحن الآن . زارنى بالأمس فى منامى ، وبسط الى ذراعه ، ووضع فى يدي بذرة قرية جديدة - صغيرة ، صغيرة جدا ، فوق راحتي ، لها كنيستها ، ومدرستها ، وبيوتها ؛ وحدثها . وقال لى : « ابنها » .

وصدر عن الحشد همهمة وحفيف كحفيف الشجر بين عيدان القصب . وعندما فتح القسيس فوتيس يده ، رأت نسوة كثيرة قرية صغيرة ، صغيرة جدا ، فوق راحته ، تشبه بيضة وضعت تحت أشعة الشمس لتفرخ .

بسط القديس فوتيس ذراعيه ، وبحركة منهما كأنه يحتضن الجبل

قال :

- انها هنا . هنا سنزرع البذرة التى ائتمنى عليها القديس جورج الفارس - هنا بين الحجارة والكهوف والمياه الشحيحة ، وتحت هذه الأشجار البرية العجفاء . تشجعوا يا أطفالى ، انهضوا واتبعونى . يومنا يوم عظيم ، سنزرع فيه قرينتنا الجديدة . انهض يا أب باناجوس ، ارفع جوال العظام على كاهلك ثانية وتقدم .

رفع المعمر رأسه اليابس ، واتقدت عيناه وسط جفنين تساقطت

عنهما الرموش . وقال :

- يا أطفالى ، ثلاث مرات أشاهد قرى تزرع وتقتلع . الأولى أبادها

الطاعون ، والثانية دمرها زلزال ، والثالثة ، هذه المرة ؛ دكها الأتراك . بيد أننى شهدت فى المرات الثلاثة أيضا بذرة الانسان تنبت ، حينما فى نفس المكان ، وحينما فى مكان آخر بعيد . قسيس منح بركاته ، والبناء شرعوا فى البناء ، كل انسان انحنى على الأرض يحفر ، واتخذ الرجال لهن زوجات . . ثم ما اعظم البهجة التى عمت يا ابنائى خلال عام واحد . شقت سنابل القمح الأرض وتساعد المدخان فى المنازل ، وعلا صراخ

الأطفال أثناء الولادة - وأصبحت القرية شيئا ينمو ويكبر . تشسجعا :
يا أطفالى ان بذرة الانسان ستنبث ثانية .

وصاح الرجان فى بشاشة :

- برافو يا أب باناجوس . لقد قهرت ملاك الموت نفسه ، يا جدذا .
أنت التنين الذى قهر الموت . ألسنت كذلك ؟ .

ورد انشيخ انعمر :

- هو ذا أنا بكل تأكيد . هو ذا أنا ، فأنا ذاك التنين .

ارتدى القسيس فوتيس فى هذه الأثناء رداه الكهنوتى ، وجمع
بعض أعشاب السعتر والنعناع ، وصنع منها مرشة للماء المقدس ، وملأ
قرعة بالماء ، ونادى بعض الفلمان ، وجمعهم حوله وعلمهم ترتيب المزامير ،
وترنيم الصلوات .

وقف الحشد عن بكرة أبيه ، واصطف خلف رائده وقسيسه ،
الرجال عن يمين ، والنساء عن يسار . ومن فوقهم لشمس قوية عنيدة
لا تعرف الكلل . ترتقى السماء مع كل صباح لتؤدى دورها الفذ المتجدد
أبدا .

وقال القسيس فوتيس :

- باسم المسيح يا أبنائى ، باسم المسيح وباسم وطننا . لقد أجتثت
قرينتنا من فوق الأرض ، وها هى قرينتنا تشيد من جديد . ان جذر سلالتنا
أبدي خالد . ماذا عساي أقول لكم يا اخوتى ؟ انى انسان كغبرى من
البشر ، أبتهج اذا ما صادفنى حدث سعيد . بيد أننى أبتهج أكثر عندما
تواجهنى الشدائد والساعات العصبية . فهنا أقول لىفسى « الآن يا أب
فوتيس ستكشف عن معدتك الحقيقى . أرجل أنت حقا أم لك شجاعة
« الأراب ! » .

وقهقه الرجال والنساء . واذا بهذه الكلمات المفعمة بقوة الرجولة ،
المشبعة بخفة الظل ، قد خفت عنهم بعض ما يثقل قلوبهم فى هذه اللحظة
المهيبة . وهب فى صدر كل منهم روح محارب مغوار من سالف الايام ،
تطلع الى الحجارة والأشجار المجذبة ، والأفواه الجائعة ، وشم عن
ساعديه .

غمس القسيس مرشة الماء المقدس فى الماء الذى باركه وصاح :

– اتبعونى جميعا يا أطفالى . سأرسم لكم حدود قريتنا ، باسم
المسيح وباسم اليونان .

رفع العملاق علم القديس جورج . وأمسك الرجال بعدتهم ،
المجارف والمعاول والفتوس . وحمل الشيوخ من الرجال لايقونات فى
أيديهم . وتصدر الجد المعز قومه حاملا على ظهره جوال العظام .
وتبعهم كذلك كلبان أو ثلاثة صاحبتهم فى مسيرة الخروج ، وشرعت
تنبح فى سرور . وحدثت جلبة عظيمة . وفى هذه اللحظة تردد عند أسفل
الجبل صوت نفير ولكن لم يسمعه أحد .

غمس القسيس مرشة الماء المقدس فى الماء الذى باركه ، وبحركة من
يده على امتداد الذراع نثر الماء على الحجارة والآجام وأشجار الخروب
وكأنه يرسم فى الهواء حدود القرية . كانت هذه أول مرة يؤسس فيها
قرية جديدة ، وارتجل الصلوات عن قلب يفيض تقوى وإيمانا .

– يا الهى ، يا الهى ، انى أحد بالماء المقدس حدود قريتنا . نسألك
اللهم ألا تطأها أقدم الأتراك ، وألا يدهمها وباء ، وألا يدمرها زلزال .
سنصنع لها بوابات أربع منيعة ، نسألك يا الهى أن تضع عندها أربعة من
الملائكة يحرسونها .

وصمت هنيهة . ونثر الماء المقدس على هيئة صليب فوق صخرة
كبيرة ثم التفت الى رفاقه وقال :

– هنا ناحية الشرق سنشيد احدى بوابات القرية ، بوابة المسيح .
ورفع يديه الى السماء وقال :

– « الهى هذه بوابتك . من هنا ستدخل سبحانك حين تتلطف بنا
لتسمع صوتنا ، وحين تنزل على الأرض فى ساعة الخطر . تعرف يا الهى
أنا بشر ، لذلك فان لنا روحا وصوتا سندعوك به . واذا الحفنا فى الدعاء
فلا تغضب علينا . نحن بشر ، مخلوقات معذبة ، أثقلتنا الهوم ، وثمة
لحظات تلم بنا ، ينوء فيها القلب بحمله ولا يطيق المزيد ، فينفطر ، ويلفظ
بما يعيب ويفرج عن كربته . الحياة يا الهى عبء ثقيل . ولولاك لأمسك
كل منا بيد الآخر ، رجالا ونساء ، وذهبنا لنلقى بأنفسنا فى هوة سحيقة
ما لها من قرار لتنتخلص من الحياة . ولكنك موجود ، وأنت يا ربنا
الفرحة والعزاء وحامى المقهورين . ها هى ذى بوابتك . فادخل » .

وتحرك القوم صوب الجنوب . ومرة أخرى رسمت الحدود في الهواء . ورتل القسيس مزمورا ، وحفت بصوته العميق أصوات الاطفال الواهنة كأنها شقشقة العصافير .

وتوقف القسيس هنيهة أمام صخرة مجوفة مملوءة ماء قراحا وقال :

— هنا سنبنى بوابة العذراء حامية السلالة البشرية . ضوعوا علامة هنا .

وبسط ذراعيه وقال :

— « يا أمنا العذراء . يا زهرة نضرة أبدا ، تزهري نبات العنبر الذى يحف بشجر السنديان البرى يا سيدتنا . . . نحن شعب بار مغلوب على أمره ، اسمعى دعاءنا . اخترنا لك مقعلا هنا على الأرض قريبا منا . وحجرك عش حنون يحتفى به البشر . أنت أم تعرفين معنى الحشرات والظوى والموت . وأنت امرأة تعرفين معنى الصبر والحب . يا سيدتنا ، اطلي من عليائك على قرينتنا ، وامنحى نساءها الصبر والحب ، عسى أن تثبت أقدامهن فى هذا الصراع اليومي ؛ وأن يحتملن بغير شكوى ، مع آبائهن وأزواجهن ، عناء الأطفال وعذابات البيت . امنحى الرجال القوة على العمل ، والأمل المتجدد دائما ، والانتصار على الموت بأن يملأوا الفناء بالأبناء والأحفاد . يا سيدتنا امنحى شيوخنا من النساء والرجال خاتمة مطمئنة مسيحية لحياتهم . ها هنا بوابتك . أنت حاميتهما ياسيدتنا ، فادخلي » .

فى هذه اللحظة ظهر خلف الموكب حمار يحمل على ظهره أحمالا ، ولكن لم يلحظه أحد . وقف الحمار فجأة مأخوذا ، وأدار عينيه الواسعتين المخمليتين الى صاحبه يسأله عما يفعل . وظهر ياناكوس بدوره خلف الحمار ، لاهت الأنفاس ، غارقا فى عرقه ، لاعنا الشمس والحجارة .

وتوقف هو الآخر مذهولا كصديقه يوسوفاكى . سمع تراتيل القسيس وكلماته الأخيرة . وتلفت حوله حائرا . انه يقول : « ها هنا البوابة » أين هذه البوابة ؟ ما هى تلك القرية التى سيشيديونها ؟ بأى شىء ؟ من الهواء ؟ أم فى الهواء ؟ عليهم اللعنة . ما بالهم يقتلهم الجوع ومع ذلك يتحدثون عن بناء قرية ؟ أقدامهم لا تقوى على حملهم ، ومع ذلك يرتلون مزامير الحرب : « هب لنا النصر على البرابرة رحماك يا رب فان بهم لجنة » .

ربط حمارة الى شجرة سنديان ، جدعاء ، واتخذ لنفسه مكانا بين
الموكب فى صمت وخفية . وأخذ يتطلع الى ما حوله بعينين واسعتين ،
واذنين مرهفتين ، وهو لا يستبين من أمره شيئا أيضا لك ذلك أم
يبكى . اقتفى أثر الآخرين ، يرقب القسيس يمشى وثبا ، ومرشة الماء
المقدس فى يده ، وهو يخط الحدود فى يقين يأخذ بالألباب ، وكأنه كان
يصر حقا فى الهواء شوارع المستقبل ، والبيوت والكنيسة ومساكن
الأعيان .

وتوقف القسيس للمرة الثالثة عند الجانب المقابل لبوابة المسيح .
فمد بصره صوب الغرب ثم اعتلى صخرة شماء شقتها شجرة كمثرى برية
مزهرة . وقال :

- « هنا سنبنى بوابة القديس جورج العامل الكادح . انه مثلنا
نحن الرجال ينحنى على الأرض يفلحها . ويسوق الماعز والأغنام الى المرعى ،
ويقود الثيران ، ويشذب الأشجار ويطعمها . لم يكن القديس جورج
محاربا مغوارا فحسب بل كان أيضا كادحا عظيما . اننا نضع ثقتنا فى
تأييدك لنا يا حامى قريتنا . نسألك أن تمنح الخصب لما نملك من ماعز
وحملان ، حتى تفيض ضروعها لبنا طعاما لأطفالنا ، وتجد علينا بلحمها
غذاء لأجسادنا لتجد فيه عوننا على حمل نفوسنا ، وتسخو علينا بصوفها
حتى لا يقهرنا ثلج الشتاء . أيها القديس جورج ، نسألك أن تبارك كل
المخلوقات التى تأنس الى الأنسان وتعيش لخدمته - الثيران والحمر
والكلاب ، والدجاج والأرانب نسألك أن تنحنى على الأرض وتباركها
أيضا . سنلقى ببذرة النبات بين أحشائك وسوف تسوق لها المطر عند
الحاجة عسى أن تنمو وتثمر الأرض والناس والقديسون ، كلهم
جيش واحد مع الرب أمامنا فى المقدمة يهدوننا الى الطريق . أيها القديس
جورج ، ها هى ذى قريتك ، وها هى ذى بوابتك . أردناها لك عالية
حتى تدخل منها وأنت على صهوة جوادك . فادخل » .

ظل ياناكوس ينصت فأغرا فاه ، وفرك عينيه بأصابعه وتلفت حوله .
لا شيء غير الصخور ونباتات التوت الشوكى والسمار والسعتر
وغرابين فوق شجرة خروب تملكهما خوف فحلقا فى الفضاء يدقان
بأجنحتيهما وينعبان فى حزن .

وتساءل فى فزع :

— ما هذه المخلوقات ؟ هل هم من البشر ؟ أم حيوانات بريّة ؟ أم قديسون ؟

تطلع الى الرجال بشواربهم المتهدلة ، والى النساء بضفائرهن الغزيرة ، وأردافهن الثقيلة . . .

« عونك يا الهى ، لقد أصابتهن جنة أذهبت عقولهم تماما » .

واتجه القسيس شمالا صوب مكان مقابل لبوابة العذراء ووقف ثانية أمام جدار متهدم غطته الأعشاب . لوح بمرشة الماء المقدس ، وبارك الحجارة ثلاثا ، ثم استدار الى رفاقه وقال لهم بصوت متهدج :

— هنا . . . هنا يا اخوتى سنبنى بوابة آخر ملك لنا من ملوك بيزنطة . . . قسطنطين باليلوجوس . وانى على يقين يا أحبائى انه سيدخل من هنا يوما ما رسول يتصبب عرقا يعلننا : « يا اخوتى ، عادت الينا القسطنطينية من جديد » .

لم يتمالك الحاضرون أنفسهم . وتعالّت صيحات مهتاجة . واستداروا فى ذهول ناحية الشمال ، يحدقون بأبصارهم الى الأفق البعيد صوب القسطنطينية مدينتهم المقدسة : انهم يرون الرسول رأى العين قادما تحمله اليهم الرياح .

ونادى القسيس :

— يا أب باناجوس . تقدم وحط عن كاهلك جوالك ، عند عتبة بوابة الملك باليلوجوس .

ثم قال مخاطبا الرجال الذين يحملون العدة :

— احفروا .

وفعلوا ما أمروا به . ضربوا بمعاولهم ضربات قوية ، وحفروا قبرا واسعا ، عميقا ، يسع انسابنا على امتداد قامته . ونزل فيه الرجل المعمر . هودم يده الى الجوال يخرج منه العظام واحدة بعد أخرى : جماجم وعظام فك وضلوع ، وكومها فى الحفرة فى صمت وخشوع . ونثر القسيس فوتيس على العظام ما بقى فى المرشة من ماء مقدس ، ثملقى بها فى الحفرة وصاح :

« يا آباءنا ، صبرا قليلا . لا تتحللوا وتصبحوا ترابا : انظروا ،

ها هو الرسول قادم » .

ومسح ياناكوس عينيه • وأحس بجفاف فى حلقه •

واصدر القسيس امره :

— هيا اخرج الآن يا أب باناجوس • أخرج فاننا سنردم الحفرة •

• وأسرع فتیان يمدان اليه أيديهما ليعيناه على الخروج •

وقال لهم الشيخ فى ضراعة :

— أتركونى يا ابنائى • انى راض بمقامى هنا • لماذا تريدون منى

أن آكل خبزا لا حق لى فيه ؟ لم أعد قادرا على العمل ، ولم أعد قادرا على

الانجاب ، أتركونى فلا نفع لى •

وقال القسيس بنبرة قاسية :

— يا أب باناجوس ، لم تحن ساعتك بعد ، فلا تتعجل •

ورد عليه الجد متوسلا :

— أتركنى يا ابانا ، فانا حيث ينبغى أن أكون • سمعت فيما يقال

لو لم يدفن انسان تحت أساس القرية فانها سرعان ما تنقض • ومن أين

لى بميتة أفضل من هذه ؟ ادفنونى •

وقال القسيس محتجا :

— هذا لا يمكن أن يكون • وهبك الرب حياة ، وهو القادر وحده على

أن ينتزعها منك • ليس هذا من حقنا يا أب باناجوس ••• أخرجوه

يا ابنائى •

وانحنى الفتیان ، ومدوا أذرعهما ليخرجاه ••• ولكن المعمر كان

قد رقد فوق العظام وهو يبكى :

— اتركونى يا ابنائى ، اتركونى ، فانا حيث ينبغى أن أكون •

لم يعد ياناكوس قادرا على كبح جماح نفسه • انحنى فوق الحفرة

وشاهد الرجل الكهل • كان مستلقيا على ظهره ، ساكنا بغير حراك ،

متجها بوجهه ناحية الضوء ، مبتسما فى سعادة ، عاقدا ذراعيه الى صدره ،

لا يفتأ يغمغم بكلمات :

— أنا راض بمقامى هنا ••• أنا راض بمقامى هنا •••

لان حلق ياناكوس بعد جفاف ، وتردد صوت نشيج .

التفت القسيس ، ورأى ياناكوس ، وتعرف عليه . وصاح :

— افسحوا يا ابنائي . هاكم رجيل بار من اهل ليكوفيسى .
اتى ليرانا ويشد من أزرننا فى بلوانا . رحبوا به يا اخوتى . انه أحد
الأربعة الذين احسنوا الينا بالسلال .

تذكر القسيس اسمه ، وأمسك بيده يهزها بانفعال وقال له :

— مرحبا بك يا ياناكوس . لن يحرق الله ليكوفيسى بناره بفضل
حك أنت وأصدقائك .

لم يعد ياناكوس قادرا على كبح جماح عواطفه ، وأجهش بالبكاء .

عانقه القسيس وقال له :

— ماذا يبكيك يا أخى ؟

— اقررت خطيئة يا أبانا . اقررت خطيئة .

— تعال معي .

— ماذا يبكيك يا أخى ؟

— اقررت خطيئة يا أبانا . اقررت خطيئة .

— تعال معي .

أمسك بذراعه وانتحى به جانبا .

— ماذا يبكيك ؟ أى خطيئة ؟ حدثنى يا بنى عما يثقل قلبك .

ثم أردف قائلا وهو يبسط ذراعيه يشير بهما الى قرية المستقبل :

— أنت أحد مؤسسى قريتنا .

ولكن ياناكوس خائنه قدماء وسقط على الأرض فوق صخرة ،
ووقف القسيس يحملق فيه بصره مهموما . وسأله :

— هل أنت بحاجة الى شيء ؟ هل اقررت اثما ؟ لا تبك .

— اقررت خطيئة يا أبانا . أريد أن أعترف لك بكل شيء حتى

يذهب عنى الحزن .

تساقطت الكلمات من فيه متعثرة الواحدة فوق الأخرى ، وتلاحقت
انفاسه ، قصيرة لاهثة . وبدأ يقص عليه سبب ارتقائه جبل ساراكيئا ،
واتفاقه مع الأب لاداس ، والجنيات الذهبية الثلاث التي قبلها منه
تحت الحساب .

أصغى إليه القسيس بانتباه شديد دون أن ينبس ببنت شفة .
وتطلع إليه ياناكوس في فزع .

وأخيرا قال بصوت مرتجف :

— ماذا ترى يا أبانا ؟

— أرى أن الانسان وحش ، وحش كاسر .. لا تبك . فاني أرى
ايضا أن الله كبير .

وغمغم ياناكوس قائلا :

— بل ان الانسان اكثر شرا من الوحش .

وبصق على الأرض كأنه أحس بدوار . واستطرد يقول :

— الانسان دودة تعيش في الطين .. دودة قدرة ، حقيرة ، دنسة
... لا تلمسني يا أبانا . ألا تشمئز مني ؟

لم ينبس القسيس ببنت شفة ، وسحب يده من ذراع ياناكوس ،
وغض من طرفه ، وتأوه في حسرة .

وثب ياناكوس من فوق الصخرة التي سقط فوقها ، ودس أصابعه
في جيب سترته وأخرج الجنيات الذهبية الثلاثة .

— يا أبانا ، هل لى أن اطعم في كرمك ، فتقبل منى هذه الجنيات
الذهبية الثلاثة وتشتري بها بعض الأغنام للقريبة .. من أجل الأطفال ،
فهم بحاجة الى اللبن .. وإذا تفضلت على ، فضع يدك على رأسي
وأصفح عنى .

ظل القسيس جامدا في مكانه بغير حراك .

— اذا لم تقبلها منى : فلن تعرف روحى معنى السكنينة ابدا
وبعد لحظة صمت قال :

— قلت لى ان الانسان وحش كاسر ، فهل لك أن تروضه يا أبانا .
كلمة طيبة منك تكفينى . خلاصى في هذه اللحظة معلق بين شفيتك .

لقى القسيس بنفسه بين ذراعى ياناكوس وانخرط بدوره فى
البكاء .

وصاح ياناكوس :

— هل هذا من أجلى ؟ هل تبكى من أجلى ؟ .

غمغم القسيس فوتيس وهو يمسح دموعه .

— من أجلك ، ومن أجلى ، ومن أجل العالم أجمع ، يابنى

وقبل ياناكوس بين حاجبيه ، وربت يده على شعره الأشيب

الكث .

— مغفورة لك خطاياك يا ياناكوس . ان بطرس انكر هو الآخر المسيح
ثلاث مرات ، وانقذته الدموع فى المرات الثلاثة . الدموع يابنى أشرف
ماء للتعميد .. أقبل منك ذهب الخطيئة الذى تقدمه لى . ستتحول
خطيئتك الى لبن لأطفالنا الجوعى . انى اباركك يا ياناكوس .

خر ياناكوس راکها أمام القسيس ، وحاول ان يقبل قدميه ، ولكن
سرعان ما انحنى عليه القسيس وأنهضه . وقال :

— لا . لا . اننا على مرأى منهم ، وها هم قادمون .

وتعالت صيحات هلوعة :

— يا ابانا ، يا ابانا ..

وقال القسيس فوتيس منزعجا :

— ماذا حدث يا ابنائى ؟

— يا ابانا ، الشيخ باناجوس اسام الروح . حاولنا ان نخرجه من
القبر .. الفيناها ميتا .

رسم القسيس فوتيس علامة الصليب . وقال :

— ادعو الله ان يغفر له مات سعيدا ، وها هو أصبح لبنة فى

اساس قريتنا .. ندعو الله يا ابنائى ان يحسن ختامنا مثله .. ساتى
لامنحه بركاتى .

ثم قال مخاطبا ياناكوس :

— انصرف يابنى ولا تخش شيئا . المسيح معك .

وانحنى ياناكوس على يد القسيس وقبلها ، وانطلق ليحضر
حماره .

وأحس بالفرحة كأنها جناحان يحملانه ، وأخذ يعدو وثبا من
صخرة الى أخرى مثل فتى في العشرين من عمره . وشعر بخفقان عند
ظهوره كأن جناحين قد نبتا فيه .

وغمغم :

— ليذهب العجوز لاداس الى الشيطان . الى الجحيم بذهبه .
انى اشعر بنفسي خفيفا كأننى أطيّر .

وربت على حماره الذى كان ينتظره في قلق تحت ظل شجرة
سنديان ، وفك وثاقه وهو يترنم بلحن .

وقال :

— سنصرف يا يوسوفاكى . انتهى عملنا نهاية طيبة . حمدا لله .

واستدار ، فوقع بصره على الصخور الوعرة ، والكهوف المعتمة ،
والرجال وقد انحنوا فوق قبر الجد تحت بوابة المستقبل التى سببنى
باسم الملك باليولوجوس ، ينصتون لقداس الدفن ، ويرسمون علامة
الصليب .

وتتمم :

— أدعو الله أن يجعل من قريرتكم حقيقة واقعة . لقد أسهمت في
تأسيسها بثلاث جنيهاً ذهباً .

وبدأ ينزل المنحدر وهو يتفنى .

وقال لنفسه :

— حقاً ما قلت « الانسان وحش كاسر » .. نعم ، انه يفعل
ما يختار . انه يسلك الطريق الذى يختاره لنفسه . أمامه بوابة
الجحيم وبُوابة الفردوس متلاصقين ، وهو يدخل أيهما يختار ..
الشيطان لا يدخل سوى النار ، والملاك لا يدخل سوى الفردوس ، أما
الانسان فانه يدخل اياً منهما حسب اختياره .

وضحك واردف قائلاً :

— سلاماً ايها الوحش المقدس يا ابن آدم .

ثم ترنم بلحن أغنية قديمة معروفة منذ زمان لا يعلم الا الله
مداه . وها هي الآن تتردد على شفثيه ثانية :

أنا ابن البرق ، وحفيد الرعد

بمشيئتي يومض البرق ، ويدمدم الرعد

ويسقط الثلج .

— انى جائع . سأخذ شيئا آكله . ويوسفافى جوعان ايضا .
سأذهب لآتيه ببعض العشب الأخضر ، حتى لا يغار منى اذا ما رآنى
أكل . لنجلس أنا وهو جنبا الى جنب كأخوين ، ولناكل لقمة سويا .

وسار بضع خطوات ، وجمع بعض الحسك ، ووثب فوق سور ،
وقطع بعض أوراق الكرنب ، وربط هذا وذاك فى حزمة واحدة وقدمها
لرفيقه :

— خذ . كل يا حبيبى يوسفافى . سأكل أنا ايضا . غداء هنيئا .

فتح خرجه ، وأخرج منه خبزا وزيتونا وبصلة ، وبدأ يلوك طعامه
على مهل وفى اطمئنان على نحو ما يفعل الأرنب .

وتتمم قائلا :

— جميل جدا هذا الخبز . أخال أننى أطعمه لأول مرة فى حياتى .
بيد أنه ليس بخبز ، أنه كسرات منه ، ولكنه يسرى الى العظام توا
ويمنحها قوة .

وأخرج من الخرج زجاجة نبيد نقش عليها صورة صقر له رأسان .
ومال بطرفها الى فمه ، وتردد صوت كركمة طروب .

وقال :

— ها انذا أشعر كأننى أشرب النبيد ايضا لأول مرة . ياله من
شراب عريبد ، يشق طريقه توا الى القلب ، ويشيع فيه نشوة . خلق
الله الكرم والنبيد لحكمة بالغة ، وبورك من فكر فى هرس الكرم لنخرج
منه النبيد ... هاتها ... جرعة أخرى .

وضع الزجاجة على فمه ثانية واغمض عينيه .

وقال صوت بادى الانتعاش :

— فى صحتك يا باناكوس .

فتح ياناكوس عينيه ، فأبصر كاترينا ، وعلى كتفها حرة ثقيلة ،
ومن ورائها نعلتها وقد التف شريط حول رقبتها .

وصاح :

— إيه ياكاترينا ، ماذا وراءك ؟ ماذا أتى بك الى هنا ؟ الى أين
بنمجتك هذه ؟ هل تبسينها ؟

وابتسمت الأرملة وهي تقول :

— نعم .

— تعالى . اجلسي لحظة وكلّي واشربي . القسيس فوتيس كان
يرغب في شراء نعجة تدر للأطفال لبنا . . ان الله هو الذي أرسلك الى
هنا .

جلست الأرملة على الأرض . ومسحت يمينيها الأسود العرق
من فوق وجهها وعنقها . وكانت عيناها تفيضان سعادة .

وقالت :

— ما أشد حرارة الجو . حل الصيف ياياناكوس .

أخذ ياناكوس كسرة خبز وحفنة زيتون وناولهما للأرملة وهو
يقول :

— كلى شيئا . هل يروقك البصل ؟

أخذت الأرملة منه الخبز والزيتون وقالت :

— لا . فانا لا أطمع البصل أبدا .

وقال ياناكوس ضاحكا :

— حتى لا يفسد رائحة فمك يا خبيثة ؟

— نعم .

قالتها وقد تغير صوتها بفتة . اذ بدت فيه رنة حزن . ثم واصلت
حديثها :

— تعرف يا جاري أننا نفضل ان نفوح منا رائحة الصابون المعطر
واللافندر .

وأزاحت الخيز والزيتون جانبا .

وقالت :

— آسفة . فليست أشعر بالجوع .

وخجل ياناكوس من نفسه . وابتلع ما في فمه .

وتتمم :

— بل أنا يا كاترينا أحق بأن أكون آسفا . أنا حمار .

التقطت الأرملة ورقة عشب ووضعتها في فمها تستحلبها دون

أن تنبس بكلمة .

وخيم عليهما الصمت لحظة ، وأحس ياناكوس بعزوف عن الأكل .

فأغلق خرجه .

وشاء ياناكوس أن يقطع الصمت الذي أثقله . فسألها :

— ما الذي جئت به في صرتك يا كاترينا ؟

— بعض ملابس للأطفال ، لا حاجة لى بها .

— هل كنت ذاهبة لتصدقى بها عليهم ؟

— نعم .

— والنعجة ؟

— والنعجة أيضا ، لتدر لهم لبنا .

وأطرق ياناكوس خجلا . وأردفت الأرملة بعد لحظة كأنها تلتمس

لنفسها العاذير :

— تعرف يا جارى اننى لم انجب أطفالا ، وأشعر كأن كل أطفال

الدنيا اطفالى أنا .

وأحس ياناكوس بجفاف في حلقه . وقال بصوت مخنوق :

— كاترينا . . أود أن ألقى بنفسى عند قدميك أقبلهما .

— استدعانى بطرياركاس ، هذا الفاسق العجوز ، قبل أول أمس

تزيارته . وأنبأنى بقرار مجلس الأعيان ، بأننى سأقوم بدور مريم

المجدلية فى العام القادم . وكنت قد سمعت بعض ما يروى عن مريم

المجدلية . وهذا هو ما أصبحته أنا — مريم المجدلية لهذه القرية . .

وعندما انبأني بذلك احسست بالخجل . أما الآن يا ياناكوس فانتى
ما عدت اشعر بالخجل . فلو اننى التقيت بالمسيح ، ومعنى زجاجة عطر،
لارقتها على قدميه اغسلهما بالعطر وامسحهما بشعرى .. اظن ان هذا
ما سافعله ، وسالازم مريم العذراء دون ان آنس فى نفس خجلا . وهى
بدورها لن تخجل من مصاحبتى لها .. ترى هل فهمت بعض ما قلته
لك الآن يا ياناكوس ؟

اجاب ياناكوس والدموع فى مآقيه :

- افهمك ياكاترينا .. افهمك .. بدأت أفهم اليوم فقط ، ومنذ
هذا انصباح يا كاترينا .

ثم أردف يقول بعد صمت قصير :

- أنا آثم كبير ، خطاياى تفوق خطاياك ياكاترينا . ولهذا السبب
افهمك .. قبل اليوم كنت سارقا كذوبا الى حد ما ، وكل هذه لم تكن
كبائر بل صفائر .. ومع هذا الصباح كنت مجرما اثيما .. أما الآن .
ولاذ بالصمت . وطار قلبه من بين جوانحه . أمسك بزجاجة
النبيذ وقال :

- فى صحتك ياكاترينا . اسأت اليك الآن فاغفرى لى . الحمار
لا يفعل غير ما تفعله الحمر .

بعد ان شرب ، مسح عنق زجاجته بعناية .

- اشربى انت ايضا يا كاترينا حتى اطمئن الى انك غفرت لى .
وقالت الأرملة بعد ان مالت بجيدها الى الورا .
- فى صحتك .

ومسحت فمها ونهضت واقفة .

وقالت :

- سأنصرف . النعجة قلقة ، وها هى تشغو كأنها لا تحس
بالسعادة . لم احلبها هذه المسكينة . اريد أن يحابوها هم هناك فوق
الجبل .

- هل لن تفتقد بها يا كاترينا ؟ فانا أعرف مدى حبك لها .

- ترى لو أنك تصدقت عليهم بحمارك هل كنت تفتقده ؟

أقشعر بدن ياناكوس لسماعه ذلك وقال :

- لا تقولى هذا يا جارتى فان كلامك يمزق قلبى .

- ويمزق قلبى أيضا ياناكوس . وداعا . اتمنى لك حظا سعيدا .

وترددت لحظة ، ثم تجاسرت على القول :

- هل سترى مانولى ؟

- سأبدأ جولتى بين القرى .. واحسب اننى عند عودتى قد

اعرج عليه واذهب لأراه .. هل تريدون منى إن أقول له شيئا ؟

كانت الأرملة قد رفعت صرتها فوق كاهلها ثانية وبدأت تشد بقوة

السنجة الحرون .

وردت عليه قائلة :

- لا ... لا شيء .

وأخذت سيبلها صاعدة .

في هذه الإثناء كان مانولى قد بلغ الجبل . وشمّت الكلاب رائحته

عن بعد فأخذت تعدو نحوه ، تهز ذنبها ووراءها نيكوليو . ونيكوليو راع

صغير السن ، لوحته الشمس ، وله أذنان مديبتان . خف الى مانولى .

يثب من صخرة الى اخرى كأنه جدى . نما وترعرع بين الجبال مع الماعز

والأغنام . وهو أسمر شديد السمرة ، شرس قليل الكلام ، فحياته كلها

نقاء مع الأغنام والكباش . وشعره المموج ، الذى خالطه الراتنج

والروث ، مجدول على شكل ضفيرتين ، بدتا كأنهما قرنان صغيران

مديبان . انه يناهز الآن الخامسة عشرة من عمره ، ينظر الى الأغنام

بوجه عابس كوجه الكباش .

عندما بلغا ساحة المرعى . وضع نيكوليو فوق الدكة الحجرية

خبزا وجبنا وقديدا ، وقال :

- كل .

- لست جوعانا أيها الهمام نيكوليو . كل انت .

- ولماذا لا تشهر بالجوع ؟

- لا أرغب .

— هل آذوك هناك تحت ؟

— نعم .

— ولم ذهب اليهم ؟

لم يجب مانولى واستلقى على مخدعه المصنوع من الفس ، وأغمض عينيه . حقا : لماذا ذهب اليهم ؟ اعتاد قبل ذلك أن ينزل الى القرية صباح كل احد ، يسمع القداس ، ويتناول القربان ، ثم يعود من فورة الى الجبل . كان يحس بالاختناق هناك في السهل . يضيق صدره اذا ابصر النساء ، وتعتصر حلقه رائحة التبغ والنار جيلة كلما مر بالمقهى وراى الرجال مقبلين على الشراب ولعب الورق ، لذلك كان يمر بهم سريعا ، يحث الخطى عائدا الى الجبل حيث الهواء النقى . والآن ...

تذكر لينيو ، ونظراتها الماجنة ، وابتسامتها الساخرة ، وصوتها الساحر ، ثم ، وقبل هذا كله ، ثديها النافرين يدفعان صدريتها الوردية الى الأمام حتى تكاد تتمزق . ونهض جالسا على العصير . احس بسخونة شديدة . فنزع عنه قميصه الذى بلله العرق .
وقال لنفسه :

— يجب أن أتجلد واحافظ على نقائى ولا المس امرأة . سأقدم الحساب من الآن فصاعدا فان هذا الجسد ليس ملكا لى ، انه ملك المسيح .

وظافت بمخيلته صورة المسيح كما رآها يوم وصوله الى الدير مرسومة على ابواب الكنيسة المحلاة بالايقونات : ازار أزرق طويل ، وقدمان عاريان يمسان الأرض برقة متناهية حتى تكاد أوراق العشب الا تميل من تحتها . نحىلا ، شفافا ، رقيقا كالضباب . ومن يديه المقدستين ، وقدميه وصدره المكشوف ، يسيل خيط رقيق قان من الدم . . وامرأة فى ريعان الشباب ، يهفهف شعرها الذهبى حول كتفيها، تهرول نحوه ، تحاول أن تلمسه ، ولكنه يرفع اليها يده فى حزم ليقومها . ومن فمه المقدس تخرج باقة من الكلمات كأنها كتاب منشور . قراها مانولى دون أن يتبين معناها . وسأل رئيس الدير : « يا أبانا ماذا يقول المسيح هناك ؟ » وأجابه بقوله : « يا امرأة ، لا تلمسينى » . ومن هى المرأة يا أبانا ؟ « مريم المجدلية » .

« يا امرأة لا تلمسينى » . وأغمض مانولى عينيه . وفجأة راى

الأملة كاترينا تهز رأسها ، وتطوح عنها منديلها الأسود . انحل شعرها الأشقر ، وتهدل الى ركبتيها وستر ما بان من سواتها . واذا بهبة ريح تطوح شعرها ، فتكشف عن ثديين مدورين مكتنزين .

وهب واقفا فوق مخدعه وصاح :

— النجدة .

كان نيكوليو ، الراعي الصغير ، لا يزال جالسا الى طعامه ، يأكل بنهم لا يشبع . فالتفت اليه في هدوء وقمه ملآن ، وقال له :

— هل تحلم يا سيدى ؟ هل هناك من يتعقبك ؟ أنا أيضا يتراءى لى فى أحلامي أناس يتعقبوننى . لا عليك ، فالاحلام كذاب . نم ولا تكن ابله .

— او قد النار يانيكوليو ، انى مقررور .

كان الراعي الصغير عاجزا عن أن ينأى بنفسه عن الخبز واللحم ، فرد عليه معترضا :

— ولكن القیظ خاتق ..

عاود مانولى كلامه وأسنانه تصطك :

— انى مقررور ..

نهض الراعي الصغير وهو لا يكف عن المضغ . واتجه بادی التذمر الى ركن فى الحجرة ، وأخذ بعض الخشب والأغصان ووضعها فى المدفأة وأشعل فيها النار . واقترب من مانولى ، ونظر اليه مليا ، وهز رأسه :

— حسدوك يا سيدى .

قال ذلك ، وعاد ادراجه لياكل فى نهم .

جر مانولى جسمه الى أحد أركان الكوخ ، وتدثر بأسمال بالية ، وتكوم حول نفسه . أخذ يرقب النار وهى تاتى على الخشب . وتراءت له لينيو ومريم المجدلية والمسيح يتراقصون مع السنة اللهب ، يقتربون ثم يفترقون ليقتربوا ثانية .. وتراقصت السنة اللهب ، واحتجبت النسوة وراء الدخان المتصاعد ولم يبق غير المسيح مصلوبا فوق الشرر . رآه واضحا جليا بوجهه الشاحب مائلا على صدره ، ويداه مسمرتان فوق الخشب .. وتراقص اللهب وبعثت الحياة فى المسيح وخرج من

بين الرماد .. اخذ يتضائل شيئا فشيئا ، وانحنى على نفسه ،وبعدها
شب واقفا ، ثم اختفى وتوارى في الدخان .

نال الانهاك من مانولى كل منال ، ولم يعد قادرا على متابعة الخيالات
التي تتراعى له ، وسقط راسه بين ركبتيه ، واحتواه النوم .

كان نوما ثقيلًا لزجا . حاول مانولى جاهدا طوال الليل أن يتخلص
منه . أحس كأن أعشاب البحر ووعابين الماء تحيط به من كل جانب
وتتعلق به .. وتراعى له عند الفجر شلال من ضفائر شقراء ، تتدفق
عليه ، تثب نحوه ، وتتناثر وتغطيه من كل ناحية ، ويصرخ بصوت
مخنوق « النجدة » . ولكنه لا يزال غارقا فى سباته عاجزا عن أن يفلت
من النوم . وها هو ذا الآن يظفو على ظهره فوق ماء نهر ، يئن ويتوجع .
استيقظ الراعى الصغير مرتين أو ثلاثا على صرخات مانولى
الحادة . وعند سماعه لها يفغم :

« لا يزال يحلم بأنهم يتعقبونه ، ياله من مسكين » . ثم يتقلب على
جنبه ويستسلم للنوم ثانية .

عند مطلع الفجر فتح مانولى عينيه ، وطالعه من فتحة النافذة
سماء صافية . فرسم علامة الصليب . قال بصوت نصف مسموع :
— حمدا لله أن انقضى الليل ونعمت بالخلاص .

كان يشمر بألم فى مفاصله ، والتهاب فى عينيه ، ورجفة فى
جسده . خمدت النار ، وأحس بالعطش . كان يتوق الى بعض اللبن
الساخن . ولكن نيكوليو كان قد خرج ليرعى الماشية ، وهو لا يشعر
برغبة فى الشهوض . وتطلع حوله كأنه يرى لأول مرة عدة مهنته : الأواني
واسطال اللبن ، وملاعق خشبية معلقة على الجدار شكلتها وحفرتها
يداه بحذق ومهارة . فهو منذ صباه كان اذا وقعت يده على قطعة
خشب أمسك بسكين وأعمل يده حفرا ونقشا فيها ليشكل منها طيورا
وأشجار سرو . ثم بدأ يشكل منها بعد ذلك تماثيل نساء ، وبعدها
رجالا على صهوة جيادهم ، وأخيرا ، وبعد أن ذهب الى الدير ، قديسين
ورجالا على الصليب ..

وذات يوم مر به راهب فى المرعى وقال له : « يابنى كان اخرى
بك إلا تعمل راعيا . خير لك أن تكون راهبا . نعطيك الخشب وتصنع
لنا أيقونات .

تسللت الشمس من النافذة . خرج اليها مانولى ، وجلس تحت اشعتها ليذيب ما ببطنه من تصلب . وبعد أن استعاد الدف عاودته احلام ليلة البارحة . . نهر من الشعر الذهبى ، وأقشعر بدنه .
وغمغم :

— يسوع ربى . . لا تدعى أستسلم للغواية .

أحس ببعض السكينة ، ونهض من مكانه ، وأوقد نارا ، ثم اغترف قليلا من اللبن من الدلو ووضع على النار وشربه . أسترد بعض قوته . وخرج بعدها وجلس فوق مقعد حجرى فى فناء الحظيرة . كانت الشمس على بعد ذراع من الأفق ، وبدأ العالم يصحو من نومه ، وتآلق الجبل تحت ضوء الشمس . وتناهى اليه على البعد صوت نيكوليو يسوق الاغنام .

وتمتم :

— ها أنذا على ما يرام الآن . والغواية تأتى ليلا ، وها هي الشمس أشرقت والحمد لله .

وتلفت حوله ، ووقع بصره على كتلة خشب عند الباب مقطوعة من ساق شجرة وخفق لها قلبه فرحا . وانحنى عليها واخذها بين يديه وأسندها الى ركبتيه ، ومسح عليها بيده . كانت كبيرة مستديرة وكأنها رأس . وبدت اليافها معوجة ومتشعبة كأنها العروق فى هذا الراس .

أحس مانولى بأكلة تدغدغ أطراف أصابعه . ونهض فجأة ، ودلف الى الكوخ . . وأحضر منشارا صغيرا وازميلا ومبردا . ورسم علامة الصليب فى عجلة ، وقبل قطعة الخشب وبدأ يعمل فيها يده .

أقربت الشمس من سمتها ، ولا يزال مانولى منصرفا الى عمله، منكبا على قطعة الخشب التى احتضنها الى صدره . لقد نسى تماما ما يعانيه من ارهاق . والهواء الطلق نقى الأرض تماما ، وجاءت فى نقائها السماء . وولت الغواية الأدبار . كانت لينيو بعيدة عنه ، بعيدة جدا الى ما وراء الشمس . وكذلك الأرملة ولت عنه . انتحت ركننا قصيا مظلما فى أرض المرعى على هيئة نسيج العنكبوت .

كان مانولى يحفر هائما بوجوده مع قطعة الخشب ، عينه تبصران الى مكنون ذاته . واضحت روحه كلها عيننا يبصر بها . .

يتأمل في سويداء قلبه وجهها هادئا ، كله رقة وسكون وأسى . حاول مانولى أن يصور بصدق وأمانة ما يراه بعين بصيرته . . الوجنات الغائرة ، والنظرات الحزينة المتأللة ، والجبين العريض وقد انعقدت عليه قطرات غليظة من الدم . . وجرحا بين الحاجبين ، لا تراه في الأيقونات وإنما يبصره مانولى وحده .

كان العرق يتصبب من جبهته . جرح اصبعه بالأزميل ، وصبح دمه الحشب بلون أحمر . ولكن لم تقتر همته . كان متلهفا على محاكاة الوجه المقدس وتثبيته على الحشب قبل أن يتوارى من أمامه .

بينما كان يعمل في الحشب حفرا بصورة محمومة ، ظهرت عند أول الطريق امرأتان . . فتاة يانعة الصبا تتبعها عجوز لفت وجهها بمسنديل أبيض . عندما أبصرت الفتاة مانولى ، استدار الى العجوز ووضعت اصبعها على شفيتها . وتقدمت الاثنتان خلصة وعلى حذر ، شفوفتين بمعرفة ما الذى يفعله مانولى وأستولى على لبه . ولكن حدث أن تعثرت قدم المرأة العجوز ، فتدحرج حجر ، بيد أن مانولى كان غارقا في عمله حتى أنه لم يسمع شيئا .

لم تستطع الفتاة أن تسكب جماح مشاعرها ، فأسرعت الخطو ولمست كتف مانولى وصاحت :

— أهلا بك يا مانولى .

وثب في مكانه . وفارقت الصورة المقدسة . أحس بنفسه خائر القوى متهالكا فاستند الى الجدار ، ورأسه ملقى الى ظهره .

— ماذا بك يامانولى ؟ لماذا تنظر الى هكذا بعينين زائغتين كأنك تبصر عفريتا ؟ اننى أنا يامانولى . . أنا لينبو خطيبتك ، وها هى خالتك الأم ماندالينيا . أتت لترقيقك .

وتقدمت العجوز لاهثة الأنفاس . وقالت :

— مؤكد يا طفلى أن شيطاننا أو ما شابه ذلك قد مسك بأذى .

تطلع اليها مانولى فزعا .

وأخيرا سألها وهو يقلب كتلة الحشب ليدير وجهها الى أسفل :

— ماذا تريدان ؟

كانت العجوز على وشك أن تجيب ، الا أن لينيو دفعها جانبا ،
وقالت :

— أتركينا يا أم ماندالينيا . اذهبي أنت واجمعي ما تحتاجين
اليه من العشب ودعينا وحدنا . أريد أن أفضي اليه بكلمة على انفراد .
وانصرفت العجوز بادية التأفف ، تبحث عن نباتها . وانزلت
لينيو بجسدها فوق المقعد الحجري وجلست ملاصقة خطيبها .
أمسكت بيده وقالت بصوت رقيق نا

— مانولى . أدر لى وجهك وانظر الى . ألم تعد تهوانى ؟ ألم تعد
تجبنى ؟ وأجاب مانولى بصوت هادىء .
— احبك .

— متى ستتزوج ؟

لاذ مانولى بالصمت . فما أبعد الشقة بين زواجه وأفكاره التى
كانت تشغله فى تلك اللحظة ، الإله القوى القدير .
— لماذا لا تجيب ؟ انبأنى السيد بكل شىء .

قال مانولى وهو يشب واقفا :

— وددت لو أنك لم تأت الى هنا .

وصاحت لينيو وقد توقدت وجنتاها :

— أحسب أن الأفضل أن أستأذنك أنا أولا . فلم تعد زوجى بعد .
ولا زلت خلية .

ونهضت من مكانها ووقفت قبالته . وبسطت ذراعيها ، وقالت :

له بصيغة أمره :

— لا تنصرف .

استند مانولى الى الجدار وانتظر . وأخذت لينيو ترقبه ، وبين
جوانحها حب وكرامية يتصارعان . وأخيرا قالت بصوت مخنوق :

— لم تكن أُمى سوى خادم . . أما أبى فقد كان نبيلاً . لن أفرض
نفسى على أى إنسان . أملك صداقى ، وأملك شبابى ، وسوف أجد من
هو خير منك .

ضم مانولى كتلة الخشب المحفورة الى صدره بقوة حتى ألمته .

— كما تشكّانين يا لينيو .

قالها مانولى بهدوء ظاهر ، بينما قلبه يدق بشدة وكأنه يوشك ان ينفجر . ولم يكذب يلفظ بكلماته القاسية حتى أحس بالاسى لما قاله ، ووهنت عزيمته .

ونكس رأسه وعاد يقول :

— لينيو .. دعيني وحدي هنا لأيام قلائل حتى أحسم امرى .
ان كان حبك لى صادقا فافعلى ذلك من اجلى .

— آه ... هل تحب غيرى ؟ من ؟ ابن لى ثم انصرف .

— لا . لا يالينيو . أقسم لك انى لا أحب سواك .

— حسن جدا . واذا ما حسمت أمرك فأنبئنى بما انتهيت اليه .
سأنتظر .. ولكن من الخير أن تعرف — ربما أحبك ما حييت ، وربما
أكرهك ما حييت .. وهذا يتوقف على كلمة منك .. ان نعم أم لا ..
ولك أن تختار .

واستدارت ناحية المرأة المعجوز ونادت عليها :

— هيا يا أم ماندالينيا ، فاننا سننصرف .

وانطلقتا ، سارت لينيو فى المقدمة مهتاجة لم تحاول أن تلتنى
وراءها بنظرة واحدة . وثابر فى عروقها دم الكبرياء الذى ورثته عن
أبيها .

تهاوى مانولى فوق المقعد الحجرى . وأخذ يتطلع الى كتلة
الخشب التى أمسك بها بين يديه . لم تعد به أدنى رغبة فى معاودة
الحفر . فقد خبت النار فى نفسه واختفت من مخيلته الصورة المقدسة .
وعاد الى الكوخ ، ولف كتلة الخشب بخرقة بالية متأنيا كأنما
يوارى جذوة برماد يخشى أن تنطفىء . لم يعد يطيق البقاء وحيدا ،
اذ بدأ يشعر بالاختناق . فتناول على عجل عصا الرعى ، وأخذ طريقه
الى حيث يلحق بنيكوليو والماشية .

كانت الشمس تصب أشعتها عمودية على الجبل . همدت الأنفاس ،
وتوارت الظلال فزعة تحت أقدام الأشجار ، وقبعت الطيور فى أوكارها
خرساء تنتظر زوال الهلع .

وأحس نيكوليو فجأة أنه يفيض قوة وعنفوانا . تلفت حوله بحثا عن انسان أو شيء ينفس معه. عن هذا العنفوان الطامى . لا شيء . ولا أحد . لا رجل يعاركه، ولا امزة يطرحها على ظهرها فوق العشب . والماشية دوخها القيظ فلاذت بظل شجرة سنديان ، وعار عليه أن ينازلها . ولكن ها هوأت زعيمها الكبش داسوس بقرنيه الطويلين المفلوفين ، واليته الثقيلة الشحيمة ، وجرس الزعامة الكبير حول رقبته . القى نظرة جامدة الى اغنامه الغافية تحت الظل ، وثغا راضيا ، ثم انصرف عنها متناقلا فى مشيته ، ملكا متأنيا متغطرسا فى خطواته . وعقب الجو برائحة الذكورة . وانقض عليه نيكوليو كأنما فقد صوابه فجأة ، وضربه ضربة مفيظة بمصاه على قرنيه وظهره وبطنه .

وفى كبرياء وتعال ، استدار له الذكر المستهين . بدا له خصمه جروا - لا قرون ، ولا الية ثقيلة ، ولا شيء سوى قدمين يمشى عليهما . يكفيه نطحة خفيفة تطرحه أرضا . لذا فقد آثر ، مترفعا ، أن يواصل تطوافه بين الأغنام .

تبعه نيكوليو ، وأمسك بقرنيه ، ومال على ظهره . وهنا ضاق به داسوس ، وهز رأسه ، والقى بالراعى الصغير على الأرض .

صاح نيكوليو . وهو يحاول أن يشب واقفا . والدم ينزف من مرفقيه :
- يا خنزير . . ويل لك .

ثنى رقبته بين كتفيه ، وأحنى رأسه ، وانقض عليه لينطحه . وكذلك فعل داسوس . وداخ نيكوليو من أثر الصدمة . دار حول نفسه وبدأ الجبل يدور معه أيضا . بيد أنه استطاع أن يحفظ توازنه ، والتقط عصاه . واندفع حائقا نحو الحيوان ، وضربه كأنما يريد أن يحطم قرنيه

وفى هذه اللحظة ظهر مانولى . وضع اصبعيه فى فمه وصفر . استدار نيكوليو وابصره ، بيد أنه كان ثائرا مهتاجا ، ولم يستطع ان يكبح جماح نفسه ويقف ، فانقض ثانية على الكبش . التقط مانولى حجرا وقذفه به .

وصاح

- ايه يانيكوليو . هل أنت فى مصارعة مع الكبش ؟ تعال هنا .
جاءه نيكوليو، متدمرا متوعدا متصببا عرقا . أسند الاثنان ظهرهما الى صخرة ، وكان الراعى الصغير يضعد زفرات الغضب وتفوح منه

رائحة الكبش . وبين الحين والحين يصفر يغمه أو يقذف بحجر ، في محاولة منه لكي يخفي غضبه الذي يحتدم أواره في اعماق نفسه : انتصر عليه داسوس وأذله .

كانت نظرات مانولى تائهة في السماء . يحاول جاهدا أن يستعيد لنفسه هدوءها وطمأنينتها ويسترد لقلبه الصورة المقدسة التي كان يحفرها على الخشب . سحر هذا الصباح .. نسيان آلامه .. غياب وجدانه عن العالم .. كانا وحدهما بين السماء والأرض . هو وكتلة الخشب ، ثم سمع فجأة صوت امرأة وشفتان مكتنزتان .

– « ايه يانيكوليو .. انزع الناي من حزامك واعزف لنا شيئا .. فاني لست على ما يرام يا صديقي . روحى تائهة ، أضناها الهم . اعزف لنا شيئا ، لعل في ذلك شفاء لروحى » .

وضحك الراعى الصغير وقال :

– وأنا مثلك يا مانولى . روحى تائهة أضناها الهم أيضا . تلم بى لحظات أشعر معها أنى على وشك الانفجار . الجأ الى زايى ، اعزف عليه ، فلا تجد روحى شفاء فى ذلك . ولهذا صارت الكبش .

– « وماذا يظنك حتى تكون روحك تائهة ؟ أنت لا تزال حدثا لم يسود فوداك » .

وأجاب الفلام بحماسة ملتبهة :

– لياخذنى الشيطان ان كنت أعرف . ولكن عندما أكون وحيدا يا مانولى .. آه يلم بى الحزن .

ونزع الناي ، ووضع أطراف أصابعه البرنزية فوق ثقبه .

– « هل يحضرك لحن يا نيكوليو ؟ » .

– « أنا ؟ أبدا . انى أعزف اللحن كما يواتينى » .

وضع طرف الناي بين شفتيه وبدأ يعزف .

غطت الماعز والأغنام المنحدرات ، وتردد بين جنباتها برنين الأجراس : خرج الجبل الى المرعى . دبت الحركة بين أهل القرية ، وانسابت ماء الجداول صداحة ، تثب من حجر الى حجر . ورويدا رويدا خفتت اصوات الجداول وأجراس الماشية والجبل ، لا ، لم تخفت اصواتها ، بل كان يعتمل بداخلها ضحك حلو طروب منعش .. فعلى مرمى البصر

بمتد بحر متناغم الأمواج ، وشاطئء تنائرت فوقه الأصدا ف . وثمة نساء باسما ت الثغر يستحمن . . السيقان والأذرع على أمتدادها متباعدات . القين بأنفسهن فى الماء ، وعكرن صفو الأمواج ، فطوحت بهن فوق الشاطئء ، وندت صيحات قصيرة ، والشاطئء دغدغته فرحة ، وسأركهن الضحك .

أرهف مانولى السمع منظويا على ذات نفسه مبهورا . ترددت أصدا ضحكات النساء مجنونة على طول الشاطئء ، تملو وتهبط . ثم تتناهى الى سمعه ثانية مزوجة بأصوات الموج . وأخيرا سكت كل شئء ، وخرجت كاترينا من البحر عاربة .

وصاح مانولى وهو يشب فى مكانه

– « حسبك . كفى هذا » .

أدار نيكوليو رأسه ينظر اليه ، ولكنه وأصل العزف . فقد هامت روحه هو الآخر مع الموسيقى . كان يمسك بالنأى بقوة ، يضغط عليه بين شفثيه .

وعاود مانولى كلامه :

– قلت لك كفى .

رفع نيكوليو النأى عن شفثيه وأراحه على ركبثيه وقال :

– قطعت على سياق اللحن فى أحسن لحظائه .

وفاضت عينا مانولى بالدمع .

– ارتد الراعى الصغير الى الوراء وصرخ :

– « ماذا يا مانولى ؟ أتبكى ؟ تعال . لا تحزن ، انه النأى ولا شئء

آخر ، كل هذا ليس من الحقيقة فى شئء ، انه مجرد هواء » .

أراد مانولى أن يخطو بضع خطوات ولكن خائنه ركبناه .

وغمغم قائلا :

– أشعر أننى لست على ما يرام .

وساله الراعى الصغير مبتسما :

– هل سمعت صوت المياه ؟

.. اى مياه ؟ .

-- سرح خاطرى الى الماء اثناء العزف .. مياه كثيرة : ذلك لانى كنت ظمأنا .

ثم فى وثبة واحدة كان عند اسفل شجرة السنديان ، حيث علق عليها محجمته . كان مانولى قد اهداها له ، ونقش عليها صورة جدى .

وقال مانولى لنفسه :

— سأذهب حيث انام فانى ارتجف ..

ونادى نيكوليو :

— تنبه للماشية فانى ذاهب لاصنع الجبن .

واجاب نيكوليو وهو يمسح عن شفثيه وصدره الماء الذى تساقط عليهما .

— « لقد اعددت النار . اغل اللبن ، وسوف آتيك الآن » .

تطلع اليه وهو يسير مترنحا فوق الحجارة ، واحس بالاسى عليه .

وصاح ثانية :

— اذا كنت على غير ما يرام فتم ، ودع لى الجبن اصنعه انا .

— لماذا تقول لى هذا الكلام ؟

— ذلك لان قدماك يا سيدى تدوران حول بعضهما ، وتبدو شاجبا .

واخذ يرقب مانولى وهو يسير فى طريقه مترنحا حتى غاب عن ناظره وراء اشجار السنديان . وانس فى نفسه تعاطفا معه وتمتم قائلا :

— مسكين .. ابصرت لينيو قادمة على البعد .. عليها اللعنة .

ستمتمصك حتى النخاع يا صديقى العجوز .

والتقط حجرا وقذفه بعيدا فى غضب . وصاح بأعلى صوته .

— اللعنة على الاناث .

أبصر داسوس يمشى امامه بخطوات استفزته . امسك بقرنيه ، ولوى راسه الضخم بعيدا عنه ، ثملقى بنفسه فوق ظهره .

عندما وصل مانولى الى ارض الحظيرة ، اضرم النار ليصنع الجبن ، ولكنه كان متهاكاً . جلس على المقعد الحجري تحت الشمس ليستعيد الدفء ، اذ كان يرتجف . كانت الشمس تميل ناحية الأفق . وبعد دقائق سمع أصوات أجراس تقترب وصيحات نيكوليو وصفيره وهو يحوط حول البهائم يسوقها الى الحظيرة ويقذفها بالحجارة .

حلقت افكار مانولى بعيدا ، وهبطت الى القرية . طافت بالبيوت والمقهى والميدان ، ثم اخذت طريقها الى المنحدر ، وانسلت داخل بيت القسيس ، وراى الأعيان يوزعون الأدوار - من يقوم بدور بطرس . ومن يهوذا ، ومن المسيح . ثم راى ثانية القسيس فوتيس والمسيحيين الذين انتزعوا من ديارهم ، ومبارزته الكلامية الأليمة مع القسيس الآخر ، والمرأة التى صرخت ثم اسلمت الروح . . . ورننت فى سمعه من جديد كلمات ياناكوس الساخرة القاسية « ها انت ستمثل دور المسيح وفى نفس الوقت تنهياً للزواج وتدنيس نفسك . . . يا للرياء » . وارتقى السلم الى حجرة سيده وراه . ثم نزل الى الفناء ، تعلقت به لينيو ، تديها يرتكران على صدره ، تسأله بصوت كله زلفى والحاح « مانولى . . متى نتزوج ؟ متى ؟ متى ؟ » ثم . . . ثم بعد ان غادرها فى طريقه الى الجبل توقف لحظة يلتقط أنفاسه عند البئر . . .

وذاب قلبه .

وغمغم .

- « اشعر بالاسى عليها . . آسف لها . . سلكت طريق الشيطان . انها هالكة . . » .

أشرقت صورتها فى ذاكرته - وشاح اسود ، جيد مرمرى - شفتان رقيقتان عنيت بدهانها بأوراق شجر الجوز . . . وسمع من جديد صوتها يستعطفه فى يأس :

_ لا تذهب يا مانولى . . لا تذهب .

كانها تظن خلاصها رهنا به وحده .

وفى ومضة خاطفة تذكر حلمها ، وخيل اليه ان تأويله بات واضحاً . نعم ، نعم ، كانت على حق هذه المرأة التسعة . انه وحده القادر على خلاصها . هتف لها الله بنفسه فى منامها بذلك . مانولى يمسك بالقمر بين يديه كأنه تفاعحة ، يقطعه شرائح ويقدمها لها لتأكلها . . . وفجأة وضح له المعنى الحقى للحلم ، وارتجف . القمر هو النور الحاصل ،

كألمة الرب التي تندر ظلمة الليل . . . انه ارادة الرب ، وأمر من لدن الله أن يشاركها مانولى فيه . انه هو الذى قدر له أن يخلص مريم المجدلية الأئمة .

وغمغم :

— يجب أن أراها . . نعم . يجب ذلك سريعا . فكل دقيقة تمر قد تدفعها أكثر الى هاوية الخطيئة . . يجب ، يجب ، هذا واجبى .

انه يستطيع أن يرى الدرب الضيق الذى تسكن فيه ، ومدخل البيت المبنى على هيئة قوس ، وطلاءه الأخضر . والطوق الحديدى . . ويستطيع أن يرى عتبة الباب الحجرية نظيفة لامعة . . لم يسبق له أن اجتاز هذه العتبة ، ولكنه تذكر انه ذات يوم . من أيام الأحاد ، مر بالباب وكان مفتوحا ، واسترق نظرة الى الداخل . . لحظ فناء صغير رصفت جوانبه بقطع من الحجارة مفسسولة . وبعض أصص الورد — ريخان جميل — رصت على الجدار الواطئ الذى يحيط بالفناء . ومجموعتين كبيرتين من القرنفل الأحمر قرب البئر . .

اتخذ فكر مانولى طريق الجبل هابطا . وبلغ القرية . وسار عبر الدرب الضيق . واجتاز العتبة ودخل . .

طفق يردد بينه وبين نفسه :

— « يجب أن أراها . يجب أن أراها . . هذا واجبى » .

استشعر نشوة غريبة . عرف الآن أن رؤيته لها أمر لازم . انه أمر من لدن الله وليس من ذاته . وارتاحت نفسه . أدرك الآن لماذا كانت تحاصره وتلح عليه ليل نهار الرغبة فى الذهاب اليها ورؤيتها . . كان يستشعر الخجل ويقاوم وقتما كان يعتقد ان الشيطان هو الذى يحضه على ذلك ، أما الآن . .

هب واقفا . لم يعد يشعر بالبرد . وكفت ركبتاه عن الارتجاف أوقد النار ووضع عليها القدر ، وغلى اللبن . . وقال لنفسه :

— ما أعجب السبل التى يخذها الرب لينير روح الانسان . . تبرر . . . استحالت زرادته هذه المرة الى حلم وتنزل على وسادة الأرملة . . . أقبل نيكولايو . وبدأت الأغنام تدخل حظيرتها ، وامتلا الجو بنفائهما .

كانت الشمس تأذن بالمغيب راضية مطمئنة ، انتهت يومها ، وها هي
عائدة الى خدرها ..

صاح مانولى من داخل الباب بصوت صاف :

- أهلا نيكوليو . اذهب واحلب النعاج* ثم جهز لنا الطعام . انى
جوعان .

لم يأكل شيئا سحابة نهاره ، اذ كان حلقه منقبضا لا يستطيع أن
يمر خلاله طعام . اما الآن ، وقد تراخى ، فقد عادت اليه شهيته .
نظر اليه نيكوليو وقهقهه عاليا :

- عادت اليك الحياة يا سيدى . هل من اخبار سارة ؟

- انى جائع . عجل . سأعاونك .

احضرا الدلاء النحاسية ، وأقعيا جنبا الي جنب ، وشرعا يحلبان
النعاج ، الواحدة بعد الأخرى . وقفت النعاج هادئة مسرورة اذ تتخفف
من حملها الوفير . وخالت الأصابع الماهرة شفاها حبيبة ترضعها .

واغتسلا بعد أن فرغا من عملهما . ورشما علامة الصليب ، والجوع
بعضهما ، ثم انقضا على الخبز واللحم والجبن الأبيض . ولا زال نيكوليو
مهموما يفكر فى الكبش القوى ولينيو . كلاهما معا موضع حفيظته ،
لا ينفصل احدهما عن الآخر ، زعيم القطيع ، والفتاة اللحيمة . اصبحا
الآن شيئا واحدا . أحيانا يرى لينيو وهو فوقها ، ركبها وباعد بين
ساقيه ، وأحيانا مستلقية تحته وهو يبتسم ..

وغمغم متأفقا :

- عليها اللعنة .. عليها اللعنة ..

والتقط حجرا وطوح به بعيدا فى الهواء .

وسأله مانولى مبتسما

- ايه يانيكوليو ، علام الغمغمة ؟ من الذى تقذفه بالحجارة ؟

وأجاب الراعى الصغير مبتسما هو الآخر :

- الشيطان يحوم حولى ، وانا ارجمه بالحجارة .

- هل رأيت يا نيكوليو ؟

— « نعم ، رأيتَهُ رؤيا وهمية » .

— « ما شكله ؟ » .

— « هذا سر » .

واندفع الراعى الصغير الى دلو الماء وغمس فيه وجهه الذى تدافع اليه الدم .

بعد أن فرغ مانولى من طعامه رسم علامة الصليب ونهض من مكانه .
قال :

— نيكوليو . سأنزل الى القرية هذا المساء . أتمنى لك حظا سعيدا .

وصاح نيكوليو غاضبا :

— القرية ثانية ماذا ستفعل هناك الآن ؟ أعتقد يا سيدى أن الشيطان كان يحوم حولك أنت أيضا .

— « ليس الشيطان يا عزيزى نيكوليو ، لتحفظنا السماء ، انه الرب » .
واخرج مرآة صغيرة من جيبه ، وبلل شعره ومشطه . ثم ارتدى أحسن لباسه ، ثياب يوم الأحد .

ودس مرآته الصغيرة ومشطه ومنديله فى حزامه . لماذا ؟ ما حاجته اليهما ؟ هل يعلم ؟ كل ما حدث أنه أخذهما ، بلا سبب ، وأخفاهما فى حزامه .

وعاود الغلام كلامه غاضبا ، وهو يرقب مانولى يخجل نفسه .

— « انه الشيطان كما أقول لك » .

وردد مانولى ما قاله :

— انه الرب . الرب .

ورشم علامة الصليب ورجل عنه .

وغمغم نيكوليو :

— مؤكداً أنه ذاهب الى لينيو . . . لياخذ الشيطان كليهما .

وبصق فى اشمئزاز .



الشیطان وِقناع المسيح

كان الليل يرخى استاره • وطيور الليل تصدح • • لا تدري جوعا
أم عشقا • وبواكير نجوم المساء تسطع في السماء •

سار مانولى الهوينى ، هابطا الطريق اللتوى • وقال لنفسه :

– يحسن أن أنتظر حتى تشتد ظلمة الليل اذ يجب الا يرانى من
في القرية • وبينما كان سائرا في طريقه أخذ يعيد على سمعه ماذا عساه
أن يقول حتى تبلغ كلمة الرب فؤاد الأرملة • كان يخمن قائلا :
« سأطرق الباب ، وتأتى لتفتح لى • • سبتهت لمراى ، وتفلق الباب
بالرتاج ، وندخل سويا • • سبق له أن رأى الفناء ، وأزهار القرنفل
والريحان ، وحافة البئر – ولكن ماذا بالداخل ؟ وتملك الخوف مانولى •
فوقف يلتقط أنفاسه • وسرت قشعريرة في بدنه • وقال لنفسه
« هناك بالداخل • • سيكون المخدع • • »

وتشوش فكره • لم يعد يعرف ماذا ينبغى أن يقول : ولا حتى لماذا
يهبط من الجبل في مثل هذه الساعة ليطرق بابها عند منتصف الليل •
ستراه وقد علت وجهه حمرة الخجل ، وتغيرت سحنته ، فتضحك
لذلك • ربما تقول له « ها أنت ذا يا مانولى • ولعلك أنت نفسك لا تعرف
ما الذى جاء بك الى هنا ؟ ترى هل رأيت حلما فى منامك أنت أيضا ؟
هل تراءى لك الشرير فى منامك يا مانولى ؟ أم ترى كانت مريم العذراء ؟
أو ربما كلاهما معا • • فان مثل هذا يحدث أحيانا يا مانولى • ولكن

ها أنت قد أتيت ، وستبدأ كلامك معي بالحديث عن الرب والفردوس .
ثم بعد ذلك ، رويدا رويدا ، دون أن الحظ أنا أو أنت ذلك ، سنجد
أنفسنا يا مانولى وقد جمعنا مخدع واحد ، والتصقنا ببعضنا . . . فأنت
رجل ، أليس كذلك ؟ وأنا امرأة . هكذا خلقنا الله ، وهكذا أراد لنا .
فهل يكون خطأنا نحن إذا ما حدث ، ونحن ملتصقان ، أن دارت رؤوسنا ،
وطاش صوابنا ، ففتحن ذراعينا وساقينا وأصبحنا جنسدا واحدا . . .
أحس مانولى بالدم يتدافع الى رأسه . فقد رنت هذه الكلمات
الفاجرة في رأسه ، وسمع الأرملة تنفوه بها بوضوح كامل . وهى تبتسم
وتقترب منه حتى تلتصق به . . . ها هو يتنسم أنفاسها عبقة بعطر
المسك والقرنفل . وتفوح من صدريتها المفتوحة رائحة جسدها الدافئ .
مزوجة برائحة العرق وجوز الطيب . . .

وفجأة أحس بالاعياء ، وخانته ركبته ، فخر منهوك القوى فوق
صخرة .

وسأل نفسه في هلع « من ذا الذى كان يتحدث الى بداخلى ؟ من
ذا الذى كان يضحك ؟ ركبة من تلك التى لا لمستنى فجعلت ركبتي
تدوران حول بعضهما ؟ » لقد سمع حقا تلك الكلمات ، ورنت في أذنه
ضحكات الأرملة ، ولا زالت رائحتها تزكم أنفه .

وصاح وهو يرفع عينيه الى السماء مبتهلا :

— عونك يا الهى .

ولكن بدت له السماء هذا المساء عالية شاهقة ، تفصلها عن الانسان
مسافة بعيدة غاية البعد ، خرساء ، غير مبالية ، لا هى بالصديق ولا هى
بالعدو . واستبد به الهلع . النجوم ترقبه . وتجمد قلب مانولى . كان
في بغض امسيات الشتاء يبصر حول الحظيرة وبين الأغصان التى غطاها
الثلج عيون الذئاب جامدة ساهرة يقظى فى حذر ، وبدت له النجوم هذا
المساء وكأنها عيون الذئاب .

عاودته ذكرى الأرملة من جديد ، تسرى في دمه حلوة كأنها العسل .
وجد فيها عزاء جميلا أزاء ما يعانیه من احساس بالكآبة وعداء العالم
له . لقد صمت الآن عن الكلام أو الضحك . واستلقت فوق مخدعها
جدلة تهدل كورقاء تذكر الجميل .

سد مانولى أذنيه . كانت رأسه تطن وشرايين رقبته تبرز وتنتفخ .
انه يكاد يشعر بالدم يتصاعد حارا ملتها الى رأسه . صدغاه يختلجان

فى عنف ، جفناه يثقلان ، وأحس بوخز يغطى صفحة وجهه وكان آلافا
من النمل تعض وجنتيه وذقنه وجبهته ، وتنهش لحمه .

وتصيب عرق بارد غطى جسده كله . وتحسس وجهه براحته .
وهب واقفا .

— « يا الهى » .

حاول الصراخ فلم يستطع . عاد ثانية يتحسس وجنتيه وشفتيه
وذقنه ، بدت له منتفخة متورمة ، شفتاه ممطوطتان حتى أنه عجز عن
أن يفتح فمه .

— « ماذا دهانى ؟ لماذا تورمت ؟ » .

كان يسأل نفسه ، ويتحسس فى يأس صفحة وجهه من أعلى الى
أسفل نازلا الى عنقه . أصبح وجهه كله كأنه طيلة ، ولكنه لم يكن يشعر
بألم . كل ما شعر به أن عينيه قد التهبتا وبدأ يفيض منهما الدمع .

وأخذ يلهث .

— « يجب أن أرى ، يجب أن أرى .. أريد أن اعرف » .

أخرج المرأة من حزامه ، وانحنى عليها ، وأشعل غصنا ، ونظر الى
نفسه .. لمح وجهه على ضوء اللهب المتراقص وصرخ ، ألفاه منتفخا كله،
عيناه خرزتان صغيرتان ، وفمه ثقب ، وأنفه ضاعت ملامحه وسط
وجنتيه المنتفختين كالبألونة .

لم يكن وجه بشر ، بل قناعا منفرا قد من لحم بهيمة . لا . لم يعد
وجهه ، انه وجه غريب التصق فوق وجهه .

وخطرت بذهنه فكرة مباحثة .

— « يا الهى هل هذا هو الجذام ؟ » .

وهوى الى الأرض .

وأمسك بالمرأة ، وأشاح بوجهه على الفور فى فزع . « ماذا ؟ أهذا
مشر؟ لا، انه شيطان . ونهض . « لا أستطيع الذهاب الآن .. كيف يمكنها
أن تنظرالى وجهى ؟ كيف يمكننى أن أتحدث اليها ؟ شكلى مروع . سأعود
من حيث أتيت . »

واستدار ، وارتقى الطريق عدواً كان ثمة من يطارده .

وتوقف عند الحظيرة ودخل خلصة ، يرتعد فرقا كلما ظن أن نيكوليو قد يستيقظ ويضيء المكان ويراه . . « غدا صباحا ، ربما ابرأ مما أنا فيه بعون الله . . » واطمأنت نفسه قليلا لهذا الحاضر .

وافترش الحصير ، ورشم علامة الصليب ، وتضرع الى الرب أن يرأف به وقال « الهى اقتلنى ان كانت هذه مشيئتك ، فالموت عندى خير ألف مرة من حياة الذل أمام الناس . . لماذا شئت قدرتك أن تلتصق هذا اللحم على وجهى ؟ انزعه عنى يا الهى ، اطرحه عنى بعيدا . أسألك أن تعيد وجهى مع الصباح الى سيرته الأولى ، نظيفا انسانيا . »

بعد أن وضع ثقته فى الله ، استشعر بعض العزاء ، أغمض عينيه ، ورأى فيما يرى النائم امرأة متشحة بالسواد - لا بد أنها العذراء المقدسة - انحنت عليه ، وربتت على وجهه بيدها فى رفق وحنان . وسرعان ما أحس به غضا خفيفا ، ومد مانولى ذراعيه وأمسك باليد المقدسة وقبلها . ولكن رنت ضحكة ساخرة حلوة ، وسقط النقاب الأسود ، واستيقظ مانولى من نومه صارخا . لم تكن العذراء بل الأرملة .

وفى الركن المقابل ، سمع نيكوليو الصرخة واستيقظ عليها : قعد فأبصر سيده ووجهه الى الحائط . وبدأ يضحك . وقال متبرما :

- لماذا عدت يامانولى ؟ هل فرغت من مهمتك ؟

ولكن مانولى أخذ يتحسس وجهه الذى اتجه به الى الحائط . أحس باليأس : لم يزايله الورم أبدا ، بل لا بد أن ثمة جروحا ظهرت عليه ، إذ أن أطراف أنامله قد بللها سائل لزج كثيف القوام . واستلقى على بطنه ، ودس وجهه فى الوسادة .

ولكن نيكوليو تمادى فى سؤاله :

- هل استمتعت يا سيدي؟ هل سارت أمورك على خير كما تحب ؟

نعم ، بالطبع نال منك التعب أيها الصديق المسكين . . نم .

وغمغم مانولى :

- لقد هلكت . . هلكت . . لا بد أنه الجذام .

شقق الصباح . وهب نيكوليو من نومه على الفور ليسوق الأغنام الى المرعى . كان الرامى الصغير على وشك الخروج من الباب حين استدار

ورآء • كانت شعاعات النهار الاولى قد انسلت من النافذة واضاءت الكوخ • قال له :

— مانولى •• الى اللقاء هذا المساء •

استدار مانولى ليجيب ، وكان قد غفل تماما عن الحالة التى كان عليها • أبصره نيكوليو وقفز الى الفناء • ثم عاد إليه وهو يصرخ :

— يا سيدتنا العذراء •

كان وجه مانولى يطفح بالقدارة . تكسوه غصون يسيل منها الصديد . حاول أن يتكلم ليهدىء من رزع الراعى الصغير ، ولكنه عجز عن أن يتفوه بحرف واحد • كل ما استطاع أن يفعله هو أن لوح بيده ليطمئنه •

أسند نيكوليو وجنته الى قائمة الباب ، وجسمه الى الخارج مستعدا للهرب • أحس أنه عاجز عن أن يصرف نظراته الفزعة عن ذلك الوجه ، ورويدا رويدا ، استعاد جراته ، واطمأنت نفسه . وقال :

— هل أنت مانولى بحق السماء ؟ أوشم علامة الصليب حتى أكون على يقين من أمرك •

وشم مانولى علامة الصليب • استجمع نيكوليو شجاعته من جديد وأخذ يشم علامة الصليب على العتبة ، مرة بعد أخرى ، ولكن دون أن يقترب •

وسأله فى حنان :

— ماذا دهاك يا رفيقى المسكين ؟ لا بد أن الشيطان تلبسك وترك عليك هذا القناع • اللهم احفظنا • انه الشيطان كما أقول لك • هذا مؤكد • حدث نفس الشئ لجدى •

هز مانولى رأسه واستدار ناحية الحائط حتى لا يخيف رفيقه انصغير • وأوما إليه بأن ينصرف •

وعاد نيكوليو يقول فى وجل :

— الى اللقاء هذا المساء •

وهروا خارجا كأن تمة من يتعقبه •

تأوه مانولى بعد أن أصبح وحيدا ثم نهض من فراشه • أحس

بقوة في بدنه ، وزايله الالم . فارقته الرعشة ، ولكن الأغرب من ذلك ، أنه آتس في نفسه بهجة غامرة لا يجد لها تفسيرا .. عاد وأمسك بمرآته الصغيرة واقترب من النافذة ونظر الى صورته : تشقق الجلد المتورم ، وسال منه سائل أصفر لزج ، تجلطت بعض قطرات منه على شاربه ولحيته . كان وجهه كله أحمر في لون الدم كأنه قطعة لحم .

وشم علامة الصليب ، وقال بصوت خفيض كأنه مناجاة :

— يسوع ربى ، ان كان هذا من عند الشيطان فانى أسألك أن تطهرنى منه ، وان كان من عند الله فمرحبا به ، فانى على يقين أنه لا يضمر لى شرا . لا بد أن لبلواى حكمة لا أعلمها . سأتجمل بالصبر حتى يمس ييده سبحانه وجهى .

استشعر السكينة بعد ان أعطى لبلواه هذا المعنى . أوقد نارا ، ووضع عليها القدر ، وصب فيها اللبن الذى احتلباه البارحة . كان يشعر بالجوع فملأ منه ملعقة : لم يستطع فتح فمه . لذلك أمسك بوصة وغمسها فى اللبن وبدأ يمتص بها اللبن ويشربه فى شراهة . ثم خرج وجلس على المقعد الحجرى .

كانت الشمس قد أيقظت الطيور فى أوكارها ، وملأت حلوقها الصغيرة بالنغم . وبعد أن اعتلت قمة الجبل ، بدأت تزحف فى هدوء وسكينة .. نشرت أشعتها فوق المنحدرات والسهل ، وفتحت أبواب القرية وانسلت منها . رأت الأرملة لا تزال فى مخدعها بعد ليلة مسهدة ، يعلو وجهها الشحوب ، وتسلمت خلصة الى شعرها . ورأت ماريورى فى فناء بيتها منهمة فى رى زهورها ، فطبعت على جيدها قبلة خاطفة . ثم أخذت طريقها الى كل نساء القرية تتطلع اليهن بنفس الطريقة ، تدللهن كأنها عاشق .

وأخيرا اتخذت لها مكانا على المقعد الحجرى قبالة الحظيرة ، ومد اليها مانولى يديه مرحبا . وتساءل :

— من أين لى هذه البهجة التى أحس بها ؟ ما سر هذه الراحة ؟ لست أدرى .

ومسح بمنديله وجهه المتورم ، الذى كان ينز فى حرارة الشمس .
— لست أدرى .. لست أدرى ..

طفق يردد ذلك باسطا منديله المرة بعد الاخرى يعرضه للشمس حتى يجف .

ذات مرة حدثه معلمه في الدير عن ناسك تشقق جلده ، وخرجت منه
الديدان . وكان كلما سقطت عنه دودة ، انحنى عليها ، وأمسك بها في رفق
وأعادها الى الجرح . ويقول لها « كلى . كلى اللحم يا أختاه نعل روجي
تتخفف من ثقلها » . مضت أعوام لم يذكر فيها مانولى تلك القصة ، ولكن
أى عزاء جميل يستشعره اليوم ، وأى درس يتعلمه عن التحمل والصبر
في أمل .

نهض من مكانه وعاد الى الكوخ ، والتقط بين ذراعيه الحرقه التي
لثف فيها كتلة الخشب وأخذ المبرد والأزميل ، وخرج ثانية حيث كان
يجلس تحت الشمس . وفجأة أشرفت بداخله الصورة المقدسة ، تملأ
قلبه . انه يتبينها في وضوح ، ويتأمل كل قسماتها . واستقر عليها
بصره ، وعاد من جديد يشبثها على الخشب بانفعال وحماسة .

مرت الساعات خفafa ، وبلغت الشمس للحظة سمتها ، ثم بدأت
تميل رويدا رويدا . . تناثرت الشظايا على الأرض ، وخف معها ثقل
الحشب . ووضع وجه المسيح ، وديعا ، متألما ، رقيقا ، مستسلما . حاول
مانولى طويلا أن ينقش فم المسيح المرتجف ، ولكن باء بالفشل ، حينما يرى
القم يبتسم ، وحينما يتغضن ويبكى ، وحينما يزم شفثيه كأنه يتهايا لعمل
فيه جهد وليس للصراخ من الألم .

وقرب الغسق ، عاد نيكوليو بقطيعه . ألقى مانولى لازال جالسا
في مكانه فوق المقعد الحجري وقد أسند الى ركبتيه وجه المسيح منقوشا
فوق كتلة الحشب . لم يبق أمامه الا أن يجوف الرأس حتى يتمكن من أن
يضعه على وجهه . وبذلك يكون القناع الذي يخلق به أن يضعه على وجهه
يوم الصلب .

توقف نيكوليو ، واسترق نظرة خاطفة الى سيده ، ثم ولى عنه سريعا .
أحس انه لا يطيق النظر اليه ، فقد تجلط الصديد الذي غضن وجنتيه
فوق وجهه ولحيتيه وكون قشرة فوقهما . بدا له وكان الجالس على المقعد
الحجري شيطان يحمل فوق ركبتيه وجه المسيح .

وصاح والجوف يملا قلبه .

— لا داعى لحضورك ومساعدتى . ساحلبها وحدى .

مال مانولى برأسه الى الخلف وأسنده الى الجدار ، وأغمض عينيه .
كان منهك القوى ولكنه مرتاح النفس . وضغط على قطعة الحشب المحفورة
بين راحتيه ، واستشعر سعادة أن وفق في نقش الوجه الذي أشرق في

قلبه بصدق وأمانة . لن يتوارى بعد الآن ليصبح صورة مرتعشة في الهواء . لقد ثبت روحه فوق كتلة الخشب . أمسك بالوجه المقدس بين يديه ، ووازنه في رفق ، وأعجبه فم الرب . اذا نظر اليه من أمام رآه ميتسما ، واذا نظر اليه عن يمين رآه باكيا ، واذا نظر اليه عن شمال رآه منقبضا مستسلما في كبرياء . . . واغمض مانولى عينيه ، وبدأ يربت بأطراف أصابعه على وجه المسيح برفق وحنان مثلما كانت مريم تربت على الطفل المقدس .

وحرص لا نهائى طوى الحرقه حول كتلة الخشب المحفوظة ولفها بها كأنها طفل وليد في قماطه ، وحملها بين ذراعيه .

فرغ نيكوليو في هذه الأثناء من حلب النعاج ، وعاد الى كوخه ، وهو يتحاشى النظر الى مانولى . وبدأ يعد العشاء . قال لنفسه وقد آنس في نفسه سعادة خفية .

— مسكين هذا الرفيق . . . عريس جديد يمثل هذا الوجه ؟ أه لو تراه لينيو اذن لصرخت فزعا وولت الأدبار .
وخرج الى عتبة الباب .

— هل ستأتى يامانولى لتناول العشاء ؟ هل تستطيع أن تفتح فمك للطعام ؟

نهض مانولى . كان جوعانا ونسى أن يأكل ساعة الظهيرة . ملا قدحا كبيرا لبنا ، وأخذ البوصة ، وجثا على ركبتيه ، وامتنص اللبن . ثم عاد وملا القدح ثانية .

وعندما أظلمت الدنيا لم يشعلا المصباح وهكذا أعفت العتمة نيكوليو من رؤية الوجه المتورم ، وزايله الخوف . كان فى حالة مزاجية راضية ، ولا يدري سببا لذلك . وما أن فرغ من طعامه حتى اتخذ مجلسه قرب المدفأة وأخذ يقلب جمراتها بعصاه .

وبدأ حديثه سعيدا :

— كنت أقص عليك فى الصباح كيف أصبح جدى ناسكا ، يعد أن قتل ونهب واقترف كثيرا من الموبقات . ولست أدري ان كنت سمعت ما يقال عن الشيطان ، انه اذا ما طعن فى السن فانه يتحول الى عابد زاهد ؟ وهكذا فعل جدى — ليغفر الله لى — اعتزل الدنيا وقصد دير

القديس باند ليمون ، وهو نفس الدير الذي قصدته أنت أيضا ناسكا ،
وقضى به شهرا قمريا ٠٠٠ ولكن ، ومن عجب ، كانت ثمة قرية بالقرب
من الدير ، وكانت في القرية نسوة .

ثم أردف قائلا وهو يبصق في الرماد .

— آه ، لا يخلو مكان منهن هؤلاء العاهرات .

واستدار يحاول أن يتبين وجه مانولى على ضوء وهج الذهب .
وسأله :

— هل تسمعنى ؟

هز مانولى رأسه وكأنه يريد أن يقول :

— ها أنذا أسمعك .

— حسن ، انظر ذات يوم حدث كما قلت لك أن تقمصه الشيطان
فقال لنفسه « أين لى بامرأة ؟ أين لى بامرأة ؟ سأقصد القرية حيث أجد
بغيتى . لقد فاض بى الكيل . لتكن متزوجة أو طليقة ، عجوزا أو صبية ،
عرجاء أو حذباء ، فلست أبالى ما دامت امرأة . وهكذا ، فذات مساء .
وبعد أن استسلم النساك للنوم ، تسور صاحبنا جدار الدير وخرج
يسرع إخطو لتلقفه الجحيم . عقد العزم على أن يقضى حاجته ، هل تتصور
ذلك ؟ ثم يعود أدراجه قبل الثانية صباحا ، حتى لا يعلم بأمره أحد .
أطلق ساقيه للريح ممسكا بذيل ثوبه بين أسنانه ، يثغو كما يثغو الكبش فى
فصل الصيف إذا ما أبصر النعاج . . . ولكن الرب رآه ، وأشفق عليه .
ومن عجب فى اللحظة التى وطئت فيها قدماه مشارف القرية ، ابتلاه
الرب بمرض خبيث . . . الجذام — لعلك سمعت شيئا عنه . وغطت جسده
دمامل كبيرة كأنها حبات البندق . . . لا ، ماذا أقول ؟ بل حبات الجوز
أو المشمش العفن . . . ثم تشققت كنزت صديدها . . . وهل هذا لا تفوح
منه رائحة التتن ؟ ياله من شيخ مسكين ، استبد به الهلع . . . غفر الله
له . وسأل نفسه « الى أين أذهب الآن ؟ هل يمكن أن تمسنى امرأة
الآن ؟ العود أحمد . . . »

كان مانولى ينصت بكل جوارحه ، وفى جسده رجفة . مد يده وربت
بها على ركة نيكوليو بحركة تعنى أن « استمر » .

وقال نيكوليو ضاحكا :

حواديت عجائز النساء . اعتادت أُمى أن تحكيها لى ، وفقها الله .

رغم أنها كانت تضحك لها . لك أن تتخيل صاحبنا السافل . . . انهم نساك حقاً . عاد أدراجه الى الدير ، تسور الجدار ثانية ، وتوارى في صومعته . . . وفي الصباح التالي ألقى النساك وجهه مثل قرية ماء .

وعاود مانولى الحافه على الراعى الصغير بإشارات من يده .

— أظنك تريد أن تعرف كيف انتهت هذه القصة ؟ كيف لى أن أعرف ؟ كنت آنذاك طفلاً ولم أكن أهتم . . . لقد سار الى لحده منذ زمان طويل ، هذا الشيخ المسكين . وارتاحت النساء من مشاكله .

وقهقه نيكوليو . ثم شرد بفكره ، وبعد لحظات بدأ يتثاب وقال :

— النعاس يفالبنى . سأخرج الى الفناء حيث أنام هناك . الحر

يكاد يقتلنى .

لم يكن يشعر بالحر على الاطلاق ، وانما كان يخاف البقاء مع مانولى داخل الكوخ . ونهض من مكانه .

— مهدت لك فراشك . قم لتنام ، وغدا ستكون أحسن حالا .

أخذ البساط البالى وفرشه فى الفناء ، وتوسد حجرا ، وأغمض عينيه . تذكر لينيو والتهبت حواسه . بيد أنه كان متعبا فاستدار واستغرق فى النوم .

لقى مانولى بحزمة حطب أخرى فى النار اذ كان يخشى الوحدة مع الظلام . وأرهف سمعه ، ينصت الى أصوات الليل آتية من الباب المفتوح: اليوم تنعق ، والحشرات تنبش الأرض ، والفئران تصر صريرا حادا . . . وبداخله الصوت الرخيم الملح ، لا يسمعه الا فى الظلام مع سكون الليل والوحدة .

ونهض من مكانه حيث وقف عند عتبة الباب يتطلع الى النجوم . الطريق اللبنى ينساب فى هدوء ، والمشتري يتأجج نارا ، والسماء المرصعة تتلألأ على البعد فى صمت وحبور . . . أحس مانولى نشوة وسكينة كأنما السماء هبطت عليه واحتوته بينها . وعاد ثانية حيث جلس امام المدفأة . . . وعلى حين غرة عاودته كلمات الراعى الصغير وخفق لها قلبه بشدة .

وقال لنفسه :

— يسوع ربى ، هل هذه معجزة ؟ الست أنت الذى بسطت الى يدك

لحظة أن اندفعت ، مثل الناسك العجوز ، لالقى بنفسى الى التهلكة . ؟

• ووضع راحته على وجهه ، ولكن هذه المرة دون خوف أو نفور .
• وتحسس وجنتيه المنتفختين ، ولحمه المشقق ، وفي نفسه عرفان بالجميل .
وقال لنفسه وهو يرتب يديه على موضع الداء :

— من يدري ؟ . . . من يدري ؟ ربما كنت مدينا لك بالخلص . . .
وهبدأ روعه ، وأسند ظهره الى الجدار . كانت تنبئ من المدفأة
سخونة لطيفة . وأحس برغبة فى النوم . فقد اعتاد أحيانا ، اذا ما عانت
نفسه صراعا أثناء الليل ، أن يتراعى له حلم يهديه سواء السبيل . ودار
بخلده : « ربما يتنزل على الله فى منامى هذه الليلة أيضا ويجلو لى هذه
القمة » .

أغمض جفنيه ، وسرعان ما راح فى سبات .
خمدت النار . وانقضى الليل . وبدأت الديكة صياحها عندما فتح
مانولى عينيه اثر احساسه بخدر فى جسمه مع برودة الصباح . لم يذكر
أن تراعى له حلم وهو نائم . ولكنه كان مطمئن الفؤاد . وشم علامة
الصليب ، وتحركت شفتاه ، فأذاه ذلك كأن جرحا نكأ من جديد . وحاول
أن يقول متوخيا وضوح اللفظ : « المجد لله » .

• ونهض من مكانه وقصد المقعد الحجرى بالحارج ليجلس عليه .

ظهرت الشمس عند الأفق ، نضرة متوردة الوجه ، مستديرة جذلة .
ها هى عائدة الى مملكتها الغنية الوفيرة . كل شىء أصبح على حاله كما
تركته بالأمس : السهل الحصب ، وجبل العذراء الأخضر ، ومنحدرات
ساراكيئا الوعرة ، وبحيرة فويداماتا مستديرة مصقولة كالمرآة ، وقرية
ليكوفريسي ، التى آثرتها بحبها ، ودروبها الضيقة تعج بكائنات كالنمل
تسمى بشرا .

• تتمم مانولى ثانية : « المجد لله » . ومسح بمنديله وجهه المتشقق .

على المرتفعات : كان مانولى يعيش فوق الجبل فى نصب ومعانة ،
حينما مع كتلة من الحشب يحاول تشكيلها وحينما مع الرب أو الشيطان ،
وحينما مع لينيو والأرملة . . . وفى نفس الوقت كان القسيس فوتيس
يحاول تدير أمورهم فوق جبل ساراكيئا . حدد عملا لكل واحد من رجاله :
البعض يحرق ويبذر الحب فى رقعة صغيرة من الأرض بين الحجارة ،
والبعض يبنى ويشيد ، وفريق ثالث تولى مهمة القنص ، . . . يصيد

الأرانب البرية وطيور الحجل طعاما للجميع . واشترى ثلاث نعاج بالجنينيات الذهبية الثلاث عطية ياناكوس وأضافها الى نعجة الأرملة ، وهكذا حصل الأطفال على حاجتهم من اللبن . وعزم على أن يحمل أيقونة القديس جورج العتيقة ويطوف بها بين القرى والأديرة ، يسأل الناس عونهم . سيقول لهم : « نحن يونانيون مسيحيون ، سلالة خالدة ، لن نبعد أبدا » .

وفى الوهاد : فى ليكوفريسى ، كان الكابتن فورتوناس لازال طريح فراشه يشن ويتوجع : رأسه المشجوج بحاجة الى زمن طويل حتى تلتئم الجراح . والأغا ، الذى تملك قلبه الرأفة ، لا يفتأ يرسل مع حارسه المراهم الناجعة، ويحملة الرسائل يسأله فيها أن يعجل بالشفاء استعدادا لليلة سكر مترعة . والشيوخ بطرياركاس لم يكن أحسن حالا . تصيبه نوبة سعال يشق معها تنفسه ، وتلازمه رعشة ، يستوى بعدها جالسا فى فراشه، يحشو بطنه كخنزير حتى يقى . ثم ينكب ثانية على طعامه وشرابه فى نوم . لا يفتأ يرسل الى كاترينا يسألها أن تأتى اليه وتدلكه . ولكن الأرملة أعرضت عنه فى ازدراء ، وبعثت اليه من يقول له انها هى الأخرى مريضة ، وهى بحاجة الى تدليك .

القسيس جريجوريس أمضته هموم ذاتية خطيرة تتعلق بابنته الوحيدة ماريورى . ها هو يراها تذوى وتنحل يوما بعد يوم كالشمعة . كان يتلهف أن يلقي بها بين ذراعى ميشيل ، حتى تنجب له حفيدا بأسرع ما يكون . وقد باتت هذه هى أحر أمنيات حياته . اذ يرى فيها القسيس سبيله الوحيد للانتصار على الموت .

وبانايوتى ، أكل الجبس ، يعيش فريسة لحالة من الكآبة الممضة . انقضت ليال ثلاث حتى الآن لم تفتح الأرملة فيها له بابها ، فهى لا تريد أحدا من أمثاله بعد الآن . لا بد أنها ترمى بعينها الى غيره . انها - هذه المسماة بمريم المجدلية المقدسة - تخرج فى كل آونة قاصدة الكنيسة وتضىء الشموع هناك . وأقبل بانايوتى على الشراب يلتمس معه النسيان . وبات يذهب الى بيته مع كل مساء مخمورا تماما ، ينهال على زوجته وابنتيه ضربا ، ثم يتفرش أرض الفناء وسرعان ما يملؤه بفضيط . يتجمع حوله صبية القرية كلما أبصروه مخمورا ، يتعقبون خطاه ، ويستغزونه ببذاءاتهم : « يهوذا . . . يهوذا ! » . يحاول أحيانا أن يندفع نحوهم ليمسك بهم ، ولكنه يترنح ويتعثر ويسقط على الأرض سطيحا . والمعجوز لاداس اعتاد كل صباح أن يلقي المحاضرات على منمع زوجه الجالسة قبالة تفزل الجوارب . لم تكن تجيب عليه أبدا بل لم تكن

- لقد تأخر يا بنيلوب . لقد تأخر هذا الياناكوس المخادع . ولا زال
ايصال الجنيهات الثلاثة بغير توقيع . حتى الآن لم يأت اليينا حاملا ولو
بعض الاقراط . . . ماذا ترين يا بنيلوب ؟ هل ثمة امرأة مهما بلغ بها
الفقر لا تملك ولو قطعة واحدة من الجواهر ؟ لا ، لا ، لا يوجد أبدا . ان
الله بواسع رحمته لا يرضى بذلك . وسوف ترين ، سنعود اليينا ياناكوس
بالجواهر ، دعى عنك القلق يا عزيزتى .

كانت أذنا الشيخ لاداس فى طنين دائم ، يواتيه احساس مع كل
لحظة بأن ثمة طرقا على الباب ، ولا يبارحه الوهم بأنه سمع نهيق حمار .
ريهرول حافيا يفتح الباب ويدقق النظر فى الطريق من أوله الى آخره :
ولكن لا أثر لياناكوس .

كان ياناكوس ينجز تطوافه بين القرى : يبتاع الأمشاط وبكرات
الحيط ومرايا الجيب وتراجم القديسين مقابل القمح والصوف والدجاج .
انهمك فى تجارته رغم أن ثمة أموراً أخرى تشغل فكره هذه المرة . أمور
جعلته حريصا أشد الحرص على أن يكييل الكيل بالقسط ولا ينقص الميزان
. . . فقد سئل شيخ مسلم ذات يوم : « كيف للانسان أن يتجنب الخطيئة؟ »
فأجاب الشيخ « عندما تكون عينه على الجنة ساعة البيع والشراء . » وهكذا
كانتا عينا ياناكوس على الجنة ساعة البيع والشراء .

وكان بين الحين والحين يذكر الأب لاداس ، ويتخيل صراخه ونواحه
فى انتظار عودته . وتذكر أخته أيضا ، تلك المرأة الناشز التى تسمي
قسطندى المسكين سوء العذاب . ومانولى ، الذى لا بد أنه عاد الى مقامه
فوق الجبل ، وربما تورقه مشكلة التوفيق بين المسيح ولينيو - بين الأرنب
والثعلب . . . ولكن كل هذه كانت خطرات عابرة تطوف بفكره . وانما
تركز فكر ياناكوس حول القسيس فوتيس والجبل القاحل الموحش ، وتلك
الأرواح التى تشبثت بالحجارة حتى أن ملاك الموت نفسه يعجز عن أن يفصل
بينهم وبينها .

وفى مقهى آخر قرية من القرى التى طوف بها التقى ياناكوس
بصديقه كيرو جيورجيس ، وهو صاحب المقهى ، ويعرف أيضا باسم
كونيلوس . رحب به ، وأحسن استقباله ، وإعانه على أن ينزل أحماله ،
وساق حماره الى الحظيرة ، ثم أسرع بالعودة الى صديقه يوانسه ويثرثر معه .
وتجمع كل أهل القرية الصغيرة فى هذه الأثناء ، والتفوا حول ياناكوس
التاجر الطواف ، الذى يتجول من قرية الى أخرى ، ويأتيهم بالجديد من

الأخبار ، ويلتمسون عنده جوابا على كل سؤال . وصاح صاحب المقهى
« اسألوه يا أصدقائي ، اسألوه فانه راحل غدا صباحا ، ولا تنسوا ان
تطلبوا القهوة » .

تجمعوا حوله ، وشرعوا يمطرونه في لهفة بأسئلتهم عن أحداث العالم
- الدول الكبرى، والبلاشفة، والحرب ، والزلازل . . . وخفضوا من أصواتهم
وارتجفوا : « يا سيدي ياناكوس ، هل تعرف شيئا عن فرق اليونان التي
جاءت ثم اختفت ثانية كأنها ومض البرق ؟ ماذا يحدث هناك على أرض
اليونان من حيث أتى اخوتنا أبناء الاغريق ؟ ما هي أخبار المذابح والحرائق
والكوارت ؟ اننا هنا - ليكوفريسي والقرى المجاورة - بعيدون عن كل
هذا ، ونادرا ما نسمع شيئا عنها . ان نواحهم لم يصل اليها ، ولكنك
انت يا ياناكوس تطوف بالقرى ، وتستطيع أن تلتقط بعض أخبارهم .
أبشنا بأخبارهم فاننا في لهفة من أمرنا ونتحرق شوقا لمعرفة هذه الاخبار » .

وانقبضت نفس ياناكوس أيضا . انه لا يفتأ يفكر في القسيس فوتيس
وقريته التي أحرقتها الأتراك انتقاما ، وشردوا أهلها هنا وهناك . . ان
قرى بأكملها تمتد من سميرنا حتى فيورو - كارا - ينسار وما بعدها
أصبحت خرابا يبابا ، يتصاعد منها الدخان وأصبح اليونانيون مقهورين
مطاردين ، وباتت اليونان في خطر .

ولكن ياناكوس كان يشعر بالأسى لهم ولم يشأ أن يكدر صفوهم .
وقال ياناكوس :

- هونوا عليكم يا أصدقائي . اذكروا آلاف السنين الخوالي التي
عاشتها اليونان . انها لا تموت أبدا . يقولون ستحرق قرى حتما حتى
تأتي عليها النيران ، وسيلقى بعض الناس حتفهم ، ولكن سيعود أحفاد
الاغريق ثانية ، يبنون القرى من جديد ، وينجبون للعالم أطفالا جددا ،
ويبعث شعب أناتوليا من جديد . هيا نشرب شيئا على حسابي .

وصاح شيخ جالس في أحد الأركان ، مسندا ذقنه الى عصاه، منصتا
فاغرا فاه ، مرهفا السمع لكل كلمة من كلمات التاجر الطواف :

- بورك فيك يا ياناكوس ، بورك فيك يا ياناكوس . انه لأمر محزن
لو توقفت عن زيارتك لقريتنا . اننا نرحب بك دائما لأنك تأتينا بأخبار
عن العالم الواسع .

وسكن صوت النارجيلة عندما دخل المقهى على أغاسولتزازاد . كان

كبير القرية، تتدلى من منطقته حلقة علق بها مفاتيح البيوت التي يؤجرها .
ومقهى كونيلوس واحدة منها . علم بقدوم الرحالة الشهير فسرعان
ما انتعل خفه الأحمر ، واختطف غليونه الطويل ، وخرج ليتحدث الى
التاجر المعروف . فقد كان ثمة هم ممض يعذبه . ولعل هذا اليونانى
اللعين يوضح له جلية الأمر .

نهض ياناكوس ووضع يده على قلبه وشفتيه وجبهته يحييه التحية
الرسمية الكاملة . فقد كان احسن زبائنه ، وله عدد كبير من الحريم ،
وزوجاته وبناته وحفيداته مولعات بالتوابل واحمر الشفافة والعمور
والحلوى . لذلك نهض واقفا وحياء وطلب له قهوة .

- ثمة هم ثقيل يؤرق فكرى يا عزيزى التاجر .

- أنبئنى به يا آغا ، وكل ما أستطيع عمله . . .

- ما هى بالدقة تلك التى يسمونها سويسرا ايها اليونانى الصغير؟

هرش ياناكوس رأسه . لقد سمع هو الآخر شيئا كهذا ولكنه
يلتبس عليه تماما .

أراد أن يعطى نفسه فسحة من الوقت للتفكير فقال :

- ولماذا السؤال ؟

- لأن ابنى كوزينيس ذهب الى سويسرا ليدرس هناك ويصبح طبيبا .
واحب أن أرسل اليه قدرا به أرز وسبانخ وقدرا به فحم يشعل به
نارجيلته ، ولكننى لا أدرى أين هى سويسرا هذه ، ولا كيف أبعث بهما
اليه .

وبينما كان الأغا مسترسلا فى كلامه ذهب عن ياناكوس بعض
ما التبس عليه ، وتذكر :

- آه ، سويسرا . سويسرا بلد فى آخر الدنيا تصنع اللبن
والساعات .

وسأل الأغا فى قلق :

- وهل تصنع أطباء أيضا ؟

- طبعا . وأطباء أيضا . أحسن أطباء فى العالم . اذا ما لمحهم ملاك
الموت . . . كيف أعبر لك يا آغا دون أن اصدم كل من فى المقهى ؟ . .
نعم انه يلبس بنطلونا .

– حسن أيها اليوناني الصغير • أنت ابن حلال • ولكن ماذا عن
القدرين ؟

– حسن ، سأقول لك • سويسرا تمنع دخول الفحم النباتي ، ولكنك
تستطيع أن تعطيني الأرز والسبانخ وأنا أعرف طريقة •••

كان ياناكوس قد تدبر أمره بالفعل • سيحمل معه الأرز والسبانخ
إلى ساراكيينا ، ليعطى الشعب الجائع شيئا يطعمه إكراما لحاطر كوزينيس •
قام الشيخ وقال :

– سأتيك بها حالا •

وتوقف مترددا عند باب المقهى ، ثم استدار إلى ياناكوس :

– وما هي تكاليف إرسالها إلى هنالك ؟

رفع ياناكوس يده وقال له :

– أتترك هذا لي • خدمة منى لعلى أغا •

وما أن خرج الأغا حتى صاح صاحب المقهى :

– أرجو ألا تحتجزها لنفسك وتأكلها أنت •

ورد عليه ياناكوس محتجا :

– هذا ما حرمه الله • إنها معاملات أمينة يا صديقي •

ثم استدار إلى الفلاحين وقال :

– معذرة يا أصدقائي • نال منى التعب بعد رحلتى الطويلة ولى رغبة
فى أن أنام • لكم أن تسألونى ما شاء لكم السؤال غدا ، وأعطونى طلباتكم
ورسائلكم • أذعوا زوجاتكم وبناتكم أيضا عند سماعكم صوت البوق حتى
يأتين إلى ويشترين حاجتهن • طيبتم مساء •

وأسند ظهره إلى الحائط ، ومد ساقيه وراح فى سبات •

حان وقت الظهيرة ، وفرغ ياناكوس من تجارته فى القرية ، وأخذ
طريقه إلى ليكوفريسى • كان الحمار يركض مسرورا ، فها هو يشم راضيا
رائحة حظيرته الدفئة ، ومدوده المليء بالعلف ومسقاته المترعة بالماء القراح •
قلبه يخفق كقلب بشر • ورفع ذيله لينهق بكل ما أوتى من قوة •
ولكن صاحبه شد لجامه وخفض من سرعته •

- لا تكن عجولا هكذا يا يوسف اكي . اتجه ناحية الجبل . سننقصد
مانولى أولا لنراه .

كان ياناكوس قد عامله بجفاء فى ذلك اليوم ، وأغلظ له القول ،
وسلك معه سلوكا سيئا ، وأسف لذلك . ومن ثم كان راغبا ، متلهفا فى
رغبته ، أن يسأله الصفع .
وتتم قائلًا :

- كنت على حق ، ولكن لم يكن من اللائق بى ذلك مانولى رفيق
حساس ، من النوع الذى تجرحه لمسة ريشة . كم كنت حمارا اذ تخاصمت
معه .

ثم خطر بباله على التوالى القسيس جريجوريس والعجوز لاداس ،
وميشيل ، والأرملة . طاف ذهنه بالقرية كلها ولكنه عاد الى مانولى ثانية .
وتتم مرة أخرى :

- لم أحسن التصرف معه ، جانبى التوفيق تماما نسيت أننا
نحن الأربعة يجمعنا عمل واحد طوال هذا العام . يمكن أن أقول أننا
شركاء : لا ابتغاء جمع المال وإنما ابتغاء الجنة - متاع الآخرة ، لا متاع
الدنيا .

وضحك لتلاعبه بالألفاظ ، ثم غرق فى تأملاته وقال لنفسه :

- الى الشيطان بمتاع الدنيا والآخرة ، أليس شيئا واحدا تماما ؟
لا ، ليس هذا هو المرجح ، والا لكان الرب والشيطان فى هذه الحالة سواء .
غفرانك ربى .

وسمع خلفه نهيق حمار ، فاستدار ناحيته . كان كريستوفيس
الذى أقبل من القرية على ظهر حمارة . وكريستوفيس شيخ عنييد ،
خفيف الظل . تزوج ثلاث زيجات ، وأنجب للعالم كثيرا من الأطفال ،
حتى أنه لا يذكر عددهم . مات بعضهم ، واختفى آخرون ، وها هو اليوم
طليق ، يذرع الطرقات يوزع النكات ويملا الجو بضحكاته .

توقف ياناكوس وانتظره . وقال له :

- طاب يومك يا شيخ كريستوفيس . هل لك أن تصنع لى مكرمة؟
هل تريد أن تعمل عملا طيبا ؟

- قل ما هم وسوف نرى . فقد تعبت من كثرة ما قدمت من الأعمال
الطيبة يا ياناكوس .

- قف قليلا عند ساراكيينا - فهي فى طريقك - واعط هذا القدر للقسيس فوتيس . واذا سألك من أعطاهها لك قل :

- رجل آثم ... هذا كل ما فى الأمر .

ترجل الشيخ كريستوفيس وقال :

- ماذا بها يا ياناكوس ؟ انها ثقيلة .

- أرز وسبانخ .

ثم قص عليه القصة كاملة . وقهقه الشيخ كريستوفيس وقال :

- بورك فيك يا ياناكوس . لو كان للرب مواهبك لما كان هناك

أطفال جوعى ولا أرامل يائسات . سأذهب من فورى الى هناك .

- على رسلك ... على رسلك . غبت طويلا عن القرية ، فهل من

أخبار جديدة ؟ هل لا زال الشيخ لاداس على قيد الحياة ؟

- هذا القدم يهرب من الموت . ألا ترى أن الموت يكلفه كثيرا ،

انه لن يجنى ربحا من الجنازة . أما الكابتن فورتوناس اللعين فحالته خطيرة .

وقال ياناكوس ضاحكا :

- العرقى أزهذ ثمنا .

ورد الشيخ كريستوفيس :

- آه ، ولكن الحلاقين أفلسوا .

- وماذا عن القسيس جريجوريس الناعم ؟

- ليأخذه الشيطان . لا زال حيا يرزق ، يتمتع بالنعيم . اكتشف

علاجا جديدا للعواقر من النساء ، يقال انه طويل مثل السجق ، وبيعه

حسب المقاس . لو أخذت منه البقرة العجفاء ذراعا فانها سرعان ما تلد .

وأغرقا فى الضحك .

- أطال الله عمرك يا شيخ كريستوفيس . لو مت لمات معك

الضحك . مع السلامة . سأذهب لأشترى مائة ذراع من ذلك السجق

وأملأ القرية بنينا وبناتا .

- مع السلامة يا ياناكوس . أتمنى لك التوفيق فى تجارتك .

وافترقا . وعلى بعد خطوات رن صوت الشيخ كريستوفيس كأنه صليل جرس .

الغشاش . اهتدى الى ذلك السجق منذ عهد آدم .
قال عبارته هذه ورددت المنحدرات أصداء ضحكه .

بينما كان مانولى واقفا أبصر ياناكوس يرتقى الجبل قادما اليه ،
مسكا بزمام حماره يشده وراءه . فاستجمع شجاعته وقال لنفسه :
« الآن تبدأ محنتك يامانولى . فكن لها » .

خطر بذهنه لحظة أن يدخل الكوخ ويتخذ لنفسه مجلسا فى الركن
المعتم ، خجلا من أن يفتضح أمره فى ضوء النهار . فقد عاد يتفحص وجهه
هذا الصباح فى المرأة . وغمغم قائلا :

- الشيطان وحده على مثل هذه الصورة من القبح . كان فمه هو
الشيء الوحيد الذى فس وزمه قليلا ، وهكذا أصبح أخيرا قادرا على
الكلام .

كان ياناكوس يترنم بلحن وهو يرتقى الجبل . انه متشوق الى رؤية
مانولى واصلاح ذات بينهما . فثمة حمل يجب أن يزيحه عن كاهله ،
وسوف يتخفف منه ...

وقف مانولى ينتظره بقلب واجف تحت أشعة شمس الأصيل
الذهبية . تذكر شفتى المسيح مزومتين حتى لا يبين ما يعانيه من آلام ،
فزم شفتيه قدر طاقته . وقال لنفسه « سأعتاد ذلك ، انه لأمر عسير فى
مبدئه ، ولكن رويدا رويدا ... أسألك العون يا يسوع » .

بدأ اللحن الذى يترنم به ياناكوس يبين ويتضح أكثر فأكثر .
وفجأة دوى صوت النفير جدلا مزهوا ، كان ياناكوس قد اعتلى صخرة ،
ووقف ينفخ فى نفيره ليعلن لصديقه عن وصوله .

وقال مانولى لنفسه « ها هو ذا يقترب ويصبح على مدى البصر . انه
سيبصرنى . تشجع يا قلبى » .

وصاح صوت طروب .

- ايه يامانولى ... أين أنت ؟

خطا مانولى الى الأمام ورد عليه بجنان ثابت قدر استطاعته .

- ها أنذا .

رفع ياناكوس رأسه ، وفتح ذراعيه ، ولكن لم تكد عينه تقع عليه حتى تسمر فى مكانه فاغرا فاه مأخوذاً . لم يصدق عينيه ، مسحهما بيديه ، واقترب منه ، وحدق فيه ، ثم صرخ :

- مانولى . . . مانولى . . . ماذا دهاك ؟

تظاهر بأفه يريد معانقته ، ولكنه توجس خيفة ، فتراجع عنه وهو يرتجف .

وقال مانولى بصوت رقيق :

- ارجع يا ياناكوس ان كان هذا فوق ما تحتمل .

واتجه صوب الحظيرة حتى يعفى ياناكوس من رؤية وجهه .

ربط ياناكوس حماره الى شجرة سنديان وتبعه . وسمع مانولى صديقه يقترب منه .

عاود حديثه اليه :

- ارجع يا ياناكوس ان كان هذا فوق ما تحتمل .

وأجاب ياناكوس :

- أحتمل . . . أحتمل . . . لا تذهب .

رسم مانولى علامة الصليب عند عتبة الكوخ ثم دخل وأغلق النافذة وانحنى على نفسه فى ركن معتم . وقال لنفسه .

- حمدا لله أن احتملت المواجهة .

دخل ياناكوس ، وجلس القرفصاء عند الباب . خلع قلنسوته ، ومسح جبينه . وخيم صمت طويل .

وأخيرا سأله ياناكوس ، وعيناه مثبتتان على الأرض :

- ماذا أصابك يامانولى ؟

ورد مانولى :

- لا شيء .

وصاح ياناكوس :

- كيف تقول لا شيء ؟ ان شيطاننا استقر على وجهك يامانولى . انه
شيطان لا أنت .

وأجاب مانولى فى هدوء :

- بل أنا . فى حياتى لم أكن صادقاً مثلما أنا الآن .

ولاذ بالصمت لحظة . ثم عاد يقول وهو يمسح بمنديله وجهه الذى
ينز دون انقطاع :

- فى حياتى ... فى حياتى ...

وصاح ياناكوس ثانية وهو يقاوم خوفه :

- كما أقول لك ، ان شيطاننا قد استقر على وجهك . عندما اطلع
اليك فانى أخافك ... قم واركب الحمار ، ولنذهب معا الى القرية .

- لماذا القرية ؟ انى راض ها هنا .

- ستذهب الى القسيس جريجوريس ليرقيك بقداس يذهب به عنك
الشيطان .

- لا . لا . لى خدمة واحدة أسألك اياها يا ياناكوس .: ألا تبوح
بشيء عنى لأحد .

- سأنبئ القسيس وحده يامانولى . اذا كنت تخجل من النزول
الى القرية فانه سيصعد اليك ويقرا قداسه هنا .

وثب مانولى مهتاجاً وهو يقول :

- لا . لا . انى راغب فيما أصاب وجهى يا ياناكوس ... انى
راغب فيه ...

ووثب ياناكوس بدوره وصرخ :

- أنا لا أفهم ما تقول . لماذا أنت راغب فيه ؟

- ابتغاء خلاصى يا ياناكوس . ولا فلن أنعم بالخلاص ... لا تنظر
الى كلامى على ظاهره ، فانى عاجز عن أن أبين .

- هل هذا سر ؟

جلس مانولى ثانية فى ركنه ، وقد أحس بمزيد من الهدوء .

وأجاب :

- سر يعلمه الله وحده الله وحده وأنا ونحن على وفاق .

وتجاسر ياناكوس على القول :

- هب أنه الشيطان ؟

- انه الشيطان يا ياناكوس . وأنت صادق الحدس . انه الشيطان

الذى تلبسنى . وحمدا لله على ذلك . ولولا هذا لكنت مع الهالكين

ورد ياناكوس يائسا :

- انا لا أفهم شيئا ، لا أفهم شيئا ؟

- وأنا لم أفهم شيئا بادية الأمر . لم أفهم شيئا يا ياناكوس

ثم فهمت أخيرا . كنت يائسا أول الأمر ، ولكننى الآن هادىء البال .

لست هادىء البال فحسب ، بل اننى أرفع يدى الى السماء أمجد الرب .

أحس ياناكوس فجأة بتوقير لمانولى وتمتم قائلا :

- أنت قديس

ورد مانولى محتجا .

- بل آثم ، وآثم كبير ولكن الله واسع الرحمة .

ولاذ بالصمت . وعلى البعد رنت أجراس القطيع ، ونبحت الكلاب .

وبدأت الشمس فى المغيب ، واقتحمت الكوخ ظلال زرقاء كبيرة . وضاق

الحمار بغياب صاحبه فشرع فى نهيق حزين كأنما يستدعيه .

وسأله ياناكوس :

- هل تستطيع أن تأكل ؟

- اللبن فقط ، امتصه بالبوصة .

- هل تشعر بال ألم فى أى مكان ؟

- لا ، لا أشعر بال ألم أبدا انصرف يا ياناكوس فى رعاية

السماء . حسبنا هذا . ولكن عدنى بأنك لن تبوح بشئ لأحد . هذا

ضرورى هل تفهمنى ؟ حتى أبقي هنا وأكابد وحدى .

- ضد الشيطان ؟

• ضد الشيطان •

• واذا انتصر ؟

• لن ينتصر • لا تخف • الله معي •

وغمغم ياناكوس :

• أنت قديس ••• لست بحاجة الى عون أحد • أتمنى لك صحة
طيبة • سأعودك ••• ليس عندي ما أقوله خيرا من ذلك •

• اذا لم يكن هذا فوق ما تحتمل ياياناكوس ؟

• بل أحتمل ••• سأراك قريبا •

• وشعر للحظة بدافع يدفعه الى أن يمسك بيد مانولى ويقبلها •
• ولكنه أحجم • وخرج حيث فك عقال حماره الذى هز ذيله فى سعادة •
• واتخذ طريقه نازلا الى القرية ، شارد الفكر ، دون أن يلقي بنظرة الى
• الورا •

وتمتم وهو يهبط المنحدر :

• العالم طلسم ••• ما أشد غموضه ••• يعجز المرء فيه عن أن
يميز الشيطان من الرب الرحيم ••• كثيرا ما يتشابهان ••• استغفرك
• ربى •

فى اليوم التالى قام مانولى قبيل الفجر واتجه الى حيث كان نيكوليو
نائما فى فناء الحظيرة ، مستلقيا على ظهره فى غبطة وهناء • وركله
ليوقظه •

• نيكوليو • قم • أريد منك عمل شيء لى •

• ارتفع رأس الراعى الصغير ، الحلو التقاطيع ، وهو لا يزال غافيا •
• وانفتح الجفنان ، ولع بياض العينين قليلا فى غبش السحر •
• وهمهم وهو يتشاءب •

• ماذا تريد ؟

• قم • قم • سأخبرك بعد أن تستيقظ ••• هيا انهض •

نهض الغلام متأففا • وما أن شب على ساقيه حتى كشف عن بطن عار برنزي • وأبان عن ذراعين وفخدين وحماتين يغطيهما شعر أسود لامع • وكانت تفوح منه رائحة السعتر والماعز •

وقال مانولى :

ارسم علامة الصليب ، حتى وان كنت لا تفعلها ، فيجب عليك أن تفعلها اليوم •

وقال نيكوليو وهو لا زال يتمطى ويطلق مفاصله :

— دعك من هذه يا سيدى • أى خير فيها ؟

فقد عاش حياته فوق الجبل ، نشأ وترعرع بين الكباش ، ومن ثم لم تواته يوما الرغبة فى رسم علامة الصليب ، ناهيك عن الذهاب الى الكنيسة • اذن ما حاجة نيكوليو الى هذا كله ؟ كل ما كان يبتغيه أن يكون صحيح البدن ، ويتزوج وقتما يحين الأوان ، وينجب أطفالا ، ويمتلك بعض الماشية ، ويتقدم به السن وهو لا يزال قوى العود مثل شجرة سنديان مورقة • أما علامات الصليب ، والعذراء المقدسة ، فهذه كلها أمور تخص أولئك الذين يسكنون السهل •

جلس مانولى عند عتبة الباب ، منتظرا نيكوليو الى أن يغتسل ويصحو من نومه تماما • لقد اتخذ قرارا مروعا أثناء الليل • لم يغمض له جفن طوال الليل ، كان الرب والشيطان يتصارعان بداخله • وانتصر الرب عند مطلع الفجر • ونهض مانولى ساعتها واتجه الى الراعى الصغير حيث ركله بقدمه ليوقظه •

قال نيكوليو وهو يسوى شعره براحتيه :

— ها أنذا قد صحت • أنبئنى الآن بما تريدنى أن أفعله •

وقال مانولى بصوت خفيض :

— اسمعنى يا نيكوليو واصغ الى ما أقول • ان كنت تخافنى فلا تنظر الى ، بل تطلع الى بعيد • ولكن اصغ جيدا الى ما سأقول •

وقال نيكوليو وقد أشاح بنظره :

— انى مصغ اليك •

— ستنزل الى القرية ، وتقصد بيت السيد ، ستجد الباب اليوم مفتوحا ، فادخل • مستجنازا الفناء ثم تتجه يمينا الى الطابق الأرضى حيث يوجد النول • ستلقى هناك خطيبتى لينيو •

والتفت نيكوليو نحوه بانفعال ، وبرقت عيناه وقال :

- لينيو ؟

- ستلقى لينيو وتقول لها ٠٠٠ اصغ الى كلماتي جيدا يا نيكوليو،
انقشها في رأسك: « ان مانولى يبعث اليك بتحياته، ويسألك أن تتكرمي
بالصعود الى الجبل . لديه ما يريد أن يفضى به اليك ، هذا كل ما فى
الأمر . تبلغها هذا وتنصرف بعدها توا ٠٠٠ هل تفهمنى ؟

- أفهمك ، هذا أمر سهل . سأذهب الآن .

هم بالانصراف ، متعجلا النزول الى القرية .

أمسك مانولى بذراعه وقال له :

- انتظر أيها العنز البرى . اذا سألتك عن حالى فقل اننى بخير
استحلفك بالله ألا تفصح عن مرضى . حذار والا فالويل لك .

- لا عليك يا سيدى . سأقول لها «انه على مايرام» ثم اولى الادبار .

- اجر من فورك .

اندفع نيكوليو كالسهم وغاب عن الانظار .

كانت لينيو قد نهضت من نومها بالفعل . أعدت شراب التيزان
الممزوج بالروم ، وارتقت الدرج لتقدمه الى سيدها الشيخ بطرياركاس .
كانت ترتقى الدرج الحجري مشرقة الوجه ، مرسلة الشعر ، تفرد كطائر
الزمير .

كان السيد العجوز جالسا على حشية يتطلع بناظريه من النافذة الى
سطوح بيوت القرية من تحته . وطاف بخاطره على كل أهل القرية ، طرق
أبوابهم ، ودخل بيوتهم ، وألقى الى كل منهم بكلمة مجاملة تواضعا ثم
ولى عنهم خارجا . وارتقى الجبل ، وألقى نظرة عجلى الى الماشية حتى التقى
بمانولى ففقد صوابه . « هل سمعت مثل هذا ؟ هذا الخادم القدر
يعارضنى . يقول : روحه ٠٠٠ روحه غير مهياة ٠٠٠ حسن أيها التعس ،
اذا لم تتزوج بلينيو حتى آخر أبريل فانك مطرود ، سادفك بك ثانية الى
الدير لتعيش هناك حياة الخصيان . تدوس على النعمة التى أنعمت بها
عليك أيها الخنزير الحقير . انك أنت الذى أدت رأس ابنى» ، انه أنت
يا شحاذ الذى تأخذك الرأفة بالفقير ٠٠٠ يقول لى انهم بشر أيضا مثلنا ،

انهم اخوة لنا . هذا كله جميل حين يقال فى الكنيسة ، وحين ينطق به القسيس من على المنبر فى يوم أحد . أما أنت أيها الفر فلا بد وأنت قد جنتت تماما اذ تريد أن تطبق هذا الكلام عمليا فى دارك .

انفتح الباب ، ودخلت لينيو حاملة شراب التيزان . وسرعان ما ولت أفكار الشيخ بطرياركاس عن ابنه وراعيه لتستقر على الفتاة التى تفيض خفة وغواية ، تحمل اليه شرابه المفضل ، تخطر فى مشيتها فيهتز رداها . حدق اليها يتملاها بعينيه وهى تقترب منه ، يمتنع ناظريه معجبا بالثدى النافر ، والخصر النحيل ، والأطراف البضة . وحدث نفسه قائلا «ماحيلتى معك أيتها العاهرة المباركة وأنا أنظر اليك كابنتى ؟» . كانت أمك فى صباها تحاكيك خفة ومرحا رحمها الله ، فى ذات ليلة وتحسس الشيخ شاربه وتنهد .

وقالت لينيو فى تملق :

— كيف حالك اليوم يا سيدى ؟ علام التنهد ؟

— وكيف لا أنتهد يا عزيزتى لينيو ؟ انى معذب بين ابنى ومانولى . قيل لى انك قصدت الجبل أول أمس لمقابلته . ترى ماذا قال لك هذا الأحمق ؟ جلست لينيو على حافة السرير عند قدمى الشيخ وتنهدت بدورها ، وقالت له :

— ماذا تظن انه قال لى ياسيدى ؟ أخاله مسحورا حدثنى عن أمور لا أتبين منها شيئا ، أعياء الكلام وبدلا من أن ينظر الى وجهى على نحو ما يفعل الرجال ، كان يرخى عينيه الى الارض ، أو يرفعهما الى السماء مسبلا جفنيه ماذا أقول لك يا سيدى ؟ من يدرى لو أخذته الى القسيس جريجوريس ليقرا عليه التعاويذ ؟ لا تضحك . ان مانولى مسلوب العقل ، يا سيدى .

كان الشيخ الحبيث يرقب لينيو ملولة خجلى . وبدأ يرتشف شرابه بصوت صاحب وسألها :

— هل تحبينه ؟

— وماذا تنتظر يا سيدى ؟ لقد زوجته بنى وهو رجلى . ولو زوجت آخر بنى لكان ذلك الآخر رجلى . والرجال عندى سواء كما تعلم .

وسألها سيدها ، وهو يغمز لها باحدى عينيه :

— والعجائز أيضا يا لينيو ؟

وردت الفتاة بطريقة قاطعة رادعة :

— حقيقة لا . . . الفتيان فقط .

ودل عليها العجوز قائلا :

— حتى كم من العمر ؟

— طالما وأنهم قادرون على الانجاب :

قالت ردها هذا في غير تردد . بدت وكأنها تدبرت كل هذه المشاكل من قبل وقطعت فيها برأى .

— ان لك عقلا ماضيا كحد موسى . تذكرى ما أقوله لك : أنت تعرفين بغيتك . سترحلين عن هنا . ضحكت الفتاة ونهضت من مكانها . أخذت القدح الفارغ وعادت الى الباب ولكن العجوز أوقفها .
سألها :

— ما هو التاريخ اليوم ؟ كم من أبريل . . .

وعدت لينيو على أصابعها الأحد ، الاثنين ، الثلاثاء . . .

— السابع والعشرون يا سيدي .

— عليك بالانتظار ثلاثة أيام آخر ، حتى يتنازل صاحب السعادة مانولى ويبلغنا اجابته . لو بلغ به السفه الى الحد الذى يرفض فيه مثل هذه الجوهرة ، فلا تجزعى بالينيو ، سأجد لك زوجا خيرا منه ، رجلا بكل معنى الكلمة ، ليست له روح ولا ما شابه ذلك من الترهات التى يحدثنا بها . . . زوجا يملأ فناء بيتك بالاطفال . هيا اجر . يحسن أن أنهض اليوم وأقصد الكنيسة ، ثم أبدأ بعدها جولة فى القرية . . . آتنى ملابس نظيفة .

تمتت لينيو وهى تنزل الدرج ، وتعمل بصدرها ضحكة حبيسة كأن ثمة من يدغدغها :

— يا له من شيخ يثير الاشمزاز . . . كان يلتهمنى بعينيه . . . قسما بإيمانى لو لم يكن هذا الشيخ أبى لعرفت كيف أغريه بالزواج بى ، ولا بأس ان عجز عن انجاب أطفال . وماذا يهم فى ذلك فثمة آخرون قادرون . ولكن الشيطان قلب الاوضاع كلها رأسا على عقب . ولكن ، لا بأس . ان مانولى ليس سيئا الى هذا الحد .

في هذه اللحظة ظهر نيكوليو عند عتبة الباب . نال منه الحر ،
وتصاعد من جسده البخار ، وعبق الفناء برائحة الماعز والطين . كان
يشبه جديا واقفا على قدميه الخلفيتين ، او ربما ملاكا صغيرا في صورة
غضب .

ما ان ابصرته لينيو حتى توقفت ، واقشعر بدننها وتمتمت :

- من هذا ؟ ما اطيب رائحته .

ثم صاحت

- ماذا تريد ؟ هل انت نيكوليو ؟

ورد الراعى الصغير بصوت متكسر كأنه رجع الصدى :

- انا نيكوليو .

- انا لا اكاد اصدق ، اصبحت الآن رجلا بمعنى الكلمة ، واخضر
شاربك . ما الذى اتى بك الى هنا ؟

- بعث بى مانولى مع الصباح الباكر لآخبرك شيئا ، ولهذا جئت
الى هنا .

اقتربت منه لينيو بقلب واجف . وقالت :

- مانولى ؟ لا تصرخ فلست فوق الجبل . تحدث هنا بصوت رقيق .
ماذا قال لك لتخبرنى به ؟

- قال لى ما يلى « اليك تحيات مانولى . هل لك أن تتكرمى بالصعود
الى الجبل . لديه ما يقوله لك » .

- هل هذا كل شيء ؟ حسن ، قل له انى قادمة انتظر ،
لا تنصرف . وكيف حاله ؟

- انه بخير . انه بخير تماما .

قال نيكوليو ذلك بصوت عال ، ثم ولى عنها مسرعا تاركا وراءه
عبيرا نفاذا .

في هذه اللحظة خرج ميشيل الى الفناء ، يرفل في ملابس يوم الأحد
الناعمة ، حليق الذقن ، ممشط الشعر ، فقد تهيأ للذهاب الى الكنيسة
يستمتع فيها لبعض كلمات الانجيل ، ويزور ماريورى . توسط الفناء

بأدى القلق ، كأنه ملاك • جمدت لينيوي في مكانها لحظة من الزمان مسلوقة
اللب من فرط الاعجاب • وحدثت نفسها « لا بد وأن أبى كان على هذه
الصورة في شبابه ، كأنه القديس جورج » •

وضع ميشيل على رأسه قلنسوته التي كان يمسك بها في يده، وقال:
- صباح الخير يا لينيوي • اني ذاهب الى الكنيسة •

اجابت لينيوي مداعبة

- في رعاية الله • اذهب الى هناك توا يا سيدي • اياك أن تحيد
عن الطريق •

ورد عليها ميشيل وكان قد لمح الرسول الذي اختفى سريعاً
عن الأنظار •

- يقينا ستحيدين أنت عن الطريق • ستذهبين توا الى مانولى •
فما حاجتك الى الشكوى •

أحست الفتاة كأن كلماته لدغتها ، فدفعت عن نفسها الاتهام قائلة :

- « لست أشكو - من قال ذلك ؟ اننا معشر الخدم بشر أيضا •
ان الله بواسع رحمته يقينا من ذل الشكوى • ولو ارتدى مانولى ملابسك
يا سيدي لبدأ هو الآخر سيداً أنيقاً مهندياً •

وأجاب ميشيل وهو يجتاز عتبة الباب :

- « أنت على حق يا لينيوي • نعم أنت على حق • الملابس هي الشيء
الوحيد الذي يفرق بيننا » •

وبدأت الأجراس تدق معلنة بدء القداس •

- « حسن • اني ذاهب يا لينيوي • آتنا بأخبار طيبة من الجبل » •

واجابت لينيوي بلسانها السليط :

- وآنا أنت أيضا بأخبار طيبة عن بنت القسيس » •

عبقت الكنيسة برائحة الشمع والبخور • وتلايات الأيقونات في
وداعة فوق أعمدتها ، وأضاءت صور القديسين واللآلئة المجنحة بالوانهم
المتعددة على جدران الكنيسة ، من أول الدور الأرضي الذي كسته الأعلام
حتى القبة • يشعر المرء عند دخوله هذه الكنيسة البيزنطية القديمة كأنما
يهيم في رحاب جنة تعج بطيور رائعة الحسن ، وأزهار تسامق الانسان ،

وملائكة كانوا نحل عملاق يحلق فوق الأزهار ، يتنقل بينها ليبنى منها الرحيق . واعتلى الاله القوى القدير القبة متربعا على عرشه ، عاتيا ، متوجدا ، يطل من عليائه على رهوس البشر .

ومن تحت وقف المؤمنون على البلاط يعطون هم أيضا ، الرجال فى الصدارة ، والنسوة من ورائهم . وفدوا الى الكنيسة وانحنوا أمام الايقونات ، وتنسموها بانوفهم ثم استقاموا هائمين فى ملكوت السموات مصغين الى التراثيم . وامتدت مقاعد الأعيان وراء النضد الذى صفت عليه شموع وصحاف من فضة . لم يكن ثمة من يتوقع حضور الشيخ بطرياركاس . أما الكابتن فورتوناس ، هذا التعس ، فلا زال طريق فراشه يثن ويتوجع . لم يحضر من الأعيان سوى ناظر المدرسة بنظارته وياقته البيضاء ، والى جانب الأب لاداس قابعا فى ركنه يتمتم بشفتيه . كانت الكلمات التى يلوكها بين أسنانه تطبع على شفتيه طعما مرا . لقد أتاه ياناكوس البارحة بأخبار سيئة . فان أولئك الناس ذوى الأسمال البالية الذين هاموا على وجوههم زهاء شهور ثلاثة فى الطرقات والدروب قد باعوا ، على حد زعمه ، آخر ما كان معهم من المجوهرات . ولم يبق لهم سوى أصابع عارية . وأى نفع للأصابع يا أب لاداس ؟ انها لا تفضل الأذان بغير أقراط . ولعن القدر . ووقف وراء النضد يثن بالشسكوى « انى تعس ، لاحظ لى ، ليت القرية المنكوبة كانت قرب ليكوفريسى حتى كنت أبداً صفتى فى الوقت المناسب . ما فائدتها الآن بعد إن أصبحت خرابا ؟ لياخذها الشيطان » .

كان المؤمنون لا زالوا يتوافدون ، يضعون بعض ما يتصدقون به من مال فى الطبق ، ويأخذون شمعة ويرسمون علامة الصليب ، ثم يتجهون الى الحجاب . كان الأب لاداس شارد اللب . « من حسن الحظ أن وقع هذا الأبله ايصال الجنيهاث الثلاثة . لو كنت مكانه . . »

لم يجد فسحة من الوقت ليتابع سلسلة أفكاره . اذ دخلت جثة ضخمة ، حطت بجواره ، وأز المقعد تحت ثقلها . واستدار متبرما ، فأبهر الشيخ بطرياركاس ، شاحب الوجه ، مترهل الوجنات ، جامد النظرات ، أصفر الشفتين وفيهما جفاف . وقال لنفسه « هذا الخنزير الشحيم البدين لن يموت أبدا » واستدار ناحيته فى كياسة وحياء .

وهمس بصوت كليل « أتمنى لك صحة طيبة يا عمدة » ثم استغرق فى همومه .

أضأت الكنيسة بنور ميشيل حين أشرق عليها . جاء متأخرا ،

فقد عرج على بيت ماريورى التى كانت فى انتظاره . كانت وحدها فى البيت ، فيما عدا المربية العجوز الصماء التى كرسست حياتها لخدمتها .
قالت ماريورى التى وقفت وراء الباب مسندة ظهرها اليه :
- « غبت عنى زمانا » .

ارتدت هى الأخرى أحسن لباسها . تتلألا حول جيدها قلادة من العملات الذهبية البيزنطية ورثتها عن أمها . ومست وجنتيها فى رقة بخضاب الزينة الأحمر الذى اشتترته بالأمس من ياناكوس . ولكن عينيها كليلتان كأنما كانت تبكى ، تحيط بهما دائرة زرقاء شديدة الزرقة . أمسكت بمنديلها تضعه على فمها بين الحين والآخر .

وسألها ميشيل الذى ساورته الهموم :

- « لماذا بعثت فى طلبى ؟ ماذا يزعجك يا ماريورى ؟ » .

غضت ماريورى من طرفها وأجابت :

- « أبى فى عجلة من أمره . يريدنا أن نتزوج » .

- « ألم نتفق على عيد الميلاد يا ماريورى ؟ لم يمض عام بعد على وفاة

أمى ، وهذا لا يليق .. »

وعاودت الفتاة حديثها بصوت خافت :

- انه عجل . كل يوم يدور خصام بينى وبينه . يهب من نومه كلما

انتصف الليل ويذرع الحجره جيئة وذهابا ، ويستعصى عليه النوم .

- « لماذا ؟ وما سبب تعجله ؟ »

تمتمت ماريورى بصوت مرتجف :

- « لا أعرف يا ميشيل .. لا أعرف » .

كانت تعرف تماما سر قلق العجوز ولكنها لا تجرؤ على الافصاح .

وهى تدرك فى أعماق نفسها أن أباهما على صواب ويلزم الاسراع .

وقال ميشيل :

- « لم يكن أبى يحب أمى ، اذ كانت تكبوه سنا ، وعاشت حتى

تقدمت بها السن ، واعتادت أن تزجره .. وسنم حياته معها ولذلك لم

يحزن على موتها . وأيا كان الأمر فانه لا يجرؤ على الخروج عن التقاليد

ولما يمض عام بعد • هذا فضلا عن أنه عمدة القرية ورئيس أعيانها ويجب عليه أن يضرب المثل •• هل تفهميننى يا ماريورى ؟ •

– « أفهمك ، أفهمك •• ولكن أبى فقد صبره كما أقول لك ، ويلومنى •• ولم أعد أحتمل المزيد » •

وأحست بالسعال يغالبها ، ولكنها كظمته ، ووضعت منديلها على فمها • وبدأت يدها الصغيرة ترتجف بين راحة ميشيل ، وبللها العرق • وفجأة تطلع اليها ميشيل منزعجا • لقد أصابها الهزال بصورة تثير الخوف • ونتاجت عظامها من تحت جلدها الناعم • وبات وجهها يشبه الجمجمة •

ضغط على يدها ، ثم ضمها الى صدره وغمغم :

– « ماريورى •• ماريورى •• »

خيل اليه كأنها ستفارقه وهو عاجز عن أن يبقئها ، كأنها ليست سوى حفنة من الرمل فى راحته ، تنساب حبيباتها من بين أصابعه تودعه •

قالت الفتاة وهى تحاول أن تمسك عبراتها :

– « حبيبي ميشيل • يجب أن تنصرف الآن • اذهب الى الكنيسة • سأتى أنا أيضا بعد لحظة •• تأخرنا • اذهب • لعل الله أن يشملنا ببركته » •

أمسكت برأسه بين يديها وضمته الى صدرها فترة من الوقت • كان بدننها كله يرتجف •

وتمتت ثانية « لعل الله أن يشملنا ببركته » • ثم ولت مسرعة الى الداخل ، وألقت بنفسها بين ذراعى مربيتها كأنما غشى عليها •

فتح ميشيل الباب فى هدوء ، وحث الخطى قاصدا الكنيسة ، منقبض القلب ، ضيق الصدر •

ظل واقفا قرب مقعد أبيه • والتفت اليه الشيخ معجبا به • وقال لنفسه « هكذا كنت يوما ما •• هكذا كنت يوما ما •• أيتها الحياة المضحية ، تمضين كأسطورة من أساطير الجان » •

في هذه الأثناء كانت لينيو قد فرغت من تسريح شعرها • ورشنت
عطر ماء البرتقال على شعرها وداخل صدرها • وسوت حول رأسها
منديلها الأصفر ذا الأهداب الحمراء ، الذي أهدها لها سيدها في عيد
القيامة • ثم خرجت تشق طريقها بين الدروب ميممة شطر الطريق الصاعد
الى جبل العذراء •

انتهى القداس ، وتفرق أهل القرية في الميدان ، يروحون ويجيئون ،
عليهم ملابس يوم الأحد ، وبداخلهم تقوى يوم الأحد • أم بعضهم مقهى
قسطندي يشربون ويضحكون •

وكان الأغا كعادته جالسا في شرفته يدخن نارجيلته • عن يمينه
حسين يمسك بالنفير ، وعن شماله يوسوفاكي يصب له الشراب ويمضغ
اللبان • ضيق الأغا عينيه الدامعتين يرصد بهما أهل القرية في الميدان من
تحت كراع يطل على قطيعه في حذب ولهفة • كان يؤمن أنه انسان ومن
عده أغنام ، يأكل اللحم ويأكلون هم الحضر • وتفضل عليهم الأغا اذ سمح
لهم أن يطعموا في سلام حتى يوفروا له حاجته من الصوف واللبن
واللحم •

وكانت لينيو ترتقى الجبل بقلب استخفه الفرح • توهمت ما يريد
مانولى • سيعقد قرانها هذا الأسبوع • انتهى انتظارها الطويل الى غير
عودة ، والحياة الحقة على وشك أن تبدأ • سيكون نهاري عملا في البيت
والمطبخ وليلي قبلا وأحضانا • وبعد تسعة أشهر • • طفل أهدهه • •
لن أكون خادما بعد اليوم ، ساكون زوجا وأما • •

كانت تحب مانولى : فتى وديعا ، مجدا في عمله ، وسيما ، أشقر
اللحية ، أزرق العينين ، رقيق الملامح - صورة صادقة للمسيح •

استخف الفرح قلبها فصار له جناحان ، سبقها بهما اليه وارتقى
الجبل سريعا ، حتى بلغ أرض المرعى وحوم حولها ، ثم حط على كتف مانولى
كطائر حجل أنيس بدين أحمر المخالب • داعب بمنقاره في هيام عنقه من
أمام ومن خلف •

وحدثت نفسها قائلة :

- • لا بد وأنه جالس الآن فوق الصخرة الناتئة عند أول الطريق
ينتظرني • أحسب أن قلبه كقلبي طار فرحا ، •

وكانت على حق • فقد جلس مانولى فوق الصخرة الناتئة • طفق
يمسح وجهه المتورم ، الذي نكأت جروحه وعادت تنز •

وقال لنفسه :

« انى حزين من أجل هذه المخلوقة التعسة • انى حزين من
أجلها •• ولكن قضى الأمر •• بات لزاما على أن أحرر نفسى من الغواية ،
وأطهر النفس والبدن حتى أكون جديرا •• »

وأرهب السمع ، فقد تناهى الى سمعه وقع خطواتها ، خفيفة سريعة ،
وتنسم شذا زهر البرتقال الذى تضوع به الهواء ، انه شذاها •• تنسمته
أنفه على البعد •• »

وحدث نفسه :

« انها قادمة •• انها قادمة •• ها هي ذى ، ها هي ذى •• »

ظهر المنديل الأصفر على البعد • وتوقفت لينيو هنيهة ، وأظلت
عينيهما براحتها • أبصرت خطيبها جالسا فوق الصخرة الناثثة ينتظرها ،
منكس الرأس • وصعدت بخطوات وثيدة •

عاود مانولى حديثه الى نفسه :

« ها هي ذى • »

رفع رأسه واستوى واقفا وظل جامدا فى مكانه •

تظاهرت لينيو بأنها لم تبصره ، أملا فى أن يشب نحوها كعادته
ويمسك بها من خصرها يعينها على الصعود كما كان يزعم لها •• بيد أن
مانولى اليوم لبث مكانه ولم يبد حراكا •

لم تطق صبيرا • وصاحت به :

« مانولى • »

لم يجب مانولى • ظل واقفا فوق صخرته واجما جامدا بغير حراك •
بدأت لينيو تعدو حتى اقتربت منه ، ورفعت رأسها وأبصرته فصرخت
مولولة :

« يا سيدتنا العذراء • »

وخرت الى الأرض •

نزل مانولى انتشلها من على الأرض • غطت عينيهما بذراعها الأيسر ،
ومدت ذراعها الأيمن تتحاشاه •

وصرخت بصوت أجش :

« اليك عنى • اليك عنى • اليك عنى » •

وقال مانولى بصوت رقيق :

« أنظرى الى ثانية يا لينيو • أنظرى الى وبعدها ستعافنى نفسك الى الأبد ويكون خلاصك منى .. »

ولولت الفتاة التعسة :

« لا • لا • اليك عنى » •

تراجع مانولى ، وعاد الى صخرته ، وجلس فوقها •

ظلا كلاهما واجمين لفترة غير قصيرة • وكانت لينيو أول من قطع هذا الصمت حين صاحت :

« ما هذا ؟ أنبئنى بحق السماء .. ما هذا ؟ » •

وأجاب مانولى فى هدوء :

« انه الجذام .. » •

وارتعدت لينيو ، وأشاحت بوجهها ناحية القرية • وقالت :

« انى راحلة • الهذا بعثت فى طلبى ؟ » •

وأجاب مانولى وهو لا زال محتفظا بهدوئه :

« نعم ، لهذا السبب • هل تستطيعين الزواج منى الآن ؟ .. لا •

لن تستطيعى • هل تريدين أطفالا مصابين بالجذام ؟ لا • لا تريدين أتركينى •

مرة أخرى ظلا صامتتين • وفجأة أجهشت الفتاة ببيكاء عنيف
هز كيانهما •

أدار لها مانولى ظهره ليذهب الى المرعى • وقال لها :

« مع السلامة يا لينيو • وداعا » •

لم تجب لينيو • مسحت عينيها بمنديلها الأصفر الناعم ، وتلفتت حولها وقد وهن جسمها ، لا تدرى الى أين تذهب • واختفى مانولى ، وبدت الأرض صحراء قفرا تدور لغير هدف •

بلغت الشمس سمتها وهمدت الأصوات فيما خلا رنين أجراس
الماشية وهي في طريقها الى شجرة السنديان ترقد تحتها ، تستظل بظلها .
وللحظة من الزمان صدح ناي بلحن شجي في هذه الحلوة ، ولكنه خفت
فجأة .

ظلت لينيو تردد بين نفسها في هلع :

« الجذام .. الجذام .. »

وسرت في جسدها رجفة رغم قيظ الظهيرة اللافح .

ترى كم من الوقت مكثت هناك قابعة في مكانها بين الحجارة مطوية
حول نفسها .. انها لا تدري ، تخالها دهرا وهي لاتعدو دقائق معدودات .
ذلك لأنها حين نهضت من مكانها لتنصرف كانت الشمس لا تزال جامدة
بغير حراك تعتلى كبد السماء .

عاد الناي يردد من جديد لحنا فيه شجو وطرب ومناجاة .. كانه
روح أخرى لا تطيق الوحدة .

سارت لينيو مسلوبة اللب في غير وعى ، واتجهت صوب الناي
كانه يدعوها . خيل اليها كأنها سمعت اسمها يناديها به . سارت مترنحة
الخطو ، لاهثة الأنفاس ، وبعد خطوات قليلة أرهفت السمع . أصبح الناي
أكثر قربا ، وأوقع ملاطفة ، وأمعن تضرعا انه يناديها ويجذبها اليه ..
لم تعد قادرة على الممانعة ، وواصلت المسير شاردة الحس .

وعلى حين غرة طالعتها الأغنام ، راقدة تحت شجرة سنديان سامقة ،
نبتت داخل تجويف في الجبل . أراحت الأغنام رقابها على الأرض تستمتع
ببعض رطوبتها . لم يقم منها غير اثنين كأنهما يتأهبان للطراد والمناطحة .
ووقف بالقرب منها الراعى الصغير نصف عارى يشب ويرقص معهما ، وبين
شفتيه ناي طويل .. يرفع طرف الناي من بين شفتيه بين الحين والحين
ليصرخ صرخات وحشية ويصفق بيديه ، ويصدر عنه صياح كانه ثغاء ،
ثم يعود الى العزف ثانية ، وينساب اللحن عاليا أكثر فأكثر .

تقدمت لينيو مسحورة ، مترددة الخطو . كان الراعى الصغير يوليها
ظهرة ، ومن ثم لم يبصرها . وها هي لينيو الآن تستطيع أن تتبين كل
ما حولها : كبش له الية ثقيلة وقرنان ملفوفان يلاحق نعجة بيضاء ، يحاول
أن يعتليها وهي تفلت منه . يشب الكبش على قدميه الخلفيتين مهتاجا ويعود
ليمسك بها من جديد بحافريه الأماميين وي طرح نفسه فوقها ويصدر عنه
أنين خافت كانه يتوسل اليها .. والراعى الصغير يتابع معركة الحب يشب

فى مكانه ويرقص ويصيح صيحات رقيقة يعضد بها الكبش فى توسله .
وصرخ :

– « هيا يا داسوس .. اقفز عليها يا داسوس .. »

ثم عاد الى الناي ثانية يعزف .

وقفت لينيو مبهورة النفس وراء الراعى الصغير مباشرة . كانت
تلهث وقد تدلى لسانها من فمها مثل النعاج . واحست بألم فى ثدييها .

وفجأة جمدت النعجة فى مكانها ، منهوكة القوى ، وكأنها هى أيضا
لم تعد قادرة على كبح جماح شهوتها . واعتلاها داسوس بوثة واحدة ،
وغطاها تماما . تدلى لسانه وبدأ يلحق رقبتها ويعضها خفيفا فى حنان .
تصعب الكبش عرقا حتى ابتل صوفه ، وعبق الجو برائحة الذكورة .

ألقى نيكوليو بالناي جانبا ، ونزع عن جسده ما بقى من ملابس حتى
أضحى عاريا تماما ، والعرق يغطى جسده ، وبدأ يرقص ويتميل مقلدا
حركات الكبش .

نقرت العروق فى عنق لينيو ، وغامت عينها ، وبغته استدار
نيكوليو وهو يرقص ، أبصرها فانقض عليها ، وطرحها أرضا قبالة الكبش
والنعجة . وقنعت لينيو بالاستسلام .

الكابتن يموت

الكابتن فورتوناس المسكين حالته سيئة تماما يا أغنا • عظام جمجمته لن تلتئم ثانية • حاولنا الكثير ! المراهم والدهانات - بل ان القسيس جريجوريس ذهب اليه بنفسه ليقرأ عليه الصلوات • وزارته أيضا امرأة من نساء الفجر ، وقرأت له الطالع • وأشعلوا له شمعة في دير القديس بانديمون صاحب المعجزات في ابراء المرضى • وأكل بعض لحم القطط - اذ يقال ان لها سبعة ارواح • وكل هذا لم يجد فتيلة فلا الرب الرحيم ، ولا الشيطان الرجيم يريد لقبطاننا المرحوم شفاء •

أفلنت كلمة « المرحوم » من لسان الأم ماندالينيا عن غير وعى منها ، فعضت شفتيها • وتمتمت :

- « لعل بأذن صاحبنا وقرا فلم يسمعني » •

ثم عادت وانطلق لسانها في غبطة وسرور :

- « بعث اليوم في طلب ميشيل ابن عمدة القرية ، حتى يمايه وصيته على حد قوله • وأنا الآن يا أغنا ذاهبة لآتيه بالقسيس جريجوريس ليقدم له المسحة الأخيرة • لقد رفع القبطان مراسيه وها هو يتأهب للبحار • دعاني منذ فترة وجيزة وقال لي « يا خالة ماندالينيا ، أكرميني واذهبي الى الأغنا ، قولي له : تقبل خالص تحيات كابتن فورتوناس جرينهورن • انه ينشر قلاعه ، هكذا قال ، ويتأهب للبحار ، فالى اللقاء » ولهذا أتيتك يا أغنا • فانا الأم ماندالينيا » •

كان الأغا جالسا على حشيته غافيا ، منتفخ الجفنين ، متهدل الوجنتين ، حافى القدمين ، أشعت الشعر ، لم يغسل وجهه بعد ، ويشرب القهوة ليذهب بها عنه أثر النعاس . كان ينصت الى الأم ماندالينيا كما ينصت المرء لحرير ماء المطر . وعندما سكتت فتح الأغا فمه فى تراخ وكسل وسألها وهو يتشاب :

- « وماذا عن مخه ؟ » .

- « انه يعمل على خير وجه يا أغا ، ساعة منتظمة » .

وصمت ثانية : أحس تراخيا فى جسده فتشاب مرة أخرى وسألها ولا زال فاغرا فاه :

- « هل هو خائف ؟ » .

- « انه لا يشعر بذرة من الخوف ، هذا العزيز ، لا يشعر بذرة منه . يضحك لحديثك عن الله كما يضحك لحديثك عن الشيطان . انه ، أستغفر الله ، لا يعبا بهذا ولا ذاك على السواء » .

- « هل يشرب ؟ » .

- « يشرب ولكن فى غير افراط » .

- « حسن . فولى لله عندما أصبحوا من نومى سأذهب اليه أودعه . قولى له أيضا اننى سأتى بحسين حارسى لينفخ فى النفير . وسأتى بيوسوفاكى ، قولى له هذا ، ليغنيه أغنية آمان المحببة اليه - وهو يعرف أى أغنية أقصد . ها أنذا قد فرغت من القهوة وسأدخن غليونى وأشرب قليلا من العرقى ، ثم يأتى يوسوفاكى ليدلك ساقى ، وبذلك أكون قد صحوت تماما . وبعدها أنزل . انتظرى ، اسمعى : قولى له لا تتعجل الرحيل وتموت قبل أن أصل اليه . قولى له ذلك ! عليه أن ينتظرنى . هيا انصرفى الآن » .

رقد الكابتن على فراشه موليا ظهره للحائط ، هادىء النفس ، رابط الجأش ، ثابت الجنان ، شاحبا أضناه الهزال . نتأت عظامه من بين جلده المدبوغ . وحول رأسه ضمادة محكمة عريضة ، حمراء يابسة من أثر الدم الذى تجلط فوقها . وعيناه الضيقتان تلمعان فى خبث ونشاط مثل عيني القرد الذى رآه ذات مرة فى أوديسا .

وعلى منضدة صغيرة بالقرب منه ترى غليوناً وزجاجة العرقى وكذلك
تمثالا نصفيا صغيرا من الجبس للملكة فيكتوريا . اشتراه ذات يوم من
ميناء بعيد . قال لنفسه عنها آنذاك : « فحلة ، حسناء ربلة ، ندى ناهد ،
ممتلىء .. أحبها .. » واشترى التمثال . ومنذ ذلك الوقت وهو يحتفظ
به الى جانبه . كان يقول أحيانا « انها زوجى ، لها شارب ليس لي مثله ،
ولكن أى بأس فى هذا ؟ انى أحبها » . ثم يقهقه بعدها عاليا .

جال بعينيه يستطلع محتويات عشه المتواضع . حوائط متسخة ،
وعوارض خشبية يغطيها العنكبوت ، وأرفف خاوية ، وصندوق طويل مليء
بالملابس القديمة ، ونعال بالية ، وصدايريات من الفانلة ، وحبال ، وقلة
ماء وضعت داخل كوة فى الحائط ، ودمجانة عرقى فى ركن من أركان
الحجرة . استقرت عينه فترة على صورة فوتوغرافية قديمة سمرت على
الحائط المواجه لسريره . انها صورة سفينته الغابرة - منشورة القلاع ،
يرفرف فوق مؤخرتها علم اليونان ، ويعلو فوق مقدمها تمثال لامرأة من
نساء الأساطير عارية الصدر . ويقف هو هناك بجانبها يمسك بالدفة
وقتما كان يناهز الثلاثين من عمره . وتخيل نفسه وقد اعتلى ظهر السفينة
التي لوث صورتها براز الذباب . رفع مراسيه واتخذ سبيله فى البحر .
ولكن ضبابا كثيفا أحاط بها - واستطاع كابتن فورتوناس ، بمشقة
كبيرة ، أن يميز أمامه جزرا وسواحل وتراكا يقفون فوق الرصيف وعلى
رءوسهم الطرابيش الحمراء ، ونسوة عاريات الصدور ، يشبهن التماثيل
التي توضع عند مقدم السفينة ، وعلى الميناء حانات عبققت بسحابات من
دخان السجاير والغلابين والسلك المقلى ..

كل شيء طواه النسيان ، أفراحه وأتراحه فى الحياة ، جراحه التي
أصابته فى حرب ١٨٩٧ حين تطوع لتهديب المؤن والذخائر على ظهر مركبه
الى داخل اليونان . . . حبه الذى كاد يسلبه عقله - فتاة تركية لا يذكر
اسمها الآن ولا أين . . فى القسطنطينية ؟ أم فى سميرونا ؟ أم فى ايفالى ؟
أم فى الاسكندرية ؟ وهل كان اسمها أم كلثوم ؟ أم فاطمة ؟ أم أمينة ؟ . .
انه لا يذكر شيئا من هذا كله ، فان ستارا كثيفا من الضباب يحجب كل
هذه الأحداث العابرة . ولكن حدثا واحدا من بين كل أحداث حياته
الماضية ، ظهر من خلال هذا الضباب الكثيف غارقا فى النور . كان ذلك
فى باطوم فى شهر أبريل ، يوم عيد القديس جورج . دخل يومها مع
ثلاثة من أصدقائه حديقة غناء ملائى بالأزهار الحمراء الفاقعة الكبيرة .
جلسوا فوق الحصباء ، وشرعوا فى أكل وشراب وغناء . ولفوا رؤوسهم
بعمائم ذات أهداب . وكانت الشمس ساطعة ، والبحر رخاء عطر الأريج ،

وليس من امرأة تؤنسهم • كلهم رفاق أنس وطرب ، أحدهم أشقر الشعر
والآخر أسوده ، وكان أحدهم ويدعى جورج وكان هذا يوم عيد ميلاده •
ومن عجب فبينما هم فى أكلهم وشرابهم وغنائهم اذ تساقط الرذاذ رقيقا
حانيا ، يغسل أوراق الشجر العريضة ، ويرقش الحصباء المنثورة فى
الحديقة • وتضوعت الأرض بشذا عطر وحاكت البحر رقة وجمالا •
ودخل الحديقة ثلاثة من الأرمنيين معهم ماندولين ومزمار ورق • جلسوا
القرفصاء تحت الأزهار الحمراء الداكنة وشرعوا يغنون أغنيات أمان ••

ما أبهجها تلك اللحظة وما أرقها ! كانت الحياة بين راحة الانسان
تفرد كطائر صغير عاشق •• أجهد كابتن فورتوناس فكره ، ولكنه لم
يستطع أن يتذكر شيئا آخر • لا شيء آخر • تبددت حياته كلها وسط
سحابات الدخان • لم يبق منها سوى ذكراه عن صحاب الأنس والرذاذ
الحانى فى باطوم •
وتتمم قائلا :

« عجبا ! هل هذه هى كل حياتى ؟ حياتى كلها ليست سوى ذلك
فقط ؟ رذاذ رقيق حان ، وأصدقاء ثلاثة وبضخ زهور حمراء •• عجبا !
لا شيء آخر أذكره عن حياتى ! أنا يا من ظننت أننى ابتلعت العالم
كله •• »

ومد يده ليرفع كوب العرقى من على المنضدة الصغيرة ، ولكن فى
هذه اللحظة فتح الباب ودخل الأغا • كان يرتدى زيه الرسمى الفاخر
كانه ذاهب الى عرس • السروال الأحمر ، والمسدس الفضى ، وطزلق
جديد زاه ، ومنديل حريرى يرفرف تحت ذراعه وشاربه مصبوغ • وقدم
وراءه يوسوفاكى ، أبيض غضا كالحبى الطيب ، نصف نائم ، يمضغ شيئا
فى فمه • ووراءه حسين ومعه نغيره ، شرسا عبوسا •
وقال الأغا فى لهفة :

« أتمنى لك رحلة هادئة وريحاً رخاء يا كابتن فورتوناس •
أبأوتى أنك اعتليت ظهر السفينة وأزمعت الرحيل • »
« الشراع منشورة يا اغا ، فى انتظار أول ريح قادمة • وداعا • »
قال الأغا ضاحكا وهو يلقي بجسده فى تناقل وصخب فوق الصندوق
القديم :

« والى أين عقدت العزم بحق الشيطان أيها المقدس جرينهورن ؟ »

هل تنوى الرحيل الآن عن هذه الدنيا ؟ تريث قليلا . أحضروا لى منذ أيام قلائل بعض العرقى . . رائع يا صديقى ، ممزوج بنقيع التوت الأسود . هذا كل ما قصدت أن أخبرك به . انتظر قليلا لتكون نديمى فى شرابه ثم لك أن ترحل بعد ذلك » .

– « وداعا يا أغا، هذا هو قولى لك، انتهى كل شىء . رفعت مراسى، وأمسكت بالدفة ، وها أنذا متأهب للابحار . لتكن نديم نفسك فى شرابك » .

– « والى أين عقدت العزم يا صديقى المسكين ؟ هل تعرف وجهتك ؟ »

– « الشيطان وحده يعلم ذلك . كل ما أعرفه أننى ذاهب الى حيث تقذف بى الريح » .

– « وماذا عن ديانتك الرومية ؟ ماذا ترى هى فى ذلك ؟ » .

وأجاب الكابتن وهو يلوح بيده :

– « أوه لا لا لا . لو أخذت بما تقوله ديانتى فانى ذاهب توا الى حيث يكون الشيطان » .

وضحك الأغا .

– « لو أخذت أنا بما تقوله ديانتى فانى ذاهب توا الى الفردوس . انها غنية بالفطير والخور العين والغلمان من أمثال يوسفافى . ولكن أنبئنى يا كابتن . ماذا لو كانت ديانة كل منا تسخر بنا ؟ ان هذه الدنيا حلم ، والحياة خمر ، يعب منها المرء ويسكر بها . لقد حار فكرنا : أنت تمثل دور الرومى ، وأنا الأغا التركى . . دعنا من هذا . جرينهورن – لا أكتمك القول ، ان هذا يحيرنى » .

والتفت الى الغلام الوسيم :

– « قم يا يوسفافى . لمحت عينى دمجانة عرقى هناك فى الركن . قم وصب لنا الشراب » .

دخلت الأم ماندالينيا ومالت على الكابتن وهمست فى أذنه :

– « يا كابتن ، سيكون القسيس هنا بعد لحظة ومعه القربان المقدس ، لا داعى لشرب العرقى » .

– « أى قسيس تحدثيننى عنه أيتها العجوز الحيزبون ؟ اخرسى . خذى الدمجانة ودورى علينا بالشراب » .

وزمجرت العجوز • وملات الأقداح بيد مرتعشة • وقف الأغا ،
واقترب من السرير وبادل الكابتن تحية الشراب بأن قرع كأسه •

– « رحلة ممتعة يا جرينهورن » •

– « رحلة ممتعة لك أيضا يا أغا » •

وضحكا • وأحس كل منهما بالرضا •

وقال الأغا وهو يمسح شاربه :

– تدبر يا كابتن وانظر كيف أصبحنا أنا وأنت صدقين •• هه ؟

الم نقض معا وقتا طيبا ؟ ألم نأخذ الأمور معا مأخذا سهلا ؟

وقال الكابتن الذى بدأ يشعر بدوار فى رأسه :

– « ها هو القسيس آت ليقدم لنا التناول يا أغا • وداعا » •

– « انتظر يا صديقى •• الى أين ؟ لا تتعجل • أتيتك بيوسوفاكى

ليغنى لك قبل الرحيل أغنيتك المفضلة آمان • لن ترحل عنا قبل سماعك

أغنية يا عزيزى الصديق العجوز •• تعال يا يوسوفاكى ، أسمعنا يا صغىرى

صوتك وغن آمان ! » •

أخرج يوسوفاكى كرة اللبان من فمه ، وألصقها بركبته ، ورفع

راحته اليمنى فى فتور وأسندها الى خده • وما كاد يفتح فمه حتى مد

الأغا ذراعه وقال :

– « انتظر يا كنزى • يجب أن ينفخ فى النفير أولا » •

ثم التفت الى حارسه الخاص وأمره :

– « افتح للباب وقف عند عتبه وانفخ فى النفير لحن التاهب

للهجوم » •

– « فتح حسين الباب ، ووضع طرف النفير بين شفثيه وبدأ ينفخ

بقوة وعنف •

وصاح الأغا :

– « كفى • الآن دورك يا يوسوفاكى • أسمعنا أغنيتنا آمان » •

ومرة أخرى ارتفع صوت الغلام رخيما صاقيا جياشا • أنصت

الكابتن فى صعوبة ، وفاضت جوانحه أسى وعدوبة • « دنيا تاير ، رؤيا

تاير •• الدنيا والحلم شيء واحد آمان ، آمان » •

لم يشعر الكابتن فى حياته قط بمثل هذا العمق الشديد كيف أن الدنيا والحلم شيء واحد .. لا بد وأن سنة من النوم قد أخذته ، وحلم بأنه كان يعمل ربانا ينتقل بين موانى البحرين الأبيض والأسود ، وأنه تطوع فى الحرب وأنه كان يونانيا مسيحيا ، وأنه الآن يحتضر .. ولكن لا ، انه لم يكن يحتضر وانما كان يصحو من نومه ، فقد انتهى الحلم وطلع النهار .
وَبَسَطَ يَدَهُ فِي رِصَانَةٍ :

— شكرا لك يا صديقى الأغا ، أنت وحدك الذى فهمت آلامى التى تعذبنى . وداعا أيضا يا يوسوفاكى ، ليت فمك الصغير الجميل لا يصيبه البلي ، ليتة يتحول تحت الثرى الى فص من الياقوت .
هاجت شجون الأغا . ومسح عينيه .

— « مع السلامة يا عزيزى الكابتن . واذا كنت أدعوك أحيانا جرينهورن فأنت تعرف أن هذا كان منى حبا ومودة . يجب أن تصفح عنى . ايه .. أتمنى لك رحلة طيبة ،
وانحنى عليه وقبله . وفاضت عيونهما بالدمع .

وقال الرجل المسجى على فراش الموت ، بنبرات تفيض أسى :

— آه لا أستطيع أن أعبر لك يا عزيزى الأغا عن مدى حبى لك .
وافترقا .. وبعد هنيهة التفت الأغا لى حارسه وقال له :

— أنفخ فى النفير ثانية لحن التأهب حتى يسمعه الكابتن ويشد من أزره .. أريد أن يعلم كل من فى القرية أن عليه أن يشهد دفنه . ان عمادا من عمد القرية ينقض ، وغطت صفحة السماء سحابات صيف رقيقة .
وتساقطت قطرات رذاذ .

وصرخ الأغا :

— هيا نسرع يا أولاد ، فانى ارتدى ملابسى الجديدة .

وأسرع ثلاثتهم الخطو .

التقى بهم ميشيل . كان يغذ السير ، يحمل معه ورقة ومجبرة .

— كيف حال كابتننا يا أغا ؟

— آه يا فتى ، انه بخير ، رابط الجأش .. فى الحقيقة انه أسعد حظا منا نحن الأحياء . يبدو كامل الوعى .

فتحت الأم مائدة: لينيا الباب على مصراعيه • كانت تتسوق قدوم القسيس حاملا القربان المقدس • وبدلا من القسيس ظهر ميشيل لاهث الأنفاس •

همست له المرأة العجوز :

– لا حاجة بك الى العجلة يا بنى •• لازل صامدا • انه كامل الوعى وهو طريح فراش الموت ، له سبعة أرواح كما يقولون ••• أدخل • ودخل ميشيل وأغلقت وراءه الباب •

كان الكابتن واهن القوى ، مغمض العينين • وعاد الدم يسيل فوق وجنتيه ، تتساقط قطراته فوق الفراش • دنت منه المرأة العجوز ، ومسحت قطرات الدم وأسرت فى أذنه قائلة :

– كابتن ، حضر ميشيل ومعه القلم والمجبرة • تحامل على نفسك قليلا •

رفع الكابتن رأسه المشجوج وفتح عينيه وقال :

– مرحبا بالفتى صاحب السيادة •

ثم أغمض عينيه ثانية وأغفى • جلس ميشيل فوق الصندوق ووضع الاوراق بجانبه وانتظر •

وقالت المرأة العجوز بصوت واهن وهى تمسح بعينيها وأنفها الذى كان يرشح :

– كان رجلا طيبا هماما هذا المسكين • كان رجلا طيبا رغم كل سلوكه المعوج • زوجى المرحوم أيضا ••! ثم شرعت تحكى بصوت خفيض قصة النوائب التى حلت بها فى حياتها • وأحسنت براحة فى هذا • ولف ميشيل سيجارة وبدأ يدخن ، فله كوارث فى حياته هو الآخر ، ولكنه لم يسر بها الى أحد ••• كان ينصت الى المرأة العجوز ، بينما روجه عنها شاردة •••

ونبح كلب بالقرب من البيت نباحا كثيبا فهبت العجوز من مكانها حانقة :

– ياله من حيوان ملعون ! لا بد وأنه رأى ملاك الموت حتى ينبح بهذه الصورة •

وفتحت الباب ، والتقطت حجرا قذفته به ثم عادت ثانية .

فتح الكابتن عينيه وقال :

– ميشيل ، أين أنت ؟ أدن منى . لا أستطيع التحدث الآن بصوت عال . هات ورقة وكتب !

وقال ميشيل :

– هون عليك يا كابتن . لا داعى للعجلة .

– أكتب ، واحتفظ بعزائك لوقت آخر . لى سبعة أرواح استنفدت ستة منها ولم يبق غير واحدة ، ها هى على شفتى توشك أن تنتهى هى الأخرى . تنبه جيدا وكتب ، فلم يبق لى من حياتى غير أنفاس معدودات .

دنا ميشيل من الوسادة ، وبسط ورقته وغمس قلمه فى المحبرة .

– ها أنذا أصفى اليك يا كابتن .

– أكتب أولا أننى فى كامل وعيى ، وأننى مسيحي أرثوذكسى .
واسم أبى تيودور كابانديس . ليس لى أطفال ، ولا ذوى قربي أو أرحام ولا كلاب . لست متزوجا ، فقد أسعدنى الحظ بأن أفلت من هذا والحمد لله . كنت ذا مال وأكلته كله . كنت أملك بعض الحقول وبعثتها جميعها وأكلت ثمنها أيضا . . لا لم آكلها بل شربتها . كان لى مركب وهذه هى صورته : تحطمت قرب تريبيزوند وغاصت فى قاع البحر . ثم أشار الى بقايا حطام الأثاث الذى يحيط به وقال : « وهذا كل ما بقى لى ولا شىء سواه » . أريد أن أقسمها بين الفقراء وأصدقائى حتى يذكروننى بها . يا أم ماندلينيا اجلسى بجانبى وأذكرىها لى واحدة واحدة كما ترينها . وكل ما أنساه فهو لك . هيا ، أكتب يا ميشيل . هل أنت مستعد ؟

– مستعد يا كابتن .

– دمجانة العرقى الموجودة فى ركن الحجرة أوصى بها للأغا : دعه يعيها فى صحتى . السنة الذهبية الموجودة فى قمى ، انزعوها وأعطوها للأرملة كاترينا لتصنع منها قرطا ذهبيا . وغليونى ذو الطرف المصنوع من الكهرمان أهبه لمقهى قسطندى : حتى اذا وفد على القرية غريب من ذوى المكانة يدخنها فتنسيه غربته . وثمة عشرة كيلو من الشعير أوصى بها لحمار ياناكوس : يأكلها عشية هخوله أورشليم حاملا المسيح على ظهره . . . بعض عملات فضية فى حافظة نقودى – ليأخذها القسيس

جريجوريس والا فان هذا العجوز ذو اللحية التي تشبه لحية التيس لن يسمح بدفنى وسيترك جسدى يتعفن فى العراء . هذا كل ما عندى بالنسبة لهذه الاشياء . أما الصندوق الذى تجلس عليه ، فبداخله أسحال بالية وجلد من المشمع وقبعات قديمة ، وأحذية ربانية وفانوس معتم وبوصلة ، وقطع من الحبال . تصدقوا بها جميعا على الفقراء الذين يسكنون كهوف ساراكيينا . أعطوهم أيضا ما لدى من جرار وآنية للطبخ والموقد والصحاف والملابس . نعم وأعطوهم كذلك البين والسكر والبصل وزجاجة الزيت والحجين وقدر الزيتون . . . كل شئ ، كل شئ ، فانى حزين لهذا الشعب المسكين !

هل كتبت كل هذا يا ميشيل ؟

— انتظر لحظة حتى ألحق بك . لا تسرع يا كابتن .

— انى عجل يا فتى خشية ألا يسعفنى الوقت أسرع فى كتابتك عندى أيضا كتاب « ألف ليلة وليلة » اعتدت أن أقرأ منه قصه كل ليلة من ليالى الأحد : أسرى به عن نفسى وقتما كان الآخرون يقصدون الكنيسة . يمكن لقسطندى صاحب المقهى أن يأخذه ، وفى ليالى الاحاد ، عندما يؤم أهل القرية مقهاه ، بعد سماعهم للانجيل ، يعطيه لأحدهم يقرأ عليهم بعضه بصوت عال — انه سيفتح عيونكم أيتها النفوس التعسة الانجيل كتاب رائع تماما ، ولا اعتراض لى على ذلك ، ولكن « ألف ليلة » كتاب جميل أيضا . هل كتبت هذا يا ميشيل ؟

— كتبته يا كابتن . استمر ولكن لا تشق على نفسك .

— تلفتى حولك يا أم مانداينيا . تلفتى حول البيت . هل ثمة شئ تمين غفلت عنه ؟

— نعلاك يا كابتن .

— لقد بليا تماما ولا يصلح الا ليلقى بهما وسط القمامة انتظر ، أوصى بهما للشيوخ لاداس ، هذا الشقى التعس . مامن مرة زرته الا وألفيته حافى القدمين . ليأخذهما هذا البخيل المسك حتى لا يصيبه البرد بأذى ويلقى منيته ، فانه درة قريتنا ! — الق نظرة أخرى يامانداينيا .

— الصورة الفوتوغرافية .

— آه ، هذه سأخذها معى . ضعوها فى اطارها على قبرى . سأخذ معى أيضا كأس العرقى . لقد أبلى معى بلاء حسنا ، ولا أطيق هجره .

أه ، وثمة أيضا هذا التمثال النصفى الصغير ليأخذه آكل الجبس فهو
وحده دون الآخرين قادر على أن يأكل ملكة انجلترا .

وقال ميشيل :

– لا زال هناك أهم شيء . . . المنزل .

– المنزل أوصى به للعجوز الموجودة هنا ، ماندلينيا التي توفرت على
خدمتي كأخت لي بمعنى الكلمة . تعرضت لكثير من المضايقات بسببى هذه
المرأة المسكينة ، وأغلظت لها القول كثيرا . بل أحسب أنها تحملت بعض
ضربات مبرحة بالعصا أيضا . لا تلومينى يا أم ماندلينيا ، لا تبكى –
ما لم يكن بكاؤك عن فرح وسرور .

حاول أن يضحك ولكنه لم يستطع . فقد اشتد عليه الألم . وبدأ
دمه ينزف من جديد .

– هذه كل ثروتى . اختتم ما كتبت وناولنى الورقة أوقع عليها .
قدم ميشيل الورقة ، ورفعت المرأة العجوز الكابتن وأمسك ميشيل
بيده يعينه على التوقيع . ووقع بالكلمات التالية :

« كابتن ياكوميس كابانديس بن تيودور » .

وترامى الى سمعهم صوت ترانيم دينية .

وقالت العجوز :

– ها هو القسيس قادم ، حاملا القربان المقدس .

وأسرعت نحو الباب تفتحه على مصراعيه .

وغمغم الكابتن :

– طراز آخر من المضايقات . هيا حتى نفرغ منه أيضا .

كان قواص الكنيسة العجوز هو أول الداخلين حاملا مصباحا مضيئا،
ومن ورائه القسيس جريجوريس مرتديا رداه الدينى ، رافعا كأس
القداس بيده ، وقد غطاه بغطاء من المخمل الأحمر الموشى بالذهب .

رسم القسيس علامة الصليب وهو يجتاز العتبة، وقال بصوت وقور:

– أتى الرب . أتركونا وحدنا .

رسم كل من ميشيل والأم ماندلينيا علامة الصليب ، وقبل يد

- القسيس ، ثم انسحبا من الحجرة • وخرج الغواص ومعه مصباحه • وانتظر الثلاثة بالخارج •

وقال القسيس وهو يدنو من الرجل الذى حضره الموت :

– كابتن فورتوناس ... حانت اللحظة الرهيبة التى ستمثل فيها بين يدي الرب • اعترف بخطاياك ، وطهر روحك • تكلم •

وأجاب الكابتن غاضبا :

– كيف لى أن أقص عليك خطاياى يا أبانا ؟ أتحسبنى قادرا على أن أتذكرها ؟ للرب الرحيم سجل يثبت فيه أعمالنا • وليس عليه الا أن يمحو ما أثبتته هناك ان شاء هو ذلك • ولكن ثمة شيئا أود ان استطعت أن أقدمه اليه ، سبحانه ، هدية من الارض • فانى أشك أن نجد مثلها هناك فى السماء •

كان القسيس ينصت اليه حائرا ، وقد اثارت لهجة الكابتن حنقه • وعاد الكابتن يؤكد له ما قاله :

– شىء واحد فقط أود لو استطعت أن أتقدم به هدية الى الرحمن • وسأله القسيس متجهما :

– ماذا ؟

– اسفنجة •

– ألا تخجل ؟ ألا تشعر بالخوف حتى فى هذه اللحظة الرهيبة أيها الفاسق ؟

واصل الكابتن حديثه رابط الجاش :

– اننا نمل ، أكلنا حبة قمح صادفتنا فى الطريق ، أو ذبابة ميتة أكثر من نصيبنا – أى بأس فى هذا ؟ أمحها • ألا تخجل من تأنيبنا نحن معشر النمل ؟ أنت أيها الفيل البدين ؟

وقال القسيس بلهجة جادة :

– كابتن ... احترم الله • انك تقف الآن على عتبة بابه أيها الشقى المسكين ، لن يلبث أن يفتح لك وتشنهده سبحانه • ألا تشعر بشىء من الهلع ؟

قال الكابتن وقد صم أذنيه :

— انى متعب يا أبانا • جاءنى الأغا هنا لمنادمتى ، ثم جاء ميشيل يدون وصيتى ••• وعلى ذكرها فانى أوصيت لك بكل ما تركت من مال حتى تسمح بدفنى ولا تترك جسدى للعفن مثلما فعلت مع آخرين •• وها أنت جنت الآن بصبحة شيطانك الرهيب ••• أنا لا أستطيع الآن ، فانى متعب كما أقول لك ، وداعا •

واستدار ناحية الحائط ، وأغمض عينيه • وبدأ يتنفس بصعوبة والى ، ثم انتابته فجأة حشرة خشنة •

وتحامل على نفسه وقال فى صعوبة :

— طبتم مساء •

وغطى القسيس ثانية كأس القداس بالمخمل الأحمر وقال :

— لا أستطيع أن أناولك جسد المسيح ودمه • ليغفر الله لك

وغمغم الكابتن ثانية وهو يلفظ آخر أنفاسه :

— طبتم مساء •

ثم انتفض جسده مرتين أو ثلاثا ، وأن أنينا واهنا ، وكأنه أصيب بغصة ، وفتح فمه : وانساب الدم على الوسادة والفراش •

ورسم القسيس فوقه علامة الصليب •

وتتمم قائلا :

— ليس لى أن أغفر لك ، وانما ليغفر لك الله •

وفتح الباب ونادى العجوز مانداينيا لتتولى مهمتها فى تكفين الميت •

وفى اليوم التالى ، وبينما كانوا يدفنونه ، تساقط رذاذ مثل ذلك الذى تساقط فى باطوم يوم عيد القديس جورج ، وقتما جلس على الحصباء فى الحديقة يتمتع النفس مع أصدقائه • وبدت سخابات شفافة تبهر تحت أديم السماء ، ودق جرس الكنيسة لحن الحسداد ، وانبعث من الجبابة الصغيرة شذى حلو لنبات الكاموميل • وشهد أهل القرية جميعا جنازه • سارت الأم مانداينيا فى المقدمة تنوح وتولول وتشد شعرها • وأراد ياناكوس أن يأتى بحماره ليسير مع الركب بعد أن سمع من ميشيل أن

الكابتن أوصى له بما يملك من شعير . ولكن ثارت نائرة القسيس جريجوريس .

واحتج ياناكوس على ذلك قائلا :

- أليس هو أيضا واحدا من مخلوقات الله ؟

ورد عليه القسيس جريجوريس مغيظا :

- ليس له روح خالدة .

وتمتم ياناكوس :

- لو كنت أنا الله لأدخلت كل الحمير الجنة أيضا .

ودفع القسيس ياناكوس بعيدا وصاح قائلا :

- الجنة ليست حظيرة ، انها موطن الرب .

وظفق ياناكوس ، وهو يسير مع الراكب ، يحدث نفسه في عناد ،
بادى التذمر :

- لو كنت أنا . . . لأدخلتهم الجنة ، لأدخلت عزيزى يوسوفاكى
فيها . . . ولكن بشرط واحد وهو ألا يروث هناك فتتسخ السماء .

وبعد أن تمت اجراءات الدفن ، وألقى كل انسان بحفنة من التراب
فوق القبر، انتحى ياناكوس جانبا بصديقيه ميشيل وقسطندى، اذ لم يعد
يطبق كتمان سره :

- أريد أن أفضى اليكم بخبر يا اخوتى ، ولكن يجب أن تحتفظا به
سرا . اذ ليس هناك من يعرف شيئا عنه بعد . . . أصيب مانولى فى
وجهه بمرض خبيث . أشبه بأخطبوط أو قناع اصطبغ بالدم ، وكأنما
استقر شيطان على وجهه . . . لا أدرى ماذا أقول لكم يا أصدقائى . . .
ترى هل مانولى قديس ونحن وحدنا القادرون الآن على أن نشهد ذلك ؟
فقد سمعت أن القديسين والنسك وحدهم تصيبهم امراض من هذا النوع .
وقال قسطندى :

- لا بد أن هذا أصابه لأنه قديس . . . انه قديس ، أجل ، قديس
ولم تكن نعلم عنه هذا طوال الاعوام الماضية .

وقال ميشيل الذى أزعجه الخبر :

- لا تتعجل في أحكامك هكذا يا قسطندى • تريث • يجب أن نفهم الأمر أولا ونأتى له بطيب

اقترح عليهما ياناكوس :

- الرأى عندى أن نذهب ثلاثتنا يوم الأحد لنعود مانولى ••• هذا فضلا عن أن معى هدية له •

وبينما كان يقول ذلك أخرج من جيب صداره كتابا صغيرا ظليت حوائه بالذهب •

- الانجيل • أرسله الى مساء أمس القسيس فوتيس مع الشيخ كريستوفيس • قال علينا أن نطالعه نحن الأربعة ، رجال السلال ••• هكذا يسمينا ! انه رمز صداقته لنا كما يقول • ويرسل بركاته الينا مع الانجيل •

وخطا خطوات فوق أرض المقابر المغطاة بأزهار الكاموميل حيث يرقد أسلافهم • وتضوعت الأرض برائحة طيبة بعد أن أندأها المطر • وتوقفوا هنيهة يتنسمون الأريج الدافىء الندى ، وغشيت رؤوسهم بعطر زهر الكاموميل البليل •

وتنهى ميشيل • فقد سرح فكره فجأة الى ماريورى خطيبته ، بوجهها الشاحب الذابل ، وعينيها الواسعتين تحيط بهما دائرتان زرقاوان ، ومنديلها الأبيض الصغير تضغط به على فمها ••• وتذكر يوم أن كان طفلا صغيرا وأتى الى هذه الجبانة فى صحبة أبيه : كانوا يومها يخرجون من القبر جثة فتاة صغيرة سبق له أن رآها فى بيته ، جميلة ، نضرة ، زرقاء العينين ، مموجة الشعر ، تفيض بشرا ••• وقف الى جوار أبيه مترددا عند حافة القبر المفتوح • وكان حفار القبور يحفر الارض بمعوله ، يرفع التراب ويكومه حول القبر بحثا عن أشلاء الفتاة • ووقف أبوها ممسكا بصندوق خشبى يجمع فيه أشلاءها • وفجأة دس الحفار كلتا يديه فى التراب وأخرج جمجمة • وانخرط ميشيل الطفل فى نشيج • هل هذه الجمجمة هى الرأس الجميل ذو الشعر المموج للفتاة الصغيرة ؟ كيف حالت عينها ؟ أين شفتاها ووجنتاها المتوردتان الضاحكتان ؟

ومنذ ذلك اليوم ، وبعد مضى عشرين عاما ، لم يحدث أن وطئت قدم ميشيل أرض الجبانة دون أن يتذكر الفتاة الجميلة وتلك الجمجمة ••• وسأله ياناكوس :

- علام التنهد يا ميشيل ؟

• ودون أن يجيب ميشيل دفع البوابة التي يعلوها صليب حديدي .

ثم قال مكتئبا :

- هيا بنا .

واتخذوا طريقهم الى القرية واجمين • وسمعوا وراهم وقع خطوات
ثقيلة • فاستداروا •

وقال قسطندي :

- بانايوتى ! حتى هذا الدب شهد الجناز .

وقال ياناكوس :

- لا بد وأنه سسمع بأن الكابتن أوصى له بشيء هو الآخر • انه
يسرع الخطو ناحية بيت المتوفى ليأخذ تمثال ملكة انجلترا ويأكلها •••

واقترح عليهم ميشيل :

- لنستوقفه ونصطحبه معنا ، فان هذا يرضيه قليلا •

وتوقفوا • لم يحيهم بانايوتى وانما حث خطاه ليتحاشاهم • فمئذ
ان اختاره شيوخ مجلس الأعيان ليقوم بدور يهوذا بسبب لحيته الحمراء ،
كما زعموا له ، لم يعد يطيق رؤية أولئك الذين اختيروا ليمثلوا دور
الرسل المؤمنين المقدسين •

كان لا يفتأ يحدث نفسه قائلا : « رغم مظهرى اللفظ ، الا أننى
خير من تلك الوجوه التى اختاروها لتمثل الرسل • ذلك لأننى قاسيت
كثيرا ، قاسيت فعلا أكثر منهم داخل بيتى وخارجه ، وداخل نفسى •••
أبكى اذا ما اختليت بنفسى ، ويبكون حينما يراهم الناس جميعا •••
أعرف ما هو الحب ، هذا النوع من الحب الذى يجعل منى أضحوكة
القرية جميعها ، واذا أحبوا هم انسانا ابتهجوا لذلك وتندروا به ••••
انى أعافهم ، ليبتليهم الله بطاعون • أحدهم يملك حمارا ، وآخر مقهى ،
وثالث له أبوه الغنى وماريورى ••• أما أنا فلا شيء أملكه • كم من مرة
راودتنى نفسى على أن أضرم النار فى دكانى وأطرد زوجى وأطفالى وأقتل
المرأة التى أحبها • حسن ، أينما اذن يهوذا ؟ هم الشباغ المالكون لكل ما
يريدون ، أم أنا ؟ »

وناداه ياناكوس بصوت عال :

— هيه يابانايوتى • هل عظم قدرك حتى تزدرينا ؟

وخار آكل الجبس :

— تحياتى الى الرسل المزيفين • ماذا عن مسيحنا الكذاب ؟

وقال قسطندى :

— ألا زلت متأثرا بذلك حتى الآن ؟ ولكن المسألة لا تعدو أن تكون

تمشيليا يا صديقى • ألم تتحقق من هذا بعد ؟

وأجاب السروجى :

— تمثيل أم غير تمثيل ، فقد غرستم خنجرا فى قلبى • زوجى

تدعونى يهوذا ، والصبية فى الطرقات يعيروننى ، والنسوة تقلق أبوابها

فى وجهى كلما أبصرتنى • ليبتليكم الله بطاعون ، فانكم ستجعلون منى

يهوذا الى الابد •

وقال ميشيل :

— الجميع يحبونك ، فلا يحزنك هذا • وكيف لا ، وها هو الكابتن

تذكرك وهو على فراش الموت وترك لك ارثا •

— ارث من الجبس لآكله ، حتى آكل ملكة انجلترا أيضا ••• اليس

كذلك ؟ ليحرقه الله فى نار جهنم •

وقال ميشيل محتجا :

— لا تجلب اللعنة على روحك ، فلا زال جسده دافئا • اسحب هذه

الكلمات •

وأحمر وجه بانايوتى المجدور وصاح :

— ليحرقه الله فى نار جهنم • وأنتم أيضا هل تريدون منى أن

أدعو عليكم بأن يقذف بكم فى الجحيم ؟

• ثم انطلق يعدو بخطوات واسعة وهو يتمتم بكلمات مدغمة •

وقال ياناكوس :

- كيف لك أن تمسك بشوك البحر دون أن يؤذيكَ بوخزه • اننا
كنا نحسن صنعا لو اننا لم نتكلم معه •

وقال ميشيل فى حزن :

-أصاب الجرح منه مقتلا •

وقال قسطندى يفسر سورة غضبه :

- هناك الأرملة أيضا ، والزجاجة • سينطلق الآن الى زوجته وبناته
وينهال عليهن ضربا • انه دائم التهديد لهن بأن يلقى بهن الى قارعة
الطريق •

وقال ياناكوس :

- تقمصه يهوذا ، وبدأ يأتى أفعاله • ستواجهنا المتاعب • انى
أخاف على مانولى • أسألك الله أن أخطىء الظن •

وقال ميشيل فى قلق :

- بالنسبة لمانولى ؟

وأجاب ياناكوس :

/ - أحسب أن الأرملة تضع عينها عليه ؛ منذ أيام فلانل أبصرها
شخص ما تتحدث اليه هنالك عند البئر • وشم بانايوتى رائحة ما حدث،
وثارت ثائرتة • وكلما سكر يصيح : « سأقتله ، سأقتله القدر ، ويشحذ
سكينه فوق الحجر •

واقترح عليهم ميشيل :

- ماذا لو نذهب لزيارة مانولى هذا المساء ؟ فان ما تقوله يثير

قلقى يا ياناكوس •

وقال ياناكوس :

- هيا نذهب اليه توا • فانى أخشى أن يسبقنا اليه بانايوتى •
أحسب أنه كان قاصدا جبل العذراء •

وقال قسطندى :

- ليس علينا الا أن نأخذ طريقنا من هذا المنحنى ونسرع الخطو
صاعدين • فكلما أسرعنا كان ذلك أفضل •

وغيروا طريقهم ، وأنطلقوا صاعدين • كفوا عن الكلام ، وأسرعوا
الخطو كأنما يتوجسون شرا •

أبصروا بانايوتى جالسا فوق صخرة عند سفح الجبل ، شارد
الفكر ، واضعا رأسه بين راحتيه • لم يبصرهم ، ومروا به دون أن
يتحدثوا إليه •

توقف المطر ، وتمزقت السحب ، وبدأت صفحة السماء من خلال
قطع الغمام هنا وهناك زرقاء زاهية • والشمس لا زالت فى سمتها
متوهجة •

وتردد صليل أجراس ، وصدح ناي طروبا فرحا • ومروا ببعض
الأغنام • ورفع نيكوليو الناي من على فمه ، وحدجهم بنظره •
وصاح ميشيل :

– ايه يا نيكوليو ، هل معلمك فى الحظيرة ؟

– ليس هناك • لم أره • اذهبوا لتروا بأنفسكم •

– كيف حاله يا نيكوليو ؟

وإجاب الراعى الصغير وهو يقهقه :

– كسرطان البحر حين يوضع على الجمر • يفتنى وهو يحترق •

وقال ياناكوس :

– انه صافى المزاج هذا العنز • هيا بنا نحن نواصل طريقنا •

وبدأ ميشيل يضحك وقال :

– عندى سو لكم أيضا • ذهبت لينيو البارحة لزيارة أبى ، انها

شيطان فى ثوب أنثى هذه الفتاة • لست أدرى كيف علمت بمرض

مانولى • فاجأت الشيخ بقولها :

– لا أريد مانولى •

– لماذا ؟ هل تحبين غيره ؟

– نعم •

– من ؟

- نيكوليو ، الراعى الصغير .

- هذا ؟ ولكنه لا زال غرا ، لم يخضر شاربه بعد . هل فيه نفع لك ؟ هل يستطيع أن يمنحك أطفالا ؟
وقالت :

- يستطيع . يستطيع . هو عين من أريد ، انه يستطيع كما أقول لك ، هو عين من أريد .
وبدأت تدلك الشيخ وتملقه .
وقال الشيخ :

- لك ما تريدين . خذيه وأمنى لك أن تجدى فيه خيرا كثيرا .
وقال ياناكوس :

- تلك الفتاة اختارت عنزا . أستغفر الله .
وتذكر قسطندى زوجه فقال :

- حمدالله أن أفلت مانولى من الزواج . فقد أراد الله به خيرا .

ما أن وصلوا الى الحظيرة حتى دخلوها . لا أحد . طافوا بكل أرجائها ، واعتلوا الصخرة الناتئة ، ونادوا بأعلى صوتهم ولا مجيب .
وتتمم ياناكوس :

- اللهم احفظنا . ترى هل انتحر ؟

وقال ميشيل الذى استبد به القلق :

- ما هذا الذى تتمم به ؟

وأجاب :

لا شىء

وعادوا الى الطريق ثانية منكى الروس . كانت الشمس تميل الى المغيب ، والتحف الجبل بالظلال . ومالوا فى طريقهم ليبروا بهجانب الكنيسة الصغيرة المقامة فوق الصخور . وهى كنيسة مهجورة ، يذكرها

الناس مرة واحدة كل عام . فى الثامن من نوفمبر ، وهو يوم عيد القديس
ميشيل . يقام بها فى ذلك اليوم بعض الطقوس الدينية المتواضعة احتفالاً
بذكرى القديس ، ويضىء الأوفادون الشموع التى تكشف عن بعض
التساوير الباهتة على الجدران . وترف من جديد أجنحة كبير الملائكة
ميشيل بأهدابها الملونة باللونين الأسود والأحمر . وينصرف الحجيج مع
الغسق ، وتنطفئ الشموع ، وتسكن أجنحة الملاك فى انتظار العام القادم
لتضىء ثانية .

ودخلوها . كانت عبقة برائحة الأرض الندية ، تشبه قبراً . وثمة
شمعة كبيرة تحترق أمام أيقونة للمسيح كادت تبلى معالمها وشقوا
طريقهم عبر الهيكل ، وجالوا بعيونهم : لا أحد
وقال ياناكوس :

— كان هنا يقينا ، لا بد وأنه هو الذى أشعل هذه الشمعة
ولكن بعد ذلك ، بعد ذلك الى أين ذهب يا ترى ؟

رسم ميشيل علامة الصليب وتمتم قائلاً :

— لعل الله أن يكلاه بعنايته .

كان مانولى قد مر حقا بالكنيسة الصغيرة . أضاء الشمعة ، وجتى
على ركبته فى ضوءها الكابى ، يتأمل المسيح سحابة نهاره ، متردداً فى
الحديث إليه ، ولا تواتيه الجرأة . لم يكن يدرى كيف يعبر عما يريد
أن يفضى به إليه والمسيح من جانبه يرقبه ولكن فى صمت خشية
أن يثير فى نفسه الفرع .

قضى نهاره كله هو والمسيح ، وجها لوجه ، دون أن ينبس أحدهما
بكلمة ، كعاشقين برحهما الجوى ، وعقل الحب لسانهما عن أن يبوحا بما
يجيش به قلباهما .

وعندما حل المساء ، قبيل مجيء الرفاق الثلاثة ، نهض مانولى ،
وقبل يد المسيح . استودع كل منهما الآخر . مكنون نفسه ولم يبق شيء .
يقال . وفتح مانولى الباب الصغير وأخذ طريقه الى القرية .

واستشعر السكينة ، وحدث نفسه قائلاً :

- أفضيت إليه بكل ما فى نفسى ، ونحن على وفاق • منحنى بركاته ،
وليس على الآن الا أن أنصرف •
أخفى وجهه بمنديله الكبير الا عينيه • كان الليل يرخى سدوله
حين دخل القرية • واختار الدروب المهجورة ، يذرعا مسرعا فى خطوه •
ومد يده فى عزم وتصميم وطرق باب كاترينا •

وعلى الفور كان قبقاب الأرملة يطأ أرض الفناء فى خفة •
وسأل صوت حلو :

- من بالباب ؟

وأجاب مانولى مبهور الفؤاد :

- افتحى •

وعاد الصوت ثانية :

- من بالباب ؟

- أنا ، أنا مانولى •

وفتح الباب على الفور • ومدت له الأرملة ذراعيها • وصاحت
فرحة :

- انه أنت يا مانولى • أنى لى بهذا الشرف ؟ أى ريح طيبة حملتك
الى ؟ أدخل •

دخل ، وأغلقت الباب وراءه • توجس خيفة فتوقف هنيهة تطلع
فيها الى أضص الرياحان فى غبش الليل ، ثم الى البلاط الأبيض الذى
رصفت به أرض الفناء • كان قلبه يخفق فى عنف •

وسألته الأرملة :

- لماذا تضع لثاما على وجهك ؟ هل تخشى أن يراك أحد ؟ هل تشعر
بالخجل ؟ أدخل • أدخل يا مانولى ولا تخف ، فلن آكلك •

• ووقف مانولى جامدا وسط الفناء لا ينبس بكلمة • انه يكاد يميز
وجه الأرملة ، وذراعيها المرمرين ، وصدرها نصف العارى •

وكانت الأرملة تقول له •

- « أفكر فيك ليل نهار يا مانولى . لم يعد يغمض لى جفن . واذا اغفيت أراك فى منامى . . . ليل نهار أصرخ أناديك تعال ! وها أنت أتيت فمرحبا بعزيزى ما نولى ! »

وقال مانولى فى هدوء

- « أتيتك يا كاترينا حتى تتخلصى منى والى الأبد . حتى لا تفكرى فى أبدا بعد اليوم ، ولا تنادينى ثانية . أتيت لتتقرز نفسك منى يا أختى كاترينا ، »

وصاحت الأرملة

- « أنا أتقرز منك ؟ أنت أملى الوحيد فى هذه الدنيا . فدون ان تعرف ، وعلى غير ارادة منك ، . . . على غير ارادة منك أصبحت أنت خلاصى . . . لا تخف يا مانولى ، فليس جسدى هو الذى يتحدث اليك بل روحى . فانا أيضا لى روح مثلكم يا مانولى » .

- « مصباحك مضاء . لندخل ، اذ يجب أن تريننى » .

- « أمسكت الأرملة بذراع مانولى فى رقة وحنان وقالت

- « لندخل » .

كان سرير الأرملة عريضا ، منسقا ، نظيفا للغاية ، يبلا الحجره كلها . وتعلوه أيقونة العذراء المقدسة يضيئها مصباح صغير . وفى أحد الأركان على اليمين مصباح زيتى موقد .

تقدم مانولى ، واتخذ لنفسه مكانا تحت ضوء المصباح ، وقال

تشجعى يا كاترينا . اقتربى منى وانظرى الى «

وبينما كان يقول ذلك بدأ يرفع منديله فى هدوء من على وجهه .

وظهرت شفتاه المنتفختان بصورة مقذعة ، ثم وجنتاه المتشققتان يسيل منهما سائل أصفر لزج . وأخيرا بانته جبهته المشوهة بلونها القرمزى كأنها قطعة من اللحم .

تطلعت اليه الأرملة بعينين واسعتين حائرة . وفجأة أغمضت عينيها ، واندفعت نحو مانولى وهى تنتحب .

وصاحت :

• « مانولى ، مانولى ، يا حبيبى » •

• ودفعها مانولى عنه فى رقة •

أخذ يتوسل اليها قائلا

• « افتحى عينيك وانظرى الى • لا تبكى لا تأخذينى بين ذراعيك •

• انظرى الى وجهى يا أختاه • »

أحست الأرملة أنها عاجزة عن أن تخليه من بين ذراعيها ، وأخذت

تصيح باكية :

• « يا حبيبى ! يا حبيبى ! » •

• الا تتقرز نفسك منى ؟

• كيف أتقرز منك يا أحب الناس الى ؟

• بل يجب • يجب يا كاترينا ••• يا أختاه ••• يجب حتى

تتخلصى منى ••• وأنجو أنا •

• لا أبتغى الخلاص منك • الانفصال عنك فيه هلاكى •

• وفى يأس اسقط مانولى فوق كرسى قرب السرير •

تضرع اليها

• ساعدينى يا كاترينا ، ساعدينى لأجد خلاصى ••• أنا أيضا

أفكر فىك ولا أريد ذلك ••• أعينينى حتى لا تتدنس روحى •

تساندت الأرملة الى الحائط وقد امتقع لونها • أخذت تتطلع الى

مانولى بقلب منقطر وكان طفلها يناديها وسط ظلام الليل وقد أحرق

به خطر •••

وأخيرا غمغمت قائلة :

• ماذا عساي أن أفعل من أجلك يا أعز انسان لى ؟ ماذا تريد

منى أن أفعل ؟

• كان مانولى واجما •

وقالت الأرملة :

– هل تريد منى أن أقتل نفسي؟ هل تريد منى أن أقتل نفسي حتى يكون بذلك خلاصك؟

وصاح مانولى فزعاً

– لا ، لا ، بهذا ستلقين بنفسك فى الجحيم ، وهذا ما لا أريده لك

ثم ران عليهما صمت من جديد . وبعد قليل قال مانولى :

– أريد أن أخلصك . فخلاصى رهن بخلاصك يا أختاه . وأنا

مستول عن روحك كما تعرفين .

وقالت الأرملة وهى ترتجف :

– أنت مستول عن روحى يا مانولى . خذها وأمسك بزمامها تقودها

الى حيث تشاء ، فهى لك ، وأذكر المسيح ، فهكذا كان أيضا مستولا عن

روح مريم المجدلية .

استشعر مانولى بفتة مزيدا من السكينة ، وقال :

– انه هو من أفكر فيه . هو من أذكره آناه الليل وأطراف النهار

يا أختاه .

– أسلك سبيل المسيح يامانولى ، كيف أنقذ مريم المجدلية العاهرة؟

هل تعرف؟ فأنا لا أعرف كيف . افعل بى ما تشاء .

ونفض مانولى

– انى منصرف . قلت الكلمة التى اعتقتنى يا أختاه .

– وأنت يا مانولى قلت الكلمة التى أنقذتنى ، وأدخلت السكينة الى

نفسى اذ دعوتنى أختا . . .

عصب مانولى وجهه ثانية ، فلم تعد ترى غير عينيه .

وقال :

– وداعا يا أختاه . سأتيك ثانية .

وأمسكت الأرملة بذراعه مرة أخرى لتقوده عبر الفناء . وفى عتمة

الليل مدت يدها وقطفت باقة من زهر الريحان .

وقالت :

- خذ هذه ، كان المسيح معك يا مانولى .
ووضعت باقة الريحان فى يده . وفى هدأة الليل فتحت الباب
وأطلت منه ، لا أحد فى الطريق .

وقالت الأرملة :

- لن أفتح بابى لأحد بعد الآن . سأنتظر مجيئك الى ثانية
باركك الله .

اجتاز مانولى عتبة الباب وتوارى فى الظلام .



الرَّبُّ صَانِعُ خَرْفٍ يَصْنَعُ مَخْلُوقَاتَهُ مِنْ طِينٍ

اليوم أول مايو • والصيف على الأبواب : اتخذت الأرض زخرفها وازينت • فالسهل لازال أخضر يانعا • والقمح يصطبغ بلون الذهب • وأشجار الزيتون تتكور حباتها وتكبر • والكرم يتزين بعناقيد صغيرة حمضية المذاق • وحبات التين الخضراء يسرى فيها لبن لاذع الطعم ليصبح عما قريب عسلا مصفى • وأهل ليكوفريسي يأكلون حبات الثوم ، ففيه صحة لأبدانهم - وعبقت القرية كلها برائحته • وبدأ البشر يعود الى الشيخ بطريار كاس من جديد ، فقد امتلأ كرشه ، وغلظ الدم في عروقه • زاره صباح أمس أندونيس الحلاق وعمل له كاسات دم لينقذه من مرض السكته • والعجوز لاداس قابع في ركن يمضغ هو الآخر غصن نوم ، وقد تحول فكره عنه الى الدخول والمنصرف : كم ستكون حصيلته هذا العام من الزيت والنبیذ والقمح ؟ من مدين له بمال ، وبكم ، وكيف يسترد الدين ؟ ويفكر أيضا في جنیهات ياناكوس الثلاثة ، انه ينوى بيع بضاعته في المزاد ويستولى على حماره •

والخطيبة يضحونها السقم • ففي شهر مايو لا يعقد قران ، وفي يونيو يكون الحصاد ، والعمل في الحقول لا يحتمل التأجيل • فلا وقت لحفلات الزواج • والشهر الذي يليه موسم الدرس ، ثم فيما بعده جنى الكرم • اذن لا مناص من الانتظار حتى عيد الصلب في سبتمبر ، وقتما تخف أعباء العمل ويبدأ بيع المحصول ، ويومذاك سيحضر القسيس

ويبارك العروسين اللذين نفضا عن كاهليهما كثيرا من الهموم ، وتوافر
لديهما طعامهما من الخبز والزيت ، وشرابهما من النبيذ . وسيمنحهما
هذا كله القدرة على الاخصاب وانجاب الأطفال .

والقسيس جريجوريس تؤرقه هموم كثيرة . ماريورى لم تتزوج
بعد ، وميشيل سلك سبلا سيئة . لم يكن فطنا بالقدر الكافي فقد تحايل
عليه مانولى وأصدقاؤه ، وغرروا به ، عثروا فيه على لقمة سائغة ، وها هو
الآن لا يكف عن توزيع الدقيق والزيت على الفقراء دون علم أبيه . وبين
حين وآخر ، اذا بحمار ياناكوس - أماته الله شرمية - يحمل سلالا
جديدة مملوءة بالطعمة الى اللاجئين فوق جبل ساراكيينا . ويهدر
القسيس جريجوريس شاكيا « هذا الأبله ، انه بتفكيره المعوج هذا
سيأتى على ثروته سريعا ، ثم ماذا سيكون من أمر ابنتى ؟ »

ولكن شر الأمور كلها قسيس ساراكيينا ، ذلك التيس يلقي قداسا
كل أحد فى كهف فوق الجبل ويحلوه له الاغراق فى تقديم المواعظ . وبدأ
بعض أهالى ليكوفريسي ينصرفون عنه ، أى الأب جريجوريس ، ليستمعوا
الى هذا القسيس المتشرد الملتاث . ولا يفتأ القسيس جريجوريس
يحدث نفسه قائلا « كل قرية من القرى أشبه بخلية نحل ، والخلية
لا تسع ملكتين ، أولى به أن يفارقنا ، ويجمع سربه فى مكان آخر .
فساراكيينا خلتي ! »

وأهل شهر مايو أيضا على جبل ساراكيينا ولكن حيث الاسمال
البالية والبطون الخاوية ، وقليل من الأزهار البرية المتناثرة هنا وهناك
بين الحجارة ، وبعض أزهار نبات العليق والعضة ، وآلاف السحالى
الخضراء والرمادية التى زحفت خارج جحورها لتنعم بدفء شمس مايو
العانية . لا أشجار زيتون هنا ، ولا كرم أو بساتين ، لا شئ غير
صخور موحشة نابية . وعلى مسافات متباعدة ، شجرة أحنتها الرياح ،
التفت حول ساقها معذبة بما تحمله من ثمار لاذعة لا شئ فيها غير
البدور - شجرة زيتون برى ، أو شجرة خروب أو كمثرى برية - غطتها
الأشواك ولا تحمل غير الكراهية للانسان .

اليوم الأحد : ملاً الضوء الكهف ذا التصاوير الباهتة على الجدران ،
واستيقظ النساك ، البعض له ذقون أو لحى تأكلت بفعل الرطوبة والزمن،
وآخرون مبتورة رءوسهم أو أقدامهم . وعلى الصليب لم يبق سوى وجه

المسيح علامة صدا أزرق وفطر ، وبقية من الصليب عليها قدمان زرقاوان
يقطر منهما الدم

غص الكهف طوال الصباح برجال ونساء يثرنمون بالتراتيل
وبعد أن فرغوا من ترتيلهم خرجوا ليجلسوا تحت الشمس ، ولحق بهم
الأب فوتيس ، فقد اعتاد أن يخطب في قومه كل أحد بعد القداس
ليثبت أفئدتهم . . . يبدأهم بالتحية ، ويبحث عن كلمة طيبة لكل منهم ،
ثم يبدأ موعظته ليبلغهم كلمة الرب وكلمته . كان يستهل حديثه اليهم
دائما بصوت هادئ ، ثم رويدا رويدا يدب فيه الحماس ، وتبدو كلماته
وكانها تهبط عليهم من مكان ما في السموات العلى ، من خير مكان تتنزر
كلماته على أرواح البشر .

كان منشرح الصدر وهو يتحدث اليهم في ذلك اليوم مواسيا ،
ويعيد على سمعهم ما سبق أن قاله لهم .

– تحياتي يا أطفالي ، فلا زلنا على قيد الحياة ، ولم نياس .

كان أحيانا يضرب لهم الأمثال ، وأحيانا يحدثهم عن حياته وعن كل
ما زآه وعاناه ، وأحيانا أخرى يسك بالانجيل ويفتحه بطريقة عشوائية ،
ويقرأ منه بعض آياته فتكون منطلقا لحديثه اليهم . وتفتح أمام أعين قومه
الكليلة سموات متألفة بنجومها ، وتتحول أسماهم البالية الى أجنحة ، حتى
يطونهم الحاوية تنسى ما تعانیه من الطوى .

بدأ القسيس فوتيس حديثه اليهم في ذلك اليوم بقوله :

– نحن نعبر عن الحقيقة بالأسطورة . وسوف أقص عليكم أسطورة .
هيا اقتربوا منى يا أطفالي . وأنتن أيتها النسوة اللاتى تذرفن الدموع ،
ان حديثي موجه اليكن فاقتربن .

تجمعت النسوة مع بعضهن ومعهن أطفالهن وربضن على الأرض
وأحطن به . وظل الرجال وقوفا وراءهن . واتكأ الشيوخ على عصيهم
وكلهم آذان صاغية .

وبدأ القسيس فوتيس كلامه :

– يحكى أنه كان فى سالف الأزمان صيادان ، تسلقا جبلا ، ونصبا
شباكهما . وعادا إليها فى اليوم التالى ، فماذا رأيا ؟ كانت الشباك تعج
بحمام مطوق . وكل واحدة من هذه المخلوقات التعسة ترف بجناحيها

تحاول في يأس أن تغلت من أسارها ، الا أن عيون الشباك كانت ضيقة . فكيف لها أن تنفذ منها ؟ ثم تكومت حول بعضها في هلع ، وانتظرت . وقال صياد « ما أسوأ هذه الطيور ، انها جلد على عظم . كيف نبيعهما في السوق ؟ » وقال الآخر ، ليس علينا الا أن نطعمها أياما قلائل حتى تسمن . ومن ثم ألقوا اليهسا بكميات وفيرة من الحب المجروش وأحضروا له ماء . وبدأ الحمام المطوق يأكل ويشرب في شهية ونهم ، الا واحدة لم تكثرث بذلك ولم تطعم شيئا ، وفي كل يوم يأتي الصيادان بمزيد من الحب المجروش ، وهكذا سمن الحمام يوما بعد يوم ، الا واحدة أضناها النحول ، وناضلت في عناد لتنفذ من الشبكة . واستمر الأمر على هذه الحال حتى جاء الصيادان ذات يوم صفيت سماؤه وأخذوا الحمام لبيعه في السوق . ولكن الحمامة المطوقة التي قضت أيامها هذه بغير طعام ، كان الهزال قد نال منها كل منال حتى استطاعت بعد جهد أن تنفذ من بين عيون الشباك وتطير ، وهكذا أصبحت طليقة .

تلكم هي القصة يا أطفالى . ولكن لماذا قصصتها عليكم ؟ من منكم يدرك مغزاها ؟ أنت أيها الشيخ ماذا ترى ؟ هل لسكم أن تكدوا ذهنكم قليلا ؟

وصمت الشيوخ من الرجال جميعا . وفجأة وقف العملاق حامل
الراية .

— يبدو لى يا أبانا أنك تشير بها الى جوعنا ، وأنه سيعيننا على أن نجد حريتنا تقصد أننا مثل هذه الحمامة التي أبت أن تطعم شيئا ولكن ماذا بعد ؟ ان الأمر غير واضح لى آسف فان فكرى قاصر عند هذا الحد .

وقال القسيس

— لقد أدركت جوهر القصة يا لوكاس . انى أباركك . سأوضح لسكم يا أطفالى بقيتها . بدأنا حياتنا فى قرينتنا أغنياء ، وتجد وزنا كل الحدود . أفرطنا فى الطعام ، وأثقلنا أرواحنا بالغذاء . كانت حياتنا كلها دعة وأمنا وسلاما . وانطلق الجسد حتى استعبد الروح . كنا نحدث أنفسنا « كل شىء يسير على ما يرام ، الهدالة تسود العالم ، ليس ثمة جائع ولا مفرور ، وعالمنا خير العوالم قاطبة . وأشفق علينا الرب — أرسل الينا الأتراك ، فطردونا من ديارنا ، وشردونا لنهيم على وجوهنا

فى الطرقات • اضطهدنا وتعلمنا ان العالم مليء بالمظالم • أصبحنا جوعى ومقرورين ، وثمة غيرنا يولون الولائم ولا تطفأ لهم نار ، يضحكون اذا ما وقع بصرهم على شعب مهلهل يتضور جوعا •

فتحت النازلة عيوننا وفهنا • بسط الجوع أجنحتنا ، وهربنا من شبك الظلم ، كما تحررنا من حياة الدعة المفرطة • وهانحن هنا أحرار ! والآن نستطيع أن نبدأ حياة جديدة والحمد لله •

وران عليهم صمت ، فلم ينبس أحدهم بينت شفة • هز الشيوخ رؤسهم ، وعادت النسوة نواحها المكتوم ، فيما عدا الرجال وحدهم كانوا يتطلعون الى عيني القسيس ويستشعرون فى أعماق نفوسهم قوة وعنادا لا يقهران •

ومرة أخرى كان حامل الراية هو الوحيد الذى رفع صوته :

- حديث طيب يا أبانا • أشفق علينا الرب فابتلانا بهذه النازلة • تماما مثلما يفعل الفارس اذا جمع حصانه ، فانه يلهبه بسوطه ••• لقد ألهمت النازلة دمنا ، وفتحت أفئدتنا ، وأصبحنا أحرارا •

ثم صاح وعيناه تفيضان من الدمع ، فقد تذكر جورج ، طفله الصغير ، الذى مات فى الطريق •

ولكن الآن كيف السبيل الى الخلاص من هذه النازلة ؟ هذا ما يجب أن تحدثنا عنه • اما أن نقضى عليها أو تقضى هى علينا • انها تكاد تجهز علينا •

وأجاب القسيس •

- لا تخش شيئا يا لوكاس ، فاننا سننظر بهذه النازلة، سترى كيف أنها ستعود علينا بالخير • العمل والصبر والحب - تلكم هى أسلحتنا • تقوا بأنفسكم • اننى اذا أغمضت عيني أبصر بيوتا من حجر تحيط بى من كل جانب ، وكنيسة يعلوها برج الجرس ، ومدرسة ذات طابقين وفناء واسع يقص بالأطفال ، وحول القرية حدائق وبساتين كرم وحقول قمح ••• وقد بدأنا مسيرتنا بالفعل • اهتدينا الى قطعة أرض صغيرة ، وبذرنا فيها الحب • وأسرنا المياه المتمردة ، وصنعنا لها القنوات ، وطعمنا الأشجار البرية • بل بدأنا تشيد المياني بالفعل ••• وفى تلك القرية المتكبرة ليكوفريس ، التى تعنى نبع الذئب ، لا زال فيها عصابة من

الرجال لهم بين جوانحهم أفئدة ، وهم يفكرون فينا . ذات يوم أتاني أحدهم بكل ثروته ، ثلاثة جنيهاً ذهباً ، وفي اليوم التالي أرسل لنا آخر سلال طعام ، وقدمت لنا امرأة آثمة نعتها ٠٠٠ وآتم غيرها مات قبل أول أمس ، تذكرنا لحظة أن حضره الموت ، وأوصى لنا بصندوق مليء ببعض الحاجيات - أسأل الله أن يصفح عن روجه الآثمة ! ها نحن يا أطفالي نضرب بجدورنا في الأرض ، ها نحن مرة أخرى نجد لنا مكاناً على الأرض تنبت فيه بذرتنا من جديد لتنمو وتستوى على عودها وتسمق فروعها . ثقوا بأنفسكم !

وصاح شاب خشن المظهر ، شاحب الوجه من أثر الحرمان ، متمنظفاً بخرقه بائنة :

- يا أبانا ، هل سنعيد حياتنا سيرتها الأولى من جديد ؟ نفس الشيء دائماً وأبداً يا أبانا ؟ هل يجب أن نبدأ كما بدأنا أول مرة يا أبانا ؟ تذكر جيداً أن لم يكن في قرينتنا أغنياء فقط ، بل فقراء أيضاً . ماتت أمي جوعاً وقتما كانت القرية تسبح في الزيت والنيذ ، وأقران الجيران جميعهم موقدة ، تخبز صفوفاً مترابطة من الأرغفة ، وكانت رائحة الخبز الساخن كافية وحدها لتصيب أمي بدوار ٠٠٠ وهكذا يا أبانا عود على بدء وتتردد نفس الأغنية القديمة ؟ مرة أخرى غني وفقير ؟

وأطرق القسيس فوتيس برأسه . وظل غارقاً في فكره فترة طويلة . ثم قال أخيراً :

- أنت واضح وصريح يا بترو ، لا توارى في حديثك ، وأنا أحب منك هذا . إن ما تسألني عنه أسأل أنا عنه الله ليل نهار ، أتضرع إليه سبحانه أن ينير بصيرتي . ادعوه قائلًا : الهى اننا نبتغى أسساً جديدة نقيم عليها قرينتنا الوليدة . حسبنا ما عانينا من المظالم . اذا شئت سبحانه فليكن كل منا جائعاً مقروراً ، أو لينعم الجميع بالطعام والملبس والدفء . الهى هل تعجز عن أن نحقق العدالة على الأرض ؟

وتساءل الفتى بطريقة فظة :

- وماذا كانت اجابة الرب الرحيم ؟

- حنانيك . امهلنى ، فان فكرى الكليل يتلقى النور دويدا رويدا وعلى قدر طاقته . ان النازلة التى احدثت بنا ، ولكن متصفين فى حديثنا عنها ، قد جعلتنا جميعاً سواسية ، أصبحنا جميعاً فقراء ليس فينا من

يملك فرنا يخبز فيه خبزه ، أو من يجد فرصة ليقع في الحطينة حين يمنع
الخبز عن جاره الجائع . لنعمل على تحقيق ما كان عسيرا على النفس فيما
مضى - ها هي اللحظة المواتية يا أطفالى ولنتكاتف سويا . تحررت
الروح من البطون المتخمة ، وهي الآن قادرة على الطيران .

والثفت الى شيخ كان يصغى اليه وقد استظل بشيء فوق رأسه
عاقدا يديه ، متكئا بهما على عصاه وقال له :

- يا أب كاريلوس ، ماذا لو انك سئلت منذ شهر ثلاثة مضت
أن تقسم ما تملك من كرم وأشجار زيتون بينك وبين الفقراء ؟ ترى هل
كنت تفعل ؟

وأجاب الشيخ

- أبدا وليغفر الله لي ، ترى هل كنتم تقبلون أن تقطعوا أيديكم
وأرجلكم وأحشاءكم وتتصدقوا بها على جيرانكم ؟ كان زيتوني وكرمي نفس
الشيء بالنسبة لي .

- وأنت يا أب بافليس ، لعل معاليك ماكنت لتقبل أبدا أن تفتح
خزائنك لتقتسم ما فيها من العملات الذهبية بينك وبين المعوزين .
وتجهم شيخ يقف قبالة القسيس ، ولم يجب . واكتفى بأن صعد
زفرة عميقة حين تذكر خزائنه .

وصاح القسيس فوتيس في ثورة مفاجئة :

- ان من يملك أرضا وأشجارا تصبح الأرض والأشجار هي ذاته .
وتفقد روحه صفتها القدسية . ومن يملك الخزائن تصبح الخزائن ذاته .
فأنت يا بافليس التعس ، لم تكن سوى خزانة مال ، وأنت يا كاريلوس
البائس لم تكن سوى قطعة أرض وحفنة من تراب حتى قبل أن يوافيك
الأجل . ولكن حمدا لله أن كتبت لنا النجاة ! ها أنتم أخيرا أيها الأغنياء
رأيتم بأعينكم وعرفتم معنى العرى والجوع ، ولمستم بأنفسكم عذاب
الفقير .

وتنهذ الشيخ بافليس وهو يقول :

- حقا عرفت .

واستطرد القسيس فوتيس قائلا :

- والآن سنمحو كل ما سبق . سيكون كل شيء قسمة بيننا . ان

يكون بعد الآن شيء أقول انه ملكي أو ملكك، لا حدود ولا أسوار ، ولا أقفال ولا خزائن . هنا سنعمل جميعا ، ونأكل جميعا ، وسيعمل كل منا قدر طاقته . سيذهب أحدكم للصيد من بحيرة فويداماتا ، ويذهب آخر للقنص ، وثالث يفلح الأرض ، ورابع يرعى الحيوانات التي سيمن علينا بها الله . نحن اخوة . أليس كذلك ؟ اننا أسرة واحدة ، ولنا أب واحد هو الله .

وبسط القسيس فوتيس ذراعيه لهم جميعا وصاح :

- لنرسي أسسا جديدة في قرينتا الوليدة ، وكذلك في روحنا . انها مهمة شاقة على النفس عسيرة ، ولكن أعينوني على ذلك يا اخوتي . العمل والصبر والحب - والايان بالله . . . ماذا فعل المسيحيون الأوائل ؟ كانوا يلتقون في المقابر تحت الأرض وأرسوا دعائم جديدة للعالم . وهذه الكهوف من حولنا في باطن الأرض هي المقابر التي سنلتقى فيها ، ونحن أيضا معنا المسيح . عرفنا الظلم وسوف نعيد الأمور الى نصابها . أى بترو ، لا تخشى شيئا يا بنى ، انس الماضي وامح آثاره من نفسك . لتعاون كلنا يدا واحدة من أجل بناء عالم جديد .

هبوا جميعا واقفين ، العزم والاصرار يملأ نفوسهم ، وتدافعوا حول قسيسهم .

وصاح القسيس ثانية :

- كلنا يد واحدة . . . كلنا يد واحدة ! تلك هي كلمة السر الجديدة وفيها خلاصنا .

وصاح الرجال والنساء وقد رفعوا أيديهم كأنهم يرددون القسم :

- كلنا يد واحدة

ورشم الشيخ كاريلوس علامة الصليب ، واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

- جعل الفقر منى انسانا ذا قلب كبير . اللهم أسألك أن تقينى شر الثراء ، فاني سأرتد سيئا كما كنت .

وصاح بترو ضاحكا :

- لا تخف يا أب كاريلوس . اعتمد علينا في ذلك فلن نسمح لك بالثراء !

وخلع القسيس رداءه الدينى ، وطواه ، ثم ناوله لامرأة عجوز
ضامرة عهد اليها بمهمة الخدمة فى كنيستهم .

وقال :

– اليوم الأحد ، وهو يوم الراحة يا أطفالى ، وغدا نبدأ العمل من
جديد . دعوا الصبية يلعبون الكرة ، وليجتمع الرجال ، يعقدون فيما بينهم
مجالس يتبادلون فيها الرأى ، وتلتقى النسوة ببعضهن يثرثن ، وتواسى
كل منهن الأخرى . أما أنا فيجب أن أصعد الجبل المقابل حيث ينتظرنى
هناك أصدقاؤنا أصحاب السلال . الى اللقاء يا أطفالى مع المساء ، كان الله
معنا .

وبعد أن فرغ من كلماته هذه ، تلقف عصاه وانصرف .

التف حول مانولى الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا . فتحوا
أمامهم الانجيل الصغير الذى أحضره لهم يا ناكوس فى ذلك الصباح .
وكانوا يتهيأون للقراءة .

ألفوا وجه مانولى المنتفخ ، وزايلهم ما كانوا يحسون به من فزع فى
بأدى الامر ، وواتتهم الجرأة على أن ينظروا اليه مباشرة ، دون شعور
باشمئزاز أو خوف . كان ياناكوس قد طلب من القسيس فوتيس ، على
غير علم من مانولى ، أن يأتبهم ويرى الغمة التى حلت بصديقهم ، ويبدى لهم
رأيه فيها . لقد رأى القسيس الكثير ، كما عانى الكثير فى حياته ، وعرف
كل آلام الجسد والروح ، ومن يدرى فربما يعرف دواء ؟ . . . ربما يحتاج
مانولى الى شىء آخر غير المراهم والعقاقير . وربما كانت هذه الغمة المفاجئة
راجعة لأسباب أخرى ، اذ قد تكون من عمل الشيطان ، فيطرد القسيس
بتعاويذه الروح النجسة .

وهكذا صعد ثلاثتهم فى ذلك اليوم الى الجبل ، كل يحمل هدية الى
الى صديقه المريض : ياناكوس الانجيل الصغير ، وقسطندى صندوقاً من
الحلوى التركية ، وميشيل أيقونة صغيرة تمثل الصليب ، وهى أيقونة عتيقة
جدا ورثها عن أمه ، ترى فيها المسيح على الصليب ، وقد رسم حوله عدد
لا يحصى من عصافير الجنة – لم تكن ملائكة وانما عصافير جائمة فوق ذراعى
الصليب ورأسه ، فاعرة حلوقها الصغيرة كأنها تشدو . . . وأزهر الصليب ،
اذ تحف به أزهار قرنفل صغيرة بدا معها كأنه شجرة لوز مزهرة ، والمسيح

المصلوب يبتسم وسط الزهور والطيور . وتحت قدمي الصليب مريم
المجدلية العاهرة ، وحدها ، حلت شعرها وهي تمسح الدم الذي يسيل
من قدمي المسيح .

جلس مانولى فوق المقعد الحجري أمام فناء الحظيرة ينتظرهم . غسل
شعره ، وارتدى ملابس يوم الأحد . كان يمسك بقناع المسيح الذى حفره
ينظر اليه حيناً من أمام وحيناً من يمين وحيناً ثالثاً من يسار ، ويتأمل
عينيه الباكيتين ، والقم المتألم ، والابتسامة الحزينة .
أخذ مانول الهدايا . قبل الأنجيل ، ونظر طويلاً الى أيقونة الصلب .
وتتمتم قائلاً :

– ليس هذا هو الصلب وانما الربيع .

ورنا الى المرأة الجائبة أسفل الصليب وشعرها الذهبى المتفرق ،
وتأوه .

وضع شفثيه عند قدمي المسيح ، ولكنه جفل بفتة فى هلع . خيل
اليه أنه قبل شعر العاهرة الأشقر وجيدها العارى .

وأخذ ياناكوس الأيقونة من يدي مانولى وقال :

– تعال يا مانولى ، افتح الانجيل واقرأ .

– ماذا سنقرأ يا ياناكوس ؟

– افتحه كيفما اتفق . وما استغلق علينا نناقشه حتى يبين

أخذ مانولى الانجيل ، وانحنى عليه يقبله ثم فتحه .

وقال :

– باسم الآب والابن والروح القدس .

وبدا يقرأ على مهل يحاول أن يفصل المقاطع .

• ولما رأى الجموع صعد الى الجبل . فلما جلس تقدم اليه تلاميذه .
افتتح فاه وعلمهم قائلاً طوبى للمساكين بالروح . لأن لهم ملكوت
السموات .

وقال ياناكوس مسروراً .

– هذا سهل . الحمد لله انى أفهمه . وانت يا قسطندى ؟

كان قسطندى فى ريب من أمره • فسأل :

— ماذا تعنى ؟ « المساكين بالروح » ؟

وفسر له ياناكوس

— كل أولئك الذين لم يتعلموا • كل أولئك الذين لم يذهبوا الى المدارس العليا ليجلوا أفكارهم •

وقال مانولى مصححا :

— لا ، ليس المقصود أولئك الذين لم يتعلموا • يمكنك أن تكون متعلما مثل الأب فوتيس وتدخل ملكوت السموات • ويمكن أن تكون جاهلا مثل المعجوز لاداس ولا تدخل • انها تعنى شيئا آخر يا ياناكوس • ماذا ترى يا ميشيل ؟

وعرض ميشيل رأيه :

— أولئك الذين لا يضررون السوء ، والذين يتحلون بعقول بسيطة نقية ، لا يتحذلقون وانما يؤمنون ، ونفوسهم مفعمة بالبراة والثقة ••• هذا ما أراه أنا • سنسال القسيس فوتيس •

وقال ياناكوس فى ضجر :

— ما بعدها ، فانها ستوضح ما سبقها • ماذا بعد •

واصل مانولى قراءته :

— « طوبى للحزانى لانهم يتعزون » •

وقال ياناكوس وهو يهرش رأسه :

— آه ، هذه أصعب من سابقتها • ما معنى « يتعزون » ؟

وقال قسطندى مفسرا :

— انه سيعزيهم ••• ولكن لمن العزاء ؟ ومن — من ؟ أنا لا أفهم •

وقال مانولى :

— أخالها واضحة لى الى حد ما : « الحزانى » هم البؤساء الذين يعانون فى حياتهم ، وأولى بهؤلاء ألا يرضنيهم الهى ، فان الله سيعزيهم ويواسيهم •

وقال ياناكوس الذى كان فى عجلة لمتابعة القراءة :

— وهذه أيضا يجب أن نسال عنها القسيس فوتيس ••• ما بعدها •

وقرأ مانولى :

« طوبى للودعاء • لأنهم يرثون الأرض » •
وصاح ياناكوس مزهوا :

— هذه على أية حال واضحة تماما ! ليبتهج الودعاء ، أى ذوو النفوس
الطيبة الرحيمة المسالمة • فهؤلاء هم الذين سيفوزون فى نهاية الأمر وتكون
الأرض لهم • أى لا يكون ذلك عن طريق الحرب وإنما ستكون لهم السيادة
على العالم بالحب • لتسقط الحرب • لتسقط الحرب ! كلنا اخوة !

وتردد قسطندى فى قبوله لهذا التفسير وتساءل :

— وماذا عن الأتراك ؟

ورد ياناكوس فى حماس :

— والأتراك بالمثل ، والأغا ، ويوسوفاكى وحسين والكل
جميعا !

وسأل قسطندى فى عناد :

— وأولئك الذين دمروا قرية الأب فوتيس !

وهرشى ياناكوس رأسه ثم قال :

— لا علم لى بهذا • سأسأل الأب فوتيس ••• اقرأ ما بعد ذلك !

« طوبى للجياع والعطاش الى البر • لأنهم يشبعون » •
وصاحوا جميعا :

— آه ، لعل هذه هى ارادة الله ، فاننا سنشبع بالبر •

ووقف ياناكوس مهتاجا وصاح :

— طوبى للجياع والعطاش الى البر ! هؤلاء هم نحن • كان المسيح

يتحدث الينا نحن يا اصدقاء • نحن الأربعة يا اخوتى جياع عطاش الى

البر • قلبى يكاد يطير فرحا ، كأنما المسيح التفت الى بوجهه وكلمنى

••• تشجعوا يا اصدقاء ! ••• اقرأ ما بعدها يا مانولى !

« طوبى للرحماء • لأنهم يرحمون » •

وقفز ياناكوس ثانية وهو يصيح :

— اسمع هذه يا أب بطرياركاس • اسمعها أيها الاكول الشريب ،

يا من ترفض أن تحيينا فى الطريق لاننا رحماء تصدقنا بأربع سلال من

الطعام على الفقراء ! اسمع هذه يا أب جريجوريس أيها الدنيء المسعور ،
يا من تطرد الجياع بعيدا عن مائدتك الحافلة بأطاييب الأطعمة واللحوم !
تملاً كرشك حتى تتخمه ، ولو انفجر لأغرق القرية كلها بما فيه من
نتن . اسمع هذه يا أب لاداس أيها البخيل العجوز ، يا من تأبى أن تقدم
كوب ماء لعطشان حتى ولو كان ملاكك الحارس ! برافو يا مشيل اذ لم
تشابهه أباك . ستدخل ملكوت السموات ، مع السلال الأربعة فقد كان
الطعام طعامك أنت لاطعامنا نحن ! ... ما بعدها .

« طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » .

وقال قسطندى :

— أنا أفهم معنى هذه الآية جملة ، وان كنت لا أفهمها تفصيلا .
فبعض كلماتها غامضة ، أو بالأحرى فان كلمة « يعاينون » هذه يستعصى
على فهمها ... ما المقصود بها ؟

وقال ياناكوس :

— معناها يشهدون الله . أولئك الذين لهم قلوب نقية سيشهدون
الله ... هذا كل ما فيها .

وقال قسطندى فى حيرة :

— انى لك علمك بتفسير كل هذا يا ياناكوس ؟ احسب أنك أوتيت
حكمة سليمان !

ورد ياناكوس :

— أنا لا أفسرها بعقلى أيها العجوز بل أفسرها بقلبي . قلبى هو
الملك سليمان ! استمر يا مانولى ... اقرأ ما بعدها !
« طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من
أجلى كاذبين . افرحوا وتهللوا . لأن أجركم عظيم فى السموات . فانهم
هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » .

وقال ياناكوس :

— أعد يا مانولى ، ولا تسرع من فضلك . اذ تبدو لى هذه الآية .
استغفر الله ، غامضة الى حد ما .

اعاد مانولى قراءة الآيات ثانية وقال :

— أخالها واضحة تماما . كل اعيان القرية واغنياؤها وكاذبوها

وخونها سيقتفون اثرنا يوما ما نحن الاربعة ، ويطاردوننا لاننا نقول
كلمة الحق . سيحرقون اتباعهم على الشهادة ضدنا . قد يذفوننا
بالحجارة ، بل قد يقتلوننا . ألم يفعلوا نفس الشيء مع الانبياء ؟ ولكن
يجب أن نسر لذلك غاية السرور يا اخوتي ، لاننا بذلك نهب حياتنا
محببة للمسيح . ألم يهب حياته محبة لنا ؟ هذا هو معناها .

وقال يهناكوس وعينه تتقد شررا :

— أنت على صواب يا مانولى . أخال القسيس جريجوريس يسير فى
المقدمة مثل قيافا ، ومن وزائه لاداس يصيح : أقتلوهم ! أقتلوهم ! فتحوا
خزائننا عنوة وقسموا ذهبنا بينهم ! وأكاد أرى الشيخ بطرياركاس —
لا تضيق بكلامى يا ميشيل — يقوم بدور بيلاطس ويقول : « أغسل يدي
من هذا ، اذ لا حيلة لى ، أقتلوهم ! » ولكنه فى أعماق قلبه مسرورا لاننا
تسببنا فى ازعاجهم . لم نتركه فى سلام يلتهم لحم خنازيره الرضع ،
وينشرب أطافره فى خادميه ويدعو الأرملة كاترينا الى بيته لتدلكه لانه —
كما يزعم — أصيب بالأم البرد ايه أيها للفجرة ، أيها البؤساء ، أيها
الباحثون عن المتعة ، إن عدالة الرب آتية ، انها آتية لا ريب فيها ، هاهى
مائلة حقا !

أسكرته الكلمات . فأطل على القرية ، وبسط اليها ذراعيه متوعدا ،
واستدار ، وفجأة رأى أمامه القسيس فوتيس فابتلع الكلمات فى
حلقة .

وقال فى ارتباك :

— عفوك يا أبانا ، ولكننا كنا نقرأ الانجيل والتهب قلبى حماسا .

كان القسيس فوتيس قد اقترب منهم وهو يسير على اطراف
أصابعه ، ولم يلاحظه أحد من الأصدقاء الأربعة اذ كانوا هائمين مع كلمات
الانجيل . وقف على مقربة منهم بعض الوقت ينصت لهم وعلى شفثيه
ابتسامة .

قال وهو يدنو منهم :

— سلاما يا ابنائى . كان الله معكم .

نهضوا جميعا متهللين ، وافسحوا له مكانا فوق المقعد الحجرى .
ولكن ما ان وقع بصر القسيس على مانولى حتى صاح :

— ما هذا يا طفلى ؟ ماذا أصابك ؟

وأجاب مانولى منكس الراس :

— عاقبنى الرب يا أبانا • لا تنظر الى • انظر الى الانجيل وفسره لنا •
كنا في انتظار قداسكم لتبصرونا به • كيف نفهم ولسنا اهل علم
وثقافة ؟ •

وأضاف قسطندى :

— ان عقلنا أشبه بجهاز قياس معوج • هيا يا أبانا لتقومه •
فقال القسيس فوتيس :

— انا الذى اساعدكم ؟ اولى بحكماء العالم جميعا ان يأتوا الى هنا،
يقفوا وينصتوا لكم حتى يتسنى لهذه المخلوقات التعسة أن تفقه أخيرا
كلمات المسيح • انت على صواب يا ياناكوس • الانجيل ليس كتابا نقرأه
بعقولنا ، فالعقل قاصر عن ادراك المعانى الشريفة السامية • الانجيل
كتاب نقرأه بقلوبنا • والقلب يعى كل شىء • فى يوم من أيام الأحد
يا ياناكوس ستأتى الى كنيستنا ، وسط المقابر التى نسكنها ، وتفسر لنا
كلمة الرب • لا تضحك فاننى أعنى ما أقول •

والتفت الى مانولى :

— كل الأوجاع يا بنى مصدرها الروح ، فهى التى تسوس البدن •
روحك مريضة يا مانولى ، وشفاء الروح هو دواؤك ، ثم يكون شفاء
البدن حتما •• ولكن لنتحدث سويا أولا • لماذا بعثتم فى طلبى ؟ كيف لى
ان اعينكم ؟ اطلبوا ما تشاؤون وأنا فى خدمتكم •• وبعد ذلك لى حديث
معك على انفراد يا مانولى •

وأجاب ميشيل :

— بعثنا فى طلبك يا أبانا بسبب مرض مانولى • قلنا لأنفسنا : « ربما
استقر على وجهه شيطان ، وقد تعرفون قداسكم رقية تطردونه بها •• »
وأضاف ياناكوس الى ذلك قوله :

— وثمة اشيء أخرى كثيرة يا أبانا لا أفهمها • اليس كل ما يصيبنا
هو من عند الله ؟ فلماذا حل ذلك بمانولى دون الأغا ، •• و لنقل مثلا
القسيس جريجوريس أو العجوز لاداس ؟ أى عدالة هذه ؟ أنا لا أفهم •
ثم استدار ناحية مانولى :

— لماذا لا تعترض أنت أيضا ؟ لماذا لا ترفع صوتك الى الله

تسأله ؟ أقنع أنت ببقائك هنالك عاقدا ذراعيك ، منكسا رأسك ، قائلا « الرب يعاقبني » . ماذا اقترفت ؟ لماذا يعاقبك ؟ تكلم واحتج فلست بسائمة ، وانما أنت انسان فاسأله . فهكذا يكون الانسان . . كائن حي يتكلم ويعترض ويسائل .

وقف القسيس فوتيس ومد ذراعيه ووضع راحته على فم ياناكوس . وقال :

– تجاوزت الحد في أسئلتك . انك ترفع صوتك عاليا جدا ياياناكوس . تسأل الله أن يهبط الى الأرض ، ويمثل أمامك ، ليقدّم لك الحساب . من أنت حتى تطلب من الله أن ينزل الى الأرض ؟ .
واجاب ياناكوس في هلع :

– أنا . . ولكنني أريد أن أفهم .

وقال القسيس فوتيس فرعا :

– تريد أن تفهم حكمة الله ياياناكوس ؟ ولكن الانسان ليس الا دودة ارض عمياء عند قدمي الله ؟ وهى لاشيء بالقياس الى عظمة الله سبحانه . ماذا تستطيع أنت أن تبلغ من حكمته ؟ أنا أيضا اعتدت في شبابي ان احتج واسائل مثلك . ولم أفهم . وذات يوم تحدث الى معلمى الشيخ في دير مونت آثوس وضرب لى مثلا . كان كثيرا ما يضرب الامثال ليحبر بها عما في نفسه . طيب الله ثراه .

قال لى :

– يحكى أنه كان فى سالف الأزمان قرية صغيرة تائهة فى الصحراء ، كان أهلها كلهم من العميان . ومر بهذه القرية ملك عظيم على رأس جيشه . كان الملك راكبا فيلا ضخما . سمع به اهل القرية العميان . وكان قد سبق لهم أن سمعوا الكثير عن الفيلة وتحرقت نفوسهم رغبة في أن يلمسوا هذا الحيوان الخرافى حتى تتكون لديهم فكرة عنه . وخرج عشرة من رجالهم ، ولنقل انهم اعيان القرية . توسلوا الى الملك أن يأذن لهم بلمس الفيل . وقال الملك : « أذنت لكم فالمسوه » لمس أحدهم خرطوميه ، وآخر قدمه ، وثالث بطنه ، وشب أحدهم على قدميه حتى يمس أذنه ، واعتلى آخر ظهره . وعاد العميان الى قريتهم مسحورين . وتزاحم حولهم بقية العميان من أهل القرية ، يسألونهم فى لهفة عن حقيقة هذا الحيوان الخرافى الذى يسمى بالفيل . فقال أولهم : « انه انبوبة ضخمة ترفع نفسها بقوة وجبروت وتلتف حول نفسها والويل

لمن تمسك به . وقال آخر : « انه جدار اشبه بجدار الحصن يغطيه
الشعر » وقال من لمس أذنه : « لا . لا انه ليس جدارا على الاطلاق ،
انه سجادة من صوف سميك نسجت بطريقة فجأة ، تتحرك كلما لمستها » .
وصاح آخرهم : « ما هذا الهراء الذى تنطقون به ؟ انه جبل شامخ
متحرك » .

وقهقه الرفاق الأربعة :

وقال ياناكوس :

– نحن العميان . أنت على حق يا أبانا . أسالك الصفع . انسا
نكتشف ظفر أصبع صغير من أصابع قدمه المقدسة ونقول : « الله قاس
كالحجارة » لماذا ؟ لأننا عاجزون عن أن نتجاوز هذا الحد » .

وقال ميشيل :

– ليس لنا أن نسأل . لا بد وان لله حكمة لا نعلمها حين ابتلى
مانولى . اننا فقط لا نراها لاننا عميان .

وقال مانولى وهو يرفع رأسه :

– ثمة رباط يجمع بيننا نحن الأربعة هذا العام ، وليس لأحدنا
أن ينفصل عن الآخرين . ومن ثم أرى ان من الملائم تماما لى أن أعترف
إمام الجميع ، حتى نحاول معا أن نتبين لماذا يعاقبنى الله ، وأعرف
كيف أبرأ مما أصابنى . . . انا نفسى أعتقد انه طالما ظل هذا الشيطان
مستقرا على وجهى ، فمعنى هذا اننى لم أتب بعد توبة نصوحا ، وأن
الله لن يقبلنى . . .

وقال القسيس :

– اى مانولى ، أنت على حق يا بنى . . هكذا كان المسيحيون الأوائل .
اعترفوا بخطاياهم قبل أن تربطهم رابطة الأخوة . حاولوا معا الاهتداء
الى طريق الخلاص . . . وها نحن باسم المسيح نصت لك يا مانولى .
لا تنس أننا جميعا خطاة ، وأن الرب الآن فى السماء يرانا ويسمعنا .

جلس مانولى فترة طويلة يستجمع شتات فكره . مرت أمام عينيه
حياته كلها – فقير معدم فى البيت ، ثم يتركه أبوه يتيما وتتولى خالته
ماندالينيا تربيته وذاق معها الأمرين ، وأخيرا عرف طعم الحلاوة والدعة
فى الدير ، معلمه ماناس بصوته الوقور الحنون يقص عليه قصص
القديسين فى صومعته هنالك فى تيبيد ، ويحدثه عن حياة الرسل على

شاطيء بحيرة جنيسارت ، وأخيرا المسيح المصلوب . . . اى بهجة كان يستشعرها آنذاك كأن ملكوت السموات تنزل الى الأرض . ثم ذات صباح أقبل الشيخ بطرياركاس عمدة القرية ومعه بطانته يملأون فناء الدير بغالا وسجاجيد حمراء وصيحات متهللة . . .

رفع مانولى رأسه وقال :

— لست أدري كيف أبدا يا أبانا . طافت حياتى كلها بخاطرى . .
عونك يا أبانا ، سلى وأنا أجيب . اسألونى أتم أيضا يا اخوتى .

وأجاب الأب فوتيس :

— لا تبحث عن بداية يا مانولى . ليس ثمة بداية ولا نهاية ! تكلم ، قل كل ما يرد على خاطرك . أغمض عينيك يامانولى ، ماذا ترى ؟ أجيب دون تفكير : ماذا ترى ؟

— « فى بيت القسيس جريجوريس . اجتمع الأعيان بكامل هيئتهم واتخذوا قرارا . حددوا لكل منا دوره فى أسبوع الآلام فى العام القادم . . لتمثيل السر الرهيب تحت سقف رواق الكنيسة . . يقترب منى القسيس جريجوريس ، يضع راحته على رأسى ويباركنى ، يقول لى : « اصطفاك الرب يامانولى لتحمل ثقل الصليب . . » وتناثر قلبى شعاعا » .

فتح مانولى عينيه ، كان جفناه يرفان وعادت أفكاره الى رفاقه .

ثم عاود حديثه قائلا :

— حقا ما أقول ، ففى تلك اللحظة تناثر قلبى شعاعا مثلما تناثرت زجاجة العطر التى كانت تمسك بها مريم المجدلية العاهرة وكسرتها عند قدمى المسيح . .

« وعندما كنت صبيا كانت تنوشنى خيالات كثيرة ، اذ اعتسدت قراءة حياة القديسين وكانت نفسى مولعة بهم . تمنيت أن أكون قديسا . . وعندما ذهبت الى الدير لم يكن يشغلنى هناك سوى شيء واحد : النساك . . كنت تواقا الى أن أذهب بنفسى الى تبييد ، زاهدا يا اخوتى ترون اننى منذ طفولتى وأنا ادين نفسى ، الشيطان يحاول أن يضرم النار فى قلبى وأنا أحترق بها . تجرات نفسى اذ رغبت فى أن تحدث المعجزات على يدى ، أنا أيضا ! أستغفرك يا ربى ! » .

« وبعد ان غادرت بيت القسيس جريجوريس احسست براسى
يطن . بدت لى القرية شيئاً ضئيلاً جداً ، لم تعد شيئاً أقنع به ، واننى
لم أعد مانولى : الراعى الوضيع عند الشيخ بطرياركاس ، الجاهل
البائس ، بل غدوت انسانا اصطفاه الله ليحمل رسالة عظيمة : عليه
ان يقتفى آثار المسيح ، وأن يتشبه به ! » .

وغمغم قسطندى :

— يا للجرأة المروعة . انت يا مانولى يامن اتصفت بالركة والتواضع . .

وقال القسيس :

— قسطندى ، يابنى ، ان قلب مانولى يفيض بمكنونه ، دعه
يفرغ ما فيه ، ثم لك أن تحكم بعد ذلك . .

وتتمم مانولى :

— اسألکم الصفح يا اخوتى . تملك فؤادى ابليس ، شيطان
الغرور . . انى خجل اذ اقول هذا ، ولكنى اعترف ، موطلا العزم على
ان أفصح عن كل شىء فى وضح النهار ، والله على ما اقول شهيد .

وقال القسيس :

— تكلم ، تكلم يا مانولى . لا تخجل . ان فؤاد المرء برزخ يعج
بالافاعى والضفادع والخنازير . افرغ قلبك حتى يتخفف مما فيه .

واستجمع مانولى شجاعته ثانية وقال :

وانتفخت اوداجى وتكبرت كتركى ، احدث النفس فى روحانى
وغدواتى مزهوا : « اصطفاك الله يامانولى ، أنت من اصطفاك الله !
حسنا ، وذات يوم — والفضل لك يا ياناكوس وانى اشكرك . . » .

وامسك بيد صديقه وكاد يقبلها ، لولا ان سحبها منه ياناكوس
فزعا :

— ماهذا يا مانولى ؟ تقبل يدى ؟ يدى انا ؟

وقال مانولى :

— نعم يدك أنت ياناكوس . لأنك أنت الذى فتحت عينى . .
وتبينت اننى مرأتى كذوب . وقلت لى ، باركك الله : « كذوب كذوب !
تريد أن تتشبه بالمسيح وانت تتهياً للزواج . . بعد أن تكون على الصليب
ستأتيك لينيو بالماء الدافىء لتغتسل به ، وتحضر لك ملابس نظيفة تغير
بها ملابسك ثم تأوى الى فراشك معها بعد أن كنت على الصليب . »

القي ياناكوس بنفسه بين ذراعى صديقه وهو يبكى :

— اغفر لى يا مانولى . انت لا تعرف اى شيطان كان يحرضنى
يومذاك . . فى يوم ما سأعترف انا أيضا ، وسترى كم كنت مقززا . .
القسيس يعرف .

اجلس القسيس ياناكوس وعاد يقول من جديد :

دعوه يا اخوتى يفرغ كل ما فى جعبته عساه أن يتخفف . تكلم
يا مانولى . لا بد وانك تستشعر الآن بعض الراحة .

— « وأنا اتحدث يا ابانا ، اشعر أن الكلام يخفف عنى . . ان
الاعتراف سر ، سر عظيم ! الآن قد استعدت شجاعتى ، ساكشف عن
كل شىء ، كل شىء ! » .

وضع القسيس راحته على كتف مانولى كأنما يريد أن يمد يده ببعض
القوة وقال له :

— اننا نصفى اليك يابنى ، تكلم يا ولدى !

— ثبت الى رشدى منذ تلك اللحظة التى فضح فيها ياناكوس حقيقة
مشاعرى عارية . ابصرت الهاوية ، وتوقفت . حدثت نفسى :
« الا تخجل يا مانولى ؟ اتحسب الصلب لهوا ولعبا ؟ اتتوهم أنك قادر
على أن تخادع الله والناس على هذا النحو ؟ تحب لينيو ، وتهوى
مضاجعتها ثم تريد أن تصدق أنك المسيح ؟ عار عليك أيها الدعى . تدبر
امرك أيها المرأى واختر أيهما ! ووطدت العزم منذ تلك اللحظة » لن
أتزوج ! لن المس امرأة ! سأظل طاهر الذيل ! » .
مرة أخرى لم يتمالك ياناكوس نفسه وصاح قائلا :

— قديس أنت يا مانولى ، هذا ما كنت أعتقده ، وصرحت به
يا مانولى .

وقال مانولى :

— انتظر انتظر . سترى ما يقف له شعر رأسك . لم أفرغ بعد من
سرد كل خطاياى . . اتخذت قرارى بالنسبة للينيو ، وحدث نزاع بينى
وبين سيدى ، وقصدت الجبل أنشد الحلوة بعيدا عن الغواية . قلت
لنفسى « هنالك فوق الجبل حيث الهوا نقىا ، سأندثر نفسى للمسيح(.
٠٠٠٠ ثم فى اللحظة التى تهيأت فيها لاتخذ طريقى صاعدا وكنت قاب
قوسين أو أدنى من الخلاص . . آه ويا للعجب . . هنالك عند بئر القديس
بازل ، عند مشارف القرية كان الشيطان ينتظرنى ،

وتنهذ مانولى • بدأ وجهه ينز ثائية ، ومسحه بمنديله • ظل واجما لفترة طويلة ، وبداه ترتجفان كأن بهما حمى .

وقال القسيس :

— تشجع يا مانولى فانى آثم كبير ، خطاياى تفوق خطاياك . سأعترف لكم يوما ما ، وسوف تقشعر أبدانكم فرقا • أنا ، هذا القسيس المائل أمامكم ، لطخت يدي بدم انسان • تملكنى الشيطان ذات يوم : كنت لا زلت فى ريمان شبابى ، وحرارة الشباب تسرى فى دمي • كنت راعيا ، ونزلت الى القرية لأحتفل بعيد القيامة مع بعض أصدقائى • وأخذت معى حملا لنشويه على السفود (كان الوقت ظهرا ، والأشجار مزهرة ، والأرض تتضوع عطرا • واتخذنا مجلسنا مع اهل القرية فوق العشب • أوقدنا النيران ، وتهيأنا لكى نشوى حملان عيد القيامة على السفود . وبدانا كما هى العادة بوضع سقظها فوق الجمرات حتى ناكلها أولا الى حين يتم الشواء • وأكلنا الكبد والأمعاء مزة مع كئوس النبيذ ، ومع الشراب اشتدت حميتنا • وبعد أن نضج الحمل طرحناه على ظهره فوق العشب ، أمسكت بسكين كبير وشحذته ، ثم هممت لأشق البهيمة • وفى هذه اللحظة عينها وسوس الى الشيطان بأن أصيح وأنا أفهقه عاليا : « آه ، لو أن ثمة قسيس هنا لقطعت رقبتة ! » كان الشيطان كما أقول لكم ، هو الذى حرصنى على أن أقول هذا ، وهو الذى تحدث بلسانى • ذلك لأننى قسيس ، وكنت أجل القسيسين • اعتدت كلما أبصرت أحدهم فى الطريق ان أهرول نحوه وأقبل يده • ولكننى قلت ذلك وبهذه الصورة على سبيل الدعاية ، فقد شربنا وانتشيننا • وإذا بفلاح يجلس الى جوارى مخمورا مثلى ، سمعنى وصاح بى ضاحكا : « ثمة قسيس وراءك • نفذ كلمتك ان كنت رجلا ! » واستدرت ، وأبصرت قسيسا ، فانقضضت عليه وقطعت رقبتة ،

رسم القسيس فوتيس علامة الصليب • وظل الجميع صامتين فى وجل • غاص كل منهم فى أعماق نفسه ، يبصر ذاته ويرتجف • • كم من جرائم القتل ، وكم من الفضائح ، وكم من الأعمال المشينة تضطرم فى أعماق نفوسنا ! اننا نلتزم الحير خوفا • تظل شهواتنا طوال حياتنا دفيئة مهتاجة محتدمة الأوار تسمم دمنا • ولكننا نكبح جماح النفس ، نخدع جيراننا ونموت كرماء فضلاء • لا نقترف اثما فى وضع النهار طوال حياتنا • ندعى الفضيلة خداعا ولكننا لا نخدع الله فالله خير الماكرين .

واخيرا قال ميشيل بصوت مخنوق تنكره عليه :

— أنا ، أنا أكثركم شرا يا أبانا ، اذا سقط أبى مريضا استشعر بهجة شيطانية . يهب شيطان بداخلي ويرقص طربا ، ذلك لأننى ضيق بأبى ، أراه عقبة فى طريقى ، وأتمنى له الموت . ليتمت — هذا الرجل الذى اتى بى الى العالم والذى أحبه ! لست أدرى كيف تكون نفس الشرير ، ولكن نفس الرجل الأمين ، الرجل الصالح هى الجحيم ! جحيم تسكنه الشياطين . ان كل من يخفى الشياطين داخل ذاته ، ويحول دونها والقفز الى خارجها لتقترب أفعالا منكرا ، ان تسرق أو تقتل ، كل هؤلاء نسميهم إناسا أبرارا ، ومسيحيين مخلصين . . . ولكننا جميعا فى أعماق نفوسنا ، أستغفر الله ، مجرمون وقتلة ولصوص !

واجهش ياناكوس بالبكاء . نظر هو الآخر الى أعماق ذاته فارتاع من هول ما رأى . ومد القسيس يده وقال :

— يا اطفالى ، سيأتى دور كل منا ليعترف . . الآن دور مانولى . لقد فتح لنا قلبه ، فاعلقوا قلوبكم . دعوه ينهى ما بدأ . . . تكلم يا مانولى . هل رأيت الآن ؟ هل فهمت ؟ كلنا أسوأ منك . أنا القسيس ، وميشيل الرجل البار المحسن ، وفخر قريرتكم !

مسح مانولى عينيه اللتين أغرورقتا بالدموع . واستجمع شجاعته ، وواصل حديثه :

— كان الشيطان جالسا يا اخوتى عند حافة البئر بيتسم لى : كاترينا الأرملة ، عاهرة قريرتنا . زينت شفيتها بالخضاب ، وفتحت بعض صدرتها ، وامتد بصرى حتى لمح حلمتى نديها ، وتدافع الدم الى رأسى ، وأصابنى دوار . تحدثت الى فى ضراعة ، ولم تكن فى نفسى رغبة الا فى شيء واحد فقط ، أن أهم بها وألقى بنفسى فوقها . لولا خوفا من الناس ، وخوفا من الله . . ففررت هاربا . . هربت من أمامها ولكننى أخذتها معى فى فكرى ودمى . ولم يفارق طيفها أحلامى ليل نهار . وتظاهرت بأننى أفكر فى المسيح ، كذب وبهتان ، انها هى من كانت تشغل فكرى .

وذات مساء أحسست اننى لم أعد أطيق صبورا ، واغتسلت ، وتمشطت ، وأخذت طريقى الى القرية . . كنت قاصدا الأرملة . حدثت نفسى قائلا : « اننى ذاهب اليها لأنقاذ روحها . سأحدث اليها وأهديها الى طريق الرب . . » كذب ! كذب ! كنت ذاهبا اليها متلهفا على مضاجعتها . ثم

وتوقف مانولى ثانية عن الحديث ، كان يلهث . التفتوا كلهم نحوه وتطلعوا اليه في حنان . تغير مانولى امام عيونهم . اذ كان يسيل من لحم وجهه المنتفخ سائل عكر يتجمع ويتجلط قطرة قطرة فوق شاربه ولحيته .

امسك القسيس بيد مانولى بين راحتيه ، يربت عليها ، وقال لينهى كلامه :

– ثم جاء الخلاص .. افهم الآن يامانولى . أدركت الآن الطريق الخفى الذى سلكه الرب لخلاصك . انها لمعجزة عظيمة يا اخوتى ! من ذا الذى يستطيع أن يرحم بالغيب ويظن بنفسه القدرة على معرفة السبل الخفية الغريبة التى يأتى منها الخلاص لأرواحنا ؟

ثم فجأة أكمل حديثك يا مانولى ، فقد نال منك التعب – ثم فجأة أحسست بوجهك ينتفخ ، يكسوه لحم مقزب ، ويصير جرحا كريها .. ليس بشيطان يامانولى هذا الذى استقر على وجهك . ان الله هو الذى الصق هذا القناع على وجهك لينجيك . انه كان بك رءوفا رحيفا .

وتمتم قسطندى :

– انا لا افهم شيئا . لا افهم شيئا .

وتمتم كل من الصديقين الآخرين :

– ولا انا .. ولا انا .

اما مانولى فقد ظل وحده صامتا يتنهد .

وربت القسيس فوتيس على يد مانولى ، كأنه يود لو استطاع أن يشاركه آلامه .

– كنت فى طريقك الى الهاوية يامانولى ، كنت على شفا هوة وتوشك ان تتردى فيها فثبت الله هذا اللحم على وجهك ليوقفك . كنت فى طريقك لتتترف اثما ، تدخل مخدع الأرملة ، ولكنك الآن كيف لك أن تتطلع اليها بوجه كهذا ؟ وكيف لها أن تتطلع هى اليك ؟ أحسست بالخجل فقفلت عائدا من حيث أتيت . وتحققت لك النجاة لحظة أن عدت ادراجك .

أخفى مانولى وجهه فى منديله الكبير . ولاذ بالصمت . كان صدره يهتز من أثر النشيج . وغمغم قائلا :

– الحمد لله .

ثم لاذ بالصمت ثانية .

نكس الأصدقاء الثلاثة رؤوسهم أيضا والهلع يقتلهم . اقتشعرت
أبدانهم ، اذ أحسوا أن الله يسد علينا السبل كليث يحاصرنا . تحس
أحيانا بأنفاسه ، وتسمع زئيره ، وترى عينيه الشاقبتين تخترقان الظلام .
ويبدو أن القسيس خمن ما يدور بخاطرهم . فقال لهم :

— يا اطفالي ، ثمة عين بداخلنا مفتوحة ليل نهار ترقبنا . وثمة
أذن مفتوحة في سويداء قلوبنا تسمعنا : هي الله .
وصاح ميشيل :

— كيف يتركنا الله نعيش على ظهر الأرض ؟ لماذا لا يقضى علينا
ويطهر الخلق ؟ .

وأجاب القسيس :

— لأن الله يا ميشيل صانع خزف ، يصنع مخلوقاته من طين .

ولكن ياناكوس أحس بصبره ينفذ .

— جميل جدا حديثك يا أبانا . ولكن معنا الآن رجل مريض . الا
تستطيع أن تضع يدك عليه وتصلي من أجله ؟ الا نستطيع نحن جميعا
أن نصلي معا وندعو الله الرحيم أن يشمل برحمته ؟

وأجاب القسيس فوتيس :

— مانولي ليس بحاجة الى صلاة مثل ما هو ليس بحاجة الى
تعاويد أو تمانم . ان صلوات الآخرين لن تجدى معه . فالخلاص يعمل
بداخله ليل نهار ، في بطء ودأب . ألم تروا يا اخوتي كيف تدخل الدودة
شرنقتها المحكمة الفلق وتختفي بداخلها اذا حل فصل الشتاء ؟ يتشوه
راسها وتصر فظة المظهر ، وتلبث في مكانها جامدة ، ويتم خلاصها رويدا
رويدا وسط الظلام وفي داخل أحشائها . اذ يختفي وراء كل هذا
القبج وبر خفيف ، وعينان براقتان ، وجناحان . وفي صبيحة يوم من
أيام الربيع الجميلة تثقب الشرنقة وتخرج منها فراشة . وهكذا يعمل
الخلاص بداخلنا وسط الظلام . . تشجع يامانولي ، سر على دربك ،
فوراء وجهك يكمن الخلاص . تشجع وكن على ثقة ! .

ورفع مانولي عينين ضارعتين تطلع بهما الى القسيس وساله :

— والى متى أنتظر يا أبانا ؟

— هل تتعجل يا مانولي ؟

وأجاب مانولى فى خجل :

— لا ، لا ، وقتما يشاء الله .

وقال القسيس :

— ان الله لا يتعجل أبدا . انه ساكن ، يرى المستقبل كأنه ماض ،
اذ انه يعمل فى نطاق الأبدية . المخلوقات الزائلة التى لا تدرى ماذا
سيحدث غدا هى وحدها التى تتعجل بدافع من الخوف والقلق . دع
الله يعمل فى صمت ، ولتكن مشيئته . لا ترفع رأسك ولا تسأل .
فكل سؤال خطية .

كانت الشمس فى منتصف طريقها ، تسقط اشعتها عمودية قطرة
قطرة فوق الرؤوس الحمسة المتدانية ، اذ اقتربوا من بعضهم البعض
فى مودة صامتة .

وفجأة صاح ناى نيكوليو فوق المنحدر الآخر للجبل ، طروبا ،
دفاقا ، شجيا . وقال ميشيل وعلى شفثيه ابتسامة :

— نيكوليو .. هو الآخر يقاسى ويحاول ان يخفف عن قلبه .

أرهفوا جميعا السمع وأنصتوا . كان لحن الراعى يتكلم ويضحك
ويرقص وسط هذا الهجير . واذا بفراشة مرقشة بلون برتقالى ترف
بجناحيها لحظة حول الرؤوس الحمسة ثم تهبط فوق شعر القسيس
فوتيس . خفقت بجناحيها ، ودست خرطومها بين الشعر الأشيب اذ
حسبته توتا شوكيا مزهرا . ثم طارت عنه وحلقت عاليا جدا واختفت
فى ضوء الشمس .

وبعد لحظات ارتفع صوت مانولى :

— يا أبانا ، يا اخوتى ، أسألكم الصفح ، وعسى الله ان يغفر لى !
انى آنس راحة الآن وكأن ثقلا عظيما قد انزاح عن قلبى . ها أنذا
بفضلك يا أبانا أرى وأفهم وأرضى ! أخال أوجاعى الآن كأنها صليب
أحمله ، وأصعد به راضيا مستسلما . وأعرف ان الصلب بعده القيام .
ترى هل ستكون لدى القدرة على حمل صليبي ؟ أعينونى يا أصدقائى
حتى لا أسقط !

ونفض الأب فوتيس وهو يقول :

— كلنا يد واحدة . كنت أتحدث هذا الصباح الى عشيرتى فوق
الجبل ، لأننا أيضا نصعد الجبل راضين مستسلمين وعلى كتفنا صليبا

الثقيل ، تتعثر ونشكو ونمل .. تحدثت اليهم وصحت بهم قائلا :
« كلنا يد واحدة ، فبذلك يكون خلاصنا ! » .

وقال ياناكوس :

– ولكن فى هذه الحالة فان الألم والمرض والحطيئة

فقال القسيس :

– وهكذا تستطيع الديدان داخل شرنقتها ان تتحول الى فراشات .
وتذكر ما كان يقرأه الأصدقاء الأربعة فقال لهم :

– « طوبى للحزانى لأنهم يتعزون » .

وقفز مانولى فى نشوة غامرة : فالقسيس سيفسر له الكلمة الصعبة

– يا ابانا . ما معنى « يتعزون » .

– أولئك الذين سيجدون السلوى . سيجدون دواء لأسباب

معاناتهم . . . أى طوبى لكل من يعانون لأنهم سينعمون برحمة الله

الواسعة . أما أولئك الذين لا يعرفون المعاناة فلن ينعموا بتلك البهجة

السماوية . انظروا اى خير قدسى فى المعاناة . . هل تعنى ذلك يامانولى ؟

ولكن مانولى اشتد به الاعياء فترك نفسه يسقط فوق كتف

ميشيل . اغمض عينيه واسترخى ثم اغفى واستسلم فى وداعة للنوم .

رفعه رفاقه فى حنان وأرقدوه على حصير ثم خرجوا فى هدوء .

وقال القسيس :

– تنزلت العناية الالهية على مانولى فى صورة نوم . لنتركه وحده

يا أبنائى فى رعاية الله .

وأخذوا طريقهم الواحد وراء الآخر ونزلوا صامتين ، القسيس

يتقدمهم ، حاسر الرأس ، وشعره الأشيب يرفرف فوق كتفيه .

قبيل المساء فتح مانولى عينيه فأبصر رجلا جالسا بجورا فراشه

يرقبه فى الضوء الكابى ، يحذق فيه بعينين ضاريتين مسجورتين متفرستين

فى حذر واستغراب . وكانت تفوح من فمه رائحة الحمر نفاذة قوية .

ابتسم له مانولى وقال :

– مرحبا بالأخ بانايوتى .

لم يجب بانايوتى . وانما مال براسه الضخم الأشقر فوق مانولى

يصدق فيه بعينه ، ويمط شفته السفلى ، فتكشف عن أسنان كبيرة صفراء حادة .

وسأله مانولى وهو يرتجف ، اذ حسب نفسه فريسة حلم كئيب .

— هل تريد منى شيئا ؟

فتح بانايوتى فمه بصعوبة . وخرجت كلماته مدغومة متعثرة :
— أنا هنا منذ ساعة منحنيا فوقك ارقبك .

واعاد مانولى سؤاله :

— هل ثمة ما تريده منى يا أخى ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟

وخار بانايوتى فى غضب :

— لا أستطيع أن أنظر اليك الا هكذا . . . لا أستطيع .

ثم قال على الفور :

— سيكون موتى على يدك يامانولى !

جلس مانولى على حصيره وقال :

— أنا ؟ أنا ؟ ماذا فعلت لك ؟

— فعلت أسوأ ما يمكن أن يفعله بى انسان ، عليك اللعنة . قتلت

فى نفسى كل بهجة عرفتها فى حياتى ، أنا الانسان التعس . لم أعد أطيق احتمالا . أيتك بهدية . انتظرتك حتى تصحو من نومك ثم أقدمها لك
— خذها .

ودس يده فى قميصه واستل سكيننا كبيرا ، ووضع على ركبتي

مانولى .

وغمغم قائلا :

— خذها ، خذها عليك اللعنة واقتلنى . ضع خاتمة لفعلتك التى

بدأتها ، انك ستعمل عملا طيبا . اقتلنى !

وصاح مانولى :

— بانايوتى ، أخى ، ماذا فعلت بك ؟ لماذا تتحدث الى هكذا ؟ أنا

أقتلك ؟ ،

وحاول أن يمسك بيده ، ولكن بانايوتى دفع ذراع مانولى بعيدا

فى هياج . وزار :

- « لا تلمسنى . دع كلماتك الرقيقة فانها تثير اشمئزازى .
اقتلنى . قلت لك ضع خاتمة لفعلتك التى بدأتها . ماذا أفعل بحياتى
الآن اقتلنى ! » .

واجهش مانولى بالبكاء .

وتمتم ثانية :

- « بانايوتى ، ماذا فعلت ، ماذا فعلت لك يا أخى ؟ »

وأجاب بانايوتى :

- لى أناس يصلون لحسابى . يتبعون كاترينا حيثما تذهب . ثمة
امراة عجوز تسكن بجوارها استاجرها . تتوارى وراء بابها ليل . نهار
ترصدها . رأتك فى ليلة قريبة تدخل بيتها مثلثما . مكثت معها ساعة
وبضع الساعة . ومنذ تلك الليلة ترفض كاترينا أن تفتح لى بابها ،
وهى دائمة البكاء ، هكذا قالت لى المرأة تبكى من ؟ من أجل من
عزفت عن الطعام وبدأت تذوى؟ من أجل من تابى أن تفتح بابها لى ؟ من
أجلك أنت ، أنت ، أيها المسخ ، يا من تعافك نفس كل من ينظر اليك ،
أنت ! أنباونى بحالتك التى صرت اليها ، وسرت لسماعى النبأ .
حدثت نفسى قائلا : « الآن تخلصت من هذا الوغد الذى يلعب أمامنا دور
القديس عندما تراه كاترينا ستشمئز لمراه وتتخلص منه . وهكذا
سأتخلص منك أنا أيضا » .

« ورغم هذا لم تخجل من ذهابك اليها وانت على هذه الحال ،
ومكثت عندها ساعة ونصف . أى سحر هذا الذى سحرتها به ، هه ؟
هاهى بدلا من أن تشمئز منك اذا بها لا تستطيع أن تسلك . تلطم
وتبكى منادية باسمك أنت أيها المجدوم القذر ! لا جدوى من ضرب
زوجتى كل يوم ، فلم يعد هذا يخفف عنى شيئا . أطأ ابنتى تحت قدمى
دون أن أستشعر راحة . أغلقت ورشتى ، وأدمنت الشراب ، وأصبحت
أهيم على وجهى فى الطرقات والصبية فى ذيل يقذفوننى بكلمة تحز فى
قلبى كأنها سكين وأنت تعرف هذه الكلمة تعرفها ! لعن الله
تلك الساعة التى نادانى فيها هذا القسيس ، ذو اللحية التى تشبه
لحية التيس ، بتلك الكلمة هناك فى حانوته القذر . فمنذ ذلك اليوم وأنا
محطم النفس .

- انى محطم النفس ، لم أعد أطيق احتمالا ، واتيتك مع المساء

بهذا السكين . قم يا مانولى ان كنت رجلا واقتلنى ! انى اقبل يدك ،
اقتلنى فى ذلك راحتى .

أحنى مانولى رأسه بين ركبتيه ولم يعد قادرا على أن يكتفم نسيجه .
وسأل نفسه :

— ماذا أستطيع أن أفعل . كيف لى أن أنقذ هذه الروح الضارية
التي تكابد الحب ؟

وصاح بانايوتى وقد جن جنونه :

— دع البكاء أيها الدمية . خذ السكين كما أقول لك ولا تخف .
لقد شحذتها جيدا وهالك عنقى فاقطعه .

ومد رقبته الطويلة الى مانولى .
وسأله مانولى :

— لماذا لا تقتلنى أنت ؟

وأجاب بانايوتى فى قنوط :

— أى خير لى فى قتلك ؟ ستزداد تعاستى ، سأخسر بذلك كاترينا
الى الأبد . قتلك لى فيه وحده خلاصى ، وسأخذك معى الى الجحيم .
وانخرط فى نحيب .

بكى كثيرا وهو يخور كما يخور العجل ، ورقبته لا زالت
مدودة .

وأخذه مانولى بين ذراعيه وهو يبكى مع بكائه وتحدث اليه قائلا :

— بانايوتى ، أسألك الصفع يا أخى ، أسألك الصفع ، لن أرها
بعد اليوم ، لن أقف بيابها ثانية لأدخل بيتها ، أنا الذى ساموت وتخلص
أنت منى . أنا ، أنا ، أنا ، أقسم لك . أنا الذى ساموت . الا ترى حالى
التي صرت اليها ؟ لقد تهرأ جسدى . أنا الذى ساموت يا أخى ، لا تبك .

ولكن بانايوتى استمر فى خواره . وانتزع رقبته فى عنف من بين
ذراعى مانولى ، وهب واقفا . وخطا خطوتين ناحية الباب وهو يترنج .
حاول أن يجتاز العتبة بيد أنه تعثر وسقط على الأرض سطيحا .

واندفع مانولى نحوه لينتشله ، ولكنه سبقه واعتدل واقفا . وسار
يترنج مخمورا للغاية حتى بلغ الباب وهو يخور .

وفى هذه اللحظة ظهر نيكوليو مع قطيعه • اندفع بانايوتى نحو الأغنام وأخذ يتعقبها ويقذفها بالحجارة وهى تجرى أمامه مدعورة •

وصاح نيكوليو فى غضب :

- ايه ، ايه ! دع أغنامى فى سلام !

ولكن بانايوتى أخذ يلتقط الحجارة من على الأرض ، يقذف بها

الأغنام وهو يسب ويلعن •

واستصرخ الراعى الصغير كلابه •

- عليه ••• عضوه ، عضوه •

وأخذت الكلاب تعدو وراءه ، ولسانها يتدلى من بين فكها •

اندفعت الكلاب نحو بانايوتى الذى أسند ظهره الى صخرة ليلتقط

بعض الحجارة الكبيرة ويقذفها بها • أهدقت الكلاب ببنايوتى وهى

تنبح ، وبدأ هو الآخر ينبح ، واندفع نحوها ، ولكن خائنه قدماء وخر

الى الأرض • تحامل على نفسه ليقف ، بيد أنه سقط ثانية • انقضت

عليه الكلاب المهتاجة ، نشب كلب أنيابه فى ساقه ولم يتركه يفلت من

بينها ، ووثب آخر فوق رقبتة وعض ذقنه : واصطبغت لحية بانايوتى

بلون الدم الأحمر •

وصاح نيكوليو فى ثورة :

- عليه ••• عليه •••

سمع مانولى الصياح والنباح، فخف مسرعا الى بانايوتى لنجدته •

كان الراعى الصغير يتطلع الى المشهد ضاحكا •

وصاح بماتولى :

- دعها يا سيدى ، دعها تأكله !

نادى مانولى الكلاب وأمسك بعضا وطردها بعيدا ثم استدار الى

بانايوتى ليأخذ بيده • ولكنه كان قد لاذ بالفرار ينزل المنحدر وهو

يصرخ •

اعتلى نيكوليو الصخرة المرتفعة ، ووضع راحتيه حول فمه وصاح

بأعلى صوته :

- يهوذا ••• يهوذا •••

• وردد الجبل صدى صيحته •

وصاح مانولى :

- أسكت • ألا تشعر بالأسى له ؟

وعاود نيكوليو صياحه وهو يقذف حجرا بكل ما أوتى من قوة :
- يهوذا !

كان الليل يزحف ، دهم سفح الجبل ، وأخذ يتقدم صاعدا الى قمته • وبدأت الظلمة تلف الكون • وربضت الكلاب عند قدمى نيكوليو تلعق جراحها • ووقف الكباش الكبير داسوس باليته الشحيمة عند مدخل المرعى • أخذ يصل بجرسه بطريقة أبوية ، وينتظر القطيع حتى يتجمع ثانية خلفه ليبدأ رحلة العودة الى الحظيرة •

عاد مانولى الى الكوخ • وأخفى السكين المسنونة تحت وسادته ، ثم علق أيقونة الصلب على الجدار فوق حشيته •

وتمتم قائلا :

- يا الهى ، ضع يدك على قلبه وامنحه الشفاء • هو أيضا يعانى ، وأنت صاحب القوة المكين ، ارفع عنه العذاب وهبه من لدنك العزاء !

جَرِيْمَةٌ قَتَلَتْ فِي الْقَرْيَةِ

انقضت أيام منذ أحد الاعتراف - كما أسموه فيما بعد - وهو اليوم الذي فتح فيه مانولى قلبه ، وتخفف مما يقفله .

كانت الشمس فى عليائها والأرض من تحتها تعملان معا فى توافق ودأب طوال هذه الفترة على انضاج الحب . يبست السنابل الممتلئة لبنا . وصبغ الحشخاش الحقول بلونه الأحمر . وجمعت الطيور المفردة شعرا وقشا وطينا لتبنى أوكارها . رقدت الأنثى فوق البيض بأسطة عليه جناحيها ، وجثم الذكر أمامها فوق غصن شجرة يبنى لها مشجعا . وبين حين وآخر يتساقط الرذاذ ، عزيزا بعد طول انتظار ، فينعش الأرض ببعض الرطوبة ، ولكن سرعان ما تعود الشمس إلى الظهور ، تطارد السحب لتواصل عملها القديم قدم العالم فى خدمة الناس الطير .

أكل الشيخ بطريار كاس وشرب ، وتشاجر أيضا : حينما مع لينيو التى استبدت بها رغبة مجنونة فى الزواج ، فأهملت أعمال البيت ، لتقضى كل وقتها فوق الجبل ، وحينما آخر مع ابنه الذى أقبل على القراءة كأنه شيخ من فضلاء المجتمع أو راهب فاشل .

كان يزجره قائلا :

- القراءة جعلت لعامة الناس والمدرسين ، أما ابن كبير الأعيان فقد

خلق حياة الترف والحمر المعتقة وزوجات الآخرين . أنت عار أسرتنا
يا ميشيل .

يراه يخرج بين حين وآخر لزيارة ماريوري خطيبته ، ولكنه
يعود كل مرة أكثر حزنا ووجوما . ويهز الشيخ رأسه في ازدرائه .
ويحدث نفسه : « اعتاد أبي أن يمتطي صهوة جواده ويطوف بالقرى حيث
يلقى عشيقاته . يعقل دابته في حلقة الباب ، وإذا أبصر الزوج مطية
أبي فانه يغير اتجاهه وينتظر حتى ينصرف أبي ثم يعود الزوج الى بيته .
وأنا أيضا كانت لي عشيقاتي ، اعتدت أن أذهب اليهن في هدأة الليل
كلص واستمتع بحظي من المجون . أما هذا الولد فله خطيبة أحسب انه
لم يلمس منها ، أستغفر الله ، أكثر من أطراف أناملها . كيف لها هذه
المخلوقة التعسة أن تحتل الذبول ، وصدرها المريض ؟ المرأة ريحانة
جميلة : اذا لم تعهد لها بالرى ، ذبلت . . يقينا ستنتهى سلالة بطرياركاس
الى مآل سيء ، لقد محيت معالمها ، انها على وشك أن تزول ! »

والعجوز لاداس لا يرى ياناكوس حتى يستوقفه ويقول له :

— هات يا ياناكوس الجنيهات الثلاثة ، هاتها بفوائدها ، والا فمن الخير
لك أن تعرف أيها الصعلوك أنني سأجبرك على بيع حمارك . أنا أيضا
فقر مسكين ، فلا تحاول أن تخرب بيتي .

وساعت لأحوال في بيت القسيس جريجوريس . مضت شهور على
القرية بغير زواج أو تعמיד ، ولم يستجب واحد من أهل القرية لداعي
الموت . وحفار القبور لا يبرح واقفا عئذ مشارف الجبانة يضع راحته فوق
عينيه يتطلع الى القرية ، فلا يبصر أحدا ، ويرهف السمع : وأجراس
الحداد خرساء .

وههم قائلا :

— ألن يفكر الشيطان في انتزاع روح واحد أو اثنين . سيقتل الجوع
اطفالي .

ولزمت الأرملة بيتها ، وأغلقت بابها عليها ، فلم تعد تفتح لأحد .
وبانايوتى يطوف ببيتها مخمورا ، يلقي بتهديداته عن يمين وعن شمال .
وتملك الفتية شهوة حارقة ، وما عاد أمامهم منفذ ينفسون به عن عنفوانهم
فبدأوا يتسكعون حول بيوت المحصنات من النساء .

وضج بالشكوى كل من لهم زوجات حسناوات :

– اللعنة على الأرملة ! تلعب الآن دور المرأة المحصنة ، وليس ثمة من يدفع الناس الآن عن بيوتنا . لم نعد نسمع سوى أغاني التشبيب تحت نوافذنا أثناء الليل وأطراف النهار . . أن شرف القرية في خطر !

وكل يوم يلتقى أهل القرية ساعة الأصيل في مقهى قسطندى ، بعد أن يكون التعب قد نال منهم كل منال فى نضالهم مع الأرض ، ومن أجل رفع الماء لرى الحدائق وبساتين الحضر خوفا من الجفاف . كانوا يدخلون النارجيلة ، ويتبادلون بضع كلمات قليلة فى اعياء شديد ، ثم سرعان ما يخيم عليهم صمت ثقيل . ولم يشأ الحظ أن يواتى القرية ولو بمجنون يلهو أهلها بمشاكسته ، ويضحكهم . بل ولا حتى بغراب أو شحرور يصفر كما يصفر الانسان ويعينهم على ازجاء وقتهم . لا شىء غير التلاقى كل مساء فى المقهى ، واليوم كالأمس .

كان بانايوتى أحيانا يمر بهم مخمورا تماما ، بيد أنه لم يكن مصدر راحة لهم ، وذلك لأنه شرس الطباع . اذا ما أثقلت عليه يلتقط الحجارة ويقذفك بها فى وجهك . ألم يحدث بالأمس فقط أن حطم نظارة ناظر المدرسة الذى تصادف وجوده فى المقهى ، وتلقى منه حجرا أصابه بين حاجبيه .

وكان الأغا بين الحين والحين اذا ما أصابه اكتئاب وألم به حنين غامض يدعو أهل القرية الى الرقص تحت شجرة السنار . ولكن كيف لهم أن يرقصوا بقلوب فارغة مكرهة ؟ ومن ثم كان رقصهم يفتقد البهجة . فسرعان ما يمله أهل القرية ، وينصرفون عنه ليدخنوا النارجيلة ويملاؤا المقهى بهمسات كظيمة . واذا سكر أحدهم أو كسرت ساقه أو وجد لصا فى بستانه ، يعلو الضجيج حول هذا الحدث ، ولكن للحظة قصيرة ، ثم سرعان ما يخفت الضجيج ، وترتد القرية الى صمتها الثقيل .

لكن ويالللهل ، فذات صباح جميل ، طلع على الناس خبر مروع ، سرعان ما تناقلته الألسن وطرق الأبواب يبذر الهلع : « وجد يوسف فى مقتولا فى مخدعه عند الفجر » .

وعندما أسفر الصبح ، انسلت من بيت الأغا مارثا ، جاريتها المعجوز . خرجت وجسمها يرتعد فرقا ، قاصدة صديقة حياتها الحالة ماندينيا .

وما ان أغلقت الباب وراءها حتى صاحت قائلة :

٠٠ هلكت القرية ٠٠ هلكت القرية يا عزيزتى ماندالينيا ؟ وجد
يوسوفاكى مقتولا ٠

٠ من ذا الذى جرؤ على قتله ؟ انك أيتيتينى بخبر كأنه الصاعقة
ستحرقنا جميعا ٠ من فعل ذلك يا عزيزتى ؟

٠ لم يكن فى البيت أحد مساء أمس : لا أحد سوى الأغا ويوسوفاكى
وحسين وأنا ٠٠ لا أحد سوانا ! أسرعى كى تنذرى المسيحيين ليأخذ كل
منهم حذره ، ويهرب كل من يستطيع منهم الهرب لينجو بنفسه ٠٠ فى
نفسى شكوك ٠٠ أشك ولكننى لست على يقين ، لذا لا داعى للكلام ٠

٠ وما ان فرغت من كلماتها هذه حتى انسلت عائدة مقوسة الظهر ،
تسير بمحاذاة الجدران الى أن دخلت بيت الأغا وأغلقت الباب بالرتاج ٠

٠ أمسكت العجوز ماندالينيا بمنديلها الأسود وخفت الى أهل القرية ،
تنتقل من باب الى باب تبذر الفرع ممزوجا ببهجة خفية مستترة ٠ هجر
الرجال أعمالهم وتجمعوا فى المقهى ليروا ما قد يحدث ٠ كانوا يختلسون
النظرات الى شرفة الأغا ٠ الأبواب والنوافذ كلها موصدة ٠ وبين الحين
والحين تتناهى الى سمعهم أصوات صرخات حادة عاتية أو طلقة مسدس
أو قعقة شئ يتحطم تحت الأقدام ٠ ثم يعود الصمت ثانية ٠

٠ والتقى الأعيان وشيوخ القرية فى بيت القسيس جريجوريس ، والهلع
يتملكهم ٠ وقلب الشيخ بطرياركاس يكاد يتصدع من الروع ٠

٠ طفق يقول وقد زادت تهتهته :

٠ اذا لم نعثر على القاتل فانا هالكون ٠ سيلقى الأغا بنا جميعا
فى السجن ٠ واذا كان مخمورا فربما يرسلنا الى المشنقة ٠

٠ وتهد العجوز لاداس :

٠ سيلزم كلا منا بدفع دية القتل ٠

٠ وقال ناظر المدرسة :

٠ سيغلق المدرسة والكنيسة ويضطهد سلالة الاغريق ٠

٠ وكان القسيس جريجوريس يذرع الفناء جيئة وذهابا ، ويحرك حبات
مسيبخته فى عصبية ٠ أحس وكأن القرية كلها معلقة برقبتة ٠ ظل يحدث
نفسه قائلا :

٠ أنا مسئول عن هذه القرية ٠ ائتمنى الله على أرواح أهلها ٠ أمرنى

سبحانه قائلا : « خذ حملاني وارعها ، اذن لا مناص من البحث عن القاتل ومعرفته .

طاف بكل أهل القرية يسألهم الواحد بعد الآخر لعله يهتدى الى قاتل هذا الغلام التركي اللعين ، ولكن دون جدوى . وتفكر وتدبر ولكن عبثا . . . الشيء المؤكد أن القاتل مسيحي ، فليس ثمة بالقرية سوى ثلاثة من الأتراك - الأغا وحارسه ويوسوفاكي ، ومن عداهم فهم مسيحيون : « الويل لنا لو كان القاتل مسيحيا ، ستضرم النار في القرية كلها وتعمها المذابح .

ووصل قسطندي مقطوع الأنفاس :

- الأغا يجول بناظريه بين البيوت ، يلوح بمسدسه ويطلق النار على كل ما تبصره عينه ، ويحطم كل ما تصل اليه يده في بيته - المقاعد ودمجانات العرقي والجرار - ثم يلقي بنفسه فوق جثة يوسوفاكي وينخرط في نواح وعويل . هذا ما أنبأتني به مارثا العجوز . .

وانفتح الباب مرة ثانية ودخل ياناكوس .

- خرج حسين الى الشرفة ونفخ في النفير .

وظهر ثالث :

- أرسل الأغا مناديا يجوس خلال القرية . انه الآن بالميدان ليعلن شيئا ما .

- ماذا يقول ؟

- لم أع شيئا مما قال يا ابانا . التقطت أذني بعض أسماء ولكنني لا أذكرها .

وزمجر الشيخ بطرياركاس وقد انتفخت عروق رقبته حتى تكاد تتمزق :

- اذهب الى الجحيم .

وقال القسيس جريجوريس أمرا :

- ليذهب أحدهم ويأتنا بالأخبار . اذهب أنت يا ياناكوس .

في هذه اللحظة ترامي الى سمعهم صوت المنادى يقترب . وهروا الجميع الى الباب وفتحوه . توقف المنادى عندهم مفترقا الطرق ، وتنحنح

ليجلو صوته ، وضرب الأرض بعصاه ، ثم اشرب بعنقه . وارتفع صوته متموجا كزمار رتيب . وفتح الجيران فرجة من أبواب بيوتهم خلسة :

– اسمعوا يا أهل القرية ، اسمعوا يارعايا ، افتحوا آذانكم واسمعوا جيدا ، أمر من الأغا : القسيس جريجوريس والأعيان : بطرياركاس ، ولاداس ، وحاجي نيكولا ناظر المدرسة ومعهم بانايوتى السروجى وشهرته آكل الجبس ويعرف أيضا باسم يهوذا ، عليهم جميعا أن يمثلوا فوراً أمام الأغا فى بيته . يجب على بقية الرعايا أن يلزموا جميعا بيوتهم . محذور التوجه الى الحقول ، كل منكم يلزم بيته وينتظر . اسمعوا يا رعايا ، اسمعوا يا أهل القرية ، ألا قد بلغت فاحذروا !

أوشك الشيخ بطرياركاس أن يخر الى الأرض منهارا ولكن أسنده قسطندى ، وأجلسه على الأريكة الحجرية . وخفت اليه ماريورى تهوى له . وارتقى لاداس على الحائط أصفر الوجه مثل الليمونة ، فأغرا فاه . أشفق عليه ياناكوس فدنا منه وقال له :

– تشجع يا سيدى يا عضو مجلس الأعيان . هل من وصية توصينى بها أنفذا لك ؟

نظر اليه العجوز نظرة بلهاء ، وسأله واللعب يسيل من فمه :

– هل هو أنت يا ياناكوس ؟ من أنت ؟

– طبعا هو أنا ، أنا ياناكوس البائع المتجول . كنت أسالك ان كان ثمة ما توصينى به لأحملة من اجلك .

ودبت الحياة فى عينى لاداس العجوز ثانية وقال :

– أيها التعس . هات الجنيهات الثلاثة والا فالويل لك منى !

دخل القسيس فى هذه الأثناء ، واضعا حول رقبته صليبه الفضى الذى نقشت على أحد وجهيه صورة الصليب ، وعلى الوجه الآخر صورة القيام . وكان ممسكا بعصاه الطويلة ذات المقبض المصنوع من الصدف . ووقف أمام أيقونة المسيح ، ورسم علامة الصليب . وتمتم قائلا :

– يسوع ربى ، هذه لحظة عصيبة ، أعنى وأعن المسيحيين . أبسط يدك المقدسة فوق القرية . أشدد من أزرى وقنى شر الهوان .

وخر راکما أمام الأيقونة ، وأخذ يحرق بعينيه فى وجه المسيح الهادىء الحالم .

وعاه يقول :

- أعوذ بك يا يسوع من شر الهوان .

ثم رسم علامة الصليب ثانية ، وخرج الى الفناء .

وقال بصوت يتصنع الوقار والهدوء .

- هيا يا اخوتي . تقدمنا يا شيخ بطرياركاس ، لا تنسى أنك عمدة القرية ورئيس أعيانها . سيد القوم ليس من يأكل ويشرب أكثر من غيره وانما من يتصدر قومه فى ساعة الخطر ليزود عنهم . وهذه هى اللحظة التى تثبت فيها انك سيد القوم حقا . تقدم وأنت يا شيخ لاداس لا تجلب العار الى القرية ، كن شجاعا! لاتبأكى أمام الأغا ، تماسك كرجل شجاع . نحن أبرياء ، ولكن اذا اقتضى الواجب أن نموت فداء القرية اذن فما أعذب الموت . أنا أيضا أحب متاع الحياة الدنيا ولكننى أؤثر عليه حياة السموات . نحن على العتبة الآن : الأرض من ورائنا ، والسماء أمامنا ، ولتكن مشيئة العلى القدير . أما أنت يا حاجى نيكولا فليس عندى ما أقوله لك . أفنيت حياتك تقص على الأطفال قصص أبطال الاغريق وشهداء المسيحية ، وحانت اللحظة التى ينبغى أن تذكر فيها كل ذلك وتثبته عملا . لا تدع تلاميذك ينظرون اليك فيرؤك ممتقع الوجه ، ترتجف فرقا . واجه الموت كبطل وشهيد ! هل نحن مستعدون يا اخوتي ؟

قال الشيخ بطرياركاس وهو يتحامل على نفسه لينهض :

- مستعدون . لا تجزع يا أبانا . الجسد فى خوف أما الروح . .

لا ، لن أجلب العار لاسمى .

واستعرض القسيس جريجوريس رفاقه : « الأب لاداس حزامه مفكوك ، وسرواله يوشك أن ينزل ، تعال يا ياناكوس ، اربط حزامه وشده الى خصره بقوة حتى لا يجعلنا سخرية أمام الناس » .

اقترب ياناكوس ، وشد الحزام بقوة حول خصر الشيخ لاداس الذى وقف رافعا يديه الى أعلى كطفل أسلم نفسه لمن يلبسه ملابسه .

ثم عاد القسيس وأصدر أمره ثانية :

- امسح له فمه أيضا يا ياناكوس لأنه يربل . الى اللقاء يا صغيرتى

ماريورى متمنيا لك الصحة .

وقال حاجى نيكولا :

- نحن رهوس القرية وان العالم كله لينظر الينا . هيا بنا باسم المسيح والاسكندر الأكبر !

ورسم كل منهم علامة الصليب قبل أن يجتاز العتبة • القسيس في المقدمة وخلفه الأعيان الثلاثة ، وفي المؤخرة ياناكوس وقسطندى •
وقال ياناكوس لقسطندى :

— لماذا بعث الأغا فى طلب بانايوتى المسكين هو الآخر ؟ ما شأنه هو بالأعيان •

— قيل ان هناك من رآه فى منتصف ليلة أمس وهو يطوف ببيت الأغا مخمورا ويصرخ متوعدا •

— ولكن ما علاقته هو ببيوسوفاكى ؟ انه يلاحق الارملة •

— أنى لى أن أعرف يا ياناكوس ؟ لقد فقد الأغا صوابه وهو لا يدرى ماذا يفعل • أبلغتنى جاريته مارثا أنه يهدد بأنه سيخرج الى القرية على ظهر جواده ويقطع رأس كل من يلقاه من الكفار • اللهم احفظنا •

كانت الأبواب تفتح خلسة ليشهد الناس أعيان القرية يتقدمون بيطة فى طريقهم الى بيت الأغا • وكان الجميع يرسمون علامة الصليب كأنما يمر بهم موكب جنازى •

وقال رجل عجوز :

— انى اغفر لهؤلاء الاعيان كل ما أكلوه أو اقترفوه فى حياتهم • ها هم الآن يدفعون ثمن كل هذا دفعة واحدة ، انهم يردون ديونهم •

كانوا يسرون فى تودة وتأن كأنما يودعون • وكان القسيس جريجوريس يتلفت حيناً الى باب فتح خلسة ، وحيناً يرفع رأسه الى نافذة ويقول :

— لا تخشوا شيئاً أيها المسيحيون • الله أكبر •

وتعلق الأب لاداس التعس بذراع الشيخ بطرياركاس ، وكان يقول له وقد أشرق بالدمع :

— يا سيدى الرحيم • كن بجانبى حتى تكون سنداً لى •

ورثى لحاله العمدة الشيخ ، فقال له :

— أخائف أنت ؟

وأجاب الأب لاداس بصوت واهن :

— نعم أنا خائف •

وقال العمدة :

- وأنا خائف مثلك ولكننى أظاهر بعكس ذلك . فهذا ما يقتضيه
واجبى .

وهز الشيخ البخيل رأسه دون أن ينبس ببنت شفة .
ها هم الآن يمرون ببيت الأرملة ، فتحت كاترينا الباب واستشعرت
رغبة فى أن تصرخ قائلة :

- « تشجعوا يا سادتى ، تشجعوا » ، ولكنها لم تجسر على ذلك .
لم يمرها أحد من الاعيان التفاتا . بل على العكس حثوا الخطى كأنهم
يجتازون دربا دنسا ، ووضعوا راحتهم على أنوفهم .
لم يتوقف غير ياناكوس وقسطندى :
وقال قسطندى :

- صباح الخير يا كاترينا . ألم تسمعى المنادى ؟ ادخلى ، وأغلقى
عليك بابك .

وسألها ياناكوس بصوت خافت :

- هل رأيت بانايوتى ؟ استدعاه الاغا أيضا .

وأجابت الأرملة :

- لم أره منذ زمن طويل يا جارى . ولكن لا بد وأنه يتسكع قريبا من
هنا . فقد سمعته يصرخ منذ هنيهة . كان فى جدال مع حسين الذى حاول
أن يقبض عليه .

وعاود قسطندى كلامه لها :

- ادخلى وأغلقى عليك بابك .

وواصلوا مسيرتهم . وعندما أشرفوا على الميدان ظهر ميشيل يعدو
نحوهم ، واقترب من أبيه .

وقال الشيخ :

- ميشيل ، وداعا يا عزيزى .

وقال الابن وهو ينحنى على يد أبيه يقبلها :

- تشجع يا أبت .

واستدار القسيس جريجوريس وقال :

- عد يا ميشيل الى البيت ، وأنتما أيضا ، ياياناكوس وياقسطندى ،

فانا سندخل عرين الأسد ، ولكن الله سيدخل معنا . لا تخافوا .

كان باب بيت الأغا مفتوحا على مصراعيه . وقال القسيس :

- باسم المسيح !

ثم خطا بقدمه اليمنى ليجتاز العتبة . وتبعه الآخرون . وزلت قدم
لا داس العجوز لكن العمدة الشيخ أمسك به .

كان الفناء الواسع مهجورا يغطيه البلاط والعشب . وبغلة الأغا
تطل برأسها من باب الحظيرة وهي تصهل . وكلب طويل الشعر يتمرغ في
الروث مد اليهم رقبتة ونبح نباحا عنيفا لكن دون أن يجشم نفسه عتاء
النهوض من مكانه .

وظهر حسين الحارس الخاص عند مدخل البيت ، ممتقع الوجه ، أحول
العين ، كانت ذقنه ترتجف ، وظهرت بشاربه خيوط بيضاء ، إذ أنه لم
يجد في ذلك اليوم فسحة من الوقت ليصبغه بالصبغة السوداء . كان
مرتديا زيه الرسمي كاملا كأنما اليوم يوم عيد . وتدلى سيفه الكبير من
حزامه الأحمر العريض .

وتجهم لمرآهم وعوى :

- اخلعوا أحذيتكم يا كفرة . الأغا ينتظركم .

وأقبلت مارثا العجوز الحدباء وأعانت الاعيان على خلع أحذيتهم ثم
صفتها أمام الباب .

وهمست لهم قائلة :

- تشجعوا يا سادة ، تشجعوا .

وتساندوا على بعضهم ، وارتقوا سلما خشبيا ضيقا حتى بلغوا القاعة
الكبيرة . كانت النوافذ كلها مغلقة بإحكام . فلم تستطع عيونهم أن تميز
شيئا في بادىء الأمر . ولكنهم استشعروا جميعا خوفا كأنما ثمة وحش
كاسر يقبع في ركن من الأركان يحدق فيهم بعينيه ويتهيا للوثوب عليهم .
وتشبث الشيخ لاداس وهو يرتجف بذراع الشيخ بطرياركاس .
وخطا القسيس جريجوريس خطوة الى الأمام ثم اتبعها بأخرى ، وعيناه
تبحثان في الظلام عن المكنن الذي يتربص فيه الأغا . كانت القاعة عبقة
برائحة العرقى والتبغ ، وتفوح فيها رائحة جسد بشرى عفن .

وفجأة دمدم صوت مروع كأنه الزئير انبعث من ركن قصى على اليمين :

- يا كفرة !

والتفتوا جميعا ناحية الصوت ، وتبينوا مكان الأغا . كان جالسا فوق

حشية كبيرة ، مسندا ظهره الى الحائط ، ومسدسة الفضى الكبير معلق بحزامه
وأمامه زجاجة كبيرة من العرقى .

وأجاب القسيس فى هدوء :

– طوع أمرك يا أغا .

وزأر الصوت ثانية :

– يا كفرن ! تعال يا حسين !

كان الحارس واقفاً بالباب ينتظر أوامر الاغا . خف اليه ، ووقف أمامه
يتلقى أوامره :

– هات سيفك وانتظر !

وبدأ القسيس يتكلم ثانية :

– سيدى الاغا . . .

ولكن الاغا لم يمهل حتى يتم حديثه :

– يا كفرن ، أحدكم غرس سكينه فى قلبى . حبيبي يوسف فاكى . .

ولكن صوته احتبس . خنقه انشيج . وجفف دموعه بحركة مهتاجة .
وملأ كأس العرقى وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة . وتنهذ ، ثم قذف الكأس
فارتطم بالحائط وتهشم وتناثرت شظاياها .

وصرخ :

– من الذى قتله ، هه ؟ لا يوجد فى القرية سوى الكفرة ، ومن ثم
فان قاتله كافر من بينكم . هل هو أنت يا بانايوتى ، أيها البهيمة السكير ؟

وانبعثت من خلفهم فى الركن المقابل صوت كأنه الحوار . فاستداروا
واستطاعت عيونهم أن تميز وسط الغبش بانايوتى الضخم ملقى على
الأرض موثوقا الى حلقة مثبتة فى الحائط . لا بد أن رأسه قد شج لأن ناظر
المدرسة الذى كان يقف فى المؤخرة أبصر الدم يقطر من جبهته ورقبته .

وعاد الاغا يخاطب الأعيان بصوت مثل النباح :

– سألقى بكم جميعا فى السجن . سأشنتكم فوق شجرة السنار
الواحد بعد الآخر كل صباح حتى أهتدى الى القاتل . سأبدأ بكم ، فالأعيان
أولا ثم أتبعكم بآخرين وآخرين وهكذا . . ثم يأتى دور النساء ، سأشنتهن
جميعهن حتى أفنى القرية عن آخرها . . هذا اذا لم تدلونى على القاتل .
هل تسمعنى يا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس ؟ هل تسمعونى

يا رعايا ماذا جنى حبيبي يوسف اكي حتى تقتلوه ، هه ؟ هل مس احدكم بأذى ؟ هل قال كلمة سيئة فى حق أحد ؟ كان يقضى وقته جالسا فى الشرفة يمضغ اللبان ويغنى . هل فعل بكم شرا يا كفره ؟ لماذا قتلتموه ؟

وعاود القسيس جريجوريس حديثه :

— أقسم لك يا أغا بالعلى القدير . . .

— اخرس . سأنتف شعر لحيتك شعرة شعرة ، أنت لن أشنقك ، سأضعك على خازوق أيها الخنزير المبطان ! ماذا فعل بك حبيبي يوسف اكي ؟ ثم انخرط فى البكاء .

وجعل الشيخ بطريار كاس من أن يترك القسيس يواجه العاصفة وحده فقال :

— يا أغا . تعرف يا أغا أننى كنت دائما ثابت الولاء لك . . .

وصرخ الأغا فى عويل :

— اخلق فمك يا خنزير . تركت لك الجبل على الغارب أيها الكرش الضخم . سأقطعك اربا اربا بسكين صدى . سأتسلى بتقطيعك أسبوعا كاملا حتى أمتع منك يدى . أنا واثق تماما أيها الكافر القدر أنت لست قاتله ، ولكن يغيظنى أن أراك حيا وحبيبي يوسف اكي ممددا فى الحجره المجاورة مقتولا سأقوم لأضرم النار فى القرية كلها ، لن أترك منها شبرا واحدا ، سأحرقكم معها يا سفلة .

ووقف الأغا مغيظا حانقا :

— من ذاك الذى يقف فى المؤخرة يا بطريار كاس ؟ دعه يرينى نفسه ؟

ارتعدت فرائص الأب لاداس حتى كاد يغشى عليه ، وتهته بالكلام :

— انه أنا يا أغا .

وعوى الأغا :

— آه . . . آه . . . سأقيم جنازا ملوكيا لحبيبي يوسف اكي . سأبعث فى طلب مقرنين من اسطمبول ليرتلوا له القرآن ، وسأشترى له شموعا من سميرنا ، وتابوتا مصنوعا من خشب السرو ليكون عطر الرائحة . . . وأنا بحاجة الى مال وفير لأوفى به كل هذه الطلبات . . . سأفتح خزائنك

يا منجم الذهب العتيق ، وأفرغ كل ما فيها من الذهب .. هل تعرف لمن
كنت تكهدس الذهب طوال كل هذه السنين ، هه ؟ لحبيبي يوسفياكى !

انهار العجوز لاداس وخر الى الأرض . وأجهش بالبكاء .

• الرحمة يا أغا . اقتلنى أولا قبل أن أشهد هذا الهلاك المروع .

ولكن الأغا كان يتحدث الى حاجى نيكولا :

• وأنت يا ناظر المدرسة ، تجمع صبية الروم لتفتح أعينهم .. أنت
ساقطع لسانك وألقى به الى كلبى . لماذا تبقون على قيد الحياة ، لماذا ؟ هل
تعيشون وحبيبي يوسفياكى ميت ؟ لا ، قلبى لا يحتمل ذلك . ان هذا
يقتلنى كمدا ! .. حسين ، هات السوط .

• وأسرع الحارس وأنزل السوط من على مشجبه وناوله للأغا .

• افتح الشباك حتى أرى وجوههم !

ورفع الأغا السوط فى هياج . ومع ضوء النهار الذى اتسلل من
النافذة ظهر وجه الأغا مجمدا ، طاعنا فى السن ، كالحا . ساعات قليلة من
الحزن غيرته تماما . وابيض شاربه وتهدل حتى أخفى شفتيه . وأخذ يقضم
أطراف شاربه بين أسنانه ويعوى .

وانهال بسوطه على الرعايا الأربعة يجلدتهم ، حيناً على الوجه ، وحيناً
على اليدين ، وحيناً على الصدر . وسرعان ما ارتمى الشيخ لاداس فوق
الأرض يتدحرج . ووطئه الأغا بقدميه ، ثم وقف فوقه حيناً يبكي ، وحيناً
يقهقه ، ثم انهال عليه ضرباً مبرحاً دون أن تأخذه به رحمة ، وهو يسب
ويعوى .

فاضت الدموع من عيني الشيخ بطرياركاس ، ولكنه زم شفتيه حتى
لا يسمع له صوت . واستند ناظر المدرسة الى الحائط رافعا رأسه ، والدم
يسيل من صدغيه وذقنه . والقسيس فى وسطهم عاقدا ذراعيه الى صدره ،
يتلقى ضربات السوط ويتمتم :

• يسوع ، يسوع ، أعوذ بك من الهوان .

وأرغى الأغا وأزبد ، وتناثر لعابه فوق وجوههم ، وأخذ يضرب هنا
وهناك كالمجنون . وأخيراً وبعد أن كلت ذراعه ألقى بالسوط بعيداً .

ثم صاح من جديد :

• الى السجن .. الى السجن . وغدا نبدأ الشنق .

ودنا من بانايوتى وبصق على وجهه وقال له :

— سأبدأ بك يا آكل الجبس .

ثم استدار الى حسين وقال بصوت مخنوق :

— آتنى بحبيبي يوسف اكي . . .

فتح الحارس بابا ، ثم سمع بعد قليل وهو يجر السرير المعدنى الصغير الذى وجد فيه الغلام عند الفجر غارقا فى دمه .

ارتقى الأغا فوق الجثة وانهال عليها تقبيلا وهو يئن ويتوجع .

فك الحارس وثاق بانايوتى من الحلقة ، والتقط السوط من على الأرض وطرق به فى الهواء ، ثم صاح :

— الى السجن يا كفرة .

وساق الخمسة أمامه وهم يتعثرون فوق الدرج .

★ ★ ★

جثم الرعب فوق القرية ، فأصبحت الطرقات مقفرة ، والحوانيت مغلقة . ودفن الرعايا نفوسهم داخل بيوتهم ، فلم تعد تسمع لهم همسا ولا تكليما . ينصتون للصمت فتتشعر منهم الابدان . وبين الحين والحين ينسل شبح من باب الى باب يهمس بالأخبار : لم يخرج الاعيان بعد . . . يقال ان هناك من سمع دوى طلقات مسدس . . . وبعد قليل تسرى اشاعة أخرى : زج الأغا بالأعيان فى السجن . . . نزل حسين الى الميدان وكان معه جبل وقطعة صابون ووضعها تحت شجرة السنار . . . ثم لا يلبث أن يحمل رسول نبأ آخر « الأغا يهدد باشعال النار فى القرية كلها اذا لم يعثر على القاتل ، وسيحرقنا معها .

احتضنت النسوة أطفالهن وصحن :

— لقد هلكنا . . . لقد هلكنا .

رنكس الرجال رؤوسهم يلعنون اليوم الذى ولدوا فيه رعايا .

والأم بنيلوب وحدها فقط هى التى ظلت جالسة تحت التكميبة تغزل الجورب هادئة غير مكترثة . سمعت من قال لها ان زوجها مقبوض عليه وأن الأغا سينشقه ، أو هكذا قيل ، فوق شجرة السنار وأنه سيمحو

القرية عن آخرها .. فهزت رأسها لحظة ثم حدثت نفسها في غير مبالاة :
« وهذا أيضا قدر مقدور .. » ثم انكبت على عملها تغزل الجورب .

• ولاذ ياناكوس بحظيرته يحدث حمارة :

— وأنت يا يوسوفاكى ماذا ترى فى كل ما حدث ؟ اننا فى ورطة ، وأخال
ان الأمور ستسوء أكثر وأكثر .. يقال ان الأغا سيحرق القرية ، وسيحرقك
معها يا يوسوفاكى .. مارأيك فى هذا ؟ ماذا لو انسللنا تحت جناح الظلام
نحن الاثنين ؟ اننا لا نعول أحدا ، لا اطفال ولا كلاب فما الذى يقعدنا ؟
ولكن اليس من العار أن نهجر القرية فى لحظة الشدة ؟ ما رأيك يا حبيبى
يوسوفاكى ؟ ليس لى من سميح غيرك أحداثه . أفضيت اليك بكل ما يدور
بخلدى . فما رأيك يا يوسوفاكى ؟

ودس الحمار رأسه حتى أذنيه فى مذوده ، وبدأ فكاه يعملان فى نهم ،
وصوت سيده يتناهى الى سمعه كأنه صوت نبح يفيض .. وظن أن ياناكوس
لا زال كعادته به يردد على سمعه كلمات التذليل ، فهز ذيله فى حبور .

ومع المساء بدأت الأبواب تفتح خلصة وتطل من فرجتها بعض الرؤوس .
كان ميشيل أول من فتح باب بيته . وصعد على الفور الى بيت القسيس
جريجوريس ليواسى خطيبته . وخرج قسطندى ليفتح مقهاه ، ولكن لحظة
أن وضع المفتاح لمح تحت شجرة السنار كرسيا وفوقه أشياء لم يستطع
أن يتبينها على البعد . اقترب منه ثم سرعان ما جفل فى هلع : حبيل
وقطمة صابون ! أعاد المفتاح الى جيب حزامه ، وقفل راجعا يسير بمحاذاة
الحائط .

كانت عادة الأغا فى مثل هذه الساعة من النهار ، عندما يبدأ الليل
يرخى أستاره ويسود الكون سكون حلو وديع ، أن يجلس الى شرفته واضعا
ساقا فوق ساق والى جانبه يوسوفاكى يصب العرقى ويشعل له الغليون .
أما هذا المساء فالأبواب والنوافذ مغلقة ، والشرفة مهجورة . كان الأغا يثن
وينوح . آه ما أقسى الأغنية المحببة الى نفسه وما أشد بطلانها : « الدنيا
والحلم شيء واحد .. » احتضن بين ذراعيه الجسد الميت الصغير . وحدث
نفسه قائلا : « لا انه ليس حلما ، أبدا ليس حلما .. » ثم أجهش بالبكاء .

ومسح حسين أيضا عينيه الحولوين ، وأخذ يروح ويجيء وهو يندب
وينوح بصوت خفيض : « حبيبى يوسوفاكى .. » ثم يرتعد خشية أن
يسمعه سيده . وكان بين الحين والحين يمسك بالسوط فى هياج وينزل الى

البدروم وينهال بسوطه فى ثورة وجنون ، ويعول على نحو ما يفعل
الأغا ...

وبعد أن يستشعر بعض الراحة ، يصعد ثانية ويطوف حول السيرير
المعدنى الصغير . وأحيانا يجد الاغا وقد مال فوق الجسد البارد لغلامه ، وراح
فى اغفاءة من أثر الحزن وشدة السكر . فينحنى هو الآخر فوق يوسفاكى
ويقبل فمه قبله حارة شهوانية ويعض بحرقه شفثيه المكتنزتين اللتين علاهما
الشحوب وان كانتا لا تزالان تتضوعان برائحة اللبان ، ثم يرمى على
الأرض يتمرغ فوقها .

وجلس القسيس جريجوريس فى زنزانته ، وهز بانايوتى ، وقال له :

— هل أنت الذى قتلت يوسفاكى يا يهوذا اللعين ؟ اعترف حتى ننجو
وتنجو القرية معنا ..

فقال آكل الجبس بصوت كأنه النباح وهو يمسح الدم الذى يسيل من
رأسه المشجوج :

— الى الجحيم جميعا ! ولتذهب القرية الى الجحيم أيضا .. كلكم وأنا
معكم .. ففهم ذلك شفاء نفسى .

وأسند الشيخ بطرياركاس ظهره الى الحائط وهو يلهث . وتمتم
بدوره :

— أنت الذى قتلته يا ملعون ، انه أنت ، أنت يا يهوذا .

وعاد السروجى يجأر قائلا :

— يا وغد . ما شأنى أنا به ؟

وسكت ولكنه كان يضطرم غيظا . فصاح ثانية :

— انها غلطتكم عليكم اللعنة ، جميعكم ! هذا القسيس القذر وانتم
أعيان القرية وناظر المدرسة . أنتم والأرملة التى تتأبى على الآن ولا تدخلنى
بيتها . أنتم جميعا .

ولم يلبث أن عاد يصرخ قائلا :

— أردتم أن تجعلوا منى يهوذا .. وها أنذا أصبحت يهوذا !

وعاود القسيس حديثه متكلفا الرقة :

- اعترف يا بانايوتى بأنك قاتله وسوف يغفر المسيح لك خطاياك .
كنت أنا المسئول حتى هذه اللحظة عن أرواح أهل القرية ، أما الآن فانك
أنت يا بانايوتى المسئول عنها . قم واعترف لتتقدم .
وهنا ضحك آكل الجبس ضحكة عالية ساخرة .

- بحق الشيطان انها لفكرة رائحة تلك التى أقنعتمونى بها الآن .
وَدَدت لو أننى كنت قاتله حتى أشرككم معى فى جريمتى ! ولكن سبقنى
اليها غيرى .. بوركت يداه ! .. سبقنى غيرى ! ولكن لا بأس ! سيذهب
معى الى الجحيم رؤساء الأعيان والقساوسة ونظار المدارس .
ورفع لاداس العجوز رأسه التى أدمتها ضربات السوط . وصر
بصوته :

- اسمع يا بانايوتى . اعترف وسوف أعطيك ثلاثة جنيهات ذهبا .
سأبيع حمار ياناكوس فهو مدين لى بها . سأبيع الحمار وأعطيك الجنيهات
الثلاثة .. هل تسمعنى ؟
بسط له بانايوتى يده بحركة استهزاء وقد تباعدت أصابعه الخمسة
وقال له :

- خذ أيها البخيل العجوز ، هاك خمسن جنيهات .
فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الأغا . وصرخ :

- يا كفرة . غدا موعدكم مع المشنقة . أعددت الحبل والصابون
والكرسى تحت شجرة السنار . عدا الأربعاء ، سأبدأ بأحقركم شأنا :
بانايوتى آكل الجبس . وموعدك أيها البخيل القذر يوم الخميس .. وأنت
أيها الناظر موعدك الجمعة يا أعلم العلماء . والسبت موعدك يا صاحب
الفخامة ، أيها الوغد باطرياركاس . والأحد موعد القسيس ، ساعة قداسك
أيها الكلب القذر . وهذا يكون المجموع خمس رقاب . ولقد أعددت لكم
خمس حبال تنتظركم تحت شجرة السنار . هذه هى الوجبة الاولى .
وبعدها سأصطاد خمسة آخرين ، أول من تقع عليهم يداى . ثم يأتى بعدهم
غيرهم وغيرهم وهكذا .. حتى أعثر على القاتل ، لن أدفن حبيبى يوسوفاكى
ولن أسبل جفنيه ، بل سأضعه تحت شجرة السنار حتى تنعم روحه
بمراكم .

وبما ان فرغ من كلماته هذه حتى خرج وصفق الباب وراءه بقوة
وغضب . وأبصر حسينا ينتظره ممسكا بالسوط . فقال له :

- حسين ، أتبكي أنت أيضا يا صديقى المسكين .. ككف دموعك ، فلا يليق بنا ان يرانا الكفرة نبكى . اذهب وائتنى بياناكوس البائع المتجول ، مره أن يخف الى المدينة ويشتري لى بخورا من أجود أنواع البخور وأغلاها نمنا ، وشموعا ، وقماشاً من الجوخ الأسود ، وكمكا . قل له أن يحضر لى كل هذا غدا صباحا مع أول النهار .. آه ، وايضا حزمة من الحبال الغليظة ، لأن القسيس التيس ضخم الجثة ثقيل الوزن ، وهذا الشيخ بطرياركاس أضخم منه وأثقل وزنا .. اذهب .

وطرق حسين باب ياناكوس بقوة وعنف ولكن عبثا . كان ياناكوس قد غادر بيته قاصدا الجبل ليحذر مانولى من النزول الى القرية والا قبض عليه .

* * *

فرغ مانولى من حلب النعاج ، ووضع قدر اللبن فوق النار . وجلس نيكوليو بجواره مسلحا بملعقة خشبية كبيرة ، يحرك اللبن ، ويدندن بلحن . كان مانولى يعجب لمساعدته ، فهو دائما خفيفا نشطا صافى المزاج ، وكثيرا ما كان يسأله : لماذا أراك يانيكوليو دائم الغناء ، تشب هنا وهناك مثل الجدى ، لا يطمئن بك مكان كأنما ضاق عليك الجبل ؟

ويجب الراعى الصغير :

- هل نسيت يا مانولى أننى فى الخامسة عشرة من عمري ؟ لماذا لا تتوقع اذن أن يبدو العالم صغيرا جدا فى ناظرى ، ولا يطمئن بى مكان ؟

ولكن لينيو لم تكن فى عينيه صغيرة جدا . اذا ما سعدت اليه خلصة لتلتقى به فوق الجبل كان نيكوليو يرتدى بين ذراعيها ، وتضمه اليها ، ويتمنى لو لم تخله أبدا .

غلى اللبن ، وها هو مانولى جالس الآن بجانب الموقد ، يقرأ فى الانجيل الصغير ، ويقلب صفحاته على ضوء اللهب .. كانت هذه هى متعته الوحيدة ، وكثيرا ما كانت تستعصى عليه معانى بعض الكلمات ، بيد أن قلبه يهتدى الى تأويلها ، فتفيض معانيها واضحة فى يقين ، وتسرى الكلمة المقدسة فى عروقه بردا وسلاما كأنها ماء يفيض من نبع .

أى الهام قدسى كان يستشعره ، وتهيم معه روحه وجدا . يخال كأنما كشف عهه الحجاب فشهد المسيح لأول مرة وسمع صوته . أحس وكأنه شهد المسيح حقا ، يرنو اليه بعينيه ، ويتحدث اليه بصوت هادىء

حنون يأخذ بالألباب ، يقول له : « اتبعنى ! » ومنذ تلك اللحظة سار مانولى فى سكون ونشوة غامرة وراء المسيح ، حينما فوق عشب الجليل الأخضر ، وحينما على الشاطئ الرملى لبحيرة جينيسارت وحينما ثالثا فوق الطرق الحجرية لليهودية . . . ومع الغسق يستلقى عند قدمى المسيح تحت شجرة زيتون . يرقب من خلال أوراقها الفضية النجوم المرتعشة ، ما أبدع الوجود فى صحبة المسيح ، السماء زاهية عميقة ، والهواء صاف عليل كروح نقية ، والأرض تتضوع مسكا .

وذات يوم ذهبوا سويا لحضور عرس فى قرية كنعان . دخل المسيح البيت فى لباس عرس . وابتهج الحاضرون لرؤيته ، وعلت وجوههم حمرة خجل كعدارى مخطوبات . ونهض العروسان ، وتبادلا قسم الزواج ، ثم تربع الضيوف فوق الحشايا ، وشرعوا يأكلون ويشربون . ورفع المسيح كأسه يبارك العروسين ، وتكلم كلمات قليلة بسيطة واضحة ، ولكن أحس معها العروسان فجأة أن زواجهما سر عظيم ، وكان الزوجين ، الذكر والأنثى هما العمادان اللذان تقوم عليهما الأرض فيمنعاهما من السقوط . . . كان الحفل بهيجا صاخبا ، وفرغت الكئوس من خمرها تنشد المزيد . والتفتت أم المسيح الى ابنها وقالت له : « يابنى لقد فقد الخمر . . . » واعتملت فى صدر المسيح قوة جبارة ، وعلى الفور بسط يده ، وأمر الطبيعة أن تغير مسارها . ونهض المسيح من مكانه متأنيا كواحد من فراخ النسور يجرب جناحيه الصغيرين لأول مرة للطيران ، ويرف بهما فى خوف وحذر ، وخرج الى الفناء ، وانحنى فوق جرار الماء الست ، وتطلع الى وجهه فوق صفحة الماء فيها . وما أن انعكس على صفحاتها وجه المسيح حتى استحال خمر . ثم استدار المسيح لمانولى الذى تبعه ، وابتسم له . . .

وتذكر مانولى يوما آخر ، خرج فيه مع المسيح . كان القيظ شديدا . وتجمع آلاف البشر على شاطئ البحيرة . وركب المسيح سفينة ، وتبعه فيها مانولى . وأودع مانولى قلبه الكلمة الطيبة ، واستقرت فيه كحبة قمح . . . وأحس مانولى كأن قلبه أرض طيبة تبذر فيها الحب فيخرج نبتة ، وتكون النبتة نصلا ، والنصل سنبل ، والسنبل خبزا محفورا عليه بخطوط عميقة صليب كبير .

وفى يوم ثالث طافه خلال حقول القمح . كان الوقت ظهرا ، وأحسا بالجوع . مد المسيح يده وقطف سنبل . وقطف تلاميذه كل منهم واحدة ، وكذلك فعل مانولى . وبدأوا يأكلون ما فيها من قمح حبة بعد أخرى . ما اطعمها هذه الحبات الحضراء التى تفيض لبنا ، لقد أشبعت الجسد والروح

وفوق رؤوسهم زقرزت العصافير ، واقتفت اثر المسيح كانها بعض تلاميذه .
وتحت أقدامهم تناثر النوار بديعا زاهيا على نحو لم يعرفه سليمان في كل
معجده .

ودعاهم أحد الفريسيين الى بيته . فوقف مانولى عند الباب يرقب
ما حوله . لم يستقبل الفريسي المسيح بما هو أهل له من التمجيد . لم
يفسل له قدميه ، ولم يسكب العطر على يديه وشعره ، ولم يقبله قبلة
السلام . . . ويا للعجب ، فبينما هم يأكلون فى صمت ، تضوع الجو عطرا .
لقد دخلت امرأة عارية الصدر ، شقراء الشعر ، تحمل بين يديها صندوقا
من المرمر مملوءا عطرا . ما ان وقع بصر مانولى عليها حتى توجس خيفة . .
ترى من تكون تلك المرأة ؟ سبق له أن رآها فى مكان ما ، ولكنه لا يذكر أين
كان هذا اللقاء . وجثت المرأة على ركبتيها عند قدمى المسيح ، وكسرت
الصندوق ، وسكبت ما فيه من عطر فوق القدمين المقدستين ، ثم أرسلت
شعرها ، ومسحت به قدمى المسيح وهى تنتحب . . . ومال عليها المسيح
ووضع يده المقدسه فوق الشعر الأشقر ، وقال بصوت عذب حنون :
« مغفورة لك خطاياك يا أختاه ، لأنك أحببت كثيرا . »

فاض قلب مانولى ، وأغلق الانجيل الصغير . كانت النار لاتزال
موقدة ، تتراقص السننتها جذلة ، والكوخ تسوده عتمة زرقاء ونيكوليو
يروح ويجيء يدندن بأغنية وقد انهمك فى اعداد الطعام .

كان قلب مانولى يفيض حبا وحنانا وسعادة . أحس بعواطفه الجياشة
تفوق طاقته ، ولا بد أن يقاسمه العالم فرحته . واحتدمت فى نفسه رغبة
عارمة فى أن يخرج الى الدنيا ليبلغ الكلمة الطيبة للناس والحجارة والماشية .
فصاح :

— ايه يانيكوليو . دعك من الغداء وتعال اجلس الى جانبى . يجب أن
تسمع أنت أيضا كلمة الرب لتكون انسانا كاملا . فلست حتى الآن سوى
وحش برى .

استدار الراعى الصغير ، ونظر الى مانولى وانفجر ضاحكا :

— لا حاجة بى اليها يا شيخ مانولى . دعنى وشانى فانى قانع بما أنا
فيه . . هل تريد أن تعكر صفو مزاجى ؟

— ساقرا عليك بعض آيات الانجيل لتلمس بنفسك ما فيها من طلاوة

— لك ذلك اذا مرضت ، أما الآن فلا حاجة بى اليها كما قلت لك . .
لقد أعددت الطعام ، تعال لتاكل .

– لست جوعانا • كل أنت •

بعد هذه الكلمات فتح مانولى الانجيل الصغير ثانية ، وانحنى عليه قرب النار وبدأ يقرأ •

« ان اراد احدكم أن يأتى ورائى فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى فان من اراد أن يخلص نفسه يهلكها • ومن يهلك نفسه من اجلى يجدها • لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه • »

أدرك مانولى معنى هذه الآيات بوضوح تام • وأغلق الانجيل ، وأغمض عينيه أيضا – •• آه ، النفس فى كفة والعالم كله فى الكفة الأخرى ، لكن النفس أعز قيمة وأكبر وزنا • اذن لماذا الخوف من الموت ؟ لماذا نذل أمام سطوة الارض ؟ لماذا تقشعر أبداننا اذا ما خطر ببالنا أننا سنخسر الحياة الدنيا ؟ لماذا الخوف ولنا روح خالدة ؟ وهى أحق بالخلاص •

كان ياناكوس واقفا بالباب منذ لحظة يرقبه • لم يلمحه احد • كان نيكوليو يوليه ظهره منكبا على طعامه ، يأكل بنهم لعل الطعام يمنحه القوة اذ ربما تأتى لينيو هذا المساء •• من يدري ؟ وهو بحاجة الى القوة لتكون له زادا فى صراعه معها • وكان مانولى مغمض العينين ، هائما فى سعادة تجل عن الوصف •

وحدث ياناكوس نفسه قائلا :

– ان روحه هائمة فى الفردوس • اذا لزمت الصمت فلن يخرج منها • ليس لى الا أن أتحدث اليه •

واجتاز العتبة وهو يصيح :

– ايه يامانولى ، مانولى • طبت مساء • انى سعيد برؤيتك •

وثب مانولى مدعورا لسماعه صوت بشر •

فتح عينيه ، وحملق بهما وسأل :

– من هناك ؟

– هل نسيت صوتى يامانولى ؟ أنا ياناكوس •

– معذرة يا عزيزى ياناكوس • كنت غائبا عن الوجود • لم أدرك أنه

أنت • أى ريح طيبة ساقطت الى هذه الساعة فوق الجبل ؟

– بل هى ريح سموم يا مانولى • أنت تعيش فى الفردوس ، وأنا

– استغفر الله – آتيك بأخبار من الجحيم •

— نعم ، عن القرية • وجد يوسف اكي هذا الصباح مقتولا • وجن جنون الأغا : ألقى القبض على القسيس جريجوريس والاعيان وبانا يوتى • زج بهم فى السجن • وغدا موعدهم للشنق الواحد بعد الآخر • علقتم الجبال بشجرة اسنار • عقد الأعا عزمه على ان يبدأ غدا بشنق بانايوتى المسكين ، كما هى العادة دائما •• ويقول انه سيتبعهم بآخرين وآخرين وهكذا •• سييذر الموت فى القرية حتى يهتدى الى القاتل • حل الدمار بالقرية فلا تسمع فيها غير النواح • الابواب موصدة • انا هالكون • أتيتك يامانولى كى أنبتك بالخبر حتى لا تنزل الى القرية خشية أن يقبض عليك • أنت هنا بأمن ولا ريب •

لمع وميض فى عينى مانولى • قال لنفسه : « واتتك اللحظة التى تثبت فيها أن روحك خالدة ! » ولكنه حرص على اخفاء سروره • كان يصغى الى صديقه وهو يتحدث اليه لاهتا ، بينما لا يفتأ يكرر بينه وبين نفسه • ها هى ذى اللحظة المواتية ، ها هى ! اذا أفلتت منى فقد خسرت خسرا نا ميينا •

وسال :

— هل أكلت يا ياناكوس ؟

— لا يامانولى ولكننى لست جوعانا •

— وأنا ايضا لم اكن أشعر بالجوع • ولكن الشهية تأتى مع الاكل • سنأكل معا ونحن نتكلم • وسوف تنام الليلة هنا • وغدا عندما يطلع النهار باذن الله ، نرى ما قد يكون •

وتطلع ياناكوس الى صديقه مشدوها :

— كيف تتكلم يا مانولى بمثل هذا الهدوء الشديد ؟ ألم تفهم

ما أقول ؟ قرينتنا فى خطر •

وأجاب مانولى :

— أعرف القاتل • لا تخف فلن تهلك القرية •

وأسقط فى يد ياناكوس • وقال :

— تعرف القاتل ؟ وكيف كان ذلك ؟ من هو ؟ من ؟

وقال مانولى وهو يبتسم :

• لا تتعجل • لماذا العجلة؟ غدا تعرف كل شيء • • اصبر قليلا • لناكل
الآن ونتحدث سويا ثم ننام • ستسير الامور سيرا حسنا باذن الله •

ثم صاح قائلا :

– ايه يانيكوليو • افسح لنا مكانا • فنحن جوعى مثلك !

تربعا على الأرض ، ورسمنا علامة الصليب وأقبلا على الطعام • كان
ياناكوس يرفع عينيه بين الفينة والفينة يتطلع بهما الى مانولى • انه يستطيع
أن يميز من خلال هذا اللحم المتشقق الذى يغطى وجهه عينين غائرتين تلمعدن
فى هدوء وسعادة •

وحدث نفسه :

– لا أفهم شيئا • • لا أفهم شيئا •

جثم عليهما صمت ثقيل ضاق به ياناكوس فعزم على الكلام :

– كيف تقضى وقتك وحيدا هنا يامانولى ؟

وأجاب مانولى وهو يشير الى الانجيل :

– ولكننى لست وحيدا • المسيح معى •

– وماذا عن مرضك ؟

– ارتعد مانولى مأخوذا ، اذ كان قد نسيه تماما •

– أى مرض تقصد؟ آه ، نعم ، لا زلت آثما يا ياناكوس فلم يزايلنى بعد
معنى هذا أن روحى لم تبرأ بعد مما فيها من شر • لعل الله يشملنى بواسع
رحمته •

وقال نيكوليو وهو يمسح فمه :

– أما أنا فسانصرف • القمر هلال ، ولن يغمض لى جفن • سأتجول
قليلا •

والتقط عصا الرعى ورحل عنهما وهو يصفر •

وقال مانولى :

– هيا بنا الى النوم يا ياناكوس ، اذ يجب أن نستيقظ غدا فى ساعة
مبكرة • والنوم يكشف البصيرة • هذا بعض ما علمتنيه حياة الوحدة هنا •
فالله يتحدث الى النيام أكثر مما يتحدث الى الايقاظ •

افترشا بساطا عريضا فى الفناء ليستمتعا ببرودة الجو • كان الهوا

عبقا برائحة السعتر • وارتفع صوت الليل حتى غمر السكون • وبدأ الهلال
يعتلى صفحة السماء •

وقال ياناكوس الذى جفاه النوم :

– أنا دائم التفكير فى بانايوتى المسكين •

وقال مانولى بصوت خفيض :

– وأنا أيضا • أفكر فيه أكثر من غيره •

– نفس الشيء بالنسبة لى ، هو أكثر من سواه • ولكن لماذا ؟

– لأنه أحب كثيرا يا ياناكوس ، وحطمه الحب • روحه كبيرة وملعونة
كان عبدا لعواطفه وشهواته فتورط فى كثير من المشاكل • وأثان هنذا
حنقه ، واندفع يناطح برأسه محاولا الهرب ولكنه سيء الحظ ، فلم يزد
ذلك الا تورطا ••• التمس ايذاء من حوله ، ولاذ بالحمى والسباب لعله يجد
فى ذلك بعض الراحة لنفسه • ولكنه كان يفوض أكثر فأكثر ••• لو أنه أحب
قليلا •••

ثم استطرد مانولى مصححا ما قال :

– لا • لا • ليس قليلا ، بل لو أنه أحب أكثر وأكثر ربما كان فى
ذلك خلاصه •••

أحس ياناكوس برغبة فى أن يطيل الحديث • فقال :

« أراهن بحياتى أنه ليس هو قاتل يوسفاكى • أرجوك يامانولى أن
تفصح لى حتى يهدأ خاطرى • هل هو بانايوتى ؟

– هيا الى النوم يا ياناكوس • لا • ليس هو •

وقال ياناكوس :

– الحمد لله •

ثم أغمض عينيه وعاوده الهدوء •

وكان مانولى متلهفا الى أن يخلو بنفسه فاستسلم هو الآخر للنوم •
كان طوال الأيام الاخيرة يؤثر أن يبقى مغمض العينين حتى ولو كان ذلك
فى وضوح النهار : إذ كان يخيل اليه أن هذا خير ما يعينه على أن يستبطن
ذاته على نحو أوضح •

فثمة قصة كان قد سمعها فى الدير من معلمه القسيس ماناس ، وكثيرا

ما تطوف بخاطره فى هذه الايام وتلح عليه . اذ زاره ذات يوم راهب وقضى معه سحابة نهاره . ففتح عينيه للحظة ثم عاد واغمضهما . فقال له ماناس : « افتح عينيك يا ابانا . افتحهما لتشهد بديع خلق الله » . - فاجاب الراهب « انا اغمض عينى فاشهد الخالق ذاته » . .

وهكذا كان مانولى يغمض عينيه ليشهد المسيح ، ويسمع صوته . يقرأ آية من الانجيل ثم يغمض عينيه ، ويهيم بروحه معها . وفى هداة الليل ، اذا كان الجو رطبا منعشا ، فانه يستطيع أن يرى بوضوح المسيح فى ثياب بيضاء يتقدم تلاميذه . ويلحق به مانولى خلصة ، يمشى وراهم فى صمت وسكون .

وتمتم وهو يغمض عينيه :

- غدا ينتظرنا عمل كبير ، عمل هام وعسير . عونك يا يسوع .
ثم تنهد وعاد يقول : « عونك يا يسوع » كأنما يناجى المسيح يدعوه اليه فى سكون الليل .

وتنزل عليه المسيح . اذ استيقظ مانولى ساعة السحر ورسم علامة الصليب . كان الحلم لا زال يشغل فكره ، ساطعا متألقا كنجمة الصباح :
ترامى له أنه يمشى على حافة بحيرة لازوردية . كان فى عجلة من امره وشق طريقه فى لهفة وقلق بين عيدان الغاب وأوراق الصفصاف ، مسرعا فى خطوه . وبعد أن تقدم قليلا اذا بعيدان الغاب وأشجار الصفصاف تستحيل بشرا ، أآفا من الرجال والنساء . ساروا جميعا خلفه . وهبت ريح ، وصاح معها الجميع : « اقتلوه ! اقتلوه ! »

حاول الهرب ، واذا بيد تلمس كتفه ، وصوت يقول : « هل تؤمن ؟ واجاب مانولى : أومن يا الهى . وعلى الفور سكنت الريح ، وعاد الرجال والنساء سيرتهم الاولى ، عيدان غاب وأشجار صفصاف . وارتفعت أمامه شجرة سنار تغطيها العصافير ، وبدت له الشجرة تصدح وتغرذ . واذا بجثة معلقة على أحد فروعها تتأرجح فى الهواء . وتوقف مانولى مبهوتا ، ثم قفز فى مكانه كأنما يحاول الهرب واذا بالصوت يناديه من جديد :

« لا تقف ، تقدم » .

وصرخ مانولى صرخة أيقظته :

- لا تقف ، تقدم . . انه صوت الرب فلاواصل السير .

وهب واقفا • اغتسل ، ومشط شعره ، وارتدى أحسن ثيابه ، ودس
الانجيل فى صدرته ، وهز ياناكوس •

صاح به فرحا مسرورا :

- ايه يا ياناكوس •• استيقظ أيها الكسول •

فتح ياناكوس عينيه • وتطلع الى صديقه متمجبا •

وقال له :

- أراك ترتدى لباس عرس يا مانولى ، وعينك تلمعان • أى حلم

جميل تراهى لك ؟

وقال مانولى :

- هيا بنا • لا نريد أن نضيع الوقت • فكر فى الهلع الذى يحيق

ببانا يوتى • فكر فى الموت الذى يتهدد القرية • هيا أسرع !



الفداء

أى نشوة غامرة يستشعرها المرء حين يشتيقظ مبكرا ذات صباح وقد أضمر فى نفسه قرارا حاسما وخطيرا . اتخذ مانولى طريقه الى القرية نازلا من الجبل ، خفيفا كأنه ملاك ، محلقا فلا تكاد قدماه تمانان الأرض . أحس فجأة كأن الملائكة بإسطة أجنحتها ، تحمله فوقها ، وتطير من صخرة الى أخرى : كان أشبه بسحابة تسوقها ربيع رخاء .

وراءه ياناكوس يعدو لاهثا ، عاجزا عن اللحاق به . وصاح قائلا :
— قل لى يامانولى ، أراك مسرعا كأن لك أجنحة تطير بها . . تمهل قليلا حتى ألحق بك !

ولكن مانولى أحس كأن أجنحة تحمل قدميه ولا يقوى على الانتظار . ماذا عساه أن يقول للأجنحة ؟ هل يقول لها : « أسكني ولننتظر ياناكوس ؟ » .

وصاح قائلا :

— أود أن أنتظر يا ياناكوس ، ولكنى لا أملك ذلك . لا تبطء .
أسرع أنت أيضا .

كانت نفس الأجنحة التى حملته حين تبع المسيح مغمض العينين يطوف خلال الديار يبذر الكلمة الطيبة فى الأرض الطيبة وبين الحجارة . كان يتبع المسيح وتلاميذه المؤمنين ، طائرا خفيفا جدلا ، من جنيسارت

الى اليهودية ، يحوم فوق القرى الصغيرة الحبيبة : كفر ناحوم ، وقانا ، والمجدل ، والناصره . ثم انطلق دفعة واحدة الى السامرة ، واجتازها حتى بلغ أرضه الحبيبة حول اورشليم - بيت عينيا ، وبيت صيدا ، وأريحا ، وعمواس . وها هو اليوم يخلق مثلما كان مع المسيح ، كأنه عاد يقتفى اثر المسيح الذى يتقدمه الى ليكوفريسي . أحس بجسمه خفيفا ، يقل وزنه شيئا فشيئا . وبينما هو كذلك شعر بوخز يملأ صفحة وجهه ، وقشور تتساقط تباعا من فوق خديه وفمه . خيل اليه وكأن لحم وجهه يتخلص من اساره كزهرة يتفتق عنها كمها ، ليصبح وجهه غضاً مثل الجمار .

توقف مانولى مبهوتا . كان قلبه يخفق بشدة . رأى بعينى رأسه يدا تتصفح وجهه ، تربت عليه فى هدوء وعلى مهل ، يدا حانية كنسيم الصباح فوق الجبل .

كان واثقا من ذلك ولكنه لم يجسر على رفع يده ليلمس وجهه ويطمئن الى ما رأى . وإرتجف ، وحدث نفسه قائلا :

— المعجزة ! المعجزة !

لحق به ياناكوس لاهثا . رفع عينيه الى مانولى وتطلع اليه ، وندت عنه صرخة :

— مانولى ! مانولى !

وارتمى بين ذراعيه .

رفع مانولى يده يتحسس صفحة وجهه بأصابع نهمة مشوقة . ذاب عنه اللحم البشع مثلما يذوب الشمع . التأم الجلد المتشق وعاد وجهها بشريا أملس من جديد . وتمتم مانولى وهو يرسم علامة الصليب :

— الحمد لله . . الحمد لله أن غفر لى خطاياى .

وضاح ياناكوس وقد فاضت عيناه بالدمع :

— عزيزى مانولى . . دعنى أقبل يدك . . انتصرت على الغواية ، وتطهرت روحك وزال عن وجهك اثر الشيطان !

مد ياناكوس يده الخشنة وتحسس براحته وجه صديقه ، وظل يرتب عليه فى صمت فترة طويلة .

وقال مانولى :

- هيا بنا . لا نريد أن نضيع وقتنا .

أشرفت الشمس ، وعلا صياح الديكة فى الحقول من تحتها .
ونبحت كلاب القرية . وتراعت لهما بيوت القرية من خلال غلالة رقيقة
من الضباب .

واستدار مانولى لرفيقه وقال له :

- عليك يا ياناكوس أن تسلم دون اعتراض بكل ما أقول أو أفعل
هناك فى القرية . اعلم أننى لست أنا الذى أتكلم ، وإنما أفعل ما يأمرنى
به المسيح . امثل لأمره ولا شيء سواه . هل تفهمنى يا ياناكوس ؟

أحس ياناكوس فجأة وكان صديقه يودعه . فسأله فى قلق :

- ماذا ستفعل ؟ وماذا تنوى أن تقول ؟

- قلت لك كل ما يأمرنى به المسيح ولا شيء سواه . أنا نفسى
لا أعرف تماما ما سيكون ، بيد اننى على يقين منه . وأنت أيضا
يا ياناكوس كن على يقين من ذلك وأنبىء ميشيل وقسطندى بما أقول
حتى يلزما الصمت .

توقف ياناكوس منزعجا . وعاد يسأله من جديد :

- ماذا ستفعل ؟ وماذا تنوى أن تقول ؟

- لا تقف ، تقدم ! .. هذا ما قاله لى المسيح فى منامى البارحة .
- لا تقف يا ياناكوس كن مؤمنا وتقدم . ألم تر توا كيف زال عنى خاتم
الشیطان ؟ هل تعرف لماذا ؟ لأننى سمعت نداء المسيح واستجبت له ،
وهأنذا أتقدم منذ مطلع الفجر . وأنا لا أفعل ذلك عن غير رغبة منى ، بل
أرقص طربا . وكنت تنادينى : قف ، ولكن كيف لى أن أقف يا ياناكوس
والمسيح يتقدم أمامى بخطوات واسعة ؟

ولكن ياناكوس هز رأسه وقال :

* - أنا أثق بك يامانولى . لمست بيدى المعجزة التى تجلت على
صفحة وجهك . ولكننى لا أثق بنفسى . لو فعلت شيئا خارقا يفوق
طاقة البشر سأصرخ حتما .. سأصرخ يامانولى . اننى بشر ، ولو
أصابك شيء فلن أتخلى عنك بل سأقاوم .

— واذا كان هذا هو امر الله ؟

عاد ياناكوس يقول :

— سأعترض وأقاوم . أستغفر الله .

وقال مانولى بصوت آمر :

— ألا تخجل ؟ ألا تخاف ؟ لندع هذا . خير لك أن تصمت .

لنتقدم .

أسرعا فى خطوهما . وما ان اقتربا من القرية حتى رأيا قسطندى

وقد خف اليهما . وصاح بهما حين أبصرهما :

— يا اختى ، الى أين ؟ عودا من فوركما . كنت صاعدا الجبل فى

طريقى اليكما احذركما من النزول الى القرية . ستحدث اليوم هناك

أهوال .

وساله مانولى :

— تقصد بانايوتى ؟

— الجبل ينتظره فوق شجرة السنار . نفخ الحارس فى النفير

ساعة الفجر . امر أهل القرية ، رجالا ونساء ، أن يتجمعوا حول شجرة

السنار ليشهدوا بأعينهم حتى يستبد الهلع بقلوبهم .

تملك الخوف ياناكوس ، فاستدار ناحية الجبل وقال :

— هيا بنا نعود من حيث جئنا . تعال معنا ايضا يا قسطندى .

— انا .. لى زوج واطفال لا أقوى على تركهم . أما أنتما فانى

استحلفكما باسم المسيح أن ترجعا .

وقال مانولى وهو يواصل السير ابتغاء ملكوت السموات :

— لا . بل باسم المسيح يجب أن نواصل المسير . وسوف نواصل

حتما . تعال يا ياناكوس ولا تخف . ائمة من يسير أمامنا ويشير إلينا .

ألا تستطيع أن تراه ؟ انه المسيح ، فلنتبعه .

وفى هذه اللحظة فقط لمح قسطندى وجه مانولى صافيا نقيًا .

فصاح قائلا :

— مانولى . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب مانولى مبتسما :

— مثلما تحدث المعجزات دائما . في هدوء شهيد وبساطة تامة
وعلى غير انتظار . لا داعى للتباطؤ يا اخوتى ، هيا بنا نسرع .

أمسك بذراع قسطندى وحثا خطواتهما نحو القرية ، ومن ورائهما
ياناكوس متاففا .

وقال مانولى :

— لا تخف يا قسطندى فلن تهلك القرية . فانا اعرف القاتل .

ولهذا اسرع اليها .

توقف قسطندى وقد تهلل فرحا :

— من هو ؟ من يكون ؟ هل أراكه الله فى منامك ؟ من هو ؟

وقال مانولى بصوت أمر حنون :

— لا تسألنى عن شىء . لا تتقف . تقدم .

واندفعوا ثلاثتهم ، وسرعان ما بلغوا القرية كأنهم خيول راکضة .
كان نفير حسين يدوى يستحث أهل القرية بنبرة غاضبة . فتحت
الأبواب وخرج أهل القرية رجالها ونساؤها . وشموا جميعا علامة
الصليب واسرعوا فى وجل الى الميدان .

وصاح بهم ياناكوس :

— تشجعوا يا اخوتى . ان الله كبير .

وهمهم عجوز وهو يجرى ممسكا بيد حفيده :

— الى الشيطان أيها الابله المجنون . لو كان الله كبيرا فهذه هى
اللحظة التى يثبت لنا فيها ذلك . سله أن يكشف لنا عن القاتل .

وقال الأب كريستوفيس وهو يعدو :

— اتوا بيبوسوفاكى وطرحوه تحت شجرة السنار ، وصفوا حوله
الشموع والبخور والكمك . ترمل الأغا وطار صوابه .

كان المسيحيون يسرعون الى الميدان أفواجا متلاحقة . وأبصر
ميشيل على البعد مانولى ورفيقه فحف للقاتلهم . كان شاجبا بائسا .
ولكن ما أن رأى وجه مانولى حتى صاح فرحا وعانقه .

— شفيت يامانولى ، شفيت ! « الحمد لله » .

- ماذا من بانايوتى ؟

- سيجيئون به بعد لحظة . لقد اوسعوه ضربا ، هذا المسكين .
اقتربوا من الميدان . كانت الشمس تطل على الارض من فوق
حافة الأفق ، والنسيم يهب عيلا رخيا ، والقرية يغمرها نور يحدد
الحياة . وشجرة السنار مورقة خضراء يانعة . تسمع لأوراقها حفيفا
جدلا حين يداعبها النسيم . ورفع الشيوخ ابصارهم يتطلعون اليها
في فزع . كم من مرة كانوا يستيقظون من نومهم مع الصباح يتطلعون
الى فروعها ليروا يونانيا معلقا عليها لأنه تجاسر على أن يرفع رأسه
مطالباً بالحرية ؟ .

وارتفع صوت الحارس فظا قاسيا :

- افسحوا .. افسحوا ياكفرة !

وسار فى المقدمة بخطوات واسعة يشق الطريق بكل ثقله ، ومن
ورائه جمالان يحملان السرير المعدنى الصغير وقد تمدد فوقه جثمان
الغلام القتيل . غطاه الأغا من رأسه حتى أخمص قدميه بالورود
والياسمين . لم يظهر منه سوى وجهه الأصفر وشعره المجعد ، وشفته
المشوهتان من اثر العض . ووضع بجانبه حفنة لبان ليمضغها فى عالم
الأرواح .

وسار فى المؤخرة بانايوتى متحاملا على نفسه ، يداه موثوقتان من
خلاف ، ورأسه تغطيه الجروح ، وجسده أزرق من اثر ضربات السياط،
عيناه وحدهما تدب فيهما الحياة ، يحملق بهما فى اهل القرية بنظرات
ملؤها الكراهية .

وصاح به واحد من اهل القرية :

- أيها الوغد ، الا ترحم نساء القرية وأطفالها ؟ اعترف .

توقف بانايوتى ثائرا مهتاجا وجأر :

- ومن منكم كان يحس بالرحمة نحوى ؟

وبلغ شجرة السنار وقد خارت قواه فأسند ظهره الى جذعها
الغليظ . حاول أن يمسح بكتفه العرق المتصبب من جبهته .

وفى هذه الأثناء وضع الحمالان يوسوفاكى تحت ظل شجرة السنار .
وأشعلا شمعتين كبيرتين عند قدميه ، والقوا بحفنة من البخور فى مبخرة
بها جمرات متوهجة .

أفسح مانولى ورفاقه لأنفسهم طريقا بين الحشيد ، واتخذوا مكانا
فى الصدارة بجوار جثة الغلام . وسرعان ما لمحهم بانايوتى . نظر اليهم
بعينين مسجورتين . وحرك ذراعيه كأنما يريد أن يكسر القيد ، وخطا
خطوة نحوهم ثم صاح فجأة :

— عليك اللعنة يا مانولى !

ثم عاد وأسند ظهره الى شجرة السنار خائر القوى .

واجاب مانولى :

— تشجع يا أخى . ثق بالله !

ولم يكذب بانايوتى يفتح فمه ثانية حتى دوت صيحة مزعجة خرجت من
باب الأغا وتناقلتها الأفواه وكان لها صليل يثير الهلع .

— الأغا !

وتقدم الأغا وحده حاسر الراس ، متورم الجفنين من حرقة
النبكاء ، مرتديا سروالا موشى بالفضة وحول وسطه حزام أحمر عريض ،
ومسدس فضى ، وسيف عريض له مقبض أسود . كان يمشى بخطوات
بطيئة متناقلة ، ينقل قدميه بحذر ، خشية السقوط فىكون سخرية
القوم . فالروميون جميعهم عيونهم مثبتة عليه ، ومن العار أن يروه
مخمورا أو مفتما ، أو متهالكا فى مشيته . صبغ شاربه وحاجبيه بصبغة
سوداء غليظة . كان يرفع يده اليمنى بين آونة وأخرى ينتف بها شعرة من
شاربه ويلقى بها الى الأرض . كان عابس الوجه متجهما ، مسجور
العينين ، يحدق بهما كثور يتهيا للهجوم . ضمخ شعر رأسه وابططيه
بالمسك ، وعبق الجو اثناء سيره برائحة وحش برى هائج .

تعاشى النظر الى يوسوفاكى خوفا من أن تغلبه عبراته على غير
ارادة منه . واتجه مباشرة حيث وقف فى مكانه تحت شجرة السنار .
واقترب الحارس من بنايوتى ، وأمسك به بكلتا يديه ، ودفعه بوحشية
الى الأرض ، فتدخرج عند قدمى الأغا . ووطئ الحارس جسده
السروجى الهامد ليثبته على الأرض ، وانتظر ..

رفع الأغا يده ، وأعلن على الملا بصوت أبح :

— يا كفرة ! ساشنق واحدا منكم كل يوم ، حتى تكشفوا لى عن
القاتل . كل القرية سبتاخذ طريقها الى هنا تحت شجرة السنار .
حبيبي يوسف فاكى فى كفة ، والعالم كله فى الكفة الأخرى . ساشنق
العالم كله ، يا كفرة .

احتدم غضبه ، وازداد هياجه اثناء الكلام ، وضرب الأرض بقدميه
على نحو ما يفعل الحصان . وتفرس القوم رجالا ونساء بعينين تفصحان
عن لهفة لإبادتهم جميعا . وفاحت رائحة من فمه وشعره وأبطيه .
توقف عن الكلام وبدأ يركل بانايوتى ، ويطاء بقدميه . وغطى شفثيه
زبد أصفر .

• وصرخ فيه :

— هل أنت قاتل يوسف فاكى أيها الكافر الدنس ؟ هل أنت قاتله ؟
اعترف !

لم ينبس بانايوتى ببنت شفة وقنع بالأنين .

وتصيب الأغا عرقا ، وأحس بالتعب ، واستدار ناحية حارسه
حسين وصرخ .
— أشنقه .

وفى تلك اللحظة دوى صوت يقول :

— انتظر ! انتظر ! انا اعرف القاتل !

رفع الحارس يده عن رقبة بانايوتى . وتدافع الناس ، وسرت
بينهم صيحات فرحة ، بينما استدار الأغا ناحية الصوت وصاح :

— من المتكلم ؟ ليتقدم ويرينى نفسه .

تقدم مانولى فى هدوء شديد حيث وقف أمام الأغا . ووثب
الحارس فى مكانه وأرهف السمع . كانت ذقنه ترتجف ، وحال لونه
كليمونة صفراء .

وقال الأغا وقد أمسك بذراع مانولى وهزه فى هياج :

— هل أنت الذى تعرف القاتل ؟

— نعم أعرفه .

— من هو ؟

— أنا

وسرت هزة كبيرة بين القوم تنم عن الفرح ، فقد انزاح الهم عن قلوبهم . ووشمت النساء علامة الصليب . وأشرقت الوجوه . واستردت القرية أنفاسها ، فقد قدر لها النجاة .

وصاح الأغا وهو يلوح بالسوط :

— اسكتوا يا كفرة .

لوح ياناكوس بذراعه وهو يصيح :

— غير صحيح ! غير صحيح !

وصاح قسطندي وميشيل وهما يحاولان الاقتراب من الأغا . ولكن الجموع القتت بنفسها فوقهم ، وكتمت أصواتهم :

— اهداوا . اهداوا . انه هو . انه هو ! لا تقولوا شيئاً حتى ننجوا!

وضحك حسين ضحكة مجلجلة اهتز لها كيانه . واندفع ليمسك بمانولى ويضع الحبل حول رقبتة . بيدان الأغا دفعه بعيداً عنه ، ودنا من مانولى ، وحدق فى عينيه . . . وزأر :

— هل هو انت يا كافر ؟

— أنا

— انت قاتله ؟

— أنا كما أقول لك : اشتقتنى . اطلق سراح بانايوتى فانه برىء . وحملق بانايوتى فى مانولى بعينين واسعتين . فتح فمه ، ثم أغلقه . كان هلعاً ، واحتبس صوته . لم يدر شيئاً مما يدور حوله . . . هل مانولى هو القاتل حقا ؟

وصاح به صوت فى أعماق نفسه : « لا ! لا ! مستحيل ! » لو كان يفعل هذا ابتغاء نجاتى اذن فعليه اللعنة . فانا لا أريد ذلك .

حاول أن يشب ويصرخ . « لا أريد » ولكن الحارس أمسك بالسوط وصاح :

— كفى هذا يا كافر .

افاق الأغا تماماً ، وتفرس فى مانولى يحاول ان يفهم شيئاً . وقال :

— ولكن لماذا ؟ ماذا فعل بك ؟

— لم يفعل شيئا يا أغا ، ولكن الشيطان أغوانى وحرصنى على قتله . اذ بينما كنت غارقا فى نومى اثناء الليل سمعت صوتا يقول لى « اقتله » ؛ نزلت الى القرية قبل الفجر وقتلته . لا تسألنى عن شيء أكثر من ذلك . اشقنى .

اندفع حسين نحوه والجبل فى يده . أمسك بذراع مانولى . وفى هذه اللحظة ندت من بين صفوف النساء صرخة مولولة :

— انه برىء يا أغا . لا تصغ الى كلامه . انه برىء ! برىء ! برىء !

ودوت صيحات من حول كاترينا :

— اخرسى يا عاهرة .

وتدافعت النساء نحوها يردن كتم انفاسها .

وصاحت الأرملة :

— انه يدين نفسه لينقذ القرية ! الا تأخذكم به رحمة ؟

ولكن النسوة كن قد طرحنها ارضا ومضين يطانها بأقدامهن .

وجاهدت الأرملة لتخلص نفسها وهى تصيح :

— مانولى ! حبيبى مانولى ! .

وصاح الأصدقاء الثلاثة بدورهم بعد ان شقوا لأنفسهم طريقا ووصلوا امام الأغا .

— انه برىء ! برىء ! برىء ! .

وقال ميشيل :

— يا أغا اراهن برأسى ان كان هذا الفتى هو القاتل . انه راعى

اغنامنا ، وهو قديس بكل معنى الكلمة ، فلا تمسه بسوء .

استبدت الحيرة بالأغا وهو يتفرس فى مانولى ، بينما الصيحات تفرع أذنيه . ثم تطلع الى يوسوفاكى ، فاحتدم الغضب فى صدره ، وقعد صوابه . لم يعد يستبين شيئا ، وأحس بدوار . وسأل نفسه وهو يحملق فى مانولى : « هل هو قاتل ؟ أم مجنون ؟ أم قديس كما يقولون ؟ لياخذنى الشيطان فلم أعد أدرى من امرى شيئا ! »

تملكه الغضب ، وحن جنونه ، ثم استدار الى حسين وأصدر اليه
أمرا وهو يشير الى مانولى :

– الى السجن • سأتخذ قرارى غدا •

ثم وجه حديثه الى الحشد :

– عليكم اللعنة يا كفرة • اغربوا عن وجهى •

وتفرق الجمع ، يتنازعهم شعور بالخوف والسرور • وتلاقى الجيران
من النساء والرجال يتبادلون الراى فيما شاهدوه من أحداث ،
ويشكرون الله أن عرفوا القاتل •

كان كل منهم يسأل الآخر :

– هل تظن انه مانولى ؟ ولكنه قديس حقا ••

وأجاب آخر :

– لا تشغل البال بذلك يا جارى • ماذا يهم أن كان هو أم غيره ؟
لقد اعترف وهذا يكفى • سيسئق وننجو نحن ، وهذا هو المهم ، وما عدا
ذلك ليس الا ترهات لا نأبه لها • ليفقر الله له •

– ولكن لماذا يدين نفسه ؟ أنا لا افهم شيئا • ليس هو القاتل
يقينا ، حتى وان زعم ذلك ••

– آه ، مانولى – ؟ أنت لا تعرفه ، انه ملتاث ، هذا المسكين ،
تترأى له احيانا اوهام وخيالات • يزعم انه يفعل ذلك لينقذ القرية ••
لا ، هل تصدق ذلك ؟ أيهلك نفسه ليخلص غيره ؟ •• هل لو كانت لديه
ذرة من عقل كان يقدم على مثل هذا ؟ أبدا • ولكن دعه وشأنه ان كان
هذا هو ما يريد له لنفسه •

والتقى الأصدقاء الثلاثة فى بيت ميشيل • ظل ياناكوس يضرب
راسه بجماع يده •

– انها غلطى ، غلطى أنا ! كم أنا ابله ! كان اولى بى ان امنعه من
النزول الى القرية • كان احرى بنا لو لم ننبئه بشيء • ولكن هل كنت
أتصور ذلك ؟

وتتمم ميشيل :

- انه قديس يهب حياته فداء للقرية لينقذها .
وصاح قسطندى :

- يجب أن ننقذه . يجب . . . يجب .
وقال ميشيل :

- لو اننى أوتيت القدرة على أن افعل ما فعله ماثولى ، لما رغبت
فى أن ينقذنى أحد . . ألم تر كيف كانت عيناه تلمعان ؟ وكيف كان وجهه
مشرقا ؟ كان كمن يسكن الفردوس . فلماذا نرده الى الأرض ثانية ؟
ليتنا نكون معه .

وصاح ياناكوس فى حماس :

- اننا نستطيع ذلك . ليس علينا الا أن نذهب ثلاثتنا الى الأغا
ونقول له اننا تسلنا ليلا الى بيته وقتلنا يوسوفاكى . وليشتقنا جميعا
ويعلقنا على شجرة السنار . هيا بنا نذهب جميعا الى الجنة الواحد
فى اثر الآخر .

وهز ميشيل رأسه وقال معترفا :

- أنا لا أقوى على ذلك يا ياناكوس . كيف لى أن أترك ماريورى ؟
وقال قسطندى :

- ولا أنا ، فى زوجة وأطفال .

وتروى ياناكوس وتدبر أمره وقال لنفسه :

- ولا أنا أيضا ، فى حمارى ولا أطيق البعاد عنه !
ولكنه لم يصرح بذات نفسه .

فى هذه الاثناء كان الأعيان الأربعة قابعين فى السجن ، مسندين
ظهورهم الى الحائط فى انتظار ما قد يجد . تكوموا بجوار بعضهم داخل
ألطابق السفلى ، ولم يكن فى استطاعتهم وهم فى هذا المكان الفائر أن
يسمعوا شيئا مما يدور فى الخارج . وانسل شعاع ضوء كابتى من طاقة
مستديرة فى أعلى السقف .

وتأوه الشيخ بطرياركاس :

- انى جائع . .

وقال القسيس جريجوريس :

- كلنا جوعى وظماء ولكن يجب أن تدخل التجربة بصبر وجلد .
الله معنا فى عربن السباع . ثقوا بالله .

ثم استدار الى من بجواره وقال :

– تشجع يا أب لاداس . ها أنت ترى الآن أننى كنت على حق ؟
كم من مرة قلت لك : « لماذا تكنز الأموال ياشيخ لاداس ؟ لن تأخذ
خزائنك معك الى القبر . افعل خيرا : فالخير وحده هو الباقي لك حتى
يوم الحساب ، وهو شفيحك أمام الله . ما رأيك الآن ؟ الا تأسى على
مافاتك ؟ »

وتنهذ الشيخ لاداس . وادار رأسا طويلا كراس طائر نتف ريشه ،
وحدج ناظر المدرسة بنظرة كلها كراهية ، ولكن دون ان ينبس بكلمة .

وقال القسيس جريجوريس :

– موعذك غدا يا شيخ لاداس . ستمثل بين يدي الله غدا . يجب
ان تعترف . اركع وتذكر كل ما اقترفت من آثام ، واسأل الله الصفح
والغفران . لا زالت امامك فسحة من الوقت .

وأجاب الشيخ لاداس الذى بدا عليه الهم :

– لم اقترف اثما فى حق أحد ، كما لم أفعل خيرا لاحد . لم اقتل
احدا . انا برىء .

وصاح الشيخ بطرياركاس :

– ألم تقترف اثما فى حق احد يا شيخ لاداس ؟ سافشى كل اسرارك
ايها البخيل العجوز فى هذه اللحظة التى تقف فيها على حافة القبر ،
اذ لم أعد اطيع كتمانها . لم ترتكب اثما فى حق أحد ، هه ؟ من الذى
باع بيت الأرملة أنزينا ؟ ومن الذى باع كرمة العجوز أنستى ؟ من الذى
عرضها فى المزداد ؟ واليتامى الذين يهيمون على وجوههم الآن يتسولون
فى الطرقات – من الذى دفعهم الى هذا السبيل ؟ وابنتك ارجيولا التى
هى من دمك ولحمك ، من تسبب فى موتها ؟ أنت ، أنت نفسك ، بسبب
بخلك وسعارك ! اذهب اليوم لتمثل بين يدي الله يحاسبك وترد
ما عليك من ديون ! »

جن جنون الشيخ لاداس ، ودبت فيه الحياة من جديد ، وابتعد
بظهره عن الحائط ، وقال بصوت كأنه الصرير :

– ترى القشة التى فى عين أخيك ولا ترى الخشبة التى فى عينك .
هل بلغت بسيادتكم الجراة الى حد اتهام الآخرين ؟ ولكن للأسف ،

لو سمحت لنفسى ان أنشر غسيلك القدر فلن انته من ذلك غدا . ماذا فعلت أنت في حياتك على الأرض ايها الخنزير النبيل ؟ اكلت على نحو ما يأكل الغول ، وشربت كأنك تعب في قرية مثقوبة ، واغتصبت النساء، وملأت القرية بأبناء السفاح ، وكذلك فعلت فى القرى المجاورة . . . قضيت حياتك تنبلا كسولا ، تتعاون مع الأتراك ، تداهنهم وتندذل لهم وتقدم لهم فروض الولاء والطاعة . . . الأعيان والقساوسة بل والأساقفة، توددتهم كلكم الى الأتراك وكنتم يدا لهم . . . زوجك أنت ، وقد كانت زوجة قديسة ، الست أنت الذى قصفت عمرها ؟ ضاقت ذرعا بنزواتك وملاحقتك للنساء . أنت الذى سقتها الى حتفها ، تلك المسكينة .

وهب الشيخ بطرياركاس واقفا . حاول ان يمسك بتلابيب لاداس، ولكن تدخل زميلاهما وباعدا بينهما .

ثارت نائرة الشيخ لاداس . اعتاد طوال حياته أن يترك الناس تقول عنه ما تشاء ، ويصمت هو ، ويتظاهر بالغباء . فقد ذل هو الآخر للأتراك ، وقدم لهم فروض الولاء والطاعة ، وتقول على الناس وكذب ، كل هذا ليتودد الى أصحاب السلطان . ولكنه الآن يقف امام الموت وينفجر . أراد أن يفشى بكل شيء ، أن يقىء كل ما ابتلعه فى حياته ، ويثار لنفسه ، ويبطل دعواهم أنهم خير منه . لذلك فقد قال ما قال وأعيابها عامدا متعمدا . اذن ليفضح كل بذاءتهم ، واى بأس فى ذلك ؟ هل به حاجة اليهم بعد اليوم ؟

واستدار ناحية القسيس جريجوريس وبدأ صوته يصفر :

— وأنت ايها القسيس الدعى ، يا من تطالبنا بأن تعترف على يديك . حدثنى بأى وجه ستمثل بين يدي الله ؟ تروح وتجىء بين القرية مزهوا مختالا كالديك . . . وقد استكم ايضا تأكلون بنهم كأي شره مسعور ، واذا طرقت مسكين بابك وأنت جالس الى طعامك تحشمو كرشك ، فانك تجيبه بصوت يذوب حلالة ووداعة : « حن الله عليك يا أخى ، فانى جائع مثلك » . كل ذلك بينما الدسم يقطر فوق شعر لحيتك التى تشبه لحية التيس ! الويل كل الويل للمسكين الذى توافيه منيته ولا يملك ما يدفعه اجر دفنه : تتركه فى العراء حتى يتعفن . دائما يدك ممدودة تبيع المسيح بثمان غال : مبلغ وقدره كذا نظير المباركة ، ومبلغ وقدره كذا اجر التعميد ، مبلغ وقدره كذا لقاء عقد القران ، مبلغ وقدره كذا اجر التناول — بل وصل بك الأمر الى حد ان سلكت سلوك المرابين ووضعت تعريفه لدخول الجنة يا مصاص الدماء : « يا رعايا

ادفعوا والا فلن تدخلوا » يا للوقاحة حين تطلب الاعتراف من الشيخ لاداس ، هذا الرجل القديس الذى عاش حياته جانعا ، محروما من كأس نبيذ يشتهيهِ ، مهلهل الثياب ، حافى القدمين ، خاوى البطن كأنه رسول حقيقى .. هذا هو أنا - هل رايت ؟ .. ثم تطالبنى أنا بان اعترف لك أنت أيها المبطان ، .

كان القسيس جريجوريس ينصت له منكسا راسه فى تواضع مسيحي زائف ، بينما كان الغضب يضطرم فى صدره . كان يود لو استطاع أن يلوى ذلك العنق اليابس . ترى أين كانت تبعىء هذه الجيفة كل ذلك الحقد ؟ اذن هذه هى سريرته التى كان يضمها طوال تلك الأعوام .. هذا الكريه العجوز . ها هو الآن يقىء ما فى نفسه ويفضح دخيلته .

وتصنع الحسرة وقال :

- استمر ، استمر يا عزيزى لاداس . عانى المسيح أكثر مما أعانيه أنا الآثم المسكين . سخروا به واغتابوه وجلدوه وصلبوه ولم يشك . فهل لى أن أشكو أنا ؟ استمر ، استمر يا عزيزى لاداس .

لم يكده الشيخ لاداس بهم بفتح فمه حتى تدخل ناظر المدرسة صائحا :

- عار علينا يا اخوتى . لم يبق من عمرنا غير سويعات واذا بنا نقضيها فى الحديث عن شئون الدنيا والآمها بدلا من أن نتوجه بأرواحنا الى الله .. اهدا يا شيخ لاداس ، افضيت بكل ما فى قلبك ، وحسبك ما قلت . اهداوا يا اخوتى واقلعوا عن المنازعة . ان خطايا البشر بغير حدود .

وضحك الشيخ لاداس تهكما وقال :

- أيها الناظر التمس ، ماذا عساي أن اقول لك ؟ النظافة . واقدارة عندك سواء . لست واسع الحيلة راجح العقل ، ومن ثم فانك لا تقوى الا على عمل النزر اليسير خيرا كان أم شرا . أحببت أن تقدم خيرا كثيرا يا صديقى المسكين ولكنك عجزت . وأحببت ان تقترف شرا كبيرا ولكنك عجزت أيضا . لا شيء سوى تفاهات لا يؤبه لها . لك روح تاجر وضيع . تبيع بثمان بخس الألواح والطباشير والورق الشفاف والكراسات .. ناظر مدرسة وكفى ، هذا هو أنت . كنت أيضا تبيع الطباشير كمن يبيع الجبن - كلمات طنانة جوفاء تؤمن بها احتفظ بها لنفسك .

كان يتعجل ان يقول كل شيء ويريح نفسه . فاستدار الى الباقين :

وعوى والغضب في عينيه :

— مالى اراك تنظر الى عابس الوجه ؟ حاق الفعل السىء باهله . .
وها انت حاولت ان تسيء الى فارتد السيف الى نحرک . ولعل فى ذلك
عبرة لك .

رفع القسيس جريجوريس عينيه وأوما الى الشيخ بطرياركاس وقال:
— لا ترد عليه .

فكظم رئيس الأعيان غيظه ولزم الصمت . .

وهب ناظر المدرسة واقفا اذ سمع وقع خطوات تقترب . جمد الدم
فى عروقه ، وتمتم قائلا :
— ها هم . .

استدار القسيس جريجوريس الى الشيخ لاداس وبسط اليه
يده يباركه . وقال بصوت وقور :

— ليفغر الله لك يا اخى . ليفغر لك كل ما تفوهت به . أفرغت كل
ما فى نفسك من قدى وتخلصت منه . وها أنت ايها التعس قد اعترفت
عن غير قصد منك . ليفغر الله لك كل ما تقدم من ذنبك . انهض ياشيخ
لاداس . حان دورك ، وهذا موعدك .

ولكن الشيخ لاداس خر الى الأرض منهارا وجسده ينتفض .

تردد صوت سباب وصياح ووطء بالأقدام . ودفع الحارس الباب
بمكبته ففتح على مصراعيه ، وقذف بياناوتى ومانولى الى داخل الزنزانة
بقوة حتى أنهما ارتطما بالجدار . ثم أغلق الباب .

وصاح بطرياركاس :

— مانولى !! ماذا جاء بك الى هنا ؟ لماذا اتوا بك ؟
وقال ناظر المدرسة :

— الا زلت حيا يا بانايوتى ؟ ألم يشنقوك ؟ حمدا لله .
وجار بانايوتى وهو يخطو ناحية الركن الذى يقبع فيه :
— لا زالت حيا ، لكن الله من كان سببا فى ذلك .

ورفع الشيخ لاداس عينيه وحملق بقوة فى بانايوتى ، ومسده يده
بتحسه .

— ألا زلت حيا حقا ؟ لماذا لم يشنقوك ؟ هل أسف الأغا على ما فعل ؟
هل غير رأيه ؟

• كان قلبه يخفق بقوة حتى كاد يتصدع وهو يطرح أسئلته .
• ولم يجب عليه احد .

وقال القسيس جريجوريس :

— استلق يا مانولى حتى تسترد أنفاسك .
• وطلب منه العمدة بطرياركاس بصيغة أمره :

— حدثنا يا مانولى ، فلم نعد نطيق الانتظار . هل عشروا على
القاتل ؟

واجاب مانولى :

— نعم ، عشروا عليه .

وصاح الأربعة بصوت واحد ، وقد تدافعوا نحوه :

— من ؟ من ؟ من ؟

واجاب مانولى :

— أنا .

— أنت ؟

وجفل الأربعة ، وتراجعوا الى الراء محمقين فى مانولى ، فاغرين
أفواههم . وخيم عليهم الصمت لفترة طويلة .

وصاح الشيخ بطرياركاس أخيرا بعد أن استعرض فى رأسه
حياة مانولى :

— مستحيل ! مستحيل ! لا ، لا ، هذه نهاية العالم !

وقال ناظر المدرسة :

— أنا أيضا لا اصدق . لماذا قتلته ؟ هل تستطيع أن تقتل يامانولى ؟
لا ، أبدا ، أنت لا تستطيع ذلك .

كان القسيس جريجوريس هو الوحيد الذى ظل يتطلع الى مانولى
دون أن ينبس بكلمة .

وسأله بطرياركاس :

- لماذا لا تجيب يا مانولى ؟

وقال مانولى وهو يمسح العرق الذى تصيب من جبينه :

- أجيب عن أى شيء يا سيدى ؟ أنا القاتل وليس عندي ما أقوله غير هذا . أليس فى ذلك الكفاية ؟

وصاح الشيخ لاداس :

- نعم ، حسبنا هذا يا ولدى ! عثروا على القاتل ونجوننا نحن .
ان الله موجود .

زحف مانولى حيث جلس تحت شعاع الضوء الذى ينسل من الكوة . واخرج الانجيل من جيب سترته وفتحته كيفما اتفق وبدأ يقرأ ، ونسى كل ما حوله . دخل السفينة مع المسيح ، واندس بين الرسل . وابتحروا فوق بحيرة جينيسارت . ومع المساء هبت ريح هوجاء . وكان المسيح متعبا ، اذ قضى سحابة نهاره يعلم الجموع . فاستلقى على الشباك عند مؤخر السفينة ونام . ولكن ريح الشمال هبت عنيفة عاتية اكثر واكثر . كانت تهب من فوق جبال جيلاد ، ترتطم بمساء البحيرة ، وهاجت الأمواج ، وبدأت تضرب السفينة الصغيرة فى ثورة وغضب . وتملك الهلع تلاميذ المسيح . كانوا يتمتمون قائلين :

- انا هالكون ! انا هالكون ! لو كان السيد يستيقظ . ولكن لم يجسر احدهم على ان يقطع النوم المقدس . واقترب منه بطرس ، وانحنى فوقه ، وتطلع اليه على ضوء ومض البرق ، فاذا وجه المسيح هادىء ، سعيد مبتسم .

تجمع التلاميذ خلف بطرس وصاحوا به :

- ايقظه ! ايقظه ! .

استجمع بطرس شجاعته ، ومد يده ، ومس كتف المسيح فى رفق . وقال :

- يا سيد ، نجنا فانا هالكون .

فتح المسيح عينيه ، وتطلع الى تلاميذه وهم يرتعدون فرقا . هز رأسه وقال لهم فى مرارة :

– بعد كل هذا الوقت بينكم ولازتم لا تؤمنون بي .

وتنهذ ، ونهض من نومه ، ووقف عند مؤخر السفينة ، ورفع رأسه ، وانتهر الرياح قائلا :

– اهدئي .

وأشار الى البحيرة الهائجة وقال :

– اسكني .

وصار هدوء عظيم . هدايت الرياح ، وسكنت الأمواج ، وسطعت النجوم ثانية ، وعاد الوجود بسام المحيا .

هز مانولى رأسه وحقق في رفاقه الخمسة . كانت عيناه الزرقاوان براقتين فرحتين هادئتين مثل مياه بحيرة جنيسارت .

بدأت الحياة تدب من جديد فى الأب لاداس ، ها هوذا يقف الآن على قدميه ، يروح ويفغدو ، ويفرك يديه ببعضهما سعيدا .

– « حمدا لله أن عثروا على القاتل ونجونا نحن . مسكين أنت يا مانولى . أنا حزين عليك ولكن أيا كان الحال فليس الأمر شرا الى هذا الحد . فأنت فقير معدم خادم ، ثم لا زلت حدثا . لم تذق حلاوة الحياة بعد . فلا بأس ان لقيت حتفك . انه لمن حسن الحظ ان اعترفت أنت ونجوت أنا » .

وقف فى مكانه ، ونظر بطرف عينيه الى رفاقه ، وزم شفثيه . وحدث نفسه قائلا :

– كيف لي بحق الشيطان أن أصلح ما بينى وبينهم ؟ كيف لي وقد نجوت أن أصلح ما بينى وبين هذا القسيس التيس ، وبطرياركاس اللعين الذى دعوته بالخنزير النبيل ؟ أما عن ناظر المدرسة فأنا لا أعبأ به . ولكن ماذا عن الآخرين لقد تسرعت وسبق السيف العدل ، ولكن لازالت هناك فرصة ، ومن حسن الحظ أنني نجوت .

كان الشيخ بطرياركاس يحقق فى مانولى الذى انكب على قراءة الانجيل . كان متحيرا من أمره . ومال على القسيس وهمس قائلا :

– يا أبانا ، عندى فكرة .

أدرك القسيس جريجوريس ما يعنيه ، وتنحنح ثم قال :

- لا تسأل عن شيء يا عمدة . دع الأمور تجري كما يشاء لها الرب .
- ولكن ماذا لو كان بريئا ؟ ماذا لو كان فعل هذا من أجل خلاص
القرية ؟ هل نتركه وشأنه ؟ أليست هذه خطية ؟ هل تتحمل وزر ذلك ؟
وقال القسيس :

- ان الله غفور رحيم . سيغفر لى خطاياى
- قد يغفر لك الله ، ولكن ماذا عن الناس ؟

قال القسيس وهو ينفخ متأفقا :

- اذا كان ما بينى وبين الله عمار فلا يعينى أمر البشر .
- ثم ...

وتدخّل ناظر المدرسة الذى كان قد دنا منهما واستمع الى حديثهما ،
فأضاف قوله :

- لا داعى لأن نرهق أنفسنا بالبحث فى ذلك ، ولنضع الامور
للخالق . . فكل شيء بمشيئته . . ثم يجب ألا ننسى أن مانولى يخلص
روحه أيضا . وهذا شيء له قيمته بكل تأكيد .
وزايد القسيس على ناظر المدرسة فقال :

- بل هذا أقيم شيء . سيخسر الحياة الدنيا ويكسب الحياة
الآخرة . . مثل ذلك كمثل من يعطى مليما من النحاس ويجزى عنه مليونا
من الجنيهات ذهباً . . لا تجزع ، فان مانولى يعرف جيدا ماهو مقدم عليه .
وقال ناظر المدرسة وهو ينظر الى مانولى مبتسما :

- انه فرد ذكى حقا .

رفع مانولى عينيه من على الانجيل ، كان وجهه وضاء مشرقا . وفى
هذه اللحظة دخل الحارس حسين وانقض عليه ، وأمسك بتلابيبه .
وصاح به :

- تعال هنا يا كافر . الأغا يريد أن يراك .

وتمتم مانولى :

- باسم المسيح .

كان الأغا فى حجرته متربعا فوق حشية ، يدخن غليونه الطويل ،
ويوسوفاكى مسجى بجواره . الوقت ظهرا ، والحر هجير ، وجثة
يوسوفاكى بدأت تفوح منها رائحة العفن . . دلفت مارنا الحدباء الى الحجره
فى سكون ، متأبطه حزمة من الورد والياسمين وزهر العسل . ألفت
بحملها كومه واحده فوق الجثة التى بدأت تتحلل ، ثم ولت مسرعة ، إذ
لم تقو على تحمل الرائحة .

كان الأغا غارقا فى حزنه ، فلم يشم الرائحة . يدخن غليونه شارد
الفكر فى تأمل عميق ، مكدودا ، ساكنا ، لا يفتأ يردد منذ الصباح قوله :
«قدر مكتوب . . قدر مكتوب . .» والتمس فى تأمله هذا عزاء هدا من
روعه . ألقى بمسئولية خطايا البشر على الله ، وارتاح لذلك . وهل لنا
أن نعترض على الله ؟ هكذا أراد ، وهكذا كتب علينا فى لوحه المحفوظ .
فما من شىء يحدث الا باذنه . ليس لنا الا أن ننكس الرأس خضوعا ،
ونصمت اذعانا . . أليس هو الذى كتب منذ الأزل أن يلتقى أغا ليكوفريسى
بيوسوفاكى فى سميرنا ؟ أليس هو الذى قدر فى سابق علمه من الذى
سيقتل يوسوفاكى ؟ أليس هو الذى كتب فى لوحه المحفوظ أن نعثر على
القاتل ؟ . . كل شىء مكتوب علينا . .

أبصر مانولى يدخل ، فوضع غليونه على الحصر الذى كان جالسا
عليه ، ثم عقد ذراعيه .
وقال فى هدوء :

ـ اصغ جيدا يامانولى الى ما سأقوله لك الآن .

ثم التفت الى حارسه وقال :

ـ ليس بى حاجة اليك الآن . انتظر خارج الباب .

ـ رأيت فى منامى الليلة أنك لست قاتل حبيبي يوسوفاكى . .
أسكت يا كافر ، دعنى أتكلم أنا . . أنت أقدمت على ذلك لكى تخلص
القرية . لا بد أنك قديس أو مجنون . . ولكن هذا شأنك . . ثق أن
كل شىء سيتم حسب ما أردت ، ساشنقك . ولكن نمة شيئا واحدا أريد
أن أعرفه يا مانولى : هل حقا أنت الذى قتلت غلامى يوسوفاكى ؟

استشعر مانولى أسى لحال الأغا . لم يسبق له أن رأى حزنا كهذا .
لم يعد الأغا ذلك الوحش الكاسر الهائج . أحاله الحزن انسانا . وتردد
لحظة ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ورفع رأسه وقال :

— يا أبا ، انه الشيطان الذى حرضنى على فعلتى • قدر مكتوب على
ان اكون أنا قاتله •

أسند الأغا ظهره الى الحائط وأغمض عينيه • وغمغم :

— الله •• الله •• العالم حلم ، أصبحت يتيما •

وفتح عينيه ، وصفق بيديه • ودخل حسين ، فقال له :

— خذ • اشنقه على شجرة السنار ساعة الغروب •

فى هذه الأثناء كان الرفاق الثلاثة ، ميشيل وقسطندى وياناكوس
يطوفون ببيوت القرية ، يطرقون أبوابها ، ويتوسلون الى أهلها ألا يدعوا
بريئا يلقي حتفه •

ظل ياناكوس يصيح قائلا :

— مانولى برى •• برى ! انه يفعل هذا ابتغاء خلاص القرية ••

ورد عليه عجوز من رجال القرية :

— حسن ، ماذا تريد منا أن نفعل ؟ اذهب الى الأغا وقل له ان مانولى
ليس هو القاتل •• ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ سيبدأ الأغا فى شنق
أهل القرية الواحد بعد الآخر حتى يفنى القرية عن آخرها • ومن ثم يلقي
آلاف من الأبرياء حتفهم بدلا من برى • واحد •• هل هذا عدل ؟ وهل فى
ذلك خير لنا ؟ أليس من الخير أن يموت واحد فقط بدلا من آلاف ؟ فضلا
عن أنه هو الذى أراد ذلك لنفسه • دعه يموت لننجو نحن وأطفالنا ثم
نصنع له بعد ذلك أيقونة نضىء حولها الشموع ونمجده كقديس • أما
الآن فليلقى منيته أولا •

وتحدث رب أسرة كبيرة الى ميشيل ، وسأله فى ضيق :

— أيها السيد الشاب ، هل لك أطفال ؟

— لا •

— حسن • اذن ليس لك أن تتكلم ودعنا فى سلام •

والتفتت الى ياناكوس امرأة عجوز تهدد حفيدها فوق ركبتيها ،
وقالت :

— مالى أراك تلح هكذا يا ياناكوس ؟ ليمت ألف مانولى فداء حفيدى •

ومسح ياناكوس عينيه وقال فى حمرة :

- انهم وحوش كواسر ، ذئاب و ثعالب •

وأجاب ميشيل :

.. - لا ، ليسوا وحوشا كواسر يا ياناكوس ، بل هم بشر وكفى ••

هيا بنا لا نريد أن نضيع وقتنا ولتكن مشيئة الله •

واستاء ياناكوس لذلك فقال :

- أنت تفكر فى أيبك ، اذ سيفلت الشيخ بهذه الطريقة •

نظر ميشيل إليه بعينين دامعتين •

وصاح ياناكوس :

- آسف يا ميشيل • لم أعد أدري ما أقول •

وما أن بلغا ألميدان حتى أبصرا كاترينا فى أجمل زينتها • كانت

قد غسلت شعرها من فورها ، وارتدت أحسن لباسها • خفت اليهما كأنها

• يخت ملكى ناشر شراعه يمخر عباب البحر بأقصى سرعته •

وسألها ياناكوس :

- الى أين يا كاترينا ؟

وصاحت الأرملة مولولة وقد فاضت عيناها بالدمع :

- يا جناء ، هل ستتركون مانولى فريسة للموت • أنا لن أفعل

مثلكم • سأذهب لأقابل الأغا •

وصرخ قسطندى :

- الأغا ؟ ماذا تريد من منه ؟ هل تنوين العودة الى مضاجعته ؟ بدأت

تحنين الى عشاقك القدامى ؟ •

وقال ياناكوس :

- حتى أنت يا كاترينا ، ذهب الحزن بعقلك •• اذهبي اليه وافعلي

ما تقدرين عليه •• رعاك الله •

وقال قسطندى الذى أسف لسخريته بها :

- ولكن قد يقتلك الأغا وهو فى سورة غضبه • ارجعى يا عزيزتى

المسكينة كاترينا •• :

• سئمت الحياة • حسبي أن أخلص مانول •

ثم انسلت الأرملة داخل فناء بيت الأغا وغابت عن الأنظار •

وتمتم ميشيل حين أبصرها تدخل بيت الأغا مرفوعة الرأس ، وقد كان الباب مفتوحا على مصراعيه •

• انها خير منا جميعا ••

كان الجو حارا ، والزمن ثقيلًا ، وانبعثت من القاعة الكبيرة رائحة خانقة تفوح من الزهور والنجثة المتحللة •• أسند الأغا رأسه الى السرير المعدنى الصغير وراح فى سبات • كان يبتسم وهو نائم • لا بد أنه يحلم ، تتراءى له مأساته كابوسا عابرا ، وسيجد نفسه فى صحوه جالسا فى شوفته وبجانبه يوسف اكي يملأ له كأس العرقى ••

وثمة حمامتان تحومان فوق الشرفة ، تلتقيان وتقبلان بعضهما بمنقاريهما ثم تهدلان • يتردد هديلهما فى سمع الأغا وهو نائم فيبتسم • وفى الفناء من تحتهما كان الصنبور مفتوحا ينساب منه الماء فتسمع لصوته خريرا • والكلب باسط ذراعيه بالوصيد فوق الحجارة يلهث • وقط اسود كبير سمين ، لاذ بالظل وعيناه الخضراوان تلمعان فى سحر وقلق •

اجتازت كاترينا الفناء بسرعة خاطفة خشية أن يلمحها الحارس أو أن يكشف سرها نباح الكلب • ولكن الحارس لم يلمحها ، والكلب شم رائحتها فتعرف عليها ، وهز ذنبه راضيا مرحبا • والتقطت الأرملة أنفاسها • وأحست برائحة غريبة مقرزة تمسك بخناقها ، فالجوع عبق برائحة عطرة وكريهة معا •• كانت كاترينا تعرف مداخل البيت ومخارجه جيدا • فكم من مرة فتحت لها مارثا الباب خلسة أثناء الليل وقتما كان الأغا لا زال وحيدا • كان هذا قبل رحلته الى سميزنا ، تلك الرحلة التى عثر فيها على حبيبه يوسف اكي فى حى ستركى • رأى يوسف اكي جالسا فوق مقعد صغير مطعم بالصدف وسط مقهى ويفنى أغاني آمان • وما أن وقعت عليه عينا الأغا حتى فقد صوابه • ومنذ تلك اللحظة نسي كاترينا تماما ، ولم يعد لها مكان فى قلبه • وكثيرا ما حاول الحارس أن يذكره بالأرملة ، ولكن الأغا كان يضحك من كلامه • وذات يوم قال له : « أيها العجوز الطيب يحكى أن الباشا دعا ذات يوم أحد أصدقائه ليكون له نديما فى شرب العرقى • ولم يقدم له مزة سوى اناء به زيتون وآخر به كافييار • واذا بالصديق لا يأكل غير الكافييار ولم يقرب الزيتون • فقال

له الباشا : « كل زيتونا أيضا يا سعادة البك » ، وأجاب الصديق :
« الكافيار لا يدانيه شيء يا سعادة الباشا ، وأنا مولع به جدا » ، هل
فهمت يا حسين ؟ حبيبي يوسفاكى هو الكافيار .. وأمسك الحارس
عليه لسانه ، ولم يذكر له الأرملة منذ ذلك اليوم .

كانت كاترينا قد اجتازت الفناء ودلقت الى البيت . وتوجست
خيفة : المرأة للكبيرة والحشايا والكراسى المبطنه والمدفأة النحاسية الضخمة
والأريكة ، كلها كانت هدفا للأغا ، نفس فيها عن غضبه وأحالتها الى
شظايا .

وسرت فى جسدها رعدة ، وحدثت نفسها قائلة :

– هكذا فعل بانايوتى أيضا من أجلي ..

سمعت وُقع خطوات ، فتوارت خلف حشية مهشمة . ظهر الحارس
عند الباب . أصبح شبحا حقيقيا – تفضنت وجنتاه ، وغارت عيناه فى
محجريهما ، وسأل لعابه من بين شفثيه . توقف هنيهة وتلفت حوله دون
أن يعي شيئا مما يراه ، وتهد ثم خرج الى الفناء يترنح . قبع بجوار
الكلب وأجهش بالبكاء .

وشمت الأرملة علامة الصليب . وتمتمت قائلة :

– « يسوع ربى ، أنت وحدك من يفهم المرأة ويغفر لها كل خطاياها .
ها أنذا مهيأة لكى أمثل بين يديك » . كانت قد استحمت وارتدت أحسن
ثيابها وضمخت شعرها بماء الورد .. وعادت تتمتم « يسوع ربى ها أنذا
مهيأة .. »

– كاترينا يا عزيزتى ، ماذا تفعلين هنا ؟ عودى من فورك الى بيتك .
ماذا تريدن يا منكودة الحظ ؟

استدارت الأرملة فرأت مارثا متأبطة حزمة زهور وتهم بالصعود الى
الحجرة . كانت شاحبة الوجه ، شعناء الشعر .

فقالته الأرملة :

– مارثا ، أريد أن أرى الأغا ..

– أتجسرين على ذلك ودم يوسفاكى لم يجف بعد .. انه سيقطعك
أربا أربا أيتها التعسة .

وعادت الأرملة تقول :

– مارثا ، أريد أن أرى الأغا . . أريد أن أفضى إليه بسر خطير .
فأنا أعرف القاتل .

وضحكت العبدة العجوز فى تهكم وقالت :

– مانولى ؟

– لا ، انه شخص آخر سواء . . ستعرفين فيما بعد ما يقشع له
يدنك . .

حطت العبدة العجوز حزمة الزهور فوق الدرج وصعدت الى حيث
تقف الأرملة ، وشبت على قدميها .

وقالت لها همسا ، وعيناها يومض فيهما بريق :

– من ؟ من ؟ هل شككت فيه أنت أيضا ؟ وأنا أيضا . . وأنا أيضا .

وقالت الأرملة وقد أسقط فى يدها :

– من ؟

١٤

تقرست العجوز فى وجهها ، وهزت رأسها ، وانحنى على الدرج
ورفعت حزمة الزهور ، وقالت :

– لا شيء . أنا لم أقل شيئا . . سأذهب لأضع الزهور فوق هذا
الغلام اللعين . بدأ يتحلل . ليأخذه الشيطان !

وبصقت على الارض اذ أحست بقرف . وفجأة انفجر ما فى نفسها
من حقد وضمينة :

– وأنت أيضا يا جميلتى ستأكلك الديدان . وأنا مثلك . لك أن
تزهي ما شاء لك ذلك ، فكلنا سواء .

وتردد فى القاعة صوت دوى عنيف سمعت بعده صيحة غاضبة .

– من هناك تحت ؟ مع من تتكلمين أيتها الحدباء العجوز ؟ احرسى .

انكمشت العجوز الحدباء بينما تقدمت الأرملة فى جراءة ترتقى الدرج .

– أنا كاترينا يا أغا .

ولول الأغا

– يا عاهرة . اخرجى من هنا .

ولكن الارملة اعرضت عن كلامه وارتقت الدرج فى هدوء .

ونادتها !الحدياء همسا من تحت الدرج :

- يا كلبة الا تخافين ؟

هزت لها كاترينا كنفها وواصلت سيرها ترتقى الدرج . وفجأة
أبصرها الأغا قبالة .

ألقت الارملة بنفسها عند قدميه وصاحت به :

- عفوك يا أغا ، عفوك !

ركلها الأغا فى جنون ، فانكفأت على بطنها ثم انقض عليها ليلقى بها
من فوق الدرج . ولكن الأرملة أمسكت بحاجز السلم وبتنهار الى الارض
وأخذت تصرخ :

- اسمعنى يا أغا . لم أعد أطيق كتمان السر . أتيت لأرتى عند
قدميك . يا أغا أنا التي قتلته !

جار الأغا .

- أنت ؟ أهو أنت يا عاهرة ؟

واستدار ، عيناه تطوفان فوق الجدران بحثا عن سيفه :

- أنا يا أغا ، أنا ، كم أنا شقية ، أنا الذى قتلته بدافع الحب . .
والغيرة . . كنت أغار منه . منذ أن وطئت قدماه قصرك وأنت منصرف
عنى لا تنظر الى . لم تعد ترسل مارثا تدعونى اليك . . كنت أبكى . .
أضناني السقم . . كنت أقسف خلف بابى آناء الليل وأطراف النهار
أنتظر . . ولا شيء . . لا شيء البتة . ملاً يوسف اكي عليك حياتك
ونسيتنى . . قصدت العرافين على اختلاف شاكلتهم ألتمس منهم العون . .
وذاذ ليلة استعنت بشيء من السحر ووضعته عند عتبة بابك وانتظرت
. . ولكن عبثاً ، يوسف اكي ملاً عليك حياتك ونسيتنى . . أنا يامن أحببتك
كثيراً وأحرقتنى نار الوجد ، وأكلنى جحيم الغيرة حتى أذهبت عقلى . .
وعندما انتصف الليل استللت سكيناً . .

وزحفت على بطنها حتى دنت من قدمى الأغا ، واحتضنتهما ،
وبدأت تعول :

- يا أغا ، أقتلنى يا أغا ! ما جدوى الحياة لى ؟ أقتلنى !

كان الأغا لا زال يبحث بعينه فوق الجدران عن سيفه دون جدوى .
بدأ البيت يدور أمامه ، وغامت عيناه فلم يعد يستبين شيئا .

واستلت الأرملة سكيناً من داخل صدرتها ، واعتدلت لتجتو على
ركبتها ، وقالت :

— ها هي يا أغا السكين التي قتلته بها . . ثم عادت تقول وقد
كشفت عن نحرها :

— ها هي ، بهذه السكين يا أغا .

تدافع الدم الى رأس الأغا ، واحمرت عيناه ، واستدار فوق بصره
على يوسف أكي مسجى خلفه فوق السرير ، أصفر ، مفتوح العينين فأغرا
فاه ، وذباب ضخيم فيه سواد وزرقة حط على شفثيه ، يدخل ويخرج من
فمه ومنخاريه .

عاد ينظر أمامه فأبصر الأرملة . فانقض عليها ، وأمسك بالسكين
التي كانت في يدها تناولها له ، ولوح بها في الهواء ، ثم بطعنة واحدة
غرس نصلها في قلبها حتى مقبضها . ثم ركلها بقدمه فتدحرجت فوق
الدرج من أعلاه الى أسفله .

الطَّرِيقُ الصَّاعِدُ

أثار دم الارملة نائرة الأغا من جديد . فقد رأى لونا أحمر . وتطاير الدم الى رأسه فخضبه . واستيقظت في نفسه رغبته الاولى في ذبح أهل القرية جميعا ، رجالا ونساء ، حول الجنة التي كان يهيم بصاحبها عشقا وأردوه قتيلا . أمسك بالسكين ثانية والدم يغطى ذراعه حتى مرفقه . ونادى حسينا .

— انزل الى الزنزانة واقبض على مانولى ، سقه أمامك الى شجرة السنار . وأنفخ في النفير وأدع الكفرة ليحضروا المشهد! أحضر يوسفواكى تحت شجرة السنار حتى يعاين المشهد أيضا . . أشنق هذا السافل سواء أكان هو القاتل أم لا . آتنى السوط ، سأنزل اليهم بنفسى أحطم عظامهم لأشفى غليلي ! ربما أشنق الخمسة جميعهم هذا المساء ، الواحد بعد الآخر ، مذنبين كانوا أم غير مذنبين ، ولكن سأشنقهم جميعا . لماذا يبكون على قيد الحياة وحبيبى يوسفواكى ممدد هناك قتيلا ؟ أسرع .

وفاضت عينا الأغا بالدمع ثانية . واستدار ، ووضع السكين المملوطة بالدم بين الزهور فوق جنة يوسفواكى . وقال :

— خذها معك يا حبيبى يوسفواكى . ثم أقمى الى جانبه ، واتكأ على السرير المعدنى الصغير ، وبدأ يدخن . أغمض عينيه . وطافت بمخيلته حقول وجبال وقرى . تراءى له انه اتخذ طريقه من جديد فى رحلة من ليكوفريسي الى سميرنا . حيناً راكبا عربة ، وحيناً متطيا صهوة بفلته ،

وحينا على ظهر تلك الآلة الشيطانية التي أتى ألبنا بها الفرنجة ، عليهم
 اللعنة جميعا . وفجأة حدثت معجزة ذات صباح ! قصور وأسواق وجوامع
 وبشر يحصون بالآلاف ، وموسيقى وحدائق والبحر ! ثم اختفى كل شيء .
 لم يبق سوى مقهى تطل على الشاطئ . أبوابها مفتوحة ، والجو حار ،
 والشمس تآذن بالمغيب . كان الأعوات هناك . فرغ كل منهم من حمامه
 وتزين وصبغ شاربه . جلسوا جميعا فوق حصير فى شكل دائرة ، وبدأوا
 يدخنون النارجيلة . ودخل أغا ليكوفريسي . فماذا رأى وسط القاعة ؟
 غلاما متربعا على كرسى كأنه العرش ، هو يوسفواكى ، وكان يفتى : « دنيا
 تاير ، روبا تاير . آمان ، آمان ! » وفى لمح البصر اختفى كل شيء :
 المقهى ، والأعوات ، والحصير ، والنارجيلات . لم يبق من سمرنا كلها الا
 هو وحبيبه يوسفواكى أحدهما جاث على ركبتيه يتضرع ويتوسل ،
 والآخر يتدلل ويتمنع واللبانة فى فمه يلوكها . .

دخل حسين والسوط فى يده ، ووضع على ركبتي الأغا . نكس
 الأغا رأسه ، وحملق بعينه من تحت حاجبين كثيفين ينظر الى السوط ،
 شاردا الفكر . الى أين يذهب ؟ لماذا يترك مكانه حيث هو على شاطئ البحر
 فى صحبة يوسفواكى ؟ فأغمض عينيه ثانية وعاد الى سمرنا .

دوى صوت النفير فى الخارج . . قاربت الشمس المغيب ، ولم تختف
 حرارة الشمس . وسكنت أوراق الشجر . وجمدت القرية عزلاء منكمشة
 على نفسها تتقلي فوق حرارة الارض .

فتحت الابواب ، وخرج أهل القرية على نداء النفير ، الواحد اثر
 الآخر ، وتجمعوا حول شجرة السنار . البعض أثقله الهم ، فلاذ بالصمت ،
 والبعض مهتاج ضيق الصدر ، يروح ويحيى فى نقاش دائم : ترى هل
 قتله مانولى حقا ، أم لا ؟ هل هو المجرم أم سواء ؟

قال أحدهم وهو يهز رأسه : « لا يخذعك السهو ! أنا لم أكن أثق
 أبدا بمانولى ، حينما مع الارملة ، والآن مع يوسفواكى . . أف ! ما أفبجه!
 لياخذ الشيطان !

ووصل خادم الكنيسة العجوز لاهثا . كان يحمل اليهم أخبارا تثير
 الهلع ، ولكنها تثلج صدره .

— كنت أمر أمام بيت الأغا ، هل تعرفون ماذا رأيت ؟ بالحدياء العجوز
 تلطم صدرها وتنوح . قلت لها : ماذا بك يا أماء ؟ — قتلوا الارملة . —
 من هم ؟ — الأغا ! نحرها كما تنحر الشاة ، ثم قذف بها من فوق الدرج .

قل للمسيحيين أن يأتوا ليدفنوها فهي مسيحية أيضا ولها روح ، هذه
المسكينة ..

وقال عجوز صفراوى فى تهكم وسخرية :

– ندفنها ؟ وماذا أيضا يا شماس ؟ ليحرقها الله فى نار جهنم .

أذنت الشمس بالمغيب . وحومت الاطيوار حول شجرة السنار تبحث
عن ماوى تسكن اليه لتقضى ليلتها . ولكنها أبصرت تحت الشجرة حشدا
من البشر يدور بينه لفظ مزعج . تملكها خوف ، فشردت تحلق هنا وهناك
فى تردد وقلق ، تنتظر أن ينفض هذا الحشد اللجب وتأنس الى أوكارها .

وفجأة دوى صرير الباب الثقيل لببيت الأغا . فتح الباب ، وإشرابت
الأعناق . وندت آهة ، سرت بين الجمع كموجة تردد صداها فى الهواء .
وظهر مانولى فوق عتبة الباب هادئا ، مبتسما ، موثوق اليدين من خلاف ،
دامى الوجه والذراعين .

توقف لحظة كمن يريد أن يودع أهل القرية . لم يمهله الحارس الذى
كان فى اثره ، وعاجله بضربة موجعة بالسوط . واجتاز مانولى العتبة فى
صمت ، ومن ورائه رجلان يحملان السرير المعدنى الصغير يرقد فوقه
يوسوفاكى تحت أكوام من الورد .

تقدم مانولى بخطى ثابتة . كان يجول بعينيه فى هدوء بين الوجوه
التي تحيط به ، والمنازل والاشجار ، وينظر على البعد الى حقول القمح وقد
انحنت سنابلها تحت ثقل حباتها الناضجة ، تلمع فى بريق كبريق الذهب
تحت أشعة الشمس الغاربة . وحدث نفسه قائلا : « حمدا لله الذى من
علينا بمحصول طيب هذا العام . سيجد الفقراء حاجتهم من الطعام » .

وفجأة وقع بصره على رفاقه الثلاثة تحت شجرة السنار ، ينظرون
اليه بعيون دامعة . ابتسم لهم مانولى ، وأومأ اليهم برأسه مودعا . وتوقف
لحظة ، ونظر الى الناس من حوله وصاح قائلا :

– وداعا أيها الأصدقاء ، فانى راحل عنكم .

ثم دار بعينيه ونظر الى أصدقائه الثلاثة وقال :

– أيها الاخوة ميشيل وياناكوس وقسطندى انى راحل . وداعا .

وصاح الاصدقاء الثلاثة بأصوات مخنوقة :

– برىء ! برىء ! برىء !

وصاح ياناكوس بأهل القرية الذين لزموا الصمت وهم يشهدون
ما يدور أمام أعينهم :

— هل ماتت مشاعركم؟ أولى بكم أن تخروا أمامه ركعا أيها الجاحدون .
انه يموت من أجلنا وابتغاء خلاص القرية . ألا تفهمون ؟ انه يحمل خطايانا
جميعا مثلما فعل المسيح . أيها الاخوة ...

لم يمهله الحارس : اندفع نحوه والسوط في يده ، والتف السوط
حول رقبته .

ظهر الأغا عند عتبة الباب ، وسرعان ما خيم النسكون . أفسح له
الجمع طريقا . وتقدم الأغا ، ثقیل الخطوات ، مكتئب الوجه ، منكس
الرأس .

توقف عند شجرة السنار . ودون أن يلقي نظرة الى مانولى أصدر
أمره الى حارسه :

— اشنقه .

وانقض الحارس الضخم فوق مانولى وأطبق بكلتا يديه على رقبته .
وفى هذه اللحظة دوت صرخة مولولة :

— يا أغا ! يا أغا !

كانت مارثا العجوز تجرى نحوه لاهثة الانفاس متأبطة صرة من
الملابس . وامتقع وجه حسين ، وسقط الحبل من يده ، وأسند ظهره الى
شجرة السنار وهو يرتجف . وخرت الحدباء العجوز الى الارض عند قدمي
الأغا وصرخت :

— يا أغا ... أنظر ، أنظر !

وفكت الصرة عند قدمي الأغا ، وصفت فوق الارض قميصا وسروالا
ونعلين ، كلها ملطخة بالدماء . انحنى فوقها الأغا وصاح :

— ملابس من كل هذه ؟

وأجابت مارثا العجوز :

— ملابس حسين . حارسك يا أغا .

واستدار الأغا ، وحج حسين بنظرة . كان قد سقط على الارض
تحت شجرة السنار . وبهت أهل القرية .

وانقض عليه الأغا بوثة واحدة ، يهزه في عنف وهو يقول :

« حسين مختار ! »

تكور الحارس على الارض ، وأخفى وجهه بين يديه الضخمتين المشعرتين . وأخذ يخور كما يخور العجل :

— الرحمة

اقترب الاصدقاء الثلاثة ، وقلوبهم تخفق في عنف حتى توشك أن تتصدع . وتحرك الحشد كموج بشرى ، أحاط بالأغا والحارس ومارنا ودنا ياناكوس خلسة من مانولى ، وفك وناقه ، وأمسك بيده وقبلها . رفع الأغا رأسه ، وتطلع الى أهل القرية ، ورأى وجوههم متهللة ، فلوح بسوطه وصاح :

— انصرفوا يا كفرة . أغربوا عن وجهي والا فالويل لكم .

واندفع نحو الحشد ، وانهاه عليهم بسوطه رجلا ونساء كأعمى لا يميز شيئا . وبدأ الزبد يغطي فمه .

أقفر الميدان في لمح البصر . تفرق الجمع مذعورين ، كل الى بيته . أما أكثرهم جرأة فقد تواري وراء زوايا الجدران يرقب ما قد يحدث . وانصرف الرفاق الثلاثة ومعهم مانولى ، واتخذوا لهم مجلسا بجانب حائط في الطرف المقابل من الميدان حيث يمكنهم أن يشهدوا ويسمعوا كل ما يدور هنالك .

كان الأغا يجار :

— انه أنت يا قدر ! انه أنت يا كلب !

كان واقفا فوق الحارس يطأه بقدميه ويبصق عليه . واستل سيفه ، ثم أغمده ثانية . وانحنى على الارض والتقط بعض الحجارة وأخذ يقذفه بها فوق رأسه . لقد فقد صوابه فلم يعد يدري أى مية يختارها له .

كانت العجوز مارثا تجرى هنا وهناك ، تقفز ، وترقص ، فرحة متهللة . تجمع الملابس داخل الصرة ، ثم تبسطها على الارض كاشفة عن يقع الدماء فيها . لا تكف عن ترديد نفس الكلمات وكأنها نتغنى بموال :

— سمعته يا أغا وهو يرتقى السلم عندما انتصف الليل . وترامت الى سمعي يا أغا صرخة واهنة كصرخة طير ذبيح . ولكن كيف لامرأة

بائسة مثل أن تجرؤ على فتح فمها ؟ وها أنت ترى بعينيك الآن الملابس والدم !

وعادت تصف الملابس من جديد تعرضها على الأرض كاشفة عن بقع الدم . . .

وفجأة سئم الأغا ترديدها . فرفسها في كليتيها وتدحرجت العجوز فوق الأرض ، تصرخ صرخات معولة كقط ذبيح . ثم تحاملت على نفسها هاربة من أمامه الى بيت سيدها . وقبعت عند عتبة الباب كخفاش ، عيناها مثبتتان على الأغا والحارس ترقبهما .

وغمغمت قائلة :

— الآن ليفقأ كل منكما عين الآخر أيها التركيان القذران ! حسبي أنى عثرت على بغيتي وليذهب كل شيء بعد ذلك الى الجحيم .

جنا الأغا على الأرض ، ولكم حارسه بجماع يده لكمة قوية أقعدته أمامه وجها لوجه ، أنفاهما متلاصقان . وجمداً في مكانهما فترة طويلة بغير حراك . غابت الشمس ، وتجاورت الطيور ، اذ اختفى الحشد عن أنظارهما ، وعادت الى أوكارها فوق شجرة السنار .

ظل الرفاق الأربعة رابضين في مكنمهما قبالة الحائط في وجل . كانوا ينتظرون حدوث مشهد مروع يوشك أن يقع .

وتتمم مانولى :

— « انى أشفق على هذا الحارس المسكين » .

وأجاب ياناكوس :

— « أسكت . ان الله لا يشفق عليه » .

وفجأة هب الأغا واقفا وزأر كالأسد .

— « قف ، يا كلب » .

قفز الحارس واقفا على قدميه . استل الأغا سيفه ثم هوى به مرتين وثلاثا فوق الحارس ، يبتز أنفه وأذنيه ، وطوح بهم الأغا بعيدا . لم يحرك الحارس ساكنا ، ولم يصرخ . ظل واقفا في مكانه جامدا كأنه جذع شجرة يقلمها بستاني . ونزف دما ، وسال الدم على الأرض ليصنع بركة من الدماء هزوجة بالطين .

ولوح الأغا بالسوط وصباح :

« اجر حول الشجرة » .

وبدا حسين يعدو مترنحا حول شجرة السنار .

وزار الأغا من جديد :

« قف » .

وتوقف الحارس . انقض عليه الأغا ، ومزق عنه سرواله ، وأمسك
بعضوه وبتره بضربة واحدة من سيفه ، وطوح به فوق جثة يوسوفاكى
وسط أزهار الياسمين . وهنا ندت عن الحارس صرخة مروعة خر بعدها الى
الأرض . أمسك الأغا بعنقه ، ورفع وأقعده فوق الكرسي ، ووضع الجبل
حول رقبته ، وركل الكرسي ، وتأرجح الحارس فى الهواء بعد أن تقطعت
أشلاؤه فى وحشية والدم يغطى جسده .

مسح الأغا العرق الذى تصيب من جبهته بيده الملطخة بالدماء
فاصطبغ وجهه كله بلون الدم . وخر الى الأرض لاهثا محملا بعينيه فى
حارسه فاغرا فاه . وظل الأغا هكذا فترة طويلة . وبعد أن شفى غليله نهض
من مكانه . ودون أن يلقي نظرة الى الرجل المعلق ، أو الى يوسوفاكى ،
عاد الى بيته يترنح فى مشيته . وفتح الباب برفسة من قدمه وخر الى
الأرض سطيحا مغمشيا عليه فوق بلاط الفناء ، وكان لسقوطه دويا .

فى هذه الآونة كان الشيخ بطرياركاس يسأل رفاقه :

« ترى ما الذى يحدث الآن فوقنا ؟ » .

كانوا جميعا مستقلين على الأرض ، وقد أسندوا ظهورهم الى الحائط
وأداروا رؤوسهم ناحية الباب السفلى منتظرين ما يحدث .

وأجاب الشيخ لاداس الذى بدأ يسعى لاصلاح ما بينه وبين ذوى
السلطان ، يدهنهم ويتزلف اليهم .

« سأقول لك أنا يا عمدة . مانولى الآن - ليغفر الله له - معلق
فى الهواء ، سواء أكان هذا خطأ أم صوابا ، ولكن ماذا يعيننا فى ذلك .
المهم أن نفلت نحن وننجو بأنفسنا . وبعد لحظة سيأتى الحارس ويصيح :
أخرجوا يا كفرة ، انطلقوا الى بيوتكم ! » سيركلنا بقدمه ، وسوف نعود
الى النور والى أعمالنا . أما فيما يتعلق بما دار بيننا من حديث هنا ، فليذهب
أدراج الرياح وعفا الله عما سلف . أليس كذلك يا عمدة ؟ ألسنت معى
أنت أيضا ، يا أب جريجوريس ؟ »

وقال القسيس جريجوريس لنفسه :

• « قسما لأفقان عينك أيها الخنزير القذر » •

ولكنه لم يفصح عن سريرته • اذ تذكر أنه مسيحي وقسيس •
فأبدى له البشاشة تكلفا ، وحدثه بصوت معسول :

• « لننجو أولا بعون الله يا شيخ لاداس ، وما عدا ذلك سيطويه
النسيان • نحن رجال عشنا معا لحظات عصيبة ، وما بدر منا ليس الا هنات
لا يؤبه لها • أنا عن نفسي نسيت كل ما كان » •

وقال الشيخ بطرياركاس بادى الغضب :

• « لن أنسى لك أبدا أنك دعوتنى « الخنزير النبيل » •

اذ كان هذا النداء طعنة له فى الصميم لأنه يصدق عليه تماما •

وقال الشيخ لاداس متظاهرا بالدهشة :

• « هل تفوهت بشيء كهذا يا عمدة ؟ أنا أسحب هذه الكلمة •
ما أتعسنى • ذهب الحوف بصوابى فخلطت فى الكلام • قصدت أن أقول
« السيد النبيل » فقلت « الخنزير النبيل » • »

ورفع بانايوتى رأسه الضخم المصاب بالرضوض ، وصاح :

• « اذهبوا الى الشيطان يا عصابة من الجبناء • كل منكم يخشى الآخر
ويشمئز منه ، ولكن يخاف البوح بما فى نفسه • تتهادنون يا حفنة من
الكسالى ابتغاء نهب الفقراء من الناس • ولكننى أنا البغيض الى نفوس
الناس جميعا لا أخافكم • أيها القساوسة والأساقفة والسادة العمدة والأعيان
وناظر المدرسة انى أبصق عليكم جميعا » •

• كان ناظر المدرسة على وشك أن يفتح فمه ليهدىء من حدة الحديث
عندما انفتح الباب • ودخلت مارثا العجوز ، ولمعت عينها فى الضوء الكابى
تبرق بنظرات حادة •

وصاح الشيخ بطرياركاس وهو ينهض من مكانه :

• « ايه يا مارثا ماذا وراءك من أخبار عن العالم العلوى ؟ » •

كشفت العجوز عن أسنانها فى ضحكة بلهاء ، ومدت يدها على نحو
ما يفعل الشحاذون وأجابت قائلة :

• « لن أبوح بشيء حتى تملئوا يدي هذه بالعملات الذهبية » •

وقال الشيخ لاداس وهو يتباكى :

- « أيتها السليطة العجوز ، ألا تأخذك بنا رحمة ؟ نحن فقراء معوزون ، هل تريد أن تمتص دمانا ؟ » .

وسألها القسيس جريجوريس :

- « هل تحملين لنا أخبارا طيبة أم سيئة . يجب أن نعرف أولا ، ثم نتفق بعد ذلك » .

- « قلت لك يا أبانا لن أبوح بشيء . ألا تفعلون قداسبتكم نفس الشيء ، تمدون يديكم قبل أن تبدأ ترتيل « كيريلايسون » ؟ لماذا تريد مني أن أكون خيرا منك ؟ افتحوا حوافظ نقودكم يا سادة باسم ما أنشده لكم من خير » .

كان الشيخ بطرياركاس أول من فتح حافظة نقوده ، وأخرج منها جنيها ذهبيا . ثم التفت الى القسيس وقال له :

- « هيا يا أبانا ، انهم يدعونك القسيس النبيل فلا تتوانى . وأنت يا شيخ لاداس افتح جرابك وادفع ، يا من دعوتني باسم « الحنزير النبيل » ، من الخير لك أن تنزف بعض دمك حتى يشدد ساعدك للهجوم أيها التمس . وأنت يا ناظر المدرسة تعال وادفع شيئا . حقا لست ثريا ولكن ادفع ما تجود به حتى تنتهي مما نحن فيه . ان المرأة العجوز تحمل الينا أخبارا طيبة ، ألا ترى ذلك في عينيها اللامعتين ؟ » .

دس كل من القسيس وناظر المدرسة يده في حافظته ينقب فيها . وتنهد الشيخ لاداس وقال للمرأة العجوز في توسل وضراعة :

- « لو قلت لك انى مدين لك بهذا المبلغ ، ألا تقبلين أيتها الأم الطيبة مارثا ؟ سأكتب لك ايصالا بذلك » .

- « يا الله ؟ حياتك لا تساوى فى نظرك عملة ذهبية حقيرة أيها البخيل ؟ هيا تشجع قليلا وافتح حافظة نقودك » .

واستدارت ناحية بانايوتى وقالت له فى سخرية :

- « أما أنت يا أكل الجبس فلا أنتظر منك مليما . لا بد أن الأرملة تركتك خاوى الوفاض مفلسا » .

وعوى بانايوتى :

- « اخرسى أيتها الحمامة العجوز . انتظري حتى أقيس حذبتك

لاصنع لك سرجا يحمي ظهرك ، أيتها العجوز الحيزبون ،

– « لا تفضب يا أكل الجيس المسكين . أتيتك بأخبار تعنيك أنت
أيضا : لقد نجوت . نجوت أيها العاشق التعس ! وانتقلت كاترينا الى
العالم الآخر ، »

جحظت عينا بانايوتى ، وحاول الكلام فلم يستطع . فبدأ يعوى
ويندب .

وواصلت العجوز كلامها :

– « قتلها الأغا منذ لحظة . غرس سكينه فى قلبها وقدمها هدية الى
الشیطان ، »

تمرغ بانايوتى على الأرض ، وأخذ يضرب الحائط برأسه . وبدأ
يزار كوحش مفترس ينادى الأرملة .

قبعت الحدباء العجوز عند عتبة الباب تحاول أن تستفرزه :

– « من قال لها أن تكون جميلة ؟ من طلب منها أن تكون عاهرة ؟
من طلب منها أن تذهب الى الأغا ؟ نالت ما تستحقه . غرس سكينه فى قلبها
ثم قذف بها من حالق فسقطت تتدحرج فوق الدرج ، »

ولكن بانايوتى لم يسمع ما قالته ، كان يتسلى ، يعض الأرض ،
وينادى الأرملة بصرخات معولة .

فرغ الشيخ بطريار كاس فى هذه الأثناء من جمع الأموال ، وملأ بها
راحة العجوز الحدباء . وسرعان ما انطلق لسانها تقص عليهم القصة كاملة .
كانت تتحدث اليهم وهى تضحك وترقص وتقلد الأغا والحارس ، حينما
تعوى ، وحينما تضحك فى سخرية . . ورسم القسيس جريجوريس علامة
الصليب وقال :

– هيا بنا نخرج . مبارك اسم الرب . دخلنا الى هنا أناسا بسطاء
مكتوب علينا الموت ، وها نحن نخرج أبطالا وشهداء للمسيح .

وقال الشيخ بطريار كاس بدوره :

– هيا بنا . لقد فزنا .

وقال العجوز لاداس :

– كلفتنى هذه المشكلة جنيها . ولكننى سأستعيد مالى عندما أخرج .

ولابدأ بهذا الكلب المدعو ياناكوس . . سأسئولى على حماره .

وقف القسيس جريجوريس عند عتبة الباب ، ووشم فوقها علامة الصليب ثم التفت الى رفاقه وقال :

– غدا يا اخوتى يجب أن يختلى كل منا بنفسه ويصلى صلاة الشكر .
لقد كنا ابطالا ومسيحيين فى سلوكنا . وخرجنا مظفرين من هذه المحنة المروعة « المجد لله » .

وقال ناظر المدرسة :

– أما أنا فسوف أكتب للتلاميذ موضوعا انشائيا عن الشهادة والبطولة عند سلاله الاغريق .

خرج القسيس جريجوريس أولا ، شاهخ الرأس ، مختالا كتييس يتصدر القطيع . وسار من ورائه الشيخ بطرياركاس كالح الوجه جوعان . وفى اثره ناظر المدرسة مزهوا فخورا أن أبدى بسالة ، ولم يضدر عنه ما يشين أسلافه . وجاء فى المؤخرة لاداس العجوز رافعا بيديه سرواله الذى قطعت تكتته .

وصاحت العجوز الحدباء التى كانت تنتظرهم قرب الباب والمفتاح فى يدها :

– هيا يا آكل الجبس . اخرج أنت أيضا . أصبحت أرمل أيها التعس ، وكذلك أصبح الأغا فكن رقيقا له .
وجأر السروجى :

– ليخرج كبار الحمير أولا . ساخرج وحدى .
وقبض على يده ونهض :

– أيها القسيسون والأساقفة والسادة العمدة والأعيان وناظر المدرسة . . انى أبصق عليكم جميعا .

لم يستطع القسيس أن يكبح جماح نفسه أكثر من ذلك فرماه بقوله :
– يهوذا .

قال كلمته هذه ثم ولى مسرعا .

وخف وراه بانايوتى يريد اللحاق به ويشده من لحيته . ولكن

القسيس كان قد سبقه الى خارج البيت يرسم علامة الصليب فى الفناء .
وتبعه رفاقه الثلاثة يغنون السير .

أقبل الليل ، وأقفر الطرق ، وآوى أهل القرية الى بيوتهم ،
وجلسوا الى موايدهم يأكلون ويشربون ، وازدادوا لأنفسهم هذا المساء
كأسا على غير العادة احتفالا بهذا اليوم المشهود ، وتجاذبوا أطراف الحديث ،
تجرى على ألسنتهم أسماء مانولى وحسين والأرملة والأغا ويوسف اكي ومارثا
العجوز . الشيوخ من الرجال يستعيدون ذكريات الماضى ، والنساء يثرثن
بالقيل والقال ، والأطفال يتخذون مما حدث مادة لذكريات المستقبل .

جلس الشيخ بطرياركاس الى مائدة حافلة بأطيب الطعام . استحم ،
وغير ملبسه ، وتهندم ، ولينيو تروح وتجىء فى نشاط وبشاشة ، متوردة
الوجنات . أعدت دجاجة مسلوقة لسيدها ، وحساء بالبيض والليمون حتى
يسترد قوته . وجلس ميشيل قبالة أبيه يرقبه وقد أقبل على الطعام كذئب
نهم ، يلتهم ما أمامه فى سعار ، والعرق يتصبب فوق جبهته ، وكله رغبة
فى أن يستعيد ما خسره من قوته . كان يرقب الشيخ فى ذهول ، وينصت
له وهو يتحدث ويضحك ويمضغ . ثم يقول بينه وبين نفسه :

— ها هو ذا أبى ! ها هو ذا أبى ! .

كان الشيخ يقول والطعام يملأ فمه :

— لقد أفلتنا . الآن يا ميشيل ، بعد أن وقفت وجها لوجه أمام ملاك
الموت ، عرفت ما هى الحياة . . . يجب ألا تترك لحظة واحدة من الحياة دون
أن تقتنمها يابنى . . . عليك يابنى أن تقتنم كل لحظة من حياتك ، كل واشرب
ومتع نفسك قبل فوات الأوان . . . تخيل مثلا أننى لم أنج فماذا كان مصير
هذه الدجاجة ، كنت سأخسرها . . .

وظل ميشيل ينظر اليه صامتا جزعا ، ويحدث نفسه :

— ها هو ذا أبى ! ها هو ذا أبى ! .

وجلس القسيس جريجوريس فى الفناء تحت التكببية التى تدلت
منها عناقيد الكرم . انكب بدوره على الطعام ، يأكل ولا يهدأ جوعه .
وهبت نسمة صيف علية ، وتضوع عطر الريحان والياسمين . وأقبل عليه
القط ، يهر ويتمسح بساقيه . وقفت ماريورى بجانبه ممسكة بزق

النبيد ، تملأ الكأس بعد الكأس لأبيها ، ودموع الفرح تجرى فوق وجنتيها
الشاحبتين .

أكل الشيخ المبطان وشرب وتجشأ .

– لم يهن قلبى لحظة واحدة . تصرفت كقائد وممثل حق للرب فى
ليكوفريسي . تحدثت الى الأغا رابط الجأش ، ثابت الجنان ، ودافعت عن
المسيحية ، وواجهت الموت فى السجن ببسالة . . يحق لك يا عزيزتى
ماربورى أن تكونى فخورة بأبيك .

واتخذ لاداس العجوز مجلسه فوق الأريكة الحجرية فى فناء بيته ،
حافى القدمين ، بغير حزام حول وسطه . أخذ يلوك خبزاً بغير ادم ، ويمسك
بين الحين والحين بزيتونة يمضغها فى تان وعلى مهل ، ويتحدث بطلاقة الى
زوجه بنيلوب . قص عليها ما حدث بكل تفاصيله ، فعل هو كذا ، ففعلوا
هم كذا ، قال كذا ، وقالوا له كذا ، وأن المحنة كلفته كثيراً .

تأوه حين تذكر ذلك ، وتملكه غضب ، وعاد الى حجرته . فتح
خزائنه ، وأخرج منها دفاتر الحساب ، ودنا بها ليقرأها تحت ضوء عقب
شمعة . بلل اصبعه بلعابه ، وبدأ يقلب الصفحات ليرى من مدينا له بمال ،
وكم يبلغ دينه ، وتاريخ السداد ، وقيمة الفوائد . وابتسم فى رضى .

– غدا صباحاً يا عزيزتى بنيلوب سأسترد كل أموالى . أفلت من
بين يرائن الموت وهانذا قد نجوت ، وحسبى ما قدمت من أفضال . أنا
مدين لك ، اذن لك أن تأكلنى ، أنت مدين لى ، اذن لى أن آكلك . . بسرعة
ودون ابطاء قبل أن تمضى بنا الحياة ! ما رأيك فى هذا يا عزيزتى بنيلوب ؟ .

ولكن عزيزته بنيلوب لم تكترث بما يقول ، عيناها البليدتان تنظران
فى هدوء الى أهر التريكو وهى تعمل بها . بدت وكأن ملاك الموت يقف
قبالتها ، وتتعجل الانتهاء من عملها قبل فوات الأوان وتفرغ من الجورب الذى
فى يدها . لم تستشعرهما لغياب زوجها ، مثلما لم تستشعر بهجة لعودته
اليها ، حين أقدم يظاً بقدميه أرض الفناء من جديد ، ويمسك بسرواله ،
يهرش ويتحدث دون توقف .

طال الحديث بالناس فى تلك الليلة . ظلت المصابيح مضائة حتى
انتصف الليل . ثم أطفئت المصابيح الواحد بعد الآخر ، وأغمضت القرية
عيونها ثم أغخت واستسلمت للنوم .

بعد أن اطلق سراح الأعيان ، ترك ميشيل أصدقائه وخف للقاء أبيه .

واقترح قسطندى على رفيقيه :

– ما رأيكما لو ذهبنا ثلاثتنا لنأكل معا فى بيتى ؟ ستكون فرصة
نحتفل فيها بقيامك يا مانولى .

كانت زوج قسطندى معتدلة المزاج ذلك المساء ، اذ قضت يوما من
أيامها الصافية ، فلم تزور عنهم حين أبصرتهم . شمרת عن ساعديها ،
وأوقدت الفرن ، وانهمكت فى اعداد العشاء . مدت السماط ، وأحضرت
النيذ ، ووضعت جرة الماء فى الهواء لتبرد .

وهمس قسطندى فى أذن ياناكوس :

« أختك لا نظير لها الليلة ، انها تقبل على عملها فى البيت كلما كانت
صافية المزاج ، وهى لا نظير لها أيضا إذا ما تكدر مزاجها . حمدا لله أن كان
حظنا سعيدا الليلة .

ثم قال بصوت عال :

– مرحبا بكم وأهلا يا اخوتى .

وأجاب الضيوف :

– « أهلا بك . تحياتنا لبيتك وزوجك » .

ثم أقبل ثلاثتهم ، وقد عضهم الجوع ، على الأكل والشراب ، ووقفت
بجانبيهم سيدة البيت تخدمهم .

رفع ياناكوس وقسطندى كأسيهما ، وقرع كل منهما كأسه بكأس
مانولى .

وقال كل منهما وهو ينظر الى مانولى نظرة ود وحنان :

– المسيح قام .

– ولكن مانولى لزم الصمت ، لم يتكلم ، ولم يبتسم . كان غارقا فى
فكره . لا ريب أنه كان سعيدا بنجاته ، فلا زال على قيد الحياة يشارك
أصدقائه الأكل والشراب ، يتجاذب معهم أطراف الحديث ، وينعم ببرودة
نسيم المساء حين يمس جبهته التى يتصبب منها العرق . . رغم أنه كان
يتوقع لنفسه الليلة مكانا آخر غير هذا المكان ، وارتسم على وجهه حزن
سماوى .

وقال ياناكوس :

- لا تحزن يا مانولى • الجنة جميلة حقا ، ولكن الأرض لا تخلو من جمال أيضا ••

ثم أضاف ضاحكا :

- على الأقل لن تجد فى الجنة قسطندى وياناكوس • ذلك لأن كلينا يا عزيزى الهمام قسطندى ، سنذهب الى الجحيم كما تشير بذلك كل الدلائل - ولكن لن نكون فى الدرك الأسفل منها ، وإنما على السطح ، •
وضحك الثلاثة ، وعادوا يملأون الكئوس •

وقال قسطندى بصوت خفيض خشية أن تسمعه زوجته :

- أنا حزين على الأرملة المسكينة • لطفى على مثل هذا الجمال • أى مصير ينتظره ، •

قال ياناكوس :

- من يدري ؟ ربما تسكن كاترينا الجنة مع مريم المجدلية الآن فى هذه الساعة التى نتكلم فيها • تتأبط كل منهما ذراع الأخرى ، وتترضان فوق العشب الخالد • تطلان على الأرض من عليائهما وتضحكان ••

وقال قسطندى :

- بل ربما تتحسران ، لأن كليتهما أحبت الحياة الدنيا كثيرا •• ماذا ترى يا مانولى ؟ •

وأجاب مانولى :

- أنا أعبط الأرملة • أعبطها ولا أحزن عليها • لماذا الحزن ؟ يقينا أنها الآن تسير فى الجنة تحف بها الملائكة ، لا تتحسر على الأرض ولا تبتسم لها • لقد نسيتها تماما • ومضى هذا العالم الأرضى من ذاكرتها ، مثلما محا الله الجذام من على صفحة وجهى فلم يبق منه أثر •

ترامت هذه الكلمات الى سمع زوج قسطندى فتطلعت الى وجه مانولى لأول مرة ، كانت قد سمعت أنه تورم وغطاه الجذام ، ولكنه الآن نظيفا وضاء المحيا • كانت على وشك أن تسأله كيف حدثت هذه المعجزة ، لكن الرجال استرسلوا فى حديثهم ، وهى اليوم ذات مزاج معتدل فلم تشأ أن تعكر عليهم صفو الحديث • وقنعت بأن توليهم أذنها تنصت لما يقولون •

وما ان تطرق حديثهم الى الأرملة حتى تلملمت فى مكانها ، وكشفت عن أنيابها لتعضهم بأسنانها ولكن ما لبثت ان زمت شفيتها ، وأقلعت عن عزمها .

وتساءل قسطندى :

— وماذا عن حسين الحارس المسكين يا مانولى ؟ كان كلبا مسعورا رغم أننى آسى عليه فى أعماق نفسى ..

واجاب مانولى :

— لو كان مسيحيا وتاب وأناب ، فمن يدرى ؟ فان الله قادر ان يضع يده سبحانه على رأسه ويقول له : « مغفورة لك خطاياك لانك احببت كثيرا » .

وصاح ياناكوس :

— لو كان الأمر كذلك وعلى نحو ما تقول ، اذن سيدخل الجنة فى خاتمة المطاف كل الخطاة واللصوص والقتلة ..

وتتمم مانولى :

— الجنة للخطاة .

وقال قسطندى الذى بها ينتشى :

— اذن لنشرب فى صحة حسين الحارس . لنشرب أيضا فى صحة الأغا ، هذا الأرملة التعس . ذلك لأنه هو الآخر أحب كثيرا . لنشرب فى صحة يوسوفاكى الذى مات ميتة ظالمة ! هل اقرئ ائنا هذا المسكين ؟ كان يمضغ اللبان ويعنى آمان . ماذا فعل غير هذا ؟ .

وقال ياناكوس وهو يقهقه :

— وحتى لو كان فعل ما هو أكثر ، فانه لم يمس غيره بضر ، وربما يعود ذلك عليه بالخير العميم .

أوما اليه قسطندى باشارة من يده ليسكت ، وغمز له بعينه ناحية زوجه التى كانت تطل من النافذة وتتظاهر بأنها تتطلع الى النجوم . وفهم ياناكوس ما يعنيه ، ولزم الصمت .

وقال قسطندى :

- لنشرب نخب من تشاهون فيما عدا ذلك العجوز لاداس أو القسيس جريجويس ، فهذا محال .

وصاح ياناكوس وقد لعبت الحمر برأسه :

- ولم لا ؟ ان نبيذك جيد يا قسطندى ، وسأشرب نخبهما أيضا .

وعاد يملا الكأس ، وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة وقال :

- فى صحة الأب لاداس ، ولتكن الجحيم مثواه .

ثم ملا الكأس ثانية وتجرعه دفعة واحدة وقال :

- فى صحة القسيس جريجويس ، ولتكن الجحيم مثواه أيضا .

ثم عاد يقول :

- هل ثمة آثم آخر نحتفى به ونشرب نخبه ؟

شربوا نبيذا بوفرة ، وفاضت قلوبهم عاطفة ، وامتلات جوانحهم حبا .

وتحدث مانولى الى نفسه قائلا :

- المسيح مثل النبيذ ، يفتح قلب الانسان حتى يسع العالم كله .

وهكذا يفتح أبواب الجنة حتى يجد كل الحطاة مكانا لهم فيها . .

وتطلع الى رفيقه فى مودة وحنان ، وقد تماسكت أذرعهما ويضحكان

فى صخب .

وقال ياناكوس :

- وباناوتوتى ! لقد نسينا يهوذا . فى صحته يا يعقوب الرسول .

وأجاب قسطندى :

- فى صحته يا بطرس الرسول .

وتجرعا كأسيهما .

استدارت اليهما زوج قسطندى . فقد أوشكا أن يعبأ كل ما لديها من

نبيذ . وبدأ الفضب يعرف طريقه اليها .

وقالت بلهجة صارمة :

- أفرطت فى الشراب يا قسطندى .

وانكمش قسطندى على نفسه وقال :

- حقا • لا تغضبى يا زوجى • آتنا جرة الماء نتبرد بها •

قصت المرأة البثر • ووضع قسطندى اصبعه على شفثيه • وقال
هامسا :

- حذار يا أصدقائى فقد بدأت تغضب •

وقال ياناكوس :

- هيا ننصرف • لننصرف من هنا • لا داعى لأن نورطك فى
مشكلة •

- لا ، لا • أمكثا ولنلزم الهدوء • لنشرب ماء فى صحتها ربما تطيب
نفسها لهذا وتهدا • أنت لا تعرف النساء يا ياناكوس •

وعادت زوج قسطندى تحمل الجرة • أخذت الأكواب وغسلتها ثم
ملأتها بماء بارد • رفع الرجال أكوابهم وشربوا نخبها •

قال ياناكوس :

- فى صحتك يا أختى العزيزة • سقاك الله من رحيق الجنة وأثلج
صدرك مثلما سقيتنا الليلة وأثلجت صدورنا • لا يوجد فى الدنيا أخت
ولا زوجة خير منك • حيثما ذهب قسطندى فانه يتغنى بفضائلك •

وقال قسطندى فى جبن :

- فى صحتك يا زوجى •

ثم غمز بطرف عينه الى أصدقائه وقال :

- أقسم لك اننى أفضل أن اذهب معك الى الجحيم ولا أبقى وحدى فى
الجنة •

وقال مانولى :

- فى صحتك يا سيدتى • عفوك • يومنا يوم عظيم اد نجت
قريتنا • سيعوضك الله خيرا عن هذا اليوم الذى أزعجناك فيه •

وشربوا وأحسوا بالانتعاش • وخبث النار فى عروقهم شيئا ما •
وأخرج قسطندى كيس التبغ من جيبه ولف سيجارة ثم ناول الكيس
لرفيقيه • ونهضوا من مكانهم بعد ذلك وخرجوا الى الفناء حيث جلسوا فوق

الأريكة الحجرية .. وبدأت الزوجة تنظف المائدة وهي تغمغم بكلمات مبهمة .

كان الجو عطرا ، تفوح من السهل رائحة القمح الناضج . وفي وسط الفناء تعلو شجرتان ، وتضوع الليل برائحتها .

ترامى الى سمعهم وقع خطوات تقف عند الباب واذا بطارق يطرقه .
ونهض قسطندى دهشا .

— أنا يا قسطندى . افتح . أنا ميشيل .

تهلل قسطندى وفتح الباب وبانت ملامح ميشيل فى غبش الليل .
وقال :

— تركت أبى الشيخ بعد أن أكل وشرب ونام . تركته وأتيت اليكم من فورى .

واتخذ ميشيل مجلسه فى هدوء بجانبهم فوق الأريكة الحجرية . وسرعان ما أحس بسكون رقيق يحتويه ، فأثر الصمت ، اذ لم يرغب فى أن يعكر صفو هذا السكون .

أسند مانولى رأسه الى الجدار . وبدأ يحملق فى النجوم ، وأصبحت نفسه كصفحة السماء الساطعة بضوء النجوم ، ثم علا صوته رقيقا وسط سكون الليل :

— العبد فى تفكير والرب فى تدبير . لم يشأ لى أن أموت هذه الليلة وأرحل عنكم يا اخوتى . من يدري ؟ لله حكمة فى ذلك . لعل لنا بقية من حياة على هذه الأرض ، ولا زال مقدورا علينا أن نجاهد ابتغاء خلاص الروح .. ايه .. اتخذت يا اخوتى هذا المساء قرارا حاسما .
فرغ من كلماته هذه ثم رفع ناظره الى السماء يتطلع الى الطريق اللبنى .

بدأ قسطندى وياناكوس يفيقان . أخذت أبخرة النبيذ تتصاعد الى رأسيهما تسرى فى جسدهما ويشيع معها دفء حلو . لمس ميشيل ركبة مانولى كأنما يريد أن يقول له :

— وأنا معك أيضا .

كانوا وحدهم وسط هذا الظلام فى عزلة عن العالم كله . النسيم عليل . والنجوم من فوقهم ينعكس ضوءها الواهن على صفحة وجوههم فيضيئها . والظلام يلفهم حتى لا يكاد يميز أحدهم الآخر .

استجمع مانولى شجاعته وقطع السكون بصوته :

— فى أول عهدي بالدير ، وقبل أن يأتى الشيخ بطرياركاس

ليخرجني منه الى الحياة الدنيا ، كنت جالسا ذات يوم الى جانب معلمى
الأب ماناس - أتمنى له حظا سعيدا ان كان لا يزال حيا ، وأسكنه الله فسيح
جناته ان كان ميتا - . . . قص على فى ذلك اليوم مقامرة قال لى انها
حدثت لصديق له من الرهبان . وقد نسيت هذه القصة طوال الأعوام
الماضية ، ولكننى هذا المساء أراها تعود الى ذاكرتى ولا تبرحها ، ولعل
الله وحده هو الذى يعلم لماذا . . .

وفجأة قطع مانولى كلامه ، اذ ألقى رفاقه صامتين وهو لا يكاد
يستبين وجوههم وسط ظلام الليل . فقال :

- هل بكم رغبة فى النوم ؟

أجس قسطندى كأن فى قوله هذا اهانة .

فقال :

- حاشا لله . لماذا تقول لنا ذلك يا مانولى ؟

وقال ياناكوس بدوره :

- كلنا أذان صاغية كما لم تكن كذلك من قبل يا مانولى ، لا تجرح

مشاعرنا . استمر .

- حسنا . كان حلم حياة هذا الراهب - صديق معلمى - أن يمن
الله عليه بوسع رحمته ويزور القبر المقدس ، ويسجد أمامه . فبدأ
يطوف بالقرى يجمع الصدقات . ومضت السنون وهو على هذا الحال
حتى أصبح شيخا ، وجمع خلال هذه الفترة ثلاثين جنيها ، وهو قدر من
المال يفي بحاجته للقيام برحلته . واعترف . واستأذن معلمه ، فأذن له ،
وبدأ رحلته .

ولم يكد يخرج من الدير حتى أبصر رجلا فقيرا ، مهلهل الثياب ،
شاحب الوجه ، حزينا ، منحنيا على الأرض يجمع الأعشاب . وما أن سمع
الفقير عصا الحاج تدب على الحجارة حتى رفع رأسه وسأله :

- الى أين يا أبانا ؟

- الى القبر المقدس يا أخى ، فى اورشليم . سأطوف به ثلاثا ثم

أسجد أمامه .

- كم من المال معك ؟

- ثلاثون جنيها .

- أعطنيها ، فان لى زوجا وأطفالا يتضورون جوعا . أعطنيها وطف

حولى ثلاث مرات ، ثم اركع أمامى واسجد ، وارجع بعد ذلك الى الدير .

أخرج الراهب الجنيهاث الثلاثين من حافظته وأعطاهما كلها للفقير ،
وطاف حوله ثلاثا ، وركع وسجد أمامه • ثم عاد بعلمها الى الدير •
أطرق مانولى برأسه وصمت • وكان رفاقه الثلاثة لا يزالون يصغون
الى صدى كلماته داخل نفوسهم ، ولزموا الصمت أيضا ، وقلوبهم تفيض
وجدا •

رفع مانولى رأسه وقال :

— علمت بعد ذلك أن الراهب الذى عزم على السفر ليحج الى القبر
المقدس هو معلمى نفسه ، الأب ماناس • وأبى ، تواضعا ، أن يقول لى ذلك
صراحة • وها أنذا الليلة ، وبعد هذه السنين الطويلة ، عرت من هو ذلك
الفقير الذى التقى به معلمى فور مفارته للدير •

صمت مانولى ، اذ بدأ صوته يتهدج • ودنا رفاقه منه وهم جلوس
فوق الأريكة الحجرية • وسالوه فى لهفة :

— من هو ؟

وتردد مانولى لحظة • وأخيرا سقطت كلمته من فمه كتمررة ناضجة
تسقط فى الحديقة وسط سكون الليل :

— المسيح !

وهب الرفاق الثلاثة وقفا • خيل اليهم وكأن المسيح ظهر أمامهم فى
عتمة الليل ، حزينا ، فقيرا فى لباسه ، مضطهدا من البشر ، دامى القدومين من
طول المسير ، طريدا بغير مأوى • وأنسوا فى نفوسهم رهبة وفرحا من
هذا الحضور الخفى • ولبثوا ساعة لا ينبسون ببنت شفة • اذ ماذا
يقولون ؟ والى من ينظرون أو يوجهون الحديث ؟ لم يبصروا أحدا • ومع
ذلك شعروا به يملا عليهم وجدانهم كأنهم لم يروا كأننا واقعا محسوسا
مثل ما كان هذا الحضور الخفى الذى جلس بينهم فى شكل انسان متواضع
غاية التواضع •

وكان ياناكوس أول من فتح فاه • وصاح وعيناه تدققان النظر فى
الظلام •

— من هناك ؟ • • من هناك ؟

قالها وكان ثمة طارقا بالبواب • ثم عاد يسأل ثانية ويده ممدودة
فى الظلام :

— من هناك ؟

تحركت أوراق شجرة التين ، فسمع لها حفيفا • وتضوع الليل

ثانية بشذى القمح وزهر العسل والتين وملأوا صدورهم بهذا الأريج ،
وشعر كل من الرفلق الأربعة كان الحضور الحفى يسرى فى جسدكم من
رأسهم حتى أخصص القدم . وتذكروا طفولتهم ، يوم أن كانت القلوب
تقية ، وكيف كان هذا الحضور الحفى ذاته يسرى فى نفوسكم ويستحوذ
عليهم بعد التناول فى يوم الجمعة الحزينة .

أحس ميشيل برغبة فى أن يعانق صديقه مانولى ، ولكنه أمسك
عن ذلك وقال له :

– مانولى .. فى اللحظة التى رأيتك فيها تخرج من بيت الأغا موثوق
اليدين من الخلف تسير هادئا طروبيا ، ثابت الجنان لتواجه الموت من أجل
خلاص القرية ، أحسست بأن هواء جديدا ونورا غريبا يحف بك . خلتك
وكانك أصبحت سامقا ، رقيقا كاللهب . ووطدت عزمى منذ تلك اللحظة :
حيثما تذهب سأتبعك ، وحيثما تقودنى سأكون وراءك ، وبأى شىء تأمرنى
به سأكون طوع أمرك .

وصمت لحظة .. وبدأ عليه التردد . ثم عاد يقول بنبرة حازمة
وبصوت يكاد يكون همسا :

– الآن بعد أن رأيت أبى وهو يأكل ويشرب وينام أحسست أنى
أقرب اليك منه يا مانولى ، وأكثر ارتباطا بك . انى مدين لك من الآن
بالطاعة دونه .

حاول ياناكوس وقسطندى الكلام ، ولكن اختنق صوتاهما فانخرطا
فى البكاء .

ظهرت زوج قسطندى عند عتبة الباب . سمعت نشيجهم ، فهزت
رأسها ، ودخلت ثانية . وأمسك مانولى بيد ميشيل ، وضغط عليها بين
راحتيه . وقال :

– يا أخى أنت خير منى ، وأكثر نقاء ، وأقرب الى المسيح . لا تزعجك
وساوس الشيطان ، وتهتدى الى الصراط المستقيم على نحو أكثر منى
بساطة ويقينا . كان دون ما أبغى مجاهدة نفس ومكابدة لا ينتهيان ، ورغم
ذلك لم أبلغ الغاية – أما أنت فقد بلغت غايتك بخطوات ثابتة ودون أن
تقطع منك الأنفاس . وتضحيتك عزيزة المنال : لك بيت شريف ، وأب
هو سيد القرية ، ولك جاه وثروة ، وحسب ونسب . أما أنا فليس عندى
ما أضحي به قربانا للرب ، ومع ذلك فانى أذوق العذاب ألوانا من أجل
التضحية بهذا اللاشئ .. وها أنذا مثل معلمى الأب ماناس ، أنا الانسان
الحقير الشأن ، أضع لنفسى خططا طموحة تقصر دونها همتى . ضاقت على

المرعى ، كما ضاقت على القرية . كنت أتحرك شوقا لكي أركب سفينة ضخمة أبحر بها إلى نهاية العالم بحثا عن الخلاص . توهمت أن القبر المقدس هناك فى الطرف الآخر من الدنيا ، تفصلنى عنه بحار وقفار ، فاحتقرت هذا الركن من العالم الذى أنبتنى فيه الرب . أما الآن فقد أدركت الحقيقة : المسيح موجود فى كل مكان ، يجوب القرى ويطرق الأبواب ، يقف أمام قلب كل منا يسأله الصدقات . انه فقير جائع شريد ، هكذا هو المسيح وهكذا يقف على مشارف قريتنا التى يهكنها وينعم بخيراتها أناس مثل الأغا ولاداس والقسيس جريجوريس . انه فقير وله أطفال جوعى . يتسول ويطرق الأبواب ويناجى القلوب ، فلا يلقى غير الصدود جوابا ، يطردونه من باب الى باب ، ومن قلب الى قلب .

نهض مانولى مشرق الوجه وسط عتمة الليل .

وصاح برفاقه قائلا :

— يا اخوتى أولى بنا نحن أن نرحب به ، ونفتح له أبوابنا وقلوبنا . لم أكن أراه أو أسمع قبل ذلك . أما الآن فانى أراه وأسمعه . بالأمس حين أتانى ياناكوس يزورنى فى خلوتى ، كنت أسمع ينادينى باسمى واضحا . ونزلت الى القرية ، حسبته دعانى الى الموت . ولكن لم تكن لهذا دعوته لى . وعرفت السبب الآن واتخذت لذلك قرارى .

وارتفع صوت وسط الظلام . يبدو أنه كان صوت قسطندى يقول :

— أى قرار هذا يا مانولى ؟

وقال مانولى بعد لحظة تأمل :

— أى قرار ؟ كيف لى أن أعبر عنه بالكلمات ؟ انى عاجز عن ذلك .

أحسب أنى لا أستطيع أن أعبر عنه قولا بل عملا ، اذا ما شاءت ارادة الله ذلك . يا اخوتى ، وطدت العزم على أن أغير حياتى تماما ، وأقطع صلتى بالماضى ، وأرحب بالمسيح ، وألزم صحبته على طول الطريق . سأكون المبشر به ، وأمشى أمامه أنفخ فى النفير وأصيح بالناس . أما ماذا سأقول فهذا ما أجهله الآن ، ولست أعبا بذلك . فعندما أفتح فمى ، سيضع المسيح كلماته الصادقة على لسانى . هذا هو قرارى يا اخوتى الذى وطدت العزم عليه .

وسكت . وانقضت فترة طويلة من الزمن لا تسمع فيها نأمة فى

الفناء سوى حفيف أوراق شجرة التين . ثم عادت الأصوات تملو والأسئلة

تردد من جديد .

فسأل ياناكوس :

- وماذا عنا نحن ؟ أنا وحماري وبضاعتي وتجارتى التى اتكسب
منها ؟ .

وقال قسطندى :

- وأنا ماذا عن زوجى وأطعالي ومقهاى ؟ .

وقال ميشيل :

- أنا لا أ طرح سؤالا . فقد اتخذت قرارى مقدما . اتخذته هذا
المساء قبل أن آتيكم : سأترك بيت أبى .

لزم مانولى الصمت . انه يستطيع أن يميز وجهى ياناكوس وقسطندى
على ضوء النجوم يتفحصان وجهه فى تساؤل ، ويتلهقان الحصول على الاجابة
ولكن بماذا يجيب ؟ كيف يتخذ لهم قرارا بنفسه ، ويقلب حياتهم رأسا
على عقب ؟ فلكل امرى ساعة موقوتة يجد فيها الخلاص لنفسه . وكل
انسان هو الحكم ، وحده دون سواه ، وهو وحده القادر على أن يقرر كيف
ومتى يكون الخلاص .

وتكلم أخيرا وقال :

- يا اخوتى ، قرار الانسان مثل ثمرة الشجرة . تنضج فى صبر
وأناة ، متأثرة بأشعة الشمس والمطر والرياح . وتسقط اذا ما حانت
صاعتها . تجملوا بالصبر يا اخوتى . لا تسألوا أحدا سوى أنفسكم .
ستحين ساعتكم المباركة أيضا - وهنا ستشعرون أنكم لستم بحاجة الى
سؤال انسان . ستجدون أنفسكم فى هدوء وسكينة ، تهجرون الزوجة
والاطفال والأقارب والتجارة . ستعتقون أنفسكم من كل هذه الجواهر
التافهة وتهتدون الى الجوهرة العظمى ، الى المسيح ، .

وقال ياناكوس :

- انك أنت الذى تهدينا الى الطريق يا مانولى . أريد أن أتبعك .
وقال مانولى وهو يضغط على يد صديقه المتسرع :

- لا تتعجل يا ياناكوس . دعنى أناضل وأكابد وحدى ، ولاكن أول
من يبدأ .

وبسط قسطندى ذراعه كأنما يريد أن يستوقفه وقال :

- لن تنصرف . لن ترحل عنا ! .

- والى أين اذهب يا قسطندى ؟ هل نسيت أين اهتدى معلمى الى

القبر المقدس ؟ ان من يناضل ويكابد فوق قطعة من الأرض فانه يناضل ويكابد فوق الأرض كلها . سأكون معكم دائما . هنا فى ليكوفريسي ، وفوق الجبل ، فوق أرضنا نحن . اختار لنا الرب بوسع رحمته هذه البقعة من الأرض وأمرنا بأن نكافح هنا ونجاهد . كل بقعة من بقاع الأرض هى أيضا قبر مقدس .

مرة أخرى خرجت زوج قسطندى ، ووقفت عند عتبة الباب ، وغمغمت بشيء . وقف مانولى وتطلع الى النجوم وقال :

– يا اخوتى ، انتصف الليل . حان الوقت لكى أعود الى الجبل . كان المسيح معكم ، فالى اللقاء .

وقال ياناكوس :

– سننصرف نحن أيضا . احسب ان اختى تريد ان تنام .

وقالت هى فى ضجر :

– تجاوزنا منتصف الليل .

حيا الثلاثة سيدة البيت تحية المساء وحاولوا ان يلاطفوها بكلمات ودود . وأسفوا اذ سيتركون قسطندى أعزل بين برائتها .

وقال قسطندى وهو يصحبهم حتى باب البيت :

– طبتم مساء يا أصدقاء . الى اللقاء . رعاكم الله .

وتمتم ياناكوس بعد أن أغلق الباب :

– مسكين أنت يا قسطندى ! لا أتمنى لنفسى أن أكون مكانك .

كانت القرية غارقة فى نوم عميق ، يلفها ليل الربيع الساجى الأنيس . ونبح كلب على البعد . وومضت النجوم كنصال السيوف فوق رءوس الرفاق الثلاثة .

ساروا طريقهم كله فى صمت . تام . اذ ماذا بقى لهم من كلام ؟ لقد قالوا كل شيء .

وأخيرا سار مانولى وحده ، بخطوات خفيفة سريعة ، كأنما حملته أجنحة الملاك ثانية ، قاصدا الجبل . واتخذ الطريق الصاعد .



عَرَبَةٌ مِنْ نَكَار

بينما البعض من بني البشر أضلته الحياة الدنيا وأعمته الشهوات ،
والبعض الآخر يكابد في نصب ليعلو فوق طبيعته البشرية ابتغاء ملكوت
السموات ، كانت سنابل القمح تنضج على عودها في هدوء ووداعة وأنقلها
الحب فانحنت الى الأرض تنتظر الحصاد .

ومع مطلع الفجر خرجت الفتيات حاملات مناجل الحصاد ، وتفرقن
وسط السهل ، وقد عصبن رءوسهن بمنسادل بيضاء لتقيهن حرارة
الشمس . وطوى النسيان الخطر الذي أحرق بالقرية وهزها من الأعماق .
وبدأت الفتيات يثرثرن بأصوات خفيفة وتند عنهن ضحكات عالية، حيناً
يذكرن الأرملة ، فتحمر وجناتهن لذكرها ، وحيناً يذكرن حسينا وكيف
رأينه صباح الخميس معلقا على شجرة السنار عاريا من أسفل ، خصيا
بصورة مخجلة ، وكانت الجثة المعلقة على الشجرة تهتز مع حركة الريح ،
فيسمع لها صرير ، وقد عض القليل على لسانه الذي تدلى من فمه أحمر
قانيا .

وتألفت وجوههن عندما جاء ذكر مانولى على ألسنتهن . وتذكرن
كيف طارد الأغا أمهاتهن من الميدان وهرولن في هلع الى بيوتهن ، وطفقن
بعدها يتحدثن عن مانولى وكيف ظهر عند باب الأغا عزيزا متكبرا ، رشيقا
أشقر الشعر كأنه ملاك . وقلن يومها « شنع أهل السوء عليه حين زعموا
أن الجذام شوه وجهه ، كذب وبهتان يا عزيزتى ، كلها أكاذيب وافتراءات ،
كان وضاء المحيا كأنه شمس الضحى .

شقت الفتيات طريقهن وسط الحقول وأقبلن على عملهن بالمناجل
يحصدن القمح حتى تمتلئ أحضانهن بالحب ثم يكسونه أكواما عالية
خلفهن . لم يتوقفن أبدا ، رغم العمل ، عن الثرثرة وتبادل النكات المناجنة
عن شباب القرية ، ويتخذن من نقائصهم مادة للدعابة والمرح . . هذا له
حدبة ، وذاك مقوس الساقين ، وآخر مصاب بتأتأة في الحديث . . ويضحكن
من أعماق قلوبهن .

وخرجت زوجة بانايوتى أيضا ومعها ابنتها بيلافيا وكريسولا لحصاد
حقلهن الصغير المتواضع . ترى الزوجة وقد أثقل قلبها الحزن ، مترهلة
الجسد ، زامة شفقتها في مرارة ، طاعنة في السن قبل الأوان ، مرتدية
ثياب الأرملة التي فقدت زوجها فعصبت رأسها بمنديل أسود ، سارت في
المقدمة كسيفة الببال واجمة . لماذا جاءت الى الدنيا ، وماذا جنت في حياتها
حتى يعاقبها الرب الرحيم ويبتليها بما هي فيه من شقاء ؟ أى ذنب جناه
زوجها حتى يلقي به الى الحضيض ويصبح الانسان السكير المحطم أضحوكة
القرية ؟ كان في شرح شبابه جديرا بكل خير ، مقلا في كلامه ، مجدا في
عمله ، حيبا لا يجرؤ على أن يرفع عينيه اليها اذا ما تصادف مروره أمام
باب بيتها وهي من يطعم في الزواج بها . كانت الابنة الوحيدة لأسرة
واسعة الثراء وهو الفقير ، وذات يوم أرسل اليه أبوها ، الذى رحل عن
الدنيا الآن ، وقال له : اسمع يا بانايوتى ، انى أحبك ، أنت فقير حقسا
ولكنك مجد ، وفى ، أمين . أعرف أنك تحب ابنتى ، خذها فهى لك وانى
أبارك زواجكما . وتزوجها ، وسارت الأمور على خير وجه ، حتى كان ذلك
اليوم المشنوم حين اعترضت الأرملة طريقه .

وتتمت قائلة :

عليها اللعنة هذه الزانية ، هى سبب كل ما حدث . . الهى هل تسمع
دعاء الصالحات المحصنات من النساء ؟ ان كان كذلك فاسمع دعائى :
• أسالك اللهم أن تلقى بها الى الجحيم لتحترق مع يهوذا خالدة فيها أبدا . •

ولكنها لم تكذ تفوه بهذا الاسم حتى اقسعر بدنها . خيل اليها
وكانها تدعو الرب أن يجمع بين الأرملة وزوجها الذى يلقيه الناس بيهوذا ،
وأن يكون لقاء خالدا الى ابد الأبدين ، حتى ولو كان هذا فى الجحيم . وجمدت
فى مكانها فى حيرة وهلع . وخلفها ابنتها ، سمراوين ، ملفوفتى القوام ،
غندورتين ، يفظى وجناتها وشفتيهما العلويتين زغب أسود رقيق ، وتفوح
منهما رائحة عرق نفاذة ، تثرثران وتضحكان . •

وقالت كريسولا وهى الأخت الصغرى :

– أمي عاودتها بعض أفكارها التي تنوشها • انظري اليها كيف
جدت في مكانها •

وقالت بيلافيا ضاحكة :

– اراهن أنها تذكرت الأرملة •

وضحكت الأختان بدلاء فيهما •

مر بهما الأب لاداس ، حافي القدمين ، مقوس الظهر ، غارقا في فكره ،
وحانت منه التفاتة فوق بصره عليهن وهن يطآن أرض الحقل الهزيل ،
ومناجل الحصاد في أيديهن •

فسأل الأم :

– هل هذا حقلكم ؟ أليس لكم غيره ؟

وأجابت الأم وهي تتنهد في حسرة :

– هذا كل ما نملك يا أب لاداس • بعنا كل ما كان لدينا ولم يبق
لنا غير هذا •

لقى الأب لاداس نظرة الى رقعة الأرض ، وقدر مساحتها بعينيه ،
وخمن ما يمكن أن تغله من حبوب ، وهز رأسه المعروقة ، وسار في طريقه
دون أن ينبس بكلمة • كانت اهانات بانايوتى لا زالت تطن في رأسه ،
تطوف بخاطره كل صباح ، ويقسم مع كل صباح أن يستولى على كل ما بقي
لديه من أرض أو كرمة عنب : « سألقتك درسا في معنى الأمانة والوفاء ،
أيها الكلب القدر ، حتى تعرف من هو لاداس على حقيقته » •

سار في طريقه ، يقف قليلا عند كل حقل ، ويقدر في ذهنه ثمنه
وغلته • اذ اعتاد أن يخرج كل عام مع موسم الحصاد ليقوم بجولة استطلاعية
بين الحقول ، ويعيد الكرة مع موسم قطاف العنب ، ويكررها مع موسم جمع
الزيتون ، وأصبح عقله سجلا يثبت فيه كمية القمح والنبيد والزيت الذي
يجنيه كل واحد من أبناء القرية ليعرف ان كان هميجنى ما يكفيه مؤونة
عامه أم أنه سيضطر الى الاقتراض • ويدبر الأب لاداس أمره ، ترى هل
يقرض هؤلاء ؟ وان كان كذلك فكم وبأى فائدة ؟ •

هكذا كانت عادته كل عام • وخرج الشيخ لاداس اليوم ليبدأ جولته ،
ولكنه هذه المرة تساوره رغبة محمومة في الاستيلاء على كل شيء ، فمنذ
اليوم الذي أفلت فيه من بين براثن الموت استبد به جنون التملك ، تملك
أكبر قدر ممكن من الحقول وبساتين الكرم وأشجار الزيتون ، وجمع كل
• ما تصل اليه يده من عملات ذهبية في خزائنه ، ما دامت هناك بقية من حياة

الله على ظهر الأرض . وشد حزامه حول بطنه أكثر من ذى قبل - وبدأ منذ الباهجة بأن اقتطع جزءاً من الزيتون الذى يتناوله كفاتح للشهية - ويكتفى الآن بشرب الماء الذى يمن به عليه الرب الرحيم . وقر عزمه على أن يصرف النظر عن الملابس حتى لا ينفق ماله بغير وجه حق ، وطقق يكرر على مسامح رفيقة حياته التى تجلس قبالة واجمة غير مكترثة بشيء فى الحياة « لم يعد هناك وقت يا عزيزتى بنيلوب ، قد توافينى المنية ، لذا لا بد وأن أتعجل . ماذا ترين فى هذا يا عزيزتى بنيلوب ؟ » .

وبينما كان الرعايا وبناتهن مقبلون على العمل فى الحقول لحصاد القمح تحت وابل المطر الذى يتساقط هنا وهناك فوق السهل ، كان الأغا حبيس داره . لزم القاعة الكبيرة ، يهيم على وجهه فيها ، يذرع القاعة جيئة وذهاباً مخموراً ، حيناً تتعثر قدمه فيسقط على الأرض سطيحاً ، وحيناً آخر يتربع فوق حشيشته ويقضى سحابة نهاره عازفاً عن الأكل والشرب ، مقبلاً على تدخين غليونه ، متأملاً الحياة الدنيا الباطلة وعبثها وهو ينعم النظر الى سحابات الدخان تتصاعد من غليونه حلقات متتابعة ثم تختفى فى الهواء . وذات صباح نهض الأغا فجأة ، وارتدى ملابسه ، ودعا العجوز الحدباء وقال لها :

- اسمعى يا صديقتى ، أسرجى الفرس ، وضعى زاداً من الحبز واللحم فى الحرج ، ولا تنسى زجاجة العرقى . انى مسافر الى المدينة ، ومن هناك سأستقل الآلة الشيطانية الى سميرنا . ارعى البيت ، ولا تسمحن لأحد بالدخول ، وقبل كل شيء حذار أن تشم قطة رائحة عن سفرى ، والا فالويل لك أيتها التعسة ، سأقطع أنفك وأذنيك وحدبتك . هل تسمعين ما أقول ؟ وأجاب العجوز مارثا :

- سمعا وطاعة يا أغا ، سافر على بركة الله .

وردت فى سريرتها : « مسافر لياتى بيوسوفاكى آخر من سميرنا ، عليه اللعنة » .

وبعد أن جن الليل ، واطمان الأغا الى أن لن يراه أحد ، امتطى صهوة فرسه وسرى خلسة الى خارج القرية .

وتمتم الأغا بكلمات لطم معها خده :

- ليعلم أننى قضيت أياماً طويلة قبل أن أفكر فيما أنا ذاهب إليه ، انه يستحق كل هذا .

بعد أيام انتهى الحصاد ، ورفع الفلاحون أكوام القمح الى حيث آلات
الدرس ، وبدأوا درس الحبوب وتذريتها ثم تخزينها ، وأخذ بنايوتى كل
حصيلته من القمح الى الطاحونة وطحنها ، وحمل الدقيق الى بيته ، وأمر
زوجته وابنتيه أن يبدآن عجن الطحين وخبزه . وبعد أن تم له ما أراد أخرج
مسدسه من مخبأه وتوسط فناء البيت وشرع يطلق مسدسه فى الهواء .
فقد عرفت القرية بغياب الأغا ، وتجرا بنايوتى ولم يعد هناك من يخشاه .
وكان بين كل طلقة وأخرى يصيح فى وجه زوجته وابنتيه .
- بره ، اخرجن ، اغربن عن وجهى . الى الشيطان ، أريد أن أبقى
وحدى .

وتدخلت جاراتهن وجثون عند قدميه يسترحمنه بعائلته ، بينما وقفت
زوجته وابنتاه ينتحبن . ولكن كل هذا ضاعف من ثورته وبدأ يصيح فى
هياج : « بره ، اخرجن وأمسك بهن من شعورهن ، وجرهن الى خارج البيت ،
وأغلق باب بيته عليه بالقفل والمزلاج . وبعد أن أصبح وحده أخرج دمجانة
العرقى من المخزن وبعض السجق والجبن ، وصف الارغفة الساخنة حوله فى
شكل دائرة واستلقى وسط الفناء تحت ظل شجرة الزيتون .
وبدأ يأكل ويشرب ، وبين الحين والآخر يستل مسدسه ويطلق طلقة
فى الهواء ، يستلقى بعدها على ظهره نصف عارى ، ويخرج لسبانه الى
السماء ويصيح : خذ هذه لك ، أيها الخنزير . ثم يقبل على الأكل والشراب
من جديد .

اعتاد الجيران سماعه أياما وليالى متصلة وهو يخور ويطلق الرصاص
فى الهواء ، وبين الحين والحين يرفع عقيرته بالغناء . وبع صوته مع الايام
وتناقصت طلقات الرصاص . وذات يوم اختلس الجيران النظر اليه من
خاصة الباب فرأوه مستلقيا على ظهره ، عاريا تماما ، وقد لطح القىء
لحيته الحمراء ، ويصرخ بصوته الأبح متحديا السماء : « خذ ، هذه
لك ، أيها الخنزير » .

وفى صباح اليوم التالى لم يسه غير طلقة واحدة من المسدس تبعتهما
أنات خرساء وتنهدات مكتومة ثم كان صمت مطبق ثقيل . وتجمع الجيران
ونظروا من خاصة الباب : كان بنايوتى متكفنا على وجهه ، جامدا بغير حراك
وحوله القىء والطعام وسط بركة من البول .
وقال أندونيس الحلاق :

- هيا نكسر الباب ونفتحه ، اذ لو كان ميتا فان جثته سيصيبها البلى
والعفن وتنشر المرض فى كل نحاء القرية .

وقال الشمساس :

- يجب أن نستدعي أولا القسيس جريجوريس .
- وانطلق يعدو في الحال .

كان القسيس جريجوريس لا زال يذكر الاهدانات التي وجهها اليه
باناوتي في السجن ، فأصدر أمره قائلا :

• اكسروا الباب وافتحوه عنوة ، لا بد وأنه أسلم الروح وأخذها
الشیطان . ادفنوه أنتم ، فليس عندي ما أقدمه له .

كسرت زوج باناوتي وابنتها الباب ، وانتشلن السروجي من وسط
القدر الذي أحاط به ، وحملنه الى داخل البيت ، وأرقدنه فوق حشية .
كان شاحبا شحوب الموت ، هزيلا اذ فقد نصف وزنه . ويبدو أنه تمرغ فوق
شظايا من الزجاج المكسور ، اذ تغطى جسمه جروح كثيرة . ولكن لازالت
فيه بقية من الحياة . وأقبلت زوجه عليه تغسله كما تغسل حصانا ، وابنتها
تحملان دلاء الماء من البئر وتصبانها فوقه . وبدأ يفيق رويدا رويدا ، وفتح
عينيه ، ولم يكذبصره يقع على زوجته وابنتيه وهن يحطن به حتى ثارت
ثأرته من جديد وصاح غاضبا :

• أخرجن . . أخرجن . .

وهب جالسا يبحث عن مسدسه ، ولكن خائنه قواه فهوى على
الأرض .

واقترح أندونيس عمل كاسات دم له تطوعا ، الا أن النسوة من
جيران ياناوتي منعهن من ذلك .

• وأين هذا الدم الذي ستأخذه منه ياأندونيس ؟ انه أصفر كالليمونة
سندعو الأم ماندالينا ترقيه وتطرد عنه الشيطان الذي تقمصه .

• وأطلق صبي ساقيه للريح ليدعو الطيبية العرافة العجوز .

وبينما كانت النسوة في انتظار قدوم ماندالينا اقترحت احدهن أن
يقدمن له شراب الليمون بدون سكر ، واقترحت أخرى أن يضعن قالبطوب
ساخن فوق بطنه . وأكدت لهن امرأة عجوز أنه اذا ما بصقت كل واحدة
هنهن ثلاث مرات عليه فان العفريت سيتولاه الفرع ويولى الأدبار .

وقبل أن تنتهي النسوة الى قرار ، وصلت الام ماندالينا تهرول في
شغف ومعها صديقات العمر من عدة التطيب : ثلاث حقائب صغيرة : الاولى
بيضاء تحوى كل أنواع النباتات العطرية ، والثانية سوداء وبها أنواع مختلفة
من المساحيق وقوارير صغيرة ، والثالثة زرقاء وتحتوى على حبوب سوداء

وشطايا زجاج أخضر وبعض القار ، وقطعة من الصليب المقدس ، وبعض
أزهار أخذتها من الكنيسة يوم الجمعة الكبيرة ، وعظمة خفاش . وانحنت
العجوز فوق بانايوتى ، وحملت فيه باهتمام شديد ثم هزت رأسها ،
وانتحت بزوجته جانبا فى أحد الاركان .

وهمست لها قائلة :

- أنت امرأة تعسة يا ابنتى . قلبى يكاد ينفطر حزنا عليك . . ليس
هذا بانسان ، انه شيطان مريد . هو الآن خائر القوى ، لذلك تربنه هادئا
وديعا . ولكن بما ان يقف على قدميه ثانية حتى يعود الى ما كان عليه من
جديد . كان زوجى الراحل مثله تماما ولكن حمدا لله أن اختطفه الشيطان
سريعا . . سأقول لك كلمتين ، ولكن أقسمى أولا أن حديثى اليك
سيكون سرا دفيننا لن تبوحى به لأحد حتى ولو كان للاله نفسه .

وقالت المرأة العجوز وهى ترتجف قبل أن تسمع شيئا :

- أقسم لك على هذا .

وقالت المرأة العجوز وهى تشير الى الحقيبة السوداء .

- أنظرى الى هذه . . بها مسحوق سحرى يفعل المعجزات . أعطه جزءا
منه على طرف اصبعك فانه يسلم الروح بعد أيام قلائل فى هدوء وأمان .
ما رأيك فى هذا ؟ وبهذه الطريقة تتخلصين منه يا عزيزتى المسكينة .

وصاحت المرأة البائسة :

- بحق السماء لا تحدثينى عن شىء كهذا .

وأجابت العجوز وهى تهز كتفها :

- كما يحلو لك . لا أبغى غير مساعدتك ، ويوسفنى أنك ترفضين

ذلك .

وفى غيظ شديد دست الحقيبة السوداء فى صدرتها وأخرجت الحقيبة
البيضاء التى تحوى الأعشاب وبدأت تعد دواءها . صنعت نقيعا من الأعشاب
وصبته فى فم الرجل المريض . وأخذت قطرات من زيت مصباح العذراء
وخلطته بحبات من الفلفل الاسود ودلكت جسده . ثم وضعت حجرا ساخنا
فوق بطنه . وأخرجت الحقيبة الزرقاء وتناولت منها قطعة من القار
وصهرتها ورسمت صديبا فوق العتبة . وبعد ذلك أخرجت النسوة كلهن
خارج البيت وأغلقت الباب ، ودنت من الرجل الذى كاد يفارق الحياة وبصقت
على وجهه ثلاث مرات . وصاحت فى وجهه ثلاث مرات كذلك :

- لياخذك الشيطان يا يهوذا .

وهرولت الى خارج الدار .

وقالت للنسوة .

- دعه في سلام . لقد رقيته ، وبعد ثلاثة ايام سيكون صحيحا

معافى .

وجمعت كسرات الخبز التي تركها في الفناء ، والسجق الذي بقى

معلقا على شجرة الزيتون ، وأخذت كل هذا اجرا على عملها . ثم رسمت

علامة الصليب وانصرفت .

سارت في طريقها وهي تتمتم قائلة :

- الرجال كلهم وحوش مفترسة ، عليهم اللعنة . آه لو كان الامر

بيدي لأعطيهم جميعا الواحد بسد الآخر هذا المسحوق الذي أعرف سره

ليذهبوا جميعا الى الشيطان .

وبينما كانت تدير المفتاح في القفل لتدخل بيتها ، أبصرت ياناكوس

يمر أمامها ساخطا وقد أمسك بزمام حماره . وصاحت به :

- هيه ، انتظر لحظة ياناكوس عليك اللعنة . ما الذي أصاب ابن

أختي ؟ ألا تأخذكم به رحمة ؟ أدرتم رأسه ، وها هو الآن يعيش وحيدا

فوق الجبل هناك كطائر الوقواق ، وانكب على الانجيل يقرأه ، أو هكذا

يقال . . . هل سمعت بشيء كهذا في حياتك ؟ . . . الانجيل ! . . . بدلا من

انجاب الأطفال من لينيو . . .

- هل هذا هو عرفانكم بجميل الرجل الذي هم ليجود بروحه من

أجل خلاص القرية ؟ ظننت أنني سأرى من يخسر ساجدا عند قدميه

يقبلهما . الى الجحيم أيها الرجال والنساء الأقدار . . . حفنة من الكلاب

القدره .

كانت المرأة العجوز داخل بيتها قبل أن يتم ياناكوس كلامه، ولكنها

تفزت الى الخارج ثانية وقالت :

- انتظر حتى تسقط مريضا يوما ما ، وعندئذ سأنسب مغالبي

فيك وأخذ بتأري منك .

ثم صفقت الباب وهي تهقه .

لم يكن ياناكوس راغبا في المشاجرة مع أحد . إذ كانت روحه

معلقة بجبل ساراكيئا . فهو عائد لتوه من هناك ورأى ما تقطعت له نياط

قلبه . تم بناء عدد قليل من الأكواخ ، ولكن اللاجئين بحاجة الى الحشب

لتسقيفها . والأطفال يجلسون أمام الكهوف ، وقد أسقمهم الهزال ،

وعلا وجوههم الشحوب ، وشموا كل شيء حتى اللعب ، وارتسمت على

جباههم علامات الهم ، وزاغت منهم الأبصار كأنهم شيوخ تقدمت بهم السن . وعلى مرمى البصر منهم ، تحت سفح الجبل ، سهل أخضر وافر المحصول ، أقبلت إليه فتيات بمناديلهن البيضاء لحصاده . وسعت بعض الأمهات من اللاجنات يجمعن الأعشاب وأخريات يشعلن النار ، ولكنهن لا يجدن الزيت والزيتون . . . لا شيء على الإطلاق . قوتهم فوق الجبل أعشاب ينضجونها في الماء . وانطلق الرجال الى القرى المجاورة بحثا عن العمل . وحمل القسيس فوتيس الانجيل ، ووضع زكيفة على ظهره وخرج يتجول بين القرى كسحاذا يجمع الصدقات لشعبه .

وأبصر ياناكوس شيخنا مسنا يستخرج الماء من تجويف في صخرة ليروى بها رقعة صغيرة من الأرض زرعت خضارا .

- كيف حالك يا عمي ؟ وكيف حال قريتك الجديدة ؟

وأجاب الشيخ :

- حمدا لله . لا زلنا صامدين .

- الأطفال أسقمهم الهزال ، واستحالت سيقانهم الى عصي نحيلة .

- ايه . . . لا يحزنك هذا ، غدا سيقوى عودهم . قد يموت

البعض ، وهذا شيء محزن حقا ، ولكن الرجال ، بارك الله فيهم ، سينجبون غيرهم . بذرة الانسان خالدة كما تعلم . هل لك أطفال ؟

- لا .

لا ! ماذا تنتظر اذن؟ أسرع وانجب بعض الأطفال ، نحن لانقصنا

النساء والحمد لله . خذ دورك وأسهم بنصيبك بوضع لبنة في البناء .

وانتقل ياناكوس الى مكان آخر . وتعرف عليه بعض أهالي ساراكيناه

فخفوا للقاءه والترحيب به . وأحاطت النسوة بالحمار ، يتطلعن في غبطة

ونهم للخرجين المليئين . . ومدت فتاة صغيرة يدها وبسطت شريطا أحمر

وحملت فيه ببصرها ، وتحسسته بأطراف أناملها ، وتنهدت في حسرة ،

ثم أعادته مكانه في الحرج . . وامرأة سمراء حامل ، مدت يدها وأخرجت

من الحرج مشطا أبيض مصنوعا من العظم وتفرست فيه ولم تستطع أن

تحول نظرها عنه ، أحست أنها عاجزة عن أن ترده الى مكانه ثانية ، أخذت

عينها الملهوفتين تنتقلان بين ياناكوس والمشط الذي في يدها . غابت

مع أحلامها حيناً من الوقت . تخيلت أنها امتلكت المشط وهربت به دون

أن يلحظها أحد ، وهي الآن تجلس أمام الكهف تمشط شعرها فرحة جذلة

تحت أشعة الشمس .

أخذ ياناكوس في الحديث مع الرجال . وكان بين الحين والحين ينظر

بطرف عينه الى النساء وقد أحطن بحماره ، وأيديهن تنقب في شهوة
وشغف داخل الحرج ثم ترتد فارغة كليلة • ولملت عيننا ياناكوس ووثب في
مكانه ، وأمسك بنفيره ونفخ فيه ، ثم وضع راحتيه حول فمه كمكبر
للصوت وبدأ ينادى :

– أمشاط ، مرايات ، قطن ، ابر ، مشابك ، قماش ، أشرطة ...
خذن ما يحلو لكن أيتها النسوة الطيبات • لا أريد نقودا ، ستدفعن لى
التمن فى العالم الآخر •

لم تصدق النساء آذانهن • تحفرن أول الأمر لكى يندفعن ناحية
الخرج ، ولكنهن أجفلن وتراجعن • وقالت احدهن :

– انه يمزح ، سنكون سخرية • ارفعن أيديكن •
وقالت المرأة الحامل :

– لا أظنه يمزح •

واختطفت المشط وضمته الى صدرها وولت مسرعة •
وأقبلت الفتاة الصغيرة على عجل واختطفت الشريط الأحمر وهى
تصيح :

– وأنا أيضا فزت بهذا •

وقفزت من حجر الى حجر كأنها عنزة صغيرة •

وضحك ياناكوس وهو يتأمل هذا المشهد • واعتلى صخرة ، وقال
بصوت عال :

– تعالوا ، خذوا كل ما فى الحرج ، كونوا شجعانا يا أحبائى ،
انى جاد ولا أهزل • لن أسألکم ثمنا عليه • سأقضى الثمن فى الآخرة ،
وانى على ثقة •

وانقضت النسوة على الحرج كأنهن الطير • لم يسعفن الوقت للاختيار ،
كانت كل منهن تأخذ أول ما يقع عليه يدها ، وتجرى بعيدا بأقصى
سرعتها • وتعالى صيحات متهللة ... وفى لمح البصر اختفى كل
شى •

وصاح به شيخ :

– ترى هل أنت مجنون أم قديس ؟ أيهما أنت يا أخ ياناكوس ؟

وضحك ياناكوس وقال :

– لا ، بل أنا مرابى • سيدفع لى الرب الرحيم ثمن كل هذا مع
الفائدة أيضا •

- سمعت يا بنى أن أجدادنا كانوا اذا ما أقرضوا مالا يتسلمون
ايضالا بذلك الى أن يدفع لهم الثمن فى العالم الآخر . ولسكنهم كانوا
أصحاب ايمان وعقيدة .
وأجاب ياناكوس :

- وأنا أيضا صاحب ايمان وعقيدة .
وشد لجام حماره ، وقال لهم :
- طبتم سلاما ، والى اللقاء .
وانصرف والغبطة تملأ جوانحه .

وفى طريق عودته ، وقبل أن يلتقى بالأم ماندالينيا ، التقى عند
سفح جبل ساراكيناً بنيكوليو حاملا شاة فوق كتفيه متجها الى القرية .
ناداه ياناكوس :

- هيه يانيكوليو . كيف حال مانولى ؟
استدار نيكوليو وهو يضحك وقال :

- انه دائم القراءة والتأمل ، هذا الرفيق المسكين . . . أما أنا .
فسوف أتزوج وها أنذا أحمل هذه الشاة الى سيدى .

ودار على عقبيه ، فأثار سحابة من الغبار حوله ، وبدأ يرقص
والشاة حول رقبته . كان وجهه يتألق تحت أشعة الشمس كأنه قطعة
من البرونز ، واسنانه بيضاء متلألئة .
وأردف قائلا :

- سأتزوج لينيو أيها الشيخ ، هل سمعت عن لينيو ؟
وضحك اضحكة صافية - وقال :

- هل لك فى حكمة يا ياناكوس .
- قل يا نيكوليو فانت عبقرى مبدع .
- الحياة فرص يفتنمها السباقون .
ثم انطلق يعدو صوب القرية .

حقا ما قال نيكوليو ، فقد انقطع مانولى للانجيل ، يقرأه ويتأمله
أثناء الليل وأطراف النهار . انكب على الكتاب المقدس ، وكان فى أول
أمره يكابد فى عناء ويتصبب عرقا أمام كلماته ، يتهجى حروفها فى محاولة

منه لكى يسبر غور معانيها الحفية • وكم كانت شاقة وعسيرة تلك المهمة كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحبة اللوز ، ودونه والثمرة الحلوة بداخلها جهد وعناء ، فلا بد له أولا أن يكسر القشرة الصلبة التى حولها • ورويدا رويدا مع الأيام ومع عاطفة الحب الغامرة لانت القشرة الصلبة ، تصهرها أنفاسه الحارة فتفتق الكلمات رحدها وتكشف عن معانيها فى سهولة ويسر • وفجأة وضع أمامه كل شيء : لقد استحال المسيح الى جسد بشرى دافىء ، تنزل الى الارض يعظ الودعاء والبسطاء من الناس ويبلغهم الكلمة الطيبة • وبدأ مانولى منذ تلك اللحظة يقتفى أثر المسيح ، يتبعه خطوة خطوة فى غير مشقة أو عناء ، منذ أن ولد فى بيت لحم وسط الرعاة - ومانولى أحدهم - وهم يرتلون : « أوصانا فى الأعلى • مبارك الآتى باسم الرب » • واقتفى الأثر القدسى للمسيح حتى يوم الصلب • وشاهد الصليب المخضب بالدماء ، وعاین القيام المجيد عندما قام المسيح من القبر فى يوم سطعت شمس ودخل قلب مانولى •

وكان مانولى يمسك بين الحين والآخر بكتلة الخشب التى نقش عليها وجه المسيح ، يجوفها بحيث تصبح قناعا يلائم وجهه • وذات يوم وبينما كان مقبلا على عمله هذا ، منكباً عليه ، طافت بخاطره ذكرى عالم اللاهوت الذى أتى الى الدير من اسطبول ليحتفل بعيد القيامة ، وكان مانولى آنذاك لا يزال حديث عهد بالدير • ففى صباح يوم سبت النور ارتقى هذا العلامة المنبر متأبطاً أضاير ضخمة • وتحدث الى الرهبان البسطاء على مدى ساعتين كاملتين ، واستخدم فى حديثه ألفاظا غريبة متقكرة مما يستخدمها المثقفون عادة ليفسروا بها سر القيام • وكان الرهبان حتى ذلك الوقت يرون قيام المسيح حدثا طبيعيا جدا وبسيطا للغاية ، ولم يسألوا أنفسهم أبدا كيف كان هذا أو لماذا حدث ••• كان قيام المسيح يبدو لهم بسيطا مثل انسلاخ النهار من الليل ، وشروق الشمس كل يوم بعد الظلام • ولكن اذا بهذا العلامة اللاهوتى الحصيف يخرج عليهم بكل كتبه وعلمه ليشوش أفكارهم ••• وبعد أن عاد الى صومعته قال له الأب ماناس :

- ليغفر لى الرب يامانولى ، فهذه أول مرة فى حياتى أفتقد فيها الاحساس بقيام المسيح •

وبين الفينة والفينة يضع مانولى القناع على وجهه ليتبين ان كان قد تلام مع وجهه أم لا • وذات مرة فاجأه نيكوليو والقناع على وجهه فأغرق فى الضحك وقال :

- أخالك يا شيخ مانولى ارتددت الى طفولتك ثانية • ها أنت تنعب

بالاقتعة والعرائس • ماذا دهاك ؟

وابتسم مانولى ، وقال فى هدوء :

- لا • أنا لا ألعب •

كان نيكوليو يحوم حول مانولى منذ أيام عدة ، يود أن يفضى اليه بشيء ، بيد أن الكلمات كانت تعجف على لسانه ويحس بغصة فى حلقه • ولكنه حسم أمره اليوم • دنا من مانولى وجلس بجواره وانحنى عليه يتطلع الى كتلة الخشب المحفورة ، بينما كان يفكر فى شيء آخر • وأخيرا لكز ركبة مانولى بركبته • وصاح بعدها بأعلى صوته كأنه ينسأديه من فوق الجبل المقابل :

- مانولى • اسمع يامانولى •

- تكلم يانيكوليو فأنى أسمعك • ولكن لا تصرخ هكذا • تحدث بصوت خفيض فلست أصم •

- سأقول لك شيئا ، ولكن أسألك ألا تفضب • هل توافق ؟

- لن أغضب يا نيكوليو • قل ما تشاء • ولا تلكزنى فى ركبتي فان هذا يؤلمنى •

وصاح نيكوليو ، وهو يقبض على عصاة الرعى بقوة ، ويتهيا لضرب مانولى اذا ما حاول أن يهجم عليه •

- سأزوج بلينيو •

وابتسم مانولى وقال :

- أعرف ذلك •

واتسعت عينا نيكوليو دهشا ، وقال :

- تعرف ذلك ؟ تعرف ولا تنقض على تمسك بخناقى ؟ قسما بهذا الحبز لو أننى مكانك لقتلتك •

- انى أبارك زواجكما • أتمنى لكما الصحة والسعادة ، وأتمنى لكما حياة مديدة ••• أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما السن وتنجبا أطفالا كثيرة ، ويكونوا رجالا بررة أنقياء •

وأطرق نيكوليو لحظة برأسه متأملا ، ثم تتمم قائلا :

- هذا ••• هذا ما لم أكن أتصوره ، انه فوق طاقتى ! اذن أنت

لا تريد قتلى ؟

بسط مانولى ذراعيه واحتضن الراعى الصغير •

ولكن ساور الراعى الصغير القلق ، وعاد يقول :

— هل حقا لا تريد قتلى ؟

وضحك مانولى وهو يقول :

— لا ، لا يا عزيزى نيكوليو • لا أريد قتلك •

وهب نيكوليو واقفا فجأة وقد تملكه الخوف • وألقى نظرة مودعة

الى مانولى الذى انكب على عمله من جديد يحفر كتلة الخشب •

وحدث نفسه قائلا :

— مسكين هذا الفتى • انه ليس على ما يرام • لقد اصابه مس من

الجن •

وبدا يقفز من صخرة الى أخرى ، ويضع اصبعيه فى فمه ويصفر •

وأقبلت الكلاب تعدو ، وتجمعت الأغنام • واستعاد نيكوليو هدوءه وسط

الحيوانات التى عرفها وألفها ، وعرفته وألفته •

وطافت لينيو بخاطر مانولى لحظة من الزمن ، ورأى غمازتيها •

كانت خفيفة نضرة يسيل لها اللعاب ••• وأسند كتلة الخشب الى ركبتيه ،

وهام مع أفكاره فترة طويلة من الزمن •

وأخيرا تمتم قائلا :

— انى أباركهما • استننا الطريق الذى رسمه الرب الرحيم للانسان

على الأرض • أما أنا ، فانى أكابد لأشق لنفسى طريقا آخر — لا زوجة

ولا أطفال ولا متع ، سأزهد فى الحياة الدنيا وأنفض الأرض من تحت

قدمى ••• هل أنا على صواب فى ذلك ؟ كان يسوع المسيح على صواب ،

وهو الرب الهنا ، هكذا كان ، أما الانسان ؟ أليست هذه جرأة منه تفوق

طاقة البشر حين يحاول أن يقتفى أثر الرب ويتشبه به ؟

لم يهتد الى اجابة فى نفسه على سؤاله هذا • وقد اعتاد أن لا يسأل

نفسه فى اللحظات الخطيرة الحرجة ويؤثر أن يتقدم بخطى ثابتة وفى ايمان •

وان كان فى غير هذه اللحظات يسأل ويتردد ويزن الأمور ويتدبرها •

ولكنه لم يشعر فى يوم من الأيام بمثل ما يشعر به اليوم من ايمان يملأ

قلبه ، وسعادة خالصة تغمره ، اللهم الا يوم أن خرج يسعى الى حتفه

بظلفه وهو موثق اليدين من خلاف •

ومنذ أيام قصد جبل ساركينا ، يسأل القسيس فوتيس العون

والمساعدة فى بعض ما غمض عليه : فربما صادفت القسيس فى أيامه

الأولى نفس المحنة التى يعانى منها مانولى الآن ، وربما استطاع أن يمد

له يد المساعدة • ولكنه لم يجد القسيس هناك ، اذ كان قد خرج فى

جولنه بين القرى المجاورة يجمع الصدقات • وعاد مانولى الى خلوته •
وأمسك بالانجيل : فهو ملاذه الذى يلهمه الاجابة على كل سؤال •

فتح الكتاب الصغير مثلما يفتح الناس أبواب بيوتهم المظلة على
البحر على مصراعيها- فى يوم قائظ • واستغرق مع الآيات المقدسة ،
وأحس بالراحة والانتعاش، ونسى الأسئلة التى كانت تلح عليه وتؤرقه •
لم تعد أفكاره تنهال عليه بالأسئلة ، اذ كان قلبه يفيض بالاجابة على كل
ما يعن له ، وأنار الله بصيرته •

ونفض واقفا بعد أن فرغ من اللمسات الاخيرة لقناع المسيح ،
ووضعه على وجهه فكان ملائما تماما •
وقال :

— حمدا لله أن فرغت منه •

وقبله ، ثم دخل الكوخ ، وعلق القناع فوق الجدار بجوار الأيقونة
العتيقة التى تمثل الصلب وعصافير الجنة حول الصليب •

لن تذهب كاترينا الأرملة هذا العام للاحتفال بعيد القديس ايليا
••• كانت قد اعتادت فى مثل هذا اليوم من كل عام أن تنهض من نومها
وتضمخ شعرها بزيت الغار ، وتدعك أسنانها بورق شجر الجوز ، وتقلد
عنقها بقلادة من الأحجار الكريمة الزرقاء تقيها عين الحسود • ثم تأخذ
الطريق الجبلى الصاعد الى القديس ايليا ، تصعد اليه وحدها دون رفيق —
فلا أحد يرضى بالاقتراب منها • وتخر ساجدة ، كغيرها من الناس ،
أمام الأيقونة • وقد يزدريها النبى العاتى المهول ، وينظر اليها غاضبا ،
ولكنه يعجز عن الفكك من الحجر الذى نقش عليه ، أو أن يخرج من تحت
نذور الفضة التى تكدست فوقه وسجنه تحتها اولياؤه • ولكن الأرملة
التي كانت تعرف عنه ذلك ، كانت تواتيها الجرأة على أن تتقدم نحوه
وتقبله دون خوف بشفتيها المصبوغتين بالحضاب ••• ولكن ها هى الآن
ترقد تحت الثرى ، واختفت معها آثارها — الشعر المضمخ بالعطر ،
والشفاه المصبوغة بالحضاب ، والوجنات المتوردة ، والجيد المرمى
اللامع ••• ربما لم يبق منها غير أسنانها لا زالت تلمع كما يلمع الحصى
الأبيض على شاطئ النهر •

وبانايوتى عاجز هو الآخر عن مشاركة الناس احتفالهم هذا العام •
لا زال طريح الفراش ، يهدد ويتوعد كمن أصابه مس • ولكن ابتناه فتحنا
باب دارهما، وهما الآن تصعدان الجبل مع الصاعدين ••• سمران وجيلتان،
بضتان ، يعلو شفتيهما زغب أسود رقيق ، ويتصبب من تحت ابطيئهما

العرق ، ومع العرق تفوح رائحة المسك . كانتا أشبه باننتين من انات الذئب ، أضناهما موسم التسافد ، تطلقان نظرات نهمة متضرعة يمينا ويسارا تتحرقان شهوة بحثا عن ذكر . آه لو كانتا بقرتين اذن لحارتا فى حزن ، أو لبؤتين اذن لزأرتا ليلا وسط الغابة ، أو قطتين اذن لتمرغتا على ظهريهما فوق الرغام وتسلفتا الأسطح وهما تموءان . ولكنها امرأتان لذلك فانهما تغضان من طرفهما فى خبث اذا مر بهما فتى ، حتى اذا ما تجاوزهما غرقتا فى ضحك كله دلال ، وتتخذان منه مادة للسخرية . « انظرى اليه هذا المسكين ، انه مقوس الظهر . هل رأيت ساقية؟ كأنهما دبوسين . . . أين لنا بفتى وسيم ! » تسخران منه ، وتثيران حفيظته ، لا لشيء الا لأنه مر بهما كريما دون أن يهرول نحوهما ملهوفا .

وخرج أندونيس الحلاق أيضا ليشارك فى الاحتفال . لحيته طويلة - فقد تزاخم عليه الناس وتضاعف عمله فلم يجد وقتا ليحلق لحيته . وهو يقدر على النبى ايليا ويكبره : فكل رجال القرية يقصدونه للتزين قبل ذهابهم للاحتفال . ويصاب أكثرهم ببعض آلام البرد عند عودتهم ، فيلحون فى طلبه لعمل كاسات الدم ، وهو مصدر دخل مضمون له . اذن لماذا لا ينظر الى النبى ايليا نظرة اكلبار واجلال ؟ وهو خير فى خلق الأسنان ، ويعرف الناس عنه ذلك . ولكن الأشقياء من أهل القرية أسنانهم قوية قادرة على تكسير حبات الجوز . وتعلموا طريقة جديدة لحلم الأسنان اذا ما تخلخلت احداها ، فلن يكلفهم ذلك أكثر من خيط يربطون به السنه ويجذبونها بقوة فتنتزع من منبتها . . . ترى أى شيطان هداهم الى هذه الحيلة ؟ . وليس عليهم بعد ذلك الا أن يشربوا بعض العرقى ، وبعد ساعة يعودون الى تكسير حبات الجوز ويأكلونها مزة مع الشراب . وسار اصداقونا الهوينى فى مؤخرة الركب يتجاذبون أطراف الحديث فى دعة . كان ميشيل وياناكوس فى بداية الأمر يسيان خلف القسيس جريجوريس ، أحدهما عيناه على حمارة الذى امتطته ماريورى يحته بين حين وآخر بنداء محبب اليه ليطمئن باله الى أنه بجانبه . . . والآخر بجانب ماريورى يرافقها فى مسيرتها ، ويبادلها نظرات مشوقة لهفى . فيميشيل معجب بخطيبته . . . ببياض بشرتها ورشاقة عودها وحياتها . وهى معجبة به أيضا ، لا تمل النظر الى محياه الحنون الوديع وشعره الأسود الموج ، وهيئته الوقورة المهيبة . وتحت أشعة شمس الأصيل الحانية ، وضوئها الخافت الذى يفرى بالحطينة ووسط هذا الحشد اللجب الذى يرتقى الجبل ، غاب الحبيبان عن الوجدان ، وذاقا فى صمت مع الخيال طعم القبل وأحضان المستقبل .

فتحت ماريوري عينيها الكليلتين على اتساعهما وثبتت نظراتها في
الهواء فأبصرت ماريوري أخرى تحتضن طفلا وتلقمه ثديها .
وما ان وقع بصرها على قمة الجبل الصلدة حتى تمتمت قائلة :
- يا نيينا ايليا ، انى أطمع فى رحمتك ، وأسالك أن أنجب طفلا
مثلها .

وأتى قسطندى وراهم ، هو وعائلته ، يسير على مسافة غير بعيدة
عنهم . زوجته فى المقدمة تمتطى سهوة بغل وطفلاها خلفها ، وقسطندى
يسير على قدميه صامتا . ماذا عساه أن يقول ؟ وعن أى شىء يتحدث ؟
لقد قالوا كل شىء . وأعادوا قوله مرات ومرات ، حينما حديثا كله مودة ،
وحيثما آخر خصاما وشجارا . ولا زالت الزوجة حتى الآن تثور فى وجه
زوجها ، وتدخل معه فى شجار ، ولكن قسطندى اتقى السلاح ولاذ
بملكوت السموات كما قال من قبل وقنع بالصمت .

ووجد الرفاق الثلاثة أنفسهم ، عن غير قصد منهم أو تدبير ، وقد
انفصلوا عن الركب وساروا فى المؤخرة .
وتساءل قسطندى :

- أين مانولى ؟ ألم يأت معكما ؟ أم ترى أنه تخلف عن الاحتفال ؟

وأجاب ميشيل :

- ذهب لزيارته بالأمس فى المرعى ، بيد أننى لم أجده هناك .
ناديت نيكوليو وسألته عنه فقال لى : « خرج مع مطلع الفجر قاصدا النبى
ايليا . حمل معه جرة ماء وحزمة من أغصان شجر الغار ولم يرجع بعد .
انه غريب الأطوار ، لم يعد سويا مثلما كان وغدا يتبين لك صدق
كلامى يا سيدى . . . سينتهى به الأمر الى الجنون . . . بل انه بدأ يفقد
عقله بالفعل . قلت له اننى اغتصبت منه لينيو فلم يقتلنى لذلك . وهو
اليوم منكب على القراءة والترتيل . وغدا سيقتذف الناس بالحجارة » .
وأعرف الرفاق الثلاثة فى الضحك .

وقال ياناكوس :

- حقا تغير مانولى ، فلم يعد كما عهدناه سابقا . صدقونى ان
شئتم يا اخوتى ، وربما أرى الأشياء على غير حقيقتها ولكن حدث
ذات ليلة ، وكنت معه وقتذاك ، أن كان جالسا فوق الأريكة الحجرية ،
مسندا رأسه الى الحائط ، فرأيت هالة من النور حول رأسه . كانت
اكليلا من النور مثل حالات النور التى تحيط بالقديسين فى أيقوناتهم
. . . هل تصدقون ما أقول ؟

وقال ميشيل :

- أنا أصدق ما تقول .

وقال قسطندى :

• وأنا أيضا .

ثم لفهم الصمت .

أصبحت الكنيسة الصغيرة على مرمى البصر الآن ، بيضاء ناصعة ، فقد طليت بالجير منذ أيام قلائل ، وتحيط بها صخور شماء . وهذه هي الصورة التى يبدو عليها النبى المهول فوق الأيقونات ، يظهر بين صخرتين كبيرتين مبسوطتين كأنهما جناحان عن يمين وعن شمال . وبالفعل فقد أصبحت هاتان الصخرتان الوعرتان أشبه بجناحين للنبى ايليا فى وحدته فوق قمة الجبل الشاهقة يحملان الكنيسة بعيدا الى عنان السماء .

وترى بجانب الكنيسة أطلال صومعة كانت فى قديم الزمان سكنا لراهب زاهد لاذ بها ليكفر فيها عن خطاياها . ولا زال هناك المقعد الذى كان يجلس عليه وقد نخره السوس الآن ، وترى مسبحته معلقة بمسار فوق صخرة كبيرة ، وحبلًا متسخًا كان يستخدمه كحزام يشده حول وسطه ، وصليبًا صغيرًا له شراية سوداء بطرفه . وعلى مسافة غير بعيدة ترى صليبا مهنيا يشهد على مكان رسمه ، وحجرا نقش عليه اسمه الذى محته الأيام .

ومع مطلع الفجر ارتقى الشماس الجبل قاصدا الكنيسة الصغيرة لينظمها استعدادا للاحتفال يضى المصابيح ، ويزين الكنيسة بأغصان شجر الغار . ولكنه لم يكد يفتح الباب حتى صرخ صرخة عالية ، وجمد فى مكانه مأخوذا . وطفق يتمتم : « كيريا لا يسون . . . كيريا لا يسون . . . كيريا لا يسون » ويرسم علامة الصليب المرة بعد الأخرى فى لهفة وخوف . كانت الكنيسة الصغيرة نظيفة تماما ، متألقة ، أرضها مكنوسة ومفسولة ، وجدرانها أزيل عنها الغبار ، والشمعانات نظيفة ، والمصابيح ملئت زيتا ، والأيقونات مزينة بأغصان شجر الغار ونار موقدة أحرقت فيها عيدان البخور ، فتضوعت الكنيسة عطرا .

مسح الشماس جبهته بيديه وقد أجمه الخوف فلم يجسر على الدخول كان يخشى أن يكون الملاك لا يزال بداخل الكنيسة مختبئا وراء المذبح . وتذكر ما حدث له ذات صباح فى كنيسة القرية حين ذهب لينظمها فوق بصره على كبير الملائكة ميخائيل بداخل الكنيسة على يسار الحجاب ، وبسط الملاك جناحيه فى بطنه ورف بهما خفيفا ثم غاب عن الأنظار . ومنذ تلك اللحظة وهو يفرغ لرؤية الملائكة والمعجزات .

وجلس عند عتبة الباب • وكان بين الفينة والفينة يختلس نظرة
 وجلة الى داخل الكنيسة • ومضت الساعات تباعا ، ولم يظهر الملاك ،
 وبدأ الشماس يسترد شجاعته رويدا رويدا • وشعر بالجوع ، ففتح
 جرابه وأخرج منه كسرة خبز وقطعة جبن • ولكنه أحس انقباضا في
 حلقه يعوق مرور الطعام ، فتناول زجاجة النبيذ وعب جرعات منها ،
 فانتعش لذلك قليلا ، وانبسبت عضلات حلقه ، وأقبل على طعامه • وبعد
 أن فرغ الشماس العجوز من طعامه وشبع ، استجمع شجاعته ورسم علامة
 الصليب ، واجتاز العتبة في جراءة واقدام ، ودخل الكنيسة • وخر
 ساجدا أمام النبي ايليا ، وفي تواضع ذليل أزاح ستار الحجاب وجال
 بعينه فلم يجد أحدا •
 وقال :

— حمدا لله أن نظم كل شيء وغادر المكان ونجوت منه •

واراد أن يزجى وقته ، فبدأ يكتس ويغسل البلاط وينفض الغبار ،
 ويلمع الشمعدانات ويصف الصحف الفضية فوق النضد ، كان الشماس
 العجوز مغرما بهذه الكنيسة الصغيرة ، إذ أنها ترتبط بحياته ازباطا
 وثيقا فهو الابن الوحيد لأبيه الذي توفي منذ زمان طويل • وحدث أن
 ألم به مرض وهو لا يزال في المهد صبيا • وقصد أبوه النبي ايليا ، بعد
 أن ينس تماما من شفائه ، ونذر له طفله الوليد أن يعمل شماسا في
 خدمته اذا برى من مرضه وعاد صحيحا معافى • وقد كان ، شفى
 الطفل واستعاد صحته ، وأوفى أبوه بنذره •

وتذكر الشماس حياته الماضية وتنهد • ظهرت علامات غريبة يوم
 ميلاده • ولد منذ خمس وسبعين عاما ، ظهر يوم الجمعة الكبيرة ، وفي
 نفس الساعة التي صلب فيها المسيح • وأعلنت القابلة أن الطفل سيصبح
 أسقفا يوما ما • وكان أبوه مسيحيا تقيا ورعا ، سليل أسرة عريقة ذات
 جاه • لذلك فقد آلى على نفسه منذ تلك اللحظة أن ينذر ابنه الوحيد
 لدراسة اللاهوت ليحقق هذه النبوءة التي أصبحت أمل حياته • وسارت
 الأمور وفق ما يجب ويهوى • فقد بز أسقف المستقبل أقرانه ، وتميز
 عليهم في دراسته ، وكان ذكيا تقيا • وأتم دراسته بمدرسة المدينة ،
 وحاز تقدير « جيد جدا » وتهيأ للسفر لدخول معهد اللاهوت العالى في
 القسطنطينية ••• ولكن ، وبينما كان يتأهب للسفر ، حدث ذات مساء
 أن خرج ، وكان الليل ساجيا ، وسار في درب مقفر ، وفجأة اعترض
 الشيطان طريقه • كان اسمه كيرياكولا : سمراء ، قصيرة ، تناهز الثانية
 عشرة من العمر ، نافرة الشدين في امتلاء ، يعلو شففتيها خال الحسن

والجمال . وفقد أسقف المستقبل صوابه ، ودارت رأسه ، وتعقب الفتاة .
أسره هواها ، وسباه خال الحسن والجمال على شفقتها . توسل اليه
الأب المسكين ألا يحيد عن طريقه المرسوم الذي اختاره له الرب ، وذرف
الدمع ، ولكن عبثا . لم يجد كل هذا فتिला مع أسقف المستقبل ، وأصر
على الزواج بها ولا أحد سواها ، . . . هي أو الموت انتحارا . . . وتزوج
بها .

وكثيرا ما يعزى نفسه قائلا :

- حمدا لله أن أصبحت شماسا ولم أضل الطريق .

وهكذا مضت الساعات تباعا وهو غارق حينما مع ذكرياته عن حياته
الماضية ، أو مكبا حينما آخر على عمله المألوف . وبدأت الشمس تميل
ناحية المغيب . وعاد الشماس الى حيث كان يجلس فوق العتبة يمتع
نفسه بالنظر الى الحجيج وهم فى طريقهم صاعدين الى الكنيسة . ظل فى
مكانه لا يبرحه كان اليوم يوم الاحتفال بميلاده هو ، وها هم أصدقاؤه
يفدون الى داره يهنئونه ويتمنون له عمرا مديدا .

وترامى الى سمعه نهيق الحمير ، يكاد يسمعه واضحا . ونهض من
مكانه ، وأمسك بالحبل ، ودق الجرس الصغير لحن العيد .
كان القسيس جريجوريس أول من ظهر من الحجيج ، ممتطيا صهوة
بفلته ، تخاله متربعا على العرش . وهرول اليه الشماس ليرحب به ويعينه
على النزول .

وقبل أن تمس قدما القسيس الأرض ، سأل الشماس قائلا .

- هل كنست الكنيسة ونظفتها وطلبت الشمعدانات ؟

وفى خضوع وذلة أجاب من كان يود أن يصبح أسقفا يوما ما :

- كل شىء على ما يرام يا أبانا .

لم يجرؤ على أن يقص عليه المعجزة ، اذ أراد أن ينسب الفضل الى
نفسه .

- هل وضعت الصحف فوق النضد كما أمرتك ؟ قلت لك ثلاث

صحاف : واحدة للبابا ، والثانية للقديس والثالثة للشموع . . .

وأعاد الشماس اجابته الأولى بصوت ذليل :

- كل شىء على ما يرام يا أبانا .

فى هذه الأثناء وصل الحجيج ، وتوافدوا على الكنيسة ، ووضعوا
سنابل القمح وعناقيد الكرم فوق النضد ، وأخرج كل منهم حافظة نقوده

ووضع تقدمته فى صحفتى البابا والقديس ، ثم اشترى شمعة وذهب فى خشوع ليختر ساجدا أمام النبى المهول . ظهر النبى فى أيقونته راكبا عربية من نار ، تشدها أربعة خيول أرجوانية اللون ، وتقف به عند حافة هاوية سحيقة ، ومرتديا رداء كهنوتيا أرجوانيا أيضا ، وألسنة اللهب تصاعد من رأسه . تراه مندفعيا بسرعة مروعة فوق الجبل حتى تخال العربية معلقة فى الهواء . وسقط منها ناسك وسط جلاميد الصخر ، ووضع راحته فوق عينيه وهو يحملق مذعورا .

وهمست امرأة شابة استحوذ عليها الإعجاب بالنبى :

— انها الشمس . . . انها الشمس ، يا عزيزتى .

وقالت أخرى :

— بل انها القديس ايليا ، لا تخسرى تقواك يا عزيزتى ماريورى .

وقالت ثالثة :

— كلاهما سواء . هيا نركع له وننتهى من ذلك .

غربت الشمس ولم تسطح النجوم بعد ، فلا زال النهار يقاوم فى يأس . تسلق الجبل ولاذ بالقم المرتفعة ، ولكن الليل يقتفى أثره ، يتسلق خلفه ويتعقبه من صخرة الى صخرة حتى بلغ معقله الأخير فى الكنيسة البيضاء الصغيرة ، كنيسة النبى ايليا . وانهار النهار ولم يعد يقوى على المقاومة فقفز الى السماء واختفى هناك .

وفى هذه اللحظة وصل لاجئو جبل ساراكيئا ليحتفلوا بدورهم . تعساء يثيرون الرثاء ، ثيابهم مهلهلة ، وجناتهم غائرة من أثر الجوع . يتقدمهم القسيس فوتيس ممسكا فى يده بعضا الراهب المعدنية الصغيرة . وكانوا آخر من وفد الى الكنيسة ، لا يملكون ما يضعونه فى الصحف ، فاكثفوا بالتوجه صفر اليدين ناحية القديس وخرؤا أمامه سجدا خشعا .

وتفرس الأب فوتيس فى القديس وتمتم : « نسألك الصفح والمغفرة أيها النبى المهول . كنت مثلنا فقيرا مهلهل الثياب . لم تكن تملك غير النار العظيمة . ولا زلنا نمسك بقبس منها ، نحن معشر اللاجئيين الى جبل ساراكيئا . يسعدنا أن نحبيك يا رفيق . »

وسجدوا ثانية ، ثم خرجوا وتفرقوا بين الصخور وراء أهل ليكوفريسي ذوى القوة واليسار . وخف اليهم أصدقاؤنا الثلاثة ، رحبوا بهم وقبلوا يد القسيس .

وقال له ميشيل خجلا :

- نسألك الصفيح عن أهل قرينتنا ، فان حقائبهم مليئة -

وقال القسيس فوتيس :

- بل ليغفر الله لهم ، انه هو الغفور لا أنا .

وصمت ، ولكن عيناه كانتا تطلقان لهيبا . اذ عاد من جولته اليوم .
خاوى الوفاض ، لم يتصدق عليه أحد - وكان يتأمل في غضب ، من
فوق الصخور العالقة ، الحقول التي حصدت حتى تخاله النبي ايليا
يخطو وسط اللهب .

وقال القسيس فوتيس :

- الأرض أرضهم ، فليتمتعوا بها . وليمنحنا الرب السماء فتكون
نصيبنا .

ثم لاذ بالصمت .

وبسط الحجيج سجاجيد مختلفة ألوانها حول الكنيسة الصغيرة ،
وفتحوا حقائب مملوءة طعاما ، وبدأت أسنانهم تعمل مضغا في الطعام .
ومالت زجاجات النبيذ على أفواههم ، ومالت معها الأعناق . وتردد صوت
كركرة النبيذ ، واستحالت خلوة النبي الجادة الى مكان يعج بانضحكات
والصخب .

وأضاءت بعض المصابيح بنورها وسط الحجارة ، وألقت بضوئها
على وجوه النساء المخضبة بلون أرجواني ، ونحور الفتيات الرخصة
الرشيقة ، وشوارب الرجال الخشنة . وعلق فانوس كبير فوق حائط
الكنيسة فأضاء نوره الوجنات البضة واللحية المثلثة للعمدة بطرياركاس .
وظهرت الى جواره حية بيضاء شائكة مع الفكين وهما يمضغان الطعام .
جلس رئيسا القرية وكبيرها ، العمدة والقسيس ، جنبا الى جنب . وفي
بعض الأحيان كان يسقط شعاع من ضوء المصباح على يدي ماريورى
الواهنتين النحيلتين وهى تشوى اللحم ، وتخدم السيدين النهمين اللذين
لا يشبعان أبدا .

وخبت المصابيح وانطفأت الواحد بعد الآخر . وزحفت الظلال ،
وغطت المنطقة المحيطة بالصخور المقدسة ، وتاهت كلها في الظلام . ولم
تعد تسمع غير ضحكات غنجة للفتيات وتأوهات ذات دلال ، ثم سرعان
ما خيم الصمت . وبدأت كائنات من البشر تزحف كالعقارب بين الصخور
مثنى مثنى لتحتفل بنبي النار على طريقته الخاصة .

ودعا الرب النهار فلبى الدعاء ، وظهرت الشمس فى عربة من نار
كما يظهر النبى ايليا تماما . ونهض البشر على أقدامهم وتناهبوا وتمطوا
وسعدوا ومسحوا عيونهم بأيديهم ، واحتسوا القهوة ليكمل صحوهم .
ودق الناقوس الفضى الصغير دقات سريعة جذلة رن صداها الواهن
بين جنبات الجبل ، وانتشر الصوت فى كل الأرجاء يقطر تباعا كأنه شلال
تتماقط مياهه دفاقا ثم تنتشر لتفمر السهل .

وظهر مانولى وسط الآكام، متكنا على عصا الرعى، هادئا ، مبتسما .
وتفرس بعينيه فيمن حوله حتى وقع بصره على رفاقه واقفين فوق
صخرة شاهقة يجولون بنظراتهم القلقة بحثا عنه ناحية الجبل حيث يقيم
هناك . وأحس بالغبطة لمراهم ، وخف اليهم يقفز فوق أجساد بعض
الحجيج الذين تمددوا على الأرض ، وفتح ذراعيه وضمهما الى قلبه . وندت
عنه صيحة عالية .

وقال ياناكوس :

— قضينا الليل بطوله ننتظرك . لماذا لم تحضر ؟ قلت لنا ...

وقاطعه مانولى متسائلا :

— هل كل شيء معد !

لم يصدق الرفاق الثلاثة آذانهم وقالوا .

— معد ؟ أى شيء كان ينبغى أن يكون معدا ؟

وقال مانولى مبتسما :

— الأرواح لتستيقظ ، والظهور لتتلقى الضربات ، والأفواه

لتصرخ !

وأمسك ياناكوس بذراع صديقه وسأله :

— هل ثمة فكرة جاهزة فى رأسك ؟ انى معك رهن الموت

والحياة .

وأجاب مانولى :

— ليس ثمة فكرة فى رأسى . ولكن ربما الرب بوسع رحمته لديه

ما يشاء أن يبلغه . لذلك يجب أن تكون على أهبة الاستعداد .

ودارت عيناه فيما حوله ، ثم قال :

— أحب قمة الجبل هذه . وأحب هذا النبى الذى اتخذ النار مطية

له ، وضرب الأرض بقدميه وارتفع عنها بعيدا الى عنان السماء بل

أشعر اليوم أني أحب أهل القرية ، أبدانهم نظيفة ، عيونهم لامعة ، ثيابهم مهندمة أنيقة ، ويبدو أنهم على أهبة الاستعداد ، البعض لتشتعل فيه النار ، والبعض الآخر ليشعلها ، ترى هل نحن على أهبة الاستعداد أيضا ؟

وفي هذه اللحظة دمدم صوت كهزيم الرعد عند الهيكل . هو صوت القسيس جريجوريس . بدأ القداس فصمت الرفاق .

وتزاحم الناس داخل الكنيسة حتى لم يبق فيها موضع لقدم . ووقف من لم يسعدهم الحظ ، خارج الكنيسة فوق الصخور ، وتسلمت التراتيل الى الخارج من الباب الأمامي ومن النافذة الصغيرة في الخلف . وتردد صوت شجي حنون كان رجع صدى أرواح أسلافنا الأول الذين أبدعوا هذه التراتيل للاله الرب .

اتمهي القداس ، وخرجت الجموع . واعتلى ناظر المدرسة صخرة كبيرة ، كان شاحب الوجه . وشرع يتحدث الى الناس بصوت أجش يعدد لهم فضائل النبي ايليا ويتغنى بمآثره . وسرعان ما انتقل فجأة ودون أية مقدمات الى تعديد مناقب سلالة الاغريقي . وبدأ يقارن بين ابوللو والنبي ايليا ، ثم قارن بين النبي ايليا ونور الشمس ، وأخيرا بينه وبين الروح الخالدة لشعب اليونان التي تعقبت ظلام البرابرة ودحرته تماما . وفي مهارة فائقة انتقل من حديثه هذا الى الكلام عن الاحتلال التركي . كان حريصا غاية الحرص في حديثه أول الأمر ، وفجأة أفلت منه الزمام ، وأطلق لعواطفه العنان ، وفي صراحة متناهية ودون موارد بدأ ينشد النشيد الوطني .

وبهت الحجيج أول الأمر ، ولكن بدأت تسرى حرارة النشيد في دمههم ، وأنشدوا معه في قوة وانفعال وحماس بطولي :

أيتها الحرية ، أعرفك من ومضة سيفك البتار . . .

وفجأة رأت الجموع النبي ايليا وقد تحول الى فرق من الفدائيين الذين حاربوا الاحتلال التركي الطويل على قمم الجبال الوعرة وقد ارتدت تلك الفرق الزى الوطني الذي يتميز بخفين أحمرين لينين ، وتسلمت بالبنادق .

ومال مانولى على رفاقه الثلاثة وأعاد سؤاله من جديد :

- هل أنتم على أهبة الاستعداد ؟

وأجابوا جميعا في صوت رجل واحد :

- نعم ، نحن على أهبة الاستعداد ، تقدم باسم يسوع المسيح .
لم تكن لديهم فكرة واضحة عما ينوي مانولى أن يقوله أو يفعله ،
أو لآى شىء ينبغي أن يكونوا على استعداد ، ولكنهم شعروا فى أعماقهم
أن أرواحهم يقظى متاهبة لكل شىء .

وفرغ ناظر المدرسة من حديثه ، وبدأ ينزل من فوق الصخرة ودمه
يغلى فى عروقه من حرارة الحديث . واغرورقت بالدمع عينا الشيخ
بطرياركاس ، ورفع القسيس جريجوريس يده ليبارك قطيعه . فالآن وقد
انتهوا من أداء فريضتهم تجاه الرب يحق لهم أن يمرحوا ، ويطلقوا
لأنفسهم العنان للاحتفال بالعيد .

وفى هذه اللحظة تقدم مانولى وانحنى أمام القسيس وقبل يده
واستأذنه فى الحديث الى الجموع .

وأبصر القرويون مانولى ، فخفقت قلوبهم لمراه . انهم اليوم أنقياء
النفس يتحلون بخلق يوم الأحد . وتذكروا أن هذا الفتى الأشقر كان من
الشجاعة الى حد أن وضع روحه على كفه استعدادا ليجود بها من أجل
خلاصهم . وصدرت عن أفواه الناس جميعا تمتمات مرحة مشرقة تعبر
عن ترحيبهم واحتفائهم به .

وتجهم القسيس جريجوريس ومال عليه وسأله :

- ماذا تريد أن تقول ؟ هل يمكنك أن تخطب فى الناس ؟ وعن أى

شىء ؟

وأجابه مانولى :

- عن المسيح .

وارتد القسيس الى الوراء مذهولا وقال :

- المسيح !!! ولكن هذا صميم عملى أنا .

وقال مانولى فى اصرار :

.. أمرنى المسيح أن أتحدث الى الناس .

وقال القسيس جريجوريس ساخرا :

- ألم يحدث بالمناسبة أن أوضح لك المسيح ما تقول .

- لا ، ولكنه سيملى على ما أقول عندما أبدا الحديث .

وخطا ميشيل خطوة نحو القسيس وقال :

- يا أبانا ، يريد مانولى أن يتحدث الى أهل القرية ، ونحن جميعا

نتوسل اليك أن تأذن له . ان من حقه أن يتحدث الى الناس ، فقد تقدم

ليهب روحه ابتغاء نجاتنا وقتما كان الخطر يحرق بالقرية كلها -

وقال الشيخ بطريار كاس بدوره :

- ائذن له يا أبانا ، انه ولد طيب همام .

واعترض القسيس بقوله :

- انه سيتحدث عن أشياء لا علم له بها .

وتدخل ياناكوس :

- هذا لا يهم . قداستكم تعرفون هذه الموضوعات حق المعرفة

وسوف توضحونها له .

وصاح قسطندى :

- دعه يتكلم ، دعه يتكلم .

وتشجع أهل القرية فنهض ديمترى الجزار وأندونيس الحلاق

والشيخ كريستوفيس وبدأوا يصفقون ويصيحون :

- دعه يتكلم ، دعه يتكلم .

وهز القسيس جريجوريس كتفيه استخفافا وقال :

- لكم ما تريدون . أسكتوا ولا داعى لهذه الضوضاء .

وفى تآفف واشمئزاز وضع يده على رأس مانولى وقال له :

- أسأل الله أن يلهك الصواب وينير بصيرتك . . .

ثم عقد ذراعيه الى صدره وانتظر ليرسم ما عساه أن يقول .

تقدم مانولى بضع خطوات الى الأمام حتى توسط الجمع . ودرج

ياناكوس وقسطندى حجرا كبيرا ليقف فوقه مانولى . وأحاط به أهل

القرية رجلا ونساء . واقترب منه أيضا القسيس فوتيس وشعبه . وأوما

هذا برأسه تحية للقسيس جريجوريس فتظاهر بأنه لم يره .

وامتدار مانولى ناحية الشرق ورسم علامة الصليب ، ثم بدأ

حديثه :

- اخوتى ، أحب أن أتحدث اليكم عن المسيح . وانى أستميحكم

عذرا ، فلست بالثقاف الذى يجيد صباغة العبارات الرشيقة الفصيحة .

حدث ذات مساء وبينما كنت جالسا عند حظيرة الرعى والشمس تاذن

بالغيب أن اتانى المسيح ، وجلس الى جوارى فوق المقعد الحجرى . جلس

فى بساطة وهدوء كأنه جار أنيس . كان يحمل على كاهله زكبية

فارغة • وتنهى قبل أن يتركها تسقط عن كاهله الى الأرض • كانت قدماه متربتين ، والجروح الأربع التي أصابت جسده المقدس من المسامير قد انتكأت من جديد وعاد الدم ينزف منها • وقال لى بصوت حزين : « هل تحبني ؟ » وأجبت : أجل يا سيدى • مرنى أن أموت من أجلك • » وهز رأسه المقدس وابتسم • ولم يفعل شيئا • واحتوانا الصمت لفترة غير قصيرة • وانتابنى خوف عقد لسانى ، فلم أجرؤ على الكلام • وبعد قليل قلت له : هل أنت متعب يا سيد ؟ قدمك علاهما التراب والدم ، من أين أتيت ؟ » وأجابنى قائلا : « فرغت من جولة بين القرى ، وزرت ليكوفريسى أيضا • أطفالى جوعى • أخذت معى هذه الزكيبة لأجملع فيها الصدقات • أنظر هانذا أعود أدراجى والزكيبة فارغة تماما • انى متعب • • • • »

وصمت ثانية • وشخص كل منا ببصره الى الشمس الغاربة • وفجأة ارتفع صوته المقدس الذى أثقله الندم :
لماذا تدعى حبنى وترضى بالقعود هنا هادئا ، عاقدا ذراعيك الى صدرك ؟ هل تطمع فى الراحة ؟ تنعم بالاكل والشراب وتقرأ كلمائى كما يحلو لك ، وتبكى لسناك قصة صلبى ، ثم تذهب بعد ذلك كله الى السرير لتنام قرير العين هادىء البال • ألا تخجل من هذا ؟ أهكذا يكون حبك لى ؟ هل هذا هو ما تسميه الحب ؟ قم •

وقمت ، وألقيت بنفسى عند قدميه المقدستين باكيا وأنا أقول :
- الهى وقعت فى الخطيئة • أسألك الصفح والغفران • مرنى وأنا عبدك المطيع •
فقال لى :

أمسك بعضا الرعى واذهب الى الناس : اجمعهم حولك وتحدث اليهم ولا تخف •
- وماذا عسأى أن أقول يا سيد ؟ لست مثقفا ، كما أننى فقير خجول • عندما أبصر حشود الناس ينتابنى خوف وأعدو هاربا • والآن ترسلنى لاتحدث اليهم • ماذا عسأى أن أقول لهم ؟
- اذهب قل لهم انى جائع أطرق أبوابهم وأمد اليهم يدى وأصرخ صدقة أيها المسيحيون •

ضاق صدر القسيس جريجوريس ، وبدأ يهتاج لهذا الحديث • وتململ فى مكانه • وتشاءب الشيخ بطرياركاس ، وبدأ يدبر فى نفسه وسيلة ينسل بها من وسط هذه الجموع وينأى بعيدا عنها ، إذ أنه

أحس بالجوع ، واقترب الشيخ لاداس من القسيس وأسر اليه بكلمات :
- ستنتهي هذه المسألة نهاية سيئة . مره بالسكوت .

ولكن أهل القرية كانوا يصنفون اليه فاغرين أفواههم . تملا صدورهم انفعالات جياشة ، وبدأ يستبد بهم خوف غريب رويدا رويدا . خيل اليهم وكأنهم رأوا المسيح حقا ، ضامرا نحيفا ، شريدا حافي القدمين ، يطرق أبوابهم يسألهم الصدقات فيصدونه ويصرخون في وجهه من وراء أبوابهم : « اليك عنا ، حن الله عليك » . ألم يطردوا القسيس فوتيس على هذا النحو منذ أيام عندما أتى اليهم حافي القدمين يحمل زكبية فارغة على كاهله ؟

التقط مانولى أنفاسه . وتساقطت حبات من العرق فوق جبينه . جال بعينيه بين الجموع ، وتفرس وجوههم الواحد بعد الآخر ، وارتسمت على وجهه أمارات التائب والمرارة ، وكذلك سيماء العزة والكبرياء ، حتى أن الجموع كانت تشخص اليه في حيرة ودهشة .

ورسمت امرأة عجوز علامة الصليب . وهمست في أذن جاريتها :

- رحماك يا رب . هل هذا هو مانولى حقا ، راعي غنم الشيخ بطرياركاس ، وابن أخ الأم ماندالينيا ؟ أبدا ، لا يمكن أن يكون هو باى حال من الأحوال - اغفر لى يا رب خطيئتي هذه - هل تنزل المسيح الى الأرض ثانية بسبب خطايانا ؟ ما رأيك فى هذا يا جارتى ؟

- اسكتى يا أمبيرسيفون . اسكتى فانه سيتحدث ثانية .

بسط مانولى ذراعيه عن يمين وشمال وصاح :

- اخوتى ، اخواتى ، يا أهل ليكوفريس رجالا ونساء ، اننى لم آت اليكم بدافع من نفسى . اذ كيف لى وأنا الخادم الوضيع ، والفقير المعدم ، أن أجرؤ على الحديث اليكم ، وألقن الدروس لسادة القرية الأثرياء ذوى الحسب والنسب ، والأعيان أصحاب المقامات الرفيعة ، والى من هم أكبر منى سنا ؟ لم آتيكم بدافع من نفسى وانما أرسلنى اليكم المسيح . وكل ما أفعله أننى أردد على سمعكم الكلمات التى أمرنى أن أبلغكم اياها . انه يستصرخكم قائلا : « صدقة أيها المسيحيون فانى جائع » ان من يوجد بما عنده على الفقير فانما يقرض الله قرضا حسنا . ومنذ أيام ذهب واحد من أبناء قريتنا لزيارة اخوتنا اللاجئيين فوق جبل ساراكيئا . كانوا جياعا لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، عراة لا يملكون ما يسترون به أجسادهم ، بلا مارى لا يجدون مكانا يتوسدونه . وحمل اليهم كل ما يملك من حطام هذه الدنيا . ونادى عليهم : « تعالوا يا اخوتى ، خذوا ما يحلو لكم ،

لنقتسم معا كل ما املك لا أسألكم عليه ثمنا ، ولا تحسبته منة • وانما
أقرضه الله ليجزيني عنه خيرا يوم الحساب •

ضاق الشيخ لاداس ولم يعد يحتمل المزيد • وأحس بفصحة في
حلقة • وأشار الى القسيس جريجوريس اشارات تعني أن يخرسه ،
ولكن دون جدوى • وأخيرا تدخل هو بنفسه • وعوى بأعلى صوته •

– معنى هذه أن سيادتكم تطالبوننا أن نوزع كل ما جمعناه رزقا
حللا بعرق الجبين ، ونحصل مقابل ذلك على كمبيالة تسدد لنا في العالم
الآخر ؟ يا الله !! أى تفكير هذا ؟ ابتغاء العمل الطيب لا غير لنطلى به
جدران بيوتنا • سأقول لك كلمة واحدة يا بنى ولا تضيق بها : أنت لم
تفهم على وجه الدقة ما قاله لك المسيح • عصفور فى اليد خير من عشرة
على الشجرة ، هذا هو رأى •
وقاطعه ياناكوس :

– دعه يواصل حديثه يا أب لاداس • لقد عرفت من الذى أرسله
الينا • المسيح هو الذى يتكلم بلسانه •
وثارت نائرة الشيخ لاداس وصاح :

– هل هو أنت يا ياناكوس الذى تواتيك الجرأة على أن ترفع
صوتك ؟ ألا تخجل ، انتظر حتى نسوى حسابنا سويا •
وأراد ناظر المدرسة أن يلقي ببعض الأفاوية التى اعتاد أن يهدىء
بها ، الأمور اذا استفحلت •

– كل ما تقوله يا مانولى كلام طيب وجميل ، ولكن لا يمكن تحقيقه •
انك تحرث فى البحر يا صديقى • لسننا آلهة وانما نحن بشر • ومن ثم
ينبغى أن تقومنا حسب مقاييس البشر •
وأجاب مانولى :

– وهذا هو عين المقياس الذى اخترته • هذا هو المقياس الذى أقيس
به • وانى أسأل كل من جشم نفسه مشاق الحضور الى هنا للاحتفال ،
من منكم المسيحي ؟ فالمسيحيون جميعا يؤمنون بالعالم الآخر • وما معنى
الايمان بالعالم الآخر ؟ معناه أن أعمالنا فى هذه الدنيا سيزنها الرب الهنا
فى العالم الآخر ويقدرها حق قدرها • سيعاقب المسئء ويشيب المحسن •
ان من يقدم حسنة لآخوته فى هذه الحياة الفانية سيجزيه الله عنها خير
الجزاء فى الحياة الخالدة • ولهذا يا أب لاداس أقول لك ان عشرة عصافير
على الشجرة خير من عصفور واحد فى اليد •

وتتم الطائر الجارح العجوز : « انك لاحق حقا ، »

وصاح بعض أهل القرية من ذوى النفوس النقية الطاهرة :

— حسنا ، ما الذى يجب علينا أن نعله ؟ بماذا أمرك المسيح ؟ تحدث
الينا يا مانولى بوضوح وبساطة حتى نفهمك ونرى ان كان هذا ممكنا
• ام لا •

وقال شيخ لازال قوى البدن صحيحا معافى :

— لا تطلب منى ان أجود بكل ما عندى وأتخلى عن كل شيء • فهذا
عين المستحيل ودونه خرط القتاد •
وقال مانولى :

— ها نحن فى موسم الحصاد يا اخوتى ، ونحمد الله أن بارك لنا فى
حصاد هذا العام • وبعد أيام يحين موسم قطف العنب ، وبعده بقليل
يكون موسم جمع الزيتون • حسنا ، لنستمع معا الى صوت المسيح الذى
تقطع له نياط القلوب : « يا أهل ليكوفريسي الأبرار ، يقف ببابكم اخوة
لنا مضطهدون طردوا من ديارهم ، والشتاء على الأبواب وسيلقون حتفهم
من أثر الجوع والبرد والحزن ••• والأب الهنا الرحيم يبسط لوحه
المحفوظ ويشهد أهل ليكوفريسي ، ويثبت فى لوحه أسماءهم جميعا
وتواريخ ميلادهم وكم من الأموال يملكون وبكم من أموالهم جادوا على
المساكين • فيكتب على سبيل المثال : أنستاسيوس لاداس بن ميخائيل ،
فى يوم كذا يملك كيت وجاد منها بكذا • وفى يوم القيامة سيرد له الرب
ما جاد به بفائدة قدرها كذا •

عاد الشيخ لاداس ينظر اليه وهو يضحك فى استخفاف وقال
ساخرا :

— اذا اعتمدت على هذا فحصادك الريح •••

وواصل مانولى حديثه :

— وهكذا يا حضرة الناظر يتضح لك اننا نستخدم المقياس البشرى
الذى طالبتنا به • على كل صاحب أرض أن يقرض الله عشر محصوله
بعد كل حصاد كما يأمرنا بذلك المسيح ، لتساعد اخوتنا فوق جبل
ساراكيينا عاما أو عامين حتى يقفوا على أقدامهم • وثمة شيء آخر • هناك
من يملك أرضا زراعية مهملة أو أرضا بورا أو أرضا لا يجد متسعا من
الوقت لبذرهما وفلاحتها • أليست هذه خطيئة فى نظر الرب ؟ لنمطها لهم
يتولون بذرها وحرثها ونقتسم غلتها معهم مناصفة : وهذا من شأنه أن

يعود بالشراء على القرية ، وبالخير على هؤلاء الجوعى ويتوفر لهم طعامهم الذى يحتاجون اليه . تعسا لكل من أرتضى لنفسه من أهل ليكوفريسي أن يطعم حتى يتخم ولا يفكر فى أطفال ساراكيئا . كل انسان يموت جوعا فوق أرضنا معلق برقابنا ويشدنا الى الدرك الأسفل من النار . كم عدد سكان ليكوفريسي ؟ ألفان ؟ كل من يموت جوعا فى ساراكيئا سيتحول الى ألفى جثة تتعلق حول رقابنا كأنها عقد يحيط بها . وذات يوم سنمثل أمام الرب الهنا وحول رقابنا هذا العقد الذى تتألف حياته من جثث الجوعى .

سرت رجفة بين أهل القرية . ورفع البعض يده عن غير وعى منه يتحسس رقبته . ورأى البعض بعينه ألفين من أهالى ليكوفريسي معلقين فى الهواء يساقون زمرا الى الجحيم يوم الحساب ، كل منهم يحمل حول رقبته مسبحة حياتها من الجثث يتفاوت عددها ، بعضها عشرا أو خمس عشرة أو عشرين . والملائكة صافات من حولهم تسد أنوفها من هول الرائحة النتنة التى تنبعث منها .

وصاح أندونيس الحلاق الذى لا يملك سوى بضغ أشجار كرم وحقل صغير :

— لك ما تريد . أمسك أنت أيضا بكتاب يا مانولى واكتب فيه : أنا أندونيس يانيديس بن ثراسيفولوس ، حلاق ليكوفريسي ، اتعهد بأن أقدم عشر محصولى لاختوتى اللاجثين فوق جبل ساراكيئا . وأقدم ذلك قرضا للرب الهى . أكتب ذلك عندك يا مانولى ، والرب الرحيم يسجل ذلك فى كتابه أيضا وأنا أو من به .

وعلت أصوات كثيرة ولوحت أيدى هنا وهناك .

— وأنا أيضا ، وأنا أيضا ، أكتب يا مانولى .

وأشرقت عيون بالدمع . وقاضت أخرى خوفا وجزعا . وحملت عيون فى مانولى حقدا وكراهية . وانسل الشسيخ بطريازكاس خفية وتوارى وراء صخرة كبيرة ووضع أمامه فوق أوراق الليمون خنزيرا رضيعا مشويا بقى منه بعد عشاء البارحة . وتمتم وهو يلوك طعامه فى نهيم :

— لا أمل فيه هذا المسكين مانولى . لن يمضى وقت طويل حتى يطاردونه ويقذفونه بالطماطم الفاسدة .

وفى هذه اللحظة رفع القسيس جريجوريس يده غاضبا ، وحاجباه

يرتعثان في حركة هستيرية تخال لو أنك لمستهما بطرف اصبعك لتطير
منهما الشرر . وصاح :

- يا أبنائي أهل نيكوفريس . استمعوا . استمعوا الى ، لا يخذعنكم
كلام هذا الأفاق فتقعوا في حباله . خذوا حذرکم . تذكرون أن العالم
يرتكز على أربع أعمدة . الأعمدة الثلاثة الأولى هي الايمان والوطن
والشرف . والعماد الرابع العظيم هو الملكية : لا تحاولوا الاخلال بها .
الله بواسع حكمته يوزع الثروات حسب ناموس لا نعلمه نحن لأنه ناموس
الرب يعرفه هو وحده . وعدالة الرب شيء ، وعدالة الانسان شيء آخر .
خلق الله الغنى والفقير . وتمسا لكل من يتجرأ على الاخلال بهذا النظام
فانه بذلك ينتهك ارادة الله . واتى نادم أن أذنت لك بالكلام يامانولي ،
أيها المارق انزل واذهب لترعى غنمك . فهناك مكانك الذي حدده لك
الرب . عليك أن تلزم مكانك هناك ولا تبرحه . ولا تطمع فيما هو اعلى
من ذلك . لا تحاول أن تنمو في مكان غير المكان الذي وضعت فيه بذرتك .
واعلم أن كل هذه الترهات التي تفوهت بها هي كلام ضد ارادة الله ،
فهو المدبر صاحب الأمر والنهي ، وكل ما يحدث في العالم يحدث حسب
مشيئته .

وبدأ القسيس جريجوريس يخرج عن الموضوع . اذ استدار ناحية
القسيس فوتيس الذي ظل طوال ذلك الوقت يستمع الى ما يقال مطرقا
برأسه . وصاح :

- اسمعني أيها القسيس فوتيس . كنا نعيش في هدوء وسلام ،
ننعم بالوفاق في قريتنا ويسود النظام حتى أتيت بعصابتك ، وبعدها عم
الشقاق . فلم نعد نسمع الآن غير الشكوى والفضائح والسرقات . وتجراً
الفقراء يحاولون رفع رؤوسهم والأغنياء لم يعد يهنا لهم نوم . ولكن صبوا
سيعود الأغا قريباً ، وسيختر مجلس الأعيان عند قدميه ، يتوسل اليه
أن يطردك بعيداً حتى يسود السلام ربوع القرية من جديد . اذهب الى
أى مكان آخر ، تصحبك عناية الرب ، ولكن ليكن مكانك بعيداً عنا .
وها أنذا قد أبلغتك كلامي .

ورفع القسيس فوتيس رأسه وقال في هدوء :

- أنت على حق يا أبانا فيما تقول . فكل ما يحدث في العالم انما
يحدث بمشيئة الرب . وعندما تكلم مانولي انما كان ينطق بكلمات فاض
بها قلبه ، وكانت هذه ارادة الرب . وأثقل الحزن قلوب بعض أهالي
ليكوفريس حين سمعوا قصة آلامنا ، وفاضت عيون بالدمع ، وفتحت

بعض خزائن الطعام . . . كل هذا حدث لأن الرب أراد ذلك . وإذا كنا قد أتينا الى هنا لننغص عليكم حياتكم الهادئة الوداعة فقد حدث ذلك ايضا لأن الرب أراد . لأن المياة التى تظل راكدة زمنا طويلا لا بد وأن تفسد ، وكذلك الروح ، تفسد اذا عاشت فى دعة وسكون زماما طويلا . وقد أرسلنا الله اليكم لتكون الريح التى تثير العاصفة فتحرك صفحة الماء وتبعث فيها الحياة من جديد ، وتدب الحياة فى النفوس الميتة من جديد . والتفت ناحية أهل ليكوفريس :

— اختى ، كنا من قبل مثلكم : أصحاب أراضى وأملاك ، نعيش حياة رغدة . واليوم أصبحنا معدمين نمد أيدينا بالسؤال . قمت بجولة بين القرى ، طرقت الأبواب كلها الواحد بعد الآخر ، وعدت بعد ذلك الى شعبي صفر اليدين . لو كان الأمر يتعلق بى وحدى ما كنت أبالي أيضا ، فقد عاشوا حياتهم ، ولكننى حزين من أجل الأطفال ، كل يوم يموت أحدهم جوعا ، ومن بقى منهم حيا لا تقوى ساقاه على حمله . ترى ما الذى يحتاجون اليه ؟ كسرة خبز ، وقطرة زيت ، وخرقة يتدثرون بها . لو توفرت لهم هذه التوافه التى تلقون بها الى الكلاب أو بين القمامة فستكتب لهم الحياة من جديد . ان كنت أسأل صدقة فاننى أسألها من أجل هؤلاء الأطفال . من أجلهم أمد يدي وأصيح بأعلى صوتي : « صدقة أيها المسيحيون » .

وأطرق الأب فوتيس برأسه ثانية ، وعاد الى صمته ، أصفر الوجه فى لون الشمع ، واسع العينين ، عاقدا ذراعيه الى صدره ، ترى ذراعيه تلمعان وقد نتأت عظامهما تحت هذا الجلد الرقيق الشفاف . وتردد صوت نشيج بين الناس هنا وهناك . انخرطت ماريورى فى البكاء وهى تحاول جاهدة أن تكتمه . واذا بفتاة عروس تخلع عقدها الذهبى من حول جيدها وتواريه فى خجل كأنها سرقة . واستمع ديمترى الجزار الى صوت الرب يتحدث اليه بين جوانحه قائلا :

— عندى عجل سمين كنت أعده لأذبحه يوم الأحد القسام وأبيعه للقرية ، سأذهب به الآن الى أهل ساراكيئا وأقتسمه معهم هناك . انك على حق يا مانولى . انى لاستحى أن أرى الطعام أمامنا نملأ منه البطون بينما اخوة لنا يموتون جوعا بجوارنا . وأخذ الحماس بقلب أندونيس :

— سأصعد الى جبل ساراكيئا مساء السبت وأحلق لهم جميعا مجانا . وأخلع لهم أسنانهم مجانا لمن شاء منهم ذلك .

وجرف التيار ناظر المدرسة ، وتقلب على خوفه :

- عغدى بعض كتب الهجاء ، وغيرها من كتب الأطفال ، وعندى بعض الألواح والأقلام ، وخريطة لليونان العظمى ، سأضعهما تحت تصرف أهل ساراكيثا .

وتمتم الشيخ لاداس فى حنق شديد :

- لياخذك الشيطان .

وحج القسيس جريجوريس أخاه بنظرة مغيظة دون أن ينبس بكلمة .

ودنا مانولى من القسيس فوتيس وقبل يده . وقال بصوت عال :
- ها أنت يا أبانا ترى بعينيك . يجب ألا تياس . لا زال المسيح حيا ، ولا زال يمشى على الأرض ، تفتحت له القلوب تحتفى به ، تشجع يا أبانا .

وتقدم الأصدقاء الثلاثة ، ومن ورائهم ديمترى الجزار ، وأندونيس الحلاق يسيران فى وجل . ثم تقدم من بعدهم بعض القرويين بخطوات مترددة . وأخيرا حذا حذوهم ناظر المدرسة وفى نفسه خوف وقلق وتردد .

واستدار القسيس فوتيس اليهم ورسم الصليب وقال :

- لننصرف يا أبنائي ، فنحن أيضا لنا كنيسة صغيرة أقمناها داخل كهف قديم كان كنيسة فى قديم الزمان . لنذهب معا نمجد الرب . يومنا يوم عظيم ، ارتجف له قلب الانسان ولان معه .

والتفت الى الناس الذين تفرقوا وبدأوا يفتحون حقائبهم التى أنقلها الطعام ، يخرجون منها لحما وخبزا وقال :

- الى اللقاء يا أهل ليكوفريسى . كلوا واشربوا هزاء وصحة وعافية .
وامنعنا بركاتك يا أب جريجوريس .

وزأر القسيس البدين :

- بل لعناتى أيها المتمردون ، واللعنة على كل من يتبعك أيها الأثيم .

ورد عليه القسيس المهلهل الجائح بصوت هادى رقيق وهو يشير بأصبعه النحيل الى السماء :

- لعل الرب الذى مايز بين الظلمة والنور أن يكون حكما بيننا .
فهو وحده من نشق به .

لعنة القسيس

كان القسيس فوتيس وأصدقاؤه الأربعة أمام الكهف الذي تحول الآن الى كنيسة . جلسوا فوق أرائك حجرية نحتها المسيحيون الاول يوم أن هربوا من اضطهاد عبدة الأوثان ، فلاذوا بهذه الكهوف واتخذوا منها ماوى لهم .

وعقب الجو برائحة النعناع والسنعتر . وبدأ الليل زحفه ، وألقى بظله على الأرض أزرق شفافا . وساد السكون . غير أنه بين حين وآخر يطرق أسماهم أنين طائر من طيور الليل برحه الجوى ، أو صرخة آخر يجد بحثا عن دودة أو فراشة أو فأر ينقض عليه ويلتهمه . ودنت النجوم هذا المساء حتى تخالها معلقة بين السماء والأرض .

وران الصمت على الرفاق الخمسة فترة طويلة من الزمن .

قضوا نهارهم يتنقلون من كهف الى كهف ، يتحدثون الى اخوتهم الذين غلبوا على أمرهم ، فبلا الأعجاب جوانحهم بهؤلاء الرجال : اذ كيف لامعوا حياتهم مع هذا المكان الموحش ، وكيف يعمل القسيس فوتيس فى دأب لا يعرف الكلل ، يسأل الناس الصدقات ، ويشاور قومه فى الرأى، ويشد من أزرهم ، ويبتهل الى المسيح أن يتنزل الى الأرض فوق ساراكيننا وليكوفرىسى ليشهد ويحكم .

وبعد أن أضناهم التعب والأسى ، أتوا الى حيث جلسوا فوق الأرائك الحجرية التى نحتت فى الصخر يتأملون الليل وقد هامت أرواحهم .

وجاشت صدورهم هذه الليلة بانفعالات غريبة ترتجف معها أجسادهم .
أحسوا كأنهم طردوا من كل الديار ، فلأدوا أخيرا بهذا المكان حيث قبعوا
أمام الكهف وكانهم يدبرون مؤامرة . ما هي مؤامرتهم ؟ انهم هم أنفسهم
لا يعرفون ، ترى ما الذى ستفعله هذه الأرواح الخمسة ؟ ما الذى فى
استطاعتهم أن يطوحوا به ؟ ما هو العالم الجديد الذى يستطيعون بناءه ؟
وكان الجو الذى يحيط بهم ما زال يخفق ساخنا . وأحسوا بأن ثمة وجودا
سماويا قدسيا حاضرا معهم ولا يبصرونه .

رأراد ياناكوس أن يخفى انفعاله فقال :

- ليلتنا ليلة جميلة حقا .

وارتجفوا فرقا لسماعهم صوت انسان ؛ اذ كان السكون أشبه بحلم
جميل صدعه ذلك الصوت فانفض مدعورا يوشك أن يفر هاربا .

وتجراً قسطندى وقال :

يا أبانا ، مضت أربعة شهور منذ أن اختارنا مجلس الأعيان وحدد
أدوارنا لتمثيل السر فى رواق الكنيسة . الا أن مشاغلنا ومتاعبنا اليومية
أبعدتنا عن الطريق المرسوم طوال هذه المدة ، ونسينا هدفنا . وهذا هو
الوقت الذى اجتمع فيه شملنا لتدبر أمرنا . ولكن ماذا نحن فاعلون ؟
وكيف ؟ لابد وأن قد استكم تعلمون ذلك حق العلم ، اننا نسألك العون .

مضت فترة دون أن يجيب القسيس فوتيس . بدا وكأن فكره يحلق
بعيدا وتأخر حيناً حتى يعود .

وأخيرا دنا القسيس من أصدقائه ، وسمع السؤال وابتسم ثم

قال :

- ما الذى ينبغى أن تفعله يا قسطندى ؟ استمر فيما أنت عليه ،
ولا شيء آخر . لقد سلكتم يا ابنائى الطريق السسوى ، الذى يؤدى الى
الآلام المقدسة وصلب المسيح . وليس ثمة طريق خير منه .

واحتج مانولى فى خضوع :

- ولكن ما الذى نفعله ؟ نحن لا نفعل شيئاً يا أبانا . . .

وتنهذ ميشيل فى حسرة وقال :

- لا شيء ، لا شيء البتة .

وضغط القسيس على يد العمدة الصغير فى حنان وأجاب قائلاً :

– هل نسيت السلال يا ميشيل . وهل نسيت ياباناكوس يوم دعوت المساكين ليقاسموك بضاعتك ابتغاء أن تدخل على قلوبهم المسرة ؟ وأنت يا قسطندي ، أنت الانسان البسيط الذي كان بالأمس صاحب مقهى متواضع ، ألم تترك عملك لتصعد الى الجبل وتقاوم الظلم ؟ وما أنت على استعداد لملاقاة الموت من أجل فكرة تؤمن بها . ألم يحمل مانولى كل خطايا قومه وسعى راضيا الى الموت لخلاص قريبته ؟ حتى بانايوتى ، هذا الرفيق التمس – ماذا يفعل سوى أنه يعد نفسه لهذا الدور الرهيب ، دور يهوذا ؟ انكم تعدون انفسكم يا ابنائى ، تعدون انفسكم دون أن تعلموا ذلك ، وهذا هو الطريق السوى .

ثم خيم صمت طويل . وتنهى مانولى ، وهو يحملق فى نجم يتراقص مبتسما على صفحة السماء . فصديقنا الراعى يعرف هذا النجم حق المعرفة ويحبه . كثيرا ما كان ينظر اليه وهو راع صغير ، يسخر منه النجم ويظنه مانولى نجم الصباح حتى انه كان يجمع اغنامه ويسوقها الى المرعى ، انه المشتري . وقال مانولى لنفسه وهو ينظر الى النجم كأنه رفيق صبا : « أولى بنا أن نسميه النجم الخداع » .

اطرق قسطندي براسه ، وغشى قلبه حزن عميق . احس انه هو الوحيد الذى لم يفعل شيئا ، لا شيء على الاطلاق . وآلمه كثيرا أن يكون هو آخرهم جميعا ، حتى يهوذا سبقه فى ذلك .

وهز ياناكوس رأسه غير قانع بما قدم . وقال لنفسه : « لم افعل شيئا . قدمت بعض النقود ، جدت ببعض بضاعتى هدية لهم . ولكن هذا كله شيء لا يستحق الذكر . التضحية الحققة هي أن أجود بحبيبي يوسفاكى . وهذا هو ما انتظره منك ياباناكوس . ترى هل تطيق ذلك ؟ فكل ما عدا ذلك هباء .

مرة أخرى هامت روح القسيس فوتيس بعيدا . حلقت فوق ربوع وطنه ، وتنقلت بين أماكن يأنس اليها ويعرفها حق المعرفة ، ثم عادت أدراجها حتى استقرت أخيرا فوق جبل قفر يسمى جبل ساراكيئا . كان الظلام دامسا ، وضوء النجوم شامحا هزيلا ، فلا يكاد يميز فى وضوح الوجوه الأربعة الحبيبة والصخور ترتفع خلفها .

وارتفع صوت القسيس عميقا قويا مفعما رقة وحنانا :

– يا ابنائى ، يبدو لى أحيانا أن روح الانسان تشبه زهرة الليل .

تظل داخل اكمامها طوال النهار وتفتح مع ظلام الليل وتملاه بشذاهها العطر . وهذا ما يحدث معنا الليلة ، فبرغم عتمة الليل التي تحتوينا حتى لا أكاد أراكم بوضوح أشعر كأن روحي تتفتح . وعدتكم ذات يوم فوق الجبل الذي يعيش عليه مانولى أن أقص عليكم قصة حياتي . ترى هل تذكرن ذلك اليوم ؟ أحسست ذلك المساء بالخجل عندما انحنيتم أمامي تقبلون يدي وأنتم لا تعرفونني من أنا وأى يد تلك التي تقبلونها .

وتأثر مانولى من هذا الكلام وقال :

- ونحن أيضا تفتحت أرواحنا الليلة يا أبانا . كلنا آذان صاغية .

وبدأ القسيس فوتيس حديثه على نحو ما يبدأ الرواة عادة :

بطيئا في ايقاع وقال :

- قرب بحر مرمرية وعلى الجانب المقابل لمدينة القسطنطينية تقع قرية صغيرة ساحرة الجمال غنية بالحدائق الممتدة على طول الشاطئ . اسمها أرتاكي . وهي مهبط رأسى . كان أبى قسيسا صارما ، صموتا ، فظا غليظا . . يشبه وجهه وجوه الزهاد المنقوشة فوق جدران الكنائس القديمة . وكان جدى قسيسا كذلك . ورغبنا في أن أصبح قسيسا بدورى . بيد أننى كنت راغبا عن هذا كارها له في أعماقى . كنت أحلم بالأسفار والتجارة ، وأن أملأ خزائنى ذهباً لأشترى به بعد ذلك بندق أسلح بها رجالى ، وأحرر أرتاكي من الأتراك . ولدت نائرا كما ترون ، وامتأ رأسى بأمانى تقصر دونها الهمم .

لم أكن أخشى احدا في حياتى غير أبى . كنت ارتعد منه فرقا ، واذا كنت قد انتظمت فى دراستى بالمدرسة وبزرت أقرانى فلم يكن ذلك عن حب للدراسة وإنما عن خوف . وأتممت دراستى بالمدرسة ، وحزمت أمى حقائبى (وقد كانت أمى رحمها الله امرأة تقية ورعة) وضعت فى الحقائب ملابس ، وأيقونة تعميد المسيح وبعض البسكويت ، وجوزا وغبنا وتينا جافا ممزوجا بالسهمسم . وأرسلوا بى الى القسطنطينية حيث معهد اللاهوت .

ولكن والاسفاه ، من أين لى الصبر والتقوى زادا أتزود بهما فيكونا لى عوننا على مواصلة دراسة اللاهوت ؟ كنت نائرا متمردا لا يهدأ لى بال . قضيت حياتى هناك أذرع القسطنطينية طولا وعرضا كمن أصابه مس ، مسحورا بجمالها الذى يخطف بريقه الأبصار . تسلطت على فكرة واحدة : كيف لى ان أحرر هذه الأراضى والمياه المقدسة من الأتراك . .

وذاذ يوم نشبت حرب ١٨٩٧ (١) وشب معها حريق في رأسى ، فمضيت
أصرخ : « دقت الساعة لتلقى بالأتراك الى الجحيم » وقررت أن أنسل
سرا فوق ظهر قارب ، ونجحت فى ذلك . ورسوت عند ساحل اليونان ،
وارتديت ملابس الثوار ، وتسلحت ببندقية ، وتمنطقت بحزام من الاعيره
النارية ، وانطلقت فى طريقى مع بعض الثوار الى حرب الأتراك .

وصعد الأب فوتيس زفرة حارة ، ثم قال بصوت ساخر يفيض مرارة :
— آه . كانت حربا غير متكافئة . كنا كمن يضرب فى حديد بارد . .
لعنة الله على الدولة يا أبناى ، نعم عليها اللعنة . فهى التى ألحقت
بسلالتنا الدمار .

وأمسك عن الكلام لحظة ، وسرح فكره ، ثم لوح بيده كمن يلقي
بعار الوطن وراء ظهره ، وعاد الى حديثه :

— لنعد الى حديثنا عن معامراتى . ان اليونان بلد خالد ، بوسعها
ان تخاطر بأعمال كثيرة ، ولديها الوقت الكافى لاصلاح ما فسد . ولكن
هل بوسعى أنا ، المخلوق الوضيع الزائل ، أن أخلق فى الفضاء وحدى ؟
ولكن باختصار . بعد ان حفيت قدمائى ، عضنى الجوع وترهل بطني
حتى أصبح كالبالونة الفارغة ، حدث ذات يوم وبينما كنت أتسكع على
على أرصفة بيرييه بحثا عن قارب يحملنى الى ارتاكى أن وقع بصرى على
بعض اللاجئين اليهود ، رسوا بزورقهم على رصيف الميناء . ونظرا
لأننى ابن قسيس ، أبا عن جد كما قلت لكم ، فأننى ما كنت أرى يهوديا
حتى أذكر أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح ، فيقل الدم فى عروقى .
وقضيت يومى فوق الرصيف أمتع ناظرى برؤية هؤلاء اليهود بأنوفهم
الطويلة المقوسة ، ولحاهم الحمراء الشعثاء ، وعيونهم المتورمة الكندرة ،
وعباواتهم الكالحة البالية . قضا وقتهم فى صياح وصراخ ، يدفع بعضهم
بعضا فى سباق من أجل النزول الى البر . وفجأة ندت صرخة
حادة : لقد زلت قدم فتاة يهودية وسقطت فى الماء وغاصت فى اليم كما
يفوص الحجر . ولم يبد واحد منهم حراكا لانقاذها . ولم أحتمل
ما رايت . وحدثت نفسى : « انها بشر مثلنا . فلها روح هى الأخرى .
والقيت بنفسى الى الماء كما انا ، وأمسكت بها من شعرها وانتشلتها

(١) سادت اليونان فى تلك الفترة حركة فكرية ثورية دفعت الحكومة اليونانية
الى الدخول فى حرب ضد الأتراك عام ١٨٩٧ لاستعادة الاراضى اليونانية التى كانت
خاضعة آنذاك للإمبراطورية العثمانية . وانتهت تلك الحرب بهزيمة اليونان
(عن الترجمة الفرنسية) .

خارج الماء ، وصعدت بها الى الرصيف . وسرعان ما تدافعت النساء لاسعافها وتدليكها حتى تفيق . ووقفت تحت الشمس أجف ملبسى .
وفي هذه الأثناء التفت ناحيتها ورأيتها : شقراء ذات أنف اقنى ، وجلد غطاء النمش . وفتحت عينيها الزرقاوين ورنت الى كأن هناك من قال لها أنها مدينة لى بحياتها . ورأيت عينيها واستبدى بى فزع ، اذ سقطت بدورى فى بحر أزرق أغوص فى مائة ولا منقذ .

وتهدج صوت القسيس ، وهز راسه . وقال بعد لحظة صمت :

— هذا العالم سر غامض . وعقل الانسان قاصر عن بلوغ حكمة الله فى تدبيره لشئون خلقه ، فالخلاص والهلاك يأتيان من حيث لا يتوقع الانسان ، حتى أننا لا نعلم أى الطرق تؤدى الى الجحيم وايها الى الفردوس . خيل الى آنذاك اننى أقدمت على عمل طيب ، اذ أنقذت نفسا بشرية . ولكن الحقيقة أننى منذ تلك اللحظة وطئت بقدمى الطريق المؤدى الى الجحيم .

لم أكن حتى ذلك الوقت قد دنست نفسى بامرأة . أنتم شباب أصغر منى سنا ، وقد أخجل من الحديث اليكم عن خطيئة شهوة الجسد ، ولكننى سأعترف أمامكم فى صراحة وبساطة : وقعت فى الخطيئة مع هذه الفتاة . ومنذ ذلك الوقت تغير طعم كل شىء على لسانى ، الماء والنبيذ والحبز والنهار والليل ، أصبحت كلها ذات مذاق جديد لم احسه منها قبل ذلك . واختفى الله من أمامى . واختفى مع الرب أبى وأمى والفضيلة والأمل . ورأيت رجلا من أبناء قريتى وأخبر أبى بكل ما رآه . وأرسل الى القسيس الشيخ رسالة أحرق حوافها الأربع علامة على الغضب . قال لى فيها : « ان كنت تقترف الخطيئة مع هذه اليهودية فقد حققت عليك لعنتى ولا أريد أن أراك ثانية أمام عينى » . وقرأت الرسالة مع خليلتى اليهودية وأغرقتنا فى الضحك .

وحدث لى ذات يوم — وسبق لى ان قصصت عليكم هذا — أن ذهبت الى قرية صغيرة لى بها بعض الأصدقاء لنتحتفل معا بعيد القيامة . وصحبتنى الى هناك خليلتى اليهودية . وقصدنا حديقة اتخذنا فيها مجلسنا لتأكل ونشرب . وعندما أمسكت بالسكين لأقطع الشاة صحت بأعلى صوتى ، على سبيل المزاح لا غير : « آه لو وقع بصرى الآن على قسيس فانى سأقطع رقبتة » . وصاح بى جار يجلس مع المجموعة : « ثمة قسيس يجلس خلفك » . واستدرت ورأيت القسيس

فانقضضت عليه وقطعت رقبته . لماذا ؟ لان اليهودية كانت معي وخجلت
ان ابدو امامها فشارا لا يبر بكلمته .

وزج بي الى السجن . وكانت اليهودية تزورنى بكل يوم ، وتفعل
ثيابى ، وتحضر لى الطعام والسجائر . وكانت تمد يدها من بين القضبان
لتربت بها على وجهى وشعرى دامعة العينين . كانت تبكى ليل نهار
حتى أصابها النحول وأضناها السقم . . وذات يوم لم تحضر كعادتها ،
وانظرتها فى الغد ولكنها لم تات ، لا فى الغد ولا بعده . . ورأيت فيما
يرى النائم القديسة العذراء متشحة بالسواد . وخيل الى انها تتراءى
لى عن بعد ، صغيرة جدا ثم بدأت تكبر وتكبر رويدا رويدا كلما اقتربت
منى . وكانت شفتاها ترتجفان ، اذ كانت تتمتم بكلمات لم اسمعها لانا
كانت لا تزال بعيدة عنى . وأرهفت السمع . واتضح لى صوتها ، وارتفع
رويدا رويدا ، والعذراء تكبر وتكبر أمام عينى كلما دنت منى . وأخيرا
وقفت قبالتى ، وسمعت كلماتها واضحة تقول : « انها ستموت . . انها
ستموت . . ماتت » وفزت من نومى فرعا . وفهمت ما تعنى .

كانت ليلة حالكة السواد ، والمطر ينهمر مدرارا . وتسلفت الى
فناء السجن . لم أكن أعرف على وجه التحديد ما أنا مقدم عليه .
وتلاشت أمامى حدود القدرة البشرية ، كنت على ثقة أننى قادر على عمل
أى شئ ، أستطيع أن أتسلق سور السجن وأهرب ، وأمر بالحارس دون
ان يرانى . واذا رآنى وإطلق الرصاص فلن يصيبنى . أعمانى الحب
والحزن ، وفقدت معهما صوابى . استعرضت فى ذهنى موضع السجن
واخترت المكان الذى يمكن لمجنون أو يائس أن يختاره ليتسور منه
جدار السجن . وتحسست طريقى واهتديت الى ذلك المكان تحت
جنح الظلام . وتعلقت بالحجارة ، وبدأت أتسلق كقط مفترس . كنت
أخشى ضوء النهار ، ولكننى كما قلت لكم نسيت حدود طاقة البشر ،
تسورت الجدار وهبطت الى الجانب الآخر . كان المطر يهطل مدرارا
كسيل منهمر . ولم يكن هناك من يرانى . فأطلقت ساقى للريح .

تنفس الصباح مع وصولى الى بيتها . طرقت الباب ولكن كيف
يسمعى انسان وسط هذا الطوفان الطامى ؟ فتسورت الجدار ،
واجترت الفناء ، وانسلت خلسة الى مكان السلم ، وصعدت الدرج ،
وفتحت باب حجرتها . وناديت عليها بصوت هامس خفيض ، ولكن
لا مجيب . . سكون مطبق . أشعلت عود ثقاب ، فألفيت الفتاة اليهودية
مسجاة فوق سريرها شاحبة جامدة بغير حراك ، ملتوية الشفتين جاحظة

العينين فى هلع . . تجرعت السم فى تلك الليلة ذاتها ، لم تعد تقوى على احتمال الفرقة أكثر من ذلك فانتحرت .

ونهب القسيس فوتيس ونظر حواليه كمن يبحث عن مهرب ، ثم جلس ثانية خائر القومى كأنه عائد من رحلة طويلة من الطرف الآخر للعالم . ولزم الصمت فترة طويلة .

وسأله الأربعة وهم يلتقطون انفاسهم بصعوبة :

— ثم ماذا بعد يا أبانا ؟

وقال القسيس :

— هذه هى قصتى .

وسأله مانولى :

— ثم ماذا حدث لك ؟ كيف عدت الى طريق الرب ؟

— روح الانسان سر غامض . أضلنى الحب وأبعدنى عن الرب ، أما الحزن ، بارك الله فيه ، فهو الذى أعادنى اليه ثانية . قصدت جبل آتوس . وكانت الخلوة مصدر خير لى أول الأمر وارتحت لها . وهدأت روحى قليلا . ولكن اليهودية اقتحمت على خلوتى مرة أخرى ، وضاع الهدوء ، وقضت على وحدتى صيحات الفرح وأنات النشيج . ولم أقو على احتمال ذلك وذهبت الى سيدى وأعلنت له اننى غيرت رأى وأريد العودة من جديد الى الحياة الدنيا . ومنتحنى بركاته ، وغادرت الدير . وطالت بى المسيرة ، حتى وصلت الى قرية صغيرة . وسمعت صوتا يهتف بداخلى . « ابق ها هنا » . وأذعنت لهذا الهاتف . وتزوجت بعد ذلك ورسمت قسيسا هناك . وقررت أن ألقى بنفسى بين أحضان العذاب والآلام فى هذا العالم ، التمس فيهما الساوى والنسيان . وفعلت ذلك . ودهم المرض حياتى ، اذ أصاب زوجتى ووافتها المنية ، ومات اطفالى من بعدها ، ووجدت نفسى وحيدا من جديد ، أقف جريحا امام الرب وجها لوجه . ثم جاء اليونانيون ومن بعدهم الأتراك . . وتعرفون بقية القصة . حمدا لله على كل مكروه ابتلانى به ، وكل خير أنعم به على .

وانحنى الأصدقاء الأربعة ليقبلوا يد القسيس المذب .

وتتمتم القسيس وهو يتنهد :

— انى متعب ، نال منى التعب . عشت حياتى معكم مرة ثانية . ان رحيق هذه الدنيا عقوبة وعزاء مر المذاق . أناجى الرب أحيانا :

« الهى حياة الدنيا جحيم لا يطاق ، لولا هذا الأمل العظيم الذى يراودنا
طمعا فى ملكوت السموات .

وران عليهم الصمت من جديد . ونهض القسيس فوتيس ورنا
بعينه تجاه الشرق ، ورسم الصليب فقد تنفس الصباح .

قضى الشيخ بطرياركاس ليلته تلك أرقا جالسا فوق سريره يصيح
السمع للسباب الخارجى عسى أن يسمع خطوات ابنه عندما يدخل الى
الفناء . . ظل ينصت طوال ليلته ، وكلما سمع وقع أقدام فى الطريق
نهض واقفا وأطل من النافذة ، ولكن لا أحد . وأشعل سيجارة ، وأتبعها
بغيرها وغيرها ، أتم ألقى بنفسه بكل ثقله فوق السرير ثانية . وعند
الفجر غلبه النعاس : ورأى فيما يرى النائم نسرا ينقض من عليائه الى
الفناء ويختطف ديكه الأبيض ، أحب شيء لديه ، والذى احتفظ به
لنسله . أنشب النسر مخالبه فى الديك واختطفه وارتفع به الى عنان
السماء ، وقتما كان الديك يصيح ابتهاجا بمقدم الصباح . .

ونهض من نومه مذعورا ، واحس برعشة تسرى فى جسده .

ورسم الصليب وتمتم :

— اللهم اجعله خيرا .

وصفق بيديه ونادى لينيو . أتت اليه والنوم لا يزال يغالبها ،
مرتدية لباس النوم ، فبدت شبه عارية ، شعثاء الشعر ، لامعة العينين ،
نافرة الثديين كأنهما يحاولان الفكاك من صدرتها البيضاء . وقال لها :

— اسمعى يالينيو ، هل عاد ميشيل ؟ أين قضى ليلته ؟ أين نام ؟

— لم يعد ياسيدى . نظرت داخل حجرته وأنا فى طريقى اليك فلم
أجد بها أحدا ، وفرشه كما هو لم ينم عليه أحد .

وضحكت ضحكة العارف ببواطن الأمور وقالت :

— ماتت الأرملة ، الله اعلم أين يذهب الآن شباب القرية الذى
يقضى لياته خارج بيته .

— أخبريه فور وصوله انى أريد ان اراه . . انتظرى . . ما الذى
فعلته بالأمس اثناء الاحتفال ؟ اذ لم يقع بصرى عليك .

وأحمر وجه لينيو خجلا ، وضحكت فى دلال ، ولم تجب على
السؤال .

— أيتها العاهرة الفاجرة . ألا تطيقين صبرا لأيام قلائل ؟ اتفقنا

على أن يتم عقد قرانك يوم الأحد القادم حتى تطمئن نفسك ، ثم لا تطيقين صبرا . ستنعمين بالهدوء الذى سيفتقده نيكوليو أيتها الابنة التعسة .. هل تسمعين ما أقول ؟ أراك شاردة القلب ، ترى أين تهيم روحك الآن أيتها الرعناء ؟ .

وضحكت لينيو وهى تيمس بقدها فى دلال ، وأجابت :
- فوق الجبل .

وحقا ما قالت . اذ شرد فكرها الى الجبل ، هنالك تحت ظل شجرة سنديان خضراء مورقة .. كانت قد عادت من جبل ساراكيينا متصبية عرقا ، متقدة الوجنات . وما ان سمع نيكوليو وقع خطواتها حتى استدار ناحيتها ، وثقا كما يشغو التيس ، وتعلق بجيدها وطرحها أرضا فى وحشية وصمت .. ودنا منهما الكبش الكبير ، وتحسسها بفمه ، وشم رائحتها فتعرف عليها ، وثقا هو الآخر مثلما فعل سيده ، ولبث بالقرب منهما وهو يلحق شفتيه .. وفجأة طرقت سمعها الصوت الأجنس لسيدها العجوز ، فوثبت فى مكانها .

- أين سرح فكرك أيتها العاهرة الصغيرة ؟ ألم تسمعى حديثى اليك ؟ الا زال فكرك هائما هنالك فوق الجبل ؟

وأجابت لينيو :

- طوع امرك يا سيدى .. معذرة فلم اسمع ما قلت .

- طلبت منك قهوة (سكر زيادة) .. أشعر بدوار ، فلست اعلى ما يرام .. ربما كان الجوع سبب ذلك ..
ولكن لينيو كانت خارج الباب قبل أن يكمل الشيخ كلامه ، تشب فوق الدرج وهى تقعقع بقبقابها ..

وأغمض العجوز عينيه ، واستعاد حلمه من جديد : « النسر .. ترى ماذا يعنى ؟ لا أعرف . أسألك اللهم أن تكلنا برحمتك وتقى بيتى النسر .

أشرقت الشمس ، وامتلات دروب القرية بأصوات الرجال وثناء الماشية ونهيق الحمير . خرجوا جميعا بشرا وحيوانات الى العمل ، وكلهم يحيى مطلع اليوم الجديد .

أحضرت لينيو القهوة المحلاة بالسكر . وجلس العمدة قرب

جريجوريسن البارحة وأخبره انه بينما كان يستمتع بأكل الخنزير الرضيع في هدوء وغبطة استنفر مانولى الفلاحين ، زاعما أن المسيح يأمر كلا منا أن يقدم نصيبا معلوما من دخله الى شعب ساراكيينا . والأدهى من ذلك أن بعض السذج صدقوا ما قال . وذلك اثتعلب العجوز المدعو بالقسيس فوتيس ، حقيبة القمل ، الذى يمثل دور الناسك ، أسهم بدوره فى تأليب الناس وبذر الشقاق . وانقسم أهل القرية الى معسكرين : الحثالة فى جانب وأكابر القرية فى الجانب الآخر . . « انتظر ، انتظر ، هناك ما هو أدهى وأمر : ابنك ميشيل كان أول من انحاز الى الرعاع ، وأخذ يتوعد القرية . وها نحن الآن وقد ابتلينا بهذا الملعون المدعو مانولى ، هذا المرأى الحقير ، يخرج علينا ويرفع علم الثورة والعصيان . يرى فى نفسه الزعامة ، ويضم ابنك الى عصابته . ثم هذا التيس العجوز الذى يعلجهم . هل سمعت ما أقول يا عمدة ؟ اذا لم يتولنا الرب ويعيد الأمور الى نصابها فانا هالكون .

وتمتم العمدة بطريازكاس :

— يا صديقى أنا الذى سأضع للأمر حدا بيدي ، فان الله لا يابه لمثل هذه التوافه من الأمور . هل تحسبن أن لدى الله متسعا من الوقت ليبحث مشاكل البشر جميعا فردا فردا ؟ أنا المسئول هنا عن وضع الأمور فى نصابها فى قرية ليكوفريسي . وسوف أعرك أذن ابنى الآن ، وبعد ذلك يأتى دور هذا الأبله مانولى .

فى هذه اللحظة انفتح الباب الخارجى وانسل ميشيل خلسة .

هب العجوز من مكانه ، وأطل من النافذة وصاح :

— نعمت صباحا يابنى . هل طاب نومك الليلة ؟ لعلك تتفضل بالصعود الينا لنتمتع برؤياك .
وقال الفتى لنفسه :

— حذار يا ميشيل . امسك عليك لسانك . لا تنس أنه أبوك .

وأجاب :

— انى قادم يا أبت .

وصعد الدرج الحجرى ، وحييا الشيخ تحية الصباح . ولكن الشيخ لم يتفضل حتى بالنظر اليه : اذ حاول التظاهر بالفضب . كان

حتى تلك اللحظة يتوعد ابنه ، ولكن ما ان رآه ينسل خلسة الى الداخل حتى تذكر الشيخ ايام شبابه . كان ينسل خلسة الى الداخل وقتما كان في مثل عمره ، وهنا في هذا المنزل ذاته ، بعد سهرة ممتعة مع خليلاته . وما ان تذكر الشيخ هذا حتى رق قلبه لابنه وقال لنفسه : كنت مثله تماما ، ولكنني اعتدت أن أقضى ليلتي في الخارج مع شهواتي ، أما هو فانه يتبادل القصص عن الرب الرحيم مع أصدقائه المجانين . . . باللسماء ، من يدري ، ربما كان هذا أيضا نوعا من شهوات الشباب . انه شاب وعسى أن يبرأ من ذلك قريبا . . . وبينما كان يفكر في هذا ظل موليا ظهره لابنه ، محاولا أن يستثير في نفسه الغضب . ولكنه أحس أن الغضب لا يستجيب لندائه ، وانما يأتيه على مهل فاستدار الى ابنه فجأة غاضبا من أنه لم يوفق في استثارة غضبه . وصاح :

— ما هذا الذي اسمعه الآن . هه ؟ ألا تخجل من نفسك ؟ إلا تحترم مركزك ؟ هل نسيت من أنت ، وابن من ، ومن جدك ؟ وأحس بالسعادة ، إذ أنه ما ان بدأ الحديث حتى سرى الغضب في عروقه . وصاح بصوت جهوري :

— أمتعك من أن ترى مانولى بعد ذلك .

وتردد ميشيل في الاجابة ، وقال في نفسه :

— صبرا انه أبوك . ليس القوى من يشور ويفضب وانما القوى من يهلك نفسه عند الغضب . فاملك زمام نفسك .

— لماذا لا تجيب ؟ أين قضيت ليلتك هائما على وجهك ؟ فوق جبل ساراكيينا ؟ مع هذا القسيس الصعلوك ، ومانولى الخادم باعث النهضة؟ صعبة جميلة حقا ! هل انحدرت الى هذا المستوى أيها التمس ؟ واجاب الابن في هدوء :

— ابي ، لا تسب اناسا هم أفضل منا . .

وهنا هب العمدة واقفا وقد احتاج حقا .

— ماذا تقول ؟ هل فقدت صوابك ؟ أفضل منا ؟ هذا القسيس المهلهل ، وخادمتنا !!

— هذا القسيس المهلهل كما تسميه انما هو قديس . ليس فينا نحن سلالة السيد بطرياركاس من يستحق أن يفك رباط حدائه .

طوح العجوز بسيجارته بعيدا ، وتدافع الدم الى رأسه الثقيل .

وواصل ميشيل حديثه في هدوء ودون شفقة :

— أما عن مانولى ، فإن شئت أن تعرف فانت تعلم حق العلم
انه بينما كنتم جميعا ، أعيانا وعمدا وقساوسة ونظارا تسلمون فى
خنوع وترتعد فرائصكم فرقا داخل السجن ، لا تفكرون فى القرية بل
فى أنفسكم وكيف تفلتون بجلدكم ، فان هذا الخادم هو الذى هرع لينقذ
الناس جميعا حين قال : « انه انا ، انا قاتل التركى . اشنقونى » .
من اذن الرجل الذى اثبت عن جدارة فى مثل تلك اللحظة الحرجة ،
انه رئيس هذه القرية حقا ؟ هل هو أنت يا صاحب السيادة بطرياركاس ،
أو ربما صاحب القداسة القسيس جريجوريس ؟ لا ، لا ، انه مانولى .
ومنذ تلك اللحظة أصبحنا له أتباعا فهو رئيسنا وعمدتنا .

وارتمى العجوز على ظهره فوق السرير ، وذراعه مبسوطتان على
امتدادهما ، وفى حلقه غصة .

وأطبق ميشيل شفتيه خجلا ، اذ نسى النصائح التى أسداها الى
نفسه ورد على أبيه وأغلظ له القول على غير ارادة منه . فاقرب من أبيه
الشيخ يسوى له الوسائد .
وسأله :

— هل تريد شيئا يا أبت ؟ هل تحب أن تعد لك لينيو عصير ليمون؟
وحملق العجوز فى ابنه بعينين دهشتين وتمتم قائلا :

— أنت مثل أمك تماما . نعم ، أنت صورة مطابقة لها . ظاهره
رحيق مصسول ، وباطنك سم زعاف .

وطرقت عينا ميشيل ، وغام الهواء الفاصل بينه وبين أبيه ،
وفجأة تراءت له أمه ، شاحبة ، آسية ، كلها نبل وتواضع . وشخص
ميشيل يبصره الى ذلك الطيف الذى تراءى له بفتة . وتمتم « اماه » .
وخفق الهواء ، وارتعش الضوء ، وسرعان ما توارى الطيف القدسى كأنه
ومض البرق .

وسأله الأب :

— فيم تفكر ؟

واجاب الابن :

— أمى ، أمى . أسأت معاملتها ، يا أبت .

ورد الاب غاضبا :

— أنا رجل ، ويجب أن أعامل النساء بخشونة . هذا هو

ما يرضيهن • ولكن عسيرا عليك أن تفهم ما أقول فلا زال لبن أمك بين شفتيك •

— أسأل الله أن يبقى هذا اللبن أبدا بين شفتي •

مرة أخرى ظهر طيف الأم بينهما ، غاضبا متجهما هذه المرة .. وهزت الأم رأسها وهي تنظر الى ابنها راضية مؤمنة على ما يقول • ومدت اليه يدها كأنها تباركه • واذا بصوت هو صوت أمه ينبعث من بين أعماق ميشيل يقول له : « ارفع رأسك يا بني فأنت رجل ، وليس لك أن تخشاه مثلما كنت أخشاه أنا • خذ بثأر أمك يا ميشيل وقل له كل ما كنت أخشى أن أقوله له • اني اباركك •

وأحس الابن بالعزم والتصميم يملآن قلبه ، وأسند مرفقه الى الشباك وانتظر •

ونفض الشيخ وهو يتنهد • ودنا هو الآخر من الشباك وقال :
— اسمع •

ورد الابن وعيناه في عيني أبيه :

— هاأنذا أنصت لك •

— اتخذت قرارا ، ولك أن تتخذ قرارا أيضا • لك أن تختار بيننا ، اما أنا أو مانولى • اما أن تترك مانولى وعصابتسه ، او تترك بيتى •

وأجاب ميشيل :

— بل أترك بيتك •

ودارت عينا العجوز في محجريهما مذهولا •
وصاح :

— أتحب هذا الخادم أكثر من حبك لأبيك ؟

أنا لا أحب مانولى أكثر منك ، أبدا ، ما شأن مانولى بهذا ؟ اننى اختار المسيح • هذا هو سؤالك لى على حقيقته دون أن تدرك معناه •
وها أنذا أجبتك على سؤالك •

صمت العجوز ، وأخذ يذرع الحجرة بخطوات واسعة ، ثم توقف ثانية أمام ابنه •

وقال بصوت أثقله الأسى :

— ما اعتراضك على ؟

— لا شيء ولكنك أكرهتنى على الاختيار ، وقد اخترت . ولا أملك
غير ذلك .

وتهاوى العجوز بكل ثقله متهالكا فوق السرير . وأمسك برأسه
المحموم بين يديه . وشعر كأن كبده يحترق .
ثم قال بعد هنيهة بصوت خفيض :
— اذهب ، اذهب ، لا أريد أن أراك ثانية .

واستدار الابن . فأبصر أباه واهنا ، خائر القوى ، رأسه بين
راحتيه ، وأحس بالأسى نحوه . ولكن صوتا بداخله يصيح به أمرا فى
عسف « اذهب » .

ودنا من أبيه ، وجثا أمامه على ركبتيه ، وقال :

— يا أبت ، انى ذاهب ، ولكن هل لك أن تباركنى ؟

وأجاب الشيخ :

— لا .. لا أستطيع .

ونفض ميشيل وذهب ناحية الباب وشعر الأب برغبة فى أن يناديه
« يا طفلى » ولكنه خجل من أن يذل نفسه ، فأثر الصمت .

وفتح الابن الباب واستدار ناحية أبيه ثانية وقال :

— وداعا يا أبت .

واجتاز عتبة الباب .

مضت فترة طويلة ولينبو لا تسمع شيئا من الحوار . فصعدت
الدرج خلسة ، وأسندت أذنها الى ثقب المفتاح تسترق السمع . سمعت
غطيطا عميقا ، تتخلله تنهدات متقطعة ، وصريرا يصدر عن السرير .
وتمتمت قائلة :

انتهى الشجار ، ونام الشيخ ، وثمة كابوس يعذبه . سينهض
من نومه وقت الظهيرة جوعان . كأنه غول نهم . اذن لأذهب وأذبح له
دجاجة . آه من هذا الكرش الواسع ، ضاقت حيلتى معه . . . نظر
نحشوه ولكن دون جدوى ، لا يشبع أبدا ، انه حفرة مالها من قرار .
ونزلت الدرج ، ودخلت عشة الدجاج لتنتقى دجاجة تذبحها .
وقع بصرها على الديك الأبيض يختال مزهوا بعرفه القرمزى ،
والدجاجات من حوله تنقر الارض وتقاقيء . . . وقفت لينبو برهة
تتحرق شوقا لرؤية دجاجة ترقد على الأرض فى استسلام ويعتليها

الديك الأبيض ، ثم ينهض بعدها ويقف الى جانب الدجاجة مختالا ،
ويبسط عليها جناحيه ويصدح بصوته في مباهاة . فقد اعتادت أن
تمتع ناظرها بهذه المشهد أعواما طويلا ، وتستشعر معه نشوة غامرة ،
ويحمر وجهها حتى اذنيها . كانت تسقط مشاعرها على هذا المنظر ،
فتحس كأنها هي التي طرحت نفسها أرضا وفوقها ثقل لذيذ ممتع
مثل ثقل الرجل . ولكن أى رجل ؟ أول عهدا بهذه المشاعر وهي
صبية صغيرة لم تكن تتبين وجه ذكر واضح المعالم معروفا لها على وجه
التحديد . وبعد ذلك كانت تراه مانولى ، وأصبح الآن وجه نيكوليو .
ومضت شهور عدة ولم يتبدل هذا الوجه بعد .

بحثت بنظرها بين الدجاج ، ووقع اختيارها على دجاجة كبيرة
رقطاء . لم تكد تمد يدها لتمسك بها حتى جثمت الدجاجة الرقطاء على
الأرض ، وبسط الديك جناحيه فوقها يحتضن الدجاجة ويخفيها تحتها .
ولعقت لينيو شفثيها الياستين بلسانها ، وتأججت النار في عروقها .
وأشفقت على الدجاجة فاختارت غيرها .

أعدت المائدة وقت الظهر ، ووضعت بيضة في الحساء . وانتظرت
أن يناديها سيدها ، فقد تأخر عن الموعد المعتاد .
وتتمت :

— أخذ زمانه هذا العجوز الشره . لم يبق الا أن يرحل الى العالم
الآخر .
وأحسنت بقلق لهذا الخاطر .

— أسألك اللهم أن تمهله حتى مساء الأحد القادم أو صباح الاثنين
على أكثر تقدير . والا ماذا يحدث لزواجنا ، ومتى يتم ؟ لم أعد أطيق
الانتظار أكثر من ذلك .

وصعدت الدرج ثانية ، وفتحت الباب في هدوء ، ودققت النظر
داخل الحجره . كان العمدة ممددا فوق السرير ، ساكنا بغير حراك ،
وعيناه مفتوحتان تحمقان في السقف . خمدت حركته كما خمدت أناته .
ودخلت لينيو الحجره مذعورة : ترى هل مات ؟ ولكن الشيخ طرف
بجفنيه :

وأرادت أن تطمئن نفسها فنادته :

— سيدى ، وضعت البيضة في الحساء . حان وقت الغداء .
ودارت عينا الشيخ تنظرها ، وزام قائلا :

- لا أشعر بالجوع • لست على ما يرام يا لينيو • استدعى القسيس جريجوريس •

وجلس العجوز ، ممتقع الوجه أزرقه ، وقد ارتسمت عليه خطوط حمراء • وصرخت لينيو •

- لا تخافى • لم أمت بعد • وانما أريد فقط أن أتحدث الى القسيس فى موضوع ما • هل ميشيل فى الدور الأرضى ؟

- لا • دخل حجرته ليغير ملابسه ، وارتدى الملابس التى يرتديها كل يوم ، ثم خرج من البيت حاملا صرة •
- ألم يقل شيئا ؟

- لا شيء •

- أرسلنى من يستدعى مانولى من الجبل ، ليأخذه الشيطان • يجب أن يحضر لمقابلتى فورا ، قبل غروب الشمس • هل سمعت ما أقول ؟
انصرفى •

- ألن تأكل ؟

وتفكر العجوز لحظة ثم قال :

- ماذا اعددت من الطعام ؟

- حساء الدجاج المفضل لديك •

- أغصرى كثيرا من الليمون فى الحساء • سأنزل الآن •

وأسرعت لينيو بالنزول ، تقفز السلالم خفيفة جدلة : « يقيننا انه سيبقى على قيد الحياة حتى صباح الاثنين • ان وجهه يثير فى نفسى القلق • سأذهب الى أندونيس ليعمل له كاسات دم ، حتى لا توافيه المنية سريعا ، »

فى هذه الأثناء كان ميشيل قد ارتقى الجبل متأبطا صرته • لم يجد مانولى فى الحظيرة ، فجلس فوق المقعد الحجرى الى جوار البواب • كانت الظلال تنحسر ، اذ اقتربت الظهيرة • وظهرت كنيسة الثبى ايليا فوق الجبل المقابل وكانها ذابت تحت أشعة الشمس العمودية •

وأغمض ميشيل عينيه • كان واهن القوى ، فارغ القلب ولكن راضيا ، كمن شفى من مرضه وشيكا • وحدث نفسه قائلا : « انها نهاية كل شئ ، وبداية جديدة لكل شئ • يايسوع ، حددت لنا معالم الطريق ،

اسالك العون والتأييد حتى ابلغ غايته . اعرف انك هناك عند نهاية الطريق تنتظرنى ، .

وفتح الصرة وأخرج منها الانجيل الذى ورثه عن امه ، وهو انجيل كبير ذو غلاف مفضض مصنوع من جلد الخنزير ، وله مشبك على هيئة سلسلة وبداخله ورقة من أوراق شجر الغار يستخدمها كفاصل بين الصفحات . ومال برأسه فوق الكتاب المقدس وقرأ :

— « أعداء الانسان أهل بيته . من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى . »

قضى أياما عدة مع كلمات المسيح هذه يقرأها ويعيد قراءتها من جديد ، يحاول أن يفهمها ويستوعبها . بدت له أول الأمر وكأنها كلمات قاسية غير انسانية . كان يسائل نفسه : « اليس ثمة سبيل آخر غير هذا السبيل أيسر على الانسان وأقرب الى قلبه وعواطفه ؟ هل لابد للانسان أن يدفع دمه ثمنا لخلاصه ؟ لماذا يكون الأب والأم عقبة تعترض الطريق ؟ ألا يمكن أن نحبهما معا ونسمو سويا فى طريقنا الى الرب ؟ لماذا كتب علينا أن نقتلع الجذور العميقة فى الأرض لنرقى الى السماء ؟

ألحت على ذهنه أسئلة كثيرة جدا ، ولكنه عجز عن أن يهتدى الى اجابة شافية على احداها . وكم من عجب اذ شعر أن قلبه يتخفف ويبدأ رويدا من ثقل الأرض ، ويسمو شيئا فشيئا صوب السماء . . . حتى أنه أحس فى تلك الليلة أنه معلق بين السماء والأرض . . .

وبعد الظهر بقليل عاد مانولى من المرعى . ودهش لرؤية صديقه فوق الجبل فى مثل تلك الساعة . وقال له ميشيل موضحا :

— تركت بيت أبى يامانولى . طلب منى الشيخ أن اختار ، واخترت طريق المسيح .

وقال مانولى وهو شارد الخلب :

— ولكنه طريق شاق وعسير يا ميشيل ، وأكثر مشقة على الأغنياء .
فمرجبا بك .

ومد مانولى السماط . ولم يطعم الصديقان غير لقيمات . وقص عليه ميشيل ما حدث بينه وبين أبيه والقرار الذى اتخذه .

— أحسست أننى لم أعد أقوى على مواصلة طريقى القديم يامانولى . عشت حياة سهلة رغدة . بدا لى العالم وهما باطلا ممنعا فى بطلانه ، ظالما

معنا في ظلمه ، وأن سبيلي في الحياة كانت سبيلا معوجا . ولم أعد أطيع
المزيد ، وأحسست بالحجل .
وكرر مانولى حفاوته بصديقه :

- مرحبا بك . الطريق وعر ، والمرتقى شديد الانحدار يدمى القدمين
في أول المسير يا ميشيل . ولكن ستنبت لك أجنحة مع الأيام ، وتحملك
الملائكة بين ذراعيها ، وترتقى جبل الرب برغم وعورته الشديدة فرحا
طروبا تترنم باسمه .
ثم وقف وأمسك بعصا الرعى .

- أرسل لى أبوك رسالة يستدعيني للمثول أمامه فورا . أستطيع
أن أضمن ماذا يريد . الى اللقاء هذا المساء .
وقال ميشيل :
- كان الله معك .

* * *

جثت لينيو على ركبتها وسط الفناء ، متوردة الوجه ، وشمرت عن
ساعديها وانهمكت في تلميع الأواني النحاسية التى منحها لها سيدها
الشيخ كصداق لها ، وكان فى عطاءه كريما سخيا . كانت لينيو تدعك
النحاس بهمة لا تعرف الكلل وهى تتغنى ، وصوتها يشق الهواء ويتردد
صداه حتى يصل الى الجبل . بينما وقف نيكوليو تحت ظل شجرة البلوط
يصيح السمع وقد أمسك بالنأى الطويل يرد عليها بالحانه . وتلقى
غناؤهما فوق أسطح بيوت القرية ، فكانت النسوة العجائز يتأفنن ،
والعرائس يبتسمن ، والصبايا يتنهذن .

ظهر مانولى عند منحنى الطريق . وسمع شدوها وابتسم .
وحدث نفسه :

- انها فرس حرون . نعم ، انها كذلك حقا . ولكن طفلا صغيرا
استطاع أن يستأنسها .

رفعت لينيو وجها يكاد يتقد نارا ، وأبصرت مانولى وهو يجتاز
العتبة .

وقال لها من كان خطيبها يوما ما :

- لك الصحة والبهجة يالينيو . أراك تتهينين . أتمنى لك عرسنا
سعيدا .

وأجابت لينيو فى سخرية :

– لك العقبى • أتمنى أن تختطفك فتاة جميلة • هيا اسرع فان السيد ينتظرك •

وعادت الى غنائها وقد تضاعفت سعادتها ، وكأنها تود أن تظهر لفتاها الأسبق أنها لا تعبا به فى قليل أو كثير ، بعد أن عثرت على خطيب أفضل منه ، وكان لسان حالها يقول : « ان هذا سيقنتله كمدا » •
كان الشيخ بطريار كاس يشعل السيجارة اثر الأخرى ، ينفت دخانها فى الهواء ويهضم الدجاجة التى أكلها وهو جالس فى انتظار مجيء مانولى • وارتنى لباس الرئاسة ، وظل حافى القدمين • وإحس بسخونة تسرى فى جسده • واربد وجهه وتلون بلون الباذنجان ، ونفرت عروق رقبتة وأخذ يذرع الحجره جيئة وذهابا ، وهو يرغى ويزبد بغضبا • وكلما أنهكه التعب وخارت قواه ألقى بنفسه فوق السرير •
طفق يحدث نفسه قائلا :

– انها غلطتى ... غلطتى أنا ، أخطأت حين أشفقت عليه وأخرجته من الدير حيث كان يعيش كالحصى ، وأردت أن أخلق منه رجلا بمعنى الكلمة • عملت عملا خيرا من جانبى ولكن ... صدق هذا الأحمق المدعو لاداس • كم من المرات قال لى : من يفعل الشر يتهيبه الناس ويحترموه ، ومن يفعل الخير لن يكون حصاده غير النكران والتحجير • « وكنت أسخر من كلامه هذا ، والآن بان لى صدق كلامه ، وها هى المشاكل تمسك بخناقى » •

وفجأة احس بغناء لينيو يسرى فى دمه •

– لتذهب الى الشيطان هذه الصبية الفاجرة • لعل الله يعجل بزواجها حتى تهدأ نفسا ، والا فانها ستقلب القرية رأسا على عقب •
واندفع ناحية الشباك لينادىها ويأمرها بالسكوت • ولم يكذب من الشباك حتى انفتح باب الحجره ، واستدار فأبصر مانولى أمامه عند عتبة الباب • فقفز فى الهواء والغضب يتطاير كالشرر من عينيه •
وصاح فيه :

– أدخل ... أدخل •

وصفق الباب بعنف وراء مانولى ، ودفع به الى الحائط •
– هل هذا هو عرفانك بالجميل ايها الجحود ؟ هه ؟ أتى بك الى منزلى فتجلب له الشر والتعاسة • كنا على ما يرام قبل أن تحل بالقرية ، بيتنا بخير وسلام ، والقرية هادئة وادعة • وأتيت أنت ايها النبى القدر لتخل بالنظام وتثير الفتن ... لماذا ؟ بأى حق تطويعت من تلقاء نفسك

لانقاذ القرية ؟ هذا عملي أنا . لماذا تتدخل في أمور لا تعنيك ؟ هل تريد أن أفصح لك عن السبب ؟ أردت أن تظهر أمام الناس كقديس ، تحاول أن تغرر بالسذج لكي يؤمنوا بك ، وتدعو الى الثورة يوم الاحتفال بعيد النبي ايليا .

وذهل مانولى عند سماعه الجملة الأخيرة وقال :

- الثورة .

- ماذا كنت تقصد اذن بكل تلك البذاءات التي تفوهت بها فوق الجبل قبل أول أمس ؟ لماذا ندفع العشور لحملة القمل ؟ كيف نتساوى نحن وهم ؟ أن نكون كلنا اخوة ، كلنا حملة قمل ؟ أليس كذلك ، هه ؟ أهذا هو ما تهدف اليه ؟ ونعطيهم حقولنا أيضا مناصفة !! بأى حق هذا؟ ولكنها ملكنا نحن . انها مالنا وحقنا ودمنا . ألا ينبغي علينا أيضا فى مثل هذه الحالة أن نفتسم معهم لحم أجسادنا ونعطيهم بعضه ليأكلوه ؟ انها نهاية العالم !

واستبد به الذعر عند ذكر هذه الجملة ، فحدج مانولى بنظرة مفزعة .

- حدث ذات يوم أن رفع «الكرش» لواء الثورة واحتل مكان الرأس ليصبح صاحب الأمر والنهى . ترى هل لم يقص عليك أحد هذه القصة، أيها القدم ذو الرأس الفارغ ؟ - وكانت نتيجة هذه الثورة أن بدأ القدر يخرج من الأنف والغم والعينين ، فلقى الرجل حتفه . لذلك لا تحاول أن تغير الناموس الذى فرضه الله . ليبق «الكرش» مكانه ، والرأس حيث هو يأمر وينهى ، وأنا الرأس .

وكان أثناء الكلام يذرع الحجرة كالوحش المفترس داخل القفص ، يضرب الجدار بعصاه ويصق على الأرض . ويتمتم قائلا :

- اذا لم يكن هناك أغنياء أيها الأبله ، فمن الذى سيقدم الصدقات اذن للفقراء ؟ ألم تفكر فى هذا ؟ أى منزل تقصده الحالة ماندالينيا لتجد عملا فيه ؟ وأين تجد سيادتكم مكانا تعملون فيه خادما ؟ وبلغ هياجه غايته وصاح بأعلى صوته :

- أيها الشحاذ المتشرد الذى يرعى فى جسمه القمل ، لا تملك شبرا واحدا من الأرض وتصيح « نحن اخوة » لماذا ؟ ينبغي أن نفتسم ما نملك ونعيش اخوة حسب ما تقول ، حتى يمكنك أن تلتهم نصف ممتلكاتنا ... من الذى ملأ رأسك بهذه الأفكار أيها الأفاق ، هه ؟

وأجاب مانولى :

- المسيح .

- ليأخذك الشيطان ، أى مسيح تقصد ، هه ؟ مسيحك أنت لا أنا .
ابتدعت مسيحا جديدا ، متمردا على شاكلتك ، حقيرا يرعى القمل فى جسده ، يتضور جوعا . وتحدث عن لسانه بكل ما يحلو لك ثم ترفعه
عاليا كما ترفع علم الكنيسة وتعوى : « نحن كلنا أبناء لأب واحد كلنا
اخوة ، لذلك هات الشواء لناكل سويا . لآن تذوق طعمه »

وألقي بسيجارته من النافذة ، وبصق فى الغناء ، ورجع الى مانولى ،
وأمسك بتلابيبه وصاح فيه :

- عليك أن تترك خدمتى فورا ، فى هذه الليلة . اذهب والحق
بالشحاذين أمثالك . ليقتسموا معك القشر الذى يملأ رأسك والقمل الذى
يرعى فى جسدك ، ومملكة السماء التى تدعو اليها .

وانفتح الباب وهو يقذفه بهذه الكلمات وظهر القسيس
جريجوريس فى أبهة الاساقفة . وقال :

- معذرة يا عمدة أن تأخرت . كان ذلك بسبب مرض ابنتى
ماربورى .

والتفت ورأى مانولى فتجهم وجهه .

وقال الشيخ بطرياركاس :

- يا صاحب الغبطة ، لم يبق شيء على حاله هنا . انقلب العالم
رأسا على عقب . العمدة مانولى الواقف هنا يريد أن يشعل النار فى
العالم . وابنى الرقيق الوديع وقف الى جانبه ورفع لواء العصيان هو
الآخر . أعلننى بذلك هذا الصباح ، قائلا « سأترك البيت وسوف أفارقك
يا شيخ بطرياركاس ، فقد اخترت طريق المسيح . كأن طريقى هو طريق
العداء للمسيح . انها نهاية العالم . من حسن الحظ أنك آتيت يا أبانا فى
الوقت المناسب لنضع الأمور فى نصابها .

وقال القسيس جريجوريس وهو يشير بأصبعه الى مانولى :

- ها هو عدو المسيح . هو الذى يبذر الشقاق بيننا ، وهو الذى
يفسد عقول الناس بأفكار سخيفة . ما هذه الترهات التى قثتها
أمامنا يوم الاحتفال : أيها المحتال ؟ أقسم لك بشرفى انها ثوزة الذنب
ضد الرأس .

وأجاب مانولى :

- كلمات المسيح أن أحسنوا الى المساكين • ومن يملك ثوبين يعطى واحدا ، نحن جميعا اخوة • وليس عندى ما أقوله لك غير هذا •
واربد وجه القسيس جريجوريس • وأبى على نفسه أن يحاج خادما فوجه حديثه الى العمدة :

- هذا الآدمى انسان خطير على المجتمع • يجب أن تطرده من خدمتك بل ويجب أن يطرد خارج القرية حتى لا يلوثنا • فهو الذى أدار رأس ابنك يحاول بدسائسه هذه أن يكتسب أهمية وشأنا ويجمع الناس وراءه •
أطرده • انه ليس براع ولا حمل ، بل ذئبا •

ابتعد مانولى عن الحائط وتقدم خطوة الى الأمام وعقد يديه الى صدره وقال :

- وداعا يا سيادة العمدة ويا صاحب الغبطة فانى راحل •

ورفع القسيس يده وزار :

- أخرج لعنة الله عليك •

ورد مانولى :

- بل لعنة الأعيان والقساوسة • أنتم أيها القساوسة الذين صلبتم المسيح • لو عاد الى الارض ثانية ستصلبونه من جديد • وداعا •

واتجه الى الباب فى صمت ، وفتحه ، ثم استدار وقال فى هدوء :

- وداعا •

ونزل الدرج وأحس أنه خفيف مرح كأنما تحمله الملائكة •



العَمِيل

أظلمت الدنيا حين أخذ مانولى طريقه الى الجبل . وتلبدت السماء بالسحب ، وهبت ريح دافئة من الشرق ، وتساقطت قطرات من المطر بللت يديه ووجهه ، كما بللت الأرض العطشى . وتهلل جسد مانولى ، اذ كان ظمآنا مثل السهل والجبل .

وحدث نفسه وهو يصعد الجبل :

- عجباً لهذا الوجود ! انه معجزة حقا ! اذا فتحت عيني ارى الجبال والسحاب والمطر يساقط ، واذا أغمضت عيني ارى الله خالق الجبال والسحاب والمطر . . . حيثما نولى وجوهنا فثم وجه الله . . . فى ضوء النهار أو فى عتمة الليل .

نسى تماما العمد والقساوسة ، وتخلص من كل الاهتمامات الباطلة ، وتعالى فوق المسرات الصغيرة والمكابدات العابرة ، ونعم بالمسرة العظمى والمكابدة الكبرى ، فهو الآن أمام الرب وجها لوجه . . .

- فبعد أن طرده سيده الذى تفانى فى خدمته أصبح لزاما عليه أن يودع الجبل الذى أشرب فى قلبه حبه ، وسيكون وداعه له غدا مع مطلع الفجر . سيحمل صرته المتواضعة على كاهله ويمسك بعضا الرعى ويرحل وحده ، أعزل مثل يتيم لا عائل له ولا سند ، ويسير فى طريق قفر موحش يصعد ويصعد دون أن ينتهى .

وهطل المطر ، واشتد قصف الرعد على البعد قويا يصك الأذان ، وحث مانولى الحطو . كانت الريح من خلفه تدفعه الى أمام ، وخيل اليه وكان للريح يدان وصدر يصعد الزفرات .

ولمخ على البعد ضوءا خافتا • عرف فيه نافذة كوخ المرعى الصغيرة
وحدث نفسه قائلا :

- لا بد وأن نيكوليو قد استسلم للنوم الآن بعد أن فرغ من حلب
اللبن وتناول العشاء • اذن فهذا الضوء يعنى أن ميشيل فى انتظارى •
وخفق قلبه بقوة وعنف عندما تذكر صديقه •
وتمتم قائلا :

- لا طاقة له بذلك • عاش حياة السادة ، واعتاد الطعام الرغد ، وألف
النوم على الفراش الوثير ، وأنس الى الدفء وأن يكون البيت حماه • خير
له أن يعود الى البيت • عليه أن يتذرع بالصبر ، فلم نحن ساعته بعد •
سواء أراد ذلك أم لم يرد فإن الثراء يثقل الروح ويموقها عن الحركة
الحرة الطليقة • وهناك ماريورى أيضا ، تربطه هى الاخرى بالأرض رغما
عنه •

وتذكر كلمات المسيح القاطعة القاسية :

«ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله» •
ألفى ميشيل جالسا قبالة المدفأة يحملق فى النار • وقال بصوت
فيه رنة فرح وهو يمسح بيده العرق الذى بلبل شعره ووجهه :
- طاب مساء الفتى سيد الجبل • غدا صباحا سأودع هذا الكوخ
العزيز وأرحل بعيدا ، فقد طردنى أبوك •

وجلس أمام النار ، وقص على ميشيل بصوت هادى رزين كيف ألفى
العمدة الشيخ نائرا يتميز من الغيظ ، وكيف استخدم العمدة ألفاظا
قاسية فى حديثه اليه وطرده فى النهاية ، وكيف أنزل القسيس لعنته
عليه •

واختتم حديثه قائلا :

- حدث كل شيء كما كنت أتوقع تماما ، ومثلما كان مقررا له أن
يحدث • لست نادما على شيء : كان مفروض على أيبك أن يطردنى ،
ومفروض على القسيس أن يلعننى ، كما أنه مفروض على أن أرحل •
وأمسك ميشيل بيد صديقه ، وضغط عليها فى لهفة وشسوق
وقلق :-

- وأين سنذهب الآن ؟

- سيبنى الليل لى المشورة • يتنزل الرب الينا عادة على هيئة حلم

ونحن نيام ويهدينا الى الطريق • لم أحسم أمرى بعد ، والأمر بيده
تعالى • سنرى غدا فلا تجزع •

وقال ميشيل :

— هل تذكر الليلة التى قضيناها معا فى فناء قسطندى ؟ هل تذكر
ما قلبه لك تلك الليلة ؟ • • • حيثما تذهب يامانولى سأذهب معك ، وها أنذا
أعيدها ، وأقولها لك الليلة •

— على رسلك يا ميشيل • لا تتسرع • وان غدا لناظره قريب •

ورقد الاثنان وقد نال منهما التعب • وتضاعف وإبل المطر عنيفا
بهيجا • وانتعشت الاعشاب الجافة فوق الجبل ، وتضوع أريجها ، وهبت
الرياح موجات متتابعة تأتى من بعيد عبقة بعطر شجر الصنوبر • وتنفست
الأرض وقاح عبيرها الطيب • وتفتح قلب مانولى أيضا كأرض هامة أصابها
الطل فاهتزت وربت •

ترى هل هذه هى اجابة الرب ؟ ترى هل تنزل الرب الليلة على هيئة
مطر غزير يهطل فى سخاء ؟ احتفى مانولى بالرب ، وأحس بالسعادة تغمره
من رأسه حتى أخمص قدميه • وكذلك طيور الليل التى آوت الى أوكارها
بين الصخور وفوق الشجر • • • أحست بالرب يتنزل فوق أجنحتها الندية
المبتلة •

وانصت ميشيل لصوت المطر المتساقط ، وتنسم عطر الأرض الندية ،
وجفاه النوم • تذكر ماريورى وخفق قلبه فى ضيق وجزع ، وثار شجونه
مع الأرض المبتلة • كانت فى آخر لقاء له معها شاحبة واهنة بغير خضاب •
وظلت تسعل ومنديلها فوق فمها ، ولكن المنديل هذه المرة لم يكن أبيض
كالعادة ، بل أحمر حتى لا يظهر عليه لون الدم • وقالت له يومذاك :

— عزيزى ميشيل ، انى راحلة • سيصحبنى أبى الى المدينة ليعرضنى
على الأطباء هناك • فحالتى ليست على ما يرام •

وتنسم ميشيل أريج الأرض ، وأحس بقلبه يرتجف وتمتم قائلا :

— لا زال قلبى متعلقا بالأرض ، نعم لا زال •

واحتوى النوم ميشيل ومانولى رويدا رويدا وسط هذه الليلة المطرة •
وعندما أسفر الصباح فتحا أعينهما فأبصر الجبل الذى اغتسل فى تلك الليلة
يبتسم لأول شعاع من أشعة الشمس ، والسحاب كالقطن المندوف يغطى
أديم السماء ، وقطرات من الماء لا زالت عالقة بأغصان الشجر تلمع
وترتعش •

وأُنزل مانولى من على الحائط أيقونة الصلب وعصافير الخيمة التى أهداها له ميشيل . وأخذ قناع المسيح الذى نحتته ، وجمع بعض الملابس وحزم كل هذه الأشياء فى صرة ووضعها فوق المقعد الحجرى .

وكان ميشيل يرقبه فى صمت . وجلس الاثنان وشربا بعض اللبن دون أن ينبس أحدهما بكلمة . ثم وقف مانولى . كان نظره يتنقل فى هدوء ما بين الكوخ والمقعد الحجرى والصخور المحيطة والجبل وكأنه يودعها جميعا وداعا صامتا . وأخيرا التقط عصا الرعى .

ووقف ميشيل وقال :

– ترى هل حسمت أمرك يامانولى ؟ هل سترحل ؟ والى أين أنت ذاهب ؟

– وداعا ياميشيل . أتمنى لك التوفيق .

– قل لى الى أين ؟

– الى سارا كينا . سأذهب لأقاسمهم الجوع .

– ألا تريدنى أن أذهب معك ؟

– ليس بعد . تجمل بالصبر . عندك أبوك وخطيبتك ، أما أنا فليس لى أحد ، فالأمر سهل على يسير .

– ولكنه مكتوب : « من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى . »

– أعرف ذلك يا ميشيل . ولكن هل انقطعت كل صلة تربطك بالأرض وبأبيك وزوجتك ؟ لا ، ليس بعد . لذلك عليك أن تتذرع بالصبر . ستحين ساعتك ، فلا تكن عجولا هكذا . ستأتى ساعتك فى هدوء كطائر الجمل ، يسير فلا تسمع لخطوه صوتا .

– ولكننى لا أريد العودة الى أبى .

– لك ما تريد . لا تعد اليه . ابق هنا ، بين سارا كينا وليكوفريس وانتظر حتى يأتى طائر الجمل ، أعنى ساعتك المحددة . الى اللقاء قريبا .

ومد يده الى ميشيل الذى أمسك بها فى لهفة وقال :

– مانولى . . لن يمضى وقت طويل حتى أراك ثانية وألحق بك . أقسم لك على هذا . أرجو أن يكون لقاءنا قريبا .

وتأبط مانولى الصرة ، ورسم الصليب وانطلق فى طريقه . وحملته

أجنحة الملائكة من جديد . وبدأ مانولى يطير من صخرة الى صخرة . واقتربت منه كنيسة النبي ايليا رويدا رويدا تتلألا وسط الآكام فوق قمة الجبل وقد كستها أشعة شمس الصباح بلون وردى . وعندما وقع بصره عليها نوح لها بعصاه محييا ، وصاح صيحة طروب عالية كأنه نسر تعرف على وكره القديم .

* * *

قضى الشيخ بطرياركاس سحابة نهاره فى انتظار ابنه عسى أن يعود . وانتظر يوما ، ويومين ، وثلاثة ولكن دون جدوى . وتملكه اليأس ، وأرسل بعض أقاربه ليتحدثوا اليه ، وكان ناظر المدرسة آخرهم . وفى النهاية بعث فى طلب ياناكوس وقال له :

– أسألك معروفا يا ياناكوس ، أن تذهب لزيارة ابنى وتتحدث اليه فانت من خلصائه ، عسى أن يستمع انيك .
وهز ياناكوس رأسه وأجاب قائلا :

– أحسب يا عمدة أن لو سارت الامور على نحو ما هى عليه الآن فلن يمضى طويل وقت حتى آخذ سبيلي وأنا أيضا الى الجبل . فأرسل غيرى . وحضر بانايوتى لمقابلته .

– يا عمدة ، حصلت على بعض التفاصيل من مصدر موثوق به . اتخذ مانولى سارا كينا وكرا له . يجمع الالجئين هناك ويتحدث اليهم ويستنفرهم ويعلن عليهم أن من حق الجائع نهب الشباع . تذكر كل ما أقوله لك . فيوم بعضهم الجوع سينزلون الى قريتنا كالذئاب الجائعة ينهبونها .

وتوقف لحظة ، وبدا عليه التردد ، وتنهى ، وجال ببصره حواليه ، ثم مال على أذن الشيخ وأسر اليه بكلمات .

– فى نفسى شكوك يا عمدة .
– قل ما عندك بصراحة يا بانايوتى فانى مصغ لك . وأنت لا تحب أحدا لذلك فانك ترى الامور رؤية واضحة . أفصح .

– مانولى اشتراكى .

وهرش العمدة رأسه وقال :

– اشتراكى ؟ ماذا يعنى هذا ؟

– يعنى : عليك أن تعمل لتأكل ، واذا أردت شيئا فاسرقه . انهم عصابة من قطاع الطرق ، ذاع صيتهم فى هذه الايام ، وينتشرون فى جميع أرجاء الأرض .

– وهل تظن . . . ؟

— أنا راثق من هذا • هؤلاء الناس لهم أتباعهم فى كل الاقطار ، بل
وفى كل قرية مهما كانت صغيرة • انهم ينبشون فى كل زوايا الارض •
حيثما ذهب تجددهم اذا ذهب الى الصحراء تجددهم هناك ، واذا بحثت
عنهم وسط العائلات تجددهم ، ارفع أى حجر تجددهم تحت ذلك الحجر •
ومانولى رسولهم الى ليكوفريسي •
— أى كلام خطير هذا الذى تحدثنى به يابانايوتى • ان حديثك يقشعر
منه بدنى هولاً • فصح •

— نعم ، انها مسألة قاتلة ومفزعة • انهم شياطين مرده • هل راقبت
مانولى ؟ انه يلعب دور القسيس • يزعم أنه لا يأكل اللحم ، ولا يكذب
أبداً ، ولا يشتهي النساء وها أنت تراه أخيراً ممسكاً بانجيل صغير لا يفارقه
— وكلما وقع بصره على أحد سرعان ما يسك بالانجيل ، يفتحه ويقلب
صفحاته ليوهم الناس أنه منكب على قراءته • • نفاق ورياء • ويوم أن كان
مساقاً الى المشنقة ، هل تعرف ماذا حدث ؟ استمع الى ما أقول فهو حديث
ترتعد منه فرقا • عرف أن العجوز مارثا عثرت على ملابس حسين الملطخة
بالدماء ، فتواطأ معها على ألا تظهرها الا فى آخر لحظة • لماذا ؟ حتى يؤمن
الناس بأن مانولى على استعداد لأن يجود بحياته من أجل خلاص القرية —
حيلة توصل بها ليذبح صيته كصاحب فضل ومنة ، فيقف الناس الى صفه ،
ثم اذا ما واتت اللحظة المناسبة يدفعهم وفقاً لأوامر تصدر اليه من الخارج
لقطع رقاب العمدة والأعيان ، •

تهاوى الشيخ بطرياركاس فوق الكرسى ، ودفن رأسه بين يديه •
وتتمت قائلاً :

— رحماك يارب • رحماك يارب • انها نهاية العالم اذن •

وفجأة هب واقفا يحملق بعينين متورمتين ، وقد التوت شفثاه ، وتلعثم
بكلمات :

— ولكن •• ماذا عن ابنى •• ؟ •

— نصب مانولى شباكه حوله يا عمدة ، وغرر به • أصبح ابنك عميلاً
دون أن يدري • ألم تر كيف ذهب الى الجبل ليلحق به بعد ما ترك بيتك ؟
ولن يمضى وقت طويل حتى يذهب ياناكوس أيضاً الى هناك ، وقسطندى
فى اثره •• سيهجر كل منهما بيته وأسرته ليلحق بهم •• انه شئ كالمرض
المعدى يا عمدة • يصاب به شخص وينقله بالعدوى الى غيره • ويبدو أن
أندونيس الحلاق على وشك أن تصيبه العدوى ، وكذلك ديمترى الجزار •
واذا أردت أن تعرف رأى فان العدوى سوف تستشرى حتى تصيب ناظر
المدرسة ••

- ما هذا الكلام الذى تقوله يا بانايوتى ؟ انها نهاية العالم . . سأذهب الى القسيس جريجوريس أشاوره حتى نضع الأمور فى نصابها . .

- واذا شئت أن تعرف شيئاً عن القسيس فوتيس والشرذمة المهلهلة التى يجرها وراءه حيثما ذهب ، فهم جماعة من العملاء ، وفدوا الى ليكوفريسي ، يزعمون ان الاتراك طردوهم من ديارهم . . وضحوا بأنفسهم من أجل بلدهم . . هل تصدق هذه الأخبار المختلفة ؟ انهم كما أقول لك فتية بعثت بهم موسكو . أرسل اليهم مانولى رسالة قال فيها : «الناس فى ليكوفريسي لا تعاني نقصاً فى الخبز ، كل شيء موجود بوفرة هنا ، تعالوا نستريح خيراتنا . عمدة القرية عجوز مخرف ، ولن يقاوم أبداً . وها أنت قد رأيت بنفسك كيف ظهر مانولى والقسيس فوتيس معا وفى وقت واحد كصوص السوق . لعلك لاحظت الاشارات التى تبادلها بطرف أعينهما . ولهذا السبب خرج مانولى ، بعد أن طردته من بيتك - هل تعرف وجهته ؟ توجه الى ساراكينا مباشرة . المسألة فى غاية الوضوح يا عمدة .

كان الشيخ بطريار كاس يستمع الى هذا الكلام وهو بذرع الحجر طولاً وعرضاً . وتوقف فجأة يتدبر الأمر :

- اذهب الى القسيس جريجوريس ، قل له اننى فى مسيس الحاجة اليه . لا بد وأن أراه الليلة .

- سافر القسيس جريجوريس هذا المساء مع ابنته الى المدينة . سيعود غداً . أخذها معه ليعرضها على الاطباء ، اذ أنها تسعل وتبصق دماً . حالتها سيئة تماماً .

وصاح العجوز حانقا بصوت يدمدم كالرعد :

- لياخذك الشيطان . ألا يوجد عندك اليوم غير المصائب تتحدث عنها منذ مطلع الفجر ؟

- أنا أقص عليك ما أعرف يا عمدة . صدق أولاً تصدق ، كما يحلو لك ، فإن هذا شأنك أنت . ضايقتك مدة طويلة ، وانى آسف على ذلك . سأصرف .

وقال العجوز بينه وبين نفسه :

- الى الجحيم يا يهوذا الاسخريوطى .

ثم قال بصوت عال :

- الى اللقاء يا بانايوتى . واذا وصل الى سمعك أى شيء . . .

- اهدأ بالا يا عمدة ، فانا لا يفوتنى شيء .

وانصرف وهو يمشى بخطوات ثقيلة كخطوات الدب وابتساحة شريرة تضىء وجهه المجذور .

والقى الشيخ بطريار كاس بنفسه فوق السرير . وطفق يجتر حديث بانايوتى اليه . وعبثا حاول أن يهدىء من روعه .

— أعوذ بالله ، يبدو لي أننا سنقع فى ورطة لا مخرج منها . وضع الله غشاوة على عيوننا فلم نبصر شيئا . قسما ليس فى القرية من تنبه الى هذا — لا القسيس ، هذا الثعلب العجوز ، ولا ناظر المدرسة بكل ما يحمل من أسفار ، ولا أنا . . هل كان يمكن أن يدور بخلدى أن عندى جاسوسا يعمل فى خدمتى . أرادوا أن يشعلوا الفتيل من بيتى لتشب الحرائق فى كل أنحاء القرية . آه يا شيخ بطريار كاس ، رغم انك رئيس هذه القرية فقد خانتك فطنتك ، تنتظر حتى ياتى هذا الدب المفترس ليكشف العصابة عن عينيك . لا بد وأن نطرد هذا الخنزير مانولى بعيدا ، وتطرد هؤلاء الشراذمة حملة القمل من وكرهم فى سارا كينا . . هؤلاء الأقدار . لا بد وأن نطهر الارض التى حولنا ، ونعيد للشرف والعدالة سلطانهما على القرية من جديد . غدا سأحسم الامر مع القسيس بعد عودته .

وهدأت هذه الفكرة من روعه . وأغمض عينيه . وحاول أن ينام . وأمتنع عليه النوم . وسمع غناء لينيو فى الطابق الارضى تهدل كالحمامة انها قلقة لا يطمئن بها مكان ، تظل تدور وتدور فى البيت فى انتظار صديقاتها لتعرض عليهن جهاز عرسها ، منهمة فى عرض قطع الجهاز بطريقة بارعة وسط الدهليز الطويل، حتى تبدو وكأنها أكثر من حقيقتها . ووضعت اكليل الزواج المصنوع من زهر الليمون بين الشموع البيضاء الكبيرة وحببات البنندق المغلفة بالسكر .

ومع المساء سينزل نيكوليو من فوق الجبل ، مرتديا لباس العرس الجديد ، الذى أهده اليه سيده بمناسبة الزفاف ، وعاصبا شعره الاسود بالمنديل الحريرى الاحمر الذى أهده اليه لينيو . وغدا الاحدسيكون الاحتفال بالزواج ، والعروس التى سسيصبح اسمها بعد ذلك زوج نيكوليو ، ستمتطى صهوة بغل مطهم بسرج أحمر ، يحملها الى عش المستقبل . . الى الجبل والحظيرة .

كان الشيخ مستلقيا فوق سريره ينصت لغناء لينيو ، وصيحات صويجاتها المرححة عند وصولهن ، وضحكاتهن . . وتذكر زفافه ، وقتما كان فى الثانية والعشرين من العمر ، رشيقا أنيقا مثل القديس جورج ، وانطلق بحصانه الابيض ليأتى بخطيبته . يستطيع أن يتخيلها الآن ، واقفة

على عتبة بيت أبيها وقد غطت وجهها بنقاب أبيض حسب ما تقضى به
التقاليد ، حتى لا يظهر وجهها . وظل العريس يصرخ فى أبويها نافذ
الصبر : « ارفع الغمامة حتى تسطع الشمس » . وشبت حماته فوق
أطراف أصابعها ، وأغرورقت عينها بالدمع ، وزفعت النقاب . وأضاء
كل ما حوله - العروس والعريس ، الآباء والأصدقاء ، الحيل والبغال ،
وستائر مختلفة ألوانها - كأن الشمس قد سطعت بالفعل فى التو
واللحظة .

رف خيال الشيخ بطرياركاس بجناحيه الكبيرين وعبر الزمان .
مضت السنون واطلمت الشمس . وترهل القديس جورج وتضخم
كرشه . ولكن لا زالت الحمية تسرى فى دمه . . . كانت تعمل فى خدمته
بيت العمدة فتاة حرون تدعى جارفاليا . يستطيع أن يذكر الآن بوضوح
نديها الناهدين النافرين ، وردفيها الثقيلين ينوء العالم بحملهما ، وكعبيها
كحبتى التفاح . ذات ليلة نزل العمدة الدرج خلصة فى هدوء ، حذر
صرير درجات السلم فتسمعه زوجته التى تقدم بها السن قبل الأوان .
وانسل الى الحجر التى تنام فيها جاروفاليا ، وضاجعها فوق سريرها
وانجب لينيو . وها هى لينيو الآن تزف الى عريسها .

وابتسم للعمدة العجوز . ونسى كل ما قاله له بانايوتى . ونسى
أن ابنه هجر البيت . دبت الحياة من جديد فى الاعوام الماضية التى طواها
النسيان ، واستيقظت فى نفسه كل ملذات أيامه الحوالى ، ونزواته والمآذب
التي كانت تحفل بالأرائب وطيور الجبل والسمك البورى والدجاج والخنازير
الرضيعة ، والحملان المشوية على السفود ، والفطير باللحم المفروم ، والشواء
والمحار ، والبقلوة والرقاق والقطايف والخمور المعتقة والكافيار - وغيرها
من الأصناف التى التهمها فى نهم شديد .

وتتم : الحمد لله ، عشت حياة طيبة استمتعت بها .

وسكرت رأسه بهذه الذكريات ، فاغمض عينيه واستسلم للنوم .

فى هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس فوق صهوة بغلته الشهباء،
وماريورى ابنته فوق حمار ياناكوس فى طريقهما الى الجبل الذى أوى اليه
ميشيل . اذ تضرعت الفتاة الى أبيها أن يتكرم عليها بهذا الصنيع .

- يجب أن أراه يا أبى ، يجب أن أراه ، فانا لا أدري ان كنت سأعود

ثانية أم لا . . . وصرخ فيها أبوها بصوت متهدج ، تقطعه نوبات النشيج :

- لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام . ربنا كبير ، ستبرأين من علتك

وفي عيد الميلاد سنحتفل بزفافك . سارقص في هذا اليوم حتى ادخل
السرور على قلبك .

ولكن الفتاة ألحت عليه متوسلة اليه :

– لناخذ طريقنا الى الجبل ، حتى اراه مرة أخرى .

– كما نشائين يا طفلي . هل يسعني أن أرفض لك طلبا ؟

وبعد هذه الكلمات شد لجام بقلته لتأخذ الطريق المؤدى الى الجبل .

كان ميشيل جالسا فوق المقعد الحجري وحيدا . بينما ارتدى نيكوليو
لباس الزفاف ، واعتنى بغسل شعره المموج وعصبيه بالمنديل الحريري
الأحمر ، وأمسك بعصاه وسندها الى رقبته فوق كتفيه ، وظهر عند أول
الطريق فوق الجبل وقد تهيا ليتخذ سبيله الى بيت العرس .

وصاح بميشيل الذي كان يتأمله في صمت واعجاب :

– طبت مساء ياسيدي . انى ذاهب لاتزوج . أبلغ تحياتي الى اليوم .

ورنت ضحكته العالية بين جنبات الجبل .

ومر بجانب القطيع فوضع اصبعيه السبابتين في فمه وصفر للقطيع
مودعا . ثم وقع بصره على الكباش داسوس بقرونه الحلزونية ، والجلجل
حول رقبته . ووثب داسوس نحوه ، ثم وقف أمامه يحدجه بنظراته .
وأحس نيكوليو برغبة عارمة في أن يمسك بالكباش من قرنيه ويصارعه .
فخطا نحو الكباش وبدأ مصارعة معه .

وبعد أن أشبع رغبته صاح به :

– اليك عنى أيها العجوز ذو القرنين . اذهب الى نعاجك ، أما أنا
فذهاب الى لينيو . الى اللقاء يوم الاثنين . بركاتك يا صديقي داسوس .

وبدا يدب بقدميه فوق المنحدر ، وكعباه يحدثان قعقة عالية .

وسمع ميشيل أصواتا تقترب منه ، فنهض واقفا . لمحت عيناه
بين الصخور القسيس جريجوريس يتقدم ، ومن ورائه حبيبته ماريورى .
فخفق قلبه في جزع . وتمتم قائلا :

– ترى ماهى وجهتها؟ لماذا أتيا الى هنا؟ لا بد وأن حدث شيء سيء .

وخف للقائهما .

وقال القسيس :

– عزيزى ميشيل ، يسعدنا لقاؤك فى خلوتك . اننا فى طريقنا الى
المدينة ، وأبت ماريورى أن ترحل دون أن تودعك . حالتها الصحية سيئة

الى حد ما ، لذلك سندهب الى المدينة لتبئين حقيقة مرضها .
ورنت الفتاة الى خبيبتها بعينين تفيضان اعجابا ، واحمر وجهها خجلا .
وقالت بصوت واهن :

— وداعا يا ميشيل .

أعانها ميشيل على الترتل ، وجلس ثلاثتهم فوق الاريكة الحجرية .
واعتلت الشمس صفحة السماء وغرق السهل على البعد فى بحر من نور
وان كان يغشاه بعض الضباب . وحوم فوقهم غرابان ينبعان . وتجهم
القسييس لمرأها ، ولم ينبس ببنت شفة . ولكن الفتى والفتاة لم يلحظا
شيئا . وامسك ميشيل بين يديه بأصابع خطيبته النحيله التى يتألق فيها
الحاتم الذهبى .

وقال القسييس :

— سألقى نظرة على قصرک هنا .

ودخل الحظيرة رغبة منه فى أن يترك الخطيبين وحدهما .

وسأل ميشيل خطيبته فى جزع :

— هل ساءت حالتک يا صغیرتى ماريورى ؟ ان الله كبير يا عزیزتى ،
فلتکن ثقتک به سبحانه . لا بأس عليك ، سوف تتحسن حالتک . تشجعی
فالشهور تمضى سراعا ، وعيد الميلاد بات وشيكا .

وقالت ماريورى فى حنان :

— نعم ، عيد الميلاد بات وشيكا .

وبعد لحظة صمت قالت :

— هل تخاصمت مع أبیک ؟

— دعک من أبی ، فالامر مؤلم للغاية . دعینا من الحديث فى هذا
الموضوع يا ماريورى . انى أحبک ، ولا أريد أن أفقدک . أنت الشىء الوحيد
الذى يربطنى بالارض ولا شىء سواک . أنت فقط ، هل تفهمن ما أقول ؟

— واذا قدر لى ألا تمتد بى الحياة ، فماذا أنت فاعل ؟

وبسط ميشيل ذراعه ووضع راحته على شفתיها وقال :

— أسکتى .

وحانت فرصة لماريورى كى تطبع قبلة على راحة ميشيل .
وفاض الدمع ساخنا من عينيها الجميلتين البائستين . وقالت بصوت
هامس : « حبيبي » .

وظهر القسيس جريجوريس عند عتبة الحظيرة . وقال :
- يجب أن نسرع ياماريورى حتى لا يدهمنا الليل . هيا بنا على
بركة الله .

والتفت الى ميشيل وقال له :

- كنت أود أن أتحدث اليك ياميشيل ، ولكن لترجى الحديث الى
حين عودتى . متى ستعود الى أبيك ؟

وانحنى ميشيل ليقبل يده وأجاب :

- وقتما يشاء الرب يا أبانا .

وحدجه القسيس بنظرة قاسية وقال :

- ياميشيل ، ان الرب ينتظر أحسانا أن يلمح اليه قلب الانسان
بإشارة منه .

وأحس برغبة فى أن يستطرد فى الحديث معه ، بيد أنه أحجم عن
ذلك .

وقال ميشيل :

- الى اللقاء . كان الله معكما .

وأمسك بيد ماريورى النحيلة بين يديه للحظة . وقال هامسا :

- أنت وحدك ياماريورى . لا تنسى ذلك .

وأدار وجهه ليوارى دموعه ، ثم ارتقى صخرة عالية ، وظل يودعهما
بنظراته وهما فى طريقهما الى المدينة .

وحدث نفسه :

- نعم لا زال قلبى متعلقا بالارض ..

وتجول بين ربوع الجبل ، ثم سرح الطرف الى السهل تحت قدميه .
بدأ موسم قطاف العنب . وترامى الى سمعه شدة النساء اللائى أسكرهن
أريج العناقيد . كن يقطفن العناقيد الناضجة ويلقن بها فى السلال ،
وقد خُضب دم الكرم أيديهن . ويتعقبن بنظراتهن الفتية يحملون السلال
بعيدا ، فيتنهبد البعض منهن ، وتلوح أخريات فى خفة ونشاط ، والجميع
بروح عن نفسه بترنيمات خافتة .

وتوقف ميشيل وقد أثقل قلبه الحزن ، خيل اليه أن ما يسمعه
نيسست أغانى قطاف العنب ، بل نواحا جنازيا .

وجمد فى مكانه ، وأحس أن الحياة تدور من حوله دورات متعاقبة
لا نهاية لها . دارت عجلة الحياة دورتها الابدية حتى بلغت الآن موسم

قطاف العنب . . وستأتى قريبا دورة جمع الزيتون ، ثم دورة ميلاد المسيح . . وبعد قليل ستزهر أشجار اللوز ، ويبذر الفلاحون القمح من جديد ، وبعده يكون الحصاد . . وشعر ميشيل بنفسه كأنه يدور مع هذه العجلة ، تعلو به وتهبط تحت أشعة الشمس وتحت وابل المطر . وأحس كأن الليل والنهار موثوقان معه بهذه العجلة ، تعلو بهما وتهبط دائما أبدا وكذلك المسيح ، وليدا جديدا ثم شب وترعرع وأصبح رجلا سويا ، وتقدم بخطوات كلهما عزم وتصميم لينشر كلمة الرب ، ثم صلب ، وقام من جديد ، ونزل الى الارض مرة أخرى فى العام الذى يليه ليصلب ثانية . .

أحس ميشيل بخديه ترتجفان ورأسه يدور . تشبث بصخرة الى جواره كأنما يريد أن يوقف العجلة ويعوقها عن الدوران . ولكنه خر الى الارض ، وفجأة ودون سبب واضح انخرط فى بكاء شديد .

لم يغادر الشيخ بطرياركاس فراشه صباح اليوم التالى ، الأحد . قضى ليلته أرقا مسهدا . واذا أغفى لحظة دهسه كابوس ، وتدافع الدم الى رأسه ، وأحس بالاختناق . بعث الى ابنه يدعوه لحضور زفاف لينيو وكان رد الابن عليه : «ان كانت دعوة لحضور وفاة فنعم ، أما زفاف فلا» . وتلقى الشيخ هذه الاجابة كأنها طعنة فى قلبه .

وقاض الدمع فى عينيه وتمتم :

— ماذا جنيت عليه ؟ ماذا فعلت له ؟ انه أحب انسان الى قلبى فى هذا العالم ، فلماذا يصدنى ؟ ترى ما الذى فعلته به ؟

واستعاد الشيخ حياته ، وتذكر أباه يوم أن تقدمت به السن ، وفى نوبة غضب قرر ألا يفتح فمه بكلمة . وظل دائما مطبقا شفثيه ، حينما يمسك بالسوط يلهب به ظهور رعاياه من الرجال والنساء ، وحينما يلتقط الحجارة ويقذف بها الفتيات وهن فى طريقهن الى النبع فيهشم لهن الجرار . وكان يأكل كما يأكل الغول ، ويشرب كما يشرب البقر ، ولم يعرف المرض فى حياته . وكم من عجب أن نبتت له أسنان جديدة ، وهذا ما أذهل الناس جميعا . وفى يوم صحو جميل سقط فى هوة فوق الجبل ولقى حتفه . وتملك الشيخ بطرياركاس الفرع عندما تذكر هذه الحادثة وما أعقبها . فعندما بلغه النبأ : « قتل أبوك » غرق فى نوبة ضحك مجنونة . وزرعت القرية جميعها من هذا القلب الجاحد لكل عواطف البنوة . ولكنه واصل ضحكه وأحس كأنما يروح عن نفسه بذلك الضحك . إذ بدا له أن صخرة كبيرة كانت تسحقه تحتها قد انزاحت عنه فجأة . وأخيرا بدأ

الابن يتنفس بحرية ، وكان عسيرا عليه ان يكتف فرحته ..

وارتعد العمدة الشيخ عندما تذكر ذلك الضحك .

- أليس من المحتمل أن ميشيل يشعر هو الآخر بأن ثمة صخرة تسحقه تحتها وتكتم أنفاسه ؟ ترى هل لا بد أن ندفع مقابلا لكل شيء في هذا العالم ؟ - وهل سيضحك ميشيل بدوره ؟
ودارت عيناه فزعتين في محجريهما .

- بيد أنني كنت أحب أبي ، كنت أحبه يقينا .. وكذلك ميشيل يجبني دون شك .. ماذا اذن ؟ انى لا أفهم شيئا . هل مكتوب على الانسان أن يضيق الابناء فى النهاية بمن أتوا بهم الى هذه العالم ، ويكرهونهم ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لست أدرى .

تأمل الشيخ بطرياركاس كل لهذا وتنهى ، وتقلب فوق فراشه حتى اهتزت أرض الحجرة لثقله . ومع المساء فتحت أبواب البيت لاستقبال المدعوين . وعندما وصل القسيس جريجوريس بدأت الاغنيات تتردد . ونهض العمدة مرغما ، واغتسل ، وارتدى ملابسه وتزين وهو ينفخ كالثور . وصيغ شاربه وحاجبيه ، وضمخ شعره بماء الورد ، ونزل الدرج ليحضر زواج ابنته بخادمه .

كان الخطيبان يتألقان نظيفين ، فقد اتخذ كل منهما زينته ، وارتدى أحسن ثيابه . وبدأ العرق يتصبب منهما ، وتنبعث منهما رائحة كريهة الخيل اثر خروجها من البحر . يخال من ينظرهما أن لو بقى هذان الكائنان وخذهما على ظهر الارض فسرعان ما يعمران الارض بنسل جديد من البشر . واتخذ العمدة مجلسه الى جانبهما . فهو وكيل العروس وشاهد الزواج ومن ثم عليه أن يقوم باستبدال اكليل العرس . وبدأ القسيس جريجوريس ترانيمه ، بينما وقف الشماس يطوح بالمبخرة الفضية ، واصطف المدعوون حولهم ، كل منهم يحس بالاعتزاز اذ أتيح له أن يشارك فى حفل الزفاف . ووقفت فتاتان صغيرتان تنتظران ، وفى يد كل منهما صحيفة مليئة بالحلوى .

وكان القسيس جريجوريس متسرعا للغاية حتى أنه كان يتعثر . لم يكن كعادته ، اذ حلفت أفكاره بعيدا مع ابنته التى فحصها الاطباء هذا الصباح وهزوا رهوسهم . كان يسرع فى ترتيله ويدغم الكلمات وهو يتعجل الانتهاء من مهمته . وكذلك كان العروسان قلقين ، يتحرقان شوقا أن يتركما الناس وحدهما ، ولا يفهمان سببا لكل هذه الحفاوة . والشيخ بطرياركاس يتعجل هو الآخر انتهاء الحفل ، فان ساقيه كادت تخونانه

ولا تقويان على حمله . ولكن الكبرياء أرغمه على أن يعرض على النواجذ .
ويتحامل على نفسه .

وبعد أن انتهت مراسم الزواج قال :

- يا أصدقائي ، يحتفل اليوم نيكوليو ولينيو بزفافهما ، فمرحبا بكم في منزلنا . كلوا واشربوا ما طاب لكم حتى تملأوا البطون ، فقد ذبحنا عددا وفيرا من الحملان ، والنبيد موجود بوفرة والحمد لله . لقد حان موسم قطف العنب وسرعان ما نملأ البراميل الى حافتها من جديد ، لذلك أدعوكم أن تفكوا أحزمتكم واشربوا هنيئا .
واستدار ناحية العروسين وقال لهما مهنتا :

- حياة مديدة يا طفلي . أتمنى أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما لسن ، وتنجبا أبناء وأحفادا ، وتعمرا الارض بنسلكما وتخلدا سلالة الانسان . لا تنكسا رايتكما أمام ملاك الموت ، لأننا نبذر وهو يحصد وسنرى لمن سيكون النصر . هل سمعت ما أقول يا نيكوليو ؟ أطلق قذائفك ، وابذر ما استطعت الى البذر سيلا .

وانى استميحكم عذرا يا أصدقائي أن أذهب الى الفراش ، فانى أشعر ببعض التعب . أما أنتم فكلوا واشربوا ، اليوم عيد فابتهجوا واضحكوا حتى يسفر الصباح . وانتن أيتها الصبايا وأنتم أيها الصبية الذين لم يسود شاربكم بعد - لكم جميعا أطيب التمنيات - أتمنى أن يأتى دوركم سريعا ، ونحتفل بزفافكم ، وليتني أعود من جديد كما كنت القديس جورج الفتى لأقدم لكم دمجانة النبيد .

وضحك الحضور . ورفع العمدة يده اليمنى محييا ، وأسرعت فتاة صغيرة تفتتح له الباب . وتوقف العمدة عند العتبة ، واستدار ناحية القسيس جريجوريس الذى كان يطوى رداءه الدينى ، وقال له :

- يا أبانا ، بعد أن تتناول لقمة اصعد الى الدور العلوى لنتحدث سويا .
ولكن القسيس نهض واقفا على الفور . وقال :

- سأتى معك يا عمدة . كان الله معكم يا أصدقائي

والتفت الى العروسين وقال :

- زواجا سعيدا يا طفلي .

وانصرف الشيخان، وتنفس الحضور الصعداء ، وأقبلوا على الطعام . ودخل الحجره زعيما القرية وأخطر رجالها شأنا ، وأغلقا الباب عليهما . ومن تحتها دارت رهوس المدعوين ، وتحول النبيد واللحم الى

غناء ورقص وضحكات عالية وزفرات شبقة . ولم يسمع الشيخان شيئا
وهما في الطابق العلوي ، فقد كانا غارقين لآذانهما في هموم خطيرة
تعذبهما .

تمدد الشيخ بطريار كاس فوق سريره وأطلق للسانه العنان حتى
أنه نسي نفسه . كان يتحدث عن الاشتراكيين كما صورهم له خياله ،
أنصاف آدميين ، أنصاف وحوش ، يتدفقون من الشمال ، وفي أقدامهم
نعال من حديد يقده منها الشرر حين تدق على الأرض فتشتعل النيران في
الترى . ويتصدر مانولى هذه الزمرة وقد تحول هو الآخر الى نصف وحش ،
وتتصاعد ألسنة اللهب من فيه ، ويشير بأصبعه الى ليكوفريسي .

وقال القسيس جريجوريس :

— ومعهم أيضا فوتيس ، هذا القسيس المارق طريد الكنيسة ، انه
معهم ، وهو زعيمهم .

— نعم القسيس فوتيس أيضا ، وكل عصابته من المهلهلين الذين
تجمعوا فوق ساراكنيا . انهم يتأهبون للانقضاء على قريتنا . كنت على
حق عندما قلت «انها ثورة الذنب ضد الرأس .» ولهذا السبب يا أبانا
أردت أن أراك ، لنتدارس الامر معا ، ونتبين أفضل السبل لوضع الامور
في نصابها .

كان القسيس جريجوريس ينصت له . وبين الفينة والفينة يتجدد
الغضب في صدره ، ولكن سرعان ما عادت أفكاره الى ماريوري ، وغامت
الدنيا أمام عينيه ، وملا الطنين أذنيه ، فبات لا يسمع شيئا من كلام
الشيخ .

وطال بهما الحديث حتى انتصف الليل ، وأضناها الارهاق ،
واكتفيا بما قيل ، وضاقا ببعضهما ونظر كل منهما الى الآخر في كراهية .
وقال القسيس جريجوريس في نفسه : « ليته يصاب في لسانه بقرح
يخرسه » . وقال بطريار كاس في نفسه : « ألن يرحل هذه الليلة ؟ هذا
الخنزير البدين سيزهق روحي » .

مرة أخرى تذكر القسيس جريجوريس ابنته ماريوري ، وعأوده
التفكير فيها . لقد تركها وحدها هنالك في العيادة ، داخل حجرة صغيرة
خائفة ، لها كوة تطل على فناء ضيق . وقال له الاطباء « يجب ان تبقى
هنا تحت الملاحظة فترة من الزمن ، وسنخبرك فيما بعد بالنتيجة .
وسرت رعدة في جسد القسيس التعس وسألهم : « هل حالتها خطيرة؟ » .
« ثمة خطر ، وثمة أمل أيضا يا أبانا ، وعلينا أن نتذرع بالصبر . الموت

والحياة يتصارعان في دم ابنتك ، وسنرى لمن الغلبة في هذا الصراع ،
وتضرع الأب : « أخبروني بالحقيقة كلها » . « أفضينا اليك بالحقيقة
يا أبانا . عد الينا بعد شهر » . وقال القسيس « سأصلي للرب . أبذلوا
جهدكم من جانبكم ، وسنبذل نحن من جانبنا كل ما نستطيع . وداعا ،
كان الله في عوننا . كانوا في عجلة من أمرهم ويريدون التخلص منه
سريعا ، حتى يتسنى لهم زيارة مرضى آخرين في انتظارهم .

وفجأة نهض القسيس ومد يده الى بطريار كاس . وتهد وقال :

– طاب مسأوك يا عمدة . سنعاود الحديث في كل هذا غدا .
– هل لن تبقى معنا قليلا يا أبانا ؟ لماذا العجلة ؟ معذرة . . نسيت
أن أسألك عن أخبار ماريورى . ماذا قال الاطباء ؟

– يبدو أنه ليس ثمة خطر . المسألة غير ذات بال ، وانما هي فتاة
كغيرها من الفتيات يصيبها التحول . ويرون أن من الخير لها أن تتزوج
سريعا .

ثم أراد أن يحول الموضوع وجهة أخرى فقال :

– وماذا عن ميشيل ؟ انى قلق عليه يا عمدة .

وأجاب الشيخ بادى الغضب :

– لا داعى للقلق ، فانه شاب صغير طائش وغدا يثوب الى رشده .
يجب أن نتخلص من مانولى أولا وبذلك تستقيم الامور . . طبت مساء ،
يا أبانا .

وبعد أن فرغ من كلماته استدار سريعا بوجهه ناحية الحائط .
وتناهى الى سمعه وقع أقدام القسيس وهو ينوء بثقله فوق الدرج .
وهمهم :

– يزعم هذا القسيس العجوز أنه قلق . وأنا أيضا قلق على ماريورى
أيها الشيخ . لو كان لا بد وأن يتزوج ابني بفتاة مصدورة تلوث نسلي
فالموت خير لها حتى نعيش في سلام . انى حزين عليها ، حزين على هـه
المسكينة ، والله على ما أقول شهيد ، ولكن خير لها أن تموت .

بينما كان أعيان ليكوفريسي يدبرون أمرهم للتخلص من مانولى ،
كان مانولى يجلس مع القسيس فوتيس ، يفكران معا في الشتاء المقبل ،
وعن وسيلة لانقاذ اللاجئين في سارا كينا من الموت جوعا وبردا هذا الشتاء .

قال القسيس فوتيس :

– العمل هو المنقذ الوحيد . العمل والمحبة .

وجمعا الرجال والنساء القادرين على العمل ، وقسامهم جماعات متفرقة - جماعات أخوية - وعينا لكل جماعة أخوية مسئولوا عنها يقودها، ويكون أكبر الاخوة أو أكبر الامهات سنا . وبعثا بهم الى القرى المجاورة للبحث عن عمل . وانتشروا فى الارض فى اتجاهات مختلفة ولم يخلفوا وراءهم فوق جبل ساراكيينا غير الشيوخ من الرجال والنساء لرعاية الاطفال .

ورافقهم القسيس فوتيس فى طريقهم بعض الوقت وعبر لهم عن تمنياته الطيبة بقوله :

- اعملوا يا اطفالى فى حراسة العناية الالهية . اعملوا واجمعوا كل ما تستطيعون ، فاكهة وزيتا ونبيدا وثيابا . ليكن وطننا الجديد فى ذاكرتكم دائما ولا تنسوه . انظروا الى النحل حين يترك خلاياه وينتشر فوق السهول والجبال يجمع الرحيق ، ألا يعود الى وطنه محملا بالرحيق لخلايا الشمع الصغيرة والنحل الرضيع ؟ كونوا مثل النحل يا اطفالى . اذهبوا وليكلكم الله بعنايته .

وكثيرا ما كان يصاحبهم مانولى ، ويخرج معهم الى العمل . يبت فيهام الشجاعة ويشد من أزرهم أثناء الطريق ، ويدلهم على القرى المحيطة، ويبين لهم أى الاشياء هم فى ميسس الحاجة اليها أكثر من غيرها ، وأى الابواب لهم أن يطرقوها . وبعد أن اطمان الى أن كلا منهم وجد عملا عاد الى ساراكيينا . وجمع الاطفال حوله هو والقسيس فوتيس واستخدما اللواح التى أعطاهما لهم حاجى نيكولا ناظر المدرسة ، وبدأ فى تعليمهم الحروف الهجائية .

وإذا جن الليل جلس الاثنان معا ، فوق الأريكة الحجرية بجوار الكنيسة يتجادبان أطراف الحديث . وذات مساء قال القسيس فوتيس :

- اسمع يامانولى ، ان الله موجود بكل كيانه فى كل شئ حتى فى اصفر حصة وأدنى الحيوانات وأكثر النفوس اظلاما . لنبذل كل ما فى وسعنا حتى نرى قرينتنا أو خليتتنا يشع ضوءها فى كل النواحي بالوجود القدسى . ولنكن نموذجا للجد والنجاح والاتحاد . لا تنس أن العمل الطيب حتى وان كان وسط صحراء قفر هائرة ، له صداه الذى يتردد فى كل أرحاء العالم .

ورفع مانولى عينيه ونظر الى القسيس فوتيس . خيل اليه كأن وجهه الضامر الجرىء نار متأججة وسط الظلام ، وكان يديه المرفوعتين الى السماء تلوحان لهيبا يتراقص .

وأجاب مانولى فى حمية :

- نعم ، كل انسان قادر وحده على أن يخلص العالم . كانت هذه
الفكرة تراودنى دائما يا أبانا ، وكنت أرتجف منها . هل نتحمل نحن هذه
المسئولية الكبرى ؟ ماذا يجب علينا أن نفعل اذن قبل أن نموت ؟ ما الذى
يجب أن نلتزم به ؟ وما هو طريق الخلاص ؟

وصمت . كان الظلام دامسا . أشعلت النساء النار ليعددن
الطعام . وجلس الأطفال القرفصاء من حولهن فى انتظار الطعام وقد
عضهم الجوع .

وضع مانولى يده فوق ركة القسيس فوتيس الذى غرق فى تأملاته
دون أن يجيب عليه .

وسأله هامسا :

- كيف لنا أن نحب الرب يا أبانا ؟

- بأن نحب الناس يا بنى .

- وكيف لنا أن نحب الناس ؟

- بأن نقودهم الى الصراط المستقيم .

- وما هو الصراط المستقيم ؟

- الطريق الصاعد .

أنت الذي قتلته .. أنت

فى اليوم التالى ، وبعد أن انتصف النهار تقريبا ، عاد الأغا من سميرنا . لم يكن وحده ، كان وراءه غلام تركى جديد ممتطيا صهوة مهر كستنائى . كان الغلام خبيث النظرات ، فظ الطباع فيه خلق الذكر الصغير . لم يكن يمضغ لبانا ، ولم يكن يغنى «العالم حلم» بل كان دائما جوعان عطشان ، ومن ثم تراه دائم الأكل والشراب . يصرخ ويسب ويتوعد ، ويتدل على الأغا ويأمره . والأغا العاشق المسكين يلتهمه بعينين نهمتين ، ويتجاوز عن كل نزواته . كان اسمه ابراهيم ويناديه تدليلا براهيماكى . يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، له شفتان مكتنزتان يخطهما زغب كثيف .

نقب الأغا الأرض بحثا عنه حتى اهتدى اليه فى ضاحية سيينة السمعة من ضواحي سميرنا . ترى كل بيت فيها يعلق فانوسا احمر عند الباب علامة عليه تميزه . كان الغلام يبيع بذور عباد الشمس بعد تحميصها ، وعوازل من المطاط يستخدمها الرجال لمنع الحمل ، وأسماكا مشوية ، وزهور ياسمين . يجمع كل هذا مختلطا ببعضه فى سلة واحدة ، ويعرض بضاعته على الناس . وترى الضاحية مع الغسق وقد باتت مزارا تفد اليها مواكب متتابعة من الرجال ، شبابا وشيوخا ، يفدون اليها من كل أرجاء المدينة بحثا عن لحظات يستمتعون فيها باللذة ، وينسون معها هموم يومهم . وتقف النسوة على عتبات بيوتهن مخضبات الوجوه بطريقة فاضحة ، أنصاف عراة ، وعلى شفاههن ابتسامة تستثير الشهوة . عندما

وقع نظر الأغا على براهيمياكى شغف به حبا ، فدنا منه ، وراوده عن نفسه ،
وساوم الغلام ، ثم اتفقا فى نهاية الأمر . واشترى الأغا للغلام مهرا
كستنائيا ، وحلة جديدة من فاخر الثياب ، وساعة فضية ذات سلسلة ،
وزجاجة مسك ، وكيسا به باقة من زهور القرنفل والقرفة . وأخذه بعد
ذلك الى الحمام حيث استحجم هناك ، ومزج ماء الحمام بزيت عطرى . ثم
اصطحبه الى حلاق ليقص له شعره ، ويعطره بماء اللافندر . وأخيرا أسلمه
الى يد واحد من أصدقائه القدامى ، وهو شيخ تركى يعمل (خوجه)
ليعلمه بعض الحيل .

وبهذه الطريقة حصل الأغا فى النهاية على براهيمياكى نظيفا معطرا
مدربا . واستقبلت مارثا المحظى الجديد بتأفف ، وحدثته بنظرة من
رأسه الى أخمص قدميه ، ثم ندت عنها ضحكة ساخرة فى شماتة . وحدثت
نفسها :

— ستكون نهايتك على يد هذا اللقيط يا آغا .

وتوسط الأغا الفناء وسألها وهو يترجل عن بغلته .

— ما الأخبار مارثا ؟ هل من وفيات أوزيجات ؟ ألا زال الشيخ
بطر ياركاس والقسيس جريجوريس على قيد الحياة ؟ ألم يتضارب
الروميون ؟ هل لم يبقأ كل منهم عين الآخر ؟ أخال أنتى غبت أعواما
طوالا .

والتفت الى براهيمياكى وقال :

— هذه هى الأم مارثا عبدتنا المخلصة . هى امرأة طيبة ، وربة بيت
ممتازة كتوم أمينة . . . تعييبها حديثها الصغيرة ولكنك ستألفها . . . افعل
بها ما تشأ ، اضربها ، اقتلها ، ضاجعها فهى لك .

وامتعض براهيمياكى ، ووضع يده فوق حذبة العجوز وأغرق فى
الضحك . ثم قال :

— ماذا عسأى أن أفعل بها ؟ انها ناقة وأنا أهديها اليك .

وتركهما ليتفقدا مسكنه الجديد .

وقال الأغا :

— لا تعيبنى بكلامه يا مارثا ، انه مهر صغير . لذلك ترينه يندفع
ويبيض ، ولكن اهدئى أنت واحتمليه . وأنا أيضا سأهدا معه وأحتمله .
صبرا يا مارثا ، صبرا غدا سيتعلم .

وعاد براهيمياكى الى الفناء . وسأل الأغا :

- ألا ترجد حسناوات فى قريرتكم هذه ؟ لا بد أن تدترهن يوما
للىرقص هنا حتى أراهن وأنتقى من بينهن من تروقنى .
وقفر الأغا وقال :

- اسمعنى : ولا كلمة من هذا . هل تفهم ما أقول ؟ كل من فى
هذه البلدة روميون . ولا أريد مشاكل . الزم مكانك .
وقال المهر الذى لا يعرف معنى الحياء وهو يضحك بصوت عال :
- بل هن اللائى يلزمن مكانهن فوق حجرى . أعدى المائدة أيتها
العجوز الحدياء فانى جائع ، وتنهد الأغا اذ تذكر حبيبه يوسوفاكى . كان
له قم ولكن لا يتكلم . تقول له غننا يا يوسوفاكى فيغنى . أشعل لى غليونى
فيشعله . . هيا الى الفراش فيذهب طائعا . . أما هذا فهو شيطان فى جلد
انسان ، ولكن ما العمل ؟ بيد أن هذا الحيوان له سحره وفتنته أيضا .
وقال :

- لك ما شئت يا براهيماكى . كل شىء سيكون معدا ، ولكن صببرا
قليلا . هيا يا مارثا اذبحى لنا دجاجة .

وبعد ساعة جلس الأغا ومهره الى المائدة وأكلا وشربا ما شاء لهما
من الطعام والشراب ، ثم دخلا الى حجرتهما وأغلقا عليهما الباب . ما الذى
حدث داخل الجدران الأربعة ، لا أحد يعرف ، ولكن مع المساء خرج الأغا
من حجرته راضيا ، منهك القوى ، منتفخ العينين . ونادى مارثا :

- اذهبى الى بطرياركاس وسلية أن يحضر ، فانى أريد أن أتحدث
ليه . اذ أن براهيماكى يصر على رؤية النساء وهن يرقصن أمامه ، وهل
نستطيع أن نرفض له طلبا ؟ هيا ضعى الخمار على وجهك واذهبى من
فورك .

ألفت مارثا بيت بطرياركاس مقلوبا رأسا على عقب . الكلاب تدخل
وتخرج من الباب المؤدى الى الفناء كأنها امتلكت البيت . وبضع خادما
يجمعن فضلات الطعام ، وينظفن الموائد ، ويكنسن . . . أما لينيو فقد
رحلت مع عريسها الى الجبل ليسكننا حظيرة مانولى . واليوم أصبحت
الكلمة فى البيت للأم ماندالينيا ، فهى التى ترقب الخادما وتصدر اليهن
أوامرها . وأمسكت بخرج تحشوه بكل ما تصل اليه يداها ، أحيانا تدس
فيه بعض الاشياء خفية ، وأحيانا جهرا وعلاوية . وبين الفينة والفينة
تصعد الدرج لتلقى نظرة على سيدها وتطمئن على حالته .

لقد ساءت حالة العمدة الشيخ منذ ذلك اليوم . استيقظ من نومه نصف مشلول ، عاجزا عن تحريك ذراعه أو ساقه اليمنى ، والتوى فمه . وظلت الأم ماندلينيا تكرر على سمعه قولها :

— لا شيء البتة ، لا شيء ، لا تقلق يا عمدة . سأدلك جسمك ، وبعدها يعود كل شيء كما كان . انها نزلة برد .

ولكن الشيخ كان يحملق في خمول وبلادة الى النافذة المقابلة للسريـر ، ولعابه يسيل من فيه .

ولم تكد عين الأم ماندلينيا تقع على مارثا المعجوز حتى خفت اليها تمنعها ، فهي لا تطيق رؤية الحدياء المعجوز .

ماذا تريدن يا مارثا ؟ هل ثمة شر جديد حل بالقرية ؟ هل عاد الأغا ؟ تكلمنى فانى لا أطيق صبرا .

— تريشى قليلا ، مابالك تسدين على الطريق أيتها العرافة القذرة . أريد مقابلة العمدة لأمر هام ، ولا مناص من ذلك .

— لن تريه ، وأنا أصدقك القول ، فلا داعى للالاحاح . لا يمكنك ذلك ، فقد ألم به مرض عضال وأصبح مشلولاً . بعث فى طلب ابنه ، يبدو أنه أصيب بضربة . استعصى عليه الكلام فبات يتلعثم ويريل دون انقطاع . لا يمكنك مقابله .

— دعينى أدخل حتى أراه بعينى أنا ، إبعدى عن طريقى . الأغا هو الذى أرسلنى .

— لا ، لن أدعك تدخلين .

— بل سأدخل رغما عنك .

وتضاربتا ، وهرع الخدم اليهما ، وباعدا بينهما . وتحايلت الحدياء حتى وصلت الى السلم وصعدت الدرج مندفة بأقصى سرعتها ، كأنها عنكبوت مزق عنه نسيجه . فتحت الباب ، ودلفت الى داخل الحجره . فتح العمدة الشيخ عينيه ورآها ، ولكن لم يبد حراكا . وقالت المعجوز :

— يا عمدة ، أنا مارثا . يبعث اليك الأغا بتحياته . يسألك أن تتفضل بالحضور اليه لمقابله . اذ يود أن يتحدث اليك فى موضوع ما . وهنا حرك الشيخ رأسه فى بظء وأناة . وتحركت شفتاه ، وغمغم بكلمات لا تبين ، ودنت منه مارثا ، بينما دخلت ماندلينيا فى تلك اللحظة نائرة غاضبة ، ودفعتها بعيدا عنه وانحنت فوق الشيخ :

– ماذا تقول يا عمدة ؟

وحرك الشيخ شفتيه ثانية ، وتلثم بكلمات مدغمة ، واستدارت ماندالينيا ، وقالت للعجوز الحدباء :

– يقول لك اذهبي الى الشيطان .

ولكن العجوز أصرت في عناد وقالت :

– ماذا أقول للأغا يا عمدة ؟

وتحركت شفتا العجوز ثانية ، ودنت منه الأم ماندالينيا للمرة الثانية ثم قالت :

– يقول ، له ليذهب هو الآخر الى الشيطان .

وهزت العجوز الحدباء رأسها ، ثم دنت من السرير ، ومالت برأسها فوق الشيخ المريض وهمست له قائلة :

– يا عمدة ، الإغا يعد العدة لكارثة ، هل تسمعي ؟ أتى بشيطان جديد من سميرنا سيشعل النار في بلدنا . هذا الوغد يطلب أن تحضر كل بنات القرية أمامه ويرقصن في الميدان تحت شجرة السنار ، حتى ينتقى من بينهن من يشاء . . . كان أجدرك بك أن تسقط مريضا في لحظة أخرى غير هذه يا عمدة .

وفتح الشيخ عينين واسعتين ، وتدافع الدم الى وجهه ، واستجمع كل قواه وقال :

– أبدا ، لا يمكن .

ثم سقط رأسه ثانية فوق الوسادة .

وصرخت الأم ماندالينيا :

– ستقضي عليه يا حدباء ، عليك اللعنة ، اذهبي الى الجحيم .

وأمسكت بمارثا من حذبها وألقت بها بعيدا .

وعادت الى السرير . وبدأت تدلك جسد الشيخ بزيت الكافور . وخفف هذا بعض أوجاعه وفتح عينيه .

وخرجت من فيه كلمات متلعثمة في صعوبة ومشقة :

– ارسلني من يستدعي القسيس جريجوريس .

ثم أغمض عينيه ثانية .

في هذه اللحظة انفتح الباب ودخل ميشيل .

وصاح في المرأة العجوز وهو يقترب من السرير :

– أبعدى .

وجمعت العجوز عقاقيرها واختفت .

وقف ميشيل جامدا يحملق فى أبيه وإلدموع تفيض من عينيه .
تورم وجه الشيخ ، وامتعق لونه ، وتهدلت لحيته وسقطت فوق رقبته .
وتدلى الجانب الأيمن من فمه .

فتح الشيخ عينيه وابتسم عندما رأى ابنه أمامه . ومد إليه يده
اليسرى وتمتم قائلا :
- ها أنت

ومال عليه ميشيل وقبل اليد الممدودة إليه . وتعلقت عينا الشيخ
بإبنة ينظر إليه نظرة عميقة يائسة كأنه يستودعه .
ثم بسط إليه يده ثانية وتمتم قائلا :
- وداعا فانى راحل .

واستجمع كل قواه محاولا التحدث إليه بكلمات واضحة قدر
الاستطاعة :

- يا بنى ، انى راحل عن هذا العالم . سأترك المائدة . ها أنذا أرفع
فوطتى بعد أن انفضت الوليمة . . ان كنت قد أغلظت لك القول مرة فانى
أسالك الصفح والمغفرة . فانا أب لك وأحبك . والحب يعمى الانسان
فيقتسو حيناً على من يحب . أطلب منك شيئاً واحداً فقط .
- قل يا أبت ما هو .
- ماريورى
وصمت ولم يتكلم . وتصيب العرق فوق جبينه . ومال عليه الابن،
ومسح وجهه بمنديله .

- ماريورى - اسمعنى = مصابة بداء وبيل . لا تتخذها زوجة
لك ، فانها ستلوث دمنا .
هل تسمعنى ؟

- أسمعك يا أبت .

- هل ستفعل ما أطلبه منك ؟

لزم ميشيل الصمت .

هذا هو الصنيع الوحيد الذى أطلبه منك . هل تقرنى على ذلك؟ قل
نعم حتى ألقى الموت هادئ البال .

ومضت لحظات والشيخ ينظر الى ابنه فى وجل .
وأخيراً تمتم ميشيل :

— نعم ..

وأغمض الشيخ عينيه وقال هامسا :

— هذا كل ما أريده منك ، ولا شيء أكثر من ذلك .

وذهب ميشيل الى الشباك ، وأطل منه . كان الليل يرخى سدوله ، وبدأ الفلاحون يعودون ادراجهم من بساتين الكرم وقد أضناهم التعب . ومرت فتاتان تتجاذبان أطراف الحديث ، تحملان جرتين فوق كتفیهما . واجتاز الشيخ لاداس الطريق ، مقوس الظهر ، حافي القدمين ، مخضب اليدين بعصير العنب .. اذ كان يقطف العنب في كرمته .

وتلملح الشيخ فوق سريره وتنهّد . واستدار ميشيل ناحيته . وأشار اليه أبوه أن يدنو منه . وقال :

— لا تنصرف . انتظر .

— لن أنصرف . نم يا أبت ..

وتناهى الى سمعه على البعد صوت فتاة تغنى بالقرب من بشر القديس بازل . كانت تغنى حبها بموال فيه أنين وشجن ، تنفس به عن حزن عميق ، كأنها أول من عرف الهوى ، وأول من ذاق طعم العناق وما فيه من راحة للنفس . وفكر ميشيل في خطيبته . وأحس برغبة فى أن ينفس هو الآخر عن نفسه ويبيث أشجاناه فى صيحة عالية تلتقى على البعد بنوح الفتاة .

وفجأة لمح القسيس جريجوريس بلحيتته البيضاء عند مدخل الفناء . اتجه ميشيل صوب الباب وهو يمشى على أطراف أصابعه ، وفتح الباب فى هدوء حذرا أن يوقظ أباه ، وانتظر عند أول الدرج . وأخيرا وصل القسيس ، يمشى بخطوات متهادية وقور . وسأله ميشيل فى قلق :

— ماذا قال الأطباء يا أبانا ؟

— ليس بها داء يابنى . بعد شهر تعود سليمة كآلة الكمان .

ورمق بعينه داخل الباب المفتوح .

— يبدو أن العمدة مريضا . فقد بعث فى طلبى .

— يبدو أن حالته سيئة يا أبانا .. أدخل .. خفف الوطاء حتى

لا توقظه .

لم يكن العمدة الشيخ نائما . فتح عينيه عند سماعه همسا يدور
بالقرب منه . وتمتم قائلا :

— مرحبا بك يا أبانا .

ماذا دهالك يا عمدة ؟ أمل الا يكون شيئا ذابال . تشجع .

— لا شيء يا أبانا . حم القضاء . اجلس ، أود أن أتحدث اليك .

اقترب يا ميشيل .

وبدا يتحدث اليهما بكلمات مدغمة متلعثمة شوهاء . قص عليهما
دعوة الأغاله وأن يوسف اكي الجديد يريد كل بنات القرية ليرقصن أمامه
حتى ينتقى من بينهن من تحلو له .

وهب القسيس واقفا وصاح فى حدة :

— أبدا مستحيل ، الموت خير لهن من هذا .

وقال الرجل الذى اشرف على الموت :

— افعل ما يمليه عليك واجبك . أما أنا فلن أكون معكم بعد الآن .

سيحتل ميشيل مكانى . وأغمض عينيه خائر القوى ، ثم أمسك بيد
جريجوريس وقال له :

— تعال الليلة لتقدم لى التناول .

وسار القسيس جريجوريس ناحية الباب وتبعه ميشيل .

— لا تترك أباك يا ميشيل ، فان حالته سيئة للغاية . لعل الله

أن يكلاه بعنايته .

وتفكر لحظة ثم قال :

— أما الأغا ، فانى سأذهب اليه فورا ، سأتحدث اليه فى ذلك

الموضوع . نسأل الله أن يقينا شر هذا العار .

وعاد ميشيل وجلس الى جانب أبيه الشيخ . سهر الى جواره

طوال الليل ، عيناه مثبتتان على الوجه المريض الشاحب ، والشفتين

الملتويتين ، والوجنتين المتهدلتين ، والشعر الأشيب الذى بلله العرق .

وقال فى نفسه :

— كان هذا الرجل أبى . . كان العمدة بطرياركاس صاحب الحول

والطول ، وكان فى شبابه رشيقا مثلما كان القديس جورج . تخاله

فارسا على صهوة جواده ، حتى وان كان يمشى على قدميه . ذاق اطيب

انواع اللحوم ، وشرب أجود أنواع النبيذ ، وضاجع نساء ذوات حسب

ونسب ، كما ضاجع خادمتين وراهبتين ورئيسة دير . وملا بيوت
الآخرين بأبناء السفاح ..

مضت الساعات تباعا ، والقرية تغط في نومها . وعاد القسيس ،
واعترف العمدة الشيخ ، ومنحه القسيس القفران ، وقدم له تناول ،
وانصرف وترك ميشيل وحده مرة أخرى في رفقة الجسد الهامد الذي
كان أباه يوما ما . قضى ميشيل ليلته مسهدا . وما أن تنفس الصباح
حتى نبح كلب أحد الجيران . ونهض ميشيل واتجه ناحية الشباك .
بدأت السماء تصطبغ بلون وردى ، ولكن لا زال الناس والأشجار والطيور
والماء يلفهم النعاس . كان كل شيء هادئا تماما عدا ذلك الكلب انذى
كان ينبح في جزع .

وسمع الشيخ بطرياركاس نباحه وفتح عينيه . وكان كبير-الملائكة
يرف بجناحيه السوداوين فوق سريره . وندت عنه آهة أسلم بعدها
الروح .

وانفتح الباب ، وظهر القسيس جريجوريس عند عتبة . دنا من
السرير ، ووضع يده على قلب العمدة الشيخ ، كان قد توقف عن
الخفقان . واستدار ناحية ميشيل ، ونظر اليه في عبوس وشراسة .

وصاح بصوت مخنوق :

- أنت الذى قتلته .. أنت .

وهب ميشيل مذعورا ، ونظر الى عينى القسيس ، وحاول ان
يفتح فمه ولكنه لم يستطع .

انهار عماد من عمد ليكوفريسي . ولم يكد الخبر ينتشر ويطلق
الأبواب الواحد بعد الآخر حتى اهتزت له القرية ، « مات العمدة
الشيخ » . حتى لأغا نفسه الذى استيقظ توا من نومه ، وجلس فى
شرفته بعينين نصف مغمضتين يستعيد كل ما رآه وما فعله فى أحلامه
تلك الليلة ، لم يكد يستمع الخبر حتى نظر فى حيرة وارتباك الى مارثا
العجوز وهى تنعى اليه النبا . وقال :

- هل مات ؟ مات دون رجعة ؟ هل انهار البرج ؟ ستصبح القرية
كسيحة من بعده . لا بد انى كنت غارقا فى نومى حتى أننى لم أسمع
جلبة والعماد ينهار .

وعادت المرأة العجوز تؤكد له .

— كانت كلاب القرية تنبح طوال الليل يا أغا وعرفت حينذاك ما حدث . قلت لنفسي لا بد أن كبير الملائكة نزل الى القرية ليختطف روحا كبيرة . راته الكلاب وفزعته منه .
وقال الأغا وهو يرتشف قهوته :

— كان رجلا هماما ، من النوع الذى يدخل الجنة . كان يحب الحياة الرغدة الممتعة . عرف كيف يعربد ويتخذ المحظيات . . . لهفى عليه أن لم يكن مسلما حتى كان يدخل جنتنا حيث أنهار الخمر والولدان المخلدون والحدور العين . هذا هو خير مكان لك يا عزيزى بطرياركاس المسكين ، ولكن سبق السيف العدل وفات الأوان .
وظهر براهيمامى ، أشعت الشعر ، مثقل العينين من أثر النعاس ، عارى الصدر ، مطبوع فوق رقبتة خال جميل يشد الأنظار . وشردت أفكار الأغا ، وبسط يده النهمة ، يداعب بها الشعر الأسود المموج والعنق الدافئ ، وتهادت راحته فوق الخال الجميل وأحس كأنه دخل الجنة .
وامسك الغلام الشرس بيد الأغا ، وطوح بها بعيدا فى غضب وسأله :
متى سترقص النساء ؟

— لا تكن عجولا هكذا ، أرجوك . سأفعل كل ما يروق لك ، ولكننى لا أريد أن أثير ثائرة القرية ضدى . . . زارنى مساء أمس قسيسهم وقال لى : « أعفنا يا أغا من هذا العار ، والا فانك ستثير عاصفة هوجاء . صبرا قليلا سنجد مخرجا لذلك . . . لهذا أسألك الصبر يا حبيبى براهيمامى وثق أنه سيأتى العيد الذى يرقصن فيه جميعهن بمحض ارادتهن ، ودون اكراه . . . ووقتئذ ستراهن .

ولكنه أحس بالحماسة وهو يتكلم ، وصرخ بصوت غاضب :
— ولكن عليك أن تعلم قبل هذا كله أننى لم آت بك الى هنا لازوجك .

فى هذه الأثناء فتحت بوابة بيت بطرياركاس على مصراعها ، ووضع الميت وسط الفناء . وتوافد أهل القرية جميعا ليودعوا الجثمان الوداع الأخير . نسوا كل سيئاته ، ولم يذكروا غير حسناته ، فترى أهل القرية لا يملون اطراء فضائل المتوفى وتعيد مناقبه . حتى بانايوتى جاء ليقبله قبلة الوداع ، ولم يستطع أن يحبس دمعة ترقرت فى مآقيه . ووضع شفثيه الغليظتين فوق الجبين البارد وتمتم قائلا :

— اغفر لي وليغفر الله لك .

وحضر الشيخ لاداس كذلك ، وقبله بدوره ، ثم ألقى نظرة فاحصة الى منزل العمدة . وطافت بخاطره وسط هذا الموكب الجنائزي المهيب . بساتين الكرم ومزارع الزيتون والحدائق التي كان يمتلكها المتوفى ، وتنهد : « انى أشفق على كل هذه الثروة !! سيبددها ميشيل سريعا ، لا بد ان افتح عيني . . لا أخشى احدا غير القسيس .

وأرادت الأم ماندلينيا ان تولول وتندب الميت ، فنزعت عنها وشاحها وطوحت به وحلت شعرها وأصبح مهوشا . ولكن ميشيل دفعها جانبا وقال لها :

— لا أريد صراخا وعويلا . أسكتي .

ووقف ناظر المدرسة امام القبر المفتوح ، وألقى خطبة عصماء . عاد في حديثه الى اليونان القديمة ، وذكر قادتها من امثال ميلتياداس وثيميستوكليس ، وتحدث عن الحروب مع الفرس ، ثم انتقل الى الحديث عن الاسكندر الأكبر والمسيح . وسرد تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وأسهب فى الحديث عن القديسة صوفى . وتأجج حماسة وتصيب عرقا عندما أتى ذكر القسطنطينية واستيلاء الأتراك عليها . وهنا لم يستطع ان يخفى عبراته ونشيجه . . واستبدت الحماسة بالحاضرين عندما رأوه يبكى ويصيح فى انفعال شديد :

« مرة أخرى ، ومهما طال المدى ستعود القسطنطينية الينا من جديد ، وسنحتفل بتقديم القداس فى سانت صوفيا (١) . والتقط نفسا عميقا ، وجفف عرقه ثم واصل حديثه سريعا عبر سنوات العبودية وتوقف عند الثورة الوطنية عام ١٨٢١ (٢) ثم قفز قفزة جريئة واحدة وصلت به الى القبر المفتوح تحت قدميه ، ورأى فيه العمدة بطرياركاس .

أضنته رحلته الطويلة عبر القرون ، فتوقف لحظة يلتقط أنفاسه ويمسح نظارته التي أغبشت بعد أن خالطها العرق . ثم استجمع قواه ، وبدأ تأبينه للميت :

لن ننسى جورج بطرياركاس المأسوف عليه . فقد كان ممثلا أصيلا لسلالة اليونان القدامى ، وحفيدا أصيلا للامبراطورية البيزنطية العظمى،

(١) مقطع من اغنية شعبية يونانية . (عن الترجمة الفرنسية) .

(٢) بداية حرب التحرير اليونانية . (عن الترجمة الانجليزية) .

وابنا أصيلا لأبطال ثورة ١٨٢١ . حافظ هذا العمدة النبيل ، باصرار وعزم لا يلين . على رسالة الجنس الهيليني التي هي نضال للانسان من أجل الحرية !! .

كان في ساعة الخطر أول من يعرض صدره له للملاقاة ، متأهباً دائماً ليجود بحياته . كان جورج بطرياركاس مثله كمثل الاسكندر الأكبر ، حافظ على شعلة اليونان وضاعة موقدة دائماً أبداً في هذه القرية الواقعة في قلب آسيا ، ولم يسمح للبرابرة ان يطفنوا نور اليونان ان موت جورج بطرياركاس خسارة قومية لا تعوض لو لم يترك وراءه خليفة له ، ابنا جديراً باسمه هو ميشيل . فانه سيواصل بدوره التراث البطولي الذي استنه أبوه المجيد .

وصدق الحضور كل ما قاله ناظر المدرسة . عرفوا لأول مرة انهم خسروا بطلا مغواراً فبدأوا يبكونه . . وأمسك ياناكوس وقسطندي بذراعي ميشيل وسارا به بعيداً عن القبر الذي وقف أمامه جامداً يرقب الكفن وهم ينزلون به تحت الأرض . لم يكن يفكر الا في شيء واحد . . كلمة القسيس : « أنت الذي قتلته . . أنت » سارا به بعيداً ، ثم بدأوا ثلاثتهم طريقهم عائدين في صمت .

عادوا الى البيت الكبير وقد أصبح فارغاً . وأغلقوا الباب خلفهم ، وتوسط ميشيل الفناء ، وتهاوى الى الأرض ، حيث كانت جثة ابيه مسجاةً هذا الصباح . مال برأسه وقبل الأرض . وفجأة هب واقفاً ، باسطاً ذراعيه على امتدادهما كأنه يتهياً للرقص . أحس في أغوار نفسه بنشوة غير انسانية غامرة . حقاً انه يملك بين جوانحه قلباً انسانياً ملاء الحب لأبيه كما ملاء الأسي على وفاته . وله عينان فأصتا بالدمع حزناً عليه ، ولكنه مع هذا أحس في أعماقه بفرحة لا انسانية وبالخلاص . ونادى مانداينيا :

— اعملي لنا قهوة ، وأحضري لنا بعض النبيذ ، واذبحي الديك الأبيض ، وأعدى لنا الطعام . أسرعى .

ونظر اليه أصدقاؤه في دهشة ممزوجة بالقلق . عيناه مغرورتان بالدموع ، ولكن صوته صاف طروب . بدأ يذرع البيت هنا وهناك ، وكأنه يراه لأول مرة ، يدخل خزائن المون ، يكشف أغطية الجرار ويقرع البراميل ليرى ان كانت مليئة أم لا ، وفتح خزائن المسال . . ثم عاد وجلس الى المائدة التي أعدت ، وجلس ياناكوس عن يمينه وقسطندي عن يساره ، وصب النبيذ في الأقداح ، ورفع كأسه وقال :

— كل هذا الكلام الذى تفوه به ناظر المدرسة عن أبى هناك وسط المقابر هو محض هراء . لم يكن أبى بطلا ، ولم يحدث أبدا أن عرض صدره للملاقة الأخطار . ولم يتخذ فى حياته قرارا فيه شهامة وجرأة . كان حقا صديقا لطيف المعشر ، يحب حياته الوادعة ، ويفزع من الموت ، هذا كل شيء . ليحفظ الله روحه .

« أما حديث ناظر المدرسة عن سلالة اليونان فهو عين الحق . فكل يونانى فى هذا العالم حتى الوضيع منهم والامى ، هو سيد كبير فى هذا العالم دون أن يعلم ذلك ، اذ أنه يحمل على كاهله مسئولية كبرى . ان أى يونانى لا يتخذ فى حياته ، ولو لمرة واحدة ، قرارا بطوليا فإنه يخون تقاليد جنسه وبينما كان يتحدث هذا الدعى الملقب بناظر المدرسة فزعت حين رأيت اننى بصدد أن أشق نفس الطريق الذى سلكه أبى ، الطريق السهل اللين المريح ، وفجأة أحسست بالحجل من ذلك . وأمام قبر أبى أقسمت لنفسى أن أشق الطريق الوعر النبيل ، الطريق الذى سلكته سلالتنا منذ آلاف السنين

كان ياناكوس يستمع بانفعال لكلمات صديقه وسأله :

— أى طريق هذا ؟ أى طريق تعنى يا ميشيل ؟

— الطريق الصاعد . ولهذا السبب أسألكم أن تقدموا الى جميلا يا أصدقائى ورفاقى . بعد أن يجن الليل نذهب معا الى ساراكيثا لنقابل مانولى والقسيس فوتيس . قضيت الليل كله أرقب أبى وهو يعانى سكرات الموت ، وأقلب فى تردد فكرة فى رأسى دون أن أحسم أمرى . بيد أننى اتخذت قرارا حاسما وقتما كنت أمام القبر . سأفصح لكم عنه عندما يلتئم شملنا نحن الخمسة هذا المساء . أسألكم العون يا اخوتى .
وأعلن الصديقان :

— نحن معك حتى الموت يا ميشيل .

وشربا فى صحته ، وأقبلوا على طعامهم فى غير شهية .

مال ميزان النهار ، وجلس القسيس فوتيس ومانولى أمام الكهف يتجاذبان فى هدوء ودعة أطراف الحديث . عادا لتوهما من جولتهما فى القرى المجاورة حيث قضيا نهارهما فى مساعدة رفاقهم بحثا عن عمل . قاما برحلتها مشيا على الأقدام ، وأرهقهما التراب والقيظ . والتنقيا أثناء عودتهما بالشيخ كريستوفيس وعلمنا منه نبأ وفاة الشيخ بطرياركاس ، وأنه وورى التراب .

وقال كريستوفيس المكارى بسخريته المهدودة :

- أسفى على هذه الآلة التى كانت تخرج الروث واللقطاء اذ تتوقف
الآن عن العمل . كم من الأرامل خلفهن وراءه فى قريتنا واقرى المجاورة .
أطال الله عمرنا .

- متى حدث هذا ؟ وكيف مات يا شيخ كريستوفيس ؟

- يقولون انه أكل خنزيرين رضيعين عشية وفاته ، أثناء زفاف
ابنته . ويبدو أنه أراد أن يلتهم معهما ديكا روميا محشوا ولكن شلت
يده اليمنى ، وحملوه الى سريريه ، ووجدوه فى الصباح جثة هامدة .
ألقي ناظر المدرسة خطبة عصماء عدد فيها مناقبة . واكننى أقسم أننى لم
أفهم كلمة واحدة مما قال . وبكىت لا لشيء الا لكى أبكى مع الباكين .
وبعد ذلك أخذت حفنة من التراب حثوتها فوق كرشه . وكانت هذه
هى آخر قضمة يأكلها من الخنزير الرضيع . أسأل الله العلى القدير أن
يكلاً كرشه بعنايته .

وما أن فرغ من كلامه حتى انطلق فى طريقه . وبعد قليل وردت
فكرة الى خاطره أضحكته وصاح :

- سمعت يا أبانا فوتيس أن باب الفردوس ضيق جدا ، ويبدو أن
البدین لا ينفذ منه . ولكن أحسب أن ثلاثتنا سينفذون منه دون جدال
يحيا الفقر .

وقال القسيس فوتيس لمانولى :

- الأب كريستوفيس له طريقة لاذعة فى عرض الأشياء . لاذعة
ولكنها صادقة فى نفس الوقت . نعم ، عسير على الغنى أن ينعم بالخلاص .
لا يكفى الانسان أن يكون حلو السمائل ، لطيف المعشر . بينما يعرف أن
هناك جوعى ولا يقسم معهم ثروته - قد يغمض عينيه ، وتسلبه عاداته
السيئة كل مظاهر الشجاعة . . . لم يبق علينا الآن الا أن نرى ميشيل
ماذا هو فاعل الآن . هذا ما أنتظره لأرى .

وقال مانولى :

- انى واثق منه .

- لعل الله يسمع نداءك ، ولكننى رأيت كثيرين فى حياتى . . .
وقبل أن يتم حديثه رأى الأصدقاء الثلاثة أمام الكهف . ونهض
القسيس ومانولى . وقالا لميشيل :

- لك منا العزاء يا ميشيل . حفظ الله روحه وأطال عمره .

وجلس الأصدقاء الخمسة ولفهم صمت طويل . وأخيرا تكلم
ميشيل :

- يا أبانا ، يا اخوتي ، بكيت أبى الشيخ ، فقد كنت بعض لحمه
ودمه . فجعت فى وفاته ، بيد أننى فى نفس الوقت ، وليفقر الرب لى ،
أحسست أننى أصبحت طليقسا ، كأنما انزاح عنى ثقل كبير كان يجثم
فوقى . وبدأت أحس منذ اليوم أننى !نا ، وأنا وحدى ، المستول عن كل
أعمالى . وأمامى طريقان : طريق سلكه أبى وكان يشدنى اليه ، وطريق
آخر شاق وعر يشدنى اليه المسيح . . . فأى الطريقين أختار ؟ وحسنت
رأبى هذا الصباح وأنا واقف أمام القبر . وأسألك يا أبانا ، وأنتم
يا رفاقى ، أن تساعدونى على الوفاء به .
وصمت ، وأسند راحته الى ركبة القسيس فوتيس وكأنه- يقول له
« عونك » .

أمسك القسيس فوتيس بيد ميشيل ، واحتضنها بين راحتيه
النحيلتين . وقال :

- نحن معك يا ولدى فى هذه الساعة العصيبة . تكلم وكن واثقا
بنا .

- ورت أبى عن أبيه ، وورث هذا عن أجداده ضياعا واسعة وأشجارا
كثيرة . تمتعوا جميعا بهذه الثروة ما شاء لهم ذلك . وكانوا بين الحين
والآخر يلقون ببعض الفتات للمساكين ثم يموتون وهم راضون بما
فعلوا لأنهم أدوا واجبهم على خير وجه ، أو هكذا كانوا يظنون . وأنا
أيضا كنت أظن ذلك . . . حتى أتت اللحظة الموقوتة ، والفضل فى ذلك
لما نولى ولك يا أبانا فوتيس ، وكشف الرب الغشاوة عن عيني ، وأبصرت
كل شىء . أنار الله قلبى ، ولهذا بت أعانى . . . واتخذت قرارى اليوم :
سأوزع كل ما أملكه على المساكين . لن أبقى حتى على الفتات الذى كان
أجدادى يلقون به لمن يتضورون جوعا . سأقدمه كله لمجتمعكم ، الى
ساراكيئا ، فهل تقبل يا أبانا ؟

كان الجميع ينصتون له ورددوا مطرقة . ولم يرفع أحدهم رأسه
بعد أن فرغ ميشيل من حديثه . ران عليهم صمت طويل وسط حلقة
الليل . وفجأة تردد صوت نشيج مكتوم صادر عن القسيس فوتيس .
ولم يتمالك ياناكوس نفسه . فاندفع ناحية ميشيل وضمه الى صدره
بقوة وحرارة . وحاول أن يقول شيئا ولكن عجز لسانه عن الكلام ،
واختنقت الكلمات فى حلقه ، واذا به يضحك ويرقص . وأخيرا استطاع
أن يلفظ بضع كلمات :

– وأنا أيضا أهب حمارى لمجتمع ساراكيينا • لا أملك شيئا غيره
من حطام الدنيا • فخذها يا أبانا •
ونهض القسيس فوتيس ، ووضع راحتيه فوق رأس ميشيل
المنكس •

وقال :

– يا بنى ، أكرهتني الحياة على أن أتجرع الكثير من الكئوس
المرّة ، ولكنك أنسيتهنى كل هذا ، جازاك الله يا ميشيل عن هذا خير
الجزء فى الدنيا والآخرة • انك بصنيعك هذا أنقذت آلاف الأرواح من
الموت والعار • أنقذت هؤلاء اللاجئيين وأطفالهم وذريتهم من بعدهم •
بوركت يا ميشيل •

وأخفى مانولى رأسه بين يديه ، وانخرط فى نحيب • لم يشعر
فى حياته بمثل ما يشعر به اليوم من فرحة غامرة ، حتى يوم أن خرج
من بيت الأغا ورأى شجرة السنار التى سيشتق فوقها ••• فرح لأنه
رأى أن كلمة الله فى النهاية هى العليا ، لها القوة والسلطان على كل
طيبات الحياة الدنيا • ما أيسر على الانسان المعدم أن يضحي بهذا العدم
أمام الرب ، ولكن ما أشق على الانسان الذى يملك الثروة والجاه أن
يضحي بكل ما يملك • وها هو ميشيل يضحي بكل ما يملك • وأحس
ما نولى بالفرحة والتأثر يغلبانه ، فظل مكانه جالسا مطرقا برأسه عاجزا
عن الكلام ••• وفجأة شب واقفا وعانق ميشيل وقبله ، وانخرط
فى البكاء •

وكان قسطندى ينظر ويسمع منقبض الفؤاد • وقال لنفسه :

– لم أقدم شيئا ، ولم أفعل شيئا ، لم أتخل عن أى شيء باسم محبة
المسيح • حتى أطفالى وزوجتى ، لا شيء ، لا شيء البتة •••

وكان ميشيل يرقب فى صمت القمر الذى يلين الجبل تحت أشعته
يرتقى كبد السماء ، هادئا مبتسما ، يسكب رحيقه المسكر فوق ساراكيينا •
كان الليل ساجيا وديعا ذلك المساء ، والقمر يسير الهوينى متهادبا
الرقاقة • وأحس بانقباضة فى قلبه ، وحدث نفسه قائلا :

– لست أهلا لشيء ، لا أستحق شيئا أبدا • ان ما أقدمت عليه لم
يكن عن جود وسخاء ، وانما عن خوف • أخشى أن أكون أنا الذى قتلت
أبى بسبب خطأ اقترفته • ثمة خطيئة كبرى تجثم على صدرى وتثير فى
نفس الهلع • وهأنذا أتخلى عن كل شيء ابتغاء سكينته النفس ، حتى

أنسى وأنام ، واطرد تلك الكلمات المفزعة : « أنت الذى قتلته أنت » .

وفى اليوم التالى ذاع الخبر بين أهل القرية ، وكان لوقعه دوى القنبلة « سيتنازل ميشيل عن كل ثروته للاجئين المهلهلين سكان جبل ساراكيينا » ولم يكده الخبر يبلغ أذان القسيس جريجوريس حتى هرع الى الشارع منتعلا خفين باليين ، أشعث الشعر بغير حزام حول خصره أو قبعة على رأسه . خف للملاقة ميشيل فى بيت أبيه .

ألقى الباب مفتوحا ، فاندفع مهرولا فوق الدرج . وفاجأ ميشيل وهو منهمك فى الكتابة بجوار النافذة . كان يكتب الى ماريورى ، وها هو يقضى فترة طويلة مع عبارة استعصت عليه لا يدرى كيف يصوغها لها ، يود أن يقول لها انه يحبها حقا ، مولع بها ، ولكنه فى ذات الوقت مضطر الى أن يهجرها . حاول ذلك مرات عديدة ، ولكن الكلمات التى يخطها قلمه تبدو له وكأنها كلمات قاسية لا تليق . انه عاجز عن أن يصوغ عبارة واحدة تعبر فى ذات الوقت عن حلاوة الحب ومرارة الانفصال . « دائما ، و « أبدا » كلمتان متمايزتان تماما ، وما يبحث عنه ميشيل هو كلمة واحدة تعبر عن هاتين الهوتين المهولتين : لوعة الحب وجحيم الفراق فى قلب الانسان .

فى هذه اللحظة انقض عليه القسيس جريجوريس بردائه الكهنوتى كأنه اعصار هائج .

وصاح فيه وقد تقطعت به الأنفاس :

— ما هذه المصيبة الجديدة التى أسمع عنها يا ميشيل ؟ يشاع أنك ستتنازل عن كل أملاكك لهؤلاء المهلهلين المعدمين الذين يسكنون جبل ساراكيينا . انها جريمة ، هل تسمع ما أقول ؟ يا للعار .
مزق ميشيل الرسالة التى كان يكتبها . وحملق بعينيه فى القسيس الغاضب دون أن يجيب .

— ألا تحترم ذكرى أبيك على الأقل ؟ ألا يكفيك أنك قتلته ، وها أنت تقطعه اربا اربا وتجود به على هؤلاء الحفاة العراة الفاسقين . ألا تخشى الله ؟

— ولكننى يا أبانا أفعل ما أفعل لأننى أخشى الله . يقول يسوع المسيح : « ماذا ينفعك أن تحفظ الوصايا كلها ؟ فهذا وحده لا يكفي . ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز

فى السماء وتعال اتبعنى . . . وفعلت يا أبانا ما أمرنى به يسوع المسيح .
فلماذا تلومنى على ذلك ؟

استبد الغضب بالقسيس جريجوريس ، وأخذ يذرع الحجرة جيئة
وذهابا كأنه وحش كاسر ، ويعض أصابعه من الغيظ .

— لماذا لا تجيب يا أبانا ؟ ألم أفعل ما أمرنى به المسيح ؟ نعم أم لا ؟
. . . نعم أم لا ؟ أجبنى .

— انك بأفعالك هذه تقوض أركان المجتمع . هذا كل ما أعرفه .
اليك خاتم ابنتى ، هذا هو جوابى . لن أقبل هذا الزواج بعد الآن . لن
يمضى وقت طويل حتى أراك هائما على وجهك فى الطرقات ، حاملا زكبية
على ظهرك تسأل الناس الصدقات .
وأجاب ميشيل فى هدوء :

— وما قيمة هذا كله ان كنت سأفوز بمملكة السماء ؟ ما قيمة هذه
الحياة يا أبانا ؟

— أنت مجنون . لم تعد تعنى ما تقول .

— لا ، بل أنا مسيحي يا أبانا ، هذا كل ما فى الأمر .

— سأحرمك من الكنيسة أنت ومانولى . كلاكما خائنان . نعم أنتما
خائنان ، وان شئت الحقيقة ثلاثكم ، أنتما وهذا الوغد القسيس فوتيس .
نعم ، نعم ، دعك من نظراتك هذه ، فأنا أعرف سركم .
وقال ميشيل دهشا :

— سرنا ؟ أى سر تعنى ؟

— أنتم عملاء ، تتلقون أوامركم من بلد أجنبى للقساوسة على الدين
والوطن والعائلة والملكية ، العمدة الأربعة التى يقوم عليها العالم . ومانولى
عليه اللعنة هو قائدكم . وأتى القسيس فوتيس من الطرف الآخر للعالم
لينفذ أوامر سادته ويزعم أنه يحمل انجيلا جديدا .

وقال ميشيل معترضا :

— كأنك تقول ان المسيح اشتراكى .

— أى مسيح ؟ المسيح الذى صـنـعتموه من نسج خيالكم يا قاطعوا
الطريق !! ليس هذا بمسيح انه عدو المسيح .

لم يعد ميشيل قادرا على أن يمسك بزمام نفسه . هب واقفا على
قدميه وقال :

— أنتم الذين غيرتم المسيح وصورتموه حسب هواكم أيها القساوسة

والأساقفة والأعيان • صنعتم مسيحا على شاكلة الشيخ لاداس ، مراثيا
آكلا للسحت ، كدوبا ، جبانا ، مراييا ، تمتلئ خزائنه بالجنيهات الذهبية
المركية والانجليزية ٠٠٠ مسيحكم جعلتم منه شريكا فى الجريمة مع كل
قوى البطش على ظهر الارض ليبقى على لحمه وماله •

وزار القسيس ، وتناثر اللعاب من فمه على الجدار :

– ترى هل تعلن الحرب علينا يا سيد ميشيل ؟ •

– أنا لا أدعو الى الحرب بل أدعو الى العدالة ، ولكن حذار ، اذا

هاجمتمونا فاننا سندافع عن أنفسنا • المسيح الحق معنا نحن . هو قائدنا ،
وسترى ذات يوم أهل ساراكيينا المهلهلين فى وضع أفضل منكم أنتم
يا أثرياء ليكوفريسي •

ووثب القسيس ، وضرب جبهته بيده فى عنف كأنما أدرك فجأة :

– اذن لهذا السبب تنازلت عن أراضيكم وديارك لشعب ساراكيينا ،

حتى يمكنهم الدخول الى ليكوفريسي ويفرضون سلطانهم علينا • لا ، لا

لن يطأوا قريتنا • لن يكون ذلك أبدا • ولو أتوا سنطردهم من أرضنا •

وفى هذه الأثناء لن تجد حقولك وبساتينك وأشجار الزيتون من يحرقها

أو يسقيها • سيكون مصيرها الجذب والخراب • انى أرفع يدي واقسم :

سأقف على المنبر يوم الأحد القادم وأعلن قرار الحرمان ضدكم جميعا أيها

المرتدون •

وبعد أن أقسم وتوعد اتخذ سبيله الى الخارج وصفق الباب وراه •

وأطل ميشيل من النافذة يشيعة بنظراته وهو يجتاز الفناء ، يجرجر نعليه

الباليين • وملا الهواء رداءه فانتفخ حتى ارتطمت أطرافه بقوائم باب الفناء •

وغاب القسيس عن نظريه عند منعرج الطريق • ولم يعد يسمع ميشيل

غير نباح الكلاب التى فزعته منه حين مر بها •

وعاد ميشيل الى حيث كان يجلس بجوار النافذة ، وبدأ من جديد

يسطر رسالته الى ماريورى • فاضت الكلمات فى خاطره هذه المرة كأنها

تفيض من نبع ، وقص عليها كيف أن أباه تركه توا ، نائرا مهتاجا ، بعد

أن علم أنه سار حسب تعاليم المسيح ، اذ تقاسم أملاكه مع المساكين ،

ولذلك رد اليه خاتم الخطبة •

ثم بدأ يحدثها عن مدى حبه وولفه بها ، وكيف تملأ علمه فكره وقلبه

ليل نهار ، وأن الحياة بدونها طريق حزين قاس • وبينما كان يبثها حبه

فى رسالته ، أحس أن هذا الحب ينمو ويكبر مع كلامه • وملا قلبه بدفء

لا نظير له • • بدا وكأن كل كلمة حب يخطها ليواسى بها ماريورى تخلق

معها العاطفة التى لم تكن تجد التعبير عنها من قبل • • وفى النهاية رضى

الحياة بدون ماريورى استشهدا يفوق طاقة البشر وفاض الدمع
من عينيه .

وتتمم قائلا :

— لم أكن أعرف اننى أحببها الى هذا الحد ، أبدا لم أكن أعرف
ذلك

وفى هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس فى طريقه يبحث عن أخيه
ناظر المدرسة ثم الشيخ لاداس وغيرهما من أعيان القرية وكبار ملاكها .
وبعد أن أوضح لهم القضية ، اتفقوا معه على أن الخطر الذى يهدق بالقرية
خطر داهم ، وهذا يقتضى تكاتف كل القوى المخلصة لتضرب بقوة أعداء
المسيح على أم رأسهم وبأسرع ما يمكن قبل أن يستشرى الشر ويلوث كل
القرية . وكان ناظر المدرسة هو الوحيد من بين الحضور الذى قدم بعض
الاعتراضات التى تتسم بالخنوع . ولم يكده أخوه يرفع عقيرته حتى انكمش
وتوارى سريعا داخل قوقعته .

اتفق الحضور على أنه اذا ما آلت أملاك بطرياركاس الى شعب
ساراكيينا فلا بد من طردهم عنوة ، وأن القسيس جريجوريس سيعلن قرار
الحرمان من الكنيسة يوم الأحد بعد القداس . واتفقوا على أن يكون قرار
الحرمان قاصرا بادىء ذى بدء على مانولى زعيمهم . واذا لم ترعو عصابة
حملة القمل فسيأتى دور شركائهم ميشيل وياناكوس وقسطندى والأخرين .
وتحدث القسيس جريجوريس بصوت كهزيم الرعد . قال « لا بد أن
نستأصل شأفة كل عوامل الفساد فى قريتنا ولا نبقى الا على البذرة
الطيبة » .

وهول مسرعا يكتب لابنته ويحيطها علما بالأفعال الكريمة التى قام
بها خطيبها الغر ، وأن من الخير لها أن تطرده من قلبها . وأكد لها أنه
قادر على أن يأتيا بزواج أكثر منه انزانا وتقوى بعد أن تعود ، بأذن الله ،
الى القرية وقد استردت صحتها . والحق يجب أن نشكر السماء على أن
ميشيللقى بالقناع وكشف عن وجهه قبل أن يتم الزفاف وعرفنا أنه
أفاق . ثم أرسل بعد ذلك فى طلب يابانايوتى وقال له :

— افتح عينيك يابانايوتى . اذهب الى ساراكيينا بين الحين والآخر ،
وارقب ما يحدث هناك ، وحاول أن تعرف ما يفعلون وما يقولون ، وأحطنا
علما بكل هذا . عدونا واحد يابانايوتى ، وحيث أنك انسان قوى الشكيمة
فاننا قد نحتاج اليك دائما .

وأجاب بانايوتى :

— التنى أشمئز منكم جميعا ، ولكننى أشمئز أكثر من هذا الخنزير مانولى والشمامسة الذين يلحقون بذيله ، يحاولون أن يظهروا لنا فى ثوب المسيح والرسل . لهذا السبب وحده أضع جهدى فى خدمتك . وليس معنى ذلك أننى لا أشمئز منك أيضا :

ومد له القسيس يده ليقبلها ، ولكن بانايوتى أدار له ظهره ، واتجه ناحية الباب .

وقال أثناء خروجه :

— لم يسبق لى أن قبلت أيدى قدرة أو أطرافا دنسة .

وفى صباح يوم الأحد بكر أهل القرية جميعا ، رجلا ونساء ، فى الذهاب الى الكنيسة . البعض استبد به الضيق ، والبعض الآخر لا يخفى فرحته . ولم يتخلف أحد عن الحضور حتى المرضى والصبية فقد حضروا جميعا ليشهدوا المصير الذى ينتظر كل من ينكر المسيح ، فيكون ذلك عبرة لهم فى مقبل حياتهم .

كانت الكنيسة تطن كخلية نحل هاجمها زنبور . ووقف الشيخ لاداس فى مقصورة الأعيان منتفخ الأوداج . وقد شاء أن يحتفى بهذا اليوم المهيب فانتعل حذاءه الذى اشتراه من المدينة يوم أن كان يستعد للزواج ، ولا يلبسه غير مرة واحدة كل عام ، يوم عيد القيامة . وضاق عليه الحذاء حتى بات يؤذى قدميه مما اضطره الى أن يحجل ويمشى مشية الغراب . لذلك كان يحمل حذاءه فى يده بعد أن يترك بيته ، ولا ينتعله الا عند باب الكنيسة ، ثم يخلعه ثانية بعد القداس ويمسكه بقوة تحت ابطه كأنه كنز ثمين يخاف عليه ، ويذهب الى بيته .

ورأى الناس بانايوتى يقترب من الكنيسة التى لم يدخلها منذ شهور طويلة . كان وجهه المجردور منبسط الأسارير ، وقد وضع سيجارة خلف أذنه ليدخنها بعد صدور قرار الحرمان تعبيرا عن سروره وفرحته .

ووصلت الأم ماندالينا ، متشحة بالسواد نائرة . أتت لتشاهد سقوط ابن أخيها عدو المسيح والذى جلب العار لبيتها الكريم . لقد تنبأت بذلك وقالت « هذا الولد سيلحق اللعنة بنفسه ، بسبب قراءاته الكثيرة » . وها هى الآن منشرحة الصدر اذ صدقت نبوءتها ، وها هو يخرج من الكنيسة مطرودا ليلقى به فى الجحيم .

وأقبل ميشيل شاحبا حزينا ، مرتديا ملابس الحداد . لم يرقأ له جفن ليالى طويلة ، وإذا أغفى تراءى له طيف أبيه مع مطلع الفجر ، يحدجه بنظراته ، ويهز رأسه كأنه يلعنه . اصطحب ميشيل صديقيه ياناكوس وقسطندى ، وفى اثرهما أندونيس الحلاق وديمترو الجزار .

وأسر ديمترو الى صديقه الحلاق بكلمات :

— سأذبح شاة وأحملها الى أهل سساراكيينا لنحتفل هناك بقرار الحرمان . تعال معى لتأكل نصيبك .

وأعلن الحلاق .

— أما أنا فسوف أذهب الى هناك لأشذب لحية مانولى وأعطره بأجود أنواع ماء اللافندر . ها هى عدتى والزجاجة فى جيبى .

واتخذ ناظر المدرسة مجلسه بجانب الكورس ليرتل الترانيم . كان متجهما كما هى عادته فى أيامه السيئة . فهو غير راض عن هذا الحفل غير الانسانى . وفى رأيه أنه اجراء ظالم — الدافع اليه ضغينة شخصية ، ومصالح دنيئة ، ولكنه لا يجرؤ على أن يرفع صوته معترضاً . فقد كان منذ نعومة أظفاره يخاف أخاه الأكبر القسيس جريجوريس الذى اعتاد أن يضربه بقسوة أثناء اللعب وهما فى ميعة الصبا . ولم يتمكن من التغلب على هذا الخوف حتى بعد أن أصبح رجلا أعزب ناهز الستين من عمره .

ظهر القسيس جريجوريس نائرا مهتاجا بلحيته البيضاء التى تحاكي لحية الرسل والأنبياء . فرغ من القداس سريعا ، اذ كان متعجلا ، وكذلك كان أهل القرية . ثم اعتلى المنبر ، فاشرأبت الأعناق وشخصت اليه الأبصار فى وجل . ودق جرس الكنيسة دقات الحداد ، فها هى نفس قد هلكت .

أطل القسيس من علبائه على قطيعه ، وجال ببصره بينهم ، وعبس وبسر ، وأغلظ من صوته : وتحدث بصوت كهزيم الرعد دوى تحت قبة الكنيسة :

— اخوانى المسيحيين . الكنيسة حظيرة ، خرافها المؤمنون الصديقون ، والمسيح راعيها . والقسيس هو ممثل يسوع المسيح على الأرض . واذا أصاب شاة مرض معدى فان الراعى يخرجها من حظيرته وقاية لغيرها من العدوى ، ويلقى بها بعيدا فى هوة سحيقة فريسة للموت . يشق على نفس القسيس أن يرى نفسا ملوثة ، بيد أن واجبه يمل عليه أن يكون عنيدا فى غير رحمة ابتغاء خلاص الأرواح السليمة النقية .

وثمة شاة جرباء تضمها حظيرتنا المسيحية . أعنى بها أيها الاخوة
المسيحيون المدعو مانولى . لقد تمرد على المسيح ، ويقضى واجبنا أن نوجه
له ضربة قاصمة فى الصميم . نار ضد وطننا ، وضد الأسرة والملكية .
اعلن لواء الثورة ، لواء أحمر ليغرقنا جميعا فى بحر من الدماء . انه يتلقى
أوامره من بلد أجنبى . يتهدد عقيدتنا ووطننا وشرفنا خطر داهم ،
ويقتضينا الواجب أن نحرمه من الكنيسة . ومعنى هذا أن نزاله عن
الماشية السليمة ، ونلقى به بعيدا الى هاوية الشيطان ، حتى يهلك هو
ونضمن الخلاص لنا جميعا . وانى أنزل من فوق المنبر لأطرده بعيدا .
ونزل من فوق المنبر ، وهرع الشماس اليه حاملا كأس القداس ،
به ماء مقدس . غمس القسيس مرشة الماء المقدس ، ورش الماء فى الهواء ،
وأعلن بصوت كأنه قصف الرعد :

- اخرج من هنا ، اخرج من هنا محروما .

وتقدم خطوة الى الامام ورش الماء فى الهواء من جديد وهو يصيح :

- اخرج من هنا ، اخرج من هنا محروما .

وظفق يردد كلماته هذه وهو يتنقل بين أرجاء الكنيسة ، وكان
مانولى يملأ عليه الهواء ، خافيا عن الأعين ، وملاك الرب يتقدم القسيس
ليطرده بعيدا . وظل ينثر الماء فى الهواء دون كلل حتى بلغ باب الكنيسة .
وتفرق القرويون بعيدا فى فزع كأنهم يخشون أن تمسهم الروح المعونة
التي تتراجع أمام القسيس خطوة فخطوة حتى تخرج من باب الكنيسة .
وما أن بلغ القسيس عتبة الكنيسة حتى لوح بالمرشة فى قوة ، ونثر
بعض ما بقى فيها من ماء فى الهواء ، ثم استدار ناحية أهل القرية وقال :

- صيحوا أيها الاخوة المسيحيون ، صيحوا معا بأعلى صوتكم « مانولى

محروم من الكنيسة » .

وتعالت صيحات عالية اهتزت لها الكنيسة . ورفع كل الحاضرين

أيديهم وصاحوا ثلاثا :

« مانولى محروم من الكنيسة » .

ولوح القسيس بالمرشة لينثر الماء المقدس للمرة الأخيرة وصاح من

جديد :

- اخرج من هنا ، اخرج من هنا محروما .

وأغلق الباب بعنف . وتنفس الحاضرون الصعداء ، كأن الشيطان

قد انصرف عنهم وتطهر الهواء .

وتوسط القسيس الكنيسة وقال :

— أيها الاخوة المسيحيون ، من الآن فصاعدا لا يقترب أحدكم منه ،
لا يمدن أحدكم اليه يدا ليعطيه كسرة خبز أو كأس نبيذ . لا يفتح أحدكم
فمه بتحية له . كل من يقف بصره منكم عليه يبصق على الأرض ثلاث مرات ،
ويوليه ظهره . لقد أنكر المسيح ، ولذلك ينكره المسيح . أنكر الدين
والوطن والأسرة والملكية . وهذه كلها تنكره بدورها . ليكن مثواه نار
جهنم خالدا فيها أبدا . آمين .

وصاح الجميع في حقد وكراهية وارتياح :

— آمين

ودمدم صوت بانابوتى حتى فاق صوت الجميع « آمين » .

وفى هذه اللحظة رن صوت هادىء وسط الكنيسة :

— يا أبانا ، مانولى ليس وحده ، فأنا معه . أريد أن احرم معه
من الكنيسة — أنا ميشيل بطرياركاس .

وارتفع على الفور صوت آخر فى غضب :

— وأنا ياناكوس البائع الطواف وساعى البريد أعلن أننى معه أيضا .

— وأنا قسطندى صاحب المقهى .. أنا أيضا معه .

وسرت هزة بين صفوف الجمع . وابتعد أهل القرية جانبا ،
وأصبح الأصدقاء الثلاث وحدهم وسط صحن الكنيسة .

وجار صوت التسييس جريجوريس :

— سيأتى دوركم يا رسل الشيطان ، انتظروا ولكن كنيسة المسيح
بدافع من الحطم والرافة تمهلكم عليكم تتوبون وتندمون . ان صاعقة
المسيح معلقة فوق رؤوس الناس تنتظر فى قلق . وأنا أفوض أمركم
الى الله ان شاء يغفر لكم ويشملكم بعنايته .

وصاح ياناكوس :

— سيحكم الله بيننا يا أبانا ، وهو خير الحاكمين . فهو وحده
سبحانه من نشق به دونك أنت . وتطير الشر من عيني القسيس
وزار :

— لقد قضى الله بيننا ، وأصدر حكمه على لسانى . انا قسيس
ليكوفريسى . أنا لسان الرب . ورد عليه ميشيل :

— القلب الطاهر هو وحده صوت الرب . وقلبنا طاهر يا أبانا .

ثم توجه بالحديث الى رفيقيه :

— هيا بنا يا اخوتي . لننفض تراب ليكوفريسي عن اقدامنا .
وداعا يا اهل ليكوفريس .

ولم يجب عليه احد . ورسمت النسوة علامة الصليب في فزع ،
وبصقن في صدورهن ، وهن يتمتمن :

كيريالاسون ، كيريالاسون .
وعاود ميشيل الكلام :

— وداعا يا اهل ليكوفريس . مسيحننا فقير مضطهد ، يطرق
الأبواب فلا يفتح له أحد . أما مسيحننا فغنى من الأعيان ، يعيش على
وفاق مع الأغا رينعم بالحياة الرغدة . يغلّق بابّه عليه بالتاريس حتى
يأكل طعامه بعيدا عن أعين الناس ، ولا يلقي لأحد منهم بالفتات .
مسيحننا أكول مبطان ، ويعلمن رغم ذلك على الملأ : هذا العالم يسوده
العدل والأمانة والمحبة ، وهو خير العوالم قاطبة . ليكن الحرمان نصيب
كل من يحرك اصبعه ليهز أركانها ، « ومسيحننا فقير ، ينظر الى الأجساد
التي أسقمها الجوع ، والأرواح التي أضناها الخوف ، ويصيح بأعلى
صوته : « هذا العالم يسوده الظلم والجور والخيانة ، أولى به أن
يهلك ويبعد .

ورفع القسيس جريجوريس رداءه الكهنوتي واندفع نحوهم مهرولا
وهو يزأر :

— أيها المارقون أخرجوا من بيت الرب .

وهاج اهل القرية وماجوا ، وقفز الاب لاداس من المقصورة ،
ولوح بانايوتى بقبضته . وتعالت صيحات الغضب :

— اخرجوا من هنا ، اخرجوا :

وقفز ياناكوس الى الامام ليضرب كل من يعترض طريقه ، ولكن
ميشيل امسك بذراعه وقال :

— هيا بنا ، وليحكّم الله بيننا وهو أعدل الحاكمين .

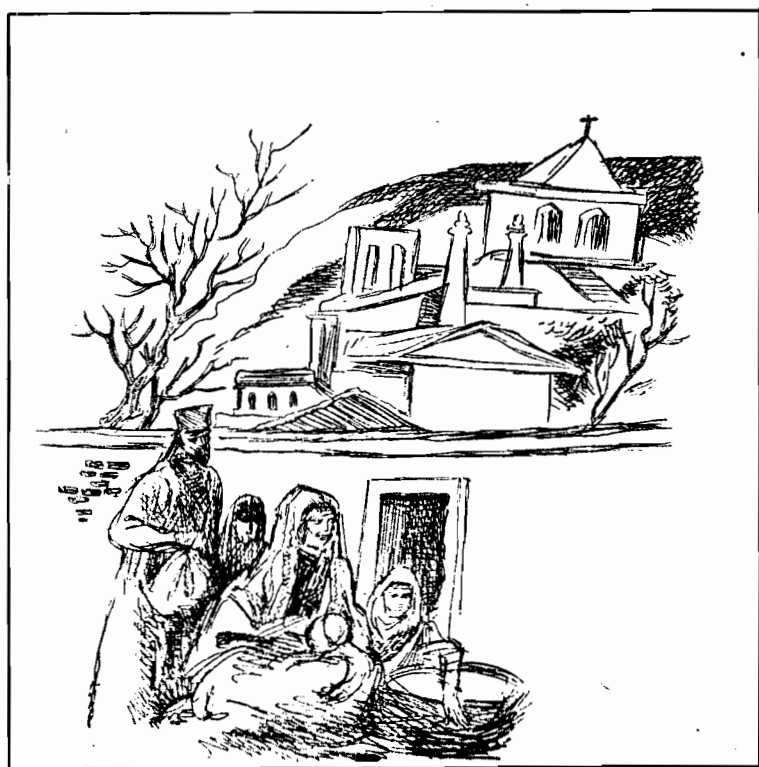
ورسم علامة الصليب فوق عتبة الكنيسة ، ثم خرج . وسار من
ورائه ياناكوس ومسطندي ، انسلا خفية وسط الحشد ، ومن ورائهما
بمسافة غير بعيدة اندونيس الحلاق وديمترى الجزار .

وفجأة دوت صيحة قوية خلفهم :

- هل ستهجرنا يا قسطندي ؟ هل ستهجر زوجتك وأطفالك وتحرم
من الكنيسة ؟

واستدار قسطندي ، فأبصر زوجته تجرى نحوه والهواء يطوح
بشعرها . وتوقف لحظة مترددا . ولكن ياناكوس أمسك به وشده
بقوة :

- هيا بنا ، لا تنظر الى الورا .



مناوشات أولية

عاد القسيس جريجوريس الى بيته مغيظا حائقا تضطرم نار الغضب فيه من راسه حتى اخمص القدمين كأنما مست يده لساعته الصاعقة التي كان يلوح بها متوعدا .

كان يحدث نفسه : « ينبغي أن تكون لكلمة القسيس سطوتها وقوتها ، أن تبعد وتقتل ان شاءت . فاذا ما قال القسيس لاحد : عليك اللعنة فلا بد وأن يسقط الملعون لساعته ميتا . وبذلك يتخلص العالم من كل اعداء الرب ، ويسود السلام والعدالة .

ودار بمخيلته موكب من البشر يضم كل من يود أن يردبهم فتلى ان استطاع الى ذلك سبيلا . اولهم مانولى ، وهو اخطرهم ، لا لشيء الا لأنه لا يوجد ما يؤخذ عليه ، يعيش بلا خطيئة . . لا يسرق ، ولا يكذب ولا يزنى ولا يحلف . . لذا يجب أن يكون اولهم . ويأتى بعده مباشرة ، ان لم يكن معه في آن واحد ، هذا الوغد المدعو بالقسيس فوتيس . انه يكرهه ، يود لو استطاع ان يفتأ عينيه حتى يشفى غليله . كل شيء فيه يثير حنقه وغضبه . طلعت الرهبانية الناسكة ، وعيناه اللتان تتأججان نارا ، وصوته العميق . بل وقبل كل هذا انه مقل في طعامه ، لا يذوق الحمر ، وليست له سقطات تؤخذ عليه ، ويتمتع بحب شعبه له كله عن بكرة أبيه . آه لو استطاع أن يلقي به فوق الرغام ويجبره على أن يعض الارض بأسنانه ، ويمزق لحيته ، ويجدع أنفه . وكلما فكر فيه

القسيس جريجوريس وأطال التفكير كلما ازدادت ثورته اشتعالا .
حتى أنه لم يعد يدرى على وجه الدقة أيهما - مانولى ام القسيس
فوتيس - ينبغى أن يقطع دابره أولا وقبل غيره .

ويأتى بعدهما دور ياناكوس وقسطندى ليجهز عليهما . فقد اختار
كل منهما لنفسه طريق السوء ، ويضربان مثلا سيئا لأهل القرية ومن
الحير أن نقضى عليهما . وماذا عن ميشيل ؟ وهنا صمت لحظة يتفكر .
وتتم « لنتنظر الى حين ، ولنمهله قليلا . . » أما عن الأب لاداس فهذا
ممكن دون ريب . يجب قتله . لا لأنه شحيح أثيم ، القى بمئات اليتامى
الى قارعة الطريق ، ولكن لأنه دعاه ذات يوم فى السجن بصاحب اللحية
الشبيهة بلحية التيس .

هؤلاء الخمسة هم الوجبة الأولى . وبعدهم . يوما بعد يوم .
سيودى بكل من يعارضه . وثمة حساب قديم يود أن يسويه مع بعض
المطارنة فى المدينة بل ومع الأسقف ذاته . لا بد وأن يستأصلهم جميعا
... ويستأصل معهم بعض الرعايا الذين سخروا منه وآذوه ببعض حيلهم
وقت أن كان طالبا . هذا ان كان منهم من لا يزال على قيد الحياة .

وتنهذ القسيس جريجوريس وهو يردد بينه وبين نفسه : « نعم ،
ينبغى أن يكون للقسيس سلطانه وسطوته » .

وبعد أن تفرق أهل القرية ذهب بعضهم الى الميدان ، وليث البعض
الآخر فى فناء الكنيسة . وانطلقت الألسن فى حماسة وانفعال تحكى
وتناقش ماحدث . امتلأت حياة أهل القرية بالأحداث وأصبحت ذات
معنى : رأوا المشائق ، وموت مشاهير الأعيان ، ومقتل غلام تركى ،
ورقبة أرملة تنحر ، وهامم اليوم يشهدون بأعينهم حرمانا كنسيا .
واشعل بانايوتى سيجارته ، وجلس تحت شجرة السنار يدخنها وينفث
الدخان فى متعة وتلذذ . ويقول لنفسه : « كل شئ يسير على خير
وجه . انها مناورة موفقة تؤتى ثمارها . نعم سأقطع دابره جميعا .
المسيح والرسول ، وليتلقفهم الشيطان جميعا . وجذب الأنفاس الاخيرة فى
لذة غامرة ، ثم نفث الدخان من منخاريه ، وبصق على الارض ، ونهض
ليتخذ طريقه الى ساراكيئا يتجسس على أهلها ويرى ما يحدث هناك .
اتخذ لنفسه طريقا لا يعرفه سواه . ومر فى طريقه بشيخ من أهل
ساراكيئا يجمع الحطب وبعض فروع الشجر ليستخدموها وقودا لهم .
وقال له بانايوتى :

— صباح الخير أيها الشيخ، كيف حال الدنيا معكم ؟
— بخير يا بني . الا تعرف اخبارنا ؟ أظن أننا حصلنا على بعض
الحقول وبساتين الكرم عطاء وكرما تقيننا الموت جوعا نحن الفقراء
التعساء . نحمد الله على ذلك . وغدا سننزل الى ليكوفريسي لنقطف
الكرم .

— تقصد يا جدي أن بعض رجالكم سيذهبون غدا لقطاف العنب ؟
— يقينا ، عندنا بعض الصبية والبنات القادريين على العمل .
ستجدون الفرصة سانحة غدا لتمتعوا أنظاركم بهم اعجابا بعملهم .
وواصل بانايوتى طريقه . وقال لنفسه « انى سعيد الحظ باكتشاف
هذا ، سأقصد القسيس العجوز لانبئه بالخبر .
ووصل الى صخرة اتخذ منها برج مراقبة سرية . اذ يستطيع
أن يرقب من ورائها كل مايدور بين الكهوف . وانبطح على الارض ليرقب
الأحداث عن كثب .

لا بد وأن القسيس فوتيس قد فرغ من القداس ، فثمة حشد
من الشيوخ وعجائز النساء وبعض الاطفال تجمعوا أمام الكهف الذى
اتخذوه كنيسة لهم . وها هو ذا القسيس فوتيس ومانولى يتحدثان
اليهم . وأرهف بانايوتى السمع . تناهت الى سمعه كلمات متفرقات
بين الحين والحين ، ولكنها غامضة مبهمه . حاول أن يجمع هذه
الشذرات المهوشة من الالفاظ مع بعضها البعض عسى أن يخرج منها
بشيء : وادرك منها أن مانولى كان يتحدث اليهم قائلا : ان من حرمنى
من الكنيسة هو القسيس جريجوريس وليس الرب الهنا ، وشتان بين
الاثنين .

وأبصر بالقرب منهم نارا موقدة . ورأى ديمترى جاثيا على
ركبتيه أمامها يشوى شاة على السفود ، بينما وقف الى جوار،
ياناكوس ممسكا بسكين فى يده يفرسها فى اللحم بين حين وآخر ليتبين
ان كانت قد نضجت أم لا . كانا يتبادلان حديثا يضحكهما . ووقف
اندونيس على بعد خطوات منهما يصبن لحيه شيخ ليحلقها له . وهرع
الاطفال اليه ليأخذ كل منهم دوره ويقصوا شعورهم . وها هم يقضون
وقتهم فى اللعب حوله الى أن يحين دور كل منهم . وأقبل قسطندى
يحمل بعض الماء ، ويعاونه فى ذلك بعض النسوة العجائز .
وقال بانايوتى بصوت كأنه الخوار :

— أقسم بشرى أنهم يقضون هنا وقتا ممتعا . ليس ثمة ما ينقص عليهم حياتهم .. تعال يا قسيس جريجوريس الى هنا وانظر ماذا يحدث — لترى ما سميتُه بالصاعقة !!! هل هذه هى جهنم التى تحدثت عنها ؟ ليأخذك الشيطان !

وزحف على بطنه ليقترب منهم قليلا . وشراب بعنقه ليطل من فوق الصخرة . وتساءل فى نفسه :

— هه .. واين ميشيل . انى لا أراه بينهم . لا بد وانه أنتحى مكانا يندب فيه حظه هذا السفیه . فالحياسة معه تسير من سيئ الى أسوأ : فقد أباه ، ذلك الخنزير النبيل ، وبدد هذا المجنون ثروته ، ولقى القسيس بخاتم الزواج فى وجهه .. وها هو الآن وقد أصبح يتيما فقيرا أرمل .

وترامت الى سمعه صيحات وضحكات . يبدو أن أحد اللاجئین حصل على ماندولين وبدأ يعزف عليه . ورفع ياناكوس وديمترى الشاة بعيدا عن النار ، ووضعها فوق الحجارة . وهرع حشد الجوعى من أهالى ساراكيئا وأحاطوا بالشواء . وبدأ بعضهم يدق على الأنية القديمة ويرقصون طربا . واقترب القسيس فوتيس بدوره ، ورسم الصليب ، وبارك الشاة ، وأنهمك فى تقطيعها شرائح صغيرة ، ثم وزعها عليهم ، كأنها قربان مقدس . وجلس الجميع على الأرض ، وتعالى الضحكات ، وصدح الماندولين . وفجأة وقف مانولى ينظر حوله فى قلق . ونادى :

— ميشيل .. ميشيل ..

ولكن عبثا ، فلم يجد لندائه صدى .

كان القسيس فوتيس يحرك ذراعيه على امتدادهما . كان فرحا جذلان ، ويتحدث بصوت عال . وسمع بانايوتى كلامه بوضوح . كان يقول : يا أولادى نحن نعيش يوما مباركا . كل ما تنبأ به المسيح لتلاميذه ينزل علينا اليوم سلاما وبركة . قال المسيح : « طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . افرحوا وتهللوا . لأن أجرکم عظيم فى السموات . فإنهم هكذا طردوا الأنبياء من قبلکم » . تلك هى كلمات المسيح يا أطفالى وها أنتم ترون اليوم : الناس يوجهون الينا السباب ، يعيروننا ويطردوننا ، لا لشيء الا لأننا نحب المسيح . وهاهو رفيقنا مانولى حرمه القسيس الاكول المبطن من الكنيسة صباح اليوم . ولكننا نحمد الله على أننا نسلک الطريق السوى . المسيح يسير أمامنا ونهجن فى اثره . افرحوا وتهللوا يا أطفالى . المسيح قام .

وملا القسيس كوبا خزفيا بالماء وشربه دفعة واحدة .

وخار بانايوتى :

— حقا هؤلاء ليسوا بشرا ، انهم وحوش كاسرة . دقت الاجراس لحن الحداد ، وصدر قرار حرمانهم ، وطرردوا من الكنيسة . . وها هم الآن غارقون فى الضحك ويسخرون من هذا كله . . من أين لهم بهذه النشوة ؟ أقسم بدينى ؟ انهم ممسوسون . حقت على اللعنة ان كنت افهم شيئا !

وأشرب بعنقه ليستمع الى الحديث بوضوح اكثر . وفجأة شعر بيد تطبق على رقبتة كالكماشة . وهز نفسه فى خوف وثورة . ورأى ميشيل ينحنى فوقه ويحدجه بنظرة قوية وعلى وجهه ابتسامة .
وسأله فى رقة :

— ماذا تفعل هنا يابانايوتى ؟ هل تراقب ما يحدث ؟ لماذا لا تأتى معنا وتشاركنا طعامنا ؟ هيا تعال معى . .
وامسك بذراعه وجذبه فى حنان .

ولكن بانايوتى تكور حول نفسه كالقنفذ . وصاح :

— لا ، لن آتى معك . لا أريد شيئا من طعامكم . لا أرغب فى مرافقة احد منكم أيها المرتد . دعنى وحدى .

— الا تخجل يابانايوتى ؟ رجل طيب مثلك يتصف بالصراحة والامانة — ثم تعمل لحساب الأوغاد والطفيلين ؟ ترى هل هم الذين أرسلوك الى هنا للتجسس ؟

— أنا لا أعمل لحساب احد . أنا وحدى ياميشيل ، أعيش وحدى داخل جلدى وجنتى هذه كما يعيش الذئب ، الا تدرك هذا ؟ انى ضيق الصدر من الناس جميعا — منك ومن الآخرين . اهدأ ولا تتحدث الى فانى أعض .

وجلس ميشيل الى جواره وقال له :

— ماذا دهالك أيها التعس بانايوتى ؟ تغيرت تماما منذ بضعة شهور وأصبحت انسانا آخر غير ما كنت . حقا كنت دائما فظا ، ولكنك لم تكن شريرا أبدا . هل ثمة من أساء اليك يابانايوتى ؟ من هو ؟ ماذا دهالك ؟

— ثمة أحداث كثيرة ، لياخذنى الشيطان . أشياء كثيرة حدثت لى وانت تعرف كل شيء . اذن لماذا تسألنى ؟ أنت تعرف كل شيء .

وسأله ميشيل في خجل :

- هل هذا لأنهم أختاروك لتمثل دور يهوذا ؟ ولكنها تمثيلية فقط يا أخى ، تمثيلية مقدسة ، انها مجرد تمثيل وليست من الحقيقة فى شىء .. هل مانولى سيصبح المسيح حقا ويظل كذلك الى الأبد ؟ هل أنا حقا يوحنا ، تلميذه المفضل ؟ كيف وأنتك مثل هذه الفكرة ؟ انها خطيرة ترتكبها . المسألة ببساطة لأن لك لحية حمراء ..
وصاح بانايوتى فى هياج :

- سأحلقها .. سأحلقها هذه القدرة .

وانفجر ميشيل ضاحكا وقال

- هيا تعال معى ، فالحلاق معنا هنا .. تعال سأحلقها انالك ، وسوف يهدىء هذا من روعك .
- سأشعل فيها النار بنفسى . سأشعل فيها النار واقدف بها الى الشيطان .

قال بانايوتى هذا ثم وثب كأنما اتخذ قرارا حاسما .

- هنا ، سأفعل ذلك فورا .

عاد ميشيل يتوسل اليه من جديد بصوت حنون :

- تعال معنا ، تعال ، وسترى بعينيك كيف سيحتفى بك الناس ويستقبلونك بالأحضان . لا ينقصنا سواك حتى تكمل سعادتنا .
ولكن بانايوتى هرب من أمامه وتوارى وراء الصخرة ثم اتخذ طريقة نازلا الى القرية . والتفت ورائه لحظة فرأى ميشيل يرقبه فوق الربوة حزينا .

وصاح بانايوتى :

- الى الشيطان جميعا . انتم والآخرين .

واشار بيده الضخمة الى ساراكيئا من ناحية ، والى ليكوفريسي من ناحية اخرى .

نام ميشيل فى تلك الليلة فى نفس الكهف الذى يأوى اليه مانولى . أحضر من بيت أبيه كل ما يستطيع من حشايا وملابس ووزعها على المعدمين حتى أنه لم يبق شيئا لنفسه ، ثم أعلن للقسيس فوتيس ؟
- يا أبانا ، من اليوم فصاعدا ، سأترك ليكوفريسي والوذ بالمكان الذى يظلك . سأعمل معكم أبدا . وسوف أناضل معكم ، أشارككم الهزيمة والانتصار . لم أعد أطيق هواء السهل .
وأجاب عليه القسيس :

- نرحب بك جنديا فى جيشنا يا بنى • سنتسبىق الجبل معا ،
وسوف نجد الرب فى قمته • اعتدت الحياة الرعدة بيد أنك تضم بين
جوانحك روحا مقدامة وقلبا كبيرا وسوف تكون أفضل رجالنا فى المعركة •
فمرحبا بك •

وقال مانولى :

- تعال ياميشيل تشاركنى قصرى ، وهو الكهف القائم بجوار
الكنيسة • ستجد هناك أيقونة الصلب التى أهديتها لى ، الأيقونة التى
تحوم فيها عصافير الجنة •

وحمل ميشيل أمتعته وانجيله المفضض الكبير ، وقصد الكهف • ونام
ليلته هناك • ورأى حلما أفزعه • رأى ماريوى ساجينة داخل برج
شاهق الارتفاع ، يحرسها كلبان أسودان كبيران يمنعانها من الهرب •
وكان ميشيل واقفا أسفل البرج يعنىها احدى أغانيه ، نطل عليه اذا
ما سمعت صوته • وفجأة رأى أبواب البرج الحديدية تفتح وخرجت
ماريوى مرتدية ثوبا فى لون اللازورد يجرجر ذيله على الأرض • وكانت
تتحلى بثلاث زهور • زهرة فوق مكان القلب، وأخرى عند خصرها والثالثة
عند ركبتها • ورأى الكلبين الأسودين يعدوان فى صمت وقد تدلى
لسانها ، أحدهما أمامها والآخر خلفها ، وكانت ماريوى تمسك بمنديلها
الصغير الأبيض تمسح به فمها • ورأى عند قاعدة البرج زورقا ضيقا
يشبه التابوت • واستحالت الأرض من حولها الى بحر • ركبت ماريوى
الزورق وانطلق بها • وما أن بدأت مسيرتها بالزورق ، حتى استدارت
لتلقى اليه نظرة مودعة • ولوحت له بمنديلها الصغير الذى خضبته بقمع
الدماء الحمراء • وصرخ ميشيل صرخة صاكة أستيقظ بعدها من نومه فزعا •
أيقظت الصرخة مانولى ، فسأل ميشيل :

- ماذا بك يا ميشيل ؟

- رأيت كابوسا يامانولى ، رأيت كلابا سوداء وزورقا ركبته ماريوى
وانطلق بها بعيدا •

وارتعد مانولى • ولكن لم ينبس ببنت شفة اذ سمع صوت
أجنحة رئيس الملائكة ميخائيل ترف فى الهواء •
وانسل ضوء واه ضعيف الى داخل الكهف ليربت على وجهيهما
ويهدد الانجيل الكبير الذى وضع فى كوة داخل صخرة •
وهب مانولى من نومه وقال :

- لدينا أعمال كثيرة اليوم • أبلغنا ما يقرب من عشرين فتى من
رفاقنا ممن يعطون فى القرى المجاورة لسكى يستعدوا للنزول الى

ليكوفريسي لحصاد بساتين الكرم التي تنازلت عنها ياميشيل لجماعتنا .
بارك الله فيك يا عزيزي ميشيل . انقذت ارواحا كثيرة .

— لم يكلفني شيئا ان اجد فيما املك . ولذلك لا اظن ان هذا
يكفى خلاص نفسي يامانولى . التضحية هي العمل الذى يكلف ، وانا لم اوضح
بعد . كانت تضحية كبرى من ياناكوس حين قدم حماره .

تأمل مانولى كلام صديقه لحظة . ثم قال :

— اعتقد أنك على حق ياميشيل .

وصل امام الكهف ما يقرب من عشرين رجلا وامرأة ، وقد
انخرطوا فى الحديث . وعندما راوا ميشيل يخرج من الكهف هرعوا
اليه يشدون على يديه .

قالوا له :

— أصبحنا بفضلك نملك أرضا من جديد ، نحن الشعب المسكين
المعدم . نسأل الرب ان يقدس روح أبيك .

وفى لمح البصر تراءى له وجه أبيه متوردا بدينا مغرورق العينين
بالدموع ، وحدجه بنظرة فيها تأنيب . وتحركت شفثاه اللتويتان
حركات فهم منها أنه يقول له : لماذا قتلتنى ؟ لماذا ؟ ولكنه أشفق عليه
وتوارى عن ناظره .

وأطرق ميشيل برأسه وقال :

— فعلت ذلك حتى يتفمد الله روح أبى برحمته .. أسأل الله ان
يستجيب لدعائى ..

ثم أردف قائلا بعد لحظة من التردد :

— كانت هذه هى آخر وصاياه . هو الذى أوصانى ان أوزع كل
املاكه على الفقراء .

واستدار مانولى ونظر الى صديقه ، ثم دنا منه وأمسك بيديه .
وهز ميشيل رأسه وادار وجهه ليخفى دموعه .
واقبل القسيس فوتيس ، وقال :

— يا اولادى ، ارسموا علامة الصليب ، واذهبوا على بركة الله
لحصاد بساتين كرمنا . سيقودكم مانولى . ها نحن يا اطفالى فى طريقنا
لنمتلك حقولا ، ونضرب بجذورنا فى اعماق الارض . ما كان حلما حتى
يومنا هذا سيصبح حقيقة من الآن فصاعدا . نحن نملك الآن أرضا
وأشجارا منفلحها معا ، ونستمع بشمارها معا . ان يكون بيننا غنى

ولا فقير . سنكون أسرة واحدة متماسكة متحابة . نسال الله ان يوفقنا
لنكون مثلا يبين كيف يجب ان يعيش البشر معا في مجتمعاتهم ، وكيف
تسود العدالة الأرض . وبفضل عناية الرب والعذراء سيكون يومنا
بداية موفقة . اذهب معهم يا مانولى لتدلهم على الطريق ، فانت تعرف
موقع بساتين الكم . وسأذهب انا مع ميشيل الى المدينة لنوثق العقود
التي تؤول بمقتضاها أملاك العمدة بطرياركاس الى مجتمعنا .

رسم الرفاق علامة الصليب ، وتصدر مانولى فريقه ، وانطلقوا
في طريقهم . كانت البهجة تملأ صدورهم ، وبدأوا يغنون اغانى قطاف
العنب ، دون أن يفكروا فيما يخبئه لهم القدر هناك فى ليكوفريسي .

، هرول بانايوتى البارحة فور عودته من ساراكيينا الى بيت القسيس
جريجوريس وأبلغه النبا .

— سيأتى هؤلاء الناس غدا لقطاف العنب . فاستعد لذلك .

كان القسيس جريجوديس جالسا الى مائدة الطعام ، فسقطت
الشوكة من يده . وصاح :

لن يطأوا أرض القرية . لن يمساو حبة عنب واحدة ابدا ، لن
أسمح لهم بذلك . سأذهب فوراً لمقابلة الأغا .

وارتدى ردائه الدينى الذى يلبسه فى أيام الأعياد ، وعلق حول
رقبته صليبه الفضى الثقيل ، وأمسك بعصاه ذات المقبض العاجى ،
واتخذ طريقه الى بيت الأغا يمشى بخطوات متأنية وقور .

كان الأغا قد فرغ من طعامه تواء، وبدأ يحتسى قهوته . وجلس الى
جانبه براهيماكى يلف سيجارة لنفسه ، موليا ظهره للأغا . ويبدو عليهما
أنهما تشاجرا من جديد ، اذ كان الأغا عابس الوته وهو يحتسى القهوة
كانه يتجرع سما .

ظهر القسيس جريجوريس عند الباب ، ذليلا متضائلا . وانحى
أمام الأغا وقال :

— تحياتى اليك ياأغا .

لم يكلف الأغا نفسه عناء الالتفات اليه . وقال فى امتعاض :

— أنا أعرفك من صوتك يا قسيس . ترى أى متاعب جديدة أتيتنى
بها ؟ تعال أمامى حتى أراك . هات كرسيًا واجلس عليه .

وصفق بيديه . واقبلت المرأة الحدباء . فقال لها أمرا :

— قهوة للقسيس أفندى .

ثم نظر الى القسيس وقال :

— تكلم .

وبدا القسيس كلامه :

— يا اغا ، تعلمون سيادتكم ، وأنتم خير العارفين ، ان العالم معلق
بخيط واحد . اذا قطع هذا الخيط سقط العالم وتفتت .

وقال الاغا في ازدياء :

— واي جديد في هذا . ان بغلتى نفسها تعرف ما تقول . هيه ،
استمر .

— ثمة شخص يحاول ان يقطع هذا الخيط يا اغا .

تحسس الاغا مقبض سيفه ، وهم بالوقوف كأنما يستعد
للانقضاء . وصاح :

— من هو حتى أقطع رأسه ؟ قسما بالله دلنى على هذا
الشخص ، وسوف ترى ماذا انا فاعل به .

وأجاب القسيس :

— الاشتراكي !

ترك الاغا سيفه يسقط في غمده .

— كيف تتصور اننى مستعد لأن أعادر ليكوفريسي ، وأترك
براهيمكي ، وأتخلى عن راحتي وهنائي . ثم أذهب الى الشيطان هكذا
ببساطة بحثا عن العدو في آخر الدنيا بين الثلوج حتى أمسك به وأقطع
رقبته ؟

ازدرد القسيس فنجان القهوة دفعة واحدة وتنهد .

— أيها القسيس المبارك ، هذا اللعين الذي تحدثنى عنه بعيدا جدا
عن هنا ، فدعك من الحديث عنه . انه بعيد عنا تماما فكيف الوصول
اليه ؟ ليس عليك الا أن تمثل دور القسيس البريء الطيب — صدقنى
فانا أحب لك الخير من قلبى — وانا سأفعل نفس الشيء حتى نعيش
حياتنا في سلام ، وبعدنا الطوفان .

— ولكن لا حاجة بك الى الانتقال من ليكوفريسي يا اغا . لقد
أرسل ذلك البلد العدو بالفعل بعض رجاله الينا . انهم هنا في
ليكوفريسي ، وهم يتهاونون لقطع الخيط . اديت واجبى في الكنيسة
هذا الصباح ، وليس عليك الا أن تؤدى واجبك بدورك .

– نعم ، أسرت الحدياء الى بشيء عن هذا ، بيد اننى لم أفهم منها كلمة واحدة .

– أصدرت قرار حرمان من الكنيسة لمانولى راعى اغنام بطرياركاس ، طردته من حظيرة المسيح .

– لماذا يا قسيس ؟ انه ولد طيب هذا الفتى المسكين . لا يعيبه سوى أن به بعض الجنون . ألم يكن على استعداد لان ينقذ القرية ؟ وهذا ليس بالأمر السهل يا قسيس ، ليس امرا سهلا ابدا .

– نفاق ورياء يا أغا ، كذب وبهتان . تعلمون انه فعل هذا لحاجة فى نفسه . . ان يخدع اهل القرية .

وهرش الأغا راسه . وبدأت أعصابه تتوتر . وصاح :

– كفى هذا . اخرس يا قسيس . انكم ايها الروميون تولدون النملة . كيف يمكن لعاقل ان يستسيغ ما تقول ؟ أفعالكم شيء ، واقوالكم شيء وما فى رأسكم شيء ثالث لا علاقة له بالاثنين . كفاك ايها القسيس حتى لا تصيب رأسى بدوار . دعنى وحدى ، فانى ضيق الصدر ولست اليوم على ما يرام . فضلا عن أننى تشاجرت اليوم مع هذا الشيطان براهيماكى .

قال العبارة الأخيرة وهو يشير الى براهيماكى .

كان براهيماكى يدخن سيجارته فى صمت ، ينفث الدخان ليتصاعد الى السقف ، ويكشف عن أسنانه البيضاء الحادة كأسنان الكلب ، ولكنه لم يكذب يسمع اسمه حتى التفت الى الأغا فى غيظ وثورة :

– قل للقسيس ما اتفقنا عليه ، والا فاننى سأغادر القرية عائدا الى سميerna . هذه القرية مقبرة .

وتظاهر بأنه يهم بالوقوف ، ولكن الأغا أمسك به من كتفه .

– اجلس ايها الشيطان . ابق فى مكانك . سأقول له .

ثم توجه بالحديث الى القسيس جريجوريس .

– قسيس افندى ، ماذا تريدنى ان أفعل ؟ أتبتنى تطلب منى خدمة . ما هى ؟ أفصح ، وسوف نسام . ولكن تكلم فى وضوح وأوجز حتى أستطيع ان أفهمك . لا تعقد الأمور . هل تفهم ما قول ؟ فان مخى ليس آلة حاسبة ، بل هو مخ بسيط . ادخل فى الموضوع . وهانذا أنصت لك .

اقترب القسيس بكرسيه من الأغا وبدأ يحدثه بايجاز :
- يا أغا ، هذا الغر الأبله ، ابن المرحوم بطرياركاس تنازل عن
ثروته للشحاذين سكان ساراكيئا .
وقاطعه الأغا :

- حسن ، هذا حقه ، فهى ثروته . أليست ثروته ؟ له أن يفعل
بها ما يشاء .

- نعم هذا صحيح ، ولكن ما يجب أن تعرفه هو أن هؤلاء الاراذل
هم أتباع العدو أرسلهم الى هنا ليقطعوا الخيط .

- هه . ما هذا الكلام الذى تقوله يا قسيس ؟ أوضح يا قسيس .
قل كل ما عندك .

- سأقول كل شيء . يتزعمهم القسيس فوتيس ومانولى .
سيأتون غدا لحصاد بساتين الكرم ، اذ يزعمون أنها بساتينهم . هل
تعرف معنى هذا ؟ ستكون لهم قدما راسخة فى قريتنا - فى قريتك
يا أغا ، ثم يستولون عليها شيئا فشيئا ، ويطردوننا منها وبذلك
يقطعون الخيط .

- ماذا تريد اذن ؟

- غدا عندما يأتى الاشتراكيون يجب ان تقف بنفسك عند مشارف
القرية وتطردهم .

- ولكن لماذا تسألنى أن أطردهم يا قسيس ؟ أليست بساتين الكرم
ملكهم هم ؟

- لا

- كيف لا ؟ ان رأسى يكاد يتصدع . ألم يتنازل ميشيل لهم عنها ؟
وبذلك آلت اليهم . اليس كذلك ؟

- قلت لك لا يا أغا . اننا بصدد ان نعلن ان ميشيل انسان غير
مترن .

- غير مترن ؟ وما معنى هذا الآن ؟ أوضح .

- اعنى أنه ليس بكامل قواه العقلية ، لا يعى ما يفعل ، وبذلك فان
الهبه غير صحيحة ولا جائزة .

- ولكن هل هو مجنون فعلا ؟ أقسم بدينى انه يتمتع بكامل قواه
العقلية .

- الجنون والعقل مرتبطان ببعضهما يا أغا . ولا احد يعرف اين

ينتهى هذا وأين يبدأ ذاك . لذلك فاننا سنبحث عن وسيلة نثبت بها جنون ميشيل .

أمسك الأغا برأسه بين راحتيه ، وفجأة انفجر ضاحكا . وقال :

— فهمت ، فهمت . أنتم أيها الروميون تتمتعون بذكاء القردة وخبثها . سيأتى يوم تضعون فيه العالم داخل حبة وتبتاهونها .
— ماذا ترى يا أغا ؟

— اسمعنى يا قسيس جريجوريس . أوراق اللعب فوق المنضدة ، واللعب خذ وهات . سأقف عند مشارف القرية كما تطلب ، واطرد هؤلاء الشياطين الفقراء أهل ساراكيينا ، ولكن عليك من جانبك ، أنت . . خذ وأعط ، هل تعرف مقصدى ؟

واريد وجه القسيس الذى أدرك ما يرمى اليه الأغا .

— هل تفهم ؟ سأفعل ما تطلبه منى يا قسيس ولكن عليك أن تفعل أنت من جانبك ما أطلبه منك .

وقال القسيس بطرف شفتيه :

— قل ماذا تريد يا أغا ، وإذا كان ذلك فى مقدورى .

— انه مطلب بسيط للغاية . لا تبتئس . ها هو براهيماكى موجود ، انه يطلب بأى ثمن أن ترقص بنسات القرية أمامه ذات يوم حتى ينتقى من بينهن من يشاء .
— هذه مسألة خطيرة يا أغا .

— خطيرة أم غير خطيرة ، لا بديل سواها . ألا يمكنك أن تفهم ما أقول ؟ .. انظر الى هذا الشيطان . انه غلام شبق فى الخامسة عشرة من عمره . من منا يستطيع أن يكبح جماحه ؟ أنت ؟ أم أنا ؟ ولكن عليك أن تحاول . انه قادر على أن يلتهمنا نحن الاثنين دفعة واحدة . لا يكبح جماحه غير امرأة . لذلك لا بد وأن نهتدى الى امرأة تروضه . انه الآن أشبه بمهر شמוש ، تحاول أن تركبه فيلقى بك أرضا . ولكن اذا روضته تستطيع أن تمتطيه ويلتذ بركوبك ويهز لك ذيله .
كان براهيماكى يضحك وهو يسمع هذا الكلام ، كان هناك من يدغدغه .

وتعمم القسيس :

— من المؤسف حقا أن ماتت الأرملة .

– لنبحث عن غيرها يا قسيس ..

وقفز براهيماكى وصاح :

– أريدها فتاة في ميعة الصبا ، بضعة غير حدباء ، بيضاء كالخيز ،
ويجب أن تكون امرأة فارك تقاومنى وأصارعها ثم القى بها تحتى وهى
تصرخ وتبكى وتشد شعرها ، ففى ذلك متعة كبرى .. هل يمكن
الحصول عليها يا قسيس ؟

وشرد القسيس بفكره يتأمل ثم قال :

– يجب أن نهتدى الى فتاة يتيمة ليس لها من يزود عنها فى القرية
حتى نتجنب الفضيحة . لا أخشى غير الفضيحة يا أغا ، ولا شىء سواها
... أمهلنى يا أغا ..

وقاطعه براهيماكى :

– ماذا ؟ ماذا يريد ؟

– يطلب مهلة قصيرة يبحث لك فيها عن المرأة التى تطلبها يا ابن
الزنا . انه على حق فيما يقول هذا القسيس . انظن انه يحتفظ بهن
عنده فى عشبة الدجاج ، هل تظنهن دجاجا ، وليس عليه الا ان يمسك
بمن تروك منهن ؟ ثم هناك شىء آخر ، لا أريد أن أراك متجهما هكذا ،
اتفهم ، والا قسما بالله سأخصيك حتى تستريح وتريح . هل تسمع
ما أقول ؟ أسكت ! وان كنت متعجلا الى هذا الحد فإليك مارثا .

بصق براهيماكى على الأرض وقال :

– أف . أنا لا أريدها !

– اتفقنا يا قسيس . لا تعبأ بكلامه . سأهلك بضعة أيام ..
عرفت أوصاف المرأة التى يطلبها – صغيرة بضعة ، بيضاء ، حية .

وتنهذ القسيس فى استسلام ونهض وهو يقول :

– موافق يا أغا ، وغدا فور وصول أهل ساراكيانا .

– لك ما أردت ، موافق . ومن جانبك .

– سأحاول أن اهتدى .. وليفقر الله لى .

وقال الأغا وهو يضحك :

– لا عليك يا قسيس ، فانه سيفقر لك بكل تأكيد . فالرب يفرض
الطرف ، ويعرف الحياة أيضا .

غادر القسيس بيت الأغا قلقا مهموما . فهذا العمل لا يلقى هوى
في نفسه ، ولكنه مكره عليه . انه على استعداد لأن يقدم على أى شيء
الا أن يترك القرية تسقط بين يدي القسيس فوتيس ليقضى عليها . .
فوالدين والوطن والشرف والملكية ، كلها في خطر . .

ودعا اعيان القرية وذوى الاملاك فيها ، وتحديث اليهم في هذا
الشأن ، فقال لهم :

— غدا سيهبط علينا حملة القمل لحصاد بساتين الكرم التى منحها
لهم هذا الملعون التمس ميشيل . . وعلينا جميعا نحن الحاضرين هنا
أن نشهد — بل ونقسم على هذه الشهادة اذا اقتضت الضرورة — بأن
ميشيل لم يكن طفلا سويا منذ نعومة أظفاره . هل تفهمون ما اعنى ؟
انه يرى اشباحا ، او انه مجنون ، لا ادرى ما هى العبارة على وجه
الدقة . المهم انه انسلخ غير متزن . وان اى محتال ، وليكن القسيس
فوتيس على سبيل المثال — يستطيع ان يوقع به في حباله ، ويفرر به
حتى يوقع على أى أوراق يطلبها منه . . ويترتب على هذا بطلان الهبة ،
ومن ثم فان بساتين الكرم لا يحق أن تؤول الى المتشردين الذين ينزلون
بجبل ساراكيينا ، وكذلك بالنسبة للحقول والحدائق والمنازل . .
وبطرياركاس لم ينجب أطفالا غيره ، ولذلك يتعين أن تؤول هذه الثروة
الى المجتمع ، أى الينا . . هل توافقون؟

وأجاب الأقطاب معجبين بدهاء القسيس :

— موافقون .

— أتيت توا من بيت الأغا ، ووصلت معه الى اتفاق . وبعد أخذ
وعطاء أقتعته بأن يظهر عند مشارف القرية فوق صهوة جواده مدججا
بالسلاح . انه لن يسمح بدخول الاشتراكيين حملة القمل . وأنتم عليكم
أن تتجمعوا كلكم ومعكم خدمكم وكلابكم وعصيكم لكي تعضدوا الأغا . .
شيء واحد فقط أحذركم منه . . حذار من أراقة الدماء حتى ولو كان جرحا
طفيفا . لا تنسوا أننا مسيحيون وعلينا أن نجب أعداءنا .

ثم أرسل بعد ذلك في طلب بانايوتى . وجاءه مع المساء ، وقد
تغيرت صورته حتى لينكره من يعرفه . أحرق لحيته ببعض جمرات الفحم
الموقدة ، وأصاب الحروق وجنتيه وعنقه حتى غطتها القروح . وقص
شعره بمقص كبير مما يستخدم لجز صوف الماشية .

لم يستطع القسيس ان يمنع نفسه من الضحك رغم كل همومه

وقال له :

— هل تعرف ماذا فعلت بنفسك أيها الأبله ؟

وجأر يانايوتى .

— هذا شأنى أنا . لا تكثر من الأسئلة يا ابانا ، والا سأغادر المكان وأتركك دون معين . وأنا أعرف أنك بحاجة الى .

— لا تغضب يا بانايوتى . لم أقصد اهانتك . اسمع . انى بحاجة اليك غدا . خذ هراوتك الكبيرة ، واذا أتى مانولى معهم فأوسعه ضربا . فهو طريد الكنيسة ودمه مباح ، ولن يمنعك أحد عنه . يمكنك أن تقتله اذا شئت . اذهب والله معك .

— دع الله بعيدا عن هذا يا ابانا . لا تشركه فى دسائسنا . أنت تفرغ من القسيس فوتيس ، وأنا أكره مانولى ، هذه هى القضية . فلا تشرك الآلهة والعذراء المقدسة فى ذلك . فهذا لا يعينى فى شيء ولا علاقة لى به . وانت من الدهاء بحيث تعرف ما أعنيه . والى اللقاء غدا .

واتجه ناحية الباب ، وتوقف لحظة عند العتبة ، ونظر الى القسيس وقال :

— كلانا اخ للشيطان . هذا هو الواقع .

نزل أهل ساراكيينا من أعلى الجبل وهم يتفنون ، بينما سار مانولى فى مقدمتهم غارقا فى تفكير عميق . وظل يردد بينه وبين نفسه :

— أسأل الله ان يقينا شر الصدام وسفك الدماء .

ولم يكد أهل ساراكيينا يقتربون من القرية حتى راوا جمعا من الناس حول بئر القديس بازل ، البعض يجلس على الأرض ، والبعض الآخر يتجول ممسكا بهراوات غليظة . وتناهت الى أسماعهم صيحات التهديد والوعيد .

توقف مانولى واستدار الى رفاقه وقال لهم :

— اعتقد يا اصدقائى أنهم سيقاومونا . لتبق النساء هنا فى انتظارنا ، ولنتقدم نحن الرجال ، والله خير معين . سنتقدم وكونوا على ثقة من أن الحق الى جانبنا . ولكن اذا ما أصروا على القتال بأى ثمن فاننا لن نقاتلهم ، فهم أخوة لنا قبل كل شيء ، وانما سنتوجه فى

هذه الحالة الى الأغا ، فهو حاكم القرية ، وسيفصل بيننا . وليس
ثمة ادنى شك في ان بساتين الكرم آلت الينا ، وأصبحت ملكا لنا الآن ،
ولذلك فانه سينصفنا .. تقدموا يا اخوتي باسم المسيح ! .

جلست النساء في دائرة وسط الأكام ، وواصل الرجال مسيرتهم .
لم يطل بهم المسير اكثر من مائة خطوة حتى رأوا حجرا يطن في الهواء
فوق رأس مانولى . وتبعه آخر ، وغيره كثير . وهكذا أصبح الهجوم
وشيكا . وتحركت مجموعة الرجال التي اجتمعت حول البئر ، وساروا
تجاههم للملاقاة ، وكان على رأسهم بانايوتى بلحيته المحروقة يتقدمهم
بخطوات تشبه خطوات الدب .

وزار لوكاس العملاق حامل العلم :

- ماذا نحن فاعلون ؟ لن نتركهم يتخذون منا أهدافا لحجارتهم دون
ان نرد عليهم . اجمعوا حجارة يا أصدقائي وارجموهم .

وقال مانولى معترضا :

- حسبكم ، لا تسفكوا الدماء يا اخوتي .
وتعال صيحات غضب مفيظ من حول بشر القديس بازل :
- ارجعوا ، ارجعوا يا حملة القمل . لن يطأ أحدكم أرض قريننا .
ارجعوا .

وتقدم مانولى رافعا يده الى أعلى علامة أنه يريد التفاوض معهم .
- اخوتي ، اخوتي ، اسمعوني .
- يا طريد الكنيسة ، يا لص ، يا قاتل ، يا اشتراكي .
واندفع أهل ليكوفريسي نحوه وقد استشاطوا غضبا وثورا .
وبسط بانايوتى ذراعيه . وخار كالعجل :
- لن يمسه أحد . أتركوه لى فأنا المختص به ، انا وحدى الذى
سأنازله .

ثم انقض على مانولى .

وسرعان ما احاط أهل ساراكيينا بقائدهم .

والتقط لوكاس حجرا كبيرا في يده وصاح بأعلى صوته :

- لو مس أحدكم مانولى فانى سأهشم رأسه كالبطيخة .

ونفذ الشمساس تعليمات القسيس جريجوريس اليه . بدأ يعدو هنا وهناك وهو يصيح .

— انه محروم من الكنيسة . اضربه يابانايوتى ، اطرحه أرضا ، فان بدك ستتطهر من دمه .

وأقبل ناظر المدرسة لاهثا :

— اخبرونى يا اصدقائى باسم المسيح ، ماذا حدث ؟ كفوا ايديكم .
وصاح الشمساس :

— يحاولون غزو قريتنا لاحتلالها .

وصاح أهل ساراكيئا :

— بل نحن نبغى حصاد بساتين كرمننا . فهى ملكنا ، أعطاها لنا ميشيل .

وعوى الأب لاداس بصوت كالصرير وهو يتوارى خلف ناظر المدرسة :

— صدر اعلان بأن ميشيل مجنون ، ومن ثم فان الهبة غير صحيحة .

— الهبة غير صحيحة ، أخرجوا ، أخرجوا يا قطاع الطرق ، يا خونة .

فى هذه اللحظة انقض بانايوتى برأسه على مانولى مثلما ينقض الثور . ولكن لوكاس اندفع نحوه بكل قوته وهو يحمل حجرا كبيرا فى يده . وضربه فوق ركبته ، وترنح بانايوتى ثم انقض عليه لوكاس وطرحه أرضا ، وجثم فوق ظهره ، وأوسعه ضربا مغيظا . واستجمع بانايوتى كل قوته وأفلت من تحته ، وأمسك بلوكاس من خصره . وتصارعا كل منهما يخور بصوته ويتدحرج ، وكان صراعهما سجالا بينهما .

والتقط الشمساس حجرا واتخذ مانولى هدفا له .

وصرخ :

— يا محروم ، يا اشتراكى .

وطار الحجر فى الهواء ليضرب مانولى فى جبهته ، وتفجر الدم ، وفاض على صفحة وجهة . وصاح أهل ساراكيئا :

— سيقتلون مانولى ، اهجموا عليهم .

وبدأوا هجومهم على أهل ليكوفريسي .

وتقاتل أهل ساراكيئا مع أهل ليكوفريسي . ولاذ الأب لاداس

بالفرار . وحاول ناظر المدرسة ان يتدخل ، ولكنه تلقى الضربات من كلا الجانبين .

وهرع صبي الى القرية وهو يصيح بأعلى صوته في غبطة وفرح :

— قتل مانولى المحروم ، قتل مانولى الأستراكي ، أفرحوا وتهللاوا .

سمع قسطندى صياحه ، فاندفع خارجا من مقهاه ، وأمسك

بعضاه ، وهرول مسرعا .

ونادى على الصبي وهو يجرى :

— اين ؟ اين ؟

— عند بئر القديس بازل .

واتجه قسطندى الى هناك ، ونار الثورة تكاد تحرقه . والتقى في طريقه بياناكوس ودون ان يحدث احدهما الآخر ، جرى الاثنان معا .

تلاحم أهل ساراكيئا مع أهل ليكوفريسي حول بئر القديس بازل حتى أصبحوا كتلة واحدة تتدحرج بين الصخور يصدر عنها زئير عال .

وفقدت نساء ساراكيئا صوابهن ونزلن أرض المعركة وأسهرن بنصيب في القتال بأذرعهن التي اشتدت مع عملهن في وطنهن الجديد ، ووجهن

الكلمات كما تلقين مثلها كالرجال تماما .

وعلا صوتان فيهما خشونة وجزع :

— مانولى ، مانولى ..

كان مانولى جالسا فوق صخرة يضمد جرحه ، وسمع الصوتين ، وتعرف عليهما ، فرفع رأسه وشخص ببصره اليهما . وصاح :

— ها انذا يا اخوتي ، لا تجزعا

وفي هذه اللحظة ذاتها عوى الاب لاداس ، فرحا مفتبطا ، من فوق صخرة ارتقاها :

— ها هو ذا الأغا ، ها هو ذا الأغا ..

وسمع الناس صهيل الفرس وهي تعدو والشرر يتطاير من تحت سناكبها . وظهر الأغا عند البئر بمسدسه القضى ، وسيفه الطويل ،

وطربوشه الاحمر ، ثملا تماما . وشد اللجام بقوة حتى أن الفرس تقهقرت الى الوراء . وتمالك نفسه فوق السرج خشية الوقوع ، وتشبت

بمعرفة الفرس . أمسك الأغا بمسدسه وأطلق رصاصة في الهواء ودوى صوته كهزيم الرعد :

— ياكفرة .

وفي لمح البصر تفرق هذا الخليط البشري ، وانفصل الجمعان ، وأصبح أهل ساراكيئا في جانب وأهل ليوفريسي في جانب آخر ، وقد تمزقت ثيابهم ولطخها التراب والدم . لم يبق على أرض المعركة سوى ناظر المدرسة وحده ، طريحا على الأرض بين الفريقين وقد أصيب أصابات خطيرة ، وعبثا يحاول النهوض على قدميه حتى يحيى الأغا التحية الواجبة .

ونظر الأغا الى أهل ساراكيئا بعينين تقدحان شررا ، وصرخ من جديد :

— ياكفرة .. لماذا أتيتم الى قريتي .. هه ؟ ارجعوا ، ارجعوا ايها المتشردون .

وتقدم مانولى الصفوف وتكلم :

— يا أغا لنا بساتين كرم في ليكوفريسي ، أتينا لحصادها ، فهي ملك لنا .

— اذهب الى الشيطان . منذ متى وهي ملك لكم ؟ هه ؟ بأى حق آلت اليكم ؟ من أين سرقتم هذه البساتين يا حملة القمل ؟

واشراب الاب لاداس بعنقه من فوق صخرته وضحك في سخرية .
وأجاب مانولى :

— أعطاهما لنا ميشيل .

وقال الأغا :

— هذا كله لا قيمة له ، أيها الحمقى البؤساء ، فان توقيعه لا يعنى شيئاً ، فهو لم يبلغ سن الرشد بعد .

وتكلم الأب لاداس من مخبأه ، ليصحح كلام الأغا .

— ليس السبب صغر سنه بل جنونه .

— نفس الشيء أيها الشيخ السفيه . اخرس .

واستل مسدسه وصوبه ناحية الأب لاداس . وتهاوى الشيخ وراء الصخرة وهو يصيح :

— الرحمة ، الرحمة .. حقاً ما تقول .. هو عين الصواب .. لم يبلغ

سن الرشد بعد .

وانفجر الأغا ضاحكا ، واغمد مسدسه في جرابه . ثم قال موجها حديثه الى أهل ساراكيينا :

من منكم المدعو مانولى ؟ ثمة ضباب يحجب عنى الرؤية الواضحة .
ليتقدم الى هنا .

واقترب مانولى من فرس الأغا وقال :

— ها أنذا .

— حسن . أنت ولد طيب . أنت كذلك حقا يامانولى رغم كل أقاويلهم عنك . اقترب منى أيها الكافر . اسمع ، قل لى بصراحة ما معنى اشتراكى ؟ لقد صدعوا رأسى بهذه الكلمة . قل لى هل هو رجل أم حيوان أم وباء عضال مثل الكوليرا ؟ فأنا لا أعرف شيئا عنه . هل تعرف أنت ؟

وأجاب مانولى :

— نعم يا أغا أنا أعرف .

— اذن ، أستحلفك باللهك أن تحدثنى عنه حتى أعرف أنا أيضا .

— الاشتراكيون هم المسيحيون الأول يا أغا . . .

— دع المسيحيين الأول حيث هم يا كافر ، لا تشوش أفكارى . عندى ما يكفى من العرقى لذلك . ما شأنى أنا بالمسيحيين الاول ؟ أنا أسألك ما معنى اشتراكى ؟

وتحدث الأب لاداس بصوت أخنف :

— سأوضح أنا لك يا أغا . انهم يطالبون بالأ يكون هناك غنى أو فقير بعد اليوم ، وانما أن يكون الناس فقراء كلهم ، ألا يكون ثمة اغاوات أو رعايا بعد الآن ، ويتحول الناس جميعهم الى رعايا . بل والاكثر من هذا لن تكون هناك امرأة زوجة لك أو زوجة لى بل النساء كلهن مشاع بين الناس جميعا .

وزار الأغا :

— لا اغاوات ولا رعايا ؟ هل معنى ذلك أنهم يريدون أن يقلبوا نظام الله رأسا على عقب ؟ ابتعدوا عن هنا بهذا الوجه النكد .

وبسط راحته أمام وجه مانولى وقد باعد بين أصابعه فى حركة استنكار كأنما يلعنه وقال له :

— افتح عينيك وانظر الى يدى : هل كل أصابعى متماثلة ؟ هناك أصابع صغيرة وأخرى كبيرة ، الله هو الذى خلقها على هذه الصورة . وهكذا

أيضا خلق الناس جميعا ، بعضهم صغير والآخر كبير ، بعضهم سادة وغيرهم عبيد . وكذلك أيضا خلق الاسماك فى أعماق البحار - الكبير منها يأكل الصغير . وبنفس الطريقة وضع الرب الماشية الى جانب الذناب لتأكل الذناب الماشية . هذا هو نظام الله ، ثم تأتون الآن أيها الاشتراكيون .. عليكم اللعنة .

ثم استل سيفه ، بعد أن فرغ من كلامه ، ونخس الفرس وهجم على أهل ساراكيينا .

وصرخت النساء صرخات صاكة وهرولن فى ذعر ناحية الجبل ، وتراجع الرجال فى ذهول وحيرة . ولم يبق غير مانولى الذى ثبت فى مكانه راسخا .

وصاح فيه الأغا :

- أنت يا كافر ، ابعد عن هنا والا قطعت رأسك . ألا تخاف ؟

وقال مانولى :

- بل أخاف ، ولكننى أخاف الله وحده ، أما البشر فانا لا أخافهم أبدا .

وأغرق الأغا فى الضحك ، قال :

- أقسم لك بدينى أنك مجنون تماما .. بيد أنك خفيف الظل . تعال معى الى بيتى ولتكن سميرا الى . لا فرق عندى بين البلهاء والقديسين ، فهما شئ واحد . وأنت مجنون وقديس فى آن واحد ، أنت دعاية مقدسة ، هذا رأى . تعال معى أقدم لك الطعام والشراب والملبس وأخلق منك رجلا .. ألا تريد ذلك ؟ اذهب الى الجحيم اذن أيها الأبله . ابعد من هنا ، فقد غيرت رأى فىك ولن أقتلك .

والتفت الى أهل ليكوفريسي الذين أطربهم سماع الأغا وهو يدافع عنهم وقال لهم :

- وأنتم أيها الكفرة لستم مجانين ولا قديسين ، اذهبوا الى الشيطان . كروش متخمة وصعاليك .. أغربوا عن وجهى .

وسرعان ما ابتعد أهل ليكوفريسي فى وجل . وانحنى ياناكوس وقبطندى فوق ناظر المدرسة وانتشلاه من فوق الارض ، وأخذا بيده وعادا به الى داره . كان الرجل البائس يعرج ويعانى ألما موجعا فى قدميه .

وقال لهما معترفا :

— نلت جزائى الذى أستحقه • لست حملا ولا ذنبا ، بل لقيطا تعضنى الذئاب وتبول على الماشية • أنا أعرف جيدا طريق الحق والصواب ولكننى أسكت عنه ، فالحوف يملأ قلبى • كيف لى أن أرفع رأسى وأنا البائس الفقير • انى أخاف • • والنتيجة ما ترون ، وطننى أهل ليكوفريسي وأهل ساراكيينا بأقدامهم دون أن تأخذهم بى رحمة • وهم على حق فى ذلك • أقسم بدينى أنهم على حق ، ونلت جزائى الذى أستحقه •

ونظر الى رفيقيه اللذين يعينانه على المسير ، وسألها فى اعجاب :
— وأنتما ، ألا تخافان شيئا ؟

وأجاب يانوكوس :

— بل نخاف ، ولكننا نتظاهر بالشجاعة كما ترى • أوضح لك ما اختلط أمره على ؟ أنظر الى : انى أتظاهر بالشجاعة ، بينما يرتعد بدنى فرقا • ولكن الشئ الغريب أننى مع التعود على التظاهر بالشجاعة أجدنى رويدا رويدا شجاعا حقا • هل عرفت ما أعنى أيها الشيخ ؟ ترى ماذا تقول لك كتبك الكثيرة عن هذا ؟ أصدقك القول اننى لا أفهم بوضوح ، فانا حمار •

وابتسم ناظر المدرسة رغم ما يعانيه من ألم • وقال :

— أود أن أتنازل عن كل معلوماتى لأصبح مثلك يا يانوكوس • • وماذا عنك يا قسطندى ؟

— أنا ؟ أنا أسوأ حالا من يانوكوس • أوكد لك هذا ، أسوأ منه فعلا • الحوف يملأ قلبى ، ارتعد فرقا وأرتجف ، ويهرب الدم من عروقى • ولكننى أشعر بالحجل • ولو حدث أن تخليت عن كل شئ فى حياتى لأسلك طريق المسيح ، فثق أن هذا لن يكون بدافع محبة الخير ، أو الشجاعة ، ولكن بدافع احترام النفس لا غير • سأرتجف وارتجف فرقا ، ولكننى لن أراجع هل تفهمنى ؟

وأضاف يانوكوس :

— أما مانولى فهو أفضلنا جميعا ، اذ أنه لا يتكلف الشجاعة وانما هو شجاع حقا •

رحلة بأقدام عارية

فى اليوم التالى ، ومع مطلع الفجر ، اتخذ ميشيل طريقه نازلا من الجبل . كان يتميز من الغيظ ، ويقول لنفسه :

- سأذهب من فورى الى بيت القسيس أنتف شعر لحيته ، وسأذهب الى الأعيان أصب عليهم لعناتى وأفضح سوءاتهم . سأدق أجراس الكنيسة أدعو القرية جميعها لتشهد وتسمع .

كنت تراه حيناً ثائراً مهتاجاً ، وحيناً هادئاً ساكناً يقلب الامر فى رأسه بحثاً عن أقسى الكلمات ، ولا يدرى من أين يبدأ . . . لم يغمض له جفن طوال الليل . وطلع الفجر عليه وعيناه مفتوحتان . وتراءى له طيف أبيه . عاد الرجل الميت الى الظهور من جديد ، ووقف الى جانب فراشه ، يهز رأسه وينظر اليه بعينين فيهما تأنيب . . . وتحركت شفثاه ، وسمع ميشيل صوته الضعيف الواهن يأتية من العالم الآخر : « لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ . . . ولم يقل شيئاً آخر .

هب ميشيل من مرقده ، وأمسك بعصاه وهرع الى القرية وهو يرتجف قصد بيت القسيس لتوه ، دفع الباب ودخل . اجتاز الفناء ، والفى القسيس جالسا بجوار النافذة ، منحنيا فوق رسالة يقرأها والدموع تفيض من عينيه .

ولم يكذب يبصر ميشيل حتى أسرع باخفاء الرسالة داخل جلسابه . ولكن ميشيل استطاع أن يلمح الخط الذى سطرت به الرسالة وتعرف عليه

وأدرك كل شيء ، وزايله الغضب • رأى الموت يرف بجناحيه فى الهواء ،
فانقبض قلبه • تمالك القسيس نفسه ، وكفكف دموعه ونظر الى ميشيل •
وتحدث اليه ساخرا :

- أى ربح طيبة حملتك ، الينا يا فتى ؟ سرعان ما ضقت باهل
ساراكيثا ؟ حياة الراهب قاسية ، لذلك عد الى بيتك وقريتك وانعم بثروتك
أيها البائس •••

وأضاف فى قلق :

- ترى هل لم توقع أى أوراق بعد ؟ •

- أنا لا أملك شيئا الآن ، لا شيء البتة ، أسقطت عن كاهلى كل
أحمالي وأصبحت حرا •

وعاود القسيس سؤاله فى انزعاج :

- هل وقعت أوراقا ؟

- نعم •

وضرب القسيس الشباك بقبضته فى توة وزار :

- أنت مجنون ، مجنون ، هلكت أيها التعس • ها أنت الآن أصبحت
عبدا لذلك القسيس الافاق • لهفى على كل هذا الثراء الضائع •

وأحس ميشيل بالغضب يعتمل فى صدره ، وعاود كلامه ثانية :

- بل أصبحت حرا ، وانما أنت العبد يا أبانا • لهفى على هذا الرداء
القدسى الذى ترتديه •

وقال القسيس بصوت خافت حزين مفعما ضغينة وحقدا :

- واجهت كثيرا من المشاكل ابتغاء مصلحتك ومصلحة ابنتى •• والآن
انتهى كل شيء •

- ماذا قالت فى رسالتها ؟

أخرج القسيس الرسالة وقال :

- هاك اقرأها •

أمسك ميشيل بالرسالة • بللتها الدموع • ترى هل هى دموع
القسيس ؟ أم دموع ابنته ؟ انه لا يدرى • قرأ ميشيل كلمات الرسالة
فى تأن وصعوبة ، وترقرقت الدموع فى عينيه •

- •• ساعات حالتى يا أبت • معذرة ان كنت أثقلك بالهم ، لكن

المرض اشتد على .. أذوى يوما بعد يوم ، أوشك أن أودع الحياة . لم يعد يكثرث بي الأطباء ، يمرون بفراشي دون أن يتوقف أحدهم ليلقى نظرة على واسقطوا اسمي من قائمة مرضاهم . وها أنذا أرقد هنا وعيناي مثبتتان على السقف كأنه السماء ، فلم يعد لي سماء غيره . ربما أهدأ مع الموت ، بل وأسعد به ، لولاك أنت يا أبى . ستبقى وحيدا بعد وفاتي ، ولن تجد من يسهر على خدمتك أو يقدم لك كوب ماء .. انى حزينه من أجلك ومن أجل خطيبي السابق . ربما يحزنه موتى ، ولكننى لا أكف عن البكاء كلما تذكرته .. لماذا ؟ لماذا ؟ ماذا جنيت ؟ لم أكن أطلب فى حياتى غير بيت وطفل .. أما الآن ...

لم يستطع ميشيل مواصلة القراءة . ووضع الرسالة فوق قاعدة الشباك ، واتجه ناحية الباب . وقال :
- حسن ، سأصرف .

- لكن ماذا كنت تريد منى ؟ لماذا أتيت ؟

- لا شيء البتة . لا أريد شيئا . ماذا عساي أن أطلب منك ؟ سلاما . ما أقسى الرب على بنى البشر ، يضربهم بقوة فى غير هواده أو رحمة .. ترى ماذا اقترفت فى حق الله ؟

كان ميشيل قد بلغ عتبة باب الفناء ، ولكنه استدار فى ثورة وغضب .
- بل أنت أحق بهذه الضربة من لدن الله يا أبانا . أنت الذى تملأ قلبك الشهوات الدنية ، أنت دون ابنتك .
وتمتم القسيس والدموع تفيض من عينيه :

- عرف سبحانه أين ينزل ضربته على ، وقد فعل ...

وتملكه الغضب فجأة ، وقفز الى وسط الفناء حافى القدمين . وصاح بصوت فيه أنين ونواح :

- انها غلطتك ، غلطتكم جميعا . غلطة مانولى وقسيس سارا كينا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس ، وأنت معهم . أنتم سبب كل ما حدث ، بخديعتكم وخيانتكم . كنا نعيش فى هناء قبل أن يحدث كل هذا ، كانت الامور تسير حسب سنة الله وتديره لثئون خلقه ، ولولا ذلك لشفيت ابنتى من مرضها ، ولما قتلت أباك بسبب سلوكك المشين ، ولأصبح لي بعد عام حفيد أحضنه بين ذراعى .. ولكن وا أسفاه .. غرر بك مانولى ، هذا الفاسد المتشرد . وجاء من بعده القسيس ذو اللحية الشبيهة بلحية التيس ، هذا الثعلب العجوز ، عليه اللعنة . والنتيجة أن مات أبوك

حزنا وكمدا ، وبددت ثروتك ، وألقيت أنا بخاتم الخطبة في وجهك . وسامت
حالة ابنتي وتدهورت لسماعها النبأ . والآن ، انتهى كل شيء ، فقد هلكت
وضاع الأمل . . أنت المسئول عن موتها أيضا أيها الشقي التمس . قتلتها
مثلما قتلت أباك . كانت تضارع المرض في شجاعة هذه البائسة ، أما
الآن . . .

وأخذ يذرع الفناء بخطوات واسعة ، يتوعد ويتنهد ، وينتحب .
واستبد به غضب شديد :

— كنت على صواب حين أعلنت على الملائك أنسان غير متزن ، مجنون
وتوقيعك غير ذى قيمة . سأزع عنك كل أملاكك واعطيها للمجتمع .
رسب ساراكيئا عليه العنة ، لن يذوق منها حبة عنب واحدة ، ولا حبة
زيتون أو حبة قمح . . أبدا ، أبدا . لن تسير الأمور حسب هواك . أقسم
أنى سأنتقم منك لأبيك ولابنتى . . وسوف ترى ، سترى بعينيك أننى جاد
ولا أهزل . لا تضحك ، سأذهب الى الاسقف وأحيطه علما بكل شيء ،
ومعى كل أهل القرية شهود على صدق ما أقول ، حتى الاغا نفسه فانه
يقف الى جانبي . سأحرمك من كل شيء .

وقال ميشيل الذى انفطر قلبه لما يبديه القسيس من أسف وكرامية :

— نعم ، كل الناس معك ما عدا الله . هل لك قلب يرضى بموت شعب
بأكمله جوعا فوق ساراكيئا ؟ ألا تخشى الله فى ذلك ؟

— لو ماتت ماريورى سأتحول الى وحش كاسر . لن تأخذنى رحمة
بأى انسان . لن أخشى الله أو الناس . سأطرح عنى رداى الدينى وأحمل
سلامى وأقتل الناس جميعا . لماذا يقتل الرب قرّة عينى ماريورى ؟ ماذا
فعلت؟ هل يوجد على الأرض من هو خير منها وأكثر براءة ووداعة؟ سأقتل
مانولى قبل أى انسان آخر ، ففى قتله دواء لكل الشرور . لم يشنقه
الآغا ، ولكن سأشنقه أنا . يمثل أمامنا دور القديس والشهيد والبطل
بينما يبيع نفسه . . الحائن ، المرتد ، العميل .

وجن جنون القسيس ، وأرغى وأزبد ، وأخذ يلوح بقبضته فوق رأس

ميشيل وزار :

— ابعد عن هنا ، لا أريد أن تقع عينى عليك مرة ثانية ، أغرب عن
وجهى ان كنت لا تريدنى أن أهشم رأسك فوق هذا الجدار .

وتهاوى الى أرض الفناء فوق الحصياء ، فاغرا فاه .

لم يكن فى البيت أحد سواهما . وانحنى ميشيل فوق القسيس

البدين ، واستجمع قوامه وانتشله من فوق الارض . ودخل به المنزل ،
وطرحه فوق حشية . وذهب الى المطبخ وملاً كوب ماء ، وقدمها له . أمسك
القسيس بالكوب ، وشرب الماء رشقات صغيرة ، وفتح عينيه .
وتتمت :

— ميشيل ، انا رجل بئس محطم . طعننى الله فى قلبى طعنة نجلاء ،
ولا أستطيع أن أندم ، لا أستطيع ذلك . . لا أستطيع أن أصفح عن أحد ،
ايا كان هذا الانسان . أغرب عن وجهى ، لا أريد أن تقع عينى عليك مرة
أخرى .

ودبت فيه الحياة ، واستعاد قوته . نهض واقفا ، واجتاز الفناء ، وفتح
الباب :

— أخرج ولا تطأ بيتى بقدميك مرة ثانية .
وصفق الباب وراءه .

خرج ميشيل ، وهام على وجهه بين دروب القرية . أحس كأنه ضل
طريقه فى مكان غريب عنه تماما . خيل اليه أنه يمشى فى حلم ، يرى
البيوت والحانات وشجرة السنار لأول مرة . وعندما مر ببيت أبيه توقف
طويلاً يتأمله ، كأنما يبذل جهداً كبيراً ليتذكر شيئاً . . وهم باجتياز
العتبة ليدخل البيت ، ولكنه توجس خيفة . خشى أن يرى وسط الفناء
رجلاً ميتاً طويل القامة بديننا مكفناً بأعشاب اجتثت من الأرض ، باسطة
ذراعيه يسد عليه الطريق . . وارتعد فرقا ، وهرولاً بعيداً . وتذكر كلمات
الاتهام التى يوجهها اليه القسيس دائماً . . أنت الذى قتلته ، أنت . .
وتراءت له هذه الكلمات كأنها جثث موتى ، سلسلة طويلة من الموتى ،
تتعقبه وتجري فى اثره .

وتوقف عند طرف القرية . وسأل نفسه : « لماذا أتيت الى القرية ؟ نعم ،
لماذا ؟ كنت غاضباً وتلاشى غضبى . ولكن لماذا ؟ وفجأة طافت بخاطره صورة
ماربورى . رآها مسجدة على الأرض أمامه ، شاحبة الوجه ، شاحصة
العينين ، وعلى فمها منديل أحمر صغير . . وتمتم قائلاً « هذه القرية تعج
بالموتى والأشباح . لا بد أن أرحل عنها .

تكاثرت السحب ، واحتجبت الشمس ، وأظلمت السماء ، وهبت ريح
على غير انتظار ، وارتعدت الأشجار ، وتساقطت أوراق ميتة فرشت الارض
ببقع صفراء كأنها بدن عليل .

ومر به بعض أهل القرية ، وتظاهروا بأنهم لم يروه ، وحنوا الحطى ،

وتواروا عن ناظره . وبكى طفل عندما وقع بصره عليه . وظهرت امرأة عجوز عند باب بيتها ورأته ، فرسمت علامة الصليب وأغلقت بابها من فورها . وهرعت الى زوجها الكهل الذى كان ينقب فى الفناء بحثا عن شعاعة شمس يدفء بها عظامه الواهنة . وهمست له :

– ميشيل ابن عمدتنا الراحل يقف بالحارج • آه لو تلقى عليه نظرة انه يثير الأسى والرثاء •• لو ترى الحالة التى صار اليها ، يا رحمن يا رحيم ، أصبح هزيلا شاحبا ، غائر العينين •

وهز الشيخ رأسه وقال فى كراهية :

– نال جزاءه • بدد ثروته هذا الابله ، وها هو الآن يهيم على وجهه فى الطرقات •• هل هو حافى القدمين ؟

– لا ، فلا زال ينتعل حذاءه القديم •• يا له من مسكين • صدقوا حين قالوا عنه انه مجنون •

وقال الشيخ فى تهكم :

– هذه هى نهاية سلالة بطرياركاس : اكلوا وشربوا ما طاب لهم الاكل والشراب وجامعوا النساء ، وها هو مصيرهم الذى آلا اليه الآن • أقسم بدينى ان الرب عادل فى قصاصه منهم ، رغم كل ما قد يقال . اسمعى يا زوجتى اذا طرق بابك يوما فاعطه كسرة خبز ، حتى يقال اننا تصدقنا على آل بطرياركاس •

ورسم الرجل علامة الصليب ، ثم تمت فى رضا •
– الحمد لله •

ودوى على البعد قصف الرعد • واشتدت برودة الريح ، وحملت معها تذكيرا بسقوط المطر • وارتجف ميشيل •
وفجأة اتخذ قرارا • سأذهب الى ياناكوس •
وعاد أدراجه الى القرية •

بدأت تتساقط قطرات غليظة من المطر • وأقفرت دروب القرية •
ومر بيت الارملة ، وتوقف برهة ، ثم دفع الباب • كان الفناء مهجورا ، وزهور القرفل زاوية • ودلف الى داخل البيت : سرقت الحشايا والكراسى وخزانة الارملة • وتهشمت قوائم السرير الخشبية ، وتحطم شيش النوافذ ، ولم يبق منه غير واحد معلق على محوره ، تلمطه الريح فيصر حريرا كأنه نواح يعنى الحياة العابرة • أنف المارة أن يرتادوا البيت ليلوثوا جدرانهم وأركانهم •

وتتمم ميشيل :

- آه لك أيتها المسكينة كاترينا .. أمتعت واستمتعت .. كل مآشيدته
هذه الحجره من متع وملذات ذهب وولى .. أف لهذه الدنيا ، ما أحقرها .
وسمع صوت فأر يقرض الحشيب ، اتخذ لنفسه وكرا بين عوزرض
سقف الحشيبية ، وانهمك فى القرض دون كلل كأن الله أوكل اليه مهمة
التهام سقف الأرملة .

أغلق ميشيل الباب وراءه ، وأخذ طريقه الى بيت ياناكوس .
وسرح مع أفكاره وهو فى طريقه .

- مؤكد أن دخول كاترينا الجنة بكل خطاياها أكثر ضمانا من دخول
القسيس جريجوريس بكل مسوحو الكنسية . من يدري ، فربما تسكن
الجنة الآن ، تجلس الى جانب مريم المجدلية يتجاذبان معا اطراف الحديث .
وأحس بقلبه وقد تخفف شيئا ما من بعض همومه التى أنقلته .
وطرق باب ياناكوس .

كان ياناكوس فى الحظيرة منذ أن تنفس الصبح . ذهب اليها ليودع
حماره . فقد وعد أهل ساراكيينا به ، ولكنه تلقى بالامس رسالة من الاب
لاداس يقول له فيها :

- اما أن ترد لى الجنيهات الثلاثة أو أستولى على حمارك . تدبر أمرك
جيذا اذا كنت لا ترضى بدخول السجن .
ضم الى صدره رقبة رفيقه القوية الدافئة ، وانخرط فى نشيخ
وهو يبثه حديثا كله حب وحنان .

- حبيبى يوسفافكى . الناس لثام ، يفارون منا ، ويسعون من أجل
الفرقة بيننا .. ترى من سيزورك بعدى كل صباح ، يتحدث اليك ، ويربت
عليك ، ويملاً مسقاتك بالماء القراح ومدودك بالعلف ؟ من سيبحث لك عن
العشب الغض وسط الحقول ويقدمه لك طعاما هنيئا منعشاً ؟ ليس لى
سواك فى هذه الدنيا . لم أكن أعبا بكل ما أصادفه من متاعب وشرور
كنت أضحك من هذا كله ، لأننى أعرف أننى سأعود الى بيتى حيث ألتقى
بك يا حبيبى يوسفافكى ، فترنو الى بعينيك البريئتين ، وتهز لى ذيلك ،
وبعدها نشق طريقنا معا ، أنت امامى ، وأنا خلفك ، نطوف بالقرى
نبيع بضاعتنا ونشترى غيرها ، ونتكسب خبزنا رزقا حلالا يعرق الجبين
.. أما الآن ، ترى ماذا سيكون مصيرك بين يدي هذا المعجوز الشحيح
الذى يسعى للفرقة بيننا؟ فى ذلك هلاكنا نحن الاثنين يا حبيبى يوسفافكى

اللعنة على اللثام من البشر وجنيتهاهم الذهبية ، وللعنة على القدر انظالم
الذى جعلنا فتراة معورين ٠٠ وداعا يا حبيبي يوسف اكي ٠

وانحنى على حمارة ، وقبل عنقه الدوى اللامع ، وربت بيده فى
رقه وحنان على بطنه وكفله ، يداعب بانامله شعيره المخملى الابيض ،
وتحسس ذيله والدموع تنساب من عينيه ٠٠ كان يوسف اكي سعيداً
بصاحبه يهدده ، فهز رأسه بقوة ، ومط رقبتة ، ورفع ذيله ، وبدأ ينهق
بصوت خفيض عذب حزين ٠

وسمع ياناكوس صوت طرقات على الباب ، فهب مدعورا ٠ ولكن ما ان
رأى ميشيل يدخل حتى ذهب عنه الخوف ٠

وابتدر صديقه بالتحية ٠

— صباح الخير يا ميشيل

كأنتا عينا ميشيل محتفتين ٠

— ماذا بك يا ياناكوس ، هل تبكى ؟

وحجل ياناكوس ، وكفكف دموعه ٠ وقال :

— عودة الى الطفولة من جديد ٠ كنت أودع حمارى ٠٠ طلبه الأب
لاداس ٠ ليأخذه الشيطان ٠

وسأله ميشيل :

— هل عندك ما تقدمه طعاما لى ؟ انى جوعان ٠ تركت الجبل مع مطلع
الفجر وها هو الوقت قد قارب الظهره ٠ اسمع يا ياناكوس ٠ سأذهب
بعد ذلك مباشرة الى الأب لاداس ٠ لن يأخذ الحمار لأنه ملك سارا كينا ٠
وهز ياناكوس رأسه ، اذ سمع أن القسيس وصل الى اتفاق مع
الأغا ، وأرسل الى الاسقف فى هذا الشأن ، ولن يسمح لميشيل بأن يمس
شيئا من ارضه حتى يصدر حكم بشرعية توقيعه ٠ ثم ان القرية على
استعداد للادلاء بشهادة زور وتقول أن ابن بطرياركاس لا يتمتع بكامل
قواه العقلية ٠

وفجأة قال البائع الطواف :

— أقسم بدينى لو أخذ الحمار منى لأشعل النار فى بيته ٠

ودخل البيت ، وأعد بعض البيض المسلوق ، وخبزا وجبنا وعنبا ٠
كان المطر قد توقف ، فجلسا وسط الفناء لياكل مع صاحبه أمام الحظيرة
ووقف الحمار الى جانبهما يأكل هو الآخر قانعا راضيا ٠ ٠

وتنهذ ياناكوس :

- ما أجمل صحبتنا نحن الثلاثة هنا . وهذا اللص العجوز يريد أن يفرق بيننا . . ونهض ميشيل وهو يمسح فمه وقال :
- سأذهب إليه الآن . لن يأخذه منك .
- كان الله معك يا ميشيل . أبذل ما فى استطاعتك .

ترجع الأب لاداس وزوجه على الأرض أمام الطبلية يتناولان غذاءهما . طرحت بنيلوب الجورب الذى تغزله الى جانبها فوق الكرسي . والقت فى فمها بضع لقيمات وكأنها تلقى بها فى ثقب ضيق ، ومضغتها على مهل ، فى بلادة وصمت . أما الشيخ فقد كان منشرح الصدر ، منطلق اللسان ، يلقى على سمعها بحديثه الذى يقوله وحده دون أن تشاركه الكلام .
- الأمور تسير على خير وجه يا عزيزتى . حمدنا الله . قسيسنا شيطان مريد داخل مسوح كنسية . كسب الاغا الى صفه ، وها هو ذا قد كتب الى الاسقف أيضا . وسوف ترين ، لن يمضى وقت طويل حتى تقع كل أملاك بطرياركاس فى يدي . يقولون انها ستؤول الى المجتمع ، ايه ، لا تصدقنى هذا يا عزيزتى بنيلوب . اتفقت على كل شئ مع القسيس . ودبرنا امورنا . ستعرض الممتلكات كلها للبيع فى المزاد ، سيأخذ القسيس نصيبه ، هذا الخنزير كان يحاول أن يبقى عليها لنفسه ، ولكنك تعرفين أنتى لا يمكن أن أسمح له بذلك مهما كلفنى الامر . ووصلنا الى اتفاق . بعد مساومة . وخلال أيام قليلة ستستولى على حمار ياناكوس طريد الكنيسة . سيكون لك يا عزيزتى بنيلوب . تركيبينه لتسرى عن نفسك ، وتتنزهين به حول حقولنا . انه حمار وديع طبع ، وله برذعة . . هل رأيتها ؟ كلها مغطاة بالوبر - تجلسين فوقها كأنك ملكة . ولما كنا وحدنا - لا اطفال لنا ولا كلاب - لا نحمل هموما أو متاعب تشغلنا فاننا بالفعل يا عزيزتى بنيلوب ملك وملكة . أه يا عزيزتى ، لو اعيش مائة عام اخر أو مائتين لوقعت كل ليكوفريسي بين برائتى . هل تعرفين لماذا ؟ لأن الناس جميعا ادعياء بلهاء ، ينفقون أموالهم على شراء الملابس والأحذية ، فاهيك عن انجاب الاطفال . وكل هذا كلف كثيرا ، وحيث ان النقود مستديرة فانها تتدحرج وتفلت منك . . أما نحن . . فى صحبتك يا عزيزتى بنيلوب .

وملا كوبه بماء قراح ، أفرغه فى فمه ، وطرقه بلسانه فى متعة وتلذذ .

وأردف قائلا :

— ما قيمة النبيذ اذا قورن بالماء الذى أنعم به علينا الرب بواسع رحمته ؟

دفع ميشيل الباب وفتحه دون أن يطرقة ودخل . وتجهم الاب لاداس لمرآه . وحدث نفسه « لا بد وأنه يبحث عن نزاع . أنا لا أحب نظراته صامثل عليه دور الغيبى .
وقال بصوت عال :

— مرحبا بسيدى ميشيل . اجلس . أعتقد أنك أكلت .
ونهضت الام بنيلوب ، ورفعت المائدة ، وأخذت جوربها وانتحمت
ركنا حيث انكبت على عملها تغزل .
وقال ميشيل :

— ايها البالوعة ، ماذا ستفعل بكل هذه الحقول وبساتين الكرم
وحدائق الزيتون ، والبيوت والحزائن المكدسة بالذهب عندك ؟ هل ستحمل
كل هذا معك الى القبر ؟ بينك وبين القبر خطوة واحدة ولم تشبع بعد ؟
وتحاول الآن أن تستولى على حمار ياناكوس المسكين . . ألا تخشى الله ؟
الا تخجل أمام الناس ؟

هرش الشيخ رأسه الاشهب المخروطى وقال فى سريره :
— اقسام بدينى أنه فقد صوابه فعلا . لا زال يقحم الله فى شئونى
الخاصة ساتحدث اليه حديثا لينا رقيقا خشية أن تصيبه نوبة وينقض على
بقبضته .

وتصنع الرقة والمسكنة وهو يجيب عليه :

— عزيزى ميشيل ، ماذا تريدنى أن أفعل ؟ الحق حق . انسان مدين
لى بثلاثه جنيهات ذهبية ، ماذا افعل معه ؟ أنا فقير محتاج مثل غيرى من
الناس .

— واذا كتبت لك ايصالا بأبنى مدين لك بهذا المبلغ ووقعت عليه ؟

وسعل الشيخ ثم قال :

— عزيزى ميشيل ، يؤسفنى أن أقول، مع احترامى لك ، أن السنة
السوء تحاول أن تشكك فى توقيعك . . أستلحفك باسم المسيح الا
تغضب من قولى ، أنا لا أصدق كلمة واحدة من كل هذه الاقاويل ، ولكننا
بشر — مثلنا كمثل الآلات الدقيقة اذا ما سقط منها مسمار .

وثب ميشيل مهتاجا ، وأمسك بالكرسى الذى كان سيجلس فوقه
ورفعه الى أعلى ثملقى به الى الأرض . وقال لنفسه : « انهم بهذه الطريقة

سيدفموننى الى الجنون حقا . . . ، واقترِب من الشيخ ، وحدجِه بنظرة تقدح شررا .

لاذ الاب لاداس بركن يحتمى به ، وتعلق بالشباك ، والقى بنظرة الى الغناء . . . وقال لنفسه « الحمد لله ، الباب الخارجى مفتوح ، لوساءت الأمور سانسِل من هنا وهرع الى الشارع . . . »
وصاح بصوت متهدج :

– لو استطعت أن تدفع لى المقابل نقدا ! . . .

وصاح ميشيل وهو يحضر الشيخ فى الركن ويضيق عليه الخناق :

– سأذهب الى البيت أبحث لك عن نقود هناك أيها المتشرذ السفيه ،

أيها المرابى الخنزير .

وقال الشيخ :

– ختم الأغا على بيتك بالشمع الأحمر اليوم . وسرعان ما أمسك

الشيخ عن الكلام ، وقال لنفسه : « زل لسانى . ما كان ينبغي أن أقول

له هذا . . . فان ذلك سيثير ثائرتَه . ولكن سبق السيف العذل ، هلكت

أوقضى الأمر » .

أمسك ميشيل رأسه بين راحتيه ، اذ شعر برأسه يتصدع .

وصاح : « أقسم لكم باسم يسوع المسيح انكم تدفوننى دفعا الى

الجنون . أوضح يا شيخ لاداس . هل تطردوننى من بيت أبى ؟ . أقسم

بشرفى أننى ساصب البترول على القرية كلها وأشعل فيها النار .

لا تذهب أيها السفيه ، الى أين ؟ تعال هنا أيها الخنزير » .

واقض عليه ليمسك به ، الا أن الشيخ استطاع بقفزة واحدة

أن يكون عند الباب . واندفع ميشيل وراه كالسهم ، وأطبق على رقبتَه .

وجثا المعجوز على ركبتيه وهو يصرخ صريخا كالصرير .

– من فعل هذا ؟ القسيس ؟ أم الأغا ؟ أم أنت ؟

– لا ، لست أنا يا ميشيل . لست أنا ، وسل الأم بنيلوب تشهد

على صدق ما أقول . كنت داخل بيتى وأغلقت على بابى . . . ولكننى

سمعت . . . سل الأم بنيلوب . . . أظن أن الأغا ذهب الى هناك هذا

الصباح ومعَه أبونا جريجوريس . . . وقيل لى أن الأسقف سيأتى هو

الآخر من المدينة ومعَه بعض الأطباء .

وصاح ميشيل فى فزع :

– أى أطباء ؟ أى أطباء ؟

- اتركنى يا ميشيل ، أتوسل اليك . . . لا تطبق على عنقى هكذا
 فانى أكاد أختنق . . . سأقص عليك كل شيء . لا تخنقنى .
 أمسك ميشيل به من قفاه ورفع الى أعلى وأوقفه على قدميه .
 - تكلم ايها الشيخ القذر . قص على كل شيء دون أن تحذف
 حرفا .
 - بنيلوب ، آتنى بكوب ماء . . . فانى أحس بفصحة .
 ولكن بنيلوب واصلت غزلها . لم تسمع شيئا ، ولم تبد حراكا .
 كانت تغزل وتبتسم هادئة ، ساكنة ، كأنها فى عالم الأموات .
 وقال الشيخ :
 - دعنى أغلق الباب حتى لا يسمعنا الجيران . وقفز الشيخ الى
 الطريق ، وأطلق ساقيه للريح وهو يصيح :
 - النجدة يا أهل القرية ، النجدة . ميشيل يحاول أن يخنقنى .
 واستبد الغزع بالجيران وأغلقوا عليهم الأبواب . وواصل الأب
 لاداس عدوه وصياحه ، يبذر الغزع فى القرية حتى وصل الى بيت
 القسيس جريجوريس . وظهر القسيس عند عتبة داره .
 - النجدة يا أبانا ، ميشيل أصابته نوبة ، يريد أن يخنقنى .
 ادخلنى الى بيتك .
 ولكن القسيس بسط ذراعيه ليسد عليه الباب . وقال له :
 - اجر يا شيخ لاداس . أصرخ بأعلى صوتك حتى تهيج أهل القرية
 جميعا . أصرخ بكل ما أوتيت من قوة حتى يسمعك كل من فى القرية
 ويصدقون . . . هيا انطلق فى طريقك واعد .
 ثم أغلق بابه فى وجهه .
 وتساقط المطر ثانية . أدرك الأب لاداس حيلة القسيس وأعجب
 بها ، فواصل عدوه هنا وهناك ، يقف عند كل ناصية ويصرخ صرخات
 مولولة . وعثر على جبل فالتقطه من على الأرض ولوح به كشاهد على صدق
 ما يقول .
 اقتحم ميشيل على بيتى ليخنقنى ، وها هو الجبل . النجدة
 يا اخوتى . ليفتح لى احدكم بابه ويدخلنى . ميشيل يطاردنى ، يحمل معه
 البترول ليعرق القرية .
 ولا تكاد يرى بابا يفتح حتى يجرى بعيدا عنه ، ويستمر فى
 صيحاته المولولة .

أتى معه بعض البترول ليشعل النار فى القرية ، النجدة ،
النجدة .

وسرعان ما ساد القرية هرج ومرج . أمسك البعض بينادقهم ،
واحتموا بالأبواب فى انتظار ميشيل حين يقتحم عليهم بيوتهم . وخرج
الأغا الى شرفته .

– ليذهب اثنان من الأقوياء الأشداء ويقبضا عليه . أين بانايوتى؟
وأتى اليه بانايوتى على عجل .
– فى خدمتك يا أغا .

ألقى اليه الأغا بحبل وقال له :

– خذ هذا واجر وراءه ، أوثق يديه ، وائتنى به انتظر
واسمعى : سألحقك ابتداء من اليوم بخدمتى يا بانايوتى لتكون حارسا
لى . أنت انسان حرس قوى شديد البأس تنبح كالكلب . تتوفر فىك
صفات الحارس الذى أحتاج اليه . انتظر حتى ألقى اليك بطربوش حارسى
القديم عليه اللعنة . سترتديه من الآن فصاعدا . اذهب ، أتمنى لك
حظا سعيدا .

واستدار وأخذ الطربوش من فوق المشبك المعلق عليه وألقى به الى
بانايوتى .

– خذه لعل الخير يأتىك معه .

ثم نظر الى براهيماكى الذى كان يجلس وراءه يدخن فى تراخ ،
وينفث سحبات الدخان من أنفه . وقال له :

– يبدو لى يا عزيزى براهيماكى أنهم دفعوه دفعا الى الجنون ، هذا
المسكين .

وقال المهر غاضبا :

– متى سيأتونى بالنساء . أقسم اننى أصبحت على شفا الجنون .
أمسك بانايوتى بالحبل والطربوش ، وقصد بيت الأب لاداس .
ولكن ميشيل كان قد غادر البيت . جرى بعيدا ، واختار الدروب
والأزقة الجانبية حتى لا يراه الناس . وكان الناس يغلغون أبوابهم
إذا مر بهم ، والنساء يصرخن فزعا وخوفا .

وما ان بلغ الطريق المؤدى الى الجبل حتى توقف عن الجرى بعد أن
تقطعت به الأنفاس . وتساقط المطر رقيقا حانيا بعد أن كان سيلا طاميا .
وأحاطت بالجبل غلالة رقيقة من الضباب ، وغطى الماء السهل . وتوارى

ميشيل وراء صخرة ينتظر حتى تنقشع السحب ويصحو الجو . وأحس بجفاف فى حلقة .

وحملق فى المطر . وانصت لحرير الماء المتساقط من فوق الصخور كالشلالات . وسبحت أفكاره مع المياه الجارية، وجرفتها معها الى السهل . كانت أفكاره تجرى مع الماء فوق الأرض وتزداد معها وتتضخم ، وتأتيها روافد تصب فيها من كل جانب حتى أصبحت شلالا قويا هدارا يفيض على القرية كلها . وانبسط صدر ميشيل . وأخرجت الأرض أحياء وأمواتا علاهم الطين ، ساروا فوق السهل وتحت وابل المطر بخطوات هادئة وقور . وأقبلوا نحوه فى موكب طويل . كان يتقدمهم رجل ميت طويل القامة ، بدين ، مبطان ، أزرق اللون فى خضرة : انه العمدة . كان كيوم الحشر . نفخ الملاك فى النفير ، وأخرجت الديدان البشرية من تحت الطين . كان ميشيل قد قرأ منذ أيام قلائل رؤيا يوحنا . وازدحم رأسه بالملائكة والنفير والعاشرات والجوارى يمخرن عباب البحار ذات الشيطان المائجة ، وفرسان يمتطون صهوات جياذ سوداء وخضراء وحمراء وبيضاء، تخوض بأقدامها فى بحار من دماء وحملق ميشيل ببصره فى المطر، وانصت لحرير الماء المتساقط وانتفضت وجنتاه . وشعر كأن الأرض تتفتت من تحته . وبدأ الظلام يلف الأرض، فقد جن الليل مبكرا . واستمر هطل المطر حزينا ، رتيبا ، وكأنه يصرفى عنساد على أن يفرق العالم ويفتت الأرض من تحته .

وفاض الدمع من عينيه ، وتمتم قائلا :

— يا الهى ، أنت وحدك الباقي الذى لا يتغير . لولاك يا الهى لما وجد الانسان من يأمل فيه ويتعلق به ، يوم أن يختفى كل شيء ، وتتحلل الدنيا وتغيب عن الوجود . والا ففيمن يكون أمل الانسان ورجاؤه ؟ هل فى المرأة التى يحبها ؟ أم فى الأب الذى انجبه ؟ أم فى البشر ؟ كل شيء ينوى ويتفتت ويزول ويختفى وأنت وحدك يا الهى الباقي الموجود ، فكل شيء هالك الا وجهك . دعنى أركن اليك ، أنت دون سواك ، وثبت أقدامى يا الهى فانى أكاد أفقد صوابى .

قضى القسيس فوتيس ومانولى ساعات طويلة داخل الكهف فى انتظار ميشيل حتى استمد بهم القلق .
وقال مانولى :

– الانتصار في هذه المعركة يا أبانا يتطلب منا تضالاً شاقاً وعسيراً .
تري هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت ؟

ومضت عينا القسيس فوتيس وقال في حسم :

– نعم تستحق ، وتستحق الكثير . أتى على حين من الزمن اعتدت فيه أن أحدث نفسي قائلًا « لماذا التضال والعناء من أجل الحياة الدنيا ؟ ما قيمة هذا العالم كله ؟ أنا طريد منفي من السماء وأتلهف شوقاً للعودة الى وطني ومنبتي ولكنني فهمت أخيراً . لا يدخل السماء الا من يعقد له لواء النصر أولاً على الأرض ، ولئن يعقد لواء النصر على الأرض الا لمن يناضل في حماس وجدل ، ودون كلل أو مهادنة . الأرض للانسان هي المنطة التي يقفز من فوقها الى السماء . وكل القساوسة والشيوخ من أمثال جريجوريس ولاداس ولأغا ، وذوى الأملاك ، هم قوى الشر التي تجمعت ، وكان نضالنا ضدها قدراً مقدوراً . ولو وضعنا ايدينا الى جنوبنا دون أن نبدي حراكاً فاننا نلقى بانفسنا الى التهلكة ، هلاك على الأرض ، وهلاك في السماء .

– ميشيل رقيق غاية الرقة ، ألف الحياة السهلة الرغدة ، ومن ثم فانه لن يقدر

– نحن نقدر . ولنتنظر ما سيأتينا به من أخبار هذا المساء . فان كانت أخباراً سيئة ، سأسافر من فوري غدا الى الأسقف ، وأسأله أن يحكم بيننا بالعدل . الشتاء على الأبواب ، ويجب ألا يجعل علينا ونحن عراة جياح بلا مأوى .
وتمتم مانولى :

– آه لو استطعت أن أقدم دمي فداء للأرواح المعرضة للهلاك .
والخطر

– من اليسير على المرء أن يقدم دمه دفعة واحدة دون أن يبذله قطرة قطرة في التضال اليومي . لو سألتني سائل أى الطرق تؤدي الى السماء فاني أجيب : « أشقها » . لذلك عليك بالطريق الشاق العسير يا مانولى . تشجع .

ولزم مانولى الصمت . أحس أن القسيس على صواب فيما يقوله ، ولكنه كان قلقاً . انه لا يستطيع أن ينسى السعادة القدسية التي غمرته يوم أن تقدم ليجود بحياته . لم يخب هذا اللهب بعد ، لا زال يتأجج بداخله ، بعيداً عنه في ذات الوقت ، كأنه الفردوس . فالتضال اليومي يبدو له شيئاً بطيئاً ملولاً خاملاً ، وهو الانسان العجول .

وصمت الاثنان ، وأصاخا السمع الى صوت المطر المتساقط، وخرير الماء فوق الصخور . وبين الحين والآخر تبرق السماء ومضة ثمزق عتمة الليل وتدخل الكهف فتضيء وجهين شاحبين ورقبة وذراعا ، ثم يسود الظلام من جديد .

وفجأة سمعا وقع أقدام مسرعة .

واندفع مانولى الى الخارج وصاح :

– ميشيل !

وتعانق الصديقان فى الظلام ، ودلغا الى الكهف .

وقال القسيس فوتيس :

– مرحبا بعزیزنا ميشيل . ما وراءك من أخبار عن ليكوفريسي ؟

– توییعی غیر ذی قیمة وضع الاغا اختاما على أبواب بيت أبى ، وسيأتى الأطباء ليعلنوا أننى مجنون وأخيرا فان ماريورى تلفظ أنفاسها . . . هذه هى أخبارى ، ولا حق لكم فى الشكوى فقد آتيتكم بأخبار لا تقدر بثمن .

وترك نفسه يسقط الى الأرض ، وأسند ظهره الى الصخرة . وبعد صمت قصير حاول أن يطلق بعض الدعابات .

– لا حق لكم فى الشكوى ، فأننا لم آتیکم صغر الیدين .

ونهض القسيس فوتيس وهو يقول :

– نحن لا نشكو، وهكذا يكون الرجال : أن يتحملوا المعاناة والظلم، ويناضلون دون كلل أو استسلام . ونحن لن نستسلم ولن نكل أبدا يا ميشيل . وغدا سأوجه الى المدينة لاناضل .

وهز ميشيل رأسه .

– افعل كل ما يلهمك به الرب يا أبانا . لقد تعبت وسنمت . ولا أستطيع أن أفعل شيئا أكثر من ذلك استبد بي الغضب لحظة وأنا فى القرية . وراودتنى نفسى أن أخنق الأب لاداس ، وأغرق القرية بالبتروول ، وأشعل فيها النار . ولم أكد بهم بذلك حتى أحسست بالتعب الذى ثبط همتى ، وتولانى خوف لذت بعده بالفرار .

وأمسك مانولى بذراع صديقه فى الظلام ، وأحس كأنه يتلظى نارا . وقال له :

– لنواصل نحن النضال يا ميشيل .

توقف المطر عن السقوط ، ونهض القسيس فوتيس . وقال :

- طبتما مساء • ساوى الى مخدعى أدبر أمرى لرحلة الغد • سنبدا
رحلتنا مع مطلع الفجر يا مانولى •
واختفى القسيس فى الظلام •
وتنهذ ميشيل ، وقال :
- ما أشق الحياة وما أقساها • هل لك أن تسدى الى خدمة يامانولى •
غدا عندما تذهب الى المدينة ، أرجوك أن تزور ماريورى وتبلغها تحياتى •
هذا كل شئ •
وأستلقى فوق حشيته ، وأغمض عينيه فى انتظار وجه أبيه يطالعه
فى منامه •



وفى الغد سار مانولى والقسيس فوتيس فى طريقهما صامتين لم
يتبادلا غير كلمات قليلة • كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وان كان المطر
قد توقف بعد أن كان بالأمس طوفانا طاميا • وغطى الوحل الأرض ،
وها هما يخوضان فيه بأقدام عارية • يشقان طريقهما فى صعوبة كبيرة
الواحد وراء الآخر •

سارا وسط حقول خصبة مغطاة بالأشجار والكرم ، تتسع أمامهم
السهول حيناً ، وتضيق حيناً آخر • وفجأة انقضت السحب ، وسطعت
الشمس ، وظهرت قطع زرقاء من السماء صافية وضاعة منعشة • وأطل
عليهما من فوق ربوة عالية عمودان اثريان من المرمر يشع منهما بياض
ناصح •

وتنهذ مانولى :

- كل هذه الأراضى كانت أرضنا نحن اليونانيين يوماً ما •••
وتوقف القسيس فوتيس لحظة ، وشخص بصره الى العمودين
المكسورين ، ورسم علامة الصليب كأنه يمر بأطلال كنيسة قديمة • واعتدل
فى نفسه غضب شديد ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة •

واصلا طريقهما فى صمت ، كل منهما يحمل جرابه على كتفه •
القسيس فى ردائه الدينى المرقع ، ومانولى فى ملابسه الرثة الخشنة •
وكلما مرا بقرية نبحت كلابها ، فتفتح أبواب وتطل رعوس ، وتحملق
فيهما عيون ، وبين الحين والآخر تتراعى الى سمعهما كلمة ترحيب رقيقة
« مرحبا بكما ، الى أين وجهتكما ؟ طريق السلامة » • ثم تغلق الأبواب
ويعود رسولاً الفقر ثانية الى وحدتهما فى طريقهما القفر •
وعند الظهر توقفا عن المسير تحت ظل شجرة ليزرددا شيئاً من

الطعام يستعيدان به قوتها • وارتقيا حجرين وجلسا فوقهما ، ومن حولهما الأشجار المطرة - أشجار الندغ والسعتر والتنناع والفودنج والسحلب - وهي الأشجار التي أوسعتها الأمطار بالأمس ضربا بسياطها المنهمرة ، فجادت بشذاها العطري • وبزغت الشمس لحظة ، وتزينت السماء بقوس قزح •

وتأمل القسيس فوتيس سحر السماء والأرض عقب المطر • وانفجرت أسارير وجهه الشاحب الحزين • وقال :

ذات يوم كنت فوق الجبل المقدس ، وقصدت الأب سوفرونيوس الذي كان يعيش في خلوة بعيدة عن الدير ، فوق هوة سحيقة • وسألته : « كيف اهتديت الى طريق الخلاص يا أبانا سوفرونيوس ؟ » « وإجابتي » لست أدري يا بني • اهتديت اليه دون علم مني أو تدير • • استيقظت من نومي ذات صباح ، عقب مطر غزير استمر طوال الليل ، وأطلت من النافذة • هذا كل ما حدث • هل هذا هو كل شيء يا أبانا سوفرونيوس؟ وهل تطمح في أكثر من ذلك يا بني ؟ رأيت الرب من نافذتي • • ومنذ ذلك الوقت وأنا أستيقظ مبكرا كل صباح لأرى الأرض عقب المطر وأذكر الناسك العجوز ، وتفيض نفسى شجوناً • لا بد وأنه أودع روحه لبارئها منذ زمن طويل ، وهو الآن يتنزه بين مروج الفردوس • وربما يسقط الله المطر من سماء الفردوس ليدخل السرور على نفس عبده الصالح •

وارتجف مانولى : أحس أن كلمات القسيس أعطت الأرض المبتلة معنى ساميا رقيقا انتعش له قلبه •

وبعد ثوان من الصمت قال :

- شكرا لك يا أبانا • اعتدت أن أرى الله في لحظات العسر والشدائد ، وأنت ترينى الله في كل لحظة تمر بى • أبحث عنه في الموت القاسى العنيف ، وأنت ترينى الله في نضالنا اليومي المتواضع • وأدركت الآن فقط لماذا نقصد المدينة ومع من سنواصل نضالنا هناك •

- الانسان يا بني لا يعثر أبدا على ما يجد فى اثره بحثا عنه • سنجد الله حيثما نولى وجوهنا وأينما ذهبنا • ولن نراه على الصورة التى يرسمها له أولئك الذين لم يروه أبدا - شيخا متورد الوجنات ، يجلس فوق سحاب كالصوف المندوف فى غبطة وبلهنية يصدر الأوامر ولكننا سنجده صوتا ينبعث من أعماقنا ليعلن حربا : بالأمس كانت حربا ضد القسيس جريجوريس ولاداس ، واليوم حربا ضد الأسقف ، وسنرى ضد من ستكون حربنا فى الغد • • • ولكنها حرب دائما وأبدا ، حرب مقدسة يا بني •

تم واصلا المسير من جديد ، وبلغا مشارف المدينة مع الشفق ، ورأوا على البعد قبابا ومسجدا ومئذنتين ترتفعان في قوة ورشاقة الى عنان السماء . وعندما هما باجتياز بوابة حصن المدينة ، أذن المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة بصوت أمر ولكنه حلو رقيق .

وامتدت أمام بصرهما المدينة . تسلم بعض الجنود الأتراك نوبة الحراسة عند البوابة ورأيا الطرقات تعج بمن فيها من الأتراك - رجال يدخنون النارجيلة ، وبكوات يجلسون القرفصاء فوق حصير ، وغلمان سمان لهم صوت واهن رقيق كصوت الصبايا ، يعزفون على الطنبور ويغنون أغنيات أمان ، ونساء محجبات يمشين الهوينى ، ويخطرن فى تصنع ظاهر ، وأتراكا حفاة بدانا ، فتحوا عقيرتهم ليعلنوا عن بضائعهم : فطيرا مقليا بالسمن ، وسحلبا دسما معطرا ، وفشارا . . .

وآوى صديقانا المسافرين الى منزل مسيحي بعد أن اضناهما طول المسير . . . كان الطابق الأرضى حظيرة للبالغ والحمير . وصفت فى الطابق الأول ، وهو حجرة واسعة ، حشاييا من القش . وكان القسيس فوتيس يعرف صاحب المنزل الشيخ يبراسيموس ، وهو شيطان داهية ، ذئب بحر ، كان يعمل قبطانا فى سالف أيامه ثم ألقى مراسيه أخيرا عند هذه البلدة المغلقة ، وتزوج ، بعد أن تقدمت به السن ، من فتاة هيفاء رشيقة اللقد ، من آسيا الوسطى ، وانجب منها أطفالا . وفتح هذا المنزل حيث تقوم زوجته بأعمال الطبخ ، ويقوم هو بالأعمال التى تتعلق بالرجال والحيوانات ، يلقي لكما هنا ودعاية هناك . أصلع الرأس ، ذو كرش كبير ، يزعم أن كرشه يمنعه من الانحناء حتى يرى نفسه بعينه ان كان ذكرا أم أنثى . . .

ولم يكد يقع بصره على القسيس فوتيس حتى ترك منصة الحساب وهروا اليه يستقبله .

وصاح فى غبطة :

- أى ريح طيبة حملتك الينا؟ أنت الانسان الذى احتاج اليه يا ابانا . اقترفت خطيئة كبيرة من جديد . فذات يوم نسى حمال حافظة نقوده هنا ، وكانت ملأى بالقطع الذهبية ورددتها اليه . ومنذ ذلك اليوم وأنا أشعر بتأنيب ضمير بسبب هذه الخطيئة التى اقترفتتها نفسى التمسعة ، واشتد بى الحزن حتى يكاد أن يذهب عقلى .

ولكن القسيس فوتيس لم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بتقبل الدعاية . وقال له :

— سنمكث عنك يومين يا شيخ بيراسيموس • هل لنا فى بعض الطعام نأكله ، وحشيتين ننام عليهما ••• نحن لا نملك نقودا ، وسجل علينا ايضالا بكل ما ننفقه • سأدفعه لك يوما ما يا كابتن • ثق من هذا ولا تقلق •

وضحك البحار القديم ضحكة عالية وقال :

— من طالبك بنقود يا أبانا ؟ اذا لم يكن معك نقود فان التجار البدان الأثرياء الذين ينزلون فى نزلنا معهم الكثير • سأطالبهم بضعف ما يتكلفون • وهكذا يعود الى حقى وزيادة • فضلا عن أننى لو عثرت على حافظة نقود فلن أردھا ••• أهلا بكما • سنتناول عشاءنا الليلة معا • لستما زبائنى بل ضيوفى ••••• هيه ••••• يا كروستالينيا •

خرجت من المطبخ امرأة فحلة ، واسعة العينين وتحمل طاجنا فوق رأسها •

وأصدر اليها الأب بيراسيموس أمره :

— قبلى يد القسيس • سأتناول معه العشاء الليلة هو وصديقه • هل تفهمين معنى ذلك ؟ كستليتة من لحم الخنزير •

وتقدمت السيدة كروستالينيا تتبختر فتتهز أردافها ، وقبلت يد القسيس ثم عادت الى المطبخ •

ونادى عليها زوجها فى مرح :

— الى أين يا زوجتى ؟ لن يأكلك أحد هنا ، انتظرى قليلا حتى نمتع ناظرينا منك •

وغمز بعينه للقسيس وسألها :

— كم عدد الكمثرى التى يتسع لها الكيس ؟

وقالت صاحبة المنزل الجميلة ، وقد احمر وجهها خجلا :

— ألا تخجل يا رجل من شيبتك !

وضحكت وأسرعت حيث توارت فى مطبخها •

واغرق بيراسيموس فى الضحك وقال :

— نعم ، نعم ، ما أغرب المرأة يا أبانا • أنا لا أعرف رأى الكتاب المقدس فيها ، ولكننى واثق تماما من شيء واحد : أن الرب هو الذى خلق الرجل ، أما المرأة فقد خلقها الشيطان • هل تريد دليلا على ذلك ؟ سألت الناس جميعا « كم عدد الكمثرى التى يتسع لها الكيس » • ولم يعرف أحد اجابة على سؤالى • أما زوجتى ، هذه الداهية ، فقد عرفت الاجابة •

قالت لى : « اثنتين ، هل تصدق ؟ اثنتين » • انها زوجة شيطانة لها
عينان مثل عيون المها •

فى صباح اليوم التالى رسم القسيس فوتيس علامة الصليب وانطلق
حافى القدمين الى دار الأسقفية • وفتحت له الباب فتاة بدينة من بنات
الريف ، تفرست القسيس وحدجت بنظرها يديه الفارغتين ، وامتعضت
وقالت له :

- جئت مبكرا جدا • لم يصح السيد من نومه بعد • وجلس
القسيس فوتيس فوق أريكة حجرية وسط الفناء فى انتظار السيد •
- وتوافد الزوار بعده : رجالا ونساء ، كل منهم يحمل تقدمته فى
يده ••• سلة مملوءة بيضا أو أرنباً أو كرة من الجبن أو ديكا •••
وأخذت الفتاة القروية الهدايا من أصحابها وهى تبتسم لهم ، ودخلت بها
الى البيت • وكانت تقدم لكل واحد كرسيًا أو مقعدا يتناسب مع هديته •
وهمس شيخ يجلس بجوار القسيس فوتيس :
- هذه ابنة أخته •••

وبعد ساعة تناقلت الألسن الخبر من فم الى فم تعلن أن الأسقف
صحاً من نومه • سمع أحدهم السرير يثر ، وسمع آخر سعاله ، وزعم
ثالث أنه يسمع صوت غرغرة الماء فى فمه •

وهز الجميع رهوسهم فى احترام واجلال ، وشخصوا بإبصار خاشعة
الى شيش النافذة المغلقة • ودوى صوت سعال قوى ، تبعته جلبة شخير
ونخير وأخيراً قرقة ماء يفرغها من فمه •
وقال الشيخ :

- انه يفتسل الآن •••
وران عليهم سكون عميق ليحفظوا بسماع الوحش المقدس وهو
يفتسل •

وبعد ربع ساعة ترامى الى سمعهم رنين أطباق وأكواب وملاعق
وسكاكين ، وصوت كراسى تنقل •

- انه الآن يحتسى قهوته •••
ومضى نصف ساعة ، دوت بعده صيحات مولولة وصوت بكاء ونشيج •
- انه الآن يضرب ابنة أخته •••

ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا صرير درج السلم ، وشخصا
يتمخط بقوة وعنق .

ونفض الشيخ أخيرا وقال بصوت هامس :

- انه الآن ينزل الدرج .

وفعل الحاضرون مثل ما فعل تماما ، نهضوا وشخصوا بإبصارهم الى الباب .
ودوى صوت جهورى ينادى :

- انجيليكا ، آتني بأول الزائرين .

انفتح الباب ، وأطلت منه الفتاة القروية بعينين حمراوين ، وأشارت
الى القسيس فوتيس الذى تقدم نحوها ودخل . وإغلقت الباب بعده .

كان الأسقف جالسا الى مائدة مستديرة ، بدينا مكتنز اللحم قويا ،
له لحية بيضاء قصيرة وبروز فى أنفه كأنه الخريت . وقال :

- ها أنذا أنصت لك . أوجز . أظن أنى رأيتك قبل ذلك . ألسنت
انت اللاجىء ؟ تكلم .

أحس القسيس فوتيس لأول وهلة برغبة فى الخروج وأن يصفق
الباب وراءه . هل هذا هو ممثل المسيح ؟ هل هذا هو من يعلم الناس
المحبة والعدالة ؟ هل له أن يتوقع منه أن يرد له حقوقه ؟ ولكنه آثر ضبط
النفس ، وتفكر فى أطفال ساراكيئا والشماء الذى يوشك أن يدهمهم .
وفتح فمه ليتكلم . ولكن الأسقف أوقفه بإشارة من يده .

- اذا أتيت مرة أخرى الى قصر الأسقفية فيجب أن تنتعل حذاءك .
وأجاب القسيس فوتيس :

- ليس عندى حذاء . كان عندى ، أما الآن فلا . ثم معذرة يا سيدي
اذا قلت ان المسيح كان يمشى حافى القدمين .

وعبس الأسقف وبسر ، وهز رأسه توعدا وجأر :

- حدثنى عنك القسيس جريجوريس . أظنك تحاول أن تمثل
أمامنا دور يسوع المسيح . وتدعى أنك ترسى دعائم المساواة والعدالة على
الأرض . . . ألا تخجل ؟ تطالب بأن لا يكون ثمة أغنياء وفقراء ، وبالطبع
لا اساقفة كذلك . . . أيها المتمرد .

وانتفضت أوداج القسيس فوتيس ، وضغط بأصابعه على راحة يده ،
ولكنه تذكر من جديد ساراكيئا ، فكظم غيظه ، وآثر الصمت .

- هل تخرجت من معهد اللاهوت بالقسطنطينية ؟

– لا يا سيدى .

– اذن بأى حق تواتيك الجراءة على الحديث معى ؟ ليس لى أن أتناقش معك يا أبانا . . . أتيت تسألنى معروفًا ، فما هو ؟ حدثنى عنه على عجل ، فثمة غيرك كثيرون ينتظرون مقابلتى ، وتروى فيما تقول .

– لم آتلك لأسألك معروفًا يا سيدى . وانما أتيتك لأسألك تحقيق العدالة .

– مالى أراك تنظر بعينيك نظرات وقعة هكذا . غض من طرفك عندما تتحدث الى .

جال القسيس فوتيس بعينه فيما حوله . رأى خلف الأسقف أيقونة المسيح على الصليب ، وخزانة كتب ملأى بكتب مذهبة الحواف . وأمامه صورة أكبر من الأيقونة ، صورة صاحب الغبطة الأسقف ذاته ، فى رداء الأسقفية الموشى بالذهب ، وفوق رأسه تاج يتألق ، وفى يده صليب مطليا بالذهب . و أبدى الأسقف امتعاضه لسكوت القسيس . فقال :

– يا أبانا ، تكلم أو انصرف . ليس عندى وقت أضيعه سدى .

– ولا أنا يا سيدى . انى منصرف . قصدت ان أسألكم العدالة ، ولكننى أدركت الآن . سأسأله هو فى سماواته .

وأشار بإصبعه الى المسيح المصلوب .

واستدار الأسقف وقال :

من ؟

– المسيح المصلوب .

جن جنون الأسقف . وضرب المنضدة بقبضته :

– اذن فالقسيس جريجوريس على صواب فيما يقول . أنت اشتراكى .

ورد عليه القسيس وهو يشير الى المسيح المصلوب :

– نعم ، ان كان هو كذلك .

ونادى الأسقف :

– انجيليكا .

وظهرت ابنة أخته البدينة .

– لو عاد هذا القسيس مرة أخرى – أنظرى الى وجهه لتعرفيه جيدا –

فلا تدخله .

وقال القسيس فوتيس فى هدوء :

— سيحكم الله بيننا يا سيدى الأسقف ، فلا تنزعج . سنمثل بين يديه ، أنا وأنت ، فى الآخرة حفاة الأقدام .

• وفتح الباب ، وخرج دون كلمة وداع .

وهام على وجهه فى الطرقات ساعات طويلة ، ودخل الى السوق البقطة بالحصير ، وانتظر قليلا فى صحن أحد المساجد ، ثم اجتاز قنطرة صغيرة ، وتاه وسط بعض الحدائق ، ثم انسل الى حواري القرية . وتلفت حوالياه ولم ير شيئا . كان رأسه يغلى حتى غشى بصره . يفكر فى الأسقف وأطفال ساراكيئا ، والشتاء الذى يطرق الأبواب .

• وفجأة وجد نفسه أمام نزل الأب ييراسيموس .

• وصاح به صاحب النزل :

— طار العصفور مبكرا ليتنزه .

• وجلس القسيس فوتيس خائر القوى ، كأنه عائد من آخر الدنيا .

• وأسند ظهره الى الحائط ، وأغمض عينيه وتهد .

• أوفى مانولى بوعدده ، وعاد ماريورى فى مستشفىها . كانت نائمة ، فجلس بجوارها ينظر اليها ، وانتظرها ساكنا حتى تستيقظ وكان كلما رنا اليها بعينه أحس بقلبه ينقبض . أضناها السقم حتى صارت شبحا . أحاطت بجفنيها دائرتان زرقاوان كبيرتان ، وننأت عظام جسدها من تحت جلدها اليابس ، وشحب وجهها وغار جلده وبرزت عظامه كأن الموت لعق هذا الوجه وأكل منه بعثت من رمسها لحظة من الزمان ، لعبت وضحكت وبكت وخطبت ، أمسكت بين يديها بكأس الحياة ملأى ، ولكن لم تمهلها الأرض حتى ترفع الكأس الى شفيتها فها هى تناديها لتعود الى مرقدتها

• وفجأة صعدت ماريورى زفرة عميقة ، وفتحت عينيهما ، فرات

• مانولى

وقالت له :

— طاب يومك يامانولى . هل أرسلك الى ؟

- نعم ياماريوزى ، أرسلنى اليك ميشيل .
- هل حملك رسالة لى ؟
- نعم ياماريورى ، لك تحياته .
- هل هذه كل رسالته ؟
- نعم هذه هى .

وابتسمت ماريورى فى مرارة . وقالت :

- ماذا أنتظر غير هذا الآن ؟ لا شىء غير كلمة تحية ، حسبى ذلك .
- وأدارت وجهها بعيدا لتخفى عيبراتها . ثم تماكنت نفسها وأمسكت دمعها ، واستدارت الى مانولى وقالت له :
- مانولى ، عندي رسالة له أيضا .
- وتحسست بيديها تحت الوسادة حتى عثرت على المقص .
- ساعدنى على الجلوس .

ورفعها مانولى بين ذراعيه ، ووضع الوسادة خلفها وأسندها اليها فى حرص شديد .

وخلعت ماريورى عصابة رأسها ، وحلت الشريط الحريري الأسود الذى يربط ضفائرها الكستنائية . أمسكت بالمقص وحاولت أن تقص ضفيريها ، ولكن خانتها قواها، فلم تستطع .

وقالت :

- لا أستطيع يامانولى ، خارت قواى ، أعنى أنت على ذلك

وقال مانولى جزعا :

- هل تريدن أن تقصيهما ؟

فقالت بصوت واهن :

- قصهما أنت .

وأمسك مانولى بين يديه المرتحفتين بضميرتي الفتاة الصغيرة الدافنتين .

وعاودت ماريورى طلبها :

- قصهما أنت .

قص مانولى احدهما ، واتبعها بالثانية . كان يرتعد كأنه يقص
لحما حيا .

امسكت ماريورى بالضفيرتين الطويلتين ، وتاملتهما طويلا . كانتا
ملء واحتيتها . وهزت رأسها العارى الذى سلبته شعرها . وفجأة
انخرطت فى بكاء ونحيب . ومالت عليهما وكفكت دمعها بهما ، ثم لفتها
فى منديلها كأنها تكفن جثة طفل حبيب وعقدت المنديل وناولته الى
مانولى .

وقالت :

— خذهما واعطهما له وقل له : « ماريورى تبلغك تحياتها ، هذا كل
ما أريد .



أَمَّا الْجَسَدُ . . .

« كل شيء على ما يرام ، كل شيء على ما يرام . . . » هكذا كان القسيس فوتيس يحدث نفسه وهو في طريق عودته من رحلته يخوض في الأحوال . « حمدا لله ان الأمور تسير على خير وجه » .

ويمشى وراءه مانولى ، محنى الظهر ، منكس الرأس تحت ثقل الضفيرتين في زكيبته ، كأنه يحمل على كاهله جثة امرأة ميتة .
تلبدت السماء بالغيوم ، ودوى قصف الرعد ، وبدأ المطر يهطل مدرارا .

ولا زال القسيس فوتيس يردد بينه وبين نفسه ، وهو يحث الخطى :
- كل شيء يسير على ما يرام ، وليس في الامكان أبدع مما كان .
كانت تلك كلماته التي يرددها ولا شيء سواها . وواصل سيره حثيثا حتى كأنه يعدو ، والمطر يلطم صفحة وجهه . وحوم فوقه سرب من طيور الكركى ، فلم يرفع عينه لينظر اليه . ثم بدأ يعدو بالفعل .
ومع الغسق طالعتهما قمة جبل ساراكيينا الوعرة . والتفت الى مانولى ، وقال له بنبرة تفيض عزما واصراراً .

- سنناضل يامانولى ، الناس جميعا في جانب - أساقفة وقسيسين وأعيانا ، وكلهم أناس أعمى الله بصيرتهم ، وفي الجانب الآخر ، نحن وحدنا ، حفنة من الحفاة يسير المسيح في طليعتهم . تشجع يامانولى فالتصر لنا .

وضاقت خطوته ، وهو يخوض فى الوحل ، وضحك عاليا :
- يسألنى لماذا لم أنتعل حذاء ، أراهن بأن قيافا وجه نفس السؤال
الى المسيح .

قضى ميشيل هذين اليومين كروح هائمة معذبة . بات يفزع من
النوم ، اذ لا يكاد يففو حتى يطالعه أبوه ، عاريا تماما ، يحدجه بنظرة
كلها تأنيب . وطفق يقول لنفسه فى جزع : « لو بقيت على هذه الحال
أياما قلائل فسوف أفقد عقلى تماما » .

ولاذ بانجيله الكبير ، أملا أن تجنبه القراءة هذه الرؤيا المفزعة ،
ولكن الحروف تراقصت أمام عينيه ولم يستطع أن يمسك بها . وأغلق
الكتاب ، وعاد يذرع الكهف بخطواته من طرفه الى نهايته .

وفى ذلك اليوم زاره ناظر المدرسة مع غبش الليل . زعم له أنه
جاء لينعم بصحبته . بدأ حديثه اليه عن أبيه وخطيبته والشتاء المقبل ،
وشعب ساراكيئا التعس ، وأبدى دهشته كيف سيتحمل هؤلاء قسوة
الشتاء . ثم تطرق الى موضوعات أكثر خطورة - عن الحياة والموت ، وواجب
الانسان . . . وأجابه ميشيل عن كل هذا ، ضجرا ، شاردا للب ، قلقا
أن يعود الى خلوته من جديد . وثبت ناظر المدرسة عينيه على عيني ميشيل .
وسرعان ما أدرك ميشيل حقيقة مهمته وهب نائرا مفيظا . وقال له :
- يا حضرة الناظر ، هل جئت لتتحقق ان كنت مجنوننا أم لا ؟

فقال ناظر المدرسة محتجا وقد احمر وجهه :

- ماذا تعنى يا عزيزى ميشيل ؟

- أعرف أنك رجل فاضل ذو ضمير يقظ . أتيت الليلة لتتأكد
بنفسك ان كان أخوك القسيس كذابا أشرا أم لا ؟ ترى ما هى النتيجة
التي وصلت اليها بنفسك يا حاجى نيكولا ، أيها الرجل الصادق الأمين؟
لزم ناظر المدرسة الصمت ولم يتكلم .

ونظر ميشيل الى ناظر المدرسة فى اشفاق وتمتم :

- صادق أمين ، ولكن روحك جبانة . . . رغم ما تتحلى به من

صدق وأمانة لا تجرؤ على الاجابة يا صاحب الروح الخائفة .

وقال ناظر المدرسة بصوت خفيض :

- لا ، لا ، لا أجرؤ . . .

- ترى لو سئلت هل تقول الحقيقة ؟

– نعم اعتقد هذا ، ولكن من المؤكد أنهم لن يسألوني عن شيء .
– واذا لم يسالك أحد ، هل لن تبادر وتقف لتعلن الحقيقة على

الملا ؟

وسئل ناظر المدرسة دون أن يجيب .
وفى النهاية استولى عليه الحجل وهو يقول :

– لا .

– وأحس ميشيل بالأسى من أجله ، وإن لم يزايله الغضب . وصرخ
فيه :

– هل هذا هو ما تعلمه للأطفال ؟ هل لم يجدوا غيرك ليربى الجبل
الجديد ؟

وتنهض ناظر المدرسة وقد بداعليه الاعياء التام .
وقال :

الروح متأهبة ، أما الجسد . . .

– ان كانت الروح متأهبة ، فماذا يهم الجسد ؟ . . . انها تفعل به
ما تشاء .

وأحس ميشيل في أعماقه أنه ينال من ناظر المدرسة لا شيء . الا لأنه
على شاكلته . كان يتحدث اليه بهذه القسوة وكأنه ينكل بروحه
ويعيرها .

وواصل ميشيل حديثه :-

– لماذا كان اللثام ذوى بأس وقوة فى هذه الدنيا ؟ ولماذا كان الأخيار

ضعافا ؟ هل لك أن تفسر لى ذلك أيها الحكيم ؟

– لا ، لست أدرى .

ثم أردف قائلا بعد لحظة :

– أخرجتني يا ميشيل بكلامك ولك كل الحق فى ذلك . ولكن أخى

القسيس أقوى منى . وكان دائما هو الأقوى . اعتاد أن يضربني وقتما

كنا صغارا . ولا زلت حتى الآن أشعر أنني عاجز عن أن أطاوله . . . لو لم

يكن موجودا فربما . . .

وتردد ميشيل لحظة ثم قال له دون اكتراث :

– اسمع ، ألم تحدثك نفسك فى يوم من الأيام يا حاجى نيكولا

أن ترتكب جرما معه – أن تقتله ؟

وقفز ناظر المدرسة فرعا . وقال هامسا :

— أحيانا . . . نعم أحيانا . ولكن نادرا ، وفي الأحلام فقط . . .
ولم يكده يلفظ بهذه الكلمات حتى أحس بنسدم مر لما بدر منه .
وضاق لأنه كشف عن سره الحفى . واتجه ناحية فتحة الكهف : لا زال
المطر يتساقط ، والظلام حالك السواد .
وقال :

— سأنصرف . طبت مساء .

وقال ميشيل بنبرة ساخرة :

— الظلام دامس يا حضرة الناظر ، ولن يراك أحد وأنت عائد من
ساراكيينا لتقدم تقريرك الى أخيك القسيس . صحبتك السلامة .
عندما وصل ناظر المدرسة الى السفح لمح رجلين يصعدان الجبل ،
وسرعان مالاذ بصخرة يختفى وراءها . وبعد أن ابتعدا عنه واصل طريقه
من جديد عائدا ، يترنح فى مشيته .
وأحس بالسخط على نفسه وقال :

— ميشيل على صواب . نعم ، نعم ، أخى كذاب أشر ، وأنا امع . . .
صادق أمين أنا حقا ولكنى جبان . سأستجمع شجاعتي ، سأتوجه
الى القسيس لتوى هذا المساء . سأصرخ بالحقيقة فى وجهه وليعيننى
الرب على ذلك .

وقف ميشيل أمام الكهف قلقا تائها، ينتظر عودة القسيس فوتيس
ومانولى . ولم يكده يلمحهما حتى تثبت فؤاده . لم يعد وحده ، فقد عاد
السلام ، واختفى الرجل الميت .

— مرحبا بكما . الوحدة قاسية ثقيلة .

وقال القسيس فوتيس :

— وكذلك كانت رحلتنا ، قاسية ثقيلة . ولكن كان الله معنا ،
ومنحنا أجنحة أعاننا بها على مشاق الرحلة .

وقص عليه بكلمات موجزة مقابلته مع الأسقف والحديث الذى دار
بينهما .

وتوجس ميشيل خيفة وقال :

— هى الحرب اذن !

وقال له القسيس فوتيس مؤكدا :

• نعم انها الحرب ، وهى حرب مقدسة • فهى أول الأمر كانت حربا ضد الأتراك وأغاواتهم ، والآن مع بنى جلدتنا ، الأغنياء والأعيان • وهم أكثر ضراوة وشرًا • ولكن المسيح ، الفقير الحافى القدمين ، معنا • والتفت الى مانولى :

• صدقنى يامانولى لم يكن المسيح دائما وأبدا على تلك الصورة التى نحتها له يوما فوق الخشب : رقيقا ، وديعا مسالما ، يدير خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن • بل كان محاربا صلبا عنيدا يسير فى المقدمة ومن ورائه كل المعدمين على ظهر الأرض • « لم آت لألقى سبلا على الأرض : بل سيفا » • كلمات من هذه ؟ كلمات المسيح • ومن الآن فصاعدا سيكون هكذا وجه ربنا يسوع المسيح يامانولى •
واتقدت عيننا القسيس حتى بدنا وسط ظلام الكهف كأنهما جمرتان تتأججان نارا •

وصمت برهة ثم عاود حديثه :

• انى سعيد يا أولادى • سعيد أن لنا مثل هذا القائد • من الخير أن تكون حملا وديعا ، ولكن اذا ما احدثت بك الذئاب فخير لك أن تكون أسدا هصورا •

وسمعوا نداء عند باب الكهف ، ولمحوا وجها ويدين ممدودتين •
وصاح ميشيل منزعجا :
• من هناك ؟

وصاح صوت فى عتمة الليل وتحت وابل المطر ، كان صوت ياناكوس ، مقعما بالحزن والغضب :

• انه أنا يا اخوتى • هجرت القرية القذرة ، وأتيت لألوذ بجبلكم • وبسط الثلاثة أذرعهم مرحبين • وقالوا معا :
• مرحبا بك يا ياناكوس •
وسأله مانولى :

• ماذا دهاك يا ياناكوس ؟ ما انذى أتى بك فى مثل هذه الساعة ، تحت هذا السيل المنهمر ؟

أمسك ياناكوس بيد القسيس فوتيس وقبلها فى رقة وحنان •
• استمعت الى كلماتك الأخيرة يا أبانا ، وأنا أقرك عليها • خير للمرء أن يكون حملا ولكن اذا احدثت به الذئاب فخير له أن يكون أسدا هصورا •

وعصر شعره الذى بلله المطر ، ووضع صرة ملابسه على الأرض ،
وجلس فوقها • وران صمت عميق •

وأخيرا تكلم ياناكوس :

— أتانى الليلة بانايوتى ، حارس الأغا الجديد ، يحمل ورقة عليها
خاتم الأغا ، يعلننى فيها أنه أخذ حمامى مقابل دين استدنته من الخنزير
لاداس ...

وغلبته عبرته ، ولكنه سرعان ما تماسك وتجلد ، وشب واقفا
على قدميه وصاح :

— سأذهب ذات ليلة الى بيت هذا الملعون وأشعل فيه النار • نعم
وبحق المسيح سأشعل فى بيته النار •
رقال القسيس :

— لا ، لست وحدك • صبرا يا ياناكوس • سننزل الى هناك سويا •
وتساءل ياناكوس فى قلق :

— ألم تحن الساعة بعد ؟

— اقتربت الساعة ، ومعدنا معهم ليس ببعيد • ولهذا السبب
أقترح أن يتعلم النساء والأطفال ، ابتداء من الغد ، كيف يستخدمون
المقلاع • يجب أن نستعد •

ثم اتجه ناحية فتحة الكهف وقال :

— حسبنا هذا الليلة يا أبنائى • تجرعنا اليوم كل أنواع السموم
على يد الناس ، وحسبنا هذا • حان وقت النوم • دعوا النوم يشفى
جراحنا حتى نستعد للغد ولكل غد يأتى من بعده • • تعال يا ياناكوس
شاركنى صومعتى البائسة ، انى سعيد برؤياك بيننا •
ورفع ياناكوس صرته ، واقتفى أثر القسيس •
وأصبح الصديقان وحدهما • والتفت ميشيل الى مانولى وأمسك
بيده • وسأله بصوت خفيض :

— ماذا ؟

أخرج مانولى مندبل الفتاة من جرابه •

— مع تحيات ماريورى •

أمسك ميشيل بالمندبل ، وحملق بعينيه فى الهدية الحزينة ،
وتحسسها بيد مرتعشة ، وفهم كل شىء • فك الضفيرتين الطويلتين ،

ودفن وجهه فيهما ، وانخرط في بكاء شديد ، وانهاه عليهما بقبلاته .
ولبت كذلك فترة طويلة ، ثم رفع رأسه وسأل :

— هل حضرها الموت ؟

ولم يجب مانولى .

بينما كان الرفيقان يتجاذبان أطراف الحديث على هذا النحو فوق جبل ساراكيينا ، كان ناظر المدرسة يحمل قلبه بين راحتيه وهو في طريقه لمقابلة القسيس جريجوريس . أخلجته كلمات ميشيل ، وبثت فيه الحماس وها هو لأول مرة في حياته يقرر أن يقاوم إخاه .

ألقى القسيس جالسا الى مائدته ، فرغ من تناول عشاءه ، وكان العشاء وفيرا ، والطهى طيبا ، والنبذ رائعا . وأشعل سيجارة وبدأ بدخنها فى متعة وتلذذ . ثمة ورطة سيقع فيها بعد ثلاثة أيام . فقد بعث اليه الأغا برسالة يوم الثلاثاء أبلغه فيها أنه صدق وعده — طرد أهل ساراكيينا ، ووضع اختتام الشمع على بيت بطرياركاس ، وجاء دوره ليبر هو الآخر بوعده ، ويلبى طلب براهيماكى . قضى القسيس ثلاثة أيام معذبا ، يفكر ليل نهار عله يهتدى الى فتاة صغيرة يقدمها للأغا دون أن تحدث فضيحة ، ولكن بلا جدوى . وأخيرا اهتدى اليها فى هذه الليلة ذاتها وهو : خن سيجارته . وهذا بالا .

وتمتم وهو يملأ كأس النبيذ :

— الحل بين يدي . انه الهام من لدن الله . قسما بدينى أن الفتاة ستكون خير من يقوم بهذا الدور ، وهى تتحرق شوقا لذلك ، ولن يتحدث عنها أحد بكلمة ، كما سير بها الأغا ، ونضمنه الى جانبنا . الحمد لله .
وفى هذه اللحظة دخل عليه ناظر المدرسة :

فقال القسيس دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف .

— طبت مساء يا نيكولا . من أين أتيت ؟ الوحل يغطيك تماما .

وأجاب ناظر المدرسة فى حماس :

— من ساراكيينا .

وتملل القسيس فوق كرسيه .

— ماذا كنت تبغى من عيش الزناير اللعين هذا ؟ ألا تعرف أن ساراكيينا وليكوفريسي بينهما حرب ، كل منهما تشهر سلاحها ضد الأخرى ؟

وقال حاجى نيكولا لنفسه :

- تشجع يا حضرة الناظر ، ها هي اللحظة الهاسمة • فاثبت أنك
أهل بأن تكون سليل الاسكندر الاكبر •
وآنس في نفسه المخاطرة وهو يقول :
- ذهبت لأرى ميشيل • أردت أن أثبتن بنفسى ان كان مجنوننا حقاً
• لا

وإلى القسيس :
- آه ، أردت أن تثبتن بنفسك ، ثم ماذا ؟
- تحدثت إليه ساعة بأكملها فى شتى الموضوعات ، كبيرها
وصغيرها ••

- حسناً ثم ماذا ؟
- عاقل تماماً مثلى ومثلك •
وهب القسيس لسماعه هذه الكلمات ، وصاح :
- ابقى فيما يعينك فقط يا حضرة الناظر ، لا تتدخل فى شئون
الآخرين • هل طلبت منك الذهاب الى هناك ؟ أى شىء أجبرك على ذلك ؟
وتمتم ناظر المدرسة :

- أحسست بثقل يثقل ضميرى •• كنت أشك ان الامر ليس
صحيحاً •

- حسناً ، أنا لا أقبل هذا قط • هل هو أنت الذى تعلمنى ما هو
صواب ، أنت أيها الأبله ؟ ميشيل مجنون ، هذا هو الصحيح •
وجازف ناظر المدرسة بالرد :
- ولكنه ليس كذلك •

- قلت لك انه مجنون • أنت لا ترى أبعد من أنفك ، لا تستطيع أن
تتجاوز الأفراد ، أما أنا فلا أعبأ بالأفراد ، انما أعبأ بالجموع •• فانا
قائد هذا الشعب ، أنا • هل فهمت أيها الأبله ؟
ولم يحر ناظر المدرسة جواباً •
وأردف القسيس قائلاً :

- اذا ما وقع ظلم على شخص ، وكيان هذا الظلم لصالح المجموع ،
فهو العدل بعينه • ولكن عقلك قاصر عن فهم الأمور على هذا النحو •
واستوى واقفاً ، ويداه الى خصره ، أمام ناظر المدرسة الذى كان
يستمع إليه مطأطئ الرأس •

- لو سئلت ، فهكذا يجب أن تكون اجابتك • واذ لم تستطع فالزم الصمت •

ونهض ناظر المدرسة وهو يقول :

- سألزم الصمت • أما فى أعماقى ...

وانفجر القسيس ضاحكا فى تهكم وسخرية :

- ليكن فى أعماقك ما يكون ، فأنا لا أعبأ بذلك فى قليل أو كثير •

لك مطلق الحرية بأعماقك هذه • ولكن حين يمتد الأمر خارج نفسك فيجب عليك أن تفكر مرتين وتتدبر أمرك •

ثم تابع حديثه بصوت لا يخلو من رقة :

- أنت أخى الأصغر ، نحن أخوان يا حاجى نيكولا ، ويجب أن

نظهر أمام الناس رأيا واحدا ... وهو رأى أنا • هل تسمعنى ؟

أحس ناظر المدرسة برغبة فى الصراخ « الى متى ؟ فأنا مثلك ، لى

روح ولى رأى • لست على وفاق معك ، ولا يمكن أن أرضى بالظلم ، سأذهب

الى ميدان القرية وأصرخ بأعلى صوتى وأعلن الحقيقة على الملأ ، • ولكنه

احتفظ برأيه لنفسه ، واتخذ طريقه الى الباب قانعا بقوله :

- طبت مساء •

أفرغ القسيس كأسه دفعة واحدة ، وغغم فى تأفف :

- يا لبذاءته • أنا لا يمكن أن أقبل ذلك منه • يقول رأى الخاص ،

يا للوقاحة •

وطوى منشفته ، ورسم الصليب ، وحمد الله أن أنعم على الناس

بالطعام والشراب فى سخاء ووفرة ، ثم آوى الى فراشه لينام وهو يقول

لنفسه :

- غدا مع مطلع الفجر سأبعث فى طلب مارتا •

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى وصلت مارتا الحدباء تسب

وتلعن :

- ترى ماذا يزيد منى صاحب لحية التيس حتى يرسل فى طلبى مع

مطلع الفجر ، وهى الساعة التى يستيقظ فيها ابن الزنا ليصيح بى

أريد هذا ، أريد ذاك ، دون أن يعرف ماذا يريد • كانى أم لطفل رضيع

... افتحى عينيك يا مارتا ، لا تنسى يا منكودة الحظ أن الشيطان يختفى

وراء كل كلمة ينطق بها هذا القسيس العجوز ، فحذار أن تقفى فى

العرك •

دخلت مارثا • وكان القسيس متربعا فوق الحشية يرتشف القهوة •
لازال جفناه منتفخين من أثر النعاس •

وانحنى مارثا حتى كادت جبهتها تمس الأرض ، وقبلت يد القسيس ،
ثم تراجعت الى زاوية من الحجره وانتظرت وذراعها معقودتان الى صدرها •
وأخذ القسيس يقلب فى رأسه الكلام الذى يريد أن يقوله لها ،
دون أن يعرف كيف يبدأ معها الحديث •
وأخيرا قال :

– عزيزتى مارثا ، ستدخلين الفردوس يوما ممشوقة القد مثل غصن
البنان • ذلك لأنك رغم السنوات الطوال التى قضيتها فى خدمة الأتراك ،
لم تنس المسيحية • وعندما تنزل بالمسيحيين نازلة لانلوز الا بك • ولهذا
دعوتك اليوم يا عزيزتى مارثا الطيبة •
وحدثت الحدباء نفسها :

– ها هو ذا القسيس الشيطان ينصب شبابه • يضع الجبن فى
المصيدة ويفتح لى بابها ••• افتحى عينيك يا بائسة ولا تدخلى •
وقالت :

– كلماتك يا أبانا هي كلمات الرب ، وأنا طوع بنانك •
– تعرفين أن براهيماكى يطلب امرأة • وقد أبدى رغبة فى أن ترقص
بنات القرية أمامه حتى ينتقى من بينهن من تروقه ، هذا الكلب • وانه
لعار كبير والموت خير لنا منه • أليس كذلك يا مارثا ؟
وأمنت الحدباء العجوز على كلامه وقالت :
– الموت خير منه دون ريب •
وواصل القسيس كلامه :

– وفى نفس الوقت يجب ألا ندخل فى نزاع مع الأغا ، فمن الخير
لصالح المجتمع ، أن نكسبه الى صفنا • وقد أعلن الأغا صراحة : « اذا لم
تأت بامرأة لبراهيماكى سأعلن الحرب على مجتمعكم • هل تفهميننى
يا مارثا ؟ سنهلك • اذن ما العمل ؟ هل تأت بامرأة لبراهيماكى أم نعروض
المجتمع للهلاك ؟ ماذا ترين يا مارثا ؟

وأجابت المرأة العجوز وهى على ثقة من أنها تردد رأى القسيس :
– بل ليهلك المجتمع •

– ماذا تقولين يا مارثا ؟ وقانا الله كل شر • أيهلك المجتمع ؟ هل

نعرض المسيحية للهلاك؟ رحماك يا الهى • لا ، لا يا عزيزى مارثا • تعالى
نتدبر الأمر •

– وردت مارثا على الفور :

– تدبرت أمرى ، والرأى عندى أن نبحث له عن امرأة •

– حسنا ، لا فض فوك • أنت الآن عند حسن ظنى بك يا طفلى •

هل تعرفين صفات المرأة التى يطلبها ؟ بضة مكتنزة ، بيضاء كالخبز ،
حياة ...

– بضة ، مكتنزة ، بيضاء كالخبز ، حياة ... ايه ، ماذا تنتظر منى

ان أقول يا أبانا ؟ لا أعرف امرأة اجتمعت لها كل هذه الصفات •

– تفكرى قليلا يا ابنتى ، ان كنت تبغين اسداء خدمة لى ...

– ماذا أقول يا أبانا ؟ طفت بذهنى على كل بنات القرية ، فيهن

البضه الحية ولكنها ليست بيضاء ... وغيرها بيضاء حية ولكنها ليست
بضه ...

– هل تعرفين فيمن فكرت أنا ؟ بيلافيا ، كبرى بنات بانايوتى •

أقول لك لماذا اخترتها هى ...

– ولكنها ليست بيضاء يا أبانا • ولك أن تعلم أنهم ينادونها

بالسمراء ، وأحيانا بالسوداء ...

– هذا لا يهم يا عزيزتى مارثا • فهذا عيب يمكن اصلاحه • سأعطيك

مندوق بودرة تدعك بها وجهها صباح مساء وتصبح بعدها بيضاء
كالخبز •

– فى هذه الحالة يا أبانا سيكون الأمر هينا •

– ولكنها ... هل تمتقدين أنها تقبل ذلك ؟

– هى؟ انها فتاة شبة يا أبانا • انها براهيماكى الأنثى • براهيماكى

رجل يكشف صراحة عن نزواته ، أما بيلافيا فامرأة توارى نزواتها ...

لست أدرى ما الذى يحدث وقتما يجمعهما الفراش • سينقض المنزل من

تحتهما فوق رأسى •

وضحكت الحدياء العجوز وهى تمسح أنفها المنساب بطرف كهما •

وقال القسيس بجد وصراحة :

– ليكن هذا • لا تقفزى الى النتائج السيئة • يحسن بنا نحن الاثنين

أن نتدبر خير السبل لتحقيق هذا • بانايوتى يعمل الآن حارسا خاصا

للأغا . ومن ثم لن يدعش أحد لذهاب بيلافيا الى بيت الأغا تحت ستار زيارة أبيها . وتستطيعين أن تدبرى الأمر يا مارثا ، فأنت خبيرة بهذه الأعمال . وعندما تذهب الى هناك سيراهها براهيمياكي . ولكن لابد وأن تعطيهما البودرة قبل ذهابها .

وقام وفتح خزانة صغيرة وأخرج منها صندوق البودرة ، ووضعها في يد مارثا . وقال :

– خذى . قولى لها يمكنها أن تخلطها بقليل من الدقيق حتى تقتصد . هزت العجوز رأسها . وعرفت الطريق الذى يدفعها القسيس اليه ، وترددت .

وتروت فى أمرها ، ثم ردت عليه أخيرا .
– كل هذا حسسن يا أبانا ، ولكننا نسينا شيئا واحدا ، وهو

الأهم

– ماذا يا مارثا ؟

– نفترض أن بانايوتى اكتشف الأمر ، فانه سيقتلنى أنا ثم يقتل براهيمياكي وبعده قداستكم ، وأخيرا سيشعل النار فى القرية كلها خير لك أن تفكر فى ذلك .

وهرش القسيس رأسه ، وقال :

– أنت على حق ، قد يقتلنى أنا أيضا ولكن اذا لم يكن ثمة بد من هذا ، فماذا عسانا أن نفعل ؟ آه ، عندى فكرة ، سأطلب من الأغا أن يرسل بانايوتى فى جولة بعيدة .

– واذا حملت منه ؟

– من ؟

من تظن يا أبانا ؟ بيلافيا طبعاً

وصاح القسيس فى ضيق :

– قد يحدث هذا ؛ لا تتوقعين غير الشرور أيتها المرأة القذرة . لا لن

تحمل منه .

– كيف عرفت هذا ؟

ولم يدر القسيس بماذا يجيب فقال :

– الله أكبر

وقالت الحدياء :

- - ايه ... هل تظن يا أبانا أن الرب الرحيم يشغل نفسه بهذه الأفعال القذرة .

- ان كان الأمر كذلك فعليك أن تنتهى هذه المسألة مع ماندالينا .
فهى تعرف أعشابا ...

وتمتت الحدياء بطرفم فهما :

- أعوذ بالله من الشيطان ... ترى هل هذا القسيس المبارك يمثل الرب أم الشيطان ؟

- فيما تفكرين يا طفلتى ؟

- أنت ممثل الرب يا أبانا ، هذا كل ما أود أن أقوله . فافعل ماتراه خيرا .

- انى أناضل من أجل خير المسيحية يا أم مارثا ، والله أعلم بذلك ، وهو ولى التوفيق . . وسوف يعيننا ويوفقنا ... تعالى ، تشجعى يا طفلتى فالأمك لن تضيع هباء دون جزاء ...

وفتحت العجوز عينها الواسعتين وقالت فى سريرتها : « هكذا كان يجب أن تبدأ أولا أيها التيس العجوز ...

وختمت كلامها بقولها :

- عظيم جدا ، قد يكلفنى هذا حياتى ، ولكننى سأبذل قصارى جهدى . ومن جانبكم آمل أن تبذلوا قداستكم قصارى جهدكم . أنا امرأة فقيرة مسكينة وحيدة ...

- لا عليك يا أم ، فلن تخسرى حياتك بسبب ذلك ... اذهبى الآن فورا ، وأتمنى لك حظا موقفا . وسوف نتحدث سويا مرة أخرى . وأنا معك وثقى من ذلك .

وانحنت المرأة العجوز على يد القسيس وقبلتها . وقالت :

- بركاتك يا أبانا . أنا أفهم ما تريد ، وأنت تفهم ما أريد . سأذهب مهما كلفنى ذلك وأزور بيلافيا . ستطير فرحا ، هذه العاهرة .

- كان الله معك . اسرعى وائتنى بأخبار سارة .

وربت على كتفها ثم حدثتها فى حذر . وقال :

- نخدمك فى فرحك يا مارثا . سأنبش الأرض بحثا عن فتى طيب لك . ولكن لعلاقة طيبة بريثة تنتهى بالزواج ، حتى تغلتين من بين أيدي الأتراك ... أسرعى .

وقالت المرأة بانفعال شديد :

- حاول جهدي يا أبانا ، وكن رحيما بي فاني وحيدة في هذا العالم .
انها خير مكرمة يا أبانا ، سيجزيك الله عنها خير الجزاء .

ثم خرجت وهي تجفف أنفها الذي بدأ ينساب من جديد .
ولم تكذ تغلق الباب حتى تتم القسيس :

- يا لها من عجوز سفيهة . صدقت ما أقول . ما أغرب المرأة ، اللهم
احفظنا .

وانتظر يوما ويومين قلقا متوتر الاعصاب . وفي اليوم الثالث انفتح
الباب ، ودخل بانايوتى وعلى رأسه طربوشه الأحمر الجديد . وفزع
القسيس . استوى واقفا وقال :

- ماذا حدث يا بانايوتى ؟

- أرسلنى اليك الأغا ، يا أبانا .

- أى رسالة حملتها لتبلغنى بها .

- شىء يحيرنى لا أفهمه . يبلغك تحيياته ، ويقول لك أصبح
براهيماكى هادنا وديعا أكثر من الحمل .

الذئاب تبحث عن فريستها

أقبل الشتاء فجأة • وتجهم وجه الطبيعة • وانهمر المطر مدرارا • وهبت ريح ثلجية من الجبال ، وشجبت أوراق الشجر ثم افترشت الأرض وكدستها العواصف الهوج أكواما ، ثم أصابها اليبس وتحللت وعادت الى الأرض التي منها بدأت • واستحمت البذور في ماء الحقول ، وانتفخت وامتلات عصارة ، وتهيات لتشق الأرض وتفتق براعمها مع الربيع • وكمنت السحالي في جحورها ، واعتزل النحل في خلاياه ، وتعلقت الخفافيش عناقيدا بالسقوف • وتراجع كل الوجود في ترقب وانتظار • وعاد أهل ليكوفريسي الى بيوتهم مبكرين ، لينعموا بالدفء أمام المدفئة • وأخرجوا من خزائن مؤنهم قمحا وزيتا ونبيذا ، من حصاد عامهم ابان الصيف ، ليأكلوا منه ويشربوا بوفرة وسخاء طوال فصل الشتاء • وجادت مصابيح الزيت بضوئها على النساء اللاتي جلسن حولها يغلزن وينقن القمح ، ويزجن الوقت بسماع أساطير قديمة أو أقاصيص خليعة • وساق نيكوليو أغنامه الى الحظيرة ، ثم جلس الى المدفأة ، مسندا ركبته الى ركبة لينيو • لقد غزلت لفافات عديدة من الصوف ، وهي الآن منهمكة في نسج ملابس وقلانس للطفل المرتقب • كبر بطنها وتكور ومضى نيكوليو ينظر اليها كما ينظر الفلاح الى أرضه الخصبة ، أجاد حرثها وبذرها وينتظر الغيث •

وقالت لينيو :

– سنسميه جورج ، اقتداء باسم جده الشيخ بطرياركاس .

وقال نيكوليو معترضا :

– لا ، بل نسيمه هاريديموس اقتداء باسم أبي .

– لا ، قلت لك نسيمه جورج .

– الكلمة للزوج دائما ، سنسميه هاريديموس .

وتخاصما فى دلال ومزاح حول هذا الموضوع ، وتشابكا وتدحرجا فوق السرير قرب النار ، وتعانقا عناقا محارا يشفى ظمأ قلوبهما ، وأصلح بينهما .

واعتاد القسيس جريجوريس أن يمتطى بفلته كلما صحا الجو ، ويذهب الى المدينة لزيارة ماريورى . وفى كل مرة يعود أكثر صمتا ويأسا عن ذى قبل . اظلم وجهه ، وقسا قلبه فبات كالحجارة أو لئس قسوة . وذات مرة التقى عند عودته ببيلافيا ، تخوض بقدميها العاريتين فى الوحل ، ووجنتها المثلثتان متوردتان كزهر الربيع . وصاح فى ثورة على الرب :

– لماذا يا الهى تقسو على هكذا ؟ ماريورى تذبل وتذوى كشسمة تحترق ، وتمنح بنات السؤ وجنات متوردة .

وجلس براهيماكى هو الآخر أمام المدفأة يستدفئ بنارها . أصبح أكثر نحولا وطواعية ، يشعل للأغا غليونيه ويملا كأسه بالعرقى ، صموتا لا يتكلم . . . والأغا يرمقه بطرف عينه ، ويبتسم فى خبث .

– ما رايك فى الحياة هنا يا براهيماكى ؟ هل تريد العودة الى

سبيرنا ؟

– أنا راضى بالحياة فى ليكوفريسي . لن أتزرح من هنا .

– روضتلك المرأة أيها الشيطان التعس . نصحتك حين قلت لك حذار من النساء . ولكنك ألححت فى القول – وبئس ما قلت – « أريد امرأة ، أريدها فورا » . انظر الى الحال التى صرت اليها الآن . أنت تستحق كل هذا .

والشيخ لاداس الذى ملأ البخل قلبه بالقسوة ، يخرج مع مطلع الشمس ليتجول حافى القدمين وسط حقوله وتتقدمه رقيقة حياته فوق حمار ياناكوس .

يقول لها :

– ها أنت ترين يا عزيزتى بنيلوب أن الله عادل لا يظلم أحدا . انه

مثل محب للخير ، يقرض النقود ، وهو عليم خبير بشئونه . لم نخسر

الجنبيات الثلاثة كما كنت تخشين . أصبح لنا حمارنا ، ويمكنك الآن أن تتأمل العالم من عليائك ٠٠٠ آه ، كنت على صواب حين قلت لك « لو قدر لي أن أعيش ما انتى عام أخرى لجعلت منك ملكة .

وتجمع أهل القرية فى مقهى قسطندى، يشربون السحلب، ويدخنون النارجيلة ، ويلعبون الطاولة ويلعب الصغار لعبة البجامون . وعقب جو المقهى برائحة التبغ والسحلب . واعتاد ناظر المدرسة أن يأتهم مساء كل سبت ، فيلتفون حوله ، ويقص عليهم ملاحم الأجداد . وتلتهب مشاعره رويدا رويدا ، فيهب واقفا يلوح بذراعيه ، وتعلو عقيرته . ويصف أحيانا النارجيلات فى جانب من القاعة ، ومناضد لعبة البجامون فى الجانب الآخر ويصيح :

— ها هنا الفرس على اليمين يتأهبون للمعركة ، وها هم اليونانيون على اليسار ٠٠٠ وأنا ميليتياديس . كم فارسى هناك ؟ مليون . وكم عددنا نحن اليونانيون ؟ عشرة آلاف . واحد مقابل مائة . انتبهوا ، سيبدأ الهجوم .

ويلقى ناظر المدرسة بنفسه فوق الكراسى فيقلبها حتى يكاد يحطم النارجيلات . ويتدخل قسطندى أثناء المعركة لينقذ حاجياته . ويتصبب العرق من وجه ناظر المدرسة ويعلن على الملأ :

— لقد هزموا شر هزيمة ألقينا بهم الى البحر فى الماراتون . تحيا اليونان .

وكان أهل القرية يضحكون ويسخرون كلما بدأ المشهد . ولكن الحماس يجرفهم رويدا رويدا . فلم يكن أحدهم يرضى بالوقوف على اليمين مع الفرس ، بل يسرعون جميعا ليقفوا وراء حاجى نيكولا، أو ميليتياديس . ويصيحون بعد الفوز « برافو ميليتياديس » ويطلبون السحلب للبلبل المظفر .

وفى ذات يوم نزل ياناكوس من الجبل الى القرية . كان الثلج يتساقط ، والشوارع مقفورة . تفرس بعينيه فى المداخن التى يتصاعد منها الدخان ، وشم رائحة الطعام تفوح من الأوانى التى انهمكت ربات البيوت فى اعدادها . واستطاع أن يتعرف على نوع كل طعام من رائحته — هنا بطاطس محمرة ، وهناك سجق مشوى على الفحم ، وثمة فطير مدهون بالزبدة ٠٠ آه ، لا يحرمون أنفسهم أبدا هؤلاء الحنازير، يتخمون كروشهم الى آخرها . ليأخذهم الشيطان . وسار على بعد خطوات ، وتصاعدت رائحة

الخبز الساخن تدغدغ أنفه « خبز ••• خبز ••• » قالها وهو يتنهد ،
ولعابه يسيل على شفثيه •

حت الخطى ، حتى بلغ بيت الشيخ لاداس • ودار حوله دورة واحدة ،
ثم أتبعها بأخرى ، يستطلع الجدران ، والنوافذ وموقع الحديقة خلف
البيت • وتمتم : « الجدار هنا منخفض ، حسن ••• » وتوقف مكانه
فجأة ، وخفق قلبه خفقات قوية حتى كاد يتصدع ، هاهو ذا حبيبه يوسوفاكى
ينهق فى الحديقة ، يبدو أنه شم رائحة سيده •

مال ياناكوس بأذنه الى الحائط يتسمع النهيق فى شوق وقلق •
لم يسمع فى حياته صوتا أعذب من هذا ، ولم ينهق يوسوفاكى أبدا نهيقا
حنونا رقيقا كعهده به اليوم • وتذكر أيام الصبا ، كيف كان يقف تحت
نافذة محبوبته يغنيها أغاني العشق والهيام - وهى زوجته الراحلة ، ولكن
ما يسمعه الآن جد مختلف ، انه يسمع صوتا حنوناً يثير الشجون والأسى •
وفاضت عيناه بالدمع وهمس : « لا تجزع يا يوسوفاكى ، لا تجزع
يا حبيبي ، سأخلصك مما أنت فيه » •

وعاد ياناكوس الى الجبل تحت جنح الظلام ، مقررًا جائعا ، وجال
بين الكهوف حيث تجمعت النساء وقد ضمن أطفالهن الى صدورهن ليدفننهم
••• وقال لهن كلمة مواساة أثناء مروره بهن : « تشجعوا يا أحبائى ،
عضوا على النواجذ • محنة وتزول • وهمهم الرجال دون أن يرفعوا
عيونهم اليه ، وهزت النساء رؤوسهن وتنهدن •

- ثقن بالله ، يا سيداتى •

- حتى متى ، يا ياناكوس ؟

لم يدر ياناكوس بماذا يجيب ، فتركهن وواصل المسير •

- ماذا يفعلون هناك فى ليكوفريسى ؟ ألم تكن هناك ، يا ياناكوس ؟

- يتصاعد الدخان من مداخنهم ، ويملاون بطونهم ، عليهم اللعنة •

جمعوا كرمنا ، ويشربون نبيذنا • وحصدوا زيتوننا ويملاون بطونهم •

بزيتنا • ولكن الله بصير بهم ، غير غافل عما يفعلون •

- ومتى يحول عينيه لحظة ليبصرنا نحن أيضا ، يا ياناكوس ؟

مرة أخرى واصل ياناكوس سيره ، وانصرف عنهم دون أن يجيب •

وجلس ثلاثة رجال داخل كهف يثرثرون فى الظلام وقد تكاواوا على

بعضهم التماسا للدف • توسطهم لوكاس ، هذا المارد الضخم حامل العلم •

وقال أحدهم :

- هل رأيت الأطفال ؟ بدأت أجسادهم تنتفخ من أثر الجوع . ان طفلي لم تعد ساقاه تقويان على حمله .
وقال الثانى :
- أملنا فى الله وحده حتى الآن ، ولكن ...
وقال لوكاس :
- ان الله يعين كل من يعين نفسه ، اذا قبعت فى مكانك متواكلا ولم تتحرك فلن يتحرك الرب كذلك . حانت الساعة التى نضع فيها أملنا بين أيدينا ونسعى . ليس علينا الا أن ننزل الى القرية ونسلب منها كل ما تصل اليه أيدينا . من هناك ؟ ادخل .
- أنا ياناكوس يا رفاق .
- لك تحياتنا يا أخانا . تعال ودس نفسك بيننا لتستدفى .
وأجاب ياناكوس :
- اننى أغلى ، بل أحترق ، لا أشعر بالبرد . عدت لتوى من ليكوفريسي .
- متى سننجز ما اتفقنا عليه ؟
- ربما يكون ذلك الليلة . هل توافقون ، يا رفاق ؟
وصاح الثلاثة فى صوت واحد :
- نحن على استعداد . اضرب والحديد ساخن .
- وهو كذلك ، موعدنا الليلة ، وهو وقت مناسب . فالظلام دامس ، والمطر ثلج طام ، والأغنياء سيقبعون فى بيوتهم يدسون أنفسهم تحت أغظيتهم ، وحيث انهم متخمون فانهم سيفرقون فى سسبات عميق . لن يصادفنا أى انسان فى طريقنا ...
- وعاودوا موافقتهم :
- نحن على استعداد . سننتظر هنا ، حتى تمر بنا لتأخذنا معك .
- حسن اعدوا الزجاجات والزكائب . وانت يا لوكاس ، هات المصباح المعتم .
- كل شىء جاهز هنا يا ياناكوس . أسرع .
- خرج ياناكوس قاصدا كهف مانولى . وبينما كان سائرا فى طريقه أبصر ميشيل ممسكا بشىء بين ذراعيه ، يتأمله بعينيه على ضوء خشبة صغيرة مشتعلة .
- اتجه اليه ياناكوس سيرا على أطراف أصابعه . لقد تغير ميشيل

خلال الأيام القليلة الماضية • أصبح صموتا لا يتكلم ، غارقا فى تأملات عميقة ، يهيم على وجهه وحده ، ينتقل من كهف الى كهف ، ينظر الى الناس بعينيه دون أن يتحدث اليهم بكلمة واحدة •

مال ياناكوس على كتف ميشيل فرآه ممسكا بطفل صغير لم يتجاوز عامه الثالث ، جلد على عظم ، وبطن متورم ، وأطراف نحيلة كالبوبص ، ونبتت فى ذقنه شعيرات طويلة •

وقال ياناكوس بصوت خفيض ، حتى لا يزعج صاحبه :

– ميشيل ••• لا تنظر اليه •

واستدار ميشيل وتمتم :

– انظر يا ياناكوس ، نبتت له لحية ••• لم يتجاوز عامه الثالث

ونبتت له لحية من أثر الجوع • وجدته ملقى على قارعة الطريق •

وكرر له ياناكوس ما قاله قبلا :

– لا تنظر اليه •

ووقال ميشيل من جديد :

– وجدته ملقى على قارعة الطريق • لم أعد أقوى على احتمال ذلك ،

لم أعد أطيق يا ياناكوس • هل تستطيع أنت ؟

أمسك ياناكوس بذراعه وقال له :

– تعال معي •

– انتظر ••• ألا ترى أنه يلفظ أنفاسه • حاول الطفل أن يصيح

ولكنه لم يقو على ذلك • ظل يفتح فمه ويفلقه كسمكة القى بها البحر فوق

الشاطئ ••• وحرك يديه الصغيرتين ، وفجأة تصلب جسده بين ذراعى

ميشيل •

وقال ياناكوس :

– تعال ، أتركه هنا ، وغدا نحفر له قبرا ••••

– لا أحمّل أكثر من هذا يا ياناكوس ••• هل تحتمل أنت ؟

لم يجب ياناكوس ، وانما أمسك بذراع ميشيل بقوة ، وجذبه معه •

وجدا مانولى جالسا فى زاوية من الكهف مطرقا •

وسأله ياناكوس :

– ما عندك من أخبار يا مانولى ؟

– كل ما هو سيء ، يا ياناكوس • رفاقنا الذين يتجولون بين القرى

عادوا إلينا بقدر ضئيل من الخبز لا يكفى أبدا • أرسلنا بعض رجالنا الى

ليكوفريسي وردهم الأب لاداس . قال لهم : « الموت خير لكم . » أما القسيس جريجوريس فقد قال : « سلوا قسيسكم فوتيس أن يأتيكم بمعجزة ، وأرسل اليها ديمتري الجزار بعض اللحم ، وأفرغ قسطندي كل ما في مخزنه المتواضع من طعام . وكل هذا لا يكفي لنعطي كل طفل قسمة واحدة ملء الفم .

– أين القسيس فوتيس ؟

– ها هو ذا قد أقبل .

دخل القسيس فوتيس وجلس دون أن ينبس بكلمة واحدة . عاد لتوه بعد أن دفن أخوين صغيرين ماتا جوعا في وقت واحد ، وقد تشبث كل منهما بذراع أخيه . أحضرهما أبوهما في دلو ، وكفنهما ببعض العشب ، إذ لم يجد خرقة يكفنهما بها . أخرجهما القسيس في حرص شديد خشية أن يفرق بينهما ، ومددهما على الأرض ، ثم تلا عليهما صلاة الموتى . وعلى بعد خطوات منه كان أبوهما يحفر لهما قبرا صغيرا .

ران صمت عميق . وكان القسيس أول المتكلمين .

– ويل لمن يزن الرب بميزان القلب ، فانه هالك لا محالة . فان

هذا يفضى به الى الزيف ، ويكفر بالرب وينكره

وصمت ثانية ، فزعا من الكلمات التي يوشك أن ينطق بها لسانه .

ولكنه لم يستطع أن يتراجع .

وهب واقفا وهو يصيح :

– أي اله هذا الذي يترك الاطفال فريسة للموت ؟

وقال ياناكوس :

– يا أبانا ، أنا لا أزن الرب ، وانما أزن البشر . ووزنت أهل

ليكوفريسي ، وحكمت عليهم فأدنتهم . سأنزل اليهم الليلة لأسلبهم

ما يمتعونه عنا .

وتفكر القسيس لحظة . وطافت بمخيلته صورة الجثتين الصغيرتين

المتعاقبتين . وتمتم :

– أبارككم . اذهبوا ، وانى أحمل هذه الخطيئة على كاهلي .

وقال ياناكوس محتجا :

– بل أحملها أنا يا أبانا ، لا أتخلي عنها لك .

ونفض ثه قال :

– الرجال في انتظارى . سأنتقل اليهم .

– بارككم الرب . لن يمضى وقت طويل حتى نزل جميعنا وفي وضع

النهار .

وخرج ميشيل عن صمته لأول مرة وقال :

- انى ذاهب معكم .

- تعال يا ميشيل حتى يذهب عنك الوهن .

وأمسك بيده ، وتحسسا طريقهما فى عتمة الليل الحالك السواد .
وعاد المرح الى نفس ياناكوس .

- بداية طيبة يا ميشيل . سنزيل بها ما علانا من صدا . رضينا
بالقعود عسى أن تمطر السماء علينا من طيبات الطعام ما نأكله . ولكن
السماء لا تمطر طعاما ، وانما نسعى نحن اليه ونأخذه انتزاعا . يجب
ألا نركن الى الله فى كل شىء ، انه خير حقا ، ولكن نه مشاغله أيضا .
لا بد أن نتحرك نحن قليلا ، كن عوننا لنفسك تعينك السماء . « أيها
الذئب لماذا رارك غليظ العنق ؟ لأننى أجد بحثا عن فريستى » .
حسن ، ونحن كذلك علينا أن نجد بحثا عن فريستنا ، الليلة . . هيا
أيها الزملاء ، لنبدأ » .

لمحه رفاقه الذين جلسوا فى انتظاره داخل الكهف حول نار خابية ،
فقفروا من فورهم .
وقال ياناكوس :

- الى الامام باسم المسيح . باركنا قسيسنا أيضا . هيا بنا .
لا تنتعلوا احديتكم الثقيلة وانما صفوها طابورا لتأتى ورائنا .
وانفجروا ضاحكين . فمن أين لهم تلك الأحذية ؟ ان اقدامهم
ملفوفة بخرق .

- هل أتيت معك بالمصباح المعتم يا لوكاس ؟

- « لا عليك ، ها هو ذا » .

نظر اليه ياناكوس مبتسما ، وقال :

- هدية الكابتن التعس فورتوناس . اظنه الآن يتطلع اليه من مشواه
فى جهنم ويفرق فى الضحك .

سار ياناكوس ولوكاس فى المقدمة وتبعهما رفيقاهما . وانطلق
ميشيل وحده شاردا الفكر .

قال لهم : « ادوا مهمتكم يا رفاق ولا تشغلوا بالكم بشأنى ، فانى
ذاهب لأطوف بالقرية » .

كان الليل أسحم ، والمطر غزيرا ، والماء ينساب على الأرض جداولاً ،
تتجمع وتتساقط كالشلالات من فوق الصخور العالية . وبين حين

وأخر يقرع سمعهم صوت طائر من طيور الليل كامن بين شقوق الجبل
بصرخ صرخات اليمّة شاكية : يشكو الوحدة وينادى الرفيق . وفجأة
دوى على البعد ، عواء طويل ، هنالك فوق قمة جبل النبي إيليا .
وتوقف الرجال الأربعة .

وقال ياناكوس :

– ذئب يتضور جوعا هو الآخر .

وقال لوكاس :

– ربما كان النبي إيليا يعاني الجوع أيضا .

وقال ياناكوس :

– لعل القديس الذئب يكون في عوننا . هيا يا رفاق ، الحملان في

انتظارنا .

• وواصلوا مسيرتهم • وتأبط لوكاس ذراع ياناكوس .

– « هل استقر رأيك على المكان الذي نوجه اليه ضربتنا الأولى ؟ » .

– « طبعا ، أكثرهم ثراء ، واقدروهم ، وأشدّهم بخلا . . الشيخ

لاداس • سنملاً زكائبنا وزجاجاتنا عن آخرها • سيجد فقراء سارا كينا

شيئاً يتبلعونه فيكفون عن العواء » .

ثم أردف قائلا بعد لحظة صمت :

– وفي ليلة أخرى سننزل الى القرية ونسرق بعض البترول أيضا .

– خبز وبترول • حقا ، أنت على صواب يا ياناكوس • الانسان

بحاجة الى كليهما ليحيا ويثار • اذ لا يكفيه ان يحيا بمجرد الحياة

وحدها » .

توقف ياناكوس عند طرف القرية ، والتفت الى رفاقه وقال لهم :

– سأسير في المقدمة ، فأنا اعرف الأرض جيدا ، واتبعوني ، الواحد

وراء الآخر في طابور منفرد • سأتسلق أولا .

شقوا طريقهم بين دروب القرية . كانت مقفرة تماما ، فقد

انتصف الليل ، وغرقت القرية في سبات عميق .

وقال ياناكوس لنفسه عندما بلغوا بيت الشيخ لاداس :

– شريطة الا يشم رائحتي حبيبي يوسف اكي فيشرع في النهيق . .

أسأل الله ان يكون غارقا في نومه .

أسند ظهره الى الحائط على امتداد قامته ، وانتظر رفاقه . وأتوا

الواحد بعد الآخر .

وقال ياناكوس بصوت هامس :

- هيا بنا ننسل من وراء الحديقة ، فالجدار هناك منخفض عن هنا . هات المصباح يالوكاس .. اتبعونى . خذوا حذرکم .

وسأل أحدهم :

- هل عنده كلب ؟

وأجاب ياناكوس :

- كيف يربى كلبا هذا الشيخ البخيل . الكلب يأكل ويتكلف طعاما .

ثم تحدث الى لوكاس :

- وأنت يا حامل المصباح ، ستبقى فى الخارج لتكون سلما لنا ،

تنسلق فوق كتفيك لتصعد فوق الحائط ثم تقفز الى الداخل . وإذا

أحسبت بخطر فانق كالبومة .. مستعدين يا رفاق !

- مستعدون .

واسند الشيطان العملاق ظهره الى الحائط ، وامسك بياناكوس

ورفعه فوق كتفيه وقال :

- هيا باسم قديسنا الذئب ، اقفز .

وتخطى ياناكوس الحائط ، وقفز الى داخل الحديقة . وانتظر

رفاقه ، الذين قفزوا فى اثره واحدا بعد واحد ، حاملين فوق ظهورهم

الزكائب والزجاجات .

- اتبعونى ، فانا أعرف الطريق .. انتبهوا .

واجتازوا الحديقة ، والفوا الباب الخلفى مفتوحا ، وانسلوا داخل

البيت . وسمعوا غطيط نوم صاحب البيت يتصاعد فى الدور العلوى .

- وقال ياناكوس :

- انه نائم ، نحن سعداء الحظ .

أشعل المصباح ، واهتدوا الى باب الكرار ، ودفعوه ودخلوا .

وفاحت رائحة الزيت والنبيد والتين المجفف والسفرجل ، وامتد ضوء

المصباح الى كل أرجاء المخزن فكشف عن صفوف متراصة من الجرار

الضخمة الملائى وبراميل النبيد .

وهمس ياناكوس .

- أسرعوا يا رفاق . خذوا ما تشاءون بسرعة . هيا أملأوا .

وفتح أحدهم صنوبر البرميل ، وانساب النبيذ ليملاً زجاجته .
وملاً آخر زكيبته قمحا . ورفع ياناكوس صفيحة زيت وملاً زجاجة
معه ، ثم حشا زكيبه أخرى قمحا .

وتلفت حوالية فلمح سلماً مسنداً الى الحائط . فقال « الحمد لله ،
يوجد هنا سلم أيضاً ، ولولاه لما عرفنا كيف نرفع كل هذه الأحمال
فوق الحائط ؟ إله اللصوص يساندنا . هيا يا رفاق ، فنصرف » .

وساروا كلصوص يحملون غنيمتهم على كواهلهم ، واجتازوا
الحديقة عائدين . وأسندوا السلم الى الحائط ، وصعدوا الواحد
اثر الآخر ، ومعهم أحمالهم الثقيلة ، وغنيمتهم الثمينة . وفتح لوكاس
ذراعيه ليتلقى الزكائب والزجاجات ، ووضعها على الأرض . واتخذوا
من كتفى العملاق العريضين متكأ ليقفروا من فوقهما الى الأرض . كان
ياناكوس آخرهم ، وجلس فوق الحائط وقد باعد بين ساقيه . لم
يطاوعه قلبه على النزول .

— « انتظروني يا رفاق دقيقة واحدة حتى أرى حمارى ثم أعود
اليكم » .

واحتج لوكاس :

— دع الحمار فى حاله يا ياناكوس وتعال انزل ، لا أحد يعرف
ما قد يحدث ..

وتتمم ياناكوس :

— لا أحتمل ذلك ، لا أحتمل ، دقيقة واحدة يا رفاق وأعود اليكم .
ونزل الى الحديقة ثانية .

وتجهم رفاقه دون أن ينبسوا بكلمة . وارهفوا السمع وكلهم عيون
يقظة خشية أن يمر بهم أحد فى الطريق ، أو يفتح باب .
وقال لوكاس لرفيقه :

— اسبقانا أنتما الاثنان . فخير لنا أن نفرق . وسأنتظر أنا .

وساعدهما على حمل الزكيبتين فوق كتفيهما وانطلقا .

وبقى لوكاس وحده . وجثا متربصاً على الأرض تحت وابل المطر
ينتظر صديقه فى قلق . وفجأة دوى نهيق مرح مرحب ، كأنه نفسير
يوم الحشر . وتمتم لوكاس :

— ليأخذ الشيطان هذا الحمار ، سيوقظ كل الجيران .

وانفتح شباك داخل البيت ، وسمع صوت ينادى ، هو صوت
الآب لاداس :

— يا أم بنيلوب . هل أنت نائمة ؟ ايه يا أم بنيلوب ، لماذا ينهق
الحمار ؟

ولكن لم يجب عليه احد . وتوقف النهيق . وساد السكون ثانية
لا يقطعه غير صوت المطر يقرع أرض الفناء . ورفع لوكاس رأسه
ورأى شبعا يخطو فوق الجائط .

وشب واقفا ، وامسك بقدمى ياناكوس .

— هيا بنا يا لوكاس ، لتبعد عن هنا ، اظن أن الشيخ قد استيقظ
من نومه .

وحملا الزجاجات على كاهليهما ، وانطلقا بأقصى سرعتهما .

وبعد أن خرجا من القرية قال له لوكاس :

— أشبعت رغبتك ، ورأيت حمارك .

وتهد ياناكوس وهو يقول :

— نعم ، آه لو كان فى استطاعتى أن أصعد به فوق السلم . أقسم
بشرفى لكنت أخذته معى . .

وبعد قليل سأل فى جزع :

— واين ميشيل ؟

— لا بد أنه قد فرغ من جولته بين دروب القرية وعاد أدراجه .
هيا بنا نسرع خطونا .

ولزما الصمت .

قضى القسيس فوتيس ومانولى ليلتهما ساهرين فى انتظار عودة
الرجال . وتنفس الصباح . ولمع ضوء خافت فى السماء ناحية الشرق ،
وتوقف المطر ، ولكن لازالت السماء تنذر وتتوعد . وفجأة سمعا صفيرا
وأصواتا مرحة .

وهرع مانولى ناحية الصوت . وقال :

— ها هم .

وظهر القراصنة الأربعة مثقلين بأحمالهم . أشعلوا المصباح لينير
لهم الطريق ، وبدت وجوههم على ضوء الفانوس وضاعة متألقة .
ياناكوس فى المقدمة وعلى ظهره محجمة النبيذ .

— « اليكم تحيات الشيخ لاداس . هذا الشيخ البار المحسن

يبعث اليكم بهذا النبيذ لتشربونه في صحته . يقول ليس هذا بالشئ الكثير حقا ولكن قلبي معه » .

وقال لوكاس وهو يضع الحجمة الثانية عند قدمي القسيس :
- وهذا زيت لتشحيم ايماننا ، ويقول ان كنتم بحاجة الى مزيد فالجرار ملأى .

وقال الاخران وهما يحطان عن كاهلها زكيتيهما المملوءتين :
- وها هو القمح حتى يجد الأطفال الصغار البؤساء خبزا يطعمونه لانه حزين عليهم .

وضحك القسيس فوتيس وقال :

- نشكره على ذلك . لعل الله يجزيه عن ذلك بالربى . سأكتب اليه من فوري رسالة ابلغه فيها ان اربعا من الملائكة دخلوا منزله ليلا واخذوا هذه الهدايا الثمينة وحملوها الينا في ساراكيينا على اجنحتهم . وحتى يتم كل شئ على الوجه الاكمل ، سارفق بالخطاب كمبيالة مقبولة الدفع في الحياة الآخرة .

وقال ياناكوس ضاحكا :

- واكتب يا ابانا أيضا ان أحد الملائكة أراد ان يهشم الجرار والبراميل ، ويريق الزيت والنبيذ على الأرض ، ولكنه أشفق في آخر لحظة ، لا عليه ، وانما على النبيذ والزيت .

وقال القسيس فوتيس :

- يا مانولى ، آتنا بكوب لنقدم الشراب للملائكة . ادخلوا وانفضوا اجنحتكم المتبلة ياسادة .

ودخلوا الكهف ، وشرب كل منهم كوبا بدوره ، وساد المرح .

ثم قال القسيس :

- في صحة الشيخ لاداس هذا الانسان البار .

وقال مانولى :

- في صحة الملائكة .

وقال لوكاس :

- في صحة قديسنا الذئب ، اذ عندما بدأنا مسيرتنا عوى الذئب فوق قمة ساراكيينا ، ومدنا عوازه بالشجاعة .

وقال ياناكوس في قلق :

- وماذا عن ميشيل . لم نره .

وأجاب مانولي :

- عاد ، غارقاً في الوحل ولم ينبس بكلمة . وهو نائم الآن .

نزل الشيخ لاداس الى الحديقة في الصباح ، وانزعج عندما رأى السلم مسندا الى الحائط . ودار على عقبه ، ونادى على زوجته التي كانت تجلس بجوار النافذة تطل على الدنيا بعينين بليدتين .

- يا أم بنيلوب ، من الذى أسند السلم الى الجدار ؟ هل أنت .

ولكن الأم بنيلوب أمسكت بالجورب وشرعت تغزل . ولم تعبأ حتى بالنظر اليه .

حمل الشيخ السلم على ظهره ، واعاده الى الكرار . وجال بعينيه ورأى كل شيء فى مكانه : الجرار والبراميل والتبن المجفف والسفرجل . وتمتم :

- الحمد لله ، لحسن الحظ لم يدخل لصوص البيت . هذه المرة التسعة لم تعد تدرى ما تفعله . لا بد أن أفتح عيني أنا . سيأتى يوم تشعل النار فى البيت .

ودخل الحظيرة . كان الحمار فى مكانه ايضا .

وقال له فى غضب وهو يرفسه :

- ماذا دهاك الليلة . أيقظتنى من النوم بنهيقك ؟

ولكن الحمار لم يعبأ به . كانت عيناه الواسعتان هائمتين تحملقان فى لاشيء . خيل اليه أنه رأى فى منامه صاحبه الحقيقي ، اناه يزوره ليلا ، وربت فى رقة وحنان على رقبته وظهره وبطنه مثلما كان يفعل دائما . ورفع ذيله فى سعادة ، واطلق لعقيرته الصنان ينهق فى بهجة . وأمسك سيده بخطمه بين راحتيه ليسكته . وقبل اذنيه ورقبته ، ثم اختفى عن ناظريه من النافذة المستديرة الصغيرة ..

وأطرق الحمار برأسه ، وأغضض عينيه وصلى لربه .. وهو اله له ذيل ضخم ، كث الشعر ، ورأس حمار كبير ابيض ناصع البياض ، وسرج من المخمل الموشى بالذهب ، ولجام أحمر مطرز بحبات من الفضة والترتر ، تلمع كأنها النجوم الساطعة .

وصلى الحمار :

- يا الهى ، أسالك أن تحقق لى حلمى الذى تراءى لى البارحة .

في الصباح الباكر ذاع نبا المعجزة في كل انحاء ساراينا : نزل
اثناء الليل أربعة ملائكة يحملون قمحا وزيتا ونبيدا للجوعى . وصدق
السدج منهم النبا ، ورسوموا علامة الصليب . اما الخبثاء منهم فنظروا
بطرف اعينهم الى ياناكوس ولوكاس وابتسموا . وانكبت النساء على
القمح ينقينه ، وهن يتغنين بصوت حنون كأنهن يهددن طفلا لينام ،
أو يداعبن يسوع الطفل . واذا سقطت حبة قمح على الأرض ، انحنين
فوقها في لهفة ليثقتنها ، ليست جزءا نفيسا من جسد الرب ، ويجب
الا تلوثها الأرض ؟ وفي لمح البصر طحن بعض القمح فوق حجر ، وصنعن
منه عجينا ، وقطعنه خبزا ، وانضجنه على الجمر ، بعد أن أضفن اليه
شيئا من الزيت ليكسبه طعما لذيذا . ثم وزعن منه قضة ملء الغم
على كل الحاضرين كأنه قربان مقدس . وسرعان ما احسوا بالراحة
تسرى في لحمهم وعظامهم ، كان الخبز هو جسد المسيح حقا .

ثم شرب كل منهم جرعة نبيد ، ولم تستطع النساء ان يحبسبن
عبراتهم . وتنهدن :

— يا الهى قضة خبز واحدة ملء الغم ، ورشفة نبيد — هذا كل
ما تحتاج اليه الروح لتشعر أن لها اجنحة تحلق بها .

وبعد الظهرية حمل رجلان القمح على كاهليهما الى الطاحونة .
وسارت النسوة معهما بعض الطريق يحرسن الحمل الثمين كأنهن يتوجسن
خيفة ألا يعود اليهن ثانية .

وصاحت النسوة بالحمالين :

— متى ستعودان الينا بحملكما ؟

واجابا ضاحكين :

غدا صباحا ، فلا تجزعن .

وعمل ياناكوس خازنا لطعام شعب ساراينا . فهو الذى يحتفظ
بالؤن ويوزعها على النساء كل صباح ، يعطى كلا منهن ما تحتاج اليه
لوجبات النهار .

كان يقول احيانا :

— اقتصدوا يا اصدقاء ، وشدوا احزمتكم حتى يمضى الشتاء .
فالملائكة مشغولون بأعمال أخرى ولا يمكنهم أن يحملوا الينا ما نحتاج
اليه كل يوم ..

كان قليل من الحبز وقليل من الزيت كافيين ليعيدا الحياة الى
الشعلة التى كادت ان تخبوا . وبدا الاطفال يستعيدون صحتهم ،

ويغش ورمهم . وتتورد وجناتهم . وامتلات أئداء النساء لبنا ، وام
بعد الأطفال الرضع يشكون من الجوع ويصرخون طوال الليل . وعادات
البهجة الى الرجال ، واشتدت سواعدهم ، فشرعوا ينقلون الحجارة
ليتموا بناء اكواخهم . وبين الحين والحين تسمع ضحكة او دعابة .
واذا ابتعدت قليلا عن الكهوف فقد تقع عينك على اثنين استعادا شيئا
من القوة تعينهما على التقبيل والعناق .

وقال القسيس فوتيس يومذاك لمانولى :

- كل هذا القمح والزيت والنبيد لا بد أن يصبح دما ، ولا بد أن
نستجمع قوتنا لغزوة نشنها . لن نرضى بحال من الاحوال ان نعيش
جوعى ونسرق . لابد أن نزل الى القرية ونستولى على اراضينا ان
طواعية او كرها . فهى وحدها عوننا على الحياة فوق هذا الجبل
القاحل .

وقال مانولى :

- حان موعد تقليم الكرم ، وتشذيب شجر الزيتون ، وتسميد
الارض . ترى هل نتركها هكذا مهملة ؟ معنى هذا ضياع عام بأكمله .
ماذا تنتظر يا أبانا ؟

- انتظر الاشارة يا مانولى . انتظر الصوت الذى ينبعث من باطنى
ويعطينى الأمر . انت تعرف اننى لم اتخذ قرارا خطيرا قبل سماعى
لهذا الصوت . والقرار الذى تطلبه يا مانولى قرار جد خطير ، ستسفك
فيه دمياء .

- أعرف ذلك يا أبانا ، ولكن فى عالم كعالمنا هذا ، عالم لا يعرف
معنى الشرف والعدل ، هل يمكن أن يتم شيء بدون سفك دماء ؟ كنت
اقول لنفسى : « سرى اهل ليكوفريسي الحال التى صار اليها أطفالنا ،
سيرون بطونهم المتورمة ، ووجناتهم الغائرة ، وسيقانهم النحيلة الصامرة .
فتأخذهم بهم الرحمة . ولهذا السبب أرسلت أول أمس بعض الأطفال
الى القرية .. هل تعرف كيف استقبلوهم هناك ؟ أمسك بعض الناس
بهرواتهم وطاردوهم بعيدا عن أبوابهم ، والبعض الآخر ألقى اليهم
بكرة خبز جافة ، كأنهم يلقون بها الى الكلاب .. واحد فقط هو الذى
اشفق عليهم . هل تعرف من يا أبانا ؟ الأغا . رأهم من شرفته . ينشون
الارض بحثا عن بعض الحبوب أو قشر بطاطس أو قشر ليمون . وصاح :
« ما هذه ؟ قرودة صغيرة ؟ أم أقراما ؟ ونزل من شرفته وفتح لهم باب
داره وأدخلهم . ونادى على مارتا : « أعدى لهم المائدة نا مارتا . قدمى

لهم بعض الطعام لياكلوه . انهم قرودة صغيرة . اعطيهم شيئا يبتلعونه .
حتى يصبحوا بشرا .. » .

وصاح القسيس وقد لمعت عيناه من خلال دموعه :

- لم أكن أعرف هذا . لم تقصه علي يا مانولى .

- أخفيتك عنك يا ابانا ، اشفاقا عليك . قلبك ملئ بالسم الذى
تجرعته على يد البشر ، ولا زالوا يقدمون منه المزيد . فما جدوى أن
اضيف المزيد الى هذا السم ؟ ..

- كان حريا بك أن تنبئنى بذلك يا مانولى . قلبى أثقلته الشجون .
لو لم يفض قلب المرء بعاطفة الحب أو الغضب لماتت الدنيا وأجدبت
ولما أقدم الانسان على شيء .

وصمت ، وأحس باعياء مفاجيء . فجلس فوق صخرة ومال برأسه
على صدره ، كأنه ينصت لشيء بداخله . وجلس مانولى قبالتة ،
يشخص ببصره الى السهل . أقلعت السماء ، واسودت الأرض التى
اتخمها الماء حتى طفع على السطح . وهبت ريح رخاء . وتراقصت
أوراق شجر الزيتون ، تعرض حيناً لونها الفضى ، وحيناً آخر لونها
الأخضر الداكن . وغاصت بساتين الكرم فى الماء فبدت سوداء . وهم
صقر عند قمة القديس ايليا بالطيران ، وبسط جناحيه فوق السهل .
ونفض القسيس فوتيس وقال :

- قلبى أثقلته الشجون ، انى منصرف .

ولم ينبس مانولى ببنت شفة . اذ أدرك أن القسيس متوتر ،
مشدود الأعصاب وحدث نفسه : « من الخير الا اتكلم معه » .

تسلق القسيس فوتيس الصخور ، متخذاً طريقه الى قمة الجبل .
كان القديس ايليا يتألق فوق قمة الجبل ، ابيض ناصع البياض .
واصل القسيس صعوده ، مشدود القامة كأنه حد الحسام .
يتوارى أحيانا وراء الصخور ليظهر ثانية وقد سار بعيدا . خلع غطاء
رأسه ، وداعبت الريح شعره .

ولم يمض وقت طويل حتى رأى مانولى ظلّه امام الكنيسة
الصغيرة ، مرسوماً فوق الجدار الأبيض فى حجم الصقر . وسرعان
ما انفتح الباب ودخل القسيس وغاب عن الأنظار .

وعاد مانولى على الفور الى كهفه . وأمسك بكتلة من خشب
البلوط . وبدأ ينحت الوجه الجديد للمسيح .



الوجه القاس للمسيح

بدأ الليل يرخى سدوله ولم يعد القسيس بعد . وهبت ريح
صرصر عاتية ، وتلبدت السماء بغيوم منذرة . وارتفع عواء الذئب من
جديد ، بعيدا يمزق سكون الليل .

وقال ميشيل

– هيا بنا لنرى ماذا حدث له . فربما أصابه شيء ..

كانت هذه هي أول كلمات ينطق بها منذ أيام طويلة . فكلما مرت
الأيام غاص أكثر وأكثر مع تأملاته السوداء ، حينما يصعد الزفرات ،
وحيثما يشخص ببصره ناحية الكنيسة الصغيرة فوق الجبل – ثم يبتسم
في هدوء وسكينة . واحتفظ بصفيرتي ماريوري ، وربطهما إلى صدره
لصق جلده مباشرة ، وبين آن وآخر تراه يرتجف ، ويتحسس فميصه
في جزع ويمسك بهما خوفا عليهما من الضياع . وإذا جن الليل وأغفى
تند عنه صرخة يهب بعدها واقفا ، ثم يعز عليه النوم بعد ذلك .

والتفت إلى مانولى الذى جلس في هدوء داخل الكهف وقال :

– هيا بنا لنرى ماذا حدث له . فربما أصابه شيء ..

كان ذلك في منتصف الليل تقريبا .

وأجاب مانولى :

— لا ، لم يصبه شيء . أعرف هذا من هيئته حين قام من هنا
وشق طريقه الى الكنيسة حتى خلت اللحظة أنه انسان خالد .

ولم يطمئن ميشيل لكلام صديقه وتمتم :

— مضى وقت طويل . . وقت طويل . . ترى ماذا يفعل هناك ؟

— « انهما يتشاوران معا يا ميشيل . يتحدثان على انفراد ،
ويبدان الخطة سويا — هو والقديس ايليا . . لا يمكن لأحد أن يدخل
بينهما . انهما يحسمان الأمر » .

— « ولكن الن يأكل شيئا الليلة ؟ الن ينام ؟ البرد شديد الليلة
حتى تجمدت الدنيا » .

— « ليست به حاجة الى اكل أو نوم ، كما أنه لا يشعر بالبرد .
أؤكد لك أنه لا يحتاج الى شيء من هذا وهو في الحالة التي هو عليها
الآن . فهو أشبه بالميت أو الانسان الخالد ، لست أدري ماذا أقول على
وجه الدقة . . انه ليس بحاجة الى شيء » .

ظهر ياناكوس في هذه اللحظة يتأفف ويسب ويلعن .

وسأله مانولى :

— « مالى أراك منحرف المزاج ، يا ياناكوس ، ترى ماذا دهاك ؟ كيف
حال العمل يا امين مخازن ساراكيينا ؟

وأجاب ياناكوس قائلا :

— يقول المثل كيف حال صفارك يا سيد غراب ؟ انهم يزدادون

سوادا يوما بعد يوم .

ثم أردف قائلا :

— بدأنا نجهز على البقية الباقية من الأغلبية ، وقاربنا النهاية ،

هذه هي حالتنا . بعد قليل سنرى القاع . . ما العمل ؟ هل اجمع
الصحاب مرة أخرى وننقض على السهل ؟ هذه المرة سيكون دور
القسيس جريجوريس .

وقال مانولى :

— تمهل ، انه دور ليكوقريسي كلها .

واهتزت جوانح ياناكوس طربا ، وصفق بيديه .

وصاح :

– هل دقت الساعة ؟ هل قال القسيس ذلك ؟

– لم يقل شيئا بعد ، ولكننى أحسب أن الساعة قريبة .. قال
ان قلبه أثقله الشجون .

ثم بدأ مانولى يقص عليه حديثه مع القسيس .

وتعمت ياناكوس ، وقد رجع عن رأيه فجأة :

– آه لو انتظر قليلا هذه المرة .. يمهلنى حتى أستعد ، فانى
لست مستعدا الآن .

والتفت اليه الصديقان يحاولان أن يتبيننا وجهه فى الظلام .

وسأله مانولى :

– هل ينقصك شىء يا ياناكوس ؟

– « ان شئت الحقيقة فنعم » .

– « أى شىء ؟ » .

– « البترول . أقسمت أن أحرق بيت الشيخ لاداس ، وأشهدت

الله على قسمى هذا » .

وقال ميشيل الذى استجمع شتات فكره ليتكلم :

– أنت قاس ..

ورد عليه ياناكوس :

– بل عادل ، لو تنزل المسيح اليوم الى أرض كهذه الأرض التى

نعيش فوقها ، فماذا تظن أنه سيحمل فوق كتفه ؟ صليبا ؟ لا ، بل

صفيحة بترول .

وثب مانولى ، وأسند ظهره الى جدار الكهف وهو ينصت اليه .

وسأل ياناكوس :

– ما رأيك فى هذا يا مانولى ؟ أراك صامتا لا تقول شيئا .

وتعمت مانولى بصوت متهدج :

– وكيف عرفت ذلك ، يا ياناكوس ؟

– لست أدرى ، فانا لم أتعلمه ، ولم ينبئنى به أحد ، ولكننى

وائق منه .

ثم استطرد قائلا بعد فترة صمت :

- بعد أيام قليلة سيهيم اطفالنا علي وجوههم ، وينبشون اكوام القمامة بحثا عن قشرة بطاطس ، أو بعض القاذورات ليطعموها ، بينما الخنازير السمينة تنظر اليهم وتضحك . وهكذا يرى اطفالنا المسيح في أحلامهم ، ولهذا يسألونه أن ينزل الى الأرض . ولكنهم عندما يستيقظون من نومهم مع الصباح ينسون كل شيء - أنهم اطفال ، اليسوا كذلك ؟ - ثم يعودون لينبشوا اكوام القمامة .

انصت له مانولى مبهورا دون أن ينبس بكلمة . أحس بقلبه يخفق في عنف حتى يكاد يشب من بين جوانحه . فهذه هي الصورة التي رأى عليها المسيح ليلة البارحة . ولكن لم تواته الجراة على أن يقص ذلك على احد . رآه ينزل مع شعاع الشمس من فوق قمة جبل قاحل كجبل ساراكيئا ، حافي القدمين ، لا يحمل فوق كتفه صليبا بل صفيحة بترول . وكانت عيناه مثبتتان على ليكوفريسي ينظر اليها بوجه قاسي حزين غصوب .

ونظر الى ياناكوس وقال له .

- أنت على حق ، ليس صليبا بل بترولا .

- سأنتقل لأبحث عن رفاقي من الوحوش الكوارس ، لم يعد هناك وقت نضيمه هباء .

وتوقف عند فتحة الكهف وضحك ، ثم قال :

- القسيس جريجوريس عنده مصباح غاز ، اذن لا بد ان عنده صفيحة بترول في مخزنه ، وربما عنده صفيحتان . سأصحب لوكاس معي فهو سلم ممتاز . الى اللقاء غدا .

وفي رائعة النهار ، لمح مانولى القسيس فوتيس عند قمة الجبل وقد أخذ طريقه نازلا يشب من صخرة الى اخرى ، وردداه الكنسي يدف في الهواء كأنه جناحان سوداوان ، وشعره منشور فوق كتفيه . اذا رأيته حسبته النبي ايليا ، فالسما من خلفه حمراء ساطعة تتأجج نارا وقد انعكس عليها نور الشفق . وبدا القسيس كأنه يخطو وسط السنة من اللهب .

وأبصرته نسوة كثيرات ممن ذهبن ليملان الجرار بالماء ، فتولاهن الفرع ، وندت عنهن صرخات عالية .

« رحماك يا الهى ، أفلت القديس ايليا من اساره فوق الجبل -
وها هو ينزل الى السفح » .

وهرع اليه الرجال من داخل كهوفهم للقائه ، وسار مانولى فى
مقدمتهم . استشعروا فجأة أن القسيس يحمل اليهم رسالة خطيرة .

وتساءل ياناكوس :

— ماذا يحمل بين يديه ، يارفاق ؟

لم يتم البائع الطواف ليلته ، فاحمرت عيناه ، ولم يجد فسحة
من الوقت يفصل يديه اللتين تفوح منهما رائحة البترول .

دقق ميشيل النظر يحاول أن يتبين هذا الشيء . وقال :

— حقا ماذا يحمل بين يديه ؟

وصاح لوكاس الذى وقف فى المقدمة ورائحة البترول تفوح
منه أيضا :

— ايقونة ، انها ايقونة .

وقال مانولى فى نفسه :

— حمل الينا القديس ايليا ، هذا قال طيب .

اقترب القسيس ، وبانت ملامحه : وجه قاس كظيم . بدا كأنه
لم ير الرجال الذين خفوا للقائه ، ولم يسمع نداءاتهم ، وكأن روحه
لا زالت فى خلوتها الرهيبة فوق قمة الجبل مع النبى ايليا .

وقال مانولى :

— افسحوا له الطريق يا اصدقاء ، لا يتحدثن أحدكم معه ، فانه
لا زال فى مناجاته مع الرب .

اصطف الرجال على الجانبين ، وكان القسيس ينهب المنحدر بخطوات
واسعة ، يدفع بقدمه الحجارة فتندرج من تحته . ورأى كل منهم ما يحمله
بين ذراعيه : ايقونة النبى ايليا ذات المعجزات .

وأسر يا ناكوس الى لوكاس رفيق الليل :

— أشم رائحة البارود . أنظر الى وجهه .

وقال لوكاس :

– من حسن الحظ أننا أنجزنا عملنا فى الوقت المناسب • أكثر
البيوت من الخشب صفيحتان فيهما الكفاية •

وأقبلت النسوة بدورهن • تسلقن المنحدر وهن يثرثرن عن المعجزات
والقديسين والأحلام • وإشرأبت أعناقهن ، وشخصن بأبصارهن الى
القسيس وهو ينزل المنحدر • رآته احداهن يطير بأجنحة سوداء • وقالت
أخرى انها ليست أجنحة بل رداءه ، ولكنها أكدت أن ثمة غرابا جاثما
على كتفه وقد أمسك بجمرة بين منقاره يقدمها اليه ليأكلها • وفجأة صمت
الجميع : لقد أقبل القسيس •

وصاح بالرجال دون أن يتوقف عن المسير :

– تعالوا معى •

ثم قال للنساء :

– وانتن أيضا •

ومرق من أمامهم سريعا ، ممسكا بالنبى ايليا بين ذراعيه ، يضمه
الى صدره •

وارتد الجمع الى الوراء كأن طائرا كاسرا مرق بينهم ، ولطمهم بجناحيه
القويين • وتبع الرجال قسيسهم فى دهشة وانفعال ، ومن ورائهم النساء
وقد أمسكن عن الكلام •

اعتلت الشمس أفق السماء ، ترسل نورها الساطع من خلال
السحب المتناثرة ؛ وبدت كأنها كرة بيضاء ملتصقة • وكأن السهل من
تحتهم لا زال غارقا فى ضباب كثيف • وخرجت بعض عجائز النساء اللانى
تأخرن عن اللحاق بالركب ، ووقفن أمام الكهوف ، ووضعن كل منهن
راحتها فوق حاجبيها تستظل بها من ضوء الشمس ، وهى تحملق فى
ذهول فى هذا الحشد النازل من قمة الجبل •

توقف القسيس فوتيس عندما بلغ موضع الكهوف • وضع الأيقونة
فوق الصخرة ، والتف الجميع – رجلا ونساء وأطفالا – حوله فى دائرة •

وبسط ذراعيه وبدأ يتكلم • كان صوته أجش أول الأمر ، اذ كان
يشعر بجفاف فى حلقه • وتزاحمت الكلمات على لسانه تتسابق سريعة
تحاول أن تخرج كلها فى وقت واحد ، فاحتبست جميعها ولم تخرج
كلمة منها • ورويدا رويدا انبسطت عضلات حنجرتة ، وعادت لصوته
قوته ، وتتابعن الكلمات فى انتظام • وقال :

— أيها الرجال اسمعوا وعوا • وأنتم أيها النساء احتضن أطفالكن
بين أذرعكن حتى يسمعوا هم أيضا ما أقول • أتيتكم من عربة النار ،
وسأقودكم الى حيث قادتنى • وسوف أكشف لكم عن كل ما استأمنتنى
عليه واستودعتنى اياه • ليست الحياة ماء راكدا • الخنوع والاستسلام
ليسوا خير الفضائل ولا أحبها الى الرب • الرجل الصالح لا يهتمل أن يرى
الأطفال تتساقط أمام عينيه على الأرض ، وتموت جوعا دون أن يهب نائرا
ويطلب الحساب حتى ولو كان من الرب الهنا •

قصدت قمت الجبل لأتحدث الى سيدنا قديس جيلنا ، علنا ننتهى
الى قرار يكون فيه علاج لكل شرورنا وماسينا • فاطفالنا اطفاله وهو
مستول عنهم •

ثم استدار ناحية الأيقونة يخاطبها وهو باسط اليها ذراعه على
امتدادها :

— أنت مستول عنهم يا نبي النار ، ولهذا السبب ، ان شئت أن
أكون صادقا فى حديثى اليك ، قصدت عرينك • مثل كمثل الفلاح
المستأجر الذى يقصد صاحب الأرض ليرد اليه حساب أول العام ، محملا
بالهدايا التى أخذها من حدائقه وبساتين كرمه ، وأنا أيضا حملت اليك
آلام شعبي وأاناته الموجعات ووضعتها عند قدميك •

« قضيت الليل بطوله يا أطفالى ، واقفا أمام ذلك النبي أتحدث اله •
قصصت عليه قصتنا ، من نحن ، ومن أين آتينا ، وكيف حللنا بجبله
نبحث عن مأوى تحت رعايته • كان يعرف كل هذا ، ولكننى رأيت من
الخير أن يسمع القصة من جديد • وأنصت لى ولم ينبس بكلمة » •

« ثم حدثته عن جيراننا فى ليكوفريسي ، قصصت عليه كيف عاملونا
وكيف طردونا جميعهم دون استثناء ، القسيس والأعيان وكل أهل
ليكوفريسي ، وكيف سلبونا حقنا ولم يسمحوا لنا بأن نفلح أرضنا التى
منحها لنا ميشيل المحسن الجواد ••• أفضيت اليه بكل شيء ، وأفرغت
مرارتى وأنصت لى دون أن ينبس بكلمة » •

« ثم حدثته عن استشهاد شعبنا ، وما يعانیه من جوع وبرد
ومرض ••• صحت به قائلا « وقاحة الأغنياء تفوق كل الحدود ، يا سيدنا
أتخمت بطونهم حتى طفحت من البلعوم ، وفاض الكيل بنا ، هل تسمعنا
يا صاحب عربة النار ، أيها الجبار ؟ قم واسرج خيلك وانزل معى • وأنصت
الى دون أن ينبس بكلمة » •

وثارت ثائرتى . وتفردت فيه وانا احدث نفسى : « هل لن ينفطر قلبه لما أقول ؟ كيف يتحمل كل هذه الآلام ويرضى بهذا القدر من الظلم ، ويطبق مثل هذه الوقاحة ؟ ترى هل لن يترك أيقونته وينطلق معى ؟ ترى هل لن يسرج السنة اللهب ، ويمسك برقبتي ويرفعنى ليجلسنى الى جانبه وننزل معا الى ليكوفريسى ؟ » .

وتشبثت بالأيقونة ، وملت على أذنه ، وصحت : « ايليا ، ايه ايها الفارس ايليا ، اسمع لهذا النداء : أطفالنا لا يجدون ما يقتاتون به ، خارت قواهم ، سيقانهم تنهار من تحتهم من أثر الجوع ، يتوكأون على عصى ، وينزلون الى السهل وهم يحجلون كالغربان ليمدوا أيديهم بالسؤال الى أهل ليكوفريسى . . . تعرف هذا يقينا ، لا بد اذك سمعت عنه . رأيتك وأنت تنحنى من فوق قمتك لتشاهد كل شىء ، ومست لحيتك أسطح بيوت ليكوفريسى ، ورأيت أطفالنا سيكون أمام الرب . . . »

« ظللت أتفرد فيه ، وأحسست بالدفع يسرى فى جسد النبى ، ودبت فيه الحياة ، ودبت فى نفسى الشجاعة من جديد » .

وصحت به :

— نعم تنازلت وملت بعربة النار لتنظر الى ما تحتك وتروى كيف استقبال أهل ليكوفريسى أطفالنا ، اسمع : أمسك بعض الأهالى بعصيمه ليطردوهم بعيدا عن أبوابهم ، وآخرون — هل رأيتم ؟ — ضربوهم دون رحمة أو شفقة .

« ولم أكد انطق بهذه الكلمات حتى جفلت خوفا وهلعا . خيل الى وكان الأيقونة ارتطمت بى ، وكان الحياة دبت فى الخيول الأربعة ، وكان شفاه النبى تتحرك ، وكاننى سمعت صيحة كبرى عالية : « دعنى أذهب » . « وفى هذه اللحظة قفزت الأيقونة بين ذراعى » .

وبهت الجمع . وتقطعت بهم الأنفاس . وجثت النساء باكيات أمام الأيقونة صاحبة المعجزات . ودنا منها الرجال الذين سحرتهم كلمات القسيس ، واشربوا بأعناقهم يتطلعون الى النبى الذى تلفه السنة اللهب ، ونزل اليهم من فوق الجبل .

وحيته النساء : « أهلا ومرحبا ، أيها النبى ايليا » .

وصاح ياناكوس :

— اعط الاشارة ، يا ابانا • عجل بها ونحن نملك بعض الطعام
نستمد منه قوتنا • فالمؤن على وشك النفاد •

واقترب مانولى من القسيس ، وقبل يده وقال :

— ارفع ذراعك ، يا ابانا • هل دقت الساعة ؟ نحن على أهبة
الاستعداد •

ورفع القسيس فوتيس ذراعه الى شعبه وصاح :

— بعد ثلاثة أيام يا اطفالى ، أى فى الثانى والعشرين من ديسمبر ،
عشية ميلاد النور ، يكون ميلاد النبى ايليا • سيكون يوما عظيما • تأهبوا
له يا رفاق ، رجالا ونساء • هو موعدنا للنزول الى القرية •

وهر الجميع فى موكب أمام الأيقونة ، وخررو سجدا • تراءى لهم
النبى حيا ، رداؤه أتون نار تتراقص ألسنته مع الريح • ورأت النساء
حبات العرق فوق جبينه ، وقبل الأطفال الأيقونة وأحسوا أن النبى يتحرك
تحت شفاههم .

وشعر القسيس فوتيس باعياء شديد ، فأوى الى كهفه ، واستلقى
على الأرض هناك • أغمض عينيه عسى أن يغلبه النعاس ، ويتنزل عليه
الرب فى منامه ويتحدث اليه • وحمل مانولى أيقونة نبي النار بين ذراعيه
ووضعها فى صدر الكهف وسط الظلام الى جانب أيقونة الصلب التى تحوم
فيها عصافير الجنة •

بدأت سارا كينا منذ تلك اللحظة تظن كأنها معسكر حرب يتأهب
للقِتال • من لا يملك عصا انطلق بين ربوع الجبل يبحث عن شجرة
بلوط ليقطع أحد فروعها ويتخذ منه عصا له • ومن يجيد استخدام المقلاع
بدأ يدرّب النساء والأطفال على استخدامه • ووزع القسيس فوتيس ما وقع
تحت يده من أسلحة ، وخص بها الشجعان من الرجال ، وبدأ يتنقل بينهم ،
فى دأب لا يعرف الكلل ، ويلقى بتعليماته الى كل منهم •

وأقبل قسطندى من القرية مع النساء ، وذهل حين سمع جلبة
وضوضاء • ورأى الرجال منهمكين فى تدريب النساء على قذف الحجارة
بالمقلاع ، أو تعليمهن كيف يصنعن الهراوات من فروع الشجر ، كأنهم
يستعدون جميعا رجالا ونساء للحرب • وألقى مانولى ينحت فى عجلة

الوجه الجديد للمسيح . كان هذا هو سلاحه الوحيد ، ويود أن يفرغ منه وشيكاً حتى يكون كل شيء على أهبة الاستعداد .

جلس قسطندى الى جواره بآدى القلق وقال له :

— أرجوك يا مانولى ، ان كان لديك متسعاً من الوقت ، أن ترفع رأسك وتسمعنى . لقد أتيتك بأخبار سيئة .

— مرحباً بها يا قسطندى ، فالجبال ألفت تحمل الثلوج ، وهى لا تخشاها . تكلم .

— ماتت ماريورى .

وألقى مانولى بقطعة الخشب التى ينحتها ، واتسعت عيناه فى انزعاج شديد . وقال فى وجوم كأنه يسمع عن الموت لأول مرة :

— ماتت ؟

— دهمنا الخبر بالأمس ، ساعة الظهيرة . وصرخ أبوها الشيخ صرخة زلزلت القرية . وامتنطى على الفور صهوة بغلته وانطلق ينوح ويتوجع . وعندما بلغ المدينة التى ابنته قد ووريت التراب ولم يتمكن من رؤيتها حتى يسبل لها جفניה . وعاد هذا الصباح ، لو رأيته ما عرفته ، ذهب الحزن بعقله . رأيته يطرق أبواب القرية ، فتوجست خيفة ، كما أشفقت عليه . كان يسير حافى القدمين ، مشعث الشعر ، ينتقل من بيت الى بيت يدعو أهل القرية لحضور التناول بالكنيسة . ودق الشماس أجراس الحداد . وترك الناس أعمالهم وقصدوا الكنيسة . جمعنا القسيس فى رواق الكنيسة ، ووقف فوق مقعد حجرى . كانت لحيته ترتجف حتى أعياء الكلام . ولكن عينيه المسجورتين كانتا تتقدان لهيباً . واستطاع فى النهاية أن يستجمع قواه ، وخرج من حلقه صوت جهورى :

— يا أبنائى . سأقول كلمتين اثنتين فحسب ، لا أستطيع أن أقول أكثر منهما ، فان قلبى يتمزق : ستقضى علينا ساراكيينا .

وتوقف لحظة يلتقط أنفاسه ، ثم عاود الحديث :

— هبوا ، احملوا أسلحتكم وأنا فى المقدمة . هيا يا أطفالى ، اطردوا هؤلاء الوحوش الكواسر . انهم هم الذين بذروا الشر فى قريتنا السعيدة . فمنذ تلك الساعة التى وطئو فيها بأقدامهم قريتنا ، والتعاسة والموت تظراننا بوابل ضرباتهما دون رحمة أو شفقة . وأول من يستحق اللوم فيهم

وأخطرهم هو مانولى طريد الكنيسة . أفسد عقل ميشيل بأفكاره التي
وسوس بها اليه حتى أصابه الجنون . وهو المسئول عن فسخ خطبته
لماريورى . وهو الذى قتل ابنتى وأودى بحياتها .

حاول أن يواصل حديثه ولكن أصابه دوار . ومد ذراعيه ليستند
الى الحائط ، ولكن أظلمت عيناه فلم يعد يبصر شيئا . . . وفقد توازنه ،
وسقط بكل ثقله فوق الرصيف الحجرى .

وصمت قسطندى . وشد مانولى طرف منديله الذى عصب به رأسه
كانه عمامة ، وعض عليه حتى يكتم نشيجه . وقال :

— ماتت ماريورى . . . ماتت . . . ماتت . . .

وأخذ يرددتها بغير زيادة .

والتفت الى قسطندى ، وسأله شاردا اللب :

— وماذا ؟ وماذا ؟

أتيت لأخبرك يا مانولى حتى تكونوا على بينة ، وتأخذوا حذرکم .
أهل القرية جميعا تاترون عاضبون بعد كلام القسيس ، ويستعدون
لمهاجمتكم هنا . وهم يبحثون عن مبرر لذلك . أو عذر ينتحلونه ، وهامهم
قد عشروا عليه . . . الأغنياء يخشونكم ، لأنهم يعتقدون أنكم اشتراكيون ،
والفقراء يكرهونكم لأن الأغنياء وضعوا لهم عصابة على أعينهم ، ولذلك
فانهم سيكيلون اليكم ضربتهم وقتما يستطيعون الى ذلك سبيلا
انهم أكثر منكم عدة وعددا ، والأغا يعاضدهم فاحترسوا .

— اسمع يا قسطندى ، ابحت عن ميشيل المسكين وأنه بالنبأ .
فأنا لا أستطيع . . . فاتحه فى الموضوع برقة ، ذلك لأن عمدتنا الشاب
قد تغير تماما فى ايامه الاخيرة وأصبح انسانا آخر . يروح ويجيء مطبقا
شفتيه لا ينبس بكلمة ، ينظر اليك بعينيه وعقله شاردا فى وادى آخر ،
وتسأله فلا يجيبك . . . واذارجن الليل يأوى الى فراشه وهو يرتجف فرقا ،
فقد بات يخشى النوم . سألته ذات يوم : « ماذا يخيفك يا ميشيل ؟ »
وشق عليه أن يفتح فمه ، وأحس بالحيرة والارتباك وقال : « الرجل
الميت . . . الرجل الميت » . هيا تشجع ، يا قسطندى . ابحت عنه ،
وسأبحت أنا عن القسيس لاتحدث اليه .

أمسك ميشيل بالانجيل المفضض الذى كان يقرأ فيه وضمه الى صدره وتمتم :

- انتهى كل شيء • لا أريد شيئاً بعد الآن ، يا قسطندى • أمسك الرب بسكينة وبتري حياتي نصفين • ألقى بالنصف الأول فى باطن الأرض ، وها هو الآن يلقي بالنصف الثانى • وهكذا أصبحت الآن بكل كياني تحت الثرى •

دهش قسطندى لهذا الهدوء الذى استقبل به ميشيل النبأ المروع • وأحس بالوجود ينقض من خلف ذلك الوجه الهادى الساكن • مرة أخرى قال الرجل الذى كان يوماً ما عمدة القرية الشاب :

- انتهى كل شيء •

واستوى واقفا • وأمسك بجبل كان داخل فجوة فى الصخرة ، وربط به الانجيل بقوة وكأنه يوثق حيواناً مفترساً خشية أن يعض • ونظر الى قسطندى ، ثم هز رأسه وقال :

- أى طريق أسلك يا قسطندى ؟ وأقصد من ؟ الانسان ؟ هذا الكائن الدنس الذى يصيبه البلى والعفن • أم الرب ؟ الذى يترك الأب لاداس يعيش ويثرى ويقتل ماريورى • أم نفسى ؟ دودة الأرض التى تتاوى تحت أشعة الشمس ، ويسحقها حذاء فى الوقت الذى تقول فيه لنفسها « انى راضية سعيدة بحياتي تحت أشعة الشمس الدافئة ••• » هل تفهم شيئاً من هذا ، يا قسطندى ؟

لكن قسطندى اب لأطفال ، فكيف له ان يفهم ؟ ونهض واقفا • وقال :

- انى ذاهب لمقابلة ياناكوس •

كان ياناكوس فى الكهف الذى تحول الى مخزن للمؤن ، يحسب ما بقى من زيت ودقيق • أما النبيذ فقد نفذ منذ أيام • وقال فى نفسه :

- سنجد قوتنا ليومين أو ثلاثة على الأكثر ، بعدها ستكون الحرب ، وسوف نرى • الحياة مرض يمكن الشفاء منه • سأظل شجاعاً طالما أنا على قيد الحياة ، قادر على أن أقول لنفسى اننى حى وحييى يوسوفاكى منلى على قيد الحياة • لن أياس ، فسوف نلتقى يوماً ما • الموت هو الشيء الوحيد الذى لا شفاء منه •

وصاح صوت من ورائه :

– أهلا ياناكوس • ماذا دهاك أيها الصديق العجوز؟ ألم تعد تنزل الى القرية؟

واستدار ياناكوس فأبصر قسطندى • وقال فى غبطة :

– أهلا بصديقى قسطندى • لا زلت أنزل قريتك المباركة ، ولكن كيف لك أن ترانى؟ فانا أنزل اليها تحت جناح الظلام •

وقص عليه ضاحكا كيف نزل الى القرية مرتين كالدثب ، وشن فيهما غارة على بيتين • ثم قال فى ختام حديثه :

– أنظر ، الأطعمة التى سلبنها توشك على النفاد • ولكن ها هو البترول فى الركن • لم يمسه أحد بعد • ينتظر اللحظة التى يكشف فيها عن معجزاته •

سأله قسطندى فى لهفة وقلق :

– أية معجزات؟

– حين يتحول الى لهيب ، يا قسطندى • أليست هذه هى وظيفته؟ والا فلماذا خلقه الله؟

وتفكر لحظة ثم ضرب جبهته بيده ، وقال :

– حسن اذ أتيت • أرسلتك العناية الالهية • هل لى أن أسألك مكرمة؟ اليوم الأحد • وبعد غد الثلاثاء ••• هل يمكنك أن تأخذ حمارى من الأدب لاداس فى هذا اليوم؟ قل له انك بحاجة اليه • اذا ما دفعت له الثمن سيعطيه لك • واحتفظ به فى بيتك طوال هذا اليوم • هل تفهمنى ، لا أريد أن تمس النار شعره منه • سيكون فى بيتك آمنا •

وقال قسطندى فزعا :

– اذن أنت تضرر خطة لاشعال النار فى بيت الأب لاداس؟

– ومن غيره كنا نتحدث عنه طوال هذا الوقت؟ أليست هذه هى وظيفة البترول؟ ان الرب الرحيم عليم بكل أفعاله •

– أحسب يا ياناكوس المكسب والخسارة لهذه العملية ، فربما أوقعك ذلك فى مشاكل •

– وزنت الأمر مرات ومرات ، يا قسطندى • والمسألة لصالحى أنا ، كأننى أعددتها لحسابى • وقد أنبأت بها نبينا ايليا ، أو الفارس ايليا كما يحلو لفسييسنا أن يدعوه – وأقرنى عليها •

وهرش قسطندى رأسه ، وقال :

— لا أفهم شيئا .

— أنت لا تفهم لأنك صاحب مقهى ، ولك زوجة وأطفال . لو كنت
جانما لأدركت ذلك وقبلته ولكن كيف لك أن تفهم ؟ ولذلك تتصرف
تصرفا أخرق ، تقبل يد الأغا القذرة ويد القسيس جريجوريس وغيرها
هذا هو السر . . . لا تعبس أيها الصديق العجوز ، ستحين ساعتك وتدرك
كل شيء ، فصبرا ، .

تنهد قسطندى بعد لحظة صمت وقال :

— أنا معك يا ناكوس قلبا وقالبا ، لذا أسألك ألا تلومنى . كثيرا
ما تحدثت فى هذا مع أندونيس وديمترى . ونحن نسأل ماذا يمكننا أن
نفعل نحن من جانبنا ؟

— اذهب واسأل القسيس فوتيس ، فهو الذى سينبئك بكل شيء .
أما أنا فلا أطلب منك غير شيء واحد : أن يكون يوسفاكى عندك فى بيتك
يوم الثلاثاء . وحذار أن تنبس بكلمة عن هذا لأحد . هه ؟

انقضى يوم الأحد ، وأقبل يوم الاثنين ، وبدأ الثلج يتساقط عندما
انتصف النهار ، واكتست قمة الجبل حلة بيضاء . واتشح النبي ايليا
بوشاح أبيض ، وانقضت الطيور الجارحة على السهول تتضور جوع .
واصطبقت السماء بلون أحمر برونزى .

وانحنى مانولى فوق كتلة خشب البلوط منذ الصباح الباكر .
انكب عليها يحفرها بأعصاب مشدودة . وأضحت روحه كأنها ازميل
نحات ، تقطع وتحز وتحفر فى شوق ولهفة لتحرر وجه المسيح السجين
داخل الخشب . وانبثق الوجه المقدس فى باطنه على الصورة التى رآه بها
فى حلمه البارحة ، وجها قاسيا صارما غضوبا . وثمة جرح غائر يمتد
على طول وجنته حتى الذقن وشارب متهدل ، وحاجبان كثان .

انكب مانولى على عمله منذ الفجر ، يحاول جاهدا أن يخرج الوجه
الصارم مطابقا تماما للصورة التى فى ذهنه . كان يعمل بهمة لا تعرف
الكلل فلا بد أن يفرغ منه وشيكا . . ومع الغسق ، أشرقت الطلعة
القدسية ، وارتسمت فوق كتلة الخشب . وهب مانولى مذعورا .

ودخل ميشيل فى هذه اللحظة ، مكدودا يائسا • ونظر الى كتلة
الخشب المنحوتة ، فارتد الى الوراء فرقا •

وصاح :

- ما هذا؟ انها الحرب

واجاب مانولى وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبهته :

- لا ، بل المسيح •

- اذن ما الفارق بينه وبين الحرب ؟

واجاب مانولى :

- لا فارق بينهما •

جن الليل ، وتساقط البرد كثيفا حانيا فى سسكون وتوارى كل
شىء تحته • واختفى السهل من تحت الجبل • وتدانت السماء حتى التقت
بالأرض •

أشعل مانولى مصباح الزيت • ورفع من فوق المشبك الوجه القديم
للمسيح الذى نحته قبل ذلك ، ووضعه الى جانب الوجه الجديد •
وتتم ميشيل فى وجل :

- شتان ما بين الاثنين • هل هما نفس الوجه ؟

- نفس الوجه • كان قبل ذلك صبورا وديعا ، هادئا ••• والآن
قاسيا حزينا • هل فهمت ، يا ميشيل ؟
وصمت ميشيل لحظة ثم قال :

- لم أكن أفهم ذلك قبلا • أما الآن فقد فهمت •

ثم عاد الى صمته من جديد •

وأقبل الثلاثاء • ولم يكد يتنفس الصباح حتى كان أهل ساراكيينا
على أهبة الاستعداد • كانت قمة الجبل تتألق فى حلتها الناصعة البياض •
وتوارى النبى تحت دثاره السميك • ولكن ما أن سقط عليه أول شعاع
لشمس الصباح حتى دبث فيه الحياة ، واستيقظ فى وهج وردى •

وجمع القسيس فوتيس شعبه • وخاطبه قائلا :

- يا اطفالى ، سيتقرر مصيرنا اليوم • تجملنا بالصبر قدر المستطاع

حتى بلغنا حافة الهاوية . ولو انتظرنا قليلا سنتردى فيها لا محالة
الاطفال أولا وفى اثرهم الرجال والنساء . وبات لزاما علينا أن نختار :
اما الموت أو النضال من أجل الحياة . واخترنا النضال . هل توافقون ؟
- موافقون يا أبانا ، كلنا دون استثناء .

- سألت حارس الجبلى الذى يقف هناك فوق رؤوسنا ، أعنى الفارس
ايليا ، وأقرنى بدوره . ثم استفتيت قلبى ، وأقرنى أيضا . نحن لم نلتزم
بما نحن بصدده اليوم هكذا خبط عشواء ودون تبصر بل عن تفكروروية ،
كاناس أحرار . سنذهب لتطالب بحقنا ، ليس صدقة أو منة ، بل حقا
وعدلا . لنا فى السهل حدائق وأعنابا وحقولا ، ولنا زيتونا وبيوتا ،
فليعطوها لنا . نحن لا نبغى على حق أحد ، وانما نطالب بأن نعمل لأنفسنا ،
وفى أرضنا ، حتى نعيش . لسنا جيش عنف واغتصاب ، بل جيش من
ضحايا الظلم ، تجرع الكأس حتى الثمالة .

- لن نكون أول من يعتدى . ولكن اذا ما اعتدوا فلنا أيدينا التى
خلقها الله لنا لنرد بها الضربات . كيف للعدل أن يسود ، وكيف له أن
يفرض نفسه على عالم يسوده الظلم والغدر اذا لم يكن عدلا مسلحا ؟
ونحن سنسلح العدل . تولوا هم تسليح الظلم ، وكان لهم ما أرادوا .
وعلينا أن نثبت اليوم لهم أن للفضيلة رجالها . لم يكن المسيح حملا
فقط ، بل كان أسدا هصورا كذلك . وسيأتى معنا اليوم كأسد
هصور .

نحت مانولى وجهه فوق الخشب . وها هو . هذا هو المسيح الذى
سيتقدمنا ، زعيما لنا وقائدا .

بعد هذه الكلمات رفع الوجه القاسى عاليا . ومع نسيم الصباح ،
تمايلت صورة المسيح فوق رؤوس الأشهاد وكانها تهدد وتتوعد . استطاع
مانولى فى اللحظة الأخيرة أن يصبغ الجرح الذى يمتد بطول الوجنة حتى
الذقن بلون أحمر . وهكذا بدت صورة المسيح لكل من اعتصرتهم الآلام ،
مناضلا مقداما عظيما ، أثنخته الحروب بالجراح فى قديم الزمان . ولكنه
يتأهب لينقض ، ويواصل المعركة من جديد .

وصاح القسيس :

- ها هو قائدنا ، فارفعوا أيديكم تحية له .

ثم التفت الى لوكاس حامل الراية وقال :

— لو كاس ، ثبت هذا الوجه المقدس في رأس الراية ، ولتقدمنا
 ليذهب مسيرتنا حماسا وقوة . والآن ليأخذ كل منكم مكانه . أشرق نهار
 الرب ، فالى الأمام ، ليتقدم لو كاس أولا حاملا الراية ، ثم الرجال
 المدججون بالسلاح ، ومن ورائهم فى المؤخرة النساء والصبية ومعهم المقاليع .
 وانتظمت الكتيبة ، ورسوم كل منهم علامة الصليب . وأمسك القسيس
 فوتيس بأيقونة النبى ايليا بين ذراعيه ، وتقدم مانولى ليكون فى طليعة
 الرجال . واتخذ ياناكوس لنفسه مكانا ورائه متأبطا صفيحة البترول .
 واعتلى ميشيل صخرة يرقب المسيرة . وكان قد قال للقسيس فوتيس :
 « لن أذهب معكم يا أرابا ، فقد وهنت منى الذراعين كما ترى ، وخارت
 قواهما . أتمنى لكم التوفيق » .

ظل يرقبهم وهم يتحركون : أثمألهم بالية ، ترفرف فى الهواء ،
 أقدامهم حافية ، الا القليلين فقد انتعلوا جلد شاة أو خرقا بالية ، وجناتهم
 غائرة ، عظامهم ناتئة ، عيونهم ثقوب سوداء ؛ جوعى يقرصهم البرد ،
 فشرعوا يحشون الخطى التماسا للدفء .

وحط ياناكوس صفيحة البترول على الأرض لكى يدعك يده فى
 بعضها يدفئهما بعد أن تجمدتا من البرد . وصاح :

الن نغنى شيئا يا أصدقاء ؟ هل يذهب الناس الى العيد بأفواه
 مغلقة ؟ هيا بنا ، لنغنى أغنية حرب أو أغنية آمان أو نرتل مزمورا أو أى
 شىء يصادف هوى فى نفوسكم . لنغنى يا رجال ، ولنستدقنا بأغانينا .
 وفجأة انبسطت الجوانح ، وانطلقت الأفواه ، وأعطى القسيس
 فوتيس اشارة ، وبدأ الجمع ينشد فى زهو أغنية الحرب القديمة التى
 كان يفتونها أسلافهم اذا ما خرجوا الى الحرب ضد البرابرة :

« يا الهى انقذ شعبك ، وبارك ورثتك على الأرض »

« يا الهى ، أعنا على سحق البرابرة » .

سَفك الدَّمَاء

بدأت ليكوفريسي في تلك الساعة تتمطى وتنفض الكرى عن جفونها .
كان البرد قارسا ، والثلج يغطى القرية ، والجبال من حولها بيضاء ناصعة . ولزم الناس بيوتهم ، وتدثروا فوق سررهم الدافئة الوثيرة ،
ينفتون كسلهم بعد ليلة نحروا فيها الذبائح وملثوا منها البطون . ففى
الليلة الماضية نحروا الخنازير ، وشيطوا جلدها على النار ، وأفرغوا
أحشائها ، ثم ناولوها نظيفة خالصة لزوجاتهم وبناتهم . ولم يبق -لى
هؤلاء الا أن ينجزن عملهن اليوم : يصنعن الجيلاتين ، ويعملن السجق ،
ويملأن القدور والجرار قديدا وشحما

لذلك كانت ربات البيوت هن أول من استيقظ فى ذلك اليوم ،
شمرن عن سواعدهن ، ووضعن القدور على النار ، وأقبلن على عملهن مع
مطبخ الفجر : يصحن الفلفل الأسود والكمون لعمل السجق ، ويعصرن
نارنجا وليمونا لعمل الجيلاتين . وفوق رأس كل منهن الخنزير السمين
معلق داخل المطبخ رأسه الى أسفل وردى اللون ، مفسولا ، نظيفا ، فى
انتظار الأيدي لتعمل فيه تقطيعا .

وقال الأغا لخادمته مارثا فى تلك الليلة :

— الويل لك ، يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنس

الى بيتى .

ظل يسمع طوال يومه صراخ الخنازير التي تنحر في أفنية البيوت .
وظفق يقول بصوت عال :

- أف منكم يا كفرة ، تدنسون أنفسكم بلحم الخنزير ، وتسممون
الجو بما تصنعونه من سجق مشو .

ولكن الأغا كان مولعا ، فى السر ، بسجق الخنزير . كان يؤثره
على غيره مزة لشراب العرقى . وارتضى أن تقدمه له الحدباء الخبيثة كل
عام مدعية أنه مصنوع من لحم الجمال . والأغا يعلم علم اليقين أنه ليس
كذلك ، ولكنه يخادع نفسه حتى يتظاهر بالبراءة . وكان يقبل عليه فى
نهم ، يأكل منه ، ويلق أصابعه بعده ، ويصر فى أعماقه على أن اللحم الذى
يطعمه ، وهو الرجل الذواقة الخبير ، ليس لحم خنزير أبدا . لذلك كان
يدعو الحدباء العجوز كل عام ، فى اليوم الذى تنحر فيه الخنازير ، ويلقى
على مسمعها الحديث المعهود .

- ويل لك يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنس الى
بيتى .

وهى العبارة التى تعنى عنده :

- اذهبى ، واشترى لى كل ما تستطيعين من سجق وادعى أنه لك ،
وأتنى به واقسمى لى بالأيمان المغلظة أنه لحم جمل .

وتجيب عليه الحدباء دون أن تبتسم :

- لا عليك يا أغا ، لا تقلق ، سأتيك هذا العام بكميات وفيرة من
سجق الجمال ، ولا تخش شيئا أبدا وسوف أشتري بعضا منه لبراهيماكى
أيضا .

فى هذه الأثناء كان المهلهلون الجوعى ينزلون بأقصى سرعتهم من فوق
الجبيل . وذات لحظة قال ياناكوس لئن هم بجواره :

- أحسن القسيس اختيار اليوم الذى ننطلق فيه الى القرية يا اخوتى
فالخنازير المذبوحة معلقة بالكلايب ، مهياة لشيها . أوقدت النسوة النار
لتعد الخنازير لنا . وها قد حانت الفرصة أخيرا لتشحيم أمعاء الفقراء .
ترى هل نحر الشيخ لاداس خنزيرا هو الآخر ؟

ولكن رفاقه الذين التهب حماسهم مع أنشودة الحرب لم يسمعوا
شيئا مما قال .

بلغت الكتيبة السفع ، وبدأت تشق طريقها عبر السهل . امتدت
القرية أمامهم ؟ الثلج يغطي البيوت ، والدخان يتصاعد من المداخن .
وارتجفت مناخير الجوعى حين سرت فيها رائحة الحنازير التي تسلق لاستخراج
الجيلاتين . وتذكرت النسوة بيوتهن التي دمرت وباتت خرابا ، واستعدن
فى مخيلتهن كل ما كن يفعلنه فى مثل هذا اليوم من كل عام ، وتنهدن .
وقبل أن يصل الجمع الى بئر القديس بازل ، توقف القسيس فوتيس
وأشار بيده اشارة تعنى أنه يرغب فى الكلام معهم . وصاح بهم :

— يا أطفالى ، خذوا حذرکم . سنتوجه أولا الى بيت الشيخ
بطرياركاس ونتحصن هناك . واذا كان باب البيت موصدا سنفتحه
عنوة ، فالبیت بيتنا ، ومن حقنا أن ندخله . وسوف نتفرق بعد ذلك
وننتشر بين حدائقنا وكرمنا وحقولنا ، ونحتلها . . نسال الله أن يقينا
شرهم وان يمتنعوا عن مهاجمتنا . ولكن اذا ما هوجمنا فسنرد بالمثل .
انها الحرب . فنحن لا نطالب بغير حقنا ، وليغفر الله لنا . استيقظت
القرية ، وانى أرى رجالا منهم يتجمعون على البعد ، وأسمع دق الأجراس ،
فكونوا على حذر . والى الامام باسم المسيح .

كانت الأجراس حقا تدق بعنف ، والقرية فى هرج ومرج . وبانايوتى
لم يفض له جفن طوال الليل ، بعد أن شم رائحة لما قد يحدث . خرج الى
شرفة الأغا منذ الصباح الباكر ، وثبت عينيه على الجبل . وان هى الا لحظة
حتى لمح مع غبش الفجر أهل ساراكيينا ينزلون من فوق الجبل . . وهروا
فوق درج السلم ، وخرج الى الميدان . وخف الى الكنيسة ، وأمسك بحبل
الجرس وشرع يدق الجرس فى ثورة وغضب .

وفى نفس اللحظة كانت الأم ماندالينيا عند بئر القديس بازل تحمل
جرتها على كتفها ورات على البعد جيش الحفاة المهلهلين مقبلا فى صخب
شديد ، فأطلقت سانيها للريح عائدة الى القرية تصرخ وتولول :

— الجوعى قادمون ، طريدو الكنيسة مقبلون . . اقبضوا على أسلحتكم
يا أهل القرية .

لم يكن أهل القرية قد نفضوا الكرى عن جفونهم بعد . ولكن ما ان
سمعوا دق الأجراس حتى هبوا من فراشهم . وحين قرع آذانهم صراخ
الأم ماندالينيا ، تلفع كل منهم بغطائه وهرع الى باب داره وفتح وهرول

الى الكنيسة . وتركت ربات البيوت مطابخهن ، وأطلن من الأبواب
أو النوافذ وهن يصحن بالرجال أثناء مرورهم ببيوتهن :

– ايه ، ماذا حدث ؟ لماذا تدق الأجراس ؟

ولكن الرجال واصلوا عدوهم وهم يلهثون دون أن يرد أحدهم جوابا .

سبقهم القسيس جريجوريس الى الكنيسة ، ووقف ببابها يلهث
ويصيح :

– احملوا أسلحتكم يا أبنائي . هاهم الاشتراكيون ينزلون إلينا من
ساراكيينا . لا تسمحوا لهم بأن يطنوا أرض القرية . عودوا الى بيوتكم
وتقلدوا أسلحتكم ثم اقصدوا بئر القديس بازل وتجمعوا هناك جميعكم
دون استثناء .

واستدار الى بانايوتى الذى تشبث بحبل الجرس يشده
كالمجنون .

– « بانايوتى ، اذهب الى الأغا وأيقظه من نومه . أطلب منه ان
يمطى بخلته ويخف الى بئر القديس بازل . قل له ان الاشتراكيين
قادمون » .

وأقبل ناظر المدرسة مبهورا . نسي نظارته ، فكان يتعثر فى كل
ما يصادفه يمينا وشمالا .

وصاح بأهل القرية متوسلا :

– لا تحملوا السلاح يا اخوتى . سأذهب لاتفاوض معهم .
سنردهم باللين . انهم اخوة لنا ، فلا تفرقوا القرية فى الدماء .

وزأر للقسيس مفيظا :

– ابق فيما يعينك ايها الأبله . لا مساومة . دقت الساعة لكى
نبيدهم . اهجموا على العدو ، يا رجال . السلاح ، يا اخوتى . الموت
لحملة القمل .

تأججت نار الثورة فيهم ، وأسرع أهل القرية الى بيوتهم ،
وتسلحوا بالهراوات والمسدسات والمناجل . وتسليح البعض بالسكاكين
التي نحروا بها الخنازير البارحة . وهرعوا جميعا ، يصرخون ويولولون ،
فى اتجاه بئر القديس بازل .

ولحق بهم بانايوتى عدوا ، ووقف الى جانب القسيس . ولوح

بمسدسه ، وأطلق الرصاص في الهواء . وصرخ : « الى الامام يا احبائي ،
ليأخذهم الشيطان » .

وانتزعت طلقة الرصاص الاغا من نومه . ف ضرب الارض بسوطه ،
وظهرت امامه مارتا :

- اسمعى ، ما هذه الطلقة التى سمعتها ؟

- الاشتراكيون يغيرون علينا يا اغا .

- اى اشتراكيين أيتها الحدباء الشائثة ؟ انطقى . الذين نزحوا
الينا من الشمال ؟

- لا يا اغا ، الذين نزحوا الينا من ساراكيينا . اركب بفلتك ،
فالمسيحيون بحاجة اليك . اركب بفلتك وساعدهم .

وانفجر الاغا ضاحكا ، كان النوم ما زال يقالبه ، فانقلب على الجانب
الآخر حيث ينام براهيمامكى . وقال :

- ايقظينى عندما يأتون من وراء الحدود . أما الآن فاغربى عن
وجهى .

رأى القسيس فوتيس اهل ليكوفريسى مقبلين فى شراسة
للاقتضاض عليهم ، فانفصل عن شعبه وتقدم وحده الى الامام اعزل
بغير سلاح وايقونة النبى ايليا بين ذراعيه ، وصاح :

- يا اخوتى ، لى كلمة معكم . فقوا واسمعونى باسم محبة
المسيح . اياكم وسفك الدماء .

وتوقفت الكتيبتان المتنازعتان لحظة ، وانتظرتا . وخطا القسيس
فوتيس بضع خطوات الى الامام . وصاح :

- كلمتى لك انت يا اب جريجوريس ، اخص بها قداستكم
يا ابانا ، فادن منى قليلا .

واندفع القسيس جريجوريس ناحيته وقال :

- ماذا تريد منى ايها القسيس التيس ؟ ها انذا .

ووقف القسيسان وجها لوجه ، بين الكتيبتين ، أحدهم ضخم
الجثة ، عريض المنكبين ، بدين قوى البنيان ، كأنه ثور ، والآخر ضامر ،

جلد على عظم ، غائر الوجنت ، دامى القدمين العاريتين ، كانه حصان
هزبل عجوز أتختته الجراح .

وقال القسيس فوتيس بصوت قوى ليسمعه الجميع :

— يا ابانا ، انها لخطيئة كبرى أن نثير حربا بين اخوة ، الدم
المسفوك سيقع وزره على راسينا . . . ولى كلمة اليك يا ابانا أود
أن تنصت لها ، وكذلك أنتم يا اخوتى . ألقوا السلاح ، وكفوا عن
الطعان ، وانتظروا . نحن القائدان ، القسيس جريجوريس وأنا ، كل
منا يمثل شعبه ، سننتصارع معا هنا أمامكم أعزلين بغير سلاح ، ونقسم
يميننا ، اذا ما طرحنى القسيس جريجوريس أرضا ومس ظهرى الرغام ،
سنعود ادراجنا فى سلام الى ساراكيئا صفر اليدين ، واذا طرحت انا
القسيس جريجوريس أرضا ، ومس ظهره الرغام سننتقدم ونستولى
على كل ما أعطاه ميشيل لمجتمعنا ، لتكن المعركة بينى وبينه على الأرض،
والله من فوقنا فى السماء شاهد علينا ، وهو أعدل الحاكمين .

تهلل أهل ليكوفريسي لسماهم كلمات القسيس فوتيس ، اذ رءوا
وجهه الشاحب الأزرق ، وساقبه الهزيلتين ، وبديه النحيلتين ،
وضحكوا فى سخرية ضحكات عالية كالزئير .

— « ايه يا اب جريجوريس ، اهجم عليه ، حسبك نفخة واحدة
من فيك يسقط فى اثرها على الأرض » .

وانزعج أهل ساراكيئا . وصاح لوكاس :

— لا ، لا يا ابانا . ليتقدم أشجعهم وينازلنى . ليتقدم الى بانايوتى
آكل النار ، الذى يزهو بمسدسه وطربوشه الأحمر ، هذا التركى
القدر . ليجرب نفسه معى ان كانت تواتيه الجراة على ذلك .
— وناول الراية لرفيق . يقف بجانبه ، وشمر عن ساعديه .

واندفع بانايوتى نحوه وهو يخور :

— انى آت اليك ايها الوغد . ها أنذا ايها الاشتراكى . سأقطع
رقتك ايها الحنزير .

واستل مسدسه ، ووثب الى الامام يلوح به . ولكن القسيس
جريجوريس رفع يده وقال :

— قف . دعنا وحدنا . اتركوا المسألة لنا نحن القساوسة ، لنا
نحن الاثنيين . ولتكن النتيجة هى القول الفصل فيما شجر بيننا . أقبل

تحديك أيها القسيس القذر . أقسم لك ، والله على ما أقول شهيد :
لو طرحتنى أرضاً فلکم ما أردتم ، إن أعارض استيلاءكم على الممتلكات
التي وهبها لكم ذلك المجنون ميشيل . ولكن إذا ما انتصرت أنا فاذهبوا
جميعكم وأتركونا في سلام . أسأل الله أن يكون رقيباً علينا ، يشهد
المعركة ويحكم بيننا .

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال :

— باسم الأب والابن والروح القدس .

واستدار ، وأشار بيده لرجل عجوز ، وناوله أيقونة النبي بين
ذراعيه . ثم خلع جلبابه الرث وطواه في عناية وحرص ، ووضع فوق
حجر ، فكشف عن قميصه الأسود المهلهل . وسرواله الممزق ، وقصبتا
ساقيه النحيلتين وقد غطتهما الجراح .

وقف القسيس جريجوريس في انتظار خصمه ، مباعداً ما بين
ساقيه ، عاقداً ذراعيه إلى صدره ، مقطباً ما بين حاجبيه ، وفي عينيه
البراقتين غضب واحتقار . وضرب الأرض بقدمه كأنه حصان هائج ،
إذا كان يتعجل النزال . ولكن ما إن رأى القسيس فوتيس واقفاً قبالة ،
هيكلاً عظيماً ، ممزق الثياب ، غائر العينين أسودهما كأنهما نبع ماء بعيد
الغور ، حتى أحس فجأة برعدة تسرى في جسده : خيل إليه أنه واقف
قبالة شبح الموت .

وقال القسيس فوتيس في هدوء :

— ارسم علامة الصليب يا أبانا ، فاني على استعداد .

ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب بحركة آلية ، وثبت
في مكانه دون حراك ازدراء منه لخصمه . وجأ بصوت ساخر :

— تعال هنا ، أيتها الجرادة الوضيعة . تعال لالوى رقبتك
وأعصرها بين يدي .

— ألا ينطق لسانك بغير قبيح الكلام يا أبانا ؟ هل ترتل مدائح
الرب بهاتين الشفتين ؟ هل هذه هي اليد التي ترفع بها كأس القداس ؟

وصرخ القسيس جريجوريس بصوت مجلجل :

— انها اليد التي تهشم عظام الأوغاد من أمثالك .

ثم مال براسه ونطح خصمه كأنه ثور . ورفع قبضته ليهوى بها
بكل ثقله ويضرب القسيس ضربة قوية ، ولكن القسيس فوتيس تحاشاها

في خفة فهوت يده في فراغ ، وهوى القسيس جريجوريس الى الارض
تحت ثقل جسمه وثقل ضربته . وجن جنونه ، فانقض على القسيس
فوتيس ونطحه ثانية ، وأمسك بخصلة من شعر لحيته وجذبها في ثورة
وغضب . واستجمع القسيس فوتيس بدوره كل قوته وكال للقسيس
جريجوريس ضربة قوية في كرشه . وخار العجوز من شدة الألم ، وزاغت
عيناه ، وامتعق لونه . ولكن سرعان ما أفاق الى نفسه ، وازدادت سورة
غضبه ، وتضاعفت قوته ، ووثب فوق القسيس فوتيس وبدأ يعض
رقبته وانفه وأذنيه . وتلاحم الاثنان ، ولكن لم يسمع الناس غير صراخ
القسيس جريجوريس ، يزار كأنه وحش كاسر يلتهم فريسته .

واستبد الفرع بأهل ساراكيئا وكتموا أنفاسهم ، واشربت
أعناقهم ، وأحسوا أن قسيسهم في خطر .
وتتم ياناكوس في يأس :

— هلك ابونا ، سيخنقه هذا الوحش .
وأجاب مانولى :

— لا تخف يا ياناكوس . ألا ترى الله ؟ ها هو ذا فوقهما ؟ كن

واثقا به .

لم يكذ مانولى ينهى كلامه حتى رأى القسيس فوتيس يقبض
بيد من حديد على لحية القسيس جريجوريس ، ثم سد يد يده الأخرى
لكمة قوية في فكه . وخار القسيس جريجوريس من شدة الألم ، وتكوم
حول نفسه يبصق من فمه أسنانه ودمه . ولم يمهل القسيس فوتيس
حتى يفيق ، اذ أمسك به من خصره ، وهزه يمينا ويسارا ، ثم انقض
عليه بكل ثقله ، فانكفا قسيس ليكوفريسي على الارض يعض التراب .

وهم القسيس فوتيس ليبحثم بركبتيه فوق صدر القسيس
جريجوريس الا ان بانايوتى عاجله فانقض عليه يوسعه ضربا في شراسة
وجنون . واندفع لوكاس كالسهم ، ومن بعده ياناكوس ومانولى . وفي
لمح البصر تلاحم الفريقان ، وبدأت المقاليع تصفر في الهواء ، والهراوات
تهوى على الأجساد . ومضى وقت طويل لا تسمع فيه غير صوت
اللكمات والهراوات وطلقات المسدسات ، بينما كانت السكاكين تغمد
في اللحم في صمت . كنت في أول الأمر تسمع صيحات وسباب ، ولكن
رويدا رويدا خفتت الاصوات فلم تعد تسمع غير أنفاس لا هثة ،
وتأوهات موجعة ، وانين مكتوم .

وهرع الى الساحة قسطندى واندونيس الحلاق وديمترى الجزار
البلدين وقد تسلحوا بهراواتهم ، وألقوا بأنفسهم فى خضم المعركة الى
جانب اهل ساراكيينا . وراى ياناكوس اصدقاءه ، فتخلص من وسط
الحشد المائج ونادى على قسطندى :

— هيه يا قسطندى ، هل فعلت ما أوصيتك به ؟

وحملق فيه قسطندى فاغرافاه ، ولم يتذكر شيئا .

— أية وصية ؟

— حمارى ..

اهدأ بالا يا ياناكوس ، انه فى بيتى .

ورفع ياناكوس صفيحة البترول على كتفه وصاح :

— اذن لنشعل النار .

وجار لوكاس بصوت كهزيم الرعد وهو يضرب بعصاه يمينا وشمالا

كيفما اتفق :

— الشجاعة يا رجال ، الشجاعة ، لقد انتصرنا عليهم هؤلاء الحنازير .

أنهار اهل ليكوفريسى واستسلموا ، وبدعوا يتراجعون تدريجيا
ليحتموا بالقرية . ولاذ عدد منهم بمنازلهم . وفى هذه الأثناء رفع اهل
ساراكيينا القسيس فوتيس من على الأرض ، حيث استلقى قرب
البئر ، وغسلوا له جروحته ، والدم ينزف من رأسه المشجوج .

واندفع مانولى وهو يصيح :

— الشجاعة يا اخوتى .

اختطف من بانابوتى احد مسدسيه وبدا يطلق الرصاص فى

الهواء ، وهو يطارد اهل القرية أثناء تفهقرهم مذعورين .

مرة اخرى سمع الناس صوت ناظر المدرسة يتحدث فى الم

وانزعاج :

— كفوا يا اخوتى ، لا يقتل الأخ اخاه ، سنصل الى اتفاق معا ..

كونوا على ثقة فكلنا اغريقيون مسيحيون يا اخوتى .

ولكن سرعان ما وقع بين المعسكرين ، وانقض عليه الاصدقاء

والأعداء ، وطرحوه أرضا ، وداسوه بالأقدام فى شراسة ، وقذفه أحدهم

بحجر ، وتدحرج صانع السلام الى حفرة فاقد الوعى .

تراجع أهل ليكوفريسي جميعهم الى القرية ، وأمستك لوكاس بصفحة البترول الثانية وانطلق بها يعدو ، وبدأ يصب البترول على الأبواب والنوافذ والجدران .

وصاح بالنسوة وهو يعدو من بيت الى بيت :

— أهجمن عليهم أيتها النساء ، أتبعننى وأشعلن فيهم النار .

وسرعان ما تصاعدت ألسنة اللهب تعلق البيوت . وحاصرت النيران نساء ليكوفريسي اللأئي تحصن ببيوتهن وأغلقن عليهن الأبواب ، فأخذن يولولن ويصرخن في فزع .

وحمل بعض الرجال القسيس جريجوريس الى بيت ماندالينيا ، اذ كان قريبا من ساحة المعركة . كان القسيس مسجى على الأرض وسط الفناء فاقد الوعي . واحضرت المرأة العجوز اعشابها ومراهمها ، وانحنى عليه تفسل جروخه وتطيبها . لقد خسر القسيس المسكين كل كبريائه ، وبدأ يئن ويتوجع .

توغل مانولى ورجاله في هذه الأثناء بين دروب القرية حتى بلغوا بيت بطرياركاس الفسسيح . وفتحوا الباب عنوة ودخلوا . وقال مانولى :

— سنتحصن هنا ايها الشجعان . ليحضر اثنان منكم قسيسنا الى هنا ، وليدخل الباقون الى البيت سريعا فنحن في بيتنا .
وتطوع اندونيس الحلاق . وقسطندى باحضر القسيس فوتيس .
كان أهالى القرية يعدون فى الطرقات ، يحملون الدلاء المملوءة ماء ويصبونها على النار ليطفئوا الحريق ، والقرية كلها تعوى وتولول . وفجأة دوت أصوات فزعة :

— بيت الشيخ لاداس يحترق .

— تهشمت الجرار ، وانسكب الزيت جداول في الطرقات . .
تحطمت البراميل وسال النيذ على الأرض كأنه فيضان .
— الشيخ لاداس وزوجه على قارعة الطريق يبكيان .

فقد بانايونى طربوشه أثناء المعركة . وانتزع مانولى منه احد مسدسيه . وبدأ السروجى يعدو كالمجنون فى الطرقات ، يطلق الرصاص بمسدسه الذى بقى معه ، متوعدا مانولى ، ويدعوه متحديا للظهور أمامه . ولكن مانولى الذى امتلأ قلبه قلقا وجزعا انحنى فوق القسيس

فوتيس ، الذى ادخلوه الى البيت ووضعوه فوق سرير بطرياركاس .
ضمدت النساء جروحه ، وبدأ يفتح عينيه وينظر الى رفاقه من حوله
ويبتسم .

وتتم قائلًا :

— حثوا بيمنهم . سيعاقبهم الله على ذلك . انى سعيد ان طرحت
قسيهم أرضا .

— هل يؤلمك شىء يا أبانا ؟

— طبعًا يمانولى . جروحي تؤلمنى ، ولكننى سعيد كما قلت لك .
أصدر الله حكمه وكان النصر لنا .

ودوت صيحات الفرخ فى الفناء . عاد لوكاس ورفاقه بعد أن
أشعلوا النار فى البيوت . وأحضروا معهم ثلاثة خنازير مذبوحة نظيفة
جاهزة للطهى . دخلوا بها بيت العمدة بطرياركاس بين صيحات الفرخ
والسرور .

وصاحوا بالنساء :

— أوقدن نارا كبيرة ، فلدينا طعام وفير . افتحن خزائن المون ،
خذن دقيقًا واصنعن خبزًا ، اشوين الخنازير فالمعركة فتحت شهيتنا ،
والرجال عضهم الجوع .

واعترضت امرأة عجوز :

— ولكننا الآن فى بدء صوم الميلاد واللحم محرم . الا تخافون الله ؟

فقال لوكاس مقترحًا :

— لنستفتى أبانا .

وأجاب القسيس :

— كلوا وسأحمل الخطيئة على كاهلى .

أقبل ياناكوس وقد شاطت لحيته ، ورائحة الزيت والنبيد تنبعث
من ملابسه . وصاح فى زهو :

— شفيت غليلى ، ياخوتى . نفسى راضية الآن . كم من اليتامى
والأرامل القى بهم الشيخ البخيل الى قارعة الطريق ، وها أنذا القيت
به بدوره الى قارعة الطريق ، والنار تشتعل فى بيته . حمدًا لله .

وسمعوا طرقا على الباب وصوت قسطندى فى الخارج يقول :

— افتحوا ، افتحوا يا اخوتى . قتل ناظر المدرسة .

فتحوا الباب ، ودخل قسطندى والحلاق والجزار ، يحملون جثة ناظر المدرسة وقد فارق الحياة . شج رأسه وبرز مخه من عظام الجمجمة ، وجمدت عيناه الواسعتان ، وتدلّى فكه .
وقال قسطندى :

— عثرنا عليه ملقى فى حفرة ، داسه أهل القريتين بأقدامهم .

وانحنى الرجال والنساء فوقه فى صمت وقبلوه (١) وجمعوا بعض الأزهار الذابلة من الفناء ، ووضعوها بين يديه .
وقال مانولى وهو يكفكف دموعه :

— أراد أن يوفى بيننا ولكننا قتلناه .

استلقى الأغا فوق حشيشته الناعمة الوثيرة ، ينصت الى طلقات المسدس وهو يدخن غليونه ، ويربت بيده على براهيماكى يدلله . وحين شم براهيماكى رائحة البارود غلى الدم فى عروقه وأراد أن يهرع الى الطريق ليطلق بدوره بعض الطلقات . أمسك الأغا بإحدى قدميه بقوة ، وحاول براهيماكى أن يفلت منه ، ولكن دون جدوى .
وقال له الأغا :

— لا تكن أبله يا براهيماكى . دع الروميين يقتل بعضهم بعضا . لن يقوى أحد على استئصال شأفة هذه السلالة اللعينة . مذمك من السنين ونحن فى حرب معهم كى نبيدهم ؟ أنظر ماذا كانت النتيجة ؟ صفرا . تقتلع روميا فينبت عشرة . . لا جدوى ما لم يقتل بعضهم بعضا . ولهذا ادعهم يتقاتلون . وما إن يفقأ كل منهم عين الآخر حتى أخرج اليهم ممتطيا سهوة بغلتي وأعيد الأمور الى نصابها . هل فهمت ؟ أقول لك هذا فرابما تصبح يوما أغا لقرية من قرى الروميين فتعرف أى نهج تسلك مع هذا الجنس من البشر .
وصاح براهيماكى :

— دعنى أقتل بعضهم فانى أشعر بأكلة فى يدي .

— دعك من هذه الفعلة الحمقاء ما دام سيقتل بعضهم بعضا . ان

(١) تقبيل الميت شعيرة من شعائر الجنائز عند اليونان . « عن الترجمة

الفرنسية » .

تدخلنا سيخلق مشاكل للدولة . ستعود أساطيل الفرنجة مرة أخرى
تحاصر سميرنا فتكون الطامة الكبرى . نحن هنا سعداء فوق السرير حيث
الدفء يا عزيزى براهيماكى ، والبرد قارس فى الخارج . لن أدعك تخرج
سقاتينا العجوز الحذاء بالعسل والجوز .

وصفق بيديه فأقبلت العجوز على عجل .

— ماذا يحدث بالخارج أيتها العجوز ؟

— يقطعون رقاب بعضهم البعض يا أغا . القسيسان ، نتف كل
منهما لحية الآخر . وفقد بانايوتى طربوشه وجرحت ركبته ، واحترق بيت
الشيخ لاداس ، وانسكب الزيت والنبيد وملأ الطرقات .
قهقهة الأغا بصوت عال :

— أحسنتم يا كفرة . استمروا يا رجال . ليبتليكم الله بطاعون يقضى
عليكم . هات عسلا وجوزا . . أسرعى أيتها العجوز .

والتفت الى براهيماكى الذى كان يسب ويلعن يريد الخروج :

— لا تكن أحمق وتحشر نفسك فى شئون الروميين . هذه السلالة
الملعونة ظهرت على الارض نتيجة خطأ من الله . اسمع القصة التى اعتاد
المرحوم جدى أن يقصها على : أنصت اليها وسوف تفهم كل شئ أيها
الأحمق . خلق الله كل شئ على أكمل صورة . وذات مرة أحس الله بضيق
اذ كان بلا عمل . فأمسك بجزوة نار وبعض الروث ومزجهما وصنع
منهما عجينة واحدة خلق منها أول رومى . . وما ان وقع بصره على هذا
الشئ الذى صنعته يده ، حتى أسف على ذلك — هذا المخلوق التافه كانت
له عينا تنفذ فى الحديد كأنها مثقاب . وتنهى الرب وتمتم : « هذه
غلطة ، فكيف لى أن أصححها ؟ لنشمر عن ساعدنا ونعجن عجينة التركي
فانه هو الذى سيقتل الرومى فيعود كل شئ الى ما كان عليه ، ويستتب
النظام ، ويسود السلام . وأمسك ببعض العسل والبارود وعجنهما فى
حرص وعناية ، وصور منهما التركي . وسرعان ما ألقى بالتركى فى مواجهة
الرومى . ونشبت الحرب بينهما سجلا صباح مساء ، وتتابعت ، لا تنتهى
حتى تنشب حرب غيرها دون أن تكون الغلبة لأحدهما . ولكن عندما جن
الليل وأظلمت الدنيا ، تحايل الرومى الداهية اللئيم ، ووضع قدمه بين
ساقى التركي فى الظلام ، فتعثر التركي وسقط الى الارض . وغضب الله
وتمتم « لياخذنى الشيطان ، اننى فى ورطة لا مثيل لها . سيبتلع هؤلاء
الروميون العالم الذى خلقته جرعة واحدة . ما العمل اذن ؟ لم يغمض

له جفن طوال الليل • وحين اسفر الصباح قفز من سريره فرحا مسرورا يصفق بيديه • وصاح : وجدتها ، وجدتها • مرة أخرى أمسك بالروث والنار وعجن روميا آخر ، ووضع الاثنين في الصحاف • وبدأت الحرب بينهما على الفور • يقع احدهما على الارض ، ثم ينهض ليقع الآخر •• احدهما يضرب الآخر بسكين ثم تدور عليه الدائرة ليتلقى طعنة من أخيه •• واستمر القتال سجلا بسجلا ليلا نهار ، يسقطان على الارض لينهضا ثانية ، ويتضاربان من جديد ليسقطا على الأرض ، وينهضان ليبدأ القتال وهكذا دواليك • وبذلك يا حبيبي براهيمكي ساد السلام على الارض •

ودخلت مارثا العجوز حاملة العسل والجوز • وقال لها الأغا أمرا :
- افتحي الشباك يا مارثا ، افتحيه على مصراعيه ، حتى أسمع صراخهم وطلقات المسدس وأدخل البهجة والسرور على قلبي • املئي الزجاجاة بالعرقى • أنظري بعينيك حتى اذا ما قتلوا جميعا تعالى وانبشيني بذلك ، ففي هذه الحالة سأركب بغلى لأعيد النظام •

انتهى كل شيء مع المساء ، توقفت طلقات الرصاص وسكنت الأصوات ، ولزم أهل القرية دورهم ، يغسلون جراحهم ويدهنونها بالمرهم ، ويعملون كاسات ادم ، ويشربون السحلب • أشعلوا مصابيح الزيت ، ومر كل منهم بيده على جسده وأطرافه يتحسس اصاباته : أذان قطعت وأسنان كسرت ، وأصابع بترت ، وعيون فقئت ، وأضلاع تهشمت • وجالوا بذهنهم بين أنحاء القرية : كم من نوافذ حرقت ، وأبواب تحطمت وخنازير ثلاثة اختفت كانت معلقة بالكلايب ، ومنزل الشيخ لاداس ، ما زالت تلتهمه النيران ، والزيت والنبيذ بفيضان في الطريق ، والقمح الذي تنثر على أرض الفناء استحال فجما •

وسألت العجوز ماندالينا :

- وماذا حدث لزوجته المسكينة الأم بنيلوب ، هذه المرأة القديسة

حقا ؟

- نجت بفضل زوجات الجيران اللاتي اقتحمن النيران وأنقذنها • كانت جالسة فوق كرسيها ، هذه المخلوقة البائسة ، جامدة في مكانها مشلولة تصرخ ولا تحاول الفرار ، وقد أمسكت بالجورب في هياج وثورة تضمه الى صدرها وتهمهم بكلام غير واضح •

وزوجها الخنزير ألم يحاول أن يقتحم النيران لينقذها ؟

– ماذا تقولين ؟ اقتحم هذا الشيخ السفية النيران حقا ، ولكن لا لينقذ
زوجها ، أبدا ، بل لينقذ خزانته التي يحتفظ فيها بالجنيهات الذهبية .
اختطفها بين ذراعيه ، واندفع بها وسط الشارع ، ووضعها على الارض ،
وجلس فوقها وبدأ يبكي بصوت متهدج . . وما ان اتوا بالأم بنيلوب
الى جوارها – هل تعرفين ماذا فعلت ؟ لن تصدقني . . جلست على الأرض
وبدأت تغزل جربها من جديد . أنت على حق فيما تقولين يا عزيزتي
ماندالينيا ، انها قديسة حقا هذه المرأة العسة .

وخرجت الأم ماندالينيا وهي تسب الرجال وتلعنهم . وانفتح باب
وهي تسير في طريقها ، وامتدت يد أمسكت بثوبها :

– ايه ياماندالينيا . هل رأيت زوجي ؟ لقد تلبسه الشيطان . قيل
انه كان يطلق رصاص مسدسه هنا وهناك حتى قلب القرية رأسا
على عقب . يبدو أنه قتل قسيس ساراكيئا ، هل حقا ما يقال يا عزيزتي
ماندالينيا ؟

– لم أر زوجك ياجاريفاليا ، ولكنني رأيت طربوشه يتدحرج على
الأرض بجانب بئر القديس بازل ، يبدو أن رأسه في مكان وطربوشه
في مكان آخر يا عزيزتي المسكينة جاريفاليا .
وقالت جاريفاليا وهي تصفق الباب :

– ليأخذه الشيطان .

وهرعت الطبيبة العجوز الى بيت القسيس جريجوريس لتداوى
جروحه . كان بعض أهل القرية قد حملوه الى بيته . والتف حوله بعض
جيرانه يروحون ويجيئون ، يقدمون له القهوة وشراب الليمون والسحلب .

وانحنى فوقه امرأة عجوز مهلهلة الثياب لتهمس في أذنه ، والمخاط
يتساقط من أنفها المدبب فوق اللحية المقدسة .

– لا خطر عليك يا أبانا ، لم يصيبك شيء فلا تجزع . لم تذق طعاما
منذ الصباح لذلك تشعر بالجوع . الجوع فقط هو الذي يؤلك يا غبطة
الأب .

وبعد لحظة تنهدت المرأة العجوز البائسة التي قضت حياتها تعاني
امرارة الجوع والحرمان وقالت :

- صدقنى ، الجوع هو علة كل الامراض ، كل وسرعان ما تتحسن
صحتك .

وقدموا الطعام - كان طعام صيام حيث ان الوقت يوافق صيام
عيد الميلاد المجيد . جلس القسيس وبدأ يلوك طعامه فى ألم ، ويصر
بأسنانه فى غيظ وثورة . ذلك القسيس فوتيس اللعين كسر له السنة
الأمامية ، لذا كان يزدرد طعامه فى سرعة دون أن يمضغه جيدا ، بينما كان
الدم ينزف من رأسه المشجوج . كان ينتظر مجيء الام مانداينيا ومعها
عقاقيرها . هدأت قليلا آلام جسمه ورأسه ، ولكن ما زال قلبه تتلظى
فيه نار الغضب .

وهمس لجارته ذات الأنف المدبب :

- أخبرينى يا ابنتى اذ يجب أن أعرف ، هل رأى أحد وقتما طرحنى
أرضا ذلك القسيس اللعين طريد الكنيسة ؟ .. ابعدى قليلا من فضلك
فان أنفك يرشح .

- ما هذا الكلام الذى تقوله يا أبانا ؟ وهل هذا شيء معقول ؟ هل
يمكن لباعوضة كتلك أن تطرح قداسكم أرضا ؟ وقاك الله شر هذا . لا تقل
مثل هذا الكلام . لا يا سيدى لم يرك أحد ، وأقسم لك على ذلك .
ولكن قلب القسيس لم يهدأ ، وقال :

- كل هذا بسبب خطأ مانولى طريد الكنيسة اللعين . كل شيء بسبب
فهو الذى غرر بميشيل ، وهو الذى قتل ماريورى وهو الذى دفع قطع
سارا كينا الى النزول الى ليكوفريسي وهو الذى حرض ياناكوس على اشعال
النار فى القرية .. وهو المسئول عن كل هذا .. الخائن الذى باع
نفسه . سأسلخ جلده .

وأشار بيده الى الجيران فاقربوا منه . وتنهده ثم قال :

- للأسف اننا فى صيام الميلاد ولا يمكن أن آكل اللحم .

واعترضت المرأة العجوز :

- ولكنك مريض يا أبانا ، والمرض يعفك من هذا .

وقال القسيس بصوت رزين وقور :

- أنا قسيس ، ممثل الرب ، وهذا لا يليق بى . آتنى ببعض الخبز

والزيتون وخضروات بدون سمن . فانى جوعان .

قدموا له صينية حافلة بالطعام ، وملأوا له كوبا نبيدا .

وبدأ القسيس يأكل ثانية فى شراهة ونهم .

وحدث نفسه قائلا :

— لا بد أن أكل وأشرب كثيرا حتى أسترد بعض قوتي • يجب أن
أصحو من نومي غدا مبكرا لمقابلة الأغا • لا بد أن يرسل برقية عاجلة
إلى باشا سميرنا ، ويطلب على جناح السرعة جنودا أتراكا مسلحين بالبنادق
« غزا الاشتراكيون قرية ليكوفريسي • لتأت الجنود سريعا لطردهم • لا بد
أن يسود العدل والسلام على الأرض من جديد •

وانفتح الباب ، والتفت القسيس •

أحس براحة ، وقال :

— أهلا بك ومرحبا يا أم مانهالينيا • تعالى ، أدنى منى • سأهمس
بكلمة في أذنك •

دنت منه العجوز وانحنى عليه • وهمس في أذنها :

— تخلصي من هؤلاء الجيران واذبحي لي دجاجة •

لَا جَدْوَى يَا يَسُوعَ لَا جَدْوَى

فى صباح اليوم التالى استيقظ الأغا مبكرا وأصاخ السمع :
لا صراخ ، ولا طلقات رصاص ، كل شيء هادىء تماما . وضاق صدره
لذلك . وغمغم قائلا :

- ترى هل كلت سواعد الكفرة . لماذا بحق الشيطان كفوا عن قتل
بعضهم بعضا ؟
ونادى مارثا :

- تعالى أيتها المسيحية الدنسة . هل كفوا عن التقاتل ؟ هل انتهى
كل شيء ؟

- انتهى كل شيء يا أغا ، وكفوا عن التقاتل . ولكن المتمردین
احتلوا بيت الشيخ بطريار كاس ، ولا يريدون مبارحته . يقولون « البيت
بيتنا » ، وقتل ناظر المدرسة المسكين يا أغا .
وصاح الأغا فى غبطة وسرور :

- قتل ؟ حسن ، هذا هو ما كنت أحب أن أسمعه . واحد على
الأقل . وماذا عن القسيسين ؟
- لا زالا على قيد الحياة .
- الاثنان ؟

- الاثنان . تعرف أن القساوسة كالقطط ، كل منهم له سبعة

أرواح . كل ما حدث خدوش وكدمات فى وجهيهما ، واتف بعض شعر
لحيتهما ، ولكنهما بخير ، لم يمت أحد منهما بعد .
وتمتم الأغا :

– وأسفاه ، لا زالا على قيد الحياة . ولكن صبيرا ، فمن المؤكد أن
سينشب بينهما قتال جديد بعد قليل . أسرجى بغلتي .

واتجهت الحدباء العجوز ناحية الباب ، ولكن الأغا نادى عليها ثانية :

– أين براهيماكى ؟ انسل من هنا قبيل الفجر .

– العاهرة بيلافيا . لا بد وأنها جاءت الى هنا قبل الفجر . هم السبب .

– ليأخذها الشيطان . ألم يشبع منها بعد ؟ لتذهب الى الجحيم معه ،

هذا الفاسد الخليع . . ولكنه لا زال صيبا هذا البائس ، لا يعرف كيف
يمايز الحبيث من الطيب . اذهبى وأسرجى بغلتي .

واستيقظ القسيس فوتيس مبكرا هو الآخر . كان لا يزال يتوجع ،
ولكنه يعرض على شفتيه ، يتحمل أوجاعه فى صمت . . فكبرياؤه يمنعه
من الأنين . ونادى مانولى ، وقال له :

– عزيزى مانولى . يجب أن نسرع ، فليس لدينا متسع من الوقت
نضيعه . أرسل شعبنا ، رجالا ونساء ، ليستولوا فورا على حداثنا وكرمنا
وزيتوننا . . اطلب منهم أن يبنوا أكواخا هناك وقيموا على حراستها حتى
لا يأتى من يطردها منها . سأبقى هنا مع بعض رفاقنا . اذهب فى رعاية الله .
– ألا زلت تشعر بألم يا أبانا ؟

– ماذا يهم ان كنت أتألم أم لا يا عزيزى ؟ ألا زلت تفكر فى والخطر
يحدث بمجتمعنا ؟ اذهب وادع رجالنا ، لينتشروا بين أملاكنا . سيتدخل
الأغا يقينا بين لحظة وأخرى .

نزل مانولى الى الفناء . كان ناظر المدرسة لازال مسجى فوق الحجارة
وسط الفناء . جمدت جفونه ، فلم يعد من المستطاع تسبيلهما ، وعيناه
اللتان انطفأ نورهما تشخصان الى السماء .

وقطعت النساء بعض فروع شجر الغار ، وغطت بها الجثة . وجلست
بعض عجائز النساء القرفصاء من حوله يبكينه فى هدوء . ووضعت أم
غصن ريحان فى يده ، ليأخذها معه الى طفلها الذى مات جوعا . اذ كان

ابنها أحد تلاميذ حاجي نيقولا ، فقد أرسلته الى مدرسة ليكوفريسي وأعجب به ناظرها .

دعا مانولى رفاقه وقسمهم مجموعات ثلاث . تسلحوا بالهراوات ، وتزودوا ببعض الطعام من مخازن البيت وانطلقوا . شقت مجموعة طريقها الى حقول الشيخ بطرياركاس ، والأخرى الى بساتين الكرم والثالثة الى مزارع الزيتون .

كانت القرية لا تزال غارقة في سباتها ، والشوارع مقفرة ، والدخان لازال يتصاعد من بيت الشيخ لاداس . وذاب الثلج الذى كان يغطي السهل . وانقشعت السحب . وصفت السماء . وابتسمت قمة الجبل التى يعتليها النبى ايليا فبدت لآلة غارقة فى ضوء الفجر ، يغطيها الثلج .

وسمع الشماس وقع أقدام ، فأطل من النافذة ورأى أهل ساراكيينا فأدرك على الفور وجهتهم . وارتدى ملابسه على عجل ، وفى نفسه فرحة خبيثة ، وأسرع لينعى الى القسيس جريجوريس الأنباء السيئة .

كان يحدث نفسه قائلا :

— سأضع بعض السم فى أذنه . أنا أحق بأن أكون أسقفا وهو شماسا . ولكن القدر أعمى .

أسرع الخطو على الطريق الصاعد الى بيت القسيس . وفتحت أبواب فى هدوء ووجل أثناء مروره بها ، وصاحت الديكة . وبلغ الشماس بيت القسيس ، فدفعه ودخل . كان القسيس جالسا فوق سريره ، يرقب النهار الجديد منذ مطلعته . تناول بالأمس عشاء طيبا ، اذ كانت الدجاجة سمينة لحيمة ، وغاص فيها بوجهه حتى أذنيه . ودهنت الأم ماندالينا جروحه ببعض مراهمها ، وعصبت رأسه فى حرص وعناية ، وزايله الألم . ولكن لحيته فقدت بعض شعرها ، ونتف الجانب الأيمن لشاربه . لقد خرج القسيس البدين المهندم من المعركة ممزق الثياب ، مشوه الأسنان ، منتوف الشعر فأصبح كالقطة المسموطة .

بيد أنه لم يعد يشعر بالألم أو خجل . شئ واحد فقط تسلط على فكره ، رغبة واحدة فقط لا غير : أن يقضى على مانولى ويقطع دابره . قرار الحرمان الذى ألقى به فى وجهه لم يعد كافيا ، يريد أن يشرب دمه . استيقظت فى نفسه كل نوازع الهمجية البدائية ، والغرائز الوحشية . آه ، أود أن أصرع مانولى وأطرحه أرضا وأجثم فوقه وأقضم زمامة رقبتة ، وأشرب دمه ، عوى فى باطنه ذئب من القرون الأولى ، هب فى أعماقه ،

وكسر القشرة التي تغلف روحه وبات ينظر الى مانولى ويعوى • المحبة
المسيحية ، والوداعة المسيحية ، الخوف من الجحيم ، والفردوس - كل
هذه زابلت قلب القسيس جريجوريس ، لم يبق في تلك الصحراء القاحلة
غير ذئب فحسب •

اقترب الشمس وهو يبتلع لعابه • لم يكن يعرف كيف يصوغ
الكلمات التي سينطق بها بحيث تؤلم القسيس وتوجهه في قسوة ضارية •
وتصنع الخضوع وقال :

- يا أبانا ، أسألك الصفح والمغفرة •• السفن الضخمة خلقت لتواجه
الأعاصير العاتية ، والقمم الشم يشعلها البرق • وأنت السفينة الضخمة
يا أبانا ، والقمة السماء •••

وصاح القسيس في ضيق :

- أفصح أيها الثعلب العجوز ، ولا تمثل دور الساذج البريء ، فانا
أعرفك جيدا • كنت تطمع في ان تكون أسقفا ، وخاب رجاؤك ، وشفثاك
تقطران سما •• دع عنك كل هذه التلميحات ، وأفصح • ما الموضوع ؟ •
أحس الشمس بالدم يغلي في عروقه ، ولكنه تمالك نفسه ، وآلى
على نفسه أن ينفث فيه السم قطرة قطرة •

وقال بصوت باك :

- خرج القسيس فوتيس من المعركة سليما معافى ، لازال على قيد
الحياة يزهو منتصرا ••

- دعك من هذا أيها المتشرد ، انما أتيت لشيء آخر غير هذا • أفرغ
كل ما في مرارتك •

- رأيت بعيني رأسى أهل سارا كينا وقد خرجوا مبكرين ، وانتشروا
بين ضياع الشيخ بطريار كاس • لا بد أنهم استولوا عليها • لقد هلكنا •

- ليبتليك الله بطاعون • حسبك هذا •

- هناك للأسف ما هو أدهى وأمر يا أبانا ، اغفر لى ••

- تكلم •

- القرية كلها تتندر بالصراع الذى دار بينك وبين القسيس فونيس
وكيف طرحك أرضا ، ، وجثم فوق صدرك الطاهر ••

استشاط القسيس جريجوريس غضبا ، واحمر وجهه •

– أذن منى أيها الحخير • اقترب •

ولكن الشمساس خاف يد القسيس الثقيلة ، وتراجع حيث احتفى فى زاوية من زوايا الحجره • وواصل كلامه :

– وما هو أشد وأنكى من ذلك كله ••

– أشد وأنكى من ذلك ؟ •• تكلم يا لسان الحية الرقطاء • أفرغ كل ما فى جعبتك • هل تريد أن تقتلنى كمداء ؟ •

– ما هو أشد وأنكى يا أبانا •• آه ، تشجع ، فكلنا كما تعلم بشر الى زوال •• مخلوقات فانية بائسة •• الموت قدر مقدور علينا ••

أمسك القسيس بصندوق التشوق المعدنى وقذف به الشمساس فى رأسه ، ولكن الشمساس عرف كيف يفلت منه ، اذ طأطأ رأسه وجئا على الأرض فمر الصندوق من فوقه ليرتطم بالنافذة ويحطم زجاجها •

– تكلم والا سأقوم لك أيها المنافق السفيه وأضربك ضربا مبرحا •• ماذا أشد وأنكى مما قلت ؟ •

– ماذا ؟ ألا تعرف يا أبانا ؟ آه ، كيف انبئك به ؟ يكاد يقضى على •• أخوك ••

فقد القسيس أعصابه ، وألقى بدثاره بعيدا ، وقفز من سريره وانقض فوق الشمساس • ولكن الشمساس كان حذرا ، فوضع المنضدة وكرسيين بينه وبين القسيس واحتفى وراءهم • وتصنع البكاء وتمتم قائلا :

– قتل •• أخوك ••

وزار القسيس الذى تدافع الدم فى عروق وجهه المنتفخة :

– من ؟ متى ؟ أين ؟ •

– لا أعرف يا أبانا • كيفلى أن أعرف ؟ آه المسكين ألقوه فى حفرة مهشم الرأس •• وهو الآن مسجى فى فناء بيت بطرياركاس يحيط به قطاع الطرق ••

– ألا تشك فى أحد يا شماس عليك اللعنة ؟ •• تعال ، تذكر جيدا ، وأجب على سؤالى •

– ماذا تنتظر منى أن أقول يا أبانا • لا أحد • ولكن أستطيع الآن أن أتذكر ما حدث •• من يدرى ؟ •• ربما كان ••

– ربما كان من ؟ تذكر جيدا يا صديقى الطيب .. انطق ولا تخف ..
أنت رجل عاقل .. لا بد وأنتك تعرف .. حسن ، من اذن ؟
ونحن المنضدة والكرسيين جانبا ، ووضع يدا حنونا على كتف
الشماس . وقال له •

– أنت تعرفه بكل تأكيد .. ربما يكون .. من ؟
– هم م م .. كنت هناك .. وخيل الى اللحظة أننى رأيت .. ولكننى
لست واثقا من شئ ، أخشى الخطيئة ، أخاف الجحيم يا أبانا ..
– اطمئن يا بنى ولا تخش الجحيم ، فانى سأكون هناك أذود عنك
شرها • تكلم فى حرية ، فقد ارتبت أنا أيضا فى نفس الشخص ساعة
سماعى بالنبا .. هذا الاشتراكى الملعون • رأيتك أنت بعينيك ، أليس
كذلك يا صديقى ؟ •

ولزم الشماس البائس الصمت • كان يخشى عذاب الجحيم ، ولكنه
يخاف أبانا أيضا ، وأصيب بدوار •
وهزه القسيس بعنف :

– هل يمكن أن أتخذك شاهدا ؟ – تعال ، أنت تعرف مدى حبي لك
واعجابى بك .. أعنى على ارتداء ملابسى • سأذهب لمقابلة الأغا ، سأطلب
منه القصاص • اذن أنت رأيتك ، أليس كذلك ؟ رأيتك بعينيك هاتين ، أى
بنى العزيز ؟ •

– ماذا أقول يا أبانا ؟ خيل الى أننى رأيت .. ولكننى لا أستطيع أن
أذكر على وجه اليقين أننى رأيت ..
لوح القسيس بذراعه مهددا ، فتضاءل الشماس وجبن • وصرخ
القسيس فى وجهه :

– رأيتك ، نعم رأيتك بعينيك • لماذا تنكر ؟ هل أنت متواطئ معه ،
مع هذا الاشتراكى ، أيها النعس ؟ •
ورفع الشماس عينيه ، ورأى قبضة القسيس معلقة تكاد تهوى على
أم رأسه • فتضرع اليه :

– يا أبانا ، أمهلنى حتى أستجمع شتات فكرى اذا كنت تريدنى
أن أتذكر ..

– لك ما طلبت ، وانى منتظر •

وتفكر الشماس : « قلت اننى رأيت ؟ ولكن رأيت من ؟ هذا مالم

أقله • لن أقول ذلك •• وهكذا لن أقع فى الخطيئة •• « وارتاح لهذا الحاضر • وصاح :

– رأيتنه يا أبانا ، تذكرت الآن • رأيتنه بعينى رأسى ، وأقسم على هذا ، ساعة أن طرحك قسيس ساراكيينا أرضا وبدأ يغرس ركبتيه فى صدرك المقدس ••

– اخرس ، ليس هذا هو ما أطلبه منك • أعنى على ارتداء ملابسى • انى سعيد لأنك رأيتنه ، عدو المسيح – وسعيد لأن معى شاهدا •• أنت لا تدرى يا صديقى أى خدمة جليلة تسديها الى المسيحية بصنيعك هذا •

ورفع الشماس سروال القسيس وجوربه وقميصه وجلبابه ، وانهمك فى ستر ذلك البدن الكهنوتى بالملابس • وألپسه حذاءه وحزامه وقلنسوته ثم ساعده على الوصول الى الباب •

– اعطنى ذراعك أتوكأ عليها ، لا تنصرف يا شماس ، أعنى على المسير حتى بيت الأغا ••• خفف الخطو ولا تسرع ، وانظر ان كانوا قد حملوا الجثة الى الكنيسة ، ولكن أهم شئ أن لا تنسى أنك رأيتنه •

كان الأغا يتهياً ليمتطى صهوة بقلته حين رأى القسيس جريجوريس يدخل بيته ، يترنج ويعرج وقد عصب رأسه • وما أن وقع بصره عليه ، وهو على تلك الحال ، حتى انفجر ضاحكا • وصاح :

– كيف أصبحت على هذه الحال يا قسيس ؟ من الذى هشم وجهك هكذا ؟

وبسط القسيس ذراعيه على امتدادهما وصاح :

– العدالة يا أغا ، العدالة ، القصاص • تسأل من ؟ انه مانولى • هو الذى أثار ثائرة أهل ساراكيينا ، وهو الذى أتى بالاشتراكيين الى قريتنا ، وأشعل النار فى بيوتنا ، وشج رأسى ، وقتل أخى ناظر المدرسة • عندى شهود • أنت ولى الأمر وممثل الحكومة التركية فى ليكوفريسى ، ألؤذ بك ، وأمد اليك يدي سائلا : العدالة والقصاص يا أغا • سلمنى مانولى أقتص منه أنا ، القرية كلها عن بكرة أبيها تتوسل اليك بلسانى •

– لا ترفع صوتك هكذا أيها القسيس المبارك ، كدت تخرق أذنى اجلس • ستصنع لك مارثا فنجان قهوة ، لتهدىء من روعك أيها الشيخ البائس • لا شئ البتة ، ولا داعى للقلق • أنتم روميون ، ولكم رهوس

رومية تتقارع وتخطب في بعضها وتتكسر كالبيض ، هذا كل معنى
الأمر ، لذلك لا داعى للصراخ .

أسند القسيس ظهره الى الحائط حتى لا يهوى الى الأرض ، وعاود
طلبه :

– سلمنى مانولى .

أحضرت مارثا كرسيها على عجل ، وساعدته على الجلوس . وكان
الأغا فى تلك الأثناء يتقلد سيفه ويفمد مسدسه الفضى فى حزامه الأحمر
العريض ، وطوى سوطه تحت ابطه .

وانفتح الباب ، ودخل شيخ هزيل ، حافى القدمين ، مقوس الظهر ،
احترق نصف شعر لحيته ورأسه ، وغطت الحروق وجنتيه . سار وسط
الفناء وهو يحجل ثم خر الى الأرض تحت قدمى الأغا . وصاح باكيا :

– يا أغا ، الرحمة .

وقلبه الأغا بطرف قدمه وقال :

– يا للسماء !! ألسنت أنت الشيخ لاداس ؟ ما هذا القناع الذى
تغطى به وجهك ؟ من أين لك به ؟

– أشعلوا النار فى بيتى يا أغا ، وهشموا الجرار والبراميل ، وأحرقوا
الخزائن والأثاث كما أحرقوا قلبى .

– من ؟ من ؟ هل رأيتته ؟

– مانولى . مانولى الاشتراكى .

– معنا شهود يا أغا . رآه بانايوتى ، ورآه الشماس . . . ورأيتته
أنا أيضا .

وصدر عن الشيخ البخيل صوت كالثغاء :

– احرقه يا أغا ، احرقه كما أحرقنى . الرحمة يا أغا . سنجمع
الخشب وسط الميدان ، ونلقى عليه قارا ونشعل نارا نحرقه فيها .

وهرش الأغا رأسه ، وبصق على الأرض فى حيرة وارتباك . وهمهم :

– ورطة . . . ورطة . لياخذكم الشيطان أيها الروميون .

وذرع الفناء بخطوات متوترة ، يضرب الهواء بسوطه ، وكلما ضرب
الهواء ازداد غضبه وتضاعف أكثر وأكثر . ويزأر :

- قسما بحياة النبي محمد ، سأقبض عليكم جميعا ، قسيسين
واعيانا واشتراكيين ، وأشنقكم جميعكم الواحد بعد الآخر فوق شجرة
السنار .

واستدار عند سماعه صرير الباب وهو يفتح ثانية . رأى بانايوتى
يحجل فى مشيته ، حاسر الرأس بدون طربوش ، ومعه مسدس واحد فى
حزامه وقد تمزقت ملابسه ولطخها الدم والوحل ، وتورم وجهه واستحال
لونه أحمر قانيا .

ولم يتمالك الأغا نفسه فانفجر ضاحكا :

- ما هذا الشيطان القره قوز ؟ ماذا أسميك ؟ الدب المنتوف ، أم
الجمال الأجرى ، أم بانايوتى ؟

أسند بانايوتى ظهره الى الحائط ، وهمهم دون أن يجيب . وأحس
بألم فى ركبتيه ، ولم يقو على الوقوف ، فهوى الى الأرض رويدا رويدا حتى
تدحرج فوق الحجارة وسط الفناء .

تفرس الأغا فى زائرى الصباح الثلاثة الواحد بعد الآخر : القسيس
تكوم فوق كرسيه ، يشن ويتوجع ، ويدها ترتجفان وقد قلب فنجان القهوة
فوق توبه ، والشيوخ لاداس سقط على الأرض تحت قدمى الأغا ، يحرك
رأسه فى بطء ، ويفتح فمه ويفلقه فى حركة بلهاء ، وبانايوتى استحال
كومة من الخرق والوحل ، يظهر من تحتها قدامان ووجه متورم .
وصاح الأغا فى غبطة :

« ها ها ها . . . لم أر شيئا كهذا فى حياتى قط . سفن محطة ،
وأعلام ممزقة ، وأمراء بحر تضعضعت حالهم . ولكنها سلالة الروميين
تغزو فناء دارى وتفسده برانحتها الكريهة . « تعال يا أم مارثا ، هات
خرقة وامسحيهم لتنظفى الفناء منهم » .

وأحس القسيس بالاهاة فرفع رأسه :

- لا تنس يا أغا أنك ملزم بتقديم حساب لحكومتمك السامية . يوجد
بين ظهرانينا فى ليكوفريسى مبعوث من قبل بلد عدو ، مهمته هى الاطاحة
بالامبراطورية التركية واحراقها . لا تضحك . . . ولا تأخذ الأمر مأخذ

الهزل • ارفع قبضتك واضرب بقوة ، ماذا يفعل المرء اذا تسلسل ذنبه داخل
حظيرة الماشية ؟ يقتله على الفور • سلم لنا مانولى ••• لاتدنس يدك به ،
واترك العمل القذر لنا نحن المسيحيين ••• ستحتشد القرية كلها اليوم
أمام دارك ، تصرخ مطالبة بتحقيق العدالة • صوت الشعب هو صوت الله •
أنصت لنداء الشعب : « أنت أغا القرية ، محقق العدالة » •
غرق الأغا فى تفكير عميق ، ودارت رأسه ، ودار معها الفناء والقرية •
وقال فى نفسه :

– أى ضرر فى أن أقطع دابر رومى • واحد على الأقل يعد مكسبا –
ودون أن يكون لى يد فى ذلك ••• لتثريث قليلا •

ورفع بانايوتى رأسه ، اذ وافته الجراة على الكلام :

– لماذا التردد يا أغا ؟ احسم أمرك • رأيت مانولى بعينى رأسى وهو
يهشم رأس ناظر المدرسة بحجر ضخم • رأيت بعينى هاتين ، وهو يعطى
صفيحة البترول لياناكوس ، وسمعته يقول له : « ابدأ أولا وقبل كل
شئ بحرق بيت الأغا ، احرق هذا الكلب فى بيته حتى تتحرر قريتنا من
نير الأتراك •

تطايير الشرر من عينى الأغا وزأر :

– هل تقسم على ذلك ، يا بانايوتى ؟

نظر بانايوتى الى القسيس الذى أوما إليه برأسه ، ثم قال :

– أقسم على ذلك ، يا أغا •

وتحامل القسيس على نفسه محاولا النهوض وقال :

– مانولى اشتراكى خطير ، يا أغا • له هدف واحد فقط : الاطاحة
بالامبراطورية العثمانية • ويقف البلد الاجنبى العدو من ورائه يظاهره ،
ويحرضه • لو تركناه حيا ، سيقوى عوده ويشتد بأسه حتى يقضى علينا
جميعا •

ورد الأغا وهو يهرش رأسه :

– دائما تدور وتدور ثم تعود الى هذا الموضوع أيها القسيس اللعين •

وبعد لحظات من الصمت تتمم قائلا :

– لا ، أنت تبالغ يا قسيس •••

ورغم هذا أحس بالحيرة والارتباك ، لا يعرف كيف يستبين الأمر .

وقف القسيس ، واستجمع قواه ، وتقدم ناحية الأغا وهمس :

– هل أنا أبالغ؟ هل هذا هو رأيك يا أغا؟ ولكن الأمر واضح وضوح النهار تماما . تذكر كيف بدأ مانولى حياته فى قريتنا – راعيا حقيرا، تابعا لبطرياركاس ضمن خدمه ، لا يملك شاة واحدة لحسابه ، ولا قيراط أرض، بائسا ، يملأ القمل جسمه ٠٠٠ وانظر اليه الآن كيف أصبح بفضل حيله، ومساعدة العدو : وحشا كاسرا . رفع راية باسمه ، ليشق عصا الطاعة ويتمرد ، قتل الناس ، وحطم أسرا ، وأتى إلينا من آخر الدنيا بهذا الأفاق، القسيس فوتيس وعصابته المهلهلة ، واحتلوا جميعا جبل سارا كينا، وبدأوا يبنون قرية جديدة على بعد خطوة منا ، يسكنها الاشتراكيون . أقسم أن يحرق دارك ويقتلك يا أغا ، ويجمع خيرات قريتنا ويأتى بالاشتراكيين ليستولوا عليها ٠٠٠ وأنت يا أغا لا تدري بما يحدث هنا ، انتبه ، وحذار ، فقد تسلل الذئب الى حظيرة غنمك ، فاقتله .

وصاح مقة الآخران يؤمنان على كلامه :

– اقتله ، اقتله .

مرة أخرى هرش الأغا رأسه . كان حتى تلك الساعة يأخذ الأمور مأخذا سهلا ، ويقول لنفسه :

« هؤلاء روميون مجانيين ، دعهم يصفون حسابهم مع بعضهم بعضا ، وأدخن أنا غليونى ، وأشرب الخمر ، ولا أعبأ بهم فى قليل أو كثير . أما الآن فقد دخلت الامبراطورية العثمانية فى الموضوع ، وأتى الاشتراكي العدو ، وبدأ زمام الأمور يقلت من بين يدي . نعم ٠٠٠ نعم ، لو تركت هذه الدودة المسماة مانولى تنعم بالحياة ، فمعنى ذلك أننى أترك الخطر يحرق بالامبراطورية العثمانية ويتهددها ٠٠٠ ورطت نفسى فى مشاكل عويصة . صاحب لحية التيس على حق فيما يقول « تسسل الذئب الى الحظيرة ، واذا لم أقتله سيقتلنى » .

وفتح فمه فى ضيق :

– اخرجوا جميعا . اتركونى وحدى . الأمر جد خطير، دعونى أتدبره . . . اذهبوا الى الجحيم .

ورفع سوطه ليلهب به رؤوسهم وظهورهم .

واستبد الهلع بالثلاثة ، وغاصت رموسهم بين أكتافهم ، وهروا خارج البيت يرتطمون ببعضهم بعضا ، والسوط من ورائهم يصفر في الهواء . وصفق الأغا الباب برفسة من قدمه ، وأصبح وحيدا .
وصاح بمارثا :

– هات زجاجة العرقى ، فاني سأخذ قرارا .

سار القسيس جريجوريس والشيخ لاداس بين شوارع القرية . وأصدر القسيس أمره الى الشماس ليدق جرس الحداد . وسرعان ما تجمع أهل القرية في الميدان ، يصيحون مطالبين بالقصاص ، فهم لا يحتملون العار الذى لحق بهم بعد أن أذلهم الشحاذون . ووقف القسيس بينهم ، واستجمع قوته وصاح بهم :

– يا أولادى ، لحقنا العار ، ولا بد من أن نثار لأنفسنا . تحدثت مع الأغا فى هذا واتفقنا فى الرأى . من سبب كل هذه المآسى ؟ شخص واحد فقط ، هو مانولى طريد الكنيسة . ولكن حانت ساعته الآن . سيسلمه لنا الأغا ، لنحاكفه وندينه بكل جرائمه ، ونشرب دمه . انقضوا عليه يا أطفالى ، هبوا واذهبوا جميعا من فوركم الى بيت الأغا ، تجمعوا أمام بيته ، ولوحوا بأيديكم وارفعوا أصواتكم مطالبين : « مانولى ، مانولى ، أعطنا مانولى ، – لا شىء غير هذا النداء ، واتركوا الباقي لى .

واتخذ طريقه الى الكنيسة ، وانحنى فوق جسد أخيه ، وقبله القبلة الأخيرة ، ورتل صلوات الميت على عجل ، اذ كان ذهنه مشغولا بمانولى . ورفع أهل القرية الجثة وحملوها الى المقبرة . وعندما رأى القسيس الناس وهم ينزلون بأخيه الى لحدده ليواروه التراب ، تذكر أيام الطفولة ففاضت الدموع من عينيه .

والقى كل واحد من أهل القرية بحفنة من التراب فوق جثة الرجل الميت . وصب الشماس لكل منهم كوبا من العرقى التماسا لرحمة الفقيد ، ثم وزع عليهم كسرة خبز وحفنة زيتون . وعاد الجميع من فورهم الى القرية حيث تجمعوا أمام بيت الأغا .

انتصف النهار ، وسكر الأغا حتى لم يعد بحاجة الى مزيد ، واتخذ قراره . نادى بانايوتى الذى قبع عند عتبة الباب ينتظر ككلب أوسعه صاحبه ضربا .

– تعال هنا يا آكل الجبس الملعون ، هل تستطيع المشى أم أصبحت كسيحا أيها الأبله ؟

– لو كان ذلك للقبض على مانولى فانى أستطيع .

– أرى رأسك ، ولكننى لا أرى الطربوش . ماذا فعلت بطربوشك يا كافر ؟

– نسيته بالأمس يا أغا عند بئر القديس بازل . قيل لى ان الأم ماندالينيا قد عثرت عليه ، وسأرسل من يأتينى به .

– البس طربوشك ، وانتقى اثنين من الرجال الأشهداء من أهل القرية ، وآتونى مانولى ، هذا اذا لم تستطع أن تأتنى به وحدك . انصرف . سريعا .

– حيا أم ميتا ؟

– حيا .

• وانصرف بانايوتى فرحا مسرورا حتى أنسته الفرحة جروحه التى أصابه ركبته ، وانطلق يعدو بأقصى سرعته .
وبدأ يفرك يديه وهو يتمتم :

– حانت ساعتك يا مانولى ، أحسنت صنعا يا يهوذا بانايوتى ، أحسنت صنعا أيها الهمام ، لقد انتصرت عليه .

أقام مانولى ورجاله خصا فى حديقة بطرياركاس الواسعة التى تقع خارج القرية قرب بحيرة فويداماتا . واختار مانولى من رجاله من عهد اليهم بالحراسة ، اذ رأى أن يعود الى القرية مع المساء ليطمئن على القسيس فوتيس ، ويتشاور معه . وسمع ، وهو فى طريقه ، أجراس الحداد فانقبض قلبه .

• وبعد الظهر بقليل أقبل قسطندى يعدو . كان يحمل اليه أخبارا .
– القسيس جريجوريس يثير نائرة القرية من جديد ، يطوف فى شوارع القرية برأسه المعسوب يهيج أهل القرية ، ويعرضهم على التجمع أمام بيت الاغا ليهتفوا : « اعطنا مانولى . أعطنا مانولى . الموت لمانولى » يريدون القبض عليك يا مانولى . يلقون بكل الجرائم على عاتقك ، ويتهمونك بالسرقة واحراق البيوت ، والقتل ، وقبل هذا كله يتهمونك بأنك اشتراكى . .

احتف في مكان ما ، احتم بسارا كينا ، أو ألجا الى مكان بعيد ، حياتك في خطر • الجميع يطاردونك •

وأجاب مانولى :

– مكاني هنا مع أخوتي الذين يتهددهم الخطر • الفرار هروب من المعركة يا عزيزى قسطندى • كيف حال اخوتنا الآخرين ؟ هل رأيتهم •

– أخذ ياناكوس حماره من درى ، وأخفاه فى مزرعة الزيتون الكبيرة احتمى هناك هو ورجاله • وتحسنت حالة القسيس فوتيس ، ويقول انه سيذهب غدا لمقابلة الأغا • يقول عنه « انه وحش حقا ، ولكنه ليس بالكائن الذى يضمر خبثا وكرهية فى أعماقه • سيقر حقوقنا • وسوف تسير الأمور بسيرها الطبيعى ، المسيح معنا • ولكن مهما كان الامر فانى خائف يا عزيزى مانولى • أقسم الجميع على سفك دمك •

– أسأل الله يا قسطندى أن يقع وزر هذه الجرائم كلها على عاتقى ويجهزوا على ويتركوا رفاقى فى سلام • سأرد على كل اتهاماتهم بكلمة واحدة ، نعم • أنا الذى سرقت ، أنا وحدى ، وأنا الذى قتلت ، وأنا الذى أشعلت الحرائق • سأعترف بكل ما يكيلونه من اتهامات ، كلها دون استثناء ، ان كان فى ذلك خلاص أهلى ومجتمعى • سأذهب راضيا مختارا وأسلم نفسى للأغا ، والآن فورا •»

وبهت قسطندى ، واتسعت حدقتا عينيه ، ورأى مانولى أمامه وقد أصبح انسانا آخر ، وجها وضاء يشع نورا ، وقامة مديدة فارعة ، يقف سامقا وسط الأشجار كأنه منارة من نور • وطرفت عينا قسطندى فقد بهرهما النور • وقال :

– عزيزى مانولى ، لست أهلا لأن أنصحك • فان روحى لا تساوى أكثر من قسطندى وعائلته ، واذا غاليت فى تقديرى فلن يتعدى الأمور بضع أصدقاء أيضا • فهى لا تساوى أكثر من ذلك بأى حال من الاحوال • أما أنت يامانولى فان روحك تمتد لتسع الناس جميعا • ان ما ارتعد أنا منه فرقا ، تهرع أنت الى ملاقاته خفيفا فرحا • وما أسميه أنا خوفا ، تسميه أنت أملا • لك الإرادة والقوة على أن تقتفى أثر المسيح : فافعل ما يلهمك به الله ، يا مانولى :

واتجه مانولى ناحية بوابة الحديقة وقال :

– هيا •

وتبعه قسطندى مطأطىء الرأس .

وخرجا من الحديقة ، وسارا يمحاذاة البحيرة . كانت السماء صافية
الاديم رغم الشتاء ، والهواء شفافا نقيلا لا أثر للضباب فيه . والبحيرة
مرآة مجلوة تنعكس على مياهها أشعة الشمس خضراء داكنة . وعيدان الغاب
وأشجار الصفصاف تطل الى صورتها المنعكسة على صفحة الماء . وطائر
من طيور اللقلق يقف عند الحافة على ساق واحدة يحملق فى هدوء وغير
اكتراث ، وطائران آخران ضما ساقيهما الى بطنهما وحلقا فوق البحيرة
فى صمت ، يسبران غور الماء بعيون ثاقبة : اذ كانا يتضوران جوعا .

سرح مانولى الطرف فيما حوله ، كأنه ينظر نظرة وداع يودع بها
البحيرة والأشجار العارية . ورفع بصره الى جبل ساراكيئا الذى غطته
ظلال بنفسجية رقيقة . ثم انحدر بصره الى السهل وتأمل أشجار الزيتون
والكرم وأشجار المشملة المزهرة ، وحببات الليمون التى تلمع وسط الأوراق
الداكنة ، وشجرة اللوز التى تنبئ بقرب حلول الربيع ، اذ توشك براعمها
المتلثة أن تتفتق وتكشف عما بداخلها .

وتتمم مانولى ، وعلى شفثيه ابتسامة :

- ما أجمل الدنيا ..

وتفكر قسطندى فيما بينه وبين نفسه دون أن يفصح عن سريره :

- ولكن روح الانسان أجمل ، ففى بعض الأحيان ...

وسارا فى طريقهما الى القرية . كانت الاجراس لا زالت تدق دقات
الحداد . وعلى البعد جلبة وضوضاء اختلطت بها صيحات مختلفة ونباح
كلاب . وصاح ديك .

وقال مانولى :

- يبدو أن الطقس سيتغير ، أنصت لصياح الديك .

وزم قسطندى شفثيه . كان يخشى أن ينفجر فى نشيج مسموع .
وتبع مانولى مطرقا برأسه صامتا .

وفجأة ، ما أن اقتربا من بئر القديس بازل حتى اندفع بانايوتى
من وراء شجرة ، ومعه رجلان من ذوى القوة والبأس . خرجوا يلوحون
بهرواتهم . كان بانايوتى مرتديا طربوشه هذه المرة . وامتعق لون قسطندى
وتراجع قليلا الى الوراء .

وقال لنفسه :

• سيلقيان القبض على مانولى .

وراودته نفسه أول الأمر على الفرار بأقصى سرعته، ولكنه خجل من هذا الحاطر ، وثبت مكانه والخوف يكاد يقتله .

وتقدم بانايوتى أمام رفيقيه فى عزم واصرار . ولوح بيديه فى وجه 'مانولى متوعدا مهددا . وخار :

• الى أين يا طريد الكنيسة ؟

• انى ذاهب لمقابلة الأغا يا بانايوتى . لا تغضب ، سمعت أنه يبحث عنى ، وانى ذاهب لأسلم له نفسى .

وحملق فيه بانايوتى فاغرا فاه :

• الاتخاف؟ ألا تخشى الأغا أو القسيس أو القرية؟ هل أنت شيطان فى ثوب انسان ؟

• من لا يخاف الموت لا يخاف الناس يا بانايوتى . هذا هو السر .
• هيا بنا .

• سر أنت أمامى ، حتى لا تهرب منى .

والتفت الى رفيقيه :

• انصرفا أنتما لحال سبيلكما ، سأتولى بنفسى أمر هذا الاتفاق .
• وانصرف أنت أيضا يا قسطندى ، أيها الاشتراكي القدر .

• وتردد قسطندى . ونظر الى مانولى .

وقال له مانولى :

• اذهب يا عزيزى قسطندى ، عد الى بيتك حيث زوجك وأطفالك ،
• ودعنى وحدى .

لم يكن قسطندى بحاجة ليكرر عليه مانولى الكلام ، فانطلق مسرعا .
وأصبح مانولى وبانايوتى وحدهما ، وسارا صامتين لفترة غير قصيرة .
وأخيرا قال مانولى بصوت هادى رقيق :

• بانايوتى ، هل تكرهنى الى الحد الذى تمنى لى فيه الموت ؟ لماذا؟
• ماذا جنيت فى حقك ؟

• وجأر بانايوتى :

– لا تتحدث الى بهذه النبرة ، فانت تعرف انها تمزق قلبي •
وعادت الأرملة الى الظهور أمام عينيه ، بضحكتها العذبة ، وشفيتها
المصبوغتين بالحضاب ، وأسنانها اللؤلؤية اللامعة ، وشعرها الاشقر فى
لون العسل • وأحس بانايوتى بأحشائه تتمزق •
وجار :

– بعد أن أقتلك يامانولى سأقتل نفسى • انى أبقى على حياتى فقط لكى
أقضى عليك • ولكن ما حاجتى الى الحياة بعدك ؟ طلبة رصاص من المسدس
أنتقل بعدها الى الشيطان •

ودخلا القرية ، وأجراس الحداد لا زالت تدق ، وصخب شديد يدوى
فى الميدان عند شجرة السنار • فقد تجمع أهل القرية أمام باب الاغسا
يجأرون بأصوات مجلجلة •

وتوقف مانولى لحظة ينصت للأصوات :

– ماذا يقولون ؟

– ستبين ذلك فيما بعد يا طريد الكنيسة • أسرع •

وعلا الصخب ، ووضحت كلماته ، والتقط مانولى شذرات من صياحهم
وخمّن معناها ، وابتسم فى مرارة ، وحث خطاه • وتمتم :

– هأنذا آت •• هأنذا آت • لا داعى للصياح فانى آت اليكم ••

ولم يكده مانولى يظهر فى الميدان حتى انقض عليه الحشد فى جنون
ولكن بانايوتى تقدم وبسط ذراعيه على امتدادهما وخار بصوت كالعجل :

– لا يمسه أحدكم ، فانه لى أنا •

وصرخ الناس فيه وهم يهمون به كى يمزقوه اربا :

– ياللى ، يا قاتل ، يا اشتراكى •

ولمحه القسيس جريجورىس من على بعد ، فاندفع تجاهه نائرا ،

مهتاجا :

– أقتلوه يا أطفالى ، الموت لطريد الكنيسة •

ولكن انفتح باب الاغسا ، وبرفسة من قدم بانايوتى كان مانولى وسط

الفناء • وأغلق الباب على الفور •

تربع الأغا فى حجرته فوق حشية من المخمل ، يشرب العرقى فى
بلادة وخمول ، وعيناه مثبتتان على الجمرات المتوهجة فى المدفأة • وساد
الحجرة دفء جميل ، وفاحت رائحة العرقى وسجق لحم الخنزير ، وهامت
عيننا الأغا فى دنيا الخيال ، غرقا فى بحر من السعادة • كان ينصت لصيحات
أهل القرية الذين تجمعوا أمام داره ، يصرخون بأعلى صوتهم :

– مانولى • مانولى • أعطنا مانولى •

كان ينصت ويبتسم فى رضا ، ويقول لنفسه :

– آه من هؤلاء الروميين ، انهم سلالة الشيطان ، ثعالب ورعاع
وشياطين مرده • الذئاب لا تأكل بعضها بعضا ، ولكن الروميين يفعلون
ذلك • ها هم يريدون أن يجهزوا على مانولى ويلتهموه مهما كلفهم ذلك
من ثمن • لماذا ؟ ماذا اقترف فى حقهم ؟ انه برى هذا المسكين ، به جنة
حقا ولكنه لم يلحق أذى بأحد على الاطلاق • ورغم ذلك يصيحون : « أعطنا
مانولى لنلتهمه » • تريد أن تمثل دور القديس ، أليس كذلك أيها المتشرد؟
اذن نل جزاءك • لأدعهم يأكلونه ، اذا كان هذا يهدى من روعهم •
وماذا يضيرنى أنا ؟ هل أذفع عنه الأذى ؟ ما مصلحتى فى ذلك ؟ سأقع
فى مشاكل • اذن ليتركونى فى سلام • ها هو ذا خذوه أيها الروميون ،
واستمعوا بوجبة هنيئة • انى أغسل يدى منه • أنا أشرب العرقى ، وأتلذذ
بسجق الجمال الممتع • • فضلا عن هذا فعندى حبيى براهيماكى ، ثم
هناك سوطى • • لدى كل ما أحب وأهوى • الحمد لله •

تردد صوت وقع خطوات فى الدهليز ، فرفع الأغا رأسه •

انفتح الباب ودخل بانايوتى ثم أغلق الباب ، وحيا الاغا ، وتقدم
ناحيته ، يعرج قليلا فى مشيته ، ولكنه كان متألق الوجه •

– قبضت عليه يا اغا • كان يحتمى بالحديقة وسط ما يقرب من
عشرين رجلا من رجائه المدججين بالسلاح • وعندما وقع بصر رفيقى عليهم
وليا الأديار ، وقلت لهما أغربا عن وجهى أيها الرعديدان • وتقدمت اليه
وحدى ، ومسدتى فى يدى وصحت به : « ارفع يديك أيها الخنزير فأنا
بانايوتى • وما أن سمعوا اسمى حتى هرولوا وفروا جميعا كالجردان •
وبقى مانولى وحده • والحق أقول انه ظل ثابتا فى مكانه لم يحاول الفرار
فأمسكت برقبته وسقته اليك •

وابتسم الأغا ابتسامة أخفاها شاربه الذى صبغه منذ قليل • وقال :

– حسن يا عزيزي أكل النار • بيدولي أنك تزخرف قصتك • ولكن ماذا يضر في ذلك ؟ فأنت رومي ، ومعنى هذا أنك كاذب • هيا اثنتي به ، حتى أسرى عن نفسي قليلا •

خرج بانايوتى ، وأمسك بذراع مانولى وانهال عليه بقبضته ثم دفعه برفسة من قدمه الى داخل الحجرة • ووقف مانولى أمام الأغا ، هادئا مطمئنا ، عاقدا ذراعيه الى صدره ، منتظرا ما يقوله الأغا •

وأصدر الأغا أمره الى بانايوتى :

– انتظر بالخارج يا بانايوتى واقفل الباب • •

ملا الأغا كأسه وأفرغه في جوفه دفعة واحدة • ثم حشا فمه ببعض السجق وشرع يمضغ في بطء متلذذا • وأغمض عينيه نصف اغماضة والسعادة تملأ جوانحه • ونظر الى مانولى وابتسم ثم قال :

– أيها التعس مانولى ، هذه هي المرة الثانية التى تقع فيها بين برائتى • أخال أنك لن تفلت هذه المرة • جرائم كثيرة تلقى على عاتقك أيها البائس • يزعمون أنك سرقت وقتلت وأضمرت النار فى القرية • • هل حقا ما يقولون ؟

– حقا ما يقولون يا أغا •

تدافع الدم فى وجه الأغا ، واهتاج وغضب • وصاح •:

– اسمع ، حاول أن تمثل ألا عيبك الفارغة هذه على غيرى • لا تكرر ما فعلته أول مرة • لا تقلد القديسين والشهداء • هل تسمعنى ؟ والا سألقى بك الى الشيطان يتولى أمرك • هل تفهمنى ؟ برىء مسكين مثلك يسرق ويقتل ويشعل الحرائق؟ العب هذا على غيرى، لن تستغفلى يا عزيزى هل تفهم ما أقول ؟ حتى لو كان الشيطان بداخلك فلن أصدق أبدا •

– بل أنا يا أغا • أنا حقا وصدقا ، وكل هذا يحدث رغما عنى • أنا أقلد القديسين ، وأمثل دور البرىء ، وأغض من طرفى ، ولا أنظر الى الناس فى وجوههم ، وأتظاهر بالتواضع والطيبة ، ولكننى شيطان مرید فى أعماقى •

وتعالت الصيحات أكثر وأكثر فى الميدان :

– مانولى ، مانولى ، الموت لمانولى •

— هل تسمع؟ يطلبون منى أن أسلمك لهم . لن تفلت من بين مخالبهم
حيا . فكر وتدبر أمرك .

— تدبرت أمرى يا أغا . سلمنى لهم . لى مطلب واحد فقط أود أن
أطلبه منك : أن تمنعهم من أن يمسوا أحدا غيرى . الحق بجانب أهل
ساراكيئا ، ولكن الحقوق لا تثبت لأصحابها فى هدوء وسلام . ولذلك حاولت
أن أنتزعها بالقوة ، وكان أن فعلت ما فعلت . أنا المسئول عن كل هذه
المآسى ، ولا أحد غيرى . أهل ساراكيئا أناس طيبون يا أغا : أمناء
مسالمون محبون للعمل ، ذوو دأب ومثابرة .

— اسمعنى الآن ، يقولون انهم اشتراكيون يريدون اسقاط
الامبراطورية العثمانية :

— لا تصدق هذا الكلام يا أغا ، هذه كلها افتراءات خبيثم . الحق انهم
فقراء ينشدون العيش فى سلام ، وأن تمتد لهم جذور فى الارض أسوة
بغيرهم . هذا كل ما يريدون ولا شئ سواه .

أمسك الأغا برأسه بين راحتيه ، وبدأت الحجره تدور به .

— أكاد اجن بسببكم أيها الروميون الملاعين . استمع الى هذا فأصدقه
واستمع الى غيره فأصدقه أيضا . لم أعد أفهم شيئا . قسما بربى سأشنعكم
جميعا ذات يوم ، حتى أعيش فى هدوء وسلام .

وتعالت الصيحات والصراخ أمام الباب :

— الموت لمانولى . الموت لمانولى .

وتمتم الأغا :

— لياخذنى الشيطان ان كنت أعرف ماذا أنا فاعل بك ! انى حزين عليك
حقا ، فانت برىء تعس ، أقولها لك مرة أخرى : أنت مجنون وقديس فى أن
واحد . تريد أن تحتضن كل خطايا العالم تحت جناحك كما تحتضن
الدجاجة بيضها . حزين عليك ، ولكن ماذا تنتظر منى ؟ لو لم أفعل
ما يطلبونه منى سأقع فى مشاكل . . . وبعد هذا كله من يدرينى أنك لست
اشتراكيا؟ وهذا القسيس الشيطان الذى يهيج أهل القرية ويؤلبهم ليجأروا
بأعلى صوتهم أمام بيتى ، قادر تماما على التوجه الى باشا سميرنا ويشكونى
اليه ، ثم ماذا تكون النتيجة؟ انظر وقدر أنت عاقبة ذلك ، هل تفهمنى الآن
يا مانولى ؟ ضع نفسك مكانى ، ماذا كنت تفعل ؟ أليس من الخير لى أن

أسلمك لهم وليفعلوا بك ما يشاءون بدلا من أن يظل حد السيف مسلطا على رقبتى . قل لى ماذا ترى فى كلامى هذا . ألسنت على حق ؟

— أنت على حق يا أغا . سلمنى لهم .

— ولكن أسالك بحق الشياطين كلها ألا تتحدث الى بنمرة صوتك هذه فانك بصوتك هذا تثير جنونى . تعال وقل صراحة انك اشتراكى حتى أحتاج وأغضب وأسلمك لهم دون أن ينفطر قلبى لذلك ، والا فاننى أخشى أن أسلم حملا وديعا لذئاب كاسرة . هل تفهم ما أريد ؟ أنشد سلام نفسى ، هذا كل شىء ، ولذلك قررت أن أتخلص منك ومنهم . هل تفهمنى ؟ اذا ما اعترفت بأنك اشتراكى فهذا عين المراد .

وقال مانولى :

— حسن ، أنا اشتراكى . والآن هل يرضيك هذا ؟ أنا خطر على الامبراطورية العثمانية ، لو استطعت لأطحت بها وقذفتها الى عنان السماء .

— استمر ، استمر ، اعترف واقسم بدينك أنك ارتكبت كل هذه الجرائم . افعل كل ما فى استطاعتك لتثير ثائرتى وغضبى .

— هذا العالم يا أغا عالم ظالم لثيم . الاخيار فيه جوعى معذبون ، والأشرار شباع ينعمون بفاخر الطعام والشراب ، ولهم السلطان . يسوسون الأمور بغير وازع من دين أو ضمير أو محبة . عالم كهذا لا بد أن يباد ، فالظلم عمره قصير . سأنتقل بكل قوتى أجوب الشوارع وأعتلى الاسطح وأصيح بأعلى صوتى : « تعالوا أيها الجوعى والمقهورون ، تعالوا أيها الأبرار الصالحون ، تعالوا لتتحد سويا ونضرم النار فى أرجاء الدنيا لعل الأرض تنظهر ، وتخلص نفسها من الأساقفة والأعيان والأغاوات .

— استمر ، استمر يا مانولى عليك اللعنة . هذه هى الطريقة المثلى بدأت نار الغضب تتأجج فى صدرى .

— أود يا أغا لو استطعت أن أدعو الى الثورة لتمتد فوق الارض كلها ، وأن أهيح الشعوب جميعها ، الابيض والاسود والاصفر ، وأوحدهم جميعا فى جيش قوى لا يقهر ، واقتحم به القسطنطينية وكل المدن الكبيرة العفنة والقصور الدنسة العاهرة ، وأشعل النار فيها جميعا .

— استمر ، استمر وأقس فى حديثك أكثر وأكثر . هذه هى الطريقة

المثلى .

— ولكنني لست الا شيطانا بانسا ، لست الا تابعا ، لا حول لي ولا قوة ، ضائعا وسط قرية في حضيض أناتوليا • وصوتي ضعيف لا يمتد الى ما وراء ليكوفريس وساراكيئا • لذلك أقف ما بين القريتين ، وأعلن على الملأ : « هبوا أيها الاخوة الجوعى والمقهورون ، احملوا سلاحكم • الى متى نظل عبيدا ؟ الى متى نمد رقابنا فى استسلام لسيف الاغا ؟ هبوا فقد دقت الساعة • الحرية أو الموت • لن يعطونا حقوقنا طواعية واختيارا ، بل سننتزعها بحد السيف • ليجمعكم جيش واحد أيها الاخوة المسحوقون تحت الأقدام ، ولتنقضوا على القرية المتختم أهلها • اقتلوا كل من يقاومكم • احرقوا بيت الشيخ لاداس ، هذا البخيل القذر • بيت بطرياركاس بيتكم ، فادخلوه وتحصنوا فيه • وبعد أن تثبت أقدامكم ، ويشتد بأسكم وتظفروا بالأغنياء والأعيان هبوا ثانية وانقضوا على الأغا ، وامحوا آثاره من فوق أرضنا اليونانية ، ألقوا به الى الجحيم ، ثم .. »

ولكن مانولى لم يتم جملة ، اذ قفز الاغا يرغى ويزيد ، وأمسك برقية مانولى ، وهزه فى ثورة وعنق ، وألقى به الى الأرض ، وفتح الباب ورفسه رفسة طوحته فوق السلم ، وهوى يتدحرج فوق الدرج رأسه قبل قدميه • وتعقبه الأغا ، وأمسك به ثانية من رقبته ، وجرجه فوق أرض الفناء ، وفتح بقدمه الباب المطل على الميدان •

وجفل الحشد فرقا • كان الأغا يرغى ويزيد ، لاهث الانفاس ، ممتقع الوجه ، ممسكا بمانولى يهزه من قفاه • وظهر من خلفه بانايوتى وقد انبسطت أسارير وجهه المتورم الازرق ، وأشار بيده الى أهل القرية أن اقتربوا • كان القسيس جريجوريس أول من هرول مندفعاً الى الأمام ، وفتح ذراعيه ليهم بالقبض على مانولى •

ودوى صوت الاغا أجش يخنقه الغضب :

— خذوه ، اقتلوه ، قطعوه اربا اربا ، ليأخذكم الشيطان جميعا •

ثم دفع مانولى الى الخارج ، وصفق الباب من خلفه • وانقض عليه القسيس بكل قوته ، مفتبطا مسرورا • وأمسك بمانولى من أحد كتفيه ، وأمسك بانايوتى بالكتف الآخر • وأحاط به الحشد فى عواء وصراخ وانهالوا عليه ضربا وبصقا • وحملوه الى الكنيسة •

كان الليل قد أرخى سدوله ، وأظلمت الدنيا ، وغابت النجوم عن السماء ، وتلبدت قطع من الغمام الاسود الكبيرة ، ولمعت على البعد ناحية الغرب ومضات برق حزينة ، باهتة ، خرساء •

ومروا فى طريقهم بشجرة السنار • وأنشأ الحشد اللاهث برائته فى مانولى ، وكفوا عن الصراخ ، وحث الشمساس خطاه وتقدم الجمع ، وأخرج من جرابه مفتاح الكنيسة الضخم ، وفتح بابها على عصراعيه • وتدفع الناس الى الداخل وراء القسيس ومانولى • كانت المصابيح الفضية الثلاث الكبيرة مضاءة ، واحد أمام أيقونة المسيح ، والثانى أمام أيقونة العذراء مريم ، والثالث أمام القديس يوحنا المعمدان ، واحتوى الظلام القديسين والشهداء الآخرين ، الا كبير الملائكة ميشيل ، زاهق الارواح ، فقد انعكس عليه ضوء مصباح العذراء • تراه باسطة جناحيه عند باب المنشدين الصغير ، أحمر القدمين كأنهما قدما لطاقر الحجول • وعبقت الكنيسة برائحة البخور والشمع ••

أطبق القسيس بكلتا يديه على رقبة مانولى • وجره فوق الارض حتى وصل به الى مكان المنشدين • ثم طرحه أرضا ، وأوقعاه على ركبتيه أمام ملائكة الموت •

كان مبتهجا سعيدا أن رأى مانولى تحت رحمته • فقد بات القصاص الآن مؤكدا ، حلوا ، قريب المنال • وعقدت الفرحة لسانه فلم يستطع أن يفتح فمه ويتكلم • جفت الكلمات فى حلقه فلم تخرج من فمه غير صرخات بع •

وركل بانايوتى بقدمه مانولى الذى شمع برأسه يتفرس فى هدوء فى قدمى رئيس الملائكة الذى انتعل حذاء له رباط أحمر • ودفع الشيخ لاداس الحشد جانبا ، واقترب مبهور الأنفاس من مانولى وبصق عليه • وتزاحم الناس حول الضحية ، ينتظرون فى شوق ولهفة اللحظة التى يعطى فيها لقسيس جريجوريس اشارته • كانوا يلعبون شفاههم مقدما ، فقد استبد بهم فجأة ظمأ حارق •

دخل القسيس جريجوريس المذبح ، وارتدى رداءه الموشى بالذهب ووقف أمام أيقونة المسيح • وألقت المصابيح الثلاثة بضوئها فوق وجهه الذى يتصبب عرقا • ونكئ الجرح الذى أصاب جبهته ، فنزف الدم منه وغطى لحية القسيس بلونه الأحمر •

وأشار الى بانايوتى بيده ، فتأبط مانولى تحت ذراعيه ، وجرجه تحت قدمى القسيس • وخطا الحشد خطوة أخرى الى الامام مبهور الأنفاس •

وفى رزانة ووقار ، قال القسيس بصوت هادر :

— باسم الأب والابن والروح القدس .
ورسم الحشد علامة الصليب وهو يجيب :

— آمين .

وصاح القسيس جريجوريس :

— اركعوا يا اخوتي ، ولنصل للرب عسى أن يتنزل من سماواته العلى
الى كنيستنا ويلهنا العدالة والسداد . يا الهى ، ها هو ذا طريد الكنيسة
ملقى تحت قدميك ، يرتعد فرقا فى انتظار سيفك البتار ليهوى على رقبتك
سرق ، وقتل ، وأشعل الحرائق ، وبذر الشقاق بين الاخوة ، وفرق ما بين
الخطيبين ، وزرع الحقد والكراهية بين الأب والابن ، وأثار المهلهلين
والخارجين على القانون وحرصهم على التمرد ، واقتحم بهم قريتنا ، وسرقوا
مؤننا وامتعنا !

لو بقى هذا الآدمى على قيد الحياة يا الهى ، فالدين والشرف فى خطر
ولو ظل هذا الآدمى حيا فان فى وجوده خطرا يهدد المسيحية والجنس
اليونانى ، هذين الأملين العظيمين الباقيين على ظهر الارض . استأجره
العدو ، ابن الشيطان ، لكى يمحو اسمك يا الهى من على ظهر الارض .
اجتمعنا هذا المساء فى بيتك يا الهى لنصدر حكما على هذا الاثيم الكافر .
تنزل علينا يا صاحب القوة والجبروت من قبة الكنيسة وأصدر حكما
عليه . نسألك أن تسدد خطانا ونحن نمد أيدينا اليه لتنفيذ فيه حكما
يا الهى .

ووطىء بقدمه ظهر مانولى ثم عاود الصياح :

— فقدت ابنتى وأخى ، وهو المجرم الاثيم . بذر الشقاق والفتن فى
قريتنا ، وهو المجرم الاثيم . اقتحم عدو المسيح أرض قريتنا ، وها هو
ذا ، من أطؤه بقدمى ، الذى فتح له الباب . وأصبحت سارا كينا تعج
بأعشاش الزنابير ، وها هو الذى عرضنا لأسرابهم السامة . أيها الاخوة
المسيحيون ، الحكم لكم ، صوت الشعب من صوت الرب ، فاحكموا عليه .

لم يكذب ينطق القسيس بعبارة هذه حتى تعالت صيحات الحشد
فى هياج وغضب ، وتحت المصابيح الفضية الثلاثة لمعت عيون تقدر شررا
وكراهية ، وتألقت أسنان تصر غيظا ، ولوحت قبضات أيدي ، والتوت
شفاه . وجلس بانايوئى القرفصاء ، يحملق فى عيني مانولى ، كأنه
بخشى أن يفلت منه . اذا تحرك مانولى يمينا ، تحرك معه ، واذا تحرك

يسارا ، تحرك معه ، متأهبا لكي ينقض عليه في أية لحظة ويمسك برقبته .

وجلس الشيخ لاداس القرفصاء فوق بلاط الكنيسة ، يتذكر بيته المحترق ، وزيته ونبيذه المهراق ، وانخرط في نحيب ونواح .

وانحنى القسيس جريجوريس فوق مانولى الذى جلس هادئا فوق درج المذبح . صاح فيه :

- قف أيها الملعون ، يا طريد الكنيسة . هل سمعت قصة المأسى التى جلبتها الى قريتنا ؟ هل سمعت قصة جرائمك ؟ هل لديك ما تدافع به عن نفسك ؟

ورد مانولى فى هدوء :

- لا ، لا شئ .

- هل تعترف بأنك سرقت ، وحرقت ، وقتلت ؟

- أعترف أنني اقترفت كل هذا .

- هل تعترف أنك اشتراكى ؟

- اذا كانت كلمة اشتراكى تعنى ما أومن به في نفسى فنعم ، أنا اشتراكى يا أبانا . المسيح وأنا اشتراكيان .

وتعالت صيحات الحشد المولولة ، يتردد صداها فى كل أرجاء الكنيسة حتى تصل الى سمع المسيح العلى القدير ، وهو فى عليائه يرقب المشهد . ووقف الشيخ لاداس يعوى :

- دعنا نقتله . دعنا نقتله . لسنا بحاجة الى شهود آخرين . فقد اعترف . اتركه لنا فنقتله .

والتهب حماس الحشد ، ولوحوا بقبضاتهم . وجاروا :

- الموت ، الموت .

انتزع مانولى نفسه من بين ذراعى بانايوتى . ونزل من فوق درج المذبح فجعل الحشد . وخطا مانولى خطوة الى الامام ، وذراعا معقودتان الى صدره ، وقال :

- اقتلونى ...

وما أن أبصره الجمع يتقدم هكذا ، أعزل ، هادئا ثابت الجنان ، تحت ضوء المصابيح التي كللت رأسه الشقراء بهالة من نور ، حتى ارتد الحشد الى الوراء مبهوتا ، وأفسح ، عن غير وعى منه ، مكانا مانولى • وران صمت ووجوم ، حتى لو أن مانولى قصد الباب وانطلق هاربا فى تلك اللحظة فلن يسد أحد عليه الطريق • ولكن مانولى توسط صحن الكنيسة ، ووقف تحت أيقونة الرب ذى القوة والجبروت التى تحتل القبة ، وبسط ذراعيه من جديد ، وصاح بهم فى ضراعة :

– اقتلونى •••

وتقدم القسيس جويجوريس ، وأشار الى بانايوتى أن اتبعنى •
وأصدر أمره بصوت مخنوق :

– اغلقوا الباب بالمزلاج ، اغلقوا الباب والا سيهرب •

واندفع الشمس باقصى سرعته ، وأغلق الباب ثم أسند ظهره اليه •

وسرت رعدة بين الناس عند سماعهم صوت القسيس • وانتابهم خوف فجائى حين خطر بأذهانهم أن الفريسة قد تتمكن من الفرار • وتزاحموا فى فزع حول مانولى يحاصرونه ، وأحس مانولى بأنفاسهم الحارقة تلمح وجهه •

وأحس مانولى ، للحظة ، بقلبه يسقط بين جوانحه ، واستدار ناحية الباب – كان مغلقا • ونظر الى المصابيح الثلاثة المضاءة ، والأيقونات من تحتها أثقلتها القرابين : المسيح متورد الوجنت ، ممشط الشعر فى حرص وعناية ، والعدراء مريم منحنية فوق طفلها غير عابئة بما يحدث تحت بصرها • والقديس يوحنا المعمدان يكرز فى الصحراء •• ورنا يبصره الى قبة الكنيسة وتأمل فى الضوء الخافت وجه الرب ذى القوة والجبروت ، يطل من عليائه على البشر ، ويرميهم بنظرة قاسية • ثم جال بعينه بين الحشد الذى يحيط به ، وخيل اليه كأنه يرى نصال خناجر تلمع فى الظلام من حوله •

وعوى الشيخ لاداس بصوت كأنه صرير :

– هيا سنقتله •

وفى نفس اللحظة دقت طرقات عنيفة على باب الكنيسة • فتحولت

الرءوس ناحية الصوت ، وان صمت مطبق ، وسمعوا صيحات غاضبة مهتاجة :

• - افتحوا ، افتحوا •

وقال أحدهم :

• - هذا صوت القسيس فوتيس •

وقال آخر :

• - وهذا صوت ياناكوس •• جاء أهل ساراكيينا لينتزعه من بين أيدينا •

واهتز الباب فى عنف حتى صرت مفاصله • ودوى بالحارج صخب شديد اختلطت فيه أصوات الرجال والنساء •

وأتى صوت القسيس فوتيس واضحا جليا :

• - افتحوا يا قتلة ، ألا تخشون الله ؟

ورفع القسيس جريجوريس يده وقال :

• - باسم الأب والابن والروح القدس أحمل هذه الخطيئة على كاهلى •
أقتله يا بانايوتى •

واستل بانايوتى خنجره ، والتفت الى القسيس جريجوريس وسأله :

• - هل أجهز عليه ببركاتك يا أبانا ؟

• - اظن فانى أباركك •

وتدافع الحشد ، وانقض على مانولى ، وتفجر الدم ، وتناثر فوق وجوهم • وسقطت بعض قطراته الساخنة الملحة على شفتى القسيس جريجوريس •

وارتفع صوت مانولى واهيا ، رقيقا ، يلفظ معه أنفاسه الأخيرة :
• يا اخوتى ••• ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، وهوى الى الأرض فوق بلاط الكنيسة الحجرى ، يئن فى هدوء وذراعه مبسوطان كأنه المسيح المصلوب •

وأثارت رائحة الدم أهل ليكوفريسي ، فانقضوا على الجسد الذى أسلم الروح ، والدم يطفح من بين شفثيه • وعض الشيخ لاداس رقبة

مانولى بأسنانه الهماء يحاول أن ينهش قطعة من لحمه • ومسح بانايوتى
خنجره فى شعره الأحمر وخضب فكه الكاسر بالدم وصاح :

– مزقت قلبى يا مانولى • وها أنذا قد قتلتك وبذلك ثار كل منا من
أخيه ، فلم يعد لى ولا عليك •

انحنى القسيس جريجوريس وملا راحتيه دما ، ورشه فوق رهوس
الحشد وهو يقول :

– لعل دمه يسقط على رهوسنا جميعا •

وتلقى الحشد قطرات الدم وهو يرتجف •

وزارت الأصوات من جديد خارج الكنيسة :

– افتحوا يا قتلة ، افتحوا •

وأشار القسيس جريجوريس الى الشماس الذى تقدم اليه مترنجا •
وأصدر اليه أمره :

– افتح الباب ، ثم تعال ثانية واغسل البلاط سريعا • لا تنس أننا
سنحتفل الليلة بميلاد المسيح •

ثم التفت الى قطيعه وقال :

– هيا بنا أيها الاخوة المسيحيون • أدينا واجبنا ، والله معنا •
وليدخل القسيس فوتيس الآن ليدفن صاحبه •

فتح الشماس الباب ، فطلعت عليهم وجوه رجال ونساء تلمع وسط
الظلام ، قلقة ، غاضبة ، تنذر وتتوعد •

وصاح ياناكوس بصوت لاهث :

– أين مانولى ؟

وأجاب القسيس جريجوريس :

– اذهبوا وابحثوا عنه • تنحوا جانبا وافسحوا لنا الطريق •

وجار القسيس فوتيس :

– ان كنت قتلته فانى أدعو الله أن يقع دمه فوق رهوسكم ورهوس
أبنائكم من بعد •

وأعاد القسيس جريجوريس ما قاله :

- اذهبوا وابحثوا عنه .

واندفع ياناكوس الى داخل الكنيسة وهو يزار :

- لقد قتلوه .

دقت الأجراس في منتصف الليل تدعو المسيحيين الى الكنيسة للاحتفال بميلاد المسيح . وفتحت الأبواب ، الواحد بعد الآخر ، وخرج المؤمنون يحثون الخطى في طريقهم الى الكنيسة وأجسادهم ترتجف من شدة البرد . كان الليل هادئا ساجيا ، قارس البرد ، وصفحة السماء خالية من النجوم . فتحت كل الأبواب عدا بيت بطرياركاس ، فقد ظل، دونها جميعا ، موصدا تصدر من داخله جلبة وضوضاء اختلطت فيها صيحات الرجال بنواح السيدات .

كان جسد مانولى مسجى فوق سرير بطرياركاس ، ملفوفا كطفل وليد في ملاءة من حرير ورثها ميشيل من جهاز عرس أمه . وأحاط به رفاقه يرنون اليه في صمت بوجوه شاحبة . ووضع ياناكوس يده على قدمي مانولى ، وانخرط في نحيب كطفل صغير ، قضى الليل بطوله يصرخ ويلطم صدره حتى أضناه البكاء ، وأعيته اللطمات ، فأسند رأسه الى قدمي صديقه يبكيه بصوت خافت . وذهب قسطنطدى الى ساراكيينا ليبحث عن ميشيل . وجلست امرأتان أو ثلاثة القرفصاء في زاوية من زوايا الحجر ، واتجهن الى الحائط ، ينحن ويلطمن صدورهن .

وانحنى القسيس فوتيس فوق صديقه ينظر اليه على ضوء المصباح ، ويتأمل وجه الهادىء الشاحب : طعنة سكين مزقت خده الأيمن بطوله حتى الذقن . وكان القسيس بين حين وآخر يمد يده يسوى بها شعر رفيقه الميت ، ثم يغيب عنه ويفرق في تأملاته . فقد أتته العجوز مارثا منذ لحظات وحذرته من أن الأغا أوفد رسولا الى المدينة يحمل رسالة عاجلة يطلب فيها كتيبة من المشاة والخيالة ، ويعلن فى رسالته أن الاشتراكيين اقتحموا ليكوفريسي ، وذكر أيضا أنهم ينوون قتله .

وتفكر القسيس فوتيس وهو يقبض بجماع يديه :

- سيأتون الى هنا بأسلحتهم ومدافعهم ، كيف لنا أن نقاومهم ؟ سيبيدوننا عن آخرنا . مرة أخرى يجب أن نبدأ المسيرة ولا نضيع الوقت . ولكن الى متى ، يا الهى ؟ الست الها طيبا خيرا ؟ الست عادلا ؟ انى عاجز عن الفهم

ومد يده ، وربت بها فى رقة وحنان على وجه مانولى ، وتمتم :

- يا عزيزى مانولى ، جدت بحياتك ولكن دون جدوى . قتلوك لأنك حملت خطايانا على كاهلك ، وصححت قائلا : « أنا الذى سرقت ، أنا الذى قتلت ، وأنا الذى أشعلت النار فى القرية . أنا ولا أحد سواى » . كل هذا لتبقى علينا حتى نمد جذورنا فى الأرض فى هدوء وسلام ولكن دون جدوى يا مانولى . ضحيت بنفسك ، وافتديت الناس بروحك ، ولكن دون جدوى

• أنصت القسيس فوتيس الى دقات الجرس المتتابة فى تناغم تده . فى فرح لتعلن على الملائكة ميلاد المسيح وأنه تنزل الى الأرض ليخلص العالم وهز القسيس رأسه ، وندت عنه تهيدة عميقة . وتمتم قائلا : « لا جدوى يا يسوع ، لا جدوى . مضى على صلبك ألفا عام ولا زال الناس يصلبونك من جديد . أى يسوع ربى ، متى ستولد يا الهى ولا تصلب ثانية ، ولكن تعيش بين ظهرانينا خالدا الى الأبد ؟ »

قضى القسيس فوتيس الليل بطوله حتى مطلع الفجر مسندا رأسه الى حافة السرير الذى تمدد فوقه مانولى . ثم أغمض عينيه وأخذته سنة من النوم . ورأى فى اغفائه حلما . رأى أنه يتعقب عصفورا أصفر صغيرا ، من نوع الكنارى ، تحت شجرة خضراء مورقة . وتراءى له أنه بدأ الطراد وهو لا يزال طفلا صغيرا . ومضت به السنون ، وشب وترعرع وأصبح شابا ثم رجلا أسود الشعر والشارب . وظلت السنون تمضى تباعا حتى وخط المشيب شعره ثم ابيض تماما ، وأصبح الآن شيخا ولا زال يتعقب الطائر الأصفر ولكن دون جدوى . لم يوفق فى الإمساك به يمد يده ليمسك بطائر الكنارى الصغير فيفلت من بين يديه ويقفز من غصن الى غصن ، ومن زهرة الى زهرة ، ويصدح كالمجنون

لم يفغ القسيس فوتيس غير طرفة عين ، ولكنه عندما استيقظ خيل اليه أنه عاش آلاف السنين ، قضاهما وهو يتعقب طائر الكنارى الصغير دون أن ينال منه التعب بل كان يشعر بقوة متجددة دائما ولا يكمل أبدا ترى هل كان ذلك طائرا حقا ؟ شعر القسيس فوتيس فى أعماقه أن ذلك الطائر الأصفر الصغير الذى كان يغرد ويصفر كأنه يسخر منه ورأسه مرفوع الى السماء ويصدح كالمجنون ليس أبدا طائر كنارى فى حقيقته

وتمتم قائلا :

- ليكن هذا العصفور أى شىء ، فلن أعبأ بذلك ، ولكننى سأظل
أنتعبه حتى الموت ...

وهب واقفا ، وصاح صيحة عالية • دعا رفاقه ، رجالا ونساء ،
وجمعهم فى الفناء الكبير • واستجاب لندائه كل من قضاوا ليلتهم متفرقين
بين الحدائق وبساتين الكرم ومزارع الزيتون ، وخفوا اليه والتأم شملهم
فى الفناء •
وصاح بهم :

- يا أولادى ، ضعوا قلوبكم فوق راحتكم فان ما سأقوله لكم شاق
على النفس عسير ، ولكننا أولوا عزم وقوة تمرسنا على تحمل الصعاب ،
وسوف نحتمل هذا أيضا • علمت بالأمس أن جيشنا من الأتراك قوامه
فرقتان من الخيالة والمشاة المسلحة بالمدافع ، قادم الى ليكوفريسي ليطردنا
من هنا • هبوا يا أطفالى خفافا حتى لا تضيع منا دقيقة واحدة • احملوا
على ظهوركم كل ما تستطيعون ولننطلق فى طريقنا • لنترك ليكوفريسي
وساراكيينا • لم نعد الآن غير حفنة من اليونانيين نهم على وجوهها فى
الارض • يجب أن نوطد العزم ، ونعض على النواجذ ، ونمضى فى طريقنا •
لا ، لن يتالوا منا شيئا فنحن ملح الأرض ولن يقضوا علينا • ان جنسنا
خالد لا يموت •

وأمسك لوكاس العملاق بعلم القديس جورج وفتح الباب ، وقال :

- لا تجزع يا أبانا ، فان جنسنا خالد لن يموت • هيا يا اخوتى ،
اتبعوا القديس جورج ، وسوف نرى الى أين يمضى بنا الطريق •

واندفع الناس جميعا الى مخازن بطرياركاس الغنية ، وقسم ياناكوس
الدقيق والزيت والنبيد • ووزع القسيس فوتيسى الملابس والبطاطين
والملاءات • وخلصوا الباب من مفصله ووضعوا عليه جثمان مانولى ، وحمله
أربعة من الفتية الأشداء • وحمل الشيوخ الأيقونات ، وسار القسيس
هوتيس فى مقدمتهم ، وسار الجميع بخطى حثيثة الى ساراكيينا •

وصاح القسيس فوتيسى :

- سنقصد أولا جبل ساراكيينا حيث نوارى جثمان عزيزنا مانولى
التراب ، ثم نحفر رمس عظام أجدادنا ونحملها معنا ونبدأ المسيرة من

جديد • الشجاعة يا ابنائى • لاتخشوا شيئا ، عضوا على النواجذ ، فنحن خالدون •

وما أن بلغوا بئر القديس بازل حتى توقف القسيس فوتيس وانحنى عليه لحظة ثم قال :

— يا أطفالى ، تنزل يسوع المسيح اليوم الى الأرض ، فلنحمله معنا :
معنا أمهات سوف يرضعنه • عيد ميلاد سعيد يا ابنائى وبناتى •

وسار ياناكوس فى مؤخرة الركب ، ووضع أحمالا ثقالا على ظهر حمازه ، وسار الى جواره مطرقا برأسه صامتا • بدا له العالم وكأنه يزداد اظلاما ساعة بعد ساعة • فمسح ياناكوس عينيه ، وسطح العالم بعد ذلك بضوء واه شاحب ، ضوء صباح يوم من أيام الشتاء • وربت على كفل حماره فى رقة وحنان ، فهز الحيوان الحبيب ذيله فرحا مبتهجا ، واستدار برأسه ، ونظر الى صاحبه ورفيق طريقه ، فهو لم يفهم شيئا على الاطلاق • ماذا أصاب صاحبه ؟ لماذا يسير صامتا لا يتكلم ؟ لماذا لم يربت بيده على بطنه ورقبته وأذنيه كعادته كل يوم ؟

واتخذوا الطريق الوعر الى ساراكيينا وبدأوا الصعود • سار فى المقدمة مانولى ، مسجى فوق الباب ، ومن خلفه صحابه ، رجالا ونساء ، يلفهم صمت ثقيل • كان النهار شفافا رائقا ، وكنيسة النبی ايليا الصغيرة تتألق مع بواكير أشعة الشمس • وسطعت الجبال ، بعضها بلون وردى ، وأخرى زرقاء شاحبة •

وقف قسطندى أمام الكهوف فى انتظارهم ، فقد سبقهم الى هناك لمقابلة القسيس فوتيس • وقال :

— يا ابانا ، ميشيل لن يبرح قمة النبی ايليا ، سيبقى هناك • أخذ معه صرة ملابس وانجيله المفضض ، وضميرتى ماريورى ، ولزم صومعة الراهب القديمة • وقال لى « انى سعيد بمقامى هنا ، لا أريد أن أرى البشر ثانية ، الأخيار منهم والأشرار على السواء ، لا أحد منهم على الاطلاق • سأعزل الدنيا زاهدا ، وسيكون مقامى هنا حيا وميتا » •

وهز القسيس فوتيس رأسه ، غارقا فى تفكير عميق • وقال :
— من يدرى يا عزيزى قسطندى ، ربما كان على صواب • دعنا لا نفسد عليه هدوءه • له طريقه ولنا طريقنا ، ولنمض نحن فى طريقنا •
وسأله قسطندى فى قلق :

- وما هو طريقى يا أبانا ؟

وضع القسيس راحته على رأس صديقه المؤمن كأنه يباركه ،
وأجاب :

- بعد أن نفرغ من دفن مانولى عد الى بيتك توا يا قسطندى • ارجع
الى زوجك وأطفالك ، فهذا طريقك •

وضعوا مانولى على الأرض أمام الكهف الذى استخدموه كنيسة لهم •
وارتدى القسيس رداءه الدينى ، وبدأ يرتل طقوس الدفن ، ومن حوله
رجاله يرددون التراتيل • وكانت تتردد بين الحين والحين أصوات نشيج
ونحيب • وتوقف صوت القسيس المتهدج فجأة عن الترتيل اذ لم يستطع
أن يكتم نشيجه ، بينما واصل الجمع التراتيل •••

وانحنى الجميع فوق حبيبهم الراحل ، وطبع كل منهم قبلة على
جبينه فى هدوء وذرفوا الدمع حزنا عليه • ووقف القسيس فوق حافة
القبر المفتوح ، وحاول أن يودع مانولى ببضخ كلمات ، ولكنه أحس
بجفاف فى حلقه ، فلم تخرج الكلمات من فيه ، وفجأة انفجر القسيس فى
نشيج مسموع •

واندفعت امرأة عجوز ، وألقت بنفسها فوق الجسد الميت ، حلت
شعرها الأبيض وصرخت صرخة مولولة ، وودعت مانولى قائلة :

- اسم هذا الفتى البار مكتوب على صفحات الثلج ،

أشرفت الشمس ، وذاب الثلج ، وحمل اسمه معه فوق المحيطات •

وبعد لحظات رفع القسيس فوتيس يده ، وأعطى إشارة الرحيل •

وصاح :

- باسم يسوع المسيح تبدأ مسيرة الخروج من جديد • تشجعوا

يا أطفالى •

ومرة أخرى استأنفوا مسيرتهم التى لا تنتهى ، وقد ولوا وجوههم

شطر المشرق •

خاتمة

الفهرس

صفحة	الموضوع
٣	تصدير
١١	ألبحث عن يهودا
٣٩	مطاردة الأخوة
٧٥	قديسون ولصوص
١١٣	مصارعة مع الكبش
١٤٧	الشيطان وقناع المسيح
١٨٤	الكابتن يموت
٢١١	الرب صانع خزف .. يصنع مخلوقاته من طين
٢٤٢	جريمة قتل في القرية
٢٦٩	الفداء
٢٩٧	الطريق الصاعد
٣٢٣	عربة من نار
٣٥٧	لعنة القسيس
٣٨١	العميل
٤٠٠	أنت الذي قتلته .. أنت
٤٢٧	مناوشات أولية
٤٥٠	رحلة بأقدام عارية
٤٧٧	أما الجسد
٤٩١	الذئاب تبحث عن فريستها
٥٠٩	الوجه القاسي للمسيح
٥٢٦	سفك الدماء
٥٤٣	لا جدوى يا يسوع .. لا جدوى

المستقبل العربي للنشر والتوزيع

١٠ شارع سليمان باشا
المنزه من شارع ابراهيم اللطفي
زوكسى (مبنى الخديده) / القاهرة
جمهورية مصر العربية



الشمع ٣٦٠ قرشاً مصرياً